

إدوارد هيبون

اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها

الجزء الأول



الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

محسنة عطية

اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها

الجزء الأول

تأليف إدوارد جيبون
ترجمة محمد علي أبودرة

مراجعة وتقديم
أحمد نجيب هاشم

الطبعة الثانية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٧

هذه هي الترجمة العربية المختصر كتاب

*EDWARD GIBBON'S
DECLINE AND FALL OF THE ROMAN EMPIRE*

الذي أعده

D. M. Low

فهرس

(الفصل الثامن والتاسع حذفاً من الطبعة المختصرة لتتقدم معلوماتها)
الموضوع . الصفحة

٩	مقدمة الطبعة العربية الأولى
٢٩	مقدمة الطبعة الانجليزية
٣٩	اعتراف بالفضل

العصر الذهبي للأنطونيين

٤٣	تمهيد
----	-------

الفصل الأول (٩٨ - ١٨٠ م)

٤٨	امتداد الامبراطورية الرومانية
٥٥	فكرة عامة عن الامبراطورية الرومانية

الفصل الثاني (٩٨ - ١٨٠ م)

٥٦	الاتحاد والازدهار الداخلى فى الامبراطورية الرومانية
٦٢	الولايات
٦٨	الآثار الرومانية
٧٥	تحسين الزراعة

الفصل الثالث (٩٨ - ١٨٠ م)

٨٢	دستور الامبراطورية الرومانية
٩٠	فكرة عامة عن النظام الامبراطورى

تحدى النظام القديم

الفصل الرابع (١٨٠ - ١٩٢ م)

١٠٢ عصر كومودس

نمو الاوثوقراطية العسكرية وتنفق الروح الشرقية

الفصل الخامس (١٩٢ - ١٩٧ م)

١١٧ البريتوريون يبيعون الامبراطورية

١٢١ سبتيوس سيفيروس

الفصل السادس (٢١١ - ٢٣٥ م)

١٢٦ اسرة سيفيروس

١٢٩ كاراكلا وجيتا

١٣٦ الاجبابالوس

١٣٩ الاسكندر سيفيروس يتولى العرش

تفكك الامبراطورية

الفصل السابع (٢٣٥ - ٢٤٨ م)

١٤٧ امبراطور من المتبردين

١٥٤ الجورديانيون

١٦١ فيليب العربي

الفصل العاشر (٢٥٣ - ٢٦٨ م)

١٦٣ الكوارث العامة في عهد فاليريان وجالينوس

١٦٨ غارات القوط

١٧٥ غزو الفرس لآرمينيا ، واسر فاليريان

انحسار المد

الفصل الحادى عشر (٢٦٨ - ٢٧٥ م)

١٨٩ زنوبيا ومملكة تدمر

١٩٦ انتصارات اوريليان ووفاته

النظام الامبراطورى الجديد

الفصل الثالث عشر (٢٨٥ - ٣١٣ م)

٢٠٥	• • • • •	حكم دقلديانوس وشركائه الثلاثة
٢٠٩	• • • • •	انتصاره ونظامه الجديد
٢١٤	• • • • •	نشوء مراسم البلاط
٢١٦	• • • • •	اعتزال دقلديانوس ووفاته
٢٢١	• • • • •	اضمحلال الفنون

الفصل الرابع عشر (٣١٥ - ٣٢٣ م)

٢٢٤	• • • • •	قسطنطين فى روما
٢٢٦	• • • • •	اصلاحاته التشريعية

ظهور المسيحية

الفصل الخامس عشر

٢٣١	• • • • •	خمس أسباب لنمو المسيحية
٢٧٥	• • • • •	الظروف المواتية لتقدمها
٢٨٢	• • • • •	اعداد المسيحيين الاولين واحوالهم

الفصل السادس عشر (٢٥٨ - ٣١٣ م)

٢٨٨	• • • • •	سياسة الحكومة الرومانية ازاء المسيحيين
٢٩٦	• • • • •	موقف الاباطرة من المسيحيين
٣١٠	• • • • •	استشهاد مسبريان
٣١٥	• • • • •	تنوع سياسة الارهاب
٣٢٣	• • • • •	الكنيسة فى عهد دقلديانوس وخلفائه
٣٣٥	• • • • •	مرسوم جالوريوس للتسامح

الاتجاه نحو الشرق

الفصل السابع عشر (٣٢٤ - ٣٣٤ م)

٣٤٥	• • • • •	روما الجديدة
٣٥٠	• • • • •	تأسيس القسطنطينية
٣٥٦	• • • • •	تدشين القسطنطينية
٣٥٦	• • • • •	نظام الحكومة الجديد
٣٥٨	• • • • •	القناصل والبطاركة (النبلاء)

الموضوع	الصفحة
رؤساء الحرس • البروقنصل • الحكام •	٣٦١
وزراء القصر المسيحية • • • • •	٣٦٧
بدء النولة البوليسية • • • • •	٣٧٢
الفصل الثامن عشر (٣٢٤ - ٣٣٧ م)	
شخصية قسطنطين • • • • •	٣٧٥
أسرة قسطنطين • • • • •	٣٧٨
وفاة قسطنطين • • • • •	٣٨٥
نهوض فارس في عهد شابور الثاني • • • • •	٣٨٨
الفصل التاسع عشر (٣٥٥ - ٣٥٩ م)	
عهد جوليان • • • • •	٣٩٠
الادارة المدنية في الغال • • • • •	٣٩٢
حبه لمدينة باريس • • • • •	٣٠٤
الاعتراف بالمسيحية • بداية الهرطقة	
الفصل العشرون (٣٠٦ - ٣٣٧ م)	
تحويل قسطنطين الى المسيحية • • • • •	٣٩٩
مرسوم التسامح • • • • •	٤٠٢
رؤيا قسطنطين • • • • •	٤٠٧
تعميد قسطنطين • • • • •	٤١٢
اقرار المسيحية بمقتضى القسانون • • • • •	٤١٦
التمييز بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية • • • • •	٤١٨
الفصل الحادى والعشرون	
مذهب آريوس • • • • •	٤٢٠
مجمع نيقيا والطبيعة الواحدة • • • • •	٤٢٣
الاباطرة والجدل حول مذهب آريوس • • • • •	٤٢٨
اخلاق اثناسيوس ومغامراته • • • • •	٤٤٥
مجالس آزل وميلان • • • • •	٤٥٣
الطابع العام للطوائف المسيحية • • • • •	٤٦١

مقدمة الطبعة الأولى العربية

صدر كتاب ادوارد جييون « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وستوطها » في الربيع الاخير من القرن الثامن عشر ، اى انه قد اوشيك ان ينتضى على ظهوره لأول مرة نحو قرنين من الزمان ، ومع ذلك ظل حتى يومنا هذا ، يحتل بين اسفار التاريخ وذخائر الادب مكانا ملحوظا ، فكم اعيد طبعه كاملا او مختصرا في مجموعة من المجلدات او في مجلد واحد ، كما ترجم الى معظم اللغات الاوربية ، وكما علق عليه النقاد والمؤرخون ، وكما رجع اليه الباحثون واستقى منه الدارسون !!

تعريف بالمختصر :

والكتاب الذى نضعه اليوم بين ايدي قراء العربية ترجم عن مختصر في ثلاثة مجلدات اصدره في الولايات المتحدة الامريكية في سنة ١٩٦٠ الدكتور د. م. لو D. M. Low الذى كان محاضرا في الدراسات القديية بجامعة لندن . ثم اعيد طبعه في ١٩٦٢ ، ١٩٦٦ في مجلد واحد يضم نحو الف من الصفحات ، وأوضح في مقدمته التى اثبتناها بنصها ، النهج الذى سار عليه في مختصره هذا ، والحق أنه التزم فيه جانب الحكمة والدقة ، فهو لم يغير كلمات المؤلف وانما حذف من الأصل فصولا بمرمتها رأى أن حذفها لا يؤثر في السياق العام لفكرة جييون او منهجه في كتابه ، ولا ينتقص من قيمة موضوعه بصفة عامة ، لأن هذه الفصول المحذوفة تعالج تفصيلات قد لا تهتم القارئ العام ، كذلك حذف صاحب المختصر أجزاء قليلة من الفصول التى ابقى عليها في مختصره ، وفي الوقت نفسه أوجز المحذوف في سطور قليلة اُبقت عليها الترجمة العربية في مواضعها .

ولما كان من العسير أن تفصل التاريخ عن مؤلفه أو المؤلف من عصره .. فيجدر بنا أن نلم أولا بسيرة حياة ادوارد جيبون والعوامل التي شكلت شخصيته واثرت في كتاباته . والجدير بالذكر أن جيبون دون سيرة حياته وخطبات نفسه في كتاب آخر له : « مذكرات عن حياتي وكتاباتي Memoirs of my Life and Writings » ، وفيه الكثير مما يشوق القارئ ، ومما يدعو الى الاعجاب ، وما يمكن أن تكون فيه عظة وعبرة .

نشأة جيبون :

ولد ادوارد جيبون في ٢٧ أبريل ١٧٣٧ في بلدة بنتنى Putney في مقاطعة سري Surrey بجنوب إنجلترا من أسرة غنية عريقة نشأت أصلا في بلدة رولفندن Rolvendon بمقاطعة كنت Kent وكان أبوه آنذاك عضوا في البرلمان الإنجليزي ، ويشير مؤرخنا الى مولده فيقول : « خليف بي أن أذكر ما حيتني به الطبيعة ، فقد ولدت في بلد تزدهر فيه الحضارة ، في عصر يشع فيه نور العلم والمعرفة ، في أسرة ذات مكانة رفيعة ابقسم لها الحظ » ، وكان ادوارد جيبون الأخ الأكبر لخمس من الأخوات وأخ واحد ، ماتوا جميعا في سن الطفولة . أما هو فكان حتى السادسة عشرة من عمره ضعيف البنية هزيل الجسم الى درجة غير عادية ، غالبا ما انتطح معها الرجاء في بقائه على قيد الحياة . ومن أجل ذلك تعثر في دراسته الأولى ، وكثيرا ما أقعده المرض عن مواصلة تعليمه في انتظام أو عن مواظبته على مقاعد الدرس ، وهنا تبرز منذ اللحظة الأولى أروع عبرة في حياته ، تلك هي أنه علم نفسه بنفسه ، وبني مجده وشهرته بجهوده وحدها ! .

حياته الدراسية ، ولمه بالقراءة :

بدأ جيبون تعلم القراءة والكتابة والحساب في البيت ، ثم بدأ تعلم اللاتينية على يد مدرس خاص اسكتلندي اسمه جون كيركبي ، ولما بلغ الثامنة من عمره التحق لأول مرة بمدرسة بنتنى ، ثم انتقل منها في العام التالي الى مدرسة داخلية هي مدرسة كنجزتن على نهر التيمز وعكف على دراسة اللغة اللاتينية ، ولكنه لا يتحدث في إبتهاج عن دراسته ولا عن المدرسة نفسها فهو يقول في مذكراته : « لقد اشتريت معرفة النحو اللاتيني بثمن باهظ من دموع ذرفت ودهاء نزلت » ، وأولع في هذه المدرسة بقراءة ترجمة الشاعر بوب Pope لأعمال هوميروس وترجمة درايدن Dryden لأعمال فرجيل ، كما قرأ كتاب الف ليلة

وليلة مترجها الى الانجليزية ، ولكنه لم يمكث في هذه المدرسة أكثر من عام فقد توفيت والدته وهو في العاشرة من عمره ، وانتقل أبوه الى مقاطعة هامبشير Hampshire .

فضل خالته عليه :

وبقى جيبون في بيت جده لأمه ، تحت رعاية خالته كاترين بورتين Catherine Porten ويبدو أنه في العامين اللذين قضاهما في كنف هذه الخالة العزيزة زاد ولعه الشديد بالقراءة ، ذلك الولع الذي لازمه وملك عليه نفسه طوال حياته ، مستفيدا الى اكبر حد من مكتبة جده ، ولشجعت خالته على ذلك ، وهو نفسه يعترف بأن هذه الفترة تميزت « بأنها اقترنت بأعظم التوفيق في نمو عقله وفكره » ، وأنه ليؤمى هذه الخالة حقها فيقول : « انى مدين لها ببقائى على قيد الحياة ، وبتحسن صحتى في باكورة ايامى ، فقد كنت طفلا هزيلا أهملته أمه ، وغفلت مربيته عن تغذيته ، وأولته من الرعاية اقلها ، حتى لم يكن يرجى من وجودها الى جانبى اى خير ، ولولا سهر هذه الخالة الكريمة ويغفلتها وعنايتها — وتلك مظاهر الأمانة الحقة — اكننت اليوم رهين الثرى ، أو لعشت معتلا كسيحا ، شقيا سيىء الخلق ، ولأصبحت عبئا ثقيلا على نفسى وعلى الناس ، وبفضل توجيهاتها رضعمت أول مرة لبان المعرفة ، وأعملت العقل ، وتذوقت القراءة التى لا تزال اكبر متعة لى في حياتى ودعامة مجدى . انى لم اتلقن عنها اللغة أو العلوم ، ولكنها وايم الحق ، أكثر من لقيت من المعلمين نفعا » .

وفي أواخر سنة ١٧٤٨ انشأت هذه الخالة بيتا يقيم فيه طلاب مدرسة وستمنستر بلندن فكانت تديره بنفسها ، فرافقها جيبون وألحق بالمدرسة ذاتها في يناير ١٧٤٩ ، ولكن ما لبث ان عاوده المرض والهزال فأرسلته خالته للاستشفاء تارة في مدينة بلث وتارة اخرى في مدينة ونشستر ، وتنقل من معلم الى معلم بل من طبيب الى آخر ، ولكن بقيت الكتب معلمه الأول والأخير ، وازداد غرامه بالتاريخ ، وتلفتت شهيته للاستزادة منه ، فجال فيه وصال دون ترتيب أو نظام ، وقرا كل ما وصلت اليه يداه من مختلف العصور ، فقرأ هوراس Horace ومرجيل Virgil ، وترينس Terence بل وأوفيد Ovid ، والم الماما وألميا بتاريخ الشرق ، وبذل غاية جهده في تصفح المجلدات الضخمة التى نشرها باللاتينية المستشرق بوكوك Pococke الذى ترجم من العربية بعض كتب المؤرخ أبى الفرج (أسقف حلب في منتصف القرن الثالث

عشر) — وفي إحدى زيارته لأبيه وقع لأول مرة على كتاب يعالج الحقبة المتأخرة من تاريخ الامبراطورية الرومانية .

التحاقه بجامعة اكسفورد :

وفي الثالث من ابريل ١٧٥٢ ، وهو يستقبل عامه السادس عشر ، ابل من مرضه وتحسن صحته . والتحق بكلية مجنلين Magdalen College بجامعة اكسفورد بوصفه طالبا غير متقيد على منحة ، لأنه لم يكن قد تدرج بانتظام في مراحل وسنى الدراسة المقررة في ذاك العصر ، ومن اطرف ما كتبه هو في مذكراته بهذه المناسبة قوله : « التحقت بها (جامعة اكسفورد) وعندى حصيلة من العلم والمعرفة تحير اى علامة ، ولكن على قدر من الجهل يندى له جبين اى طالب » . والحق أنه كره الكلية وكره معلمها وهاجم الجامعات الانجليزية ، حتى لقد وصف في مذكراته تلك الشهور الأربعة عشر التي قضاها في اكسفورد بأنها أشد فترات حياته خمولا وعقبا .

ايمانه الكاثوليكية :

بيد أنه في اكسفورد اتجه الى الاكثار من قراءاته في الدين ، ولعله تأثر أكثر ما تأثر بكتابات القس الانجليزى ميدلتون Middleton (١٦٨٣ — ١٧٥٠) والفيلسوف الفرنسى بوسويه Bossuet (١٦٢٧ — ١٧٠٤) وانتهى به الأمر الى أن تحول عن مذهب الكنيسة الانجليزية الى المذهب الكاثوليكي ، ولما أعلن تحوله هذا في رسالة الى والده غضب الوالد أشد الغضب ، وود لو عرف اسم الشخص الذى أغرى ابنه بهذه الفعلة الفكراء في نظره لينزل به أشد العقاب ، وخاصة لأن توانين انجلترا كانت آنذاك صارمة ضد الكاثوليك ، ويكفى للدلالة على ذلك أنه لما قامت في انجلترا بعد ذلك ببضع سنوات حركة للتخفيف من شدة تلك القوانين تظاهرت الجباهير في لندن وأحرقت بعض الأحياء سخطا واحتجاجا .

ايمانه الى لوزان :

ولم تمض على تحول جييون الى الكاثوليكية عشرة ايام حتى اوصدت أبواب جامعة اكسفورد في وجهه ، وقرر والده نقله الى لوزان بسويسرا ، وعهد به الى قسيس يدعى بانيار Pavillard أحد رجال الكنيسة الكلفنية ، وقد وصف هذا تلميذه جييون بأنه صبي نحيل الجسم كبير الرأس يتميز بقدرة بلغة على المناقشة ، مع ايراد كل الحجج التى استجدت للدفاع عن المذهب الكاثوليكي .

وربما أحس الفتى بشيء من الضيق في أيلمه الأولى في لوزان ، في بلد غريب ، نزح إليه نتيجة طرده من الجامعة وغضب أسرته عليه ، وليس له فيها أصحاب ، ولن يتيسر له عيش ناعم ، أو طعام شهى ، أو ملابس أنيقة لقاء المبلغ الزهيد الذى يرسله أبوه لفتحات إقامته في دار القس بانفيلار ، الى جانب أنه كان يجهل الفرنسية لغة أهل لوزان ، ومن ثم بدا في تعلمها بحكم الضرورة وبات بعد خمس سنوات يفكر تلقائيا بهذه اللغة التى تأثر بها أسلوبه أيما تأثر ، وقرأ لبعض الكتاب الفرنسيين المعاصرين أمثال فولتير ومونتسكيو .

إرثاده الى البروتستنتية !

مهما يكن من أمر ، فإن القسيس بانفيلار أدرك ما عليه الصبى من دكاء ، فكان يتحدث اليه كلما أدرك فيه ميلا الى الحديث ، كما كان يحترم صمته اذا لمس فيه الرغبة في التزام الصمت ، وحاول في رفق أن يعيده الى مذهبه البروتستنتى ووفق في ذلك ، فلم تبض سنتان حتى هجر جييون الكاثوليكية وتقبل القربان المقدس في الكنيسة الكلفنية في يوم عيد الميلاد سنة ١٧٥٤ . على أنه لا بد من الإشارة الى أن جييون اكتسب في لوزان فلسفة دينية لم يحد عنها قط ، فلسفة تقوم على الايمان بوجود الله ، والشك فيها عدا ذلك ، وأنه حين اصدر الجزء الأول من كتابه « اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها » اتهمه كثيرون بالزندقة وبعته الكاتب بوزول بأنه « احمق كافر » .

فضيل القس بانفيلار في تدريبه :

واستطلاع بانفيلار بما أوتي من علم وحصانة وفوق أن يدرج جييون على طرائق البحث ومناهجه ، نون أن يحشو هو ذهنه ، أو يحدد له مجالا معيناً ، فأبدى التلميذ رغبته في دراسة الثقافة اللاتينية في كتابات المؤرخين والشعراء والخطباء والفلاسفة ابتداء من الكاتب المسرحى بلوتس Plautus (٢٥٠ - ١٨٤ ق.م) والمؤرخ سالوست Sallust (٨٦ - ٣٤ ق.م) حتى اضمحلال لغة روما وامبراطوريتها ، فشجعه على المضي في ذلك ، وقضى جييون أربعة عشر شهرا في متابعة هذا العمل ، كذلك ساعده بانفيلار في دراسة اللغة اليونانية ، فاتم قراءة نصف الياذة هوميروس وقدرها كبيرا من كتابات هيرودوت وزينوفون ، وكان جييون يقرأ وقلبه في يده ليندون ما يعن له من مذكرات أو ملاحظات ، وتابع الى جانب ذلك كله دراسة اللغة الفرنسية ، وبلغ من حرصه على اجادتها أنه كان يترجم شيشرون من اللاتينية الى الفرنسية ، ثم

يعود فيترجم ما كتبه من الفرنسية الى اللاتينية ، ليطابق الترجمة على الأصل ويختبر بذلك قدرته .

وفي أثناء اقامته في لوزان ، التقى جيبون بأعز أصدقاء العمر : الشاب السويسري ديفردن Dyverdun والشاب الانجليزي هولريد Holryd الذي أصبح فيما بعد لورد شيفلد والذي تسولى نشر مؤلفاته ، كما كان لقاءه لأول مرة مع شخصية العصر الفريدة فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) ، وعن طريقه أولع جيبون بالمرح الفرنسي ، وهو يشير في مذكراته الى أن هذا المسرح قلل من اعتزازه بمبقريّة شكسبير ، ذلك الاعتزاز الذي شب عليه منذ صباه ، بوصفه الواجب الأول لكل شاب انجليزي .

تعرّفه على سوزان كورشو :

وفي لوزان ايضا وقع جيبون في أول وآخر غرام له في حياته ، فقد أعجب بفتاة تدعى سوزان كورشو Suzanne Curshod ابنة راعى كنيسة كلفنية في بلدة كراسى الفرنسية القريبة من الحدود السويسرية، وكانت مواهب الفتاة تزيد من قيمة مفاتها الشخصية ، واتفقنا على الزواج ، ولكن كان عليه أن يحصل على موافقة أبيه أولا .

عودته الى انجلترا :

وهكذا رخص له في ١٧٥٨ بالعودة الى لندن بعد غيبة دامت قرابة خمس سنوات ، وتلقاه أبوه بمزيد من العطف الذى لم يكن يتوقعه ، وترك له حرية اختيار المكان الذى يقيم فيه ، والرفاق الذين يصطحبهم ، والوان المسرة والتسلية التى يرضيها . وحقيقة الأمر أنه كان له في العودة الى لندن مأربان : أولهما أن يعرض على أبيه موضوع زواجه من سوزان كورشو ، أما الثانى فإن أباه كان قد تزوج ، وخشى جيبون أن يثر هذا الزواج نسلا يشاركه ثروة أبيه التى كانت قد بدأت تنقلص ، وأطمأن قلبه لما تبين له أن زوجة أبيه سيدة رفيقة طيبة القلب ولا ينتظر أن تنجب ، وعندئذ تحدث الى أبيه في مشروع زواجه من الفتاة الفرنسية ، ولكن أباه عارض هذا الزواج معارضة شديدة . وهنا يقول جيبون في مذكراته : « لقد تنهدت تنهد العاشق الولهان ، وامتثلت كما يجب أن يفعل الابن البار » .

وكان جيبون اذ ذاك في الحادية والعشرين من عمره ، وبذلت بعض المساعى للاحاقه بوظيفة في السلك الدبلوماسى ولكنها أخفقت ، وأشارت عليه زوجة أبيه بدراسة القانون ، ولكنه لم يجد في نفسه

ميلا الى هذه الدراسة ، ولم تكن مياهج الحياة في لندن تستهويه ، وطالب له أن يقضى وقته في بيت ابيه في بورمتن بمقاطعة هامشير في التزود من المعرفة والعلم ، وعكف الى جانب دراسته للادب القديم على قراءة ابيسون وسويقت وغيرهما من الكتاب الانجليز ، يحدره الامل في تنقية لغته الانجليزية مما علق بها من آثار الاساليب الأجنبية ، وحاول ابوه أن يثير فيه حب الزراعة ، ولكنه لم ينجح الا في حيله على مصاحبته في بعض الجولات التي كان لا بد منها لكسار المقيمين في الريف .

اول مؤلف ينشره جيون :

وفي سنة ١٧٦١ نشر جيون باللغة الفرنسية اول مؤلف له هو « بحث في دراسة الالب » *Essai sur l'Étude de la Littérature* وكان قد كتب جزءا منه في لوزان ثم اكمله في لندن ، وربما كان من الجائز أن يؤجل جيون اخراج هذا الكتاب ، ولكن والده استحث نشره لعل ظهوره يوجه الأنظار الى مؤلفه ومواهبه الادبية ، ويكون له منفذا الى الحياة العامة والشهرة ، وقد رحب أهل الثقافة والفكر في فرنسا وسويسرا وهولندا بهذا الكتيب وترطوه ، ولكنه لما نشر في انجلترا باللغة الانجليزية لم يثر اهتماما كبيرا في اوساطها ، وجدير بالذكر أن جيون نادى في بحثه هذا بانسه لكي يستسيغ المرء الادب القديم لا بد له ان يلم اللاما واغيا بمجريات الأمور في العصر الذي كتب فيه وبالحواجز التي دفعت اليه ، ويضرب لذلك مثلا أن مرجيل كتب مؤلفه في فن الزراعة *Georgics* بناء على طلب الامبراطور اوجسطس ، كي يحول نشاط معارضيه من زعماء الحروب الاهلية القدامى الى نشاط سلمى ، ويقنعهم بمزايا الاشتغال بالزراعة ، وبذلك لم يكن مرجيل مجرد كاتب يصف حرفة الزراعة ، بل كان أشبه بالأسطوري أورفيس *Orpheus* الذي كان يلعب على قيثارته لينزع من القبائل الهجبة وحشيتها ، ويوحدها داخل مجتمع سلمى مترابط .

جيون يلتحق بالخدمة العسكرية :

وفي تلك الاثناء التحق جيون بالخدمة العسكرية برتبة نقيب بالفرقة الرابعة في هامشير ، وكانت انجلترا في ذلك الوقت مشغولة بحرب السنين السبع وتعرضت لخطر الغزو ، وكان هذا العمل بعيدا كل البعد عن ميول جيون واتجاهاته ، حيث قضى على حد تعبيره عاما ونصف عام - من مايو ١٧٦١ الى ديسمبر ١٧٦٢ - في

حياة عسكرية شاقة ، ولكنه لم يستطع في تلك الفترة ان يقلع عن
مالوف عاداته محاول أن يوفق بين الجندي وطالب العلم ، وتعرف
على نظم الجيش وحياة الجنود ، ولكنه داوم على قراءاته
الواسعة ، وظل يحتفظ بنسخة من هوراس يحملها معه أينما سار .

رحلته في أوروبا : باريس ، ولوزان :

وهكذا كان شخصية المؤرخ وكتابة التاريخ كانتا دوما
تداعبان خياله ، وما أكثر ما اختار من موضوعات للكتابة فيها ،
ولكن لم يستقر قراره على واحد منها . وتوقفت مشروعاته كلها
بسبب زيارته للقلعة حيث رأى والده ان القيام بجولة في أوروبا امر
ضروري لاستكمال تعليم ابنه بوصفه شابا انجليزيا ، وتلك كانت عادة
المقرر ، وبعد شهر من تسريح جييون من الجيش كان في طريقه
الى باريس حيث سبقته اليها شهرة كتابه « بحث في دراسة الادب » ،
ولقى في باريس ما طابت له نفسه من الترحيب بوصفه رجلا من رجال
الادب ، وهناك قضى أربعة عشر اسبوعا التقى فيها بقيادة السكر
ورجال الادب الفرنسيين من أمثال ديدرو Diderot ودالمبير D'Alembert
ورينال Raynal ودارنو D'Arnaud ثم تابع جولته الى لوزان ليزور
اصدقائه ومعارفيه القدامى ، وهناك تلقى من حبيبته القديمة سوزان
كورسو رسالة تؤكد له فيها بقاءها على حبه ، وظننت هي انه سوف
يتزوجها - زقم لمسخ خطبتها منذ سنتين ، وطلب اصدقائها الى جان
جك روسو ان يتحدث في ذلك الى جييون ، ولكن روسو رفض ان
يتوسط قائلا ان جييون شاب ذو مزاج بارد ، وان سوزان لن تكون
سعيدة معه ، ولعله انصف فان سوزان تزوجت بعد قليل من نكسر
Neckar وزير مالية فرنسا الشهير الذي دما مجلس طبقات الأمة قبيل
الثورة الفرنسية ، وأنجبا في سنة ١٧٦٦ ابنة أصبحت فيما بعد مدام
دى ستال Madame de Stael (١٧٦٦ - ١٨١٧) الكاتبة الروائية
المعروفة .

والواقع ان جييون في هذا الموقف كانت تعوزه الشجاعة ، فمضيا
عن انه أمثل لرأى والده ، ثم انه مضيا عن ذلك علم ان سوزان كانت
محوطة بعدد من المعجبين ، وانها كانت تميل الى بعضهم ، فعلق على
ذلك في مذكراته « اذا كانت الخيانة شغبا أحيانا فان الرياء رذيلة
دائما ، ان هذه الفترة كانت ذات نفع كبير لى ، لأنها بصرنى بأحساق
النساء ، ولسوف تحببني يوما من اغراء الخب » ، ولعله لم يذكر
بعد ذلك في الزواج اطلاقا ، ومن المفيد انه كتب مرة الى زوجته

صديقه لورد شيفلد يقول : « ترى هل تدهشين يا سيدتى ، اذا انا تزوجت ! قد يبدو غريبا أن اذكر لك أن مشروعا من هذا النوع هو اليوم أقل احتيالا مما كان يبدو لى انا نفسى منذ سنة مضت ، لقد دار بخلدنا — صديقى ديفردن وأنا — أن بيتا مثل بيتنا سوف يسوده النظام وتذب فيه الحياة والبهجة اذا وجدت فيه سيدة وديعة ، ولكن كلا منا يود لو أن زميله قلم بهذه التضحية وحده ، انفى منذ أقمت هنا تعرفت على أنسات كثيرات ، واكتشفت أن نحو ست منهن يصلحن زوجات ، ولكل منهن مزايا ترضينى فى نواح مختلفة ، فواحدة منهن تصلح لأن تكون رفيقة فائقة ، وثانية لأن تكون مضيافة مسامرة ، وثالثة لأن تكون صديقة وديعة مخلصه ، ورابعة لأن تصدر المائدة فى مهابة ورشاقة معا ، وخامسة لأن تكون ربة بيت مدبرة حازمة ، وسادسة لأن تكون ممرضة يقظة نافعة ... ولو انى وجدت هذه الصفات والمزايا مجتمعة فى امرأة واحدة لما ترددت فى طلب يدها ، ولما ترددت هى فى رفض طلبى ! » .

سفره الى ايطاليا :

والواقع أن جييون وقع فى غرام من نوع آخر ، فبعد أن قضى سنة فى لوزان وأصل سفره الى ايطاليا ووصل الى روما فى خريف ١٧٦٤ . وهو يشير فى قصة حياته الى المشاعر والأحاسيس القوية التى ملكت عليه عقله وقلبه حين اقترب من المدينة الخالدة وحين دخل اليها ، فيقول : « لقد سكرت بهذه المشاعر والأحاسيس مدة أيام قبل أن تهدأ نفسى ، واخذ الى الدرس ، والبحث » . وكتب فى الوقت ذاته الى ابيه يقول : « لقد وفقت الى مورد خصص يلد لذهن مؤهل له ، بما يعرف عن الرومان ، انفى الآن فى حلم ! ومهما زدنا الكتب بالمعلومات ثمانها أقل بكثير مما تحدثنا به الاطلال » . هكذا راقه منظر روما وملك عليه لبه ، وحدد على الفور أساس شهرته ، وقد عبر هو نفسه عن ذلك بقوله : « فنى روما فى الخامس عشر من أكتوبر ١٧٦٤ ، بينما كنت جالسا اناهل فى اطلال العاصمة ، على حين كان الرهبان العراة الأقدام يرتلون صلوات المساء فى معبد جوبتر الذى هو الآن كنيسة الفرنسيسكان — نبتت فى ذهنى لأول مرة فكرة الكتابة عن اضمحلال مدينة روما وسقوطها » ، وظاهر من كلامه هذا أن فكرة الكتابة عن « المدينة الخالدة » كانت وليدة الاحاسيس التى طاشت بذهنه وهو جالس بين اطلالها ، ولولا أنه بعد ذلك وسع نظرتة وأجال فكره لما خرج علينا الا بكتاب رقيق عن آثارها ، لا بمؤلف رائع عن تاريخ الامبراطورية الرومانية .

ولكن لا بد لنا هنا من وقفة قصيرة ، حيث يبدو أن جيون بالغ في هذا القول ، فإنه لم يكتب « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » لجرد أنه زار روما ، ولا لأنه ذكر في موضع آخر من مذكراته أنه كان قد قرأ قبل تلك الزيارة بثلاث عشرة سنة كتابا عن تاريخ الامبراطورية الرومانية في مصرها الأخير ، ولكن حقيقة الامر أنه اتجه هذا الاتجاه وأولع بالتاريخ الروماني منذ طفولته ، قال في رسالة كتبها وهو في الثالثة عشرة من عمره : « وفي طريق عودتنا الى البيت شاهدنا اطلال معسكر روماني قديم فشعرت بسعادة غامرة » . ثم ان قراءته الواسعة منذ حداثة تشير الى ميوله واتجاهاته .

عودته الى لندن :

وفي يونية ١٧٦٥ قفل جيون عائدا الى لندن . ولم يقع في السنوات الخمس التالية ما يستحق الذكر سوى أنه علون صديقه ديفردن في اخراج مجلدين من مجلة في الادب البريطاني . لتتشر في القارة باللغة الفرنسية ، كما أنه نشر مقالا بامضاء مجهول ضمنه نقده للكتاب السادس من الانبياء ، وكان طيلة هذه المدة معتمدا على أبيه ، رغم أنه كان في الثلاثين من العمر ، حتى كانت سنة ١٧٧٠ حيث توفي والده ، وشغل بعض الوقت بتسوية الميراث ، ثم أصبح مطلق التصرف في وقته ، معتمدا على نفسه .

جيون ينضم للنسابة الادبي :

وكان اسمه في عالم الاكيب قد بدأ في الظهور ، فأصبح عضوا في النسابة الادبي الذي أسسه صمويل جونسون في لندن سنة ١٧٦٥ ، وكان هذا النسابة يضم عددا من الشخصيات البارزة أمثال بوزويل Boswell ، وجوشا رينولدز Joshua Reynolds ، والرسم الشهير ، وأوليفر جولد سميث Oliver Goldsmith ، وادموند بيرك Edmund Burke ، وداغيد جارك David Garrick الممثل القدير ، وشارل جيمس فوكس Fox السياسي البارز ، وريتشارد شريدان Sheridan الروائي السياسي ، وأدم سميث Adam Smith الاقتصادي الذائع الصيت .

عضويته في البرلمان البريطاني :

وفي سنة ١٧٧٤ فاز جيون بمتعد في مجلس العموم البريطاني ، واحتفظ بعضويته فيه طيلة ثمانى سنوات ، ولكن حياته البرلمانية

اتسمت بالصمت والخبول ، فلم يلق خطابا واحدا في المجلس رغم أنه كلن عضوا في الفترة التي شغلت فيها انجلترا بحربها مع مستعمراتها الأمريكية التي كانت تنشد الانفصال والاستقلال ، واكفى جييون بأن أدلى بصوته تأييدا لسياسة لورد نورث ، مضحيا بأفكاره ومبادئه هو ، ولاء منه لرئيس حزبه ولحزبه ، ولكنه اقتنع في النهاية بخطأ هذه السياسة .

جييون يعكف على كتابة مؤلفه — ظهور المجلد الأول :

ومها يكن من شيء ، فقد كانت هذه الفترة التي قضاهها عضوا في مجلس العموم أخصب فترات حياته وأوفرها إنتاجا ، حيث عكف فيها جييون على كتابة تاريخه الشهير الذي بين أيدينا ، وكانت فكرته تدور في رأسه لعدة سنين ، فقرأ كل ما يمت إليه بصلة ورجع وقلمه في يده إلى المصادر الأصلية اليونانية واللاتينية ابتداء من ديون كاسيوس *Dion Cassius* إلى أميانوس ماركينوس *Ammianus Marcellinus* واستوعب السير التي دونها الرواة القدامى عن الأباطرة من دقلديانوس إلى ثسطنطين ، واستعان كذلك بما كتبه المؤرخ الفرنسي تلمون *Tillemont* (١٦٣٧ — ١٦٩٨) عن تاريخ الأباطرة ووصفه بالدقة والعبرية ، وتأثر جييون بعدد من الفلاسفة والمؤرخين الأجانب أمثال بيل *Bayle* (١٦٤٧ — ١٧٠٦) ومونتسكيو *Montesquieu* (١٦٨٩ — ١٧٥٥) الفرنسيين ، وجيانوني *Giannone* (١٦٧٦ — ١٧٤٨) الإيطالي الذي كتب « التاريخ المدني لنابولي » وهاجم فيه سلطة رجال الدين . وشق جييون طريقه في ظلمات العمور الوسطى في حويلات إيطاليا وآثارها ، وقرأ قوانين تيودوسيوس لا بوصفها فقها قانونيا ولكن بوصفها أدبا ، وكان في البداية محاذرا متثدا ، وما أن انتهى من بضعة الفصول الأولى حتى انطلق قدما وظهر المجلد الأول من تاريخه هذا في ١٧ فبراير ١٧٧٦ ولقى نجاحا لم يسبق له مثيل حتى لقد أعيد طبعه مرتين أخريين ، ولما ينقضى العام . ولكن في غمرة الاحتفاء به تلقى من هيوم ، الفيلسوف والمؤرخ الاسكتلندي المعاصر تحذيرا بأن ما ورد في كتابه من تقدم المسيحية ونموها لابد أن يثير كثيرا من المشادة والجدل ، وهذا ما حدث بالفعل فقد تصدى لمعارضته كثيرون واضطر جييون إلى أن ينشر في سنة ١٧٧٩ دفاعا رد فيه على كل من هاجموه .

ظهور المجلدين الثاني والثالث

من مؤلفه عن الامبراطورية الرومانية :

وفي ابريل ١٧٨١ أصدر جيبون المجلدين الثاني والثالث من تاريخه وتوبلا بالترحيب ولكنها لم يثيرا ضجة ، وفي يونيه من العام نفسه ترك جيبون مجلس العموم وحلت به ضائقة مالية باع معها كل ما يملك فيها خلا مكتبته ، واتجه تفكيره الى مدينته الاثيرة لوزان ، وكان يطوى في نفسه رغبة دقيقة ، تلك هي أن يكون مرتع شيباه ومنبع معرفته الاولى ، اي لوزان ، ملجأه الذي يأوي اليه في أخريات أيامه ، حيث يتنهد له فيها ، مع دخل متوسط ، كل اسباب الدعة والهدوء والحرية والاستقلال ، وفي سبتمبر ١٧٨٢ ودع جيبون انجلترا ووصل الى لوزان بعد نحو عشرين عاما من رحيله الأخير عنها .

اتهام مؤلفه في لوزان :

وبعد قرابة عام من مقامه في بيت نسيح ذي حديقة غناء على شاطئ بحيرة ليمن (دار صديقه ديفردن) انتهى من المجلد الرابع من تاريخه ، وبعد ذلك بنحو عامين أكمل جيبون مشروعه الضخم في تاريخ اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوبها بكتابة مجلدين آخرين . وانه ليتحدث عن ذلك في مذكراته فيقول : « في اليوم السابع والعشرين من يونية ١٧٨٧ ، في الكشك الصيفي بالحديقة ، فيها بين الساعة الحادية عشرة والثانية عشرة مساء ، دونت السطور الأخيرة في الصحيفة الأخيرة من الكتاب ، ثم نهضت للتريض في الماشي المروشة التي تشابت فوقها فروع اشجار السنط ، والتي تطل على منظر رائع ، حيث يمتد البصر الى الريف والبحيرة والجبال ، وكان النسيم هليلا ، والسماء صافية ، ونسوء القمر ينعكس على مياه البحيرة ، وكل الطبيعة من حولى هادئة ساكنة ، وان أنس ملا أنس ما غمرنى لأول وهلة بعد الفراغ من كتابة هذا المؤاد . — ما غمرنى من احساس الغبطة والفرح لاسترداد حريتي — وربما لبناء شهرتي ، ولكن سرعان ما انطفت جفوة الزهو ورائت الكآسة على قلبي ، وخيم على فؤادي حزن عميق ، حين تذكرت اننى ساودع الى الأبد ، ريفي القديم الأنيس ، وانه مهما يكن من امر هذا «التاريخ» في المستقبل ، فان حياة المؤرخ نفسه لا بعد ان تكون قسيرة مزعزعة » .

عودته الى لندن :

وحمل المؤرخ مخطوطاته وعاد الى لندن ، وهناك خرجت الى السوق في أبريل ١٧٨٨ المجلدات الثلاثة الأخيرة التي دونها جيبون في تاريخ اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها . وقد تجدر الإشارة هنا الى أن جيبون قضى في عمله الضخم هذا عشرين سنة ، وأن المجلد الأول صدر قبل الأخير بنحو اثني عشر عاما .

وعاد جيبون بعد ذلك بقليل الى لوزان حيث فجع بوفاة صديق حياته ، بل رفيق حياته ، ديفردن الذي توفي في يولية ١٧٨٩ ، وكانت الوصية التي تركها الصديق الحميم ترخص لجيبون في الإقامة بنفس الدار المطلة على بحيرة ليمان ، وهناك دون جيبون سيرة حياته : « مذكرات من حياتي وكتاباتي » ، ثم عاد الى لندن في اوائل صيف سنة ١٧٩٣ ، واشتد عليه علة أجريت له من أجلها عمليات جراحية ، ولكن شمس حياته أذنت بالمغيب واسلم الروح في ١٦ يناير ١٧٩٤ ، ودفن بمقبرة أسرة صديقه لورد شيفلد في بلدة فلتشنج Fletching بمقاطعة سسكس Sussex وبقيت ذكراه خالدة بفضل تاريخه الذي أعيد طبعه مرارا وتكرارا .

ماذا فهم جيبون تاريخه :

ولا يقتصر كتاب جيبون على تاريخ روما من عصر الأباطرة الأول حتى نهاية الامبراطورية في الغرب ، بل انه يعالج كذلك تاريخ الامبراطورية الشرقية التي قدر لها البقاء قرابة الف سنة بعد سقوط الامبراطورية الغربية ، وكذا تاريخ جميع الشعوب المتقدمة والمتبربرة التي كانت تقطن على حدود الامبراطورية ، ثم ظهور الاسلام وقيام الامبراطورية الرومانية المقدسة والحروب الصليبية ، وقصارى القول : هو تاريخ الغرب وما يتصل به من تاريخ الشرق ، من القرن الأول الى القرن الخامس عشر الميلادى .

وقد أوضح جيبون ذلك في المقدمة التي كتبها بيده والتي لم ترد في طبعة هذا المختصر ، فقال انه في حوالى ثلاثة عشر قرنا قوضت سلسلة من الثورات والغارات دعائم العظمة الانسانية وقضت في النهابة عليها ، ويمكن حصر هذه السلسلة في ثلاث فترات :

فالفترة الاولى يمكن تتبعها من عصر تراجان والانطونيين حين بدأت الامبراطورية الرومانية التي كانت قد بلغت ذروة قوتها ، في التردى الى مهساوى الضعف والانهيار ثم الى الدمار على يد

جباعات المتبريرين من ألمانيا واسكيزيا ، وهؤلاء هم الأسلاف الجفاة
لأكثر شعوب أوروبا الحديثة حضارة وثقافة ، وقد تمت هذه الثورة
الغالية التي أخضعت روما لسلطان فاتح قوطى ، حوالى بداية القرن
السادس الميلادى .

ويمكن أن نفترض أن الفترة الثانية فى اضمحلال الامبراطورية
الرومانية تبدأ بعهد جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) الذى أعاد
للإمبراطورية الشرقية ومضة عابرة من المجد بفضل قوانينه وانتصاراته
بما ، وتشمل هذه الفترة غزو اللمبارديين لإيطاليا ، وفتح العرب
المسلمين للولايات الآسيوية والأفريقية ، وثورة الشعب الروماني ضد
حكام القسطنطينية الضعاف ، ثم ارتقاء شارلمان الذى أقام فى سنة
٨٠٠ م الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

أما الفترة الأخيرة ، وهى أطول الفترات جميعا - فإنها تطوى
نحو ستة قرون ونصف قرن ، وتبدأ بأحباء الإمبراطورية الغربية ،
وتنتهى باستيلاء الأتراك العثمانيين على القسطنطينية وفناء سلالة
الأمراء المنحطين الذين ظلموا يتخفون لأنفسهم لقب « قيصر » ،
و « أوغسطس » بعد أن تقلص ظل ملكهم إلى حدود مدينة واحدة ،
نسيت فيها منذ أمد طويل لغة الرومان القديمى وآداب سلوكهم .
ريضيف جيبون قوله : « أن المؤرخ الذى يأخذ على عاتقه سرد أحداث
هذه الفترة ليجد نفسه مضطرا إلى الخوض فى التاريخ العام للحروب
الصليبية بقدر ما أسهبت تلك الحروب فى سقوط الإمبراطورية الشرقية
(البيزنطية ، أو اليونانية كما كان يسمونها) ، كما لا يمكن أن يتحصانى
التمرض لبحث أحوال مدينة روما فى فترة ظلام العصور الوسطى
وما سادها من فوضى وفساد » .

ويطلب جيبون إلى قارئة أن يقل من اللوم إذا هو لاحظ أن المؤرخ
عالج فى أكثر من نصف سفره الضخم تاريخ أربعة القرون الأولى ،
على حين أنه تناول فى جزئه الباقى وهو أقل من النصف تاريخ تسعة
قرون ، وأوضح أنه لم يعالج التاريخ البيزنطى فى تفصيل وأسباب ،
وانما وضع جل همه فى عصر جستنيان وفتوحات المسلمين ثم العصر
الأخير فى القسطنطينية (الحروب الصليبية والأتراك العثمانيون)
باعتبار أن هذه الأمور كلها مرتبطة بنشأة أوروبا الحديثة ، ومن ثم فقد
اقتضب فى حديثه عن الفترة التى تمتد من القرن السابع إلى القرن
العاشر ، وحصر بحثه فى الأحداث التى رأها هامة وطريفة .

رأى الأعلامه بيورى فى جيون وتاريخه :

ولعل خير من كتب عن جيون وأنصفه هو المؤرخ البريطانى الشهير جون باجنل بيورى John Bagnell Bury (١٨٦١ - ١٩٢٧) الذى كان استاذاً بجامعة كمبردج ، فقد اشرف على اخراج أحسن طبعة صدرت لمؤلف جيون « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » وذلك بين ١٨٩٦ - ١٩٠٠ ، وتكرر طبعتها بعد ذلك حيث انها امتازت بمقدمة رائعة كتبها بيورى ، كما تميزت بتعليقاته التى اضافها فى ضوء ما جد من أبحاث ، ومن المفيد لنا هنا أن نلخص آراءه :

لقد أوضح بيورى أن جيون يمتاز بأنه بذل جهدا كبيرا فى الرجوع الى المصادر الأصلية لموضوعه ، وأنه راعى فى كتابته دقة بالغة تثير الدهشة ، ولكن اذا قلنا ان جيون كان دقيقا فليس معنى هذا أنه كان مصيبا دائما ، ذلك لأن الدقة مسألة تتناسب مع الفرص والمواد المتاحة للمؤلف ، فقد كشفت فى السنوات المائة التالية لظهور مؤلف جيون ، مواد جديدة استطاع العلماء فى ضوءها تعديل بعض الآراء التى أوردها ، ولو أنه عاد اليوم لمراجعة تاريخه لاختلف اختلافا ملموسا ، ولكننا نعوذ فنقول أنه بفضل حاسته التاريخية أصاب فى استخدام ما توفر له من مصادر فى إطار ثقافة العصر الذى عاش فيه ، أى قبل الكشف عن مصادر جديدة (علم النميات مثلا) وقبل وضع الأسس العلمية السليمة لدراسة تلك المصادر والافادة منها . وقد بدأت هذه فى القرن التاسع عشر . فان الأبحاث التى قام بها عدد من العلماء الأجلاء أمثال مومسن الألمانى Mommsen ، وديرانث الروسى Muralt عدلت الكثير من أفكارنا عن النظم الرومانية والتاريخ الدستورى للامبراطورية من عصر دقلديانوس الى ما بعده ، ومع ذلك يقول بيورى ان وصف جيون لنحول الامبراطورية Prineipate الى ملكية مطلقة ، وكذا حديثه عن نظام دقلديانوس ووصفه نظام قسطنطين - كل أولئك ما يزال يحتفظ بقيمته العسالية .

ويضيف بيورى انه من الملاح الميزة لمؤلف جيون هذا ، بصحة عامة ، أنه يقدم لنا درسا فى وحدة التاريخ ، فان عنوانه يوضح الحقيقة الأساسية بان الامبراطورية التى اسسها أوغسطس سقطت فى منتصف القرن الخامس عشر وان كل التغيرات التى حولت اوربا التى عاش فيها ماركوس أوريليوس الى اوربا التى عاش فيها ارزمس لم تلغ اسم الامبراطورية وذكرها ، ومهما استخدم جيون من الفاظ مهينة فى وصف

الامبراطورية واتحلالها ، وسواء أنعتها بالامبراطورية السخلى أم
الامبراطورية اليونانية ... فان عنوان كتابه قد صحح المفهوم الخاطيء
الذى قد تحمله مثل تلك التسمية ، حيث تعتمد وحدة كتابه على
استمرار الامبراطورية الرومانية .

ويأخذ بيورى على جيبون أن روايته للتاريخ الداخلى للامبراطورية
بعد عصر هرقل لم تكن رواية سطحية فحسب .. بل انها كذلك تنقل
للقارئ فكرة خاطئة ، ولو أن جيبون استطاع أن يستغل المصادر كما
فعل عدد من العلماء فيما بعد - لما عجز عن أن يتبين أن تحت المؤامرات
والجرائم التى سادت فى القصر وقتئذ كانت هناك أسباب أعمق تعمل
عليها ، وأن وراء ثورات العاصمة عوامل أهم وأشمل ، فان محطى
الايقونات Iconoclasts كانوا يناضلون لشيء أكثر من مجرد مقاومة عبادة
الصور ، بل كان نضالهم من أجل تجديد الامبراطورية وانعاشها . خذ
مثلا آخر ، هو أن مفتاح تاريخ القرنين العاشر والحادى عشر كان فى
النضال بين العرش الامبراطورى وبين كبار ملاك الاراضى فى آسيا
الصغرى ، ويتضح انتصار هذه الفئة الأخيرة من امتلاء الكسيس
كومنينس العرش ، كذلك يأخذ بيورى على جيبون قوله بأن الامبراطورية
فى عصرها الأخير انها كانت تمثل قصة متجانسة للضعف والبؤس ..
لأنه قول غير صحيح وحكم لا يجوز أن يصدر عن هذا المؤرخ المفكر
الكبير ، فقد كانت الامبراطورية قبل ثورة ١٢٠٤ قلعة حصينة حمت
الغرب . وهذه حقائق أوضحها العلماء الذين جاعوا فيما بعد أمثال فينلى
Finlay وهيرش Hirsch ورامبو Rambaud وكرومباخر Krumbacher .

واخيرا يذكر بيورى أن جيبون كانت تموزه المصادر من القسطنطينية
ومبانيها وعن تاريخ الشعوب السلافية ، ومن ثم كان مقلا فى حديثه
عنها .

ومهما يكن من شيء ، فان بيورى يقرر أن جيبون هو واحد من قلة
من الكتاب الذين يحتلون مركزا ممتازا فى تاريخ الأدب الانجليزى وفى
قائمة كبار المؤرخين ، وأنه يمكن أن يوضع فى مرتبة تيوسويديس ،
وتاسيتس من حيث صفاء أسلوبه وحرصه على مراعاة الدقة ، وهذا
هو سر بقاء كتابه ، فهو تاريخ وأدب معا ، وقد بلغ من حرصه على
روعة أسلوبه أنه عدل فى الطبعة الثانية لمؤلفه عبارات شتى لا لشيء
الا لزيادتها تهذيبا ، وعندما صدرت طبعته الثانية أورد بخط يده على

عدد قليل من صفحاتها بعض التعليقات والتصحيحات ، مثال ذلك أنه بعد العبارة التي تحدث فيها عن موت ماركس أنطونيوس كتب ما يلي :

« ألم يكن جديرا بى أن أشرح تاريخ هذه الفترة الزاهرة التي جاءت بين عهدين جديدين ؟ ألم يكن لزاما على أن أستخلص انحلال الامبراطورية من الحروب الأهلية التي تلت سقوط نيرون ، أو حتى من الطفيلان الذي جاء في أعقاب عصر أوغسطس ؟ وأسفاه ! ما قيمة المعرفة اذا جاءت بعد قوات الوقت ! لا ينفع الندم اذا ما استحال تصحيح الخطأ » .

والى جانب دقته وروعة أسلوبه ، يتميز جييون كذلك بوصفه المجتمع الأخاذ لشخصياته ، وولعه بالسخرية ، ولكنه على خلاف كثير من المؤرخين ، لم يخف أهواءه ، فنراه يتحسس في لوم امبراطوره المحب اليه جوليان ، وفي مدح الأسقف اثناسيوس .

ويبرز جييون في سخريته شيئا من حكم الحياة . فهو يتحدث عن دقلديانوس حين اعتزل الحكم وقضى الأعوام التسعة الأخيرة من عمره في الاشتغال بالزراعة وفلاحة البساتين ، في موطنه في مدينة سالونا بولاية داشيا ، ويروى كيف أن زميله مكسيميان الذي كان قد اشركه معه في حكم الامبراطورية ، توسل اليه في العودة الى العرش وارتداء الحلة الأرجوانية ، وكيف أن دقلديانوس أصر على رفضه ، قائلا في سخرية لازعة : « لو أن مكسيميان استطاع أن يصر بعينه الكرنب الذي زرعه بيدي في سالونا ، فانه لن يعود يصفى لاي أغراء يثنيه من التمتع بهذه السمادة طلبا للسلطة » . ويضيف جييون أن دقلديانوس كثيرا ما اعترف لأصدقائه في مناقشاته معهم بأن أشق من في الحياة هو من الحكم . وتلك هي خلاصة تجربته الطويلة وخبرته الأصيلة .

جييون وإيمانه بحرية الفرد والحرية السياسية :

وخلاصة القول ان جييون كان مفكرا حرا ، ومؤرخا هادئا ، يحرص الحرص كله على حرية الفرد وعلى استقلال الشعوب . وهو اثر من آثار حياته في سويسرا الى جانب آثار قراءاته ، فقد أعجب بكفاح الولايات السويسرية من أجل استقلالها وحريتها وكان قد شرع فعلا في وضع مؤلف عن فضال هذا الشعب المجيد ولكنه عدل عن اتمام مشروعه . كذلك دافع جييون عن الحرية السياسية التي يرى أنه بدونها لا يمكن للفرد أن يطمئن على مستقبله ، كما ينضج من حكمه على

عصر نرفا وخلفائه حتى وفاة ماركوس اوريليوس (الفصل الثالث من هذا الكتاب) فهو عصر يمثل في رايه فترة من التاريخ نعم فيها الجنس البشرى بالسعادة والازدهار ، ولكنه يضيف الى قوله هذا نقطتين اوضح فيهما ما كان يشوب هذه السعادة من نقائص فقال : « ان مثل هؤلاء الحكام كانوا يستحقون شرف اسعادة الجمهورية لو ان الشعب الروماني في ايامهم استطاع ان يتمتع بالحرية » . كما اوجز وصفه لحكام القسطنطينية في آخر القرن الرابع الميلادي (الفصل ٣٢ من هذا المؤلف) ، فقال :

« وكان حكام القسطنطينية يقيسون عظمتهم بمقياس الطاعة الذليلة التي فرضوها على شعبيهم ، ولم يدركوا ان هذا الخلق السلبي يضعف كل ملكات العقل ويورثها الانحطاط » .

لقد كانت الحرية في رايه عنصرا اساسيا وشرطا لا غنى عنه لسعادة البشرية ، وهى القياس الذى اقام عليه جييون حكمه على الماضي . يقول في حديثه عن اعراض الاضمحلال في الامبراطورية الغربية (يغسل ٣٥) : « كانت الحكومة الرومانية تبدو كل يوم اقل بأسا في نظر اعدائها ، واكثر ظلما ومقتا في نظر رعاياها ، فالضرائب كانت تتضاعف مع تفاقم الضيق العام ، وكلما لحت الحاجة الى الاقتصاد زاد الاسراف ، وطرح الأغنياء الظالمون كل العباء عن كواهلهم ، والقوة على كواهل الناس ، بل وتحاليلوا على حرمانهم من المنع البريئة التى قد تخفف من يؤسهم في بعض الاحيان ، وعمدت الحكومة الى التحقيق والتفتيش ثم الى مصادرة املكهم وتعذيب اشخاصهم ، كل اولئك أرغم رعايا فالنتينيان على ايثار البرابرة مع طفليانهم الأيسر احتلالا ، او على الفرار الى الغابات والجبال ، او على الهبوط الى مراتب الخدم والمرتبة رغم خستها وحقارتها ، حتى وصل بهم الأمر الى التبرم بلقب « المواطن الروماني » والى التبرؤ منه ، بعد ان كان فيما مضى محط اطباع العالم اجمع ..

« واذا كانت روما قد ظلت قائمة ، فانها ظلت قائمة على انقاض الحرية والفضيلة والشرف » .

وكان جييون غوق هذا وذاك متشبها بالروح الانسانية التى ميزت العصر المستقير في القرن الثامن عشر ، فكان يكره القسوة والعنف والاضطهاد بآبة صورة من الصور ، وفضلا عن ان كتابه هذا حافل

بالشواهد على ذلك ، فقد تجلت هذه الروح الانسانية في سخطه على
تجارة الرقيق ، رغم ان صديقه لورد شفيلد كان من انصار الابقاء
عليها ، وكم اغتبط جيبون حين اتخذ البرلمان الانجليزى سنة ١٧٩٢
الخطوات الاولى لالغاء هذه التجارة وتحريمها .

هذا هو جيبون .. وهذا هو كتابه الخالد ، بل ملحمته المنثورة
وسمفونيته الرائعة ... اضعه بين ايدي قراء العربية . وان انس
فلا انس هنا أن أسجل مع الشكر والتقدير فضل وزارة الثقافة ،
والمؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر في العمل على اثراء المكتبة
العربية بالتراث الانساني والذخائر العالمية ، فكان في مخططها هذا
العام نشر هذا الكتاب .

والله ولى التوفيق

احمد نجيب هاشم

مقدمة الطبعة الانجليزية

(٥٠٠ م٠ ل٠)

وضع مختصر « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » على امل ان يكسب الكتاب قراء جددا ، وعلى امل ان يزود اولئك الذين درجوا عليه والفوه بخلاصة له ، اذ قلما يتيسر الحصول عليه في اقل من ستة مجلدات ان لم يكن اكثر .

وسيفضل اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها الحدث التاريخي الفذ في اوربا والشرق الأدنى . وليس ثمة سجل يتص مجرى هذه الاحداث خير من مؤلف جيبون ، وانه لن نافلة القول ان نذكر انه جماع براعة واطلاع واسع ، ينذر ان يكون لهما مثيل ، مع مهارة أدبية لا تبارى . ولا يكاد يعرف اى هذه الصفات اوغر حظا او ابرز فيه اثر . ولقد ألف جيبون كتابه هذا منذ زمن طويل (١٧٧٦ — ١٧٨٨) ، وكم من أشياء كشفت وكتبت منذ ذلك التاريخ ، ولكن هناك رغم ذلك اتفاقا تاما على ان كتاب جيبون ما يزال يحتفظ بمكانته ، بل ويزداد الاقبال على قراءته لما ينفرد به من فن وجمال . ولو ان كتاب « الاضمحلال والسقوط » فقد قيمته التاريخية ، لكان من العبث ان نتعلق بالامل في قراءته ، اكثر ما تكون القراءة ، من اجل أسلوبه نحسب ، اللهم الا اولئك المتخصصون في الادب الذين يتناولونه بالتشريح والتحليل ، ومن ثم كانت الحاجة الى « مختارات » منه ، تهدف الى ابراز هاتين الصفتين معا . أما اللجوء الى اقتطاع شذرات منه وضمها بعضها الى بعض لمجرد سرد الحقائق وابراز القيمة الفنية ، فانه يسوء الى هذا العمل الجليل ، ويوجب عن القارئ تفوقه وميزاته الحقيقية . فنجدر ان ينظر الى الكتاب على انه كل ، على ان يؤخذ في الاعتبار موضوع انقاص حجمه قدر الامكان ، دون الانتقاص من الاحساس بانه يصدر عن كيان متكامل .

أما الفصلان العظيمان الخامس عشر والسادس عشر اللذان يعالجان « ظهور المسيحية » فقد احتفظ بهما كابلين . فقد خيف هنا أن يشعر الاقتضاب بأن المحرر ينصب نفسه حكما بين جيون وقارئه في هذه السيرة الحيوية . ومنذ كتب جيون في ١٧٧٦ أول مجلداته الأربعة ، وفيه هذا الفصلان اللذان بلغ فيهما المؤلف ذروة المهارة والحق ، ظل هذا الجزء - لسوء الحظ - أكثر ما كتب جيون عن المسيحية عرضة للتشهير وسوء السمعة ، ولو أن كثيرا من الناس اعتبروه في الواقع شيئا عاديا مألوفاً ، ولهذا أبقينا على أجزاء كثيرة من الفصول الأخيرة التي تناولت التطورات اللاهوتية والكنسية . وليس من الميسور فهم غزوات المتبريرين والتاريخ الداخلى للإمبراطورية دون الإشارة الى تقدم مذهب آريوس (١) ونظرية التثليث . ونظرية التجسد . وقد يكون الوقت الآن مناسباً لتذكر ما ذكره كاردينال نيومان في حيرة وأسى من أن جيون كان المؤرخ الوحيد للكنيسة . ولكن الزمن والجهد قد مالجا ذلك . فان أعظم مؤرخى الكنيسة قيمة متفقون مع جيون ، رغم ذلك ، في استنكار التصديق الأعمى ، والخرافات الساذجة والخداع المتعمد ، وفي الحزن على تنكب المثل العليا البدائية والانزلاق الى الأطماع الدنيوية ، مما يشوب تاريخ الدين كثيرا . وكان جيون أول من جعل من التاريخ الدينى دراسة علمانية . ولم يختلف عنه خلفاؤه في معظم الأحوال الا في طريقة تناولهم للموضوع وفي لهجتهم . وهنا يجب أن نقول شيئا : فقد يطلو ويسهل على بعض الكتاب أن يتحدثوا من عدا جيون للمسيحية . والحق أنه أورد في شيء من الطيش أشياء نبذها وترفع عنها في عصرنا هذا « جيلبرت مري Gilbert Murray » على أنها « حثالات دنيئة » . ولكن جيون لا يهاجم قط « السنن القويم للإنجيل » ، وهو لا يتحدى الأخلاقيات المسيحية كما فعل بعض « اللاأدرين » (٢) من بعد . بل أنه كان دائما يجل الاخلاص والتمسك الجرى بالمثل العليا . خذ مثلا كلامه عن القديس كبريان Cyprian أسقف قرطاجة (في القرن الثالث الميلادى) وعن أثناسيوس ، وكريزوتوم (أحد آباء الكنيسة اليونانية في القرن الرابع) ، تدبر كذلك تهكمه الذى تناول به تناولاً نزيها آراء جوليان (٣) النيقية وطقوسه

(١) "Arianism" مذهب آريوس Arius الذى يقول بأن المسيح ليس من نفس مادة الرب ولكنه أحسن ما خلق الله - (المترجم) .
 (٢) "Agnastics" (الغنوصيون) الذين لا يعتقدون بكفاية العقل لفهم الوحي الالهى - (المترجم) .

(٣) Julian the Apostate امبراطور روما ٣٦١ - ٣٦٢ .

ومن المسخف كذلك « الزعم بأن جييون كان يعيل ميلا خاصا الى الحياة الروحية ، فقد امتلا عقله بفلاسة القارة (أوربا) الذين قال عنهم ليتون سترانشي Lytton Strachey في مقالته عن مدام دي دفسان Mme, du Devand ان مذهب المتشككين في هذا الجيل لمن أعنف واعند ما عرف العالم ، فإنه لم يتكلف حتى مشقة الإنكار بل عمد في بساطة الى التجاهل ، وكان بمثابة حجاب كثيف من الاستهتار بأسرار السكون . ، وبحلولها وكشف فوامضها على حد سواء . . وتعلم جييون من بسكال Pascal « التهمك اللاذع والمعتدل » واستخدمه استخداما مدمعا ، فاذا كان هذا التهم قد أصبح على طول المدى مملا شيئا قليلا ، فيجب ان نتذكر — كما تذكر ج. ب. بيوري J. B. Bury — أن تناول الموضوع بأسلوب غير مباشر كان لونا من الحيلة اللازمة في القرن الثامن عشر ، فلربما صحت الكنيسة آنذاك من مرقدتها الوثير لانزال الشدد العذاب والعقاب بالمجذفين في الدين .

ان رجال الدين في عصر جييون ، بالإضافة الى بغض العلمانيين ، لم يدركوا ، وما كان في مقنورهم أن يدركوا ، ما كان يصنعه هذا الرجل ، بل انهم لم يحاولوا شيئا من ذلك . لقد طاش صوابهم وفقدوا أمصابهم لما اعتبروه في نظرهم تهجا على نظام مرتبط بالطبيعة المستقرة للأمور ، فلما كانوا يفتقرون الى حجة دامغة مندوا الى الأسلوب التقليدي القديم في تجريح من يدافع عن خصمهم . وكان الهدف لأول وهلة سهلا . لأن جييون كان بدينا متأثقا ، ولم تكن العقلية الانجليزية لتفتخر بسهولة اجتماع هاتين الصفتين . واستطال الداب على تحقير شخصه وتشويه سمعته واخلاقه قرنا من الزمان ، وتكشف بعد ذلك تقييم أكثر رشادا وسدادا لصفات الرجل إمام أمين أولئك الذين كلّفوا أنفسهم أن يقدّروا القول : اذا كان لنا أن نسخر بعد من غرابة الرجل وشذوذه — وقد يكون من قبيل الصلف والكبرياء الا نفعل ذلك — افلا يجدر بنا في نفس الوقت ان نؤكد ان جييون كان رجلا متكامل العقل والخلق معا ، كما كان — على حد اعتراف أصدقائه الأقربين — يتحلى بروح انسانية غياضة ! والحق ان تلك صفات كانت تسود تاريخه .

ومن الطبيعي أن تعتد موازنة بين مجرى الامبراطورية الرومانية وبين مجرى التاريخ الأوربي الحديث . وفي ظروف الحياة الناعمة السعيدة منذ ٦٠ عاما عقد لورد بريس Bryco (مؤرخ انجليزى ١٨٢٨ — ١٩٢٢) موازنة مثبوتة بين متسوح القيصر أوغسطس وبين الامبراطورية البريطانية . واليوم قد يجد أولئك الذين يحسون بأنهم يعيشون وسط مدنية متداعية الأركان — يجدون في قصة اضمحلال

الامبراطورية الرومانية مادة غزيرة للمقارنة . وانا أبتكر للقراء ان
يقارنوا لانفسهم ما شاعوا . وثبة تطليق أو إثبات على موقف جيبيون
من الموضوع الذى اختار الكتابة فيه . وقد لا يكون التطليق امرا ثانيا ،
بل ان هذا موضعه .

شرع جيبيون فى تأليف كتابه بعد فترة شباب ثم رجولة مبكرة عكف
فيها على دراسة الآداب القديمة ، وخاصة اللاتينية ، ومن ثم تحكم فى
بظرائمه ما وجد فى تلك الآداب القديمة من مقاييس ومثل ، فقرأ فى معظم
ثنايا مؤلفه يكتب كما لو كان عضوا متقنا فى السناتو (مجلس الشيوخ)
فى أزهى أيام الامبراطورية ، وهنا تكون فكرته من الإضمحلال والفسقوط
امرا طبيعيا لمثل هذا الشيخ عضو السناتو ، على المتراض ان عصر
الأنطونيين كان عصرا ذهبيا حقا ، ولا يضعف من هذا الافتراض
ما أظهرته الأبحاث مؤخرا من حقيقة مؤداها ان الاستقرار الاقتصادى
كان تمويها . فلما أخذ جيبيون نفسه بنظرية الإضمحلال ، لا من ناحية
الرخاء محسوب ، بل على أساس المقاييس الأدبية والفلسفية القديمة
كذلك ، فإنه تابع قصته ، على الأقل حتى سقوط الامبراطورية فى الغرب ،
دون تناقض صارخ . ولم يمنعه حزنه التقليدى ورثاؤه لفقدان الحرية
السياسية من ان يسجل فى بصيرة وفطنة الشيء الكثير من الابتكرات
السياسية والإدارية ، ابتداء من أجيال أوغسطس الى تطبيقات
دقلديانوس وقسطنطين ، وقد يرى القارئ مصادفة ان نبوره من
مراسم البلاط (الامبراطورى) - تلك الى نشأت فى آسيا واقتبسها
دقلديانوس وخلفاؤه ، ثم انتشرت مؤخرا فى كل أوروبا - لم يكن أقل
وضوحا من استهتاره بالدين .

ومن الطبيعى ان يرى جيبيون ، بحكم اتجاهه الرومانى أو
السناتورى ، فى غزوات المتبريرين شيئا أقل من انها كانت موجات من
التخريب والتدمير . ولكن يمكن من زاوية أخرى مختلفة ، كما فعل
بيورى ان ندرك ان الغزاة لم يكونوا يسمون دائما الى التخريب ، بل
يهدفون الى الاندماج فى الرحاب الجميل للحدنية القديمة . ومثل هذا
التباين فى وجهات النظر لابد ان يؤدى الى الاختلاف فى الحكم على
استيطان الشعوب الجرمانية داخل الحدود الامبراطورية . اصف الى
ذلك ان هؤلاء الناس جلبوا معهم كثيرا من الابتكرات التى زادت من
نعيم الحياة الأوروبية ، مما لم تكتشفه دنيا اليونان والرومان قط .

ولكن الأدهى والأمر ان نظرية جيبيون فى الإضمحلال ضلّت به اسريق
الى تاريخ الحضارة البيزنطية ، ومن ثم يجدر اللجوء هذا الى المؤلفين

المحدثين ، علاجاً لهذا الضلال أو تزييفاً ضده . ولا يتبقى أمام الجارى
الا سؤال واحد وهو : كيف يتسنى أن يُقال في جبهة واحدة :
إن القسطنطينية في حالة انحلال مستمر على حين بقيت هذه المدينة
حجماً لأوروبا لفترة تزيد على ألف عام ؟

ومما يكن من أمر ، فيستظل الحقيقة قائمة ، وهى أن الإمبراطورية
في الغرب والشرق قد آذنت بزوال . ولقد شغل المؤرخون المحسنون
أنفسهم بالبحث عن أسباب هذا السقوط ، أكثر منهم برواية أنبأه
نحسب . وليس هناك إتفاق معين بين هؤلاء الباحثين والمحققين .
ماذا وليت وجهك شطر جييون وملاحظاته الهائلة عن غناء الإمبراطورية
في الغرب لوجدته لا يفتش كثيراً عن أسباب السقوط ، قدر ما يعبر عن
دهشته وعجبه من بقاء هذا التنظيم المعقد لعدة قرون ، وقد نمتدح
نحن الذين رأينا تفكك ما كان ينظر إليه باعتباره نظاماً إمبراطورياً
قوية - في بضعة سنين - نمتدح حكمة جييون ونشاطه الدهشة
والعجب .

وما دام المقام يتسع لكل شيء فلنذكر أنها كانت ميزة ومكرمة .
وليست علة أو تقيصة ، أن جييون أقام وسط دنيا الرومان ليكتب
قصصه الذى اقتحم به الى قلب العالم الرومانى ليزودنا بسيرة أصيلة
خالصة مستمدة من المراجع القديمة في تفصيل كامل ، لا يمكن الوقوع
على مثله في أى مؤلف حديث آخر . والحق أن كتاب جييون يسمى على
تفصيل الإمبراطورية الرومانية . لقد ساد الاعتراف بأن الكتاب ملحة
منثورة استعرضت فيها كل حقبة التاريخ . على مستوى علم شامل ،
وإذا كان جييون قد ينظر الى التاريخ على أنه « سجل لجرائم الجنس
البشرى وسقطاته ونكباته » فإن رؤياه هذه ، في سماتها وحنوها ،
تضعه في منزلة أدنى قليلاً من منزلة كبار الشعراء .

وينهج هذا المختصر نهج النص الاصلى لكتاب جييون ، اللهم الا في
استثناء واحد جدير بالملاحظة ، وهو قطعة الافتتاحية التى جاءت تحت
عنوان « تمهيد » ، فقد أخذت هذه القطعة من نهاية الفصل الثالث ،
حيث رثى أنها تشكل فاتحة أفضل من بداية الفصل الاول . ولم يكن
شئاً لمسحة لاختيار القطعتين معاً . وقد عهدنا الى هذا الاستثناء الوحيد
من ترتيب النص الاصلى دون أن نقصد الاستعلاء على رأى المؤلف .
ولما كان كل فصل من الكتاب يشكل قطعة أجاد المؤلف تصورهما
وأخراجها - أو قل حركة فيها أسلفنا وصفه بأنه سمفونية عظيمة .
ولما كانت هذه الحركات كلها تنتهى الى خاتمة مقررّة مؤثرة ، فقد وضعنا
نصب أعيننا أن نثبت فصولاً يرمتها ما استطعنا الى ذلك سبيلاً . وقد

اعترافى بالفضل :

قدم الى كثير من الاصدقاء المشورة والنصح خالصين دون مقابل في عملى هذا ، ولم يفتخر حماسهم في حافزى ودفعى فيه . ولو قبلت كل مقترحاتهم لخرجت بنص كامل لكتاب « الاضطلال والسقوط » . ويستحق مستر فرانك فـ مورلى اجزل الشكر واعظم الامتنان ، لا لجرد تشجيعه الحكيم الرصين فحسب ، بل كذلك لاستعداده التام وسهره الدائب على انجاز المهمة الكبيرة ، الا وهى قراءة التجارب . ويجعل عن التقدير كذلك ما قدمت لى زوجتى من مساعدة قيمة في هذا المضمار . وانى لطيب لى ان انكر الحماس والقطنة والبراعة التى ابداهما مستر كولن هايكرافت Mr. Colin Haycraft فى المراجعة النهائية للمختبرات، واعدادها للطبع ، وكانت له يد صناع طويلة في تصحيح العناوانات والملاحظات المتداخلة فى صلب الكلام ، ولولا ما بذل من عون لبدا العمل ثقيلًا . وانى لمدين اخيراً بأعقب الشكر لأعضاء مؤسسة شاتو ووندس وشركاهم Chatto & Windus Ltd. بالنسبة لهذا الكتاب وغيره منذ سنوات كثيرة مضت ، لعتايتهم واهتمامهم وتببرهم لكل مرحلة من مراحل الاعداد . لئلا هذا النوع المعقد من اعمال النشر .

د . م . لو

كرافن هسل ١٩٦٠

[illegible]

موسم

15

آرمین

f

Die

5

موریت

2.

...

—

العصر الذهبي للأزطونيين

تمهيد (★)

إذا طلبنا إلى إنسان أن يحدد الحقبة من تاريخ العالم التي بلغت فيها أحوال الجنس البشري ذروة السعادة والأزدهار لحددها دون تردد بالفترة التي انقضت بين موت دوميتيان (١) Domitian واختلاء كمودس (٢) Commodus العرش . وكانت الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف تحكمها القوة المطلقة على مدى من الفضيلة والحكمة . وكبح جماح الجيوش أيد حازمة بثقة ، وفي نفس الوقت وديعة رفيعة ، لأربعة من الأباطرة تعاقبوا على العرش ، فرضت سلطتهم وشخصياتهم الاحترام مرصاً . وحافظ روما وبراجان وهادريان والأنتونينيون في غلبة ثابة ، على أشكال الإدارة المدنية ، وكسبوا بطون عيونا بطيف الحرية ، وبيتهجون إذ يعتبرون أنفسهم حباة للقوانين مسئولين عنها . أن هؤلاء الأمراء لينفتحون شرف استعادة الجمهورية ، لو أن المؤننين الرومان على أيامهم كانوا قادرين على التمتع بخريسة تتيسر بالتعقل .

ولقد وفيت أعمال هؤلاء الحكام حقها بهذا الجراء الوفاق الذي اقترن بنجاحهم ، أو على بهذا الاعتزاز الضائق بالفضيلة والسرور البالغ بما يمر الناس من سعادة كانوا هم ضالعيها . ولكن خاطرا مشروعا وحزينا معا كدر أثيل ما يمتنع به الانسان ، لاقهم لا يذ كانوا كثيرا ما يسترجعون أنه لا ثبات ولا استقرار لسعادة تعتمد على شخصية

(★) مقتبس من الفصل الثالث .

(★★) يلاحظ أن أرقام الفصول هنا هي نفسها أرقام الفصول في النص الأصلي الذي

دره جيبون .

(١) نبراطور روما ٨١ - ٩٦ م .

(٢) امبراطور روما ١٨٠ - ١٩٢ م .

رجل واحد ، فربما اقتربت اللحظة المشئومة التي يستغل فيها الى حد
الدمار ، شاب داعر او طاغية حاقد تلك القوة المطلقة التي استخدمها
اولئك الحكام لمصلحة شعبهم . فقد تجدد ضوابط السناتو المثالية ،
وتجدى القوانين ، في نشر الفضائل ، ولكنها لا يمكن ان تقضى على
مساوئ الامبراطور وذائله . وكانت القوة العسكرية أداة للظلم
عمياء تتعذر مقاومتها ، ويمكن ان يخلق فساد الخلق الروماني على
الدوام طائفة من المنافقين الذين يظهفون على الاستحسان والتصفيق ،
من الوزراء المسنعين لخدمة سادتهم ، في ساعة الخوف او الجشع ،
والشهوة الجامحة او القسوة العاتية .

وكان في تجارب الرومان ما يبرر بالفعل هذه المخاوف والظنون
الكثيفة . ذلك ان اتناء الاباطرة تقدم صورة قوية واضحة مبينة
للطبيعة الإنسانية ، من العيب ان نلقسها في الشخصيات المشئومة
المشكوك فيها في التاريخ الحديث ، ومن اليسير ان نتعقب تطرف
الفضيلة والزيلة في سلوك هؤلاء الحكام ، وتترنم فيهم اعظم الكمال
واخط الانتكاس في صنوف جنسنا البشري ، فقد سبق العصر الذهبي
لبراجان والانطونيين عصر حديدي . وقد يكون نافذة من القول ان
نعدد من لا يستحقون الذكر من خلفاء اوجسطس ، فان رذائلهم المنقطعة
النظير والمسرح الفخم الذي مثلت عليه رذائلهم ، ابعث على ذكركم
وانقذهم من التردى الى زوايا النسيان . فقد دمع بالفضيحة والعار
ابد الدهر بييريوس Tiberius الجبار الفاض ، وكاليجولا Caligula
الشرس ، وكلوديوس Cladius الضميف ، ونيرون Nero المجرم الفاضم
وفيتليوس Vitellus البهيمي الكريه ، وديميتيان الجبان الغليظ
القلب . وزحمت روما طوال ثمانين عاما (فيها عدا لفترة توقف قصيرة
مشكوكا فيها ايام حكم مسيلايان Vespasian) تحت نير من الطغيان
لم تخب ناره او يهدا اواره ، ابلد الاسرات القديمة في الجمهورية ،
وكاد يكون ضربة قاضية لكل فضيلة وكل مقدرة او نبوغ ظهر في هذه
الفترة المنكودة .

واقترن استعباد الرومان تحت حكم هؤلاء الجبابرة بظلمين
خاصين ، نجم الاول من الحرية التي تمتع بها الرومان من قبل ، ولشأ
الثاني نتيجة توسعهم في الفتوح ، حتى غدوا في حالة رهبة من الغلظة
التي لم يقدر لاية مريسة من ضحايا الطغيان ان تعانيتها في اي بلد آخر
وفي اي عصر آخر . واستتبع هذان العاملان

١ - سياسة شديدة لدى المظلومين .

٢ - واستخالة الاعلات من يد الظالمين .

١ - كان يحكم الفرس حكام من نسل الصفوى ، وهم جماعة من الأمراء ، كثيرا ما لطخت قسوتهم العاشمة الفاجرة ديوانهم وباندتهم وفراشهم بدم خكصائهم ، حتى انه ليؤثر عن شباب من النبلاء قوله : انه ما انصرف مرة من حضرة السلطان دون ان يقتنع نفسه بان رأسه لا يزال فوق كتفيه . وتكاد خبرة الحياة اليومية تبرر شكوك الفرد هناك ، على انه يبدو أن السيف البتر المتدلى فوق الراس من خيط رفيع واحد ، لم يقض مضجع المواطن الفارسى او يكرر صفو هدونه ، لقد علم حق العلم أن عبوس الملك يطرح به الى الأرض ميتا ، ولأن البرق قد يصمته ، وقد تودى به كذلك نوبة من السمكة القلبية ، وكل أولئك ضريات قاضية على حد سواء . ومن ثم كان على الرجل العاقل أن ينسى البلاء النازل والقضاء المحتوم في حياة الإنسان عندما يخلو الى شيء من متاع الدنيا في ساعة عابرة . لقد كرموه بقولهم انه عبد الملك ، وربما كانوا قد اشتروه من ابوين مجهولين في بلد لم يعلم هو من أبوه شيئا قط ، ونشأ منذ نعومة أظفاره في ظل النظام القاسى في قصر السلطان . وكان اسمه وثروته وأبجاده كلها هبة من عند سيده ، ومن حق هذا السيد أن يسترد ما وهب ، دون أن يكون في ذلك مجالاة للعدالة ، ولا تجدى المعرفة عند العبد ، اذا تيسر له شيء منها ، الا في تثبيت عاداته عن طريق الآراء الفجة ، ولم تتم الفاظه عن اى شكل من اشكال الحكومة اللهم الا الملكية المطلقة . ولقد انبأ تاريخ الشرق أن تلك كانت دوما حل البشر (١) . كما أن القرآن ، ومفسرى هذا الكتاب المنزل من عند الله قرروا له أن السلطان كان من نسل النبى ، وأنه نائب عن الله ، وأن الصبر أول فضيلة ينبغي أن يتحلى بها المسلم ، وأن الطاعة المبيءة هى أهم واجبات الرعية (٢) .

ولكن اذهان الرومان كانت مهياة للعبودية بشكل يختلف عن هذا كل الاختلاف ، لقد كانوا يعانون من الظلم الوانا تحت وطأة

(١) يقول شاردين Chardin ان بعض الرحالة الاوربيين نشروا بين الفرس بعض الافكار عن الحرية والاعتدال في حكومتنا . وقد اساءوا اليهم بذلك ايما اساءة .
(٢) التزامنا هنا كل الامانة والدقة في نقل كلام المؤلف بحروفه وقد لا يقتضى الأمر أن نعلق عليه بالكثير من أن القرآن الكريم والتفسير برينان من هذه الاباء ايل . وتعاليم الاسلام الصحيح أبعد ما تكون عن هذا الذى نشره المؤلف هنا حشرا - (المترجم) .

الفساد الذى تردوا فيه هم أنفسهم ، وتحت وطأة العنف العسكرى ، ولكنهم احتفظوا لزمان طويل باحساسهم — او على الأتمل بفكرتهم ، بأسلافهم الذين ولدتهم أمهاتهم أحرارا . لقد كان تعليم هلفيديوس Helvidius وتاسيتس Tacitus وتراسيا Lutatia وبليني Pliny هو نفس تعليم كانوا وشيخرون . لقد نهلوا من معين الفلسفة اليونانية أنبل الآراء واكثرها تخررا عن كرامة الطبقة الانسانية وعن منشأ المجتمع المذنى . وتعلموا من تاريخ بلادهم أن ينظروا بعين الاحترام الى حكومة جمهورية خيرة فاضلة منتصرة ، وأن يفضوا الجرائم الناجحة التى اقترعها قيصر واوغسطس ، وأن يزدروا فى اعقاب نفوسهم هؤلاء الطغاة الذين عبثوا بمبادئ منافسة احط ما يكون الفناء . وكان مريضا لهم ، بوصفهم قضاة وشيوخا ، فى الدخول الى المجلس الموقر الذى كان يوما يملئ القوانين على العالم ، والذى ظل اسمه ضمانا وسندا لتصرفات الملك او الحاكم ، والذى كثيرا ما انتهكت حرمة سلطته لغلبة ادنا اغراض الطغيان ، وحاول تيبيريوس والاباطرة الذين نهجوا نهجه واعتقدوا ببداهته ان يخلوا جرائم القتل التى يقترعونها تحت ستار من مراسم العدالة وشكليتها ، بل ربما غيرهم شعور خفى من الاغتيال بانهم جعلوا من السناتو شريكا متواطئا معهم ، وغريسة لهم سواء بسواء . وقد ادان هذا المجلس اواخر الرومان بجرائم وهيبة كانت فى واقع الامر فضائل حقبة ، وانتحل المدعون الشاكرون المقيتون لانفسهم لغة المحبين لوطنهم المستقلين بأرائهم ، الذين يستدعون المواطن الخطر الى ساحة المحكمة فى بلده لاستجوابه ، وكان موظفو الدولة يجزؤون الثروة والتكريم ، وكان القضاة الاذلاء يعلنون أنهم يؤكفون جلال وعظمة الدولة التى تمتن كرامتها فى شخص الحاكم الاول ، الذى كان الناس يستحسنون فيه الرأفة والرحمة ايما مديح ، فى نفس الوقت الذى ترتعد فيه لمرائصهم اشد رعدة لما يحيق بهم من قسوته التى لا ترحم ولا تلين ، وقد نظر الطاغية الى خستهم ونذالتهم فى ازراء عاقل ، وواجه مشاعر المقت والبغض الخفية فيهم بكراهية خالصة علنية لهيئة السناتو بأسرها .

٢ — انتهى تقسيم اوربا الى عدد من الدول المستقلة ، التى يربطها بعضها ببعض ، على أية حال ، ذلك التشابه العلم فى الدين وفى اللغة والسلوك — انتهى الى خير النتائج واكثرها احسانا الى حرية الجنس البشرى . ان الطاغية الحديث الذى لا يجد رادعا من نفسه او مقاومة من شعبه ، سرعان ما يلقى وازعا هابئا فى المثل الذى يقدمه .

نظراؤه ، وفي الخشية من لوم الساعة ، وفي نصيح حلفائه وفي توسع الشر من أعدائه . وكان من اليسير على من يفضض عليه الطاغية - وقد خرج من الحدود الضيقة لممتلكاته - أن يجد في بيئة أسعد حالا ، ملجأ آمنا ، وقد بيتسم له من جديد حظ يكافئ استحقاقه ، أو تتوفر له حرية الشكوى ، وربما تيسرت له وسائل الانتقال . ولكن الإمبراطورية الرومانية ملأت آفاق الأرض ، فما إن وقعت هذه الإمبراطورية بين يدي فرد واحد حتى أصبح العالم بأسره سجننا آمنا كثيبا لأعداء هذا الفرد . وكان كل عبد لهذا الجور الإمبراطوري يرتقب في يأس صامت ما يخبئه له القدر ، سواء قضى عليه أن يجسر سلسلته المذهبة في روما أو في السفنات ، أو يفنى حياته في المنفى على الصغور المجيدة في سريفيوس Seriphus أو على الشواطئ المتجمدة للدانوب (١) . وكان في المقاومة هلاكه ، وكان الهرب أمرا مستحيلا ، على كل ناحية كانت تطوقه مساحة شاسعة من البر أو البحر ، لا يمكن أن يراوده الأمل في عبورها في مأمن من اكتشافه والقبض عليه وأعادته إلى سيده الهائج . أما وراء الحدود قلن تقع عيّنات التلهفتان إلا على المحيط ، أو على الصحراء القاحلة ، أو على القبائل المتبربرة الممادية ، ذوى الشراسة واللغة المجهولة ، أو الملوك الاتباع الذين يسعدهم أن يشعروا بحماية الإمبراطور بالتضحية بأي لأجره مقبوت (٢) .

أو كما قال شيشرون لمارسيلس Marcellus وهو في منفاه : « تذكر أنك في قبضة الفاتح وتحت سلطانه أينما كنت » .

(١) سريفيوس Seriphus جزيرة صخرية صغيرة في بحر إيجه ، كان سكانها محتقرين لجهلهم وخمول ذكركم . إن المكان الذي نرى إليه أوليد (الشاعر) معروف تماما عن طريق عويله وبكائه ، والذي لا يليق برجل . ويبدو أنه تلقى أمرا بمغادرة روما في بضعة أيام معدودة ، والانتقل إلى تومي Tumi ، (حصن على البحر الأسود) ولم تلتصق الضرورة حراسا أو مجانين (في المنفى) .

(٢) حاول فارس روماني الهرب إلى بارتيا (مملكة قديمة في الجنوب الشرقي من بحر قزوين) في أيام تيبيريوس ، ولكنه أوقف في مضائق صقلية ، وبدا الخليل من أن يحذر الناس حذوه ، حتى أن أشد الطغاة حقا احتار أن يقاتلوه .

الفصل الأول

(٩٨ - ١٨٠ م)

امتداد الامبراطورية الرومانية ، فكرة عامة عنها

تمت الفتوحات الرومانية الهامة في عهد الجمهورية ، وكنع
الاباطرة في معظم الأحوال بالاحتفاظ بهذه الممتلكات ، التي تم
احرازها بفضل سياسة السناتو ، وتسابق القناصل ، والحساس
العسكري في الشعب . وقد زخرت القرون السبعة الاولى بتتابع
الانتصارات السريعة ، ولكن قدر على اوغسطس أن ينبذ مشروع الطمع
في اخضاع العالم بأسره ، وينفخ روح الاعتدال في المجالس العامة .
وكان يميل الى السلام بطبيعته ويحكم موقفه ، ولذلك كان من اليسير
عليه أن يكشف أن أمل روما - بمكانتها الرخيصة الحالية - في امتشاق
الحسام أقل كثيرا من تهيئها له ، وأن مواصلة القتال في الحروب
الفائية كانت عبئا يزداد في كل يوم مشقة وعناء ، بقدر ما يزداد الشك
في النتيجة ، ويخلخل الاستقرار في الممتلكات ، ويقل نفعا . وزادت
نجربة اوغسطس من قية هذه الآراء السديدة ، واقنعته بالفعل أنه
بفضل نصائحه القوية الحكيمة ، يسهل على روما أن تحصل من
هؤلاء المتبربرين المروعين على كل ما تتطلبه سلامتها وكرامتها من
تنازل أو اذعان ، فتوصل بمقتضى معاهدة مشرفة - بدلا من تعريض
نفسه وقواته لسهام البارثيين - الى استعادة الاعلام والأسرى
الذين أخذوا في هزيمة كراسو .

وحاول قواده ، في مسهل حكمه ، اخضاع اثيوبيا والجنوب
العربي ، وساروا نحو الف ميل الى الجنوب من مدار السرطان ،
ولكن حرارة الجو ردت الغزاة على أعقابهم ، وجمت السكان غير
المحاربين في هذه الأقاليم المنعزلة . أما دول أوروبا الشمالية فكانت
لا تكاد تستحق عناء الغزو ونفقته . وكانت غابات ألمانيا وبطاحها .

تموج بقبيلة ذات بأس شديد من المثبرين الذين كرهوا الحياة إذا لم تقترن بالحرية . وبدا أنهم استسلموا لأول ضربة تحت ضغط القوة الرومانية ، ولكنهم رغم ذلك ، سرعان ما استردوا استقلالهم بعد محاولة يائسة مستهينة ، ونكروا أوغسطس بقتليات الحظ . وعند وفاة هذا الامبراطور قرئت وصيته علنا في السناطو ، فإذا به قد أوصى لخلفائه من بعده بتراث قيم ، ذلك أنه قدم لهم النصيح ببقاء الامبراطورية ، داخل تلك الحدود التي يبدو أن الطبيعة نفسها قد جعلت منها حصونا وحدودا ثابتة دائمة للامبراطورية : اعني المحيط الأطلسي غربا ، والراين والدانوب شمالا ، والفرات شرقا ، وصحراء العرب وصحراء افريقية جنوبا .

ولحسن الحظ ، ولطمانينة الجنس البشرى وهدوئه ، نجد ان أسلوب الاعتدال الذي اتيقن عن حكمة أوغسطس ، انتهجه خلفاؤه المباثرون على أساس من مخاوفهم ورذائلهم . فقد انغمس القيامة الأولى في اللهو وانصرفوا الى الظلم والطغيان ، ومن ثم ندر ظهورهم مع الجيوش ، أو في الولايات ، كما أنهم لم يكونوا مستعدين ليروا في لومة أن هذه الانتصارات التي أهملها خمولهم وتراخيهم قد يفتصبها قوادهم بفضل تدبيرهم وجراتهم وشدة بأسهم . وكانت الشهرة العسكرية لاي فرد من الرعية تعتبر عدوانا صارخا على الامتيازات أو الحقوق الامبراطورية ، ومن ثم كان من واجب أي قائد روماني أن يحمي الحدود التي هو مكلف بحراستها ، دون التطلع الى فتوح قد يثبت أنها ليست أقل خطرا على شخصه منها على المثبرين المهزومين .

ولم يزد على الامبراطورية الرومانية في القرن الأول المسيحي سوى ولايسة بريطانيا ، وهذه هي المرة الوحيدة التي أغرى فيها خلفاء قيصر وأوغسطس بأن يحذوا حذو الأول أكثر منهم باتباع وصية الثاني . ويبدو أن قرب بريطانيا من شواطئ الغال هو الذي استحث القتال ، كما أسال اللعاب وحرك الأطماع أبناء سعيدة ، قد تكون مشكوكا في صحتها ، عن وجود مصائد اللؤلؤ . ولما كان ينظر الى بريطانيا على أنها عالم متميز بمنزل ، فإن فتحها لم يكد يشكل أي استثناء للأسلوب العام لاجراءات الفزو داخل القارة . وخضيم معظم الجزيرة للنير الروماني بعد حرب دامت نحو أربعين سنة ، حرب بداها أفبي الأباطرة ، واستمر فيها أكثرهم فسقا وفجورا ، وأنهاها أشدهم جبنا . وكانت مختلف قبائل البريتون ذوات بأس شديد ، ولكن دون

تدبير أو قيادة ، كما تملكهم خب الحرية دون زوج الوحدة ، فقد
يشهرون اسلحتهم في وحشية عاتية ، وقد يضعونها ، أو يستدونها الى
مدور بعضهم بعضا ، وكل اولئك في تطلب سريع طائش ، لما قاتلهم
الرومان وهم على هذه الحال من الفرقة ، امكن اخضاعهم تباعا . ولم
يجد باس كاراتاكوس Caractacus (أحد رؤساء القبائل) أو استمانة
الملكة بوديكا Boadicea ، أو تعصب الدروود Druids (مذهب الكلت
الدينى قبل المسيحية) — لم يجد كل اولئك نفعا في الحيلولة دون
استيلاء بلادهم أو في مقاومة التقدم المطرد للقادة الامبراطوريين
الذين حافظوا على المجد الوطنى ، على حين تلوثت كرامة العرش
ولحقه العار بجلوس أرذل بنى الانسان واضعهم عليه . وفى نفس
الوقت الذى قبع فيه دوميتيان فى قصره شاعرا بما أشاعه من رعب
وارهاب ، هزمت جيوشه تحت إمرة أجريكولا الفاضل ما تجمع من
قوات كاليدونيا (الاسم القديم لاسكتلنده) عند سفح تلال
جرايبان ، وقامت اساطيله — عندما قامت بارتياح طريق بحرى
خطير مجهول — باستعراض الأسلحة الرومانية حول الجزيرة
البريطانية بأسرها واعتبر فتح بريطانيا أمرا مفروغا منه . وكانت خطة
أجريكولا ، استكمالاً وتوكيدا لنجاحه ، أن يغزو ايرلنده ، وتلك مهمة
يسيرة يكفى لها — فى رأيه — فيلق واحد وقليل من القوة المساعدة ،
ومن الميسور اصلاح احوال هذه الجزيرة الغربية لتصبح درة
ثينة فى الممتلكات الرومانية ، وعندئذ يكون البريتون اقل ضجرا
وابتعاضا بالأغلال والقيود التى وضعت عليهم ، اذا أزيح من أمام
أعينهم ، أينما اتجهت أبصارهم ، نموذج الحرية ومنظرها .

ولكن سرعان ما اقتضت مقدرة أجريكولا الفائقة ابمصاده عن
حكومة بريطانيا ، واختفى بذلك الى الأبد مشروع الفتح المعقول
والضخم معا . وعلى هذا القائد الحازم قبل رحيله على استتباب
الامن والسيطرة سواء بسواء ، وكان قد لاحظ أن الجزيرة تكساد
تقسم الى قسمين غير متساويين ، بالخلجان المتقابلة التى يطلق عليها
الآن مضائق اسكتلنده ، ناظم فى نحو ٤٠ ميلا من الجزء الداخلى
الضيق خطا من المحطات العسكرية التى جرى تحصينها فيما بعد .
فى عهد أنطونينوس بيوس Antoninus Pius ، بحاجة أخضر مشيد
على اساس من الحجر . وتقرر أن يكون سور أنطونينوس هذا ، وهو
على مسافة قصيرة وراء المدينتين الحديثتين انبره وجلاسجو ، مسدا
للولاية الرومانية . واحتفظ أهل كاليدونيا فى الاطراف الشمالية من

الجزيرة ، باستقلالهم الهيجى ، الذى لم يكن الفضل فيه لفقرهم اقل منه لبسالتهم . وكثيرا ما صعدت غاراتهم وعوقبوا عليها ، ولكن لم يتم اخضاع بلادهم قط . وانصرف سادة أجمل بقاع الارض مناخا واكثرها رخاء ، فى احتقار وازدراء ، عن هذه القلال الكثيفة التى تحتاحها عواصف الشتاء ، وعن البحيرات التى تختفى تحت الضباب الأزرق ، وعن المروج الباردة الموحشة التى كانت جماعات المتبربرين المرأة تطارد فوقها غزلان الغابات .

تلك كانت حال الحدود الرومانية ، وتلك كانت مبادئ السياسة الامبراطورية ، منذ موت أوغسطس حتى اعتقال تراجان العرش . وتلقى هذا الأمير الفاضل النشيط تعليما عسكريا ، وتجلت فيه صفات القائد . وقطعت مشاهد الحرب والغزو أسلوب السلام الذى انتهجه اسلامه ، وابتضرت القوات بالامبراطور العسكرى على رأسها بعد سكون طويل الأمد . ووجهت أول أعمال تراجان الباهرة ضد الداشيين Dacians ، وهم محاربون أشداء كانوا يقطنون غيما وراء الدانوب ، نالوا من هبة روما ، وجرحوا كبرياءها فى عهد دوميتيان دون أن يلقوا جزاءهم ، وقد جمعوا الى قوة المتبربرين ووحشيتهم ، احتقارا للحياة نابعا من اقتناعهم الشديد بخلود الأرواح وتناسخها . وارتضى ديكيالوس Decebalus ملك داشيا أن يكون خصما جديرا بتراجان ، كما لم يتطرق الى نفسه اليأس من حظه هو أو حظ شعبه عامة ، حتى استنفد - باعتراف اعدائه - كل موارده من البسالة والسياسة . واستمرت هذه الصرب المشهودة خمس سنوات ، مع توقف قصير جرت خلاله بعض المناوشات . ولما كان الامبراطور يستطيع دون رقابة أن يستغل كل امكانات الدولة ، فقد انتهت هذه الحرب بخضوع المتبربرين خضوعا تاما . وكانت ولاية داشيا الجديدة هى الاستثناء الثانى من وصية أوغسطس وناموسه . وكان محيطها يبلغ نحو ١٣٠٠ ميل . وكانت حدودها الطبيعية هى نهر الدنيستر ، والديس ، والدانوب الأدنى ، والبحر الأسود . وما تزال بعض آثار الطريق الحربى باقية يمكن تعقبها من ضفاف الدانوب الى أرياف بندر Bender - وهو مكان مشهور فى التاريخ الحديث - وهو الحد الفعلى للامبراطوريتين التركية والروسية .

وكان تراجان ينطمع فى الشهرة ، وظالما داب البشر على المبالغة فى التحليل لمخطئه أكثر منه للمحسنين اليه ، فسيذل القمطر الى المجد العسكرى سيئة اعظم الشخصيات المجددة ، واقد افكى نار الغيرة الخطيرة فى قلب تراجان ما ردهه الشعراء والمؤرخون على مر الزمان

من مديح الاسكندر والثناء عليه . وهذا امبراطور الرومان هذو الاسكندر ، فأنفذ حملة الى ايم الشرق ، ولكن ذهبت نفسه هسرات على ان تقدمه في العمر لا يكاد يدع له فسحة من الامل في ان يضارع ابن فيليب (الاسكندر) في شهرته . على أن نجاح تراجان ، مهما كان عابراً ، فانه كان كذلك سريعاً لا يدل مظهره على مخبره . فان البارثيين المنحطين الذين حطمهم النزاع الداخلي ولوا الادبار امام قسواته . واخذ تراجان طريق دجلة من جبال ارمينيا الى الخليج الفسارسي (خليج العرب) وحظي بشرف كونه اول قائد روماني — وآخر قائد روماني كذلك — يخر عياب هذا البحر السحيق ، نهبت اساطيله شواطئ بلاد العرب ، وعبنا زين تراجان لنفسه انه كان يقترب من حدود الهند . وكان السناتو المذهول يتلقى كل يوم انباء عن اسساء جديدة وامم جديدة اعترفت بسلطانه عليها . كما ترامت اليهم الانبياء بان ملوك البسفور وكولكيس Colchis وايبيريا والبانيا واسرهين Osraene ، وحتى ملك بارثيا نفسه ، وارتضوا ان يتسلموا تياجانهم وعروشهم من يد الامبراطور ، وان القبائل المستقلة في تلال ميديا وكردوش توسلت اليه ليمسح حمايته عليها ، وان البلاد الفنية : ارمينيا ، وما بين النهرين (ميزوبوتاميا) وآشور قد اصبحت ولايات تابعة له ، ولكن ، سرعان ما اقتتت هذه الصورة الرائعة بموت تراجان ، وكان حقا توجس الخيفة من انتفاض كثير من الامم البعيدة وخلصها هذا النير الذي لم تالفه ، بعد أن تراخت قبضة اليد القوية التي فرضته حول الرقاب .

وتقول اسطورة قديمة انه حين اسس احد ملوك الرومان الكابيتول فان الاله ترمينوس Terminus (الذي رابط على راس الحدود ، وكان يمثله طبقسا لأسلوب ذاك الزمان حجر كبير) هذا الاله وحده — دون الآلهة التي هي اقل شأنا — هو الذي كان يرفض التخلي عن مكانه للاله جوبيتر نفسه . وقد اتخذ من عناد ترمينوس دليل مقبول فسره المراقون على انه نبوءة اكيدة بان حدود سلطان الرومان لن تنقلص قط ، وكانت النبوءة على مر العصور تسبم في مدى تحقيقها هي نفسها ، كما هي العبادة . ولكن الاله ترمينوس الذي قاوم عظمة جوبيتر استسلم لسلطان الامبراطور هادريان . وكان اول مظاهر عهده التخلي عن كل فتوحات تراجان في الشرق . فاعاد الى بارثيا حق اختيار ملك مستقل ، وسحب الحاميات الرومانية من ولايات ارمينيا وميزوبوتاميا وآشور . وتمشييا مع تلموس أوغسطس ، جعل الفرات مرة أخسرى هذا للامبراطورية .

ومن ثم ضاعت في زوايا النسيان لهجات ايطاليا القديمة ، مثل لهجة السابين Sabine (قبائل سكنت جبال الابنين في وسط ايطاليا) ، ولهجة اتروريا ، ولهجة فينيسيا ، ولكن الولايات كانت في الشرق اقل منها في الغرب تقبلا لتوجيه تعليمهم الظافرين . وكشف هذا الفارق السارز بين شطرى الامبراطورية عن تباين في الالوان كان مختلفا نوعا ما في ذروة الازدهار ، ولكنه تكشف واستبان مع الايام حين بدأ الليل يسدل استار الظلام على دنيا الرومان . لقد بعثت الحضارة في اقطار الغرب على ايدي من اخضعوها ، وما ان اخذ المتبريرون الى الطاعة حتى تفتحت اذهانهم لكل طارق من الوان المعرفة والتعذيب ، وعمت لغة فرجيل وشيشرون ، مع شيء من خليط لا مفر منه ، افريقيا واسبانيا والغال وبريطانيا وبانونيا Pannonia (ولاية رومانية قديمة كانت تقع بين نهري الدانوب والساف) الى حد ان الآثار الباهتة لمصطلحات اللغتين اليونانية (الفينيقية) والكنية لم يعد لها وجود الا في الجبال او بين الفلاحين . وكان للتعليم والدراسة فعلها في استئطام اهل تلك البلاد لمشاعر الرومان وعواطفهم دون ان يحسوا . وعملت روما على تكييف اهل الولايات اللاتينية وتشكيلهم ، كما زودتهم بالقوانين . ولشد ما هنت نفوسهم الى الحرية والى ايجاد الدولة ، وما كان ايسرها منالا لهم . وعززوا الكرامة الوطنية بالكلمة وبالسلاح ، واخيرا صنعوا من شخص تراجان امبراطورا لم يكن آل اسكيبو Scipios ليخلوا عنه لواحد من ابناء جلدتهم . وكان موقف الاغريق يختلف عن موقف المتبريرين . فلقد طال عهد الاولين بالمدينة وبالفساد . وكان بهم ميل شديد الى هجر لغتهم ، ولكن الفرور استبد بهم الى حد العزوف عن اقتباس اية نظم اجنبية . واحتفظوا بما كان يملك اسلافهم من روح التحيز بعد ان فقدوا فضائلهم ، ومن ثم تصنعوا احتقار ما كان للرومان الفاتحين من سلوك خشن غير مستقول ، على حين اضطروا الى احترام قوتهم وحكمتهم السامية (١) . وكذلك لم تكن العواطف واللغة اليونانية محصورة في النطاق الضيق لهذا البلد الذي ذاعت يوما شهرته . ذلك ان امبراطوريتهم — اليونان — امتدت عن طريق المستعمرات والفتوح من الانرياتيكا الى الفرات والى النيل ، وامتالت آسيا بالمدن اليونانية . واحداث الحكم المقدوني الطويل في سوريا ومصر انقلابا صامتا ، ولقد

(١) ليس هناك ، فيما اعتاد ، من ديونيسيوس Dionysius الى ايبانيوس Ibbanion واحد من القاد اليونانيين ذكر فرجيل او هوراس . وكانى بهم مجهول ان بين الرومان كتابا كبارا .

واتجه اللوم الذي ينصب عادة على الأعمال العامة والبواعث الخاصة للحكام ، اتجه الى أن يرجع الى الشعور بالحقد تصرفا كان يمكن نسبه الى حزم هادريان واعتداله ، وكانت شخصية هادريان متعددة الجوانب ، فهو قدير ، تنقلب عليه نوبات من احط المشاعر وانبلها ، الأمر الذي يفسر الشك نوعا ما ، ومهما يكن من أمر ، فإنه ما كان في مكنه أن يبرز تفوق سلفه بشيء أكثر من اعترافه بأنه غير أهل لمهمة الدفاع عن فتوح تراجان .

إن روح تراجان العسكرية الطموحة لتشكل تباينا فريدا مع اعتدال خلفه . على أن النشاط القلق عند هادريان لم يكن أقل اعتبارا إذا قيس بالسكون الهادئ عند أنطونينوس بيوس ، وتكاد حياة الأول تكون رحلة متواصلة ، وطالما أوتى مواهب الجندي ورجل الدولة ، والرجل العالم ، فقد أشبع فضوله وجبه للاستطلاع في النهوض بأعباء وأنجبه . وما كان ليأبسه بالاختلاف بين الفصول والأجواء ، لمشي على قدميه عاري الرأس فوق ثلوج كاليدونيا ، ولسهول اللانحة في مسعد مصر ، ولم تبق في الإمبراطورية طوال حكمه ولاية لم تحظ بشرف قدوم الإمبراطور إليها ، على حين قضى أنطونينوس بيوس حياته الناعمة في أحضان إيطاليا . وفي السنوات الثلاث والعشرين التي قضاها في إدارة البلاد ، لم تطل رحلة هذا الأمير المحبوب لأكثر من المسافة بين قصره في روما وبين غيلا لانونيا حيث يستريح ويستروح .

ورغم هذا الاختلاف في سلوكهم الشخصي ، انتهج هادريان والإمبراطوران الأنطونينيان ، بنفس القدر ، الأسلوب العام لأوغسطس ، وأتبعوه هذا الفعل بالنمل ، فاستمسكوا بخطة المحافظة على هيئة الإمبراطورية وكرامتها دون محاولة منهم لتوسيع حدودها . فتذرموا بكل وسيلة شريرة لمصادقة المتبريرين ، وحاولوا اقناع بني الإنسان بأن القوة الرومانية تتسلم على شهوة الفتح ، وأنها لا تتميل إلا حبا في اقرار النظام والعدالة . وكللت أعمالهم الفاضلة بالنجاح طوال فترة طويلة امتدت الى ثلاثة وأربعين عاما . وإذا استثنينا بعض المناوشات البسيطة التي أعادت في تمرين فرق الحدود ، فإن حكم هادريان وأنطونينوس بيوس يقدم صورة جميلة للسلام العالي . وأصبح اسم الرومان موضع اجلال واحترام لدى أبعد أمم الأرض . وكثيرا ما بسط أشد المتبريرين وحشية خلافاتهم للإمبراطور لتحكيمه فيها . وبينما مؤرخ معاصر أنه رأى سفراء يقوسلون للترخيص لهم في أن يكون لهم حرف المواطنة ، فلم يسمح لهم بهذا الشرف .

فكرة عامة عن الامبراطورية الرومانية (★)

أن هذا الثبت الطويل من الولايات التي تكون من فئاتها كثير من الممالك القوية ، غالباً ما يحملنا على أن نغفر للأقدمين غرورهم أو جهلهم . ولقد سمح الأباطرة لأنفسهم - وقد بهر أبصارهم اتساع النفوذ ، والقوة الجبارة ، والاعتدال الحقيقي أو المصطنع - أن يحتقروا أو ينسوا أحياناً تلك الأقطار النائية التي تركت لتتمتع باستقلال همجي . ثم انهم ، شيئاً فشيئاً ، اغتصبوا الحق في الخلط بين الملكية الرومانية والكرة الأرضية جمعاء . ولكن فطرة المؤرخ الحديث وعلمه بما يتطلبان لغة أدق وأرشد . فقد يرسم لعظمة روما صورة أعدل ، فيقول أن الامبراطورية كانت تبلغ أكثر من ألفي ميل عرضاً ، من سور أنطونينوس والحدود الشمالية لداشيا إلى جبال أطلس ومدار السرطان ، وأنها امتدت طولاً لأكثر من ثلاثة آلاف ميل ، من المحيط الأطلسي إلى الفرات ، وأنها كانت واقعة في أجمل بقاع المنطقة المعتدلة ، بين خطي عرض ٢٤ و ٥٦ من خطوط العرض الشمالية ، وأنها كانت تضم مساحة قدرها مليون وستمائة ألف ميل مربع ، معظمها أرض خصبة يكسوها أحسن الزرع .

(★) حذف الكلام هنا عن القوات المسلحة والولايات .

الفصل الثانى

(٩٨ - ١٨٠ م)

الاتحاد والازدهار الداخلى فى الامبراطورية الرومانية

الولايات والآثار ، تحسين الزراعة

ليس لنا أن نقيس عظمة روما بسرعة الفتوح ومسدى اتساعها فقط ، فإن ملك الصحراء الروسية يسيطر على جزء من الكرة الأرضية أكبر من الامبراطورية الرومانية ، كما أن الاسكندر اقام فى الصيف السابع من عبوره مضيق الدردنيل ، النصب التذكارية على ضفاف هيفاسس Hyphasis فى مقدونيا . وفى اقل من قرن شن جنكيزخان الجبار وامراء المغول من بنى جلدته هجماتهم العنيفة الكاسحة المدمرة واقاموا امبراطوريتهم العابرة من بحر الصين الى حدود مصر والمانيا . ولكن حكمة العصور هى التى رفعت قواعد الصرح الثابت للقوة الرومانية ، وهى التى حافظت عليه . فقد وحدت القوانين بين الولايات الطبيعية على عهد تراجان والأنطونيين ، كما ازدهرت فيها الفنون ، وربما عانت الولايات أحيانا من استغلال غير نزيه للسلطة المخولة لبعض حكامها ، ولكن المبدأ العام للحكومة كان مبدأ حكمها بسيما خيرا ، ولقد تمتعوا بممارسة دين أسلافهم ، على حين أنهم بالنسبة لالوان التكريم والمزايا المدنية كانوا يتمتعون بمراتب ودرجات عادلة ، الى حد التساوى مع الفزاة الفاتحين .

١ - كانت سياسة الإباطرة والمستوفىها يتملق بالدين تظاهر فى ارتياح تام ، سواء بسواء ، آراء المستنيرين وعادات ذوى الخرافات من الرعايا ، تلك التى كانت جزءا لا يتجزأ من حياتهم . واعتبر الناس فى دنيا الرومان أن مختلف ألوان العبادة صادقة نحققة على قدم المساواة ، كما اعقبرها الفلاسفة باطلة كاذبة على قدم المساواة كذلك ،

كما تساوت جميعها في اعين الحكم على انها مقيدة . ومن ثم لم يؤد هذا التسامح الى الساحة المتبادلة فحسب ، بل الى وثام ديني كذلك .

ولم تكن ثمة اخلاط من ضغائن او حزازات لاهوتية تنفص دنيا الخرافة (العقائدية) عند الشعب ، كما انه لم تحدد منها اية قيود يفرضها اى اسلوب من اساليب التأمل . وكان المشرک الورع يسلم بكل اديان العالم عن اعتقاد راسخ ، رغم التزامه الشديد بشعائره وطقوسه الوطنية الخاصة . وكان الخوف وعرفان الجميل والفضول ، والحلم أو الفأل ، والاضطراب الشاذ أو الرحلة البعيدة ، كل أولئك كان يحمله على الاكثر من اصول عقيدته والاستزادة من عدد حباته (معبوداته) . وكان النسيج الرفيع للميثولوجيا الوثنية منسجراً ببلاد مختلفة ولكنها غير متنافرة ، ولما أساغوا القول بأن الحكماء والأبطال الذين عاشوا أو قضوا نحبهم في سبيل مصلحة بلادهم قد سمو الى مرتبة القوة والخلود ، ساد الاعتراف بانهم جديرون على الأقل باحترام الجنس البشري واجلاله ، ان لم يكونوا جديرين بالعبادة . وكان كل اله من آلهة الآلاف من الغابات والأنهار يحتفظ في هدوء بنفوذه المحلي الخاص به . فلم يكن الروماني الذي يستعبد من غضب التبير ، يستطيع أن يسخر من المصري الذي يقدم القرين للنيل لعبقريته الخيرة . وكانت القوى المرئية للطبيعة والكواكب والعناصر هي هي نفسها في انحاء الكون بأسره ، أما حكام دنيا الأخلاق غير المرئيين فقد صبوا بالضرورة في قوالب متشابهة من الخيال والمجاز . وكانت كل فضيلة ، بل قل وكل رذيلة ، تتطلب ممثلاً الهياً لها ، كما تتطلب كل فن وكل حرفة حامياً وراعياً ، وقد اشتقت منذ أقدم العصور خصائصهم وصفاتهم جميعاً ، على نسق واحد ، من أخلاق المتعلقين بهم . ومثل هذه الجمهورية من الآلهة المتعارضين في الأمزجة والطباع والمصالح كانت تتطلب ، بكل الوسائل ، يدا ملطفة لحكم أعلى أسبغ عليه بالتدريج ، وتبعا لتقدم المعرفة والفن في التلق ، الكمال الفائق لأب أزلي وملك على كل شيء قدير . تلك كانت روح الاعتدال في العصر القديم ، حتى ان الأمم آنذاك كانت أقل التفاتاً الى وجوه الخلاف ، منها الى وجوه الشبه ، بين ببادانها الدينية . ولقد سهل على الاغريق والرومان والتبربرين — عندما كانوا يقفون — كل أمام مذبحه الخاص — أن يقنعوا أنفسهم بأنهم جميعاً يعبدون نفس الآلهة ، وان تعددت الاسماء والطقوس ، وقد أضفت أساطير هوميروس الطريفة على تعدد الآلهة في العالم القديم شكلاً جميلاً يكاد يكون قياسياً .

ولقد استعيط فلاسفة اليونان أخلاقياتهم من طبيعة الإنسان أكثر منها من طبيعة الله . أنهم ، على أية حال ، تأملوا طويلا في الطبيعة الالهية بوصفها موضوعا للتأمل يبالغ الغرابة والاهمية ، كما أنهم في استقصائهم العميق عرضوا لمواطن القوة والضعف في ادراك الإنسان . ومن بين المدارس الأربع المشهورة ، حاول الرواقيون والأفلاطونيون أن يوائموا بين المصالح المتنافرة للعقل والتقوى ، وقد خلفوا لنا أربع البراهين على وجود « العلة الأولى » وضروب الحال فيها . ولكن لما استحال عليهم ادراك خلق المادة ، بات « الصانع » في فلسفة الرواقيين غير متميز الى حد كاف عن الصنعة ، على حين أنه على النقيض من ذلك ، كان « الاله الروحي » عند أفلاطون وتلاميذه ، فكرة أكثر منه مادة . أما الأكاديميون (النظريون) والأبيقوريون فإن المسحة الدينية في آرائهم كانت أقل ، ولكن في الوقت الذي فيه حمل الأولين عليهم المتواضع على الشك في وجود « العناية الالهية في حاكم أعلى » ، حرض الآخرين جهلهم الأكيد على انكار ذلك . وادت روح الاستقصاء — وقد أفكتها المنافسة والتفاخر ودعمتها الحرية — الى انقسام اساتذة الفلسفة الى تشكيلة من الفرق المتنازعة . ولكن الشيايب الذكي الذين نزحوا الى أثينا وإلى مراكز الدراسة في الإمبراطورية الرومانية ، لقنوا جميعا في كل مدرسة أن ينكروا ويزدورا ديانة صلبة للناس . قل لي بريك كيف كان يمكن أن يتقبل فيلسوف قصص الشعراء التافه أو التقاليد القديمة المفككة المتنافرة على أنها حقائق الهية ، أو بعيد ، على أنها آلهة ، هذه الكائنات الناقصة المعيبة التي احتقرها على أنها رجال ؟ ولقد ارتضى شيشرون أن يشرع سلاح العقل والبيان ضد هؤلاء الخصوم الذين لا قيمة لهم . ولكن هجاء لوشيان كان سلاحا أكثر ملامية ومضاء في وقت معسا . ومن المؤكد أن أي كاتب مطلع على العالم ما كان ليجرؤ على تعريض آلهة بلده للتسفيه العام ، إلا إذا كان الآلهة أنفسهم موضع زراية خفية بين الطبقات المهذبة المستنيرة في المجتمع .

وكانت مصالح الكهنة وسلامة نوايا الناس وسرعة تصديقهم موضع الاحترام ، رغم ما كان سائدا من الكفر وعدم التدين على عهد الأنطونيين . فقد أكد الفلاسفة القدامى في كتاباتهم ومحادثاتهم المقام المستقل للعقل ، ولكنهم لبوا في تصرفاتهم داعي القانون والعرف . وفي ابتسامة تتم عن الاشفاق والتغاضي عن مختلف أخطاء الرعاع ، نشطوا في نادية طقوس آبلتهم ، وعكفوا في تقى وورع في معابد الآلهة ، بل لقد ارتضوا أحيانا أن يمثلوا دورا على مسرح الخرافة . وكانى بهم ،

في هذا كله أخفوا مشاعر الإلحاد تحت رداء الكهنوت . ولا يكاد يميل من بتطبعون بهذا الطبع الى الحاجة في صنوف معتقداتهم أو عباداتهم الخاصة بهم ، ولم يكونوا يكثرثون ، بل كان يستوى عندهم أى شكل من الحماية يأخذ الجمهور أنفسهم به ، ومن ثم قصدوا — مع ما يخفون في أنفسهم من احتقار ، بما يبدون في الظاهر من أجلال — قصدوا الى مخبح الاله جوبيتر في ليبيا أو في أولمبيا أو في إلكايتول في روما .

وليس من اليسير ان ندرك لماذا برزت روح الاضطهاد في المجالس العامة الرومانية ، وماذا كانت بواعثها . وما كان التعصب الاممى ، مهما كان مخلصا ، ليستفز الحكام ، لانهم كانوا هم أنفسهم فلاسفة ، كما ان مدارس الفكر في اثينا زودت السفاتو بالقوانين . وما كان الطموح أو الجشع ليسوقهم الى شيء ، لان السلطتين الزمنية والدينية كانتا متحدتين في قبضة واحدة . وكان الاعبار يختارون من بين المتنازعين من اعضاء السفاتو ، أما منصب الحبر الاعظم فان الإباطرة أنفسهم كانوا يشغلونه . ولقد عرفوا وقدروا مزاييا الدين بوصفه متصلا بالحكومة المدنية ، وشجعوا الاحتفالات العامة التي تصقل الشعب وتهذب خلقه ، وأخذوا بأنائين الكهانة والعرافة بوصفها أداة مناسبة من أدوات السياسة . ونظروا بعين التقدير والاحترام ، وكأنه أوثق رباط في المجتمع ، الى ما وقر في الأذهان من اعتقاد يقينى نافع بأن آلهة الانتقام ستمتدب جريمة شهادة الزور أو الحث في اليأس ، ان عاجلا أو آجلا ، في الحياة الدنيا أو في الحياة الثانية . ولكننا نجد أنهم بينما سلموا بالمزايا العامة للدين ، انتمعوا كذلك بأن يختلف أشكال العبادة انما تعاون بنفس القدر على تحقيق نفس الأغراض السليمة . وان لون الخرافة الذى أجازوه وأقره الزمن والاختيار في كل بلد ، هو احسن ما يصلح للناس ولللسكان فيه . وكثيرا ما سلب الجشع والتوق الأمم المقهورة الثمانيات الرشيقنة آلهتها والزخارف الثمينة لمعبدها . ولسكنهم في ممارسة الديانة التي أخذوها عن أسلافهم ، نعموا دواما بقسامح الفاتحين من الرومان بل وبحمايتهم . ويبدو أن ولاية الفسال — والواقع انها تبدو فقط — هي الوحيدة التي شذت عن قاعدة التسامح العام الشامل هذا ، ذلك أن الامبراطورين تيبيريوس وكليديوس تمعسا من السلطان الرهيب الذى كان لطائفة الدروود (Druids) ديانة الكلت في فرنسا وبريطانيا وايرلندة قديما) بحجة زائفة هي ابطال تقديم القرابين من البشر . ولكن الكهنة أنفسهم وآلهتهم ومذابحهم عاشوا في غموق وخفاء وهدوء حتى قضى على الوثنية قضاء نهائيا .

وزخريت روما ، عاصمة المملكة العظيمة ، دوما بالرعليا والغرباء من كل أرجاء العالم ، الذين كانوا ينعمون فيها ويخلصون اليها خرافاتهم المحيية اليهم في أوطانهم . وكان لكل مدينة في الامبراطورية حق المحافظة على نقاوة احتمالاتها القديمة وأصالتها ، وكان السناتو الروماني ، بما له من حق عام ، يعترض في بعض الاحيان ليحول دون طغيان الطقوس الاجنبية . وطالما حرمت الخرافات المصرية ، من بين ادنا الخرافات وأجدرها بالزراية ، كما هدمت معابد سيرابيس Serapis (اله العالم السفلي) وايزيس ، وأبعد عبادهما عن روما وايطاليا . ولكن حباس التعصب تغلب على الجهود الفائرة الهزيلة للسياسة ، فعاد المنفيون ، كما تضاعف عدد المريدين ، وأعيدت المعابد أكثر ضخامة وفخامة ، وتبوا سيرابيس وايزيس في النهاية مكانهما بين الالهة الرومانية . ولم يكن هذا التساهل خروجاً على سنن الحكم القديم ، فكم دعيت سيبييل Cybele الهة الطبيعة (واسكولابيوس Aesculapius (اله الطب والشفاء) في أزهى عصور الجمهورية ، عن طريق بعثات وقورة . وكان من المألوف اغراء حياة المدن المحاصرة بالومد بأن يختصوا بالوان من التكريم أفضل مما في بلادهم ، وأصبحت روما يوماً بعد يوم المعبد المشترك لرعاياها جميعاً ، وأسبغت حرية المدينة على كل آلهة الجنس البشرى .

٢ - أن النظرة الضيقة لسياسة الاحتفاظ بنقاوة دم المواطنين القدامى دون أن يشوبه أى دم اجنبى ، هوقت أثينا واسبرطة ، وعجلت بفنائهما . ولكن العبرية المتطلعة في روما ضحت بالفرور في سبيل الطبوح ، وقدرت أنه من دواعى الكياسة والحزم والشرف مما أن تقتبس الفضيلة والموهبة حيثما وجدتا : بين الرقيق أو الغرباء أو الأعداء أو المتبريرين على حد سواء . ولقد تناقص عدد المواطنين يوماً بعد يوم في أبهى عصور الجمهورية في اثينا من ثلاثين الى واحد وعشرين الفا . وعلى النقيض من ذلك ، نجد - اذا درسنا نمو الجمهورية الرومانية - أنه على الرغم من مطالب المستعمرات والحروب التى لا تنقطع ، لم يزد عدد المواطنين طبقاً للأحصاء الأول الذى أجراه سرفيوس تولى Servius Tullus ، عن ثلاثة وثمانين الفا ، ثم تضاعف قبل بداية الحرب الاجتماعية ، الى اربعمائة وثلاثة وستين الفا من الرجال القادرين على حمل السلاح في خدمة بلدهم . ولما طالب حلفاء روما بنصيب متساو في التكريم والامتيازات ، أثر السناتو في الواقع فرصة التسلح على مجرد التنازل المذل ، ودفع السامانيون Samnites واللوكانيون Lucanians لتهورهم واندفاعهم ثمناً باهظاً ، أما سائر

الولايات الإيطالية ، وقد علّلت إلى سابق عهدها ثباعا ، فقد رخص لها في الدخول إلى رحاب الإمبراطورية ، وسرعان ما أسهمت في القضاء على الحرية العامة . ان المواطنين ليمارسون سلطات السيادة في الحكومة الديمقراطية ، ولابد ان يساء استخدام هذه السلطات في البداية ، ثم تضيق نيتها بعد ، اذا وضعت في يد جمهور لا يحسن استعمالها . ولما عطلت سياسة الأباطرة المجالس الشعبية بتوليهم هم أنفسهم زمام الحكم ، لم يكن الغزاة القاهرون يتميزون عن القهورين الا بأن لهم الصدارة وانهم اشرف الرعايا ، لم يعد تكثرهم ، مها كن سريعا ، معرضا لنفس الأخطار . على ان أوفر الأمراء عقلا ، أولئك الذين ترسموا خطى أوغسطس ومبادئه ، وجهوا أشد العناية إلى المحافظة على كرامة روما وحسن سمعتها ، ونشروا « حرية المدينة » بروح من التحرر تقسم بالحزم والكياسة .

وامتدت امتيازات الرومان على مر الأيام لتشمل كل سكان الإمبراطورية ، ولكن غارقا هاما استمر قائما بين إيطاليا والولايات ، ذلك ان الأولى — إيطاليا — اعتبرت نواة الوحدة العامة ومركزها ، والدعامة الراسخة للدستور ، وقالت إيطاليا انها مولد الأباطرة ، او انها على الأقل مقر الأباطرة والسناو . وكانت ضياع الإيطاليين معناة من الضرائب ، كما كانوا هم أنفسهم معفين من السلطة التعسفية للحكام . وكانت الهيئات البلدية — وهى مشكلة أحسن تشكيل على نسق ما في العاصمة — مخولة حق تنفيذ القوانين ، تحت الاشراف المباشر للسلطة العليا . وكان كل أهالى إيطاليا ، من سفوح الألب إلى آخر حدود كالابريا ، يعتبرون من مواطنى روما ومواليدها . فالغيت الفوارق الجزئية بينهم ، والنأوا ، بطريقة غير ملموسة ، بالآمة الكبرى التى وحدتها اللغة والسلوك والنظم المدنية ، والتى تعدل في ثقلها إمبراطورية قوية ، وتالق مجد الإمبراطورية في كرم سياستها ، وكثيرا ما لقيت خير الجزاء في مواهب وفى خدمات هؤلاء الذين اتخذت منهم أولادها . ولو انها استمرت على حبس امتياز الفرد الرومانى وجعله وقفا على الأسرات القديمة داخل جدران المدينة ، لحرم الاسم الخالد من شيء من أبهى زينته وأثنى حليته . ألم يكن الشاعر فرجيل Virgil من أهالى مانتوا Mantua (مدينة في شمال إيطاليا) ، ألم يكن هوراس يميل إلى الشك في انه يجب ان يكون من أهل أبوابيا أو من أهل لركانيا . ولقد وجد في بساتينها مؤرخ جدير بأن يسجل السلسلة الرائعة الجيلة من انتصارات الرومان . ونزحت أسرة كلتو التى اشتهر أفرادها بالوطنية من تسكولم

Tusculum - وكان لمدينة أربينوم Arpinum الصغيرة مخز مزدوج في انجاب ماريوس وشيخرون ، وقد اعتبر أولهما ثالث مؤسسي روما بعد روميلوس Romulus وكاميلس Camillus ، أما الثاني فانه ، بعد انقاذ بلده من مشروعات كاتلين Catiline (أحد القتائل في القرن الأول ق.م) ، مكن لها من أن تنازع أثينا على عرش الفصاحة والبيان . . .

الولايات

وكانت ولايات الإمبراطورية (كما أسلفنا وصفها في الفصل السابق) خالية من أية قوات عامة ، ومن أية حريات دستورية . فإن السناتو عني أول ما عني ، في اتروريا (مملكة قديمة الى الغرب من وسط ايطاليا) واليونان والغال (فرنسا) — عني بأن يحطم هذه البلاد الموحدة الخطيرة التي علمت الانسان أن الأسلحة الرومانية يمكن مقاومتها بالاتحاد ، بعد أن انتصرت وسادت بالفرقة والانقسام . ولقد قدر لبعض الأمراء — نتيجة التظاهر بعرفان الجبيل أو بالكرم — أن يمسكوا بصولجان الملك مزعما في أيديهم بعض الوقت ، وسرعان ما طردوا عن عروشهم بعد أن أدوا مهمتهم المقررة ، ألا وهي تهيئة الأمم المغلوبة للنير الروماني . وكوفئت الولايات والمدن الحرة التي ظهرت روما بتحالف اسمي ، ثم أغرقت دون أن تسدري في خضم العبودية . وكان وزراء السناتو ووزراء الإمبراطور يمارسون السلطات العامة في كل مكان ، وكانت هذه السلطات مطلقة لا رقيب عليها ولا ضبط لها . ولكن الأساليب الحكومية الناجمة التي وغرت السلام والطاعة في ايطاليا — امتدت الى الفتوحات النائية . فتكونت في الولايات شيئا فشيئا أمة الرومان بوسيلة مزدوجة : تكوين المستعمرات ، واسباغ حرية روما (الرعوية الرومانية) على أكثر أهل الولايات اخلاصا وامتيازاً وجدارة .

وقد أكدت التجربة والتاريخ تلك الملاحظة المصائب التي أدلى بها سنكا الحكيم حيث قال « حيثما غزا الروماني أقلام » . وكان أهل ايطاليا يستخفهم الفسرح أو تغريهم المصلحة بالتمتع بثمنار النصر . وقد تشير هنا الى أنه بعد أربعين عاما من اخضاع آسيا ، ذبح ثمانون ألفا من الرومان في يوم واحد ، تنفيذا للأوامر الوحشية التي أصدرها مقريداثس (حلك يلاذ بخلطس في آسيا الصغرى في القرن الأول ق.م) وما أمثل المنفيون بمحض أرائتهم الا بقصد التجارة

أو الزراعة أو جمع المال من طريق الالتزام . قلما اقام الأباطرة الفرق العسكرية في الولايات اقامة دائمة عميت الولايات بعنصر الجنود ، وكان من عادة هؤلاء الجنود القدامى - سواء تلقوا جزاء خدمتهم أرضا أو مالا - أن يستقروا أو يستوطنوا في الأرض التى قضوا فيها زهرة شبابهم مبجلين مكرمين . وخصصت نخصب البقاع وأفضل المواقع في مختلف أنحاء الإمبراطورية ، وبخاصة الأجزاء الغربية على الأغلب ، لإنشاء المستعمرات التى كان لبعضها طابع مدنى ، وبعضها الآخر طابع عسكرى . وكانت هذه المستعمرات صورة صادقة لأما العظيمة في آداب سلوكها وفي سياستها الداخلية . فلما كرمهم الإلهى بما وثقوا معهم من وشائج الود والتحالف ، نشروا بطريقة فعالة الاحترام لاسم الرومان وأحاطوه بالتبجيل والاحلال واثاروا رغبة كل أن خابت في المشاركة في إيجاد هذا الاسم ومزاياه ، في الوقت المناسب . وتساوت المدن البلدية ، كذلك بطريقة ملموسة ، مع المستعمرات مرتبة وجلالا ، حتى لقد ثار الجدل في عهد هادريان أى هذه المجتمعات أفضل حالا : أهى تلك التى أنبثقت من روما ، أو تلك التى أنبتت في أحضانها ؟ ومنحت بعض المدن حق المواطنة أو الرعية الرومانية (Right of Latium) فأضفى عليها هذا الحق حظوة خاصة ، واكتسب الحكام فقط ، بعد انتهاء خدمتهم صفة « المواطن الرومانى » . ولكن لما كانت هذه المناصب سطوية ، فقد تداولتها الأسرات الكبيرة في مدى سنوات قليلة ، وكان أبناء الولايات الذين يرخص لهم في حمل السلاح في الفرق العسكرية ، أو في تولى أية وظيفة مدنية ، أو في إيجاز ، كل من أدى خدمة عامة أو أظهر مواهب شخصية - كل أولئك كانوا يجزون مكافأة تناقصت قيمتها بالتدريج نتيجة لتزايد تساهل الأباطرة . على أنه - حتى في عصر الأنطونيين - عندما كانت حرية المدينة تمنح لأكثر عدد من رعاياهم ، ظلت هذه المنحة تقترن بمزايا حقيقية ثابتة . وحملت غالبية الناس في ظل هذا اللقب ، على نعماء القوانين الرومانية ، وخاصة هذه المواد الهامة المتعلقة بالزواج والوصية والوراثة . وكان طريق الحظ ممعبدا مفتوحا أمام أولئك الذين تدعم مزاعمهم الحظوة أو الجدارة . وتولى أحفاد الناليين الذين حاصروا يوليوس قيصر في أليسيا Alesia ، قيادة الفرق العسكرية ، وحكوا الولايات ، ورخص لهم في عضوية السناتو في روما . وبذلك ارتبط طموحهم ارتباطا وثيقا بأمن الدولة وعظمتها ، بدلا من أن يتجه الى تكدير صفو الهدوء فيها ، وبلغ احساس الرومان بأثر اللغة في آداب السلوك القومية حسدا بذلوا مصه قصارى عنايتهم وجهدهم لنشر استخدام اللغة اللاتينية حيثما تقدمت قواتهم المسلحة ،

جمع هؤلاء الامراء في بلاطهم الفخم بين انقلبة اثينا وترف الشرق ، وحذت الطبقات العليا من الرعية حذو البلاط مع غارق يسير . وهكذا كان التباين بصفة عامة بين اللغتين اللاتينية واليونانية أو بين من يتحدثون بها في الامبراطورية الرومانية ، ويمكن أن نضيف غارقا آخر ، يميز مجموع الأهالي في سوريا ، ويميز بوجه أخص أهل مصر . فان بقاءهم على لهجتهم أو لغاتهم القديمة حال بينهم وبين الدخول في علاقات انسانية عامة . وباء أهل سوريا لطراوتهم ورقتهم (لتخنتهم الرقيق) باحتقار الغزاة الفاتحين ، كما انار المصريون كراهيتهم لشراستهم وكأبتهم . وقد خضعت هذه الأمم لنير الرومان واستسلمت لقسوتهم ، ولكنها لم ترغب يوما — أو قل أنها لم تكن تستحق — في حرية المدينة ، وقد لوحظ أنه قد انقضى بعد انتهاء حكم البطالمة أكثر من مائتين وثلاثين عاما قبل السماح لأي مصري بعضوية السناتو في روما .

وثبة ملاحظة صادقة ولكنها تافهة ، تلك هي أن روما نفسها استسلمت لفنون الاغريق . وسرعان ما أصبح أولئك الكتاب الخالدون — الذين ما فتئوا يستحذون على اعجاب أوروبا الحديثة — أصبحوا موضوعا محببا للدراسة والمحاكاة في إيطاليا وفي الولايات الغربية . ولكن الرومان لم يكونوا يطبقون أن يتدخل لهوهم الجبيل في النهج التوحيدي لسياستهم ، فتراهم يعترفون بمفاتيح اللغة اليونانية ، ولكنهم في الوقت نفسه يؤكدون مكانة اللغة اللاتينية ويرفعون من شأنها ، مفرض استخدامها استخداما شاملا لا هوادة فيه ، في الإدارتين المدنية والمسكرية على حد سواء في الحكومة . وكانت اللغتان كلتاها في نفس الوقت تمارسان ولايتهما الشرعية كل في نطاقها داخل الامبراطورية ، فكانت الأولى ، اليونانية ، اللغة الطبيعية للعلم ، والثانية اللغة الرسمية للمعاملات العامة ، أما أولئك الذين جمعوا بين الأدب والعمل فكانوا ملهمين بهما بنفس القدر . وكساد يكون من المستحيل في أية ولاية أن يكون أحد الرعايا الرومان ممن تلقوا تعليما متحررا ، غير ملم بأحدى اللغتين اليونانية واللاتينية .

وعن طريق مثل هذه النظم ذابت أهم الامبراطورية ، دون أن نحس ، في اسم روما وشعبها ، ولكن تبقى بعد ذلك وسطا كل ولاية وكل أسرة بعض حالات تعيسة لأفراد تحملوا أعباء المجتمع دون أن ينفعوا بخيراته ، فقد تعرض العبيد المحليون في الولايات الحرة القديمة لأشد الوان الظلم ، وسبق الاستقرار الكامل للامبراطورية

الرومانية عهود من العنف والسلب والنهب . وكان العبيد هم — في الكثير الغالب — أسرى المتبريرين ، الذين يؤخذون بالآلاف نتيجة للحروب ، ويشترون بثمن بخس ، وقد راوا أنفسهم وسط حياة تنسم بالاستقلال ، ومن ثم تلهفوا على تحطيم قيودهم وعلى الانتقام من واضعها . وقد يكون في القانون العظيم ، قانون المحافظة على النفس ، ما يبرر أكثر التعليمات تشددا وأقسى المعاملة ضد هؤلاء الأعداء الداخليين الذين قربت ثوراتهم اليائسة المستميتة الجمهورية من حافة الهاوية أكثر من مرة . فلما دانت الأمم الرئيسية في أوربا وآسيا وأفريقيا للقوانين التي سنها ملك واحد ، أصبح المدد الأجنبي (من العبيد) أقل وفرة ، فنجأ الرومان إلى أسلوب للتكاثر أكثر اعتدالا ولكنه أكثر مشقة ، وشجعت أسرات كثيرة ، وبخاصة في الريف ، الزواج من عبيدها . وساعدت أحاسيس الطبيعة ، وعادات التعليم واقتناء نوع من الممتلكات غير المستقلة (المشتركة) ، ساعد كل أولئك على التخفيف من محنة العبودية . لقد بات وجود العبد امرا له قيمته العظمى ، وكانت سعادة العبد لا تزال تقوِّف على طبع سيده وظروفه ، إلا أن السيد لم يعد يكتب شعوره الانساني نتيجة الخوف من أن يقابل العبد الاحسان بالاساءة ، بل أنه شجع هذا الشعور نتيجة الاحساس بمصلحته . وزادت فضائل الإبطرة أو حسن سياستهم من معدل السرعة في ارتقاء العادات والآداب العامة . وامتدت الحماية التي تفرضها القوانين إلى أدنى طبقات الناس بفضل مراسيم هادريان والانطونينيين . ونزع حق التحكم في حياة العبيد وفي موتهم — وكان هذا قوة طال عهد ممارستها واساءة استعمالها — نقول نزع من الأيدي الخاصة أي من السيادة المباشرين ، ووضع في أيدي الحكام وحدهم . وحرم السجن تحت الأرض أو في الأقبية ، حتى إذا تقدمت شكوى صادقة عادلة من سوء المعاملة كان جوابها حصول العبد المظلوم على حريته أو انتقاله إلى سيد أقل قسوة .

وما كان باب الأمل موصدا قط في وجه العبد الروماني — وفي التعلق بالأمل أكبر عزاء وسلوى وسط حياته القسوة — فإذا وافته الفرصة ليجمع من نفسه شخصا ناقما أو مقبولا ، كان من الطبيعي أن يعمل نفسه ، في بضع سنين ، بنعمة الحرية ، وهي نعمة تجل عن التقدير ، جزاء وفاقا لجدده وأخلاقه ووفائه . وكثيرا ما كانت أدنى بادرة من الغرور والجشع تستهوي السيد إلى الاحسان وتثير فيه الأريحية ، إلى حد أن القوانين وجست من الضروري أن تحصد أكثر من أن تشجع السرف وعدم تحري الدقة في هذا التحسير

الذى قد ينحط الى سوء استفلال خطير . وكان من مبادئ التشريع القديم أن العبد لا ينتهى الى وطن معين ، فإذا ما حصل على حريته حصل معها على رخصة باللاحاق بالمجتمع السياسى الذى ينتمى اليه سيده . وربما أساعت نتائج هذا المبدأ الى امتيازات المدنية الرومانية وجعلتها نهبا مباحا لأخلاق وضيعه من الناس . فوضعت لهذا بعض ضوابط ملأمة بحيث تكون هذه الميزة المشرفة مقصورة على أولئك العبيد الذين يجدر أن يحرروا تحريرا قانونيا مهييا ، لأسباب عادلة صادقة ، برضا من الحاكم . وحتى هؤلاء العبيد الذين وقس عليهم الاختيار ليعتقوا لم يكونوا ليحصلوا على أكثر من الحقوق الخاصة للمواطنين ، وكانوا محرومين حرمانا صارما من كل الوظائف المدنية والعسكرية . ومهما توفر لأبنائهم (أبناء العبيد المحررين) من جدارة أو حظ ، كان ينظر اليهم (كما كان ينظر الى آبائهم) على أنهم غير جديرين بمقاعد السناتو . وما كانت بصمات الأصل الوضع ، أو منبت الخضوع والاسترقاق ، لتمحى تماما الا فى الجيل الثالث أو الرابع . وهكذا ، دون القضاء على التمييز بين المراتب ، كانوا يلوحون بصورة بعيدة للحرية والشرف ، حتى الى أولئك الذين يأبى عليهم الخور والتحيز أن يحشروا فى عداد الأنواع البشرية احقارا لهم وزراية بهم .

واقترح يوما أن يميز العبيد بلباس خاص ، ولكن خيف بحق أن يكون هناك بعض الخطر من تعريف العبيد بعددهم هم أنفسهم . وقد نجرؤ على القول — دون اللجوء الى الحساب الدقيق بارتفاع الآلاف وعشرات الآلاف — بأن نسبة العبيد الذين يدخلون فى حساب الحيالة أو الملكية كانت أكثر بكثير من نسبة الخدم الذين كانوا يعتبرون عبنا . وكانت البراعم الناشئة المبشرة تلقن الفنون والمعلوم ، وكانت أثمانهم تحدد بقدر مهارتهم ومواهبهم . وكانت كل المهن والحرف — ذهنية أو ميكانيكية — تكاد تكون متوفرة فى بعية السناتور الثرى . وتضاعف عدد الحشم بدرجة تفوق مفهوم الزرف الحديث ، وانهمكوا فى الشهوات واللذات وأحاطوا أنفسهم بمظاهر الأبهة والمظمة . وكان أدنى الى مصلحة التاجر أو صاحب المصنع أن يشتري عماله من أن يستأجرهم . أما فى الريف فقد كان العبيد يستخدمون فى الزراعة بوصفهم أرخص الآلات وأكثرها عملا . ولتضرب بعض أمثلة متنوعة خاصة نوكيدا لهذه الاشارة العامة ، ولضخامة عدد العبيد . فقد اكتشف فى مناسبة تدعو الى الأسى والحزن أن تمرا واحدا فى روما كان يضم أربعمائة من العبيد . ومثل هذا

العدد بالضبط كان ملحقاً بضبعة تنازلت عنها لابنها ارملة أفريقية كانت لها مكانة عالية جداً ، على حين احتفظت هى لنفسها من ممتلكاتها بنصيب أكبر كثيراً من الضبعة ومن فيها وما فيها . أضف الى ذلك أن عبداً اعتق أيام أوغسطس ، وعانى من الحروب الأهلية أمدح الخسائر ، ولكنه رغم ذلك خلف وراءه ثلاثة آلاف وستمئة من الثيران ، ومائتين وخمسين ألف رأس من صغار الماشية ، ويكاد يندرج تحت وصف هذه الماشية أربعة آلاف ومائة وستة عشر من العبيد .

ولا يتيسر الآن ، الى حد الدقة التى يقتضيتها المقلم والهدف ، أن نحصى عدد الرعايا الذين اعترفوا بقوانين روما ، سواء فى ذلك المواطنون أو أهل الولايات أو العبيد . وقد قيل ان الإمبراطور كلوديوس حين قام بعملية الإحصاء ، قدر المواطنين الرومان بستة ملايين ومائة وخمسة وأربعين ألفاً (٦١٤٥٠٠٠) ويرتفع هذا الرقم الى نحو عشرين مليوناً من الأنفس اذا أدخلنا النساء والأطفال فى الحساب . أما عدد جموع الرعايا ذوى المرتبة الدنيا فكان متقلبا غير مؤكد . ولكن اذا أدخلنا فى حسابنا كل الظروف التى كان لها تأثير فى الميزان لوجدنا أنه من المحتمل أن عدد أهل الولايات فى عهد كلوديوس كان ضعف عدد مواطنى روما من الجنسين من كل الأعمار ، وأن عدد العبيد كان على الأقل مساوياً لعدد السكان الأحرار فى دنيا الرومان . وقد يصل المجموع الكلى لهذا الحساب غير الدقيق الى نحو مائة وعشرين مليوناً من الأنفس ، وهذه درجة من كثافة السكان قد تفوق مثيلتها اليوم فى أوربا الحديثة ، كما أنها تشكل أكبر عدد لاجتمع توحد فى ظل أسلوب واحد من الحكم .

وكان الهدوء الداخلى والاتحاد نتيجتين طبيعيتين للسياسة المعتدلة الشاملة التى انتهجها الرومان . فاذا ولينا وجوهنا شطر ممالك آسيا لوجدنا حكماً مطلقاً فى الوسط وضعفها فى الأطراف البعيدة : فهناك تحصيل الأموال أو إدارة القضاء ، بحكم وجود جيش ، وهناك المنبربون ، وهم اقوام معادن استقروا فى قلب البلاد ، وهناك صغار الطغاة من الحكام الوراثيين الذين كسبوا يفتخرون الولايات (ويحاولون الاستقلال بها) ، وهناك الرعايا الذين كانوا يميلون الى الثورة والتبرد ولكنهم عاجزون عن الحرية أو غير أهل لها . ولكن الطاعة فى دنيا الرومان كانت أمراً مطرداً اختيارياً ثابتاً . وودعت الأمم المتهورة — بعد أن انصهرت فى شعب كبير واحد — ودعت الأمل ، أن لم تكن تخلت عن الرغبة — فى استرداد استقلالها ، وقبلما اعتبرت

وجودها شيئا يفترق أو يتميز عن وجود روما . وطوق سلطان
الاباطرة الوطيد ، دون جهد منهم ، جميع أطراف ممتلكاتهم ، وكسانوا
يمارسونه بنفس القدر من السهولة واليسر على ضفاف النابيز
والنيل أو على ضفاف النير . وكان مقدرا أن تعمل الفرق العسكرية
ضد العدوان المشترك ، ولعلما احتاج الحكام المدنيون الى عون عسكري .
وفي مثل هذه الحالة التي يسود فيها الأمن العلم ، كان الأمراء والشعب
على حد سواء يوجهون فراغهم ورفاههم وثرأهم معا للنهوض
بالامبراطورية الرومانية وازدهارها .

الآثار الرومانية

كم من الآثار التي لا يحصيها العد للعمارة الرومانية لم يسجلها
التاريخ ؟ وما اقل ما صمد منها لعوادي الزمن وغسارات القبرين !
ومهما يكن من أمر ، فإن البقايا الرائعة الجيدة التي لا تزال جبعثرة
هنا وهناك في ايطاليا وفي الولايات ، كافية لأن تثبت أن هذه البلاد
كانت يوما مقرا لامبراطورية قوية مهيبة . فإن جلالها وحده ،
أو جمالها ، قد يكون جديرا بأن يسترعى انتباهنا ويجذب أنظارنا .
ولكن يضيف الى أهميتها عللان هلمان يربطان بين التاريخ المألوف
للفنون وبين التاريخ الذي هو أشد نفعا وهو تاريخ السلوك
الانسانى . وقد شيد كثير من هذه الآثار بأموال خاصة ، ولكنها
تكاد تكون كلها قد تصد بها الخير العلم .

وطبيعى أن يذهب بنا الظن الى أن الجزء الأكبر من العمارة
الرومانية واضخمها أقامه الاباطرة الذين كانوا يتحكمون في معين
من المال والرجال بلا حدود ، وكان من عادة أوغسطس أن يباهى بأنه
جاء الى عاصمة من الأجر وأنه تركها من الرخام . وكان الإقتصاد
الدقيق عند فسبازيان Vespasian مصدر عظيته وجلاله ، كما كانت
أعمال دراجان تحمل طابع عبقريته ، ولم تقم الآثار العامة التي زين
بها هادريان كل ولاية في الامبراطورية ، بأمر منه فحسب ، بل تحت
رقابته المباشرة كذلك ، فقد كان هو نفسه فنانا أغرم بالفنون
لأنها كانت ركيزة لمجد الملك . وكان الانطونينيون يشجعون الفنون
لأنها تسهم في اسعاد الشعب . ولكن اذا كان الاباطرة سباقين فسانهم
لم يكونوا الوحيدة في مضمار العمارة والهندسة في جميع انحاء
الامبراطورية . لقد احتذى مثالهم في كل مكان رعاياهم الاصليون

الذين لم يخشوا أن يعلنوا على الملا أن لهم بصيرة تعى ، ولديهم ثروه
تحقق أثبل المنجزات ، ومساكاد الكوليزيوم . Coliseum
الفالخر يهدى روما ، حتى أقيمت على شكلته ، وان شكس
أصغر منه ، في مدينتى كلبوا وفيرونا مبان على نفقتهما ومن أجهما .
وتشير الكتابات المنقوشة على جسر (القنطرة Alcantara) المقام
على نهر التاجه (في أسبانيا) ، الى أن بعض جماعات من أهمل
لوزيتانيا (في شبه جزيرة أيبيريا) أسهمت في أقامته . ولما عهد
لى بلىنى بحكم ولايتى بيثينية وبنطس Pontus — وما كانتا بأية حال
أغنى ولايات الامبراطورية أو أهمها — وجد أن المدن الداخلة في
نطاق سلطانه ينافس بعضها بعضا على احراز قصب السبق في الاعمال
العامة النافعة وفي تجميل البلاد ، مما ينتزع اعجاب الأجانب ويشير
فضولهم ويستحق شكر المواطنين وتقديرهم ، وكان من واجب بلىنى
بوصفه حاكم الولاية أن يكمل ما قصرت عنه المدن ، أو يوجه أنواتهم
أو يخفف أحيانا من حدة الغيرة فيما بينهم . اما الاثرياء من أعضاء
السناتو في روما وفي الولايات ، فكانوا يرون في العمل على بهاء
عصرهم وابهة بلادهم شرفا لهم ، ان لم يكن التزاما عليهم . وكان
تأثير الطراز السائد يعوض عن النقص في الذوق أو في السقاء .
ويمكن أن نذكر من بين العدد المديد من ذوى الفضل من عامة القوم ،
هيرود اتيكس Herodes Atticus وهو مواطن أثينى عاش في عصر
الانطونيين ، ومهما يكن من أمر الباعث على سلوكه أو أعماله ، فإن
عظمته أو جلال أعماله أمر جدير بأعظم الملوك .

وقد أرجع أصل أسرة هيرود — على الأقل بعد أن أسعدها
الحظ — الى سيمون Cimon وملتيادس Milliades ونيسسيوس
Theseus وسيكريس Cecrops واكس Accus وجوبيتر Jupiter لآثرية
هؤلاء الآلهة والأبطال الكثيرين تردت فى أسسوا مهاوى الخسنة
والحقارة . من ذلك أن جده وقع بين يدي العدالة ، وان أباه يوليوس
اتيكس ، لو أنه لم يكتشف كنزا كبيرا مدفونا تحت جدران بيت عريق
— وهو آخر ما بقى من تراث آبائه — لقضى آخر أيامه معدما محققرا .
وربما كان من الجائز للامبراطور بقوة القانون ، أن يثبت دعواه
في هذا الكنز مستندا الى صرامة القانون ، ولكن اتيكس الحازم تحاشى
— باعتراف صريح — فضول المبلغين أو تعرض المتشككين . على أن
نرغا العادل ، الذى كان يعطى العرش آنذاك ، رغص أن يحصل على
أى جزء من الكنز ، وأمره أن ينتفع دون تردد بالكنز الذى اهداه اليه
الحظ . ولكن الاثينى الحريص ما غنى مصرأ على أن الكنز أكبر من

ان يختص به فرد من الرعية وانه لا يدري كيف يستخدمه . فقال الملك ، في تبرم رقيق : تصرف فيه كيف شئت (أسئ استخدامي) لانه ملك لك . وقد يكون من رأى كثير من الناس ان انيكس اطماع آخر تعليمات الامبراطور بنصها حيث انه قد أنفق في الخدمات العامة الجراء الأكبر من ثروته التى زينت كثيرا نتيجة لزواج رابع . وكان قد حصل لابنه Herod على منصب حاكم المدن الحرة فى آسيا . ولحق الحاكم الشاب اهبالا وتراخيا فى تزويد مدينة ترواس Troas بالماء . فمز أعطاف هادريان ، وحصل منه على ثلاثة ملايين درهم (نحو مائة ألف جنيه) ليحفر قناة جديدة للباء . ولكن تكاليف انجاز هذا العمل تجاوزت ضعف ما كان مقدرا لها ، مما أثار تذر مامورى الدخل ، الى أن اضرس انيكس الكريم السنتهم الشاكسية بأن التمس أن يرخصوا له فى أن يتمهد هو شخصيا بكل النفقات الاضافية .

ودعى اقدر المعلمين فى اثينا وآسيا للقيام بتعليم هيرود الصغير مقابل مكافآت سخية ، وسرعان ما أصبح تلميذهم خطيبا ذائع الصيت ، طبقا لأساليب البلاغة العقيمة التى سادت فى ذاك العصر ، والتى حصرت نفسها داخل المدارس فترغمت عن الدخول الى السناو أو الساحة (الفورم Forum) . وعين فى وظيفة القنصل فى روما تكريما له . ولكنه قضى معظم حياته منصرفا الى الفلسفة فى اثينا وفى الريف المجاور ، محوطا دائما بجماعة من السفسطانيين الذين اعترفوا ، على غير كره منهم ، بتفوق المنافس الثرى الكريم . ولقد تلاشت الآثار التى ابدعتها عبقريته ، ولكن هناك اطلالا وخرائب تخذ شهرته وذوقه وكرمه . وقام بعض السائحين الحديثين بقياس بقايا الملعب (الاستاد) الذى شاده فى اثينا للالعاب الأولمبية ، فوجد انه يبلغ ستمائة قدم طولا ، وانه مبنى كله من الرخام الأبيض ، وانه يتسع للشعب جميعه ، وقد استغرق بناؤه أربع سنوات عندما كان هيرود رئيسا للالعاب فى اثينا . ثم بنى ، تخليدا لذكرى زوجته رجىلا Regilla ، مسرحا لا يكاد يوجد له نظير فى الامبراطورية ، كله من خشب الارز المحفور امجب حفر ، ولم يستخدم فى البناء أى نوع آخر من الخشب . وكان الأوديوم Odeum الذى خصصه يريكليس Pericles لعزف الموسيقى وتمثيل الروايات الجديدة شاهدا على انتصار الفنون ونفوقها على عظمة المتبريرين ، ولكن الأخشاب التى استخدمت فى بنائه كانت أصلا من أخشاب سوارى السفن الفارسية . ولقد تهدم هذا البناء القديم ثانية رغم الاصلاحات التى تفضل بها فيه أحد ملوك كبادوكيا Cappadocia ، ولكن هيرود أعاد اليه ما كان

عليه من جلال وجلال . ولم ينحصر كرم هذا المواطن الممتاز بين جدران
أثينا . فان أفخم الزخارف التي قام بها في معبد نبتيون في البرزخ ،
والمرح الذي شيده في كورنثه ، والملاعب في لطفى ، والحماسم في
ترموبيل ، والقناة المائية في كنوزيوم canusium في ايطاليا — نقول
ان هذه كلها لم تكن كافية لاستنفاد ثروته . ولكم حظى أهل ابيروس ،
وتساليا ، ويوبيا ، وبوشيا ، والبلوبونيز بجوده وفضله . وثمة
نفوش كثيرة في مدن اليونان وآسيا تضافى ، مسع الشكر والتقدير ،
على هيرود أتيكس لقب الراعى المحسن .

وان بساطة البيوت وتواضعها في جمهوريتي أثينا وروما لتنبئ
بان حالة الحرية كانت متساوية فيهما ، بينما تمثلت سيادة الشعب
في المباني الفخمة التي خصصت للنفع العام ، ولكن الروح الجمهورية
لم تضد بتدفق الثروة أو قيام الملكية . لقد تظاهر افضل الإباطرة
وأعظمهم بأن يعرضوا عظمتهم وجلال ملكهم في أعمال الجدد الوطنى
والنفع العام . ولقد أثار قصر نيرون الذهبى سخطا له ما يبرره ،
ولكن رقعة الأرض الشاسعة التي كان قد اغتصبها بحكم ما استأثر
به لنفسه من بذخ وترى — نقول ان هذه الأرض قد أقيم عليها في
العمود التالية الكوليزيوم وحمامات تيفس ورواق كلوديوس والمعابد
التي أهديت للآلهة السلم وعبقرية روما . ولقد زينت وجملت آثار
العمارة هذه ، والتي هى ملك للشعب الرومانى ، بأجمل النتائج
اليونانى من النقش والرسم والتصوير والنحت ، وكان في معابد
السلم مكتبة زاخرة مفتوحة امام العلماء الباحثين وعلى مقربة من
هذه المباني كانت توجد ساحة تراجان (الفورم) ، وكانت محوطة
برواق شاهق قائم على أعمدة ذوات شكل ريعى ، وله مدخل وجيه
لمسيح يتكون من أربعة من أقواس النصر ، وفي وسطه عمود من
الرخام يعلو الى مائة وعشر من الأقدام ، مما يدل على ارتفاع القل
الذى قطع منه البناء ، وما يزال هذا العمود يحتفظ بجماله القديم ،
وبمثل أدق تمثيل انتصارات داشيا ، تلك التي أحرزها من أقالمه .
فقد أبعد الجندي المخنك النظر في قصة الحملات التي شنّها ، ثم
ما كان أيسر ، بعد ذلك ، على المواطن المسلم أن يرسم في خياله
صورة لكبرياء الوطن وعظمته يربط بينها وبين أمجاد النصر . وبمثل
هذا الشعور النبيل بالآبهة العامة دبجت ربوع العاصمة وسائر
ولايات الإمبراطورية ، وزخرت بالدرجات والمسارح والمعابد
والأروقة وأقواس النصر والحمامات وقنوات المياه ، وقد انجزت

كلها ، بشكل أو بآخر ، من أجل صحة أقل المواطنين شأنًا أو تبعده أو ممارسة مباحجه ومسرته . ويستحق منا آخر ما ذكرنا من هذه المباني عناية خاصة ، ذلك أن قنوات المياه تعد من أثبل وأعظم آثار عبقرية الرومان وقوتهم ، لما اتسمت به مشروعات هذه القنوات من جرأة ، وما اتسم به إنجازها من متانة ، وما نتج عنها من فوائد . وقد تزهو وتتفوق قنوات المياه في العاصمة بحق على مثيلاتها . ولكن من الطبيعي أن يخلص السائح المستطلع عندما يتفحص الأبنية الرومانية في سبوليتو Spoleto ، وفي منز Metz ، وفي سيجوفيا Segovia يخلص ، دون الرجوع إلى التاريخ ، إلى أن هذه المدن البلدية كانت قديما مكرماتك تقدير . وكانت قفار أسيا وأفريقية يوما مغطاة بالمدن المزدهرة التي استمدت كثافة السكان فيها ، بل حقيقة وجودها ، من هذا المعين الذي لا ينضب من المياه العذبة من هذه المجارى الصناعية للمياه .

قدرنا الآن عدد السكان ، وتاملنا الأشغال العامة في الإمبراطورية الرومانية . وقد يكون في الكلام عن عدد مدن الإمبراطورية وعن عظمتها ما يؤكد عدد السكان ، وما يضاهف من الأشغال العامة . وقد لا يبعث على السأم أن نعرض لبعض أمثلة متصله بهذا الموضوع ، دون أن ننسى على أية حال أن غرور الأمم وفقر اللغات أدبا إلى إطلاق اللفظة الغامضة « المدينة » ، دون مبالاة أو تكرار ، على روما وعلى لورنتوم Laurentum .

١ - القول انه كان في إيطاليا القديمة ١١٩٧ مدينة ، ومهما كان من أمر مساحتها قديما ، فليس هناك ما يبرر الاعتقاد بأن السكان في عصر الأنطونيين كانوا أقل منهم في عهد روميلوس Romulus . لقد كانت أمارات لاتيوم الصغيرة Latium داخلة في نطاق عاصمة الإمبراطورية ، روما ، التي جذبت بفضل ما لها من نموذ سام أنظار هذه الإمارات إليها . أما أجزاء إيطاليا التي انحطت ورزحت طويلا تحت نير الطغيان الخامل للكهنة والحكام (نواب الملك) فلم يصبها الا بعض كوارث كان من الميسور احتمالها نتيجة للحروب ، وقد عوضتها التحسينات (الإصلاحات) السريعة التي أدخلها الغاليون المطلون على الألب تعويضا كافيا ، مما كانت تعاني من النذر الأولى للانهيال . وأنه لمن الممكن أن نتعقب عظمة فيرونا فيما بقى بها من آثار ، ومع ذلك كانت فيرونا أقل شهرة من أكويلا أو بادوا أو ميلان أو رافنا .

٢ - وتخطت روح التحسين والاصلاح اجدود الالب ، حتى لقد باتت ملبوسة في غليظت بريطانيا ، التي اجتثت تدريجيا لتفسح المجال للسكان المريح الانيق . وكانت يورك مقر الحكومة ، أما لندن فقد انتعشت بالتجارة ، أما باث Bath فقد اشتهرت بالفوائد الصحية لمياهها المعدنية . كما كان لبلاد الغال أن تزدهو تبها بمدنها التي يبلغ عددها مئتين والفا . وكان كثير من مدن الشمال - بما فيها باريس نفسها - لا يعدو أن يكون أكبر قليلا من مراعى صغيرة بدائية متواضعة لشعب فاشئ ، لكن ولايات الجنوب كانت تحكى ايطاليا ثروة وأناقة . والحق أن كثيرا من مدن الغال - مرسليليا ، آرل Arles ، نيزم Nism ، ناربون ، تولوز ، بورجو ، أوتون ، فيين ، ليون لانجر ، تريف ، لتصد أمام مقارنة حالتها قديما بحالتها الراهنة اليوم ، فتتبادل الكفتان ، وربما رجحت كفة الأولى . أما أسبانيا فقد انتعشت أيام كانت مجرد ولاية ، ولكنها تدهورت منذ أصبحت مملكة . فقد أرهقتها سوء استغلال سلطانها . كما أرهقتها أمريكا ، وانهكتها الخرافات ، وقد نخدش من كبريائها إذا فتشنا عن مدنها التي بلغ عددها ثلثمائة وستين مدينة ، كما ذكرها بليني على عهد فسبازيان .

٣ - وكانت هناك في افريقية ثلثمائة مدينة اعترفت بسيادة قرطاجه ، وليس من المرجح أن يكون قد تناقص عددها تحت حكم الأباطرة ، فقد صحت قرطاجة نفسها من كبوتها وتالق مجدها من جديد ، وسرعان ما استردت هذه العاصمة - مثل ما استردت كابوا وكورنث - كل المزايا التي كان يمكن فصلها عن السيادة المستقلة .

٤ - أما ولايات الشرق فانها تبرز الفارق بين عقلية الرومان وهمجية الاثراك . ان الخرائب المبعثرة على الأرض غير المزروعة ، والمنسوبة جهلا الى قوى السحر - هذه الخرائب لا تكاد تزود الفلاحين المظلومين أو العرب الرحل بملجأ أو ماوى . وكانت في آسيا الأصلية وحدها على عهد القياصرة خمسمائة مدينة مكتظة بالسكان ، حيثها الطبيعة بكل خيراتها ، وازدانت بأروع نتاج الفن . ولقد تنافست إحدى عشرة مدينة في آسيا على اهداء معبد الى الامبراطور تيبيريوس ، فاجرى السناتو مفاضلة بينها ليرى ايها أجدر بهذا الشرف ، فتقرر على الفور رفض أربع منها لأنها لا تتكافأ مع هذا العبد ، وكان من بينها مدينة اللانقية التي لا تزال خرائبها

نشهد بعظمتها وبها . وكانت اللانقية نجنى دخلا كبيرا من مسراعى
الضمان التى اشتهرت بنعومة أصوامها ، وكانت قد ورثت قبل هذه
المنافسة بقليل ، أكثر من أربعمائة ألف جنيه (١) أوصى لها بها مؤطس
كريم . فإذا كانت هذه هى درجة فقر اللانقية ، عماذا كانت ثروة
المدن الأخرى التى فضلت عليها ، وعلى الأخص ماذا كانت درجة
ثراء بيرجاموس ، وأزمير وأنسوس Ephesus ، تلك التى كانت تنازع
بعضها بعضا على مكان الجدارة فى آسيا ؟ أما عاصمتها سوريا
ومصر فكانت لها فى الإمبراطورية مكانة سامية مرموقة ، وكانت
أنطاكية والإسكندرية تنظران بعين الأزدراء الى عديد من المدن
التابعة ، ولكنهما سلمتا على مضض بعظمة روما ذاتها .

وانصلت هذه المدائن جميعها بعضها ببعض وبالعاصمة بشبكة
من الطرق العامة كانت تبدأ من الساحة فى روما ، وتحترق إيطاليا ،
وتنتشر فى الولايات ، وتنتهى عند حدود الإمبراطورية . فإذا تتبعنا
بذقة المسافة من سور أنطونينوس الى روما ، ومنها الى أورشليم
لوجدنا أن هذه الشبكة العظيمة من المواصلات من شمال غرب
الإمبراطورية الى جنوبها الشرقى ، تمتد نحو ثمانين وأربعة آلاف من
الأميال الرومانية . وكانت هذه الطرق العامة مقسمة تقسيما دقيقا
يشواخص المسافات أو علامات الأميال . وكانت تجرى فى
خطوط مستقيمة بين المدن ، لا تقيم للعقبات الطبيعية أو الممتلكات
الخاصة وزنا يذكر ، وكثوا ينقبون الجبال أو يقيمسون القناطر
القوية على أوسع واسرع الجارى المائية . وكان الجزء الأوسط
من الطريق يرتفع الى سطحية تشرف على القرى المجاورة ، وتكون
عدة مصاطب أو طبقات من الرمل والحصى والأسمنت ، وكان
يرصف بالأحجار الكبيرة ، وبالجرانيت فى بعض الأماكن قرب
العاصمة . وهكذا كان البنيان المتين للطرق الرومانية ، وهكذا كانت
صلابتها التى لم تستسلم كل الاستسلام لموامل الزمن طيلة
خمسة عشر قرنا . ولقد وجدت هذه الطرق بين الرعايا فى أقصى
الولايات بمواصلات ميسورة مألوفة . ولكن هدفها الأساسى كان
تيسير تحركات القوات العسكرية . فما كان هناك بلد يقال أنه

(١) لم يكن لفظ جنيه مستعملا كاسم وحدة نقدية فى ذلك الزمان .

— وعن العملة عند الرومان يرجع الى عبد اللطيف أحمد على (دكتور) مصادر
التاريخ الرومانى ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

أخضع أخضاعاً تاماً إلا إذا أصبح من اليسور على القوات المسلحة وعلى سلطات الغزو اختراقه في أي جزء من أجزائه . وأغرى النفع الذي يعود من تلقى الأنباء المبكرة ، ومن خفة الحركة في نقل الأوامر والتعليمات — أغرى الأباطرة بإنشاء نظام دقيق للبريد في طول ممتلكاتهم الواسعة وعرضها — ولهذا الغرض بقوا استراحات لا تبعد الواحدة منها عن الأخرى بأكثر من خمسة أو ستة أميال ، وزودت كل منها دائماً بأربعين من الجياد ، وبفضل هذه المراحل أو المحطات سهل السفر لمسافة مائة ميل في اليوم على هذه الطرق الرومانية . وكان استعمال البريد مرصفاً به لمن يحمل أمراً إمبراطورياً بذلك . وكان البريد في الأصل مقصوراً على الخدمات العامة ، ولكنه رغم ذلك كان يستخدم أحياناً لخدمة الناس أو قضاء حاجاتهم . ولم تكن المواصلات البحرية في الإمبراطورية الرومانية أقل حرية وانطلاقاً من المواصلات البرية فيها ، فقد أحاطت الولايات بالبحر المتوسط وطوقته ، وتوغلت إيطاليا — وهي أشبه برأس ضخيم — إلى وسط هذه البحيرة الكبيرة . وسواحل إيطاليا ، بصفة عامة ، خالية من الموانئ الأمنة ، ولكن مهارة الإنسان عوضت النقص في الطبيعة ، فإن المرفأ الصناعي في أوستيا — بالذات — الذي أنشأه الإمبراطور كلوديس على مصب التيبر ، كان أثراً نافعاً شامداً على عظمة الرومان . وكان هذا المرفأ على بعد ستة عشر ميلاً فقط من العاصمة ، ومنه كانت الرياح المواتية في الغالب تدفع السفن إلى أعبدة هرقل (١) في سبعة أيام ، وفي تسعة أيام أو عشرة إلى الاسكندرية في مصر .

تحسين الزراعة

ومهما يكن من أمر المسالوى التي يلحقها العقل أو الحواس بإمبراطورية بترامية الأملاف ، فإن قسوة روما اقتترنت دائماً ببعض النتائج التي أدت إلى خير الجنس البشرى . ولا بد من القول بأن حرية الاتصال التي مدت في جبل الرذائل ، ساعدت بالمثل على تحسين الحياة الاجتماعية . وكان العالم في الأزمنة السحيقة مقسماً تقسيمياً غير متكافئاً فكان الشرق ينعم بالفنون والترف ما لا يذكره التاريخ أو تعبه الذاكرة ، على حين كان يقطن العرب المتبربرون المحاربون القساة الجفاة ، الذين كانوا يحتقرون الزراعة ، أو قل أنهم لم

(١) Columnus of Hercules . في جبل طارق .

يعرفوها بتاتاً ، ولكن أمكن شيئاً فشيئاً في ظل حكومة مستقرة ثابتة الأركان ، ادخال منتجات المناخ الأطيب وصناعات الأمم التي هي أكثر مدنية ، الى بلاد غرب أوروبا ، وقشجع المواطنين ، عن طريق التجارة المفتوحة الرابعة ، على مضاعفة ذلك الانتاج وتحسين هذه الصناعة . وقد يكون من المستحيل تعداد السلع الحيوانية أو النباتية التي كانت ترد تباعا الى أوروبا من آسيا ومن مصر ، ولكنه جدير بالسفر التاريخي ، بالنسبة لقيمتها ، وأقل منه بالنسبة لنفعها ، أن يعرض للجوانب الرئيسية عرضاً خفيفاً .

١ - تكاد تكون معظم الأزهار والأعشاب والفواكه التي تنمو في حدائق أوروبا من أصل أجنبي تنم عنه أسلافها في معظم الأحيان . فالتفاح فاكهة إيطالية ، فلما ذاق الرومان ما هو أطيب منه نكهة من المشمش والخوخ والرمان والليمون والبرتقال ، قنعوا بأن يطلقوا على كل هذه الفواكه الجديدة تسمية مشتركة هي فصيلة التفاح ، مع تمييز بعضها عن بعض بنعت اضافى هو اسم البلد الذي جاءت منه .

٢ - وفي زمن هوميروس كانت الكروم البرية تنبت في جزيرة صقلية وما جاورها في الغالب ، ولكن مهارة السكان المتوحشين لم تتناولها بالتحسين ، ولم تزودهم الكروم بشراب سائغ لديهم . ولكن استطاعت ، بعد ألف سنة من ذلك التاريخ ، أن تتيه زهوراً وعجبا بأن أكثر من ثلثي أفخر الأنبذة وأشهرها ، ويصل عددها الى ثمانين نوعاً ، هي من نتاج التربة الإيطالية . وسرعان ما انتقلت البركة الى الولاية الجنوبية في الفال ، ولكن البرد كان قارصاً في شمال هضبة السفن (جنوب وسط فرنسا) حتى ظن في أيام سسترابون (العالم الجغرافي اليوناني في القرن الأول) أنه من المستحيل نمو الكروم في تلك الأجزاء من بلاد الفال . وذلك هذه الصعوبة على مر الأيام . وهناك ما يحبل على الاعتقاد بأن كروم برجندى تنبت في القدم الى عصر الأنطونيين .

٣ - وسارت زراعة الزيتون في دنيا الغرب في أعقاب تقدم السلام ، حتى لقد اعتبروا الزيتون رمزاً له ، ولم تكن إيطاليا وغريقية تعرفان هذا النبات المفيد ، حتى بعد قرنين من تأسيس روما . ثم ادخل وتاقلم فيهما حتى انتقل أخيراً الى قلب إسبانيا والفال . وقد قضت المثابرة والتجربة بطريقة غير ملحوظة على خطأ الأقدمين وتبهمهم ، فيما ذهبوا اليه من أن الزيتون يحتاج الى درجة معينة من الحرارة ، وأنه لا يوجد الا في الأماكن المجاورة للبحر .

٤ - انتقلت زراعة الكتان من مصر الى الغال ، وعانت بالغنى والثروة على البلاد بأسرها ، مهما قيل من أن الكتان قد يفقر أو يجذب نفس الأرض التي يزرع فيها .

٥ - أصبح استخدام الحشائش غير البرية أمرا مألوفا لدى فلاحي إيطاليا والولايات ، وبخاصة حشائش لوسرن (١) Media Cagocative التي استعملت اسمها وأصلها من ميديا . وضاعف من قطعان الغنم والماشية ، هذا الزاد الصحى الوفير المحقق وجوده من الطعام فى الشتاء ، كما ساعد وجود هذه القطعان على زيادة خصوبة الأرض . ويمكن أن نضيف الى كل هذه التحسينات ، الدأب على العناية بالإناج ومصايد الأسماك ، وقد استخدم فيها الكثير من الأيدى العاملة المجدة . مما أدى الى زيادة سعادة الموسرين وسد حاجة المعوزين . ويصف كولوملا Cofumella فى رسالة لطيفة تقدم الزراعة فى اسبانيا فى عهد تيبيريوس . وجدير بالذكر أن تلك الجامعات التى كثيرا ما اجتاحت الجمهورية الناشئة ، قل أن شهدتها ، أو لم تشهدها قط ، امبراطورية روما المقرامية الأطراف ، فإذا ما نزلت باحدى الولايات كارثة طارئة من هائلة أو عوز أو جذب سارع جيرانها الذين هم أسعد حظا الى تخفيف ويلاتها بما أوتوا من وفرة ويسار .

والزراعة أساس الصناعات ، لأن منتجات الطبيعة هى المواد اللازمة للفن .

ولقد تنوعت وتعددت أعمال الشعب العبرى المجد النشيط فى الامبراطورية الرومانية ، ولكن هذه الأعمال لم تكن يوما الا لخدمة الاغنياء . فلقد جمع الموسرون المحظوظون فى ملابسهم وموائدهم وبيوتهم وأثاثهم ورياشهم - جموا بين الراحة والأناقة والعظمة فى أروع ما وصل اليه الفن فيها ، مما يرضى غرورهم أو يشبع نزواتهم . ولقد نمت رجال الأخلاق فى كل عصر على هذا التنعم وهجومه بشدة بوصفه ترفا ممقوتا . على أن هذا الترف ربما أدى - أكثر ما يؤدي ، الى الفضيلة والى سمادة الجنس البشرى ، شريطة أن تتوافر الضروريات للجميع ، والا يعيش احد على فضلات الحياة وفنائها فحسب . ولكن الترف مهما كان مبعثه الرذيلة أو الحماقة ، كان يبدو أنه الوسيلة الوحيدة لعلاج سوء توزيع الثروة (الملكية) فى المجتمع الحالى المعيب . ذلك أن الميكانيكيين المهرة

(١) حشائش ذات جذور طويلة لها أزهار كالأزهار البرسيم . تسمى فى الولايات المتحدة « ألفا ألفا » .

والفنانين البرعين كانوا يتقاضون ضريبة اختيارية من ملاك الأرض وكان هؤلاء بدافع من مصلحتهم ينشُدون تحسين ضياعهم ليشتروا بنتائجها مزيدا من البهجة والحبور ، وهذه عملية مملوسة آثارها المحققة في كل مجتمع ، ولكنها كانت أكثر انتشارا وقوة في دنيا الرومان . ولو أن صناعة الكماليات وتجارتها لم تستعيدا ، بطريقة غير ملحوظة للرمايا الكادحين المبالغ التي ابتزها منهم جيش روما وسلطتها لنفدت ثروة الولايات ، وما دامت هذه الدورة محصورة داخل نطاق الإمبراطورية ، فانها تغذي الآلة السياسية بدفعة متجددة من النشاط ، ولن تكون لها نتائج وبيلة ، بل ربما كان من ورائها بعض الخير أحيانا .

ولكنه ليس يسيرا أن نحصر القرف داخل نطاق الإمبراطورية بلقد نهبت أقصى العالم القديم بغية توفير الآبهة واللذة لروما . نجاء الغراء الثمين من غابات سكيثيا Scythia (بلاد قديمة في الجنوب الشرقي من أوربا وآسيا) . وكان يؤتى بالكهرمان عبر الأرض من شواطئ البلطيق إلى الدانوب ، وكسان المتبرسرون يقفون مشدوهين من الثمن الذي يتقاضونه مقابل هذه السلعة التي لا فائدة منها . وكان الطلب كبيرا على سجاجيد بابل وغيرها من مصنوعات الشرق . ولكن أهم صنوف التجارة وأقلها شعبية ذلك الذي كان يجري مع بلاد العرب والهند . ذلك أنه كان يبحر عند الانقلاب الصيفي (في شهر يونيه) من كل عام أسطول من مائة وعشرين سفينة من ميناء ميوس هرمز Myos Hormz في مصر ، عبر البحر الأحمر ، ثم تدفعه الرياح الموسمية غبططخ المحيط في أربعين يوما ، حتى يلقي مراسيه في ساحل مالابار أو جزيرة سيلان . وفي هذه الأسواق كان يرقب وصوله التجار من أقصى أطراف آسيا ، وكان من المقرر أن تعود السفن المصرية أدرأجها في شهر ديسبر أو يناير ، وما أن تنقل حمولتها الثمينة فوق ظهور الجمال من البحر الأحمر إلى النيل ، وفيه تنقل إلى الإسكندرية حتى تتدفق دون إبطاء على عاصمة الإمبراطورية . وكانت هذه التجارة الشرقية فاخرة ، ولو أنها نافهة عديمة النفع ، ومنها الحرير الذي لا تقل قيمة الرطل منه عن قيمة رطل من الذهب ، ومنها الأحجار الكريمة وفيها اللؤلؤ الذي كسنت له الماكنة الأولى بعد الماس (١) ، ثم تشكيلة العطور التي كانت تستخدم

(١) كانت أعظم مصائد اللؤلؤ كما هي الآن في هرمز ورأس كومورين . وما دام من الممكن مقارنة الجغرافيا القديمة بالحديثة فإن كانت تزود بالماس من منجم حوملبور Tumelpur في البنغال ، وقد ورد وصفه في رحلات تافرنيه Tavernier .

في الطقوس الدينية وفي اسباغ الابهة والعظمة على الجنازات . وكان
الربح الوفير الذي لا يكاد يصدق يعوض عن مشاق الرحلة ومخاطرها .
ولكن هذا الربح كان يستخلص من الرعايا الرومان . وكانت فئة
قليلة من الناس توسر على حساب مجموع الشعب . وبينما كان العرب
والهنود قانعين بمنتجات بلادهم ومصنوعاتها كانت الفضة هي أداة
التعامل الأساسية ، ان لم تكن الوحيدة عند الرومان ، وثمة شكوى
ترددت ، وكانت جديرة بهمة السفاتو وحكمته . ذلك ان اموال الدولة
كانت تنصيع هباء دون تعويض الى الأمم الأجنبية والمعادية في حالة
شراء حلى النساء مما قدره كاتب مدقق ناقداً بخسارة سنوية تربو
على ثمانمائة ألف جنيه استرليني . وفي هذا تعبير عن السخط على
شبح لفقر الذي كان يقترب ويهدد البلاد . على أننا اذا قارنا نسبة
الذهب الى الفضة ، كما كانت في أيام بليزى ، وكما حدث في عهد
تسارنطين ، لوجدنا زيادة كبيرة في هذه الفترة وليس هناك البتة
ما يدعو الى الظن بان الذهب أصبح أكثر من الفضة . ومن هنا
يتضح ان الفضة هي التي غدت أكثر شيوعاً واستعمالاً الى حد ان
الصادرات العربية والهندية بالغة ما بلغت قيمتها ، كانت أبعد ما تكون
عن أن تستنزف ثروة دنيا الرومان ، وان انتاج الفناجيم كان من الوفرة
بحيث يغطي حاجات التجارة (التعامل) .

وعلى الرغم من نزوع الانسان الى امتداح الماضي وئيم الحاضر ،
فان اهل الولايات والرومان انفسهم احسوا احساساً قويا واعترفوا
اعترافاً صانقاً بحالة الهنوء والرخاء التي سادت الامبراطورية ،
« وادركوا ان المبادئ القوية للحياة الاجتماعية ، والقوانين ،
والزراعة ، والمعلوم — تلك المبادئ التي ابدعتها في البداية حكمة
اثينا — قد دعمتها وأرست قواعدها قوة روما التي اتحدت ، في ظل
نفوذها الموفق ، أكثر المتبريرين وحشية ، عن طريق الحكومة
الواحدة واللغة المشتركة . انهم يؤكدون ان الجنس البشرى
تضاعف عدده بشكل ملحوظ نتيجة لتقدم الفنون ، كما يشيدون بازدياد
مظلمة المدن ومخاضاتها ، وبجمال وجهه الريف الذي أشرق
ونالقي بعد أن زرع وازدان حتى أصبح يحكى حديقته واسمعة ثناء ،
ويشيدون بالعيد الدائم للسلام الذي نعمت فيه أمم كثيرة ، يهدون
بلويل وقد نسيت الضغائن والحزازات القديمة ، وتخلصت من التفكير
في اى خطر مقبل قد يدهمها » . ولا يفوتنا ان نذكر ان هذا الكلام ينطبق
على الانطباق على الحقائق التاريخية ، مهما كان من جو البلاغة
والحماسة الذي يطلق فيه .

وكاد يكون من المتعذر على اعيان المعاصرين ، وسط الهنساء الشاملة ، أن تكشف العلل الدخينة للاضمحلال والفساد . فقد نفت طول العهد بالسلام ، ووحدة النمط في الحكومة الرومانية في مراكز الحيوية في الامبراطورية ، سما بطيئا خفيا . فاحتطت عقول الناس الى مستوى واحد ، وانطفأت شعلة العبقرية ، وخمدت جذوة الروح العسكرية . وكان اهل اوربا شجعانا أشداء ، وكانت اسبانيا والغال وبريطانيا واليريكوم Illyricum (ولاية قديمة في غرب ايطاليا) مزود القوات المسلحة الرومانية بجنود ممتازين ، وكانت تشكل القوة الحقيقية للمملكة . لقد احتفظوا بشجاعتهم الشخصية ولكنهم لم يعودوا يتحلون بروح الشجاعة العامة ، تلك الروح التي يغذيها وينعشها حب الاستقلال والشعور بالشرف الوطني ، واحداق الخضر ، وعادة السيطرة والقيادة . ذلك لانهم تلقوا القوانين واستقبلوا الحكام من لدن ملوكهم ووفق ارادته ، وعهدوا بالدفاع عنهم الى جيش من المرتزقة ؟ . قطع نسل اشجع قادتهم واعظمهم بأن يكونوا مجرد مواطنين او رعايا . كما انزوى أكثر القوم طموحا وتطلعا في بلاط الأباطرة أو تحت لوائهم ، وانزلت الولايات المهجورة المحرومة من القوة السياسية ومن الوحدة — انزلت الى الحياة الخاصة التي تتسم بالوهن وعدم الاكتراث .

وكان الولع بالأدب ، الذي يكاد يقترن بعهود السلام والتهديب شيئا مألوما بين الناس في عصر هادريان والأنطونيين الذين كانوا هم انفسهم رجال علم واطلاع ، وقد انتشر على امتداد الامبراطورية ، حتى لقد تذوقت البلاغة قبائل البريتون في اقصى الشمال ، كما كان هوميروس ومرجيل يسجلان ويدرسان على ضفاف الرين والدانوب وكانت الجوائز السخية تجد في اثر اقل بلادة لموهبة أدبية . لقد نجح اليونان في وضع علم الفيزياء وعلم الفلك . وقام بعض الناس بدراسة ملاحظات بطليموس وكتابات جالينوس Galen (عالم الطب) وتحسين اكتشافاتها وتصحيح أخطائها . ولكننا باستثناء لوشيان (١) Lucian الذي لا يبارى ، نجد أن عصر الخمول هذا من دون أن ينبغ فيه كاتب ذو عبقرية أصيلة ، أو كاتب بزرز في فنون الانشاء الوثيقة . وكان سلطان أفلاطون وأرسطو ، وزينو وأبيقور لا يزال يتحكم ويسيطر في المدارس . وانتقلت آراؤهم ومبادئهم من جيل الى جيل من التلاميذ ، في انقياد أعمى ، كان من شأنه أن

(١) كاتب يوناني نهكى عاش في القرن الثاني الميلادي — (المترجم) .

يحول دون أية محاولة كريمة لتحكيم العقل الانساني أو توسيع آفاقه . ولم تلهب روعة التسعراء والخطباء القرائح حتى تجود بتيء من مثل هذه الروعة ، بل دفعت فقط الى شيء من المحاكاة الفاترة المهينة ، أما اذا جرؤ أحد على أن يحيد عن هذه النماذج ، فإنه كان في نفس الوقت ينحرف عن طريق اللياقة والذوق السليم . وجاءت النهضة الأدبية ، فليقظ أوروبا وابتعث عبقريتها قوة الخيال الفتية بعد طسول الخمود ، والغيرة الوطنية ، والدين الجديد واللغات الجديدة والعلم الجديد . ولكن أهل الولايات التابعة لروما ، الذين تلقوا تمليا اجنبيا نظيفا نمطيا مصطنعا كانوا مشغولين بمنافسة غير متكافئة مع أولئك القدامى الشجعان الذين عبروا من عواطفهم الاصلية بلغتهم المحلية ، فاحرزوا بذلك قصب السبق وتبوأوا مراكز الشرف ، وكاد لفظ « الشاعر » أن ينسى ، واغتصب السفسطلانيون لأنفسهم لقب « الخطيب » وظهرت طائفة من النقاد والمؤلفين والمعلقين . فكننت بمثابة غيوم أريد واسود معها وجه العلم . وسرعان ما جاء فساد الذوق في ركاب انحطاط الذكاء والعبقرية .

ويلحظ الفيلسوف العظيم لونغينوس Longinus (في القرن الثالث الميلادي) الذي عاش في فترة متأخرة نوعا ، في بلاط إحدى ملكات سوريا واحتفظ بروح اثينا القديمة يلحظ وينعى على معاصريه ذلك الانكاس الذي أفسد مشاعرهم وثبط عزائمهم وأخمد مواهبهم فيقول : « قد تبقى أطراف الأطفال حبيسة منكشئة كل الانكماش ، ومن ثم تقف عن النمو ، ويصبح الأطفال اقزاما ، وهذا هو حال عقولنا الفضة وهي مكبلة بقيود من حزازات الاستعباد وعاداته ، فانها تصبح عاجزة عن التفتح والاتساع ، وعن بلوغ مستوى العظمة التي كسنا نعجب بها في الأتديين الذين عاشوا في ظل حكومة شعبية وضمتموها بحرية القول والفعل معا » (١) واسترسالا في المجاز أو التشبيه . يمكن القول بأن القوام الضئيل للانسان كان يهبط يوما بعد يوم دون المستوى القديم ، وان عالم الرومان كان حقا يقطنه جنس من الأقزام في الوقت الذي انطلق فيه عمالقة وأصلحوا الذرية الناقصة النمو ، فاستعادوا روحا قوية وثابتة من الحرية وبعد ثورة دامت عشرة قرون ، أصبحت الحرية أبا سعيدا عطونا للذوق والعلم .

(١) وما كذلك يمكن أن نقول عن لونغينوس . ان المثال الذي أورده يدعم كل قوانينه ، وبدلا من أن يظهر مشاعره في جراءة وبحرلة . فراء يرهى بها في حذر بالغ . ويلقى بها على لسان صديق . وطبقا لما يمكن استنتاجه من النص المهرش فراء يتباهى هو نفسه بدحضها وتفنيدها .

الفصل الثالث

(٩٨ - ١٨٠ م)

دستور الامبراطورية الرومانية

فكرة حسامة عن النظام الامبراطوري

يبدو ان التعريف الواضح لاية ملكية هو انها دولة يعمد فيها الى فرد واحد مهما كان اقبه ، بتنفيذ القوانين والتصرف في الموارد وقيادة الجيش ، فان لم يتم على حماية الحرية حراس شداد يقظون ، فسرمان ما ينقلب سلطان هذا الحاكم المارد الى حكم استبدادي جائر . وقد يفتتح في عصور الخرافة بالكهنة ورجال الدين في تقرير حقوق الانسان ، ولكن العلاقة بين العرش والمذبح كانت وثيقة الى حد أن رايبة الكنيسة قلما كانت ترى في صف الشعب . ولن يقوم توازن قادر على الاحتفاظ بدستور حر يقف في وجهه هذا الملك وتطلعاته ونزواته ، الا اذا ارتكز هذا التوازن على اشراف محاربين .. وعلى ممثلين للشعب يتسبون بالعناد والصلابة ويتمسكون بالملكية ، ويجتمعون في مجالس دستورية ويمتلكون السلاح .

لقد حظيت الاطباع العريضة للدكتاتور كل حصون الدستور الروماني (او ضماناته) ، وبطشت اليد القوية لحكومة الثلاثة بكل حاجز ويلات مصير دنيا الرومان بعد معركة اكتيوم ، رهن مشيئة اوكتافيوس الذي سمى قيصر عنما تبناه معه ، ثم خلع عليه السنان اسم اوجسطس نفقا وملا منه . وكان الفاتح على رأس قوة قوامها أربع وأربعون فرقة من المحاربين المحنكين ، وكان يدرك كل الادراك مبلغ قوتهم ، كما يدرك ضعف الدستور ، وقد آمن هؤلاء طوال عشرين سنة من الحرب الأهلية في أعمال القتل والقمع ، واخلصوا في حماس لبيت قيصر ، ومن ثم قتلوا منه وحده وتوقعوا أسبغى

الجزء . وكانت الولايات تشد طال بها العهد بالظلم على يد وزراء الجمهورية . . فطلعت في حيرة وأسى الى حكومة فرد واحد يكون سيدا مسيطرا على هؤلاء الطغاة الصغار . لا شريكا متواطئا معهم . وغير شعب روما سرور خفى وهم يشهدون اذلال الارستقراطية ، فلم يطالبوا الا بالمخبز وبالحفلات العسامة ، وسارعت يد أوغسطس السخية الى تحقيق هذه الرغبات . أما أهل إيطاليا الأغنياء المذهبون الذين اعتنق معظمهم فلسفة أبيقور ، فقد تمتعوا الآن بنفمة الراحة والهدوء ، ولم يسمحوا لذكريات حريتهم القديمة المشوشة أن تعكر عليهم صفو حياتهم . وفقد السناتو قوته ووقاره . وانقرض كثير من أشرف الأسرات القديمة ، وهلك خير الجمهوريين روحا ومقدرة في ميدان القتال أو بيد الجلاذ ، أو بالتجريد من حماية القانون أو بالنفى ، وفتح باب المجلس مبدأ لخليط من الأفراد يربو على الآلاف ، ممن جلبوا العار على الوظيفة التي يقبونها ، أكثر مما اكتسبوا منها الشرف .

وكان اصلاح السناتو اولى الخطوات التي تخطى فيها أوغسطس من شخصية الطاغية او نحاها جانباً ، وانخذ فيها صفة الأب لبلاده ، وانتخب أوغسطس رقيباً Censor ، فعمد بالاتفاق مع رجله المخلص الأمين أجريبا Agrippa (١) الى تفحص قائمة أعضاء السناتو ، فطرد منهم اعدادا قليلة ممن كان عنادهم ومساوئهم صارخة يضرب بها المثل ، وأغرى نحو مائتين من الأعضاء بأن يتقوا فضيحة الطرد بالانسحاب طوعا . ورفع نصاب العضو الى نحو عشرة آلاف جنيه ، وخلق عدداً وغيروا من الأسرات النبيلة ، وقبل لنفسه لقب الشرف « أمير » السناتو ، وهو اللقب الذي كان يمنحه الرقيب لأعظم المواطنين أمجادا وخدمات . ولكنه اذ أعاد للسناتو وقاره ، حطم استقلاله . أن سيادة الدستور الحصر لتضييع بلا رجعة اذا تولت السلطة التنفيذية تعيين السلطة التشريعية .

وأمام هذا المجلس الذي شكل واعد على الفسق الذي أسلفنا ،لقى أوغسطس خطبا محروما أبرز وطنيته لكن أخفى طموحه . « فلقد حزن لسلوكه السابق ولكن القسى لنفسه فيه عفرا ، ذلك أن واجب الطاعة والاحترام حتم على الابن أن يكون على يديه النار لقتل أبيه ، وأن روح الانسانية التي فاضت بها نفسه أخلت السبيل أحيانا للأحكام . تسارمة للضرورة الملحة ، ولمسابقة مفروضة قسرا

(١) سياسي وفائد روماني (٦٣ - ١٢ ق م) ، انتصر على أنطونيوس وكليوباترة في معركة اكتيوم ٣١ ق م -

بين زميلين حقيرين غير متناسبين : فما دام انطونينو حيا ، حرمت عليه الجمهورية ان يتخطى عنها الى روماني منحل وملكة من المتبريرين ، اما الآن فهو مطلق الحرية في النهوض بواجبه وتحقيق ميوله . والآن ، وقد أعاد في مدينة ووقار السناتو والشعب حقوقهم القديمة ، فهو انما يرغب في الاختلاط والامتزاج بجموع رفاقه المواطنين ، ويشارك فيما جلب لبلاده من خير ونعيم » .

وما كان اجدر من قلم تاسيتس (لو كان حاضرا في هذا المجلس) بوصف مختلف احاسيس السناتو ، ما ظهر منها وما بطن ! . وكان من الخطر الوثوق باخلاص أوغسطس ، ولكن عدم الايمان به كان أشد خطرا . وطالما فرقت مزايا كل من الملكية والجمهورية بين الباحثين المدققين . فان العظمة المشهودة الآن للدولة الرومانية وفساد الآداب العامة وفجور الجنود أمدت المدافعين عن الملكية بحجج جديدة ، وانحرفت هذه الآراء العامة في نظام الحكم مرة ثانية بأمال كل فرد ومخاوفه . ولكن جواب السناتو كان جماعيا حاسما وسط موضي المشاعر هذه ، فقد مرضوا اعتزال أوغسطس ، ونأشدهوا ألا يترك الجمهورية التي انقذها . وأذعن الطاغية الدائية لأوامر السناتو بعد مقاومة رزينة هادئة ، وارتضى ان يتولى حكومة الولايات والقيادة العامة للجيش الرومانية ، مع اللقب المشهور « البروقنصل » و « الامبراطور » على ان يكون ذلك لمدة عشر سنوات فقط . وكان يأمل ، حتى قبل انقضاء هذه الفترة ، ان تثبت تساهما جسراح الخلافت الأهلية ، وأن تكون الجمهورية ، بعد أن تعود سيرتها الأولى من السلامة والقوة ، في غير حاجة الى الوساطة الخطيرة من جانب حاكم غير عادي . وتكررت هذه المسرحية الهزلية عدة مرات في عهد أوغسطس ، وخذل ذكرها الى اواخر أيام الامبراطورية ، تلك الأبهة التي كان يسببها دائما ملوك روما الأبديون على السنوات العاشرة من حكمهم بنوع خاص .

وكان قائد الجيش الرومانية يستطيع ، دون خسران لمبادئ الدستور ، أن يتولى ويمارس سلطة تكاد تكون مطلقة ، على الجنود وعلى الأعداء وعلى رعايا الجمهورية . أما فيما يتعلق بالجنود فكان الغيرة على الحرية ، حتى في العصور الأولى لروما ، أضعفت الأمل في الفتوحات ، ولشعور صادق بالنظام العسكري ، وكان الدكتاتور او القنصل الحق في أن يجند الشباب الروماني ، وأن ينزل أشد العقوبات ردعا وقسوة بالمخالمين عنادا أو جبنا ، وذلك بحذف اسماء الأئسين من سجل المواطنين ومصادرة ممتلكاتهم ، وببيعهم ببيع الرقيق .

فكان الارتباط بالعسكرية يعطل أقدس حقوق الحرية التي أكدتها قوانين بورشيسا وسيمبرونيوس وكان القائد يمارس في معسكره سلطة مطلقة على الحياة والموت ، ولم يكن قضاؤه محدودا بأية قواعد أو ضوابط للمحاكمة أو الإجراءات ، وكان الحكم ينفذ فوراً ، وليس له من استئناف . وكانت الهيئة التشريعية هي التي تختار وتقرر بانتظام من هم أعداء روما ، وكانت أهم قرارات الحرب والسلم تناقش في السنااتو مناقشة جدية . ثم يصدق عليها الشعب وسط مظاهر الهيبة والوقار ، فما أن تنأى القوات بأسلحتها إلى مسافات بعيدة عن إيطاليا حتى ينتحل القواد لأنفسهم حرية توجيه السلاح إلى أي شعب وبأي شكل ، تبعاً لما يتراءى لهم أنه أوفق وأفضل للمصلحة العامة . فكانوا يلتمسون شرف النصر وأجاد الظفر في نجاح مناهراتهم وتصرفاتهم لا من عدالتها وأحققتها . ولجأوا في استغلال انتصاراتهم إلى حد الاستبداد المطلق بلا قيود ، وخاصة بعد أن بعدت عنهم أعين مبعوثي السنااتو . ولما تولى بومبي Pompey القيادة في الشرق ، كافأ جنوده وحلفاءه ، وخلع الأبراء عن عروشهم وقسم الممالك ، وأسس المستعمرات ، ووزع كنوز مثيراتس . ولدى عودته إلى روما فاز بالتصديق المصام الشامل على كل تصرفاته بمقتضى قرار واحد من السنااتو والشعب . وهكذا كانت السلطة على الجنود وعلى أعداء روما ، سواء خولت لقواد الجمهورية أو انتطوها منهم لأنفسهم . وكانوا في نفس الوقت حكاما للولايات المفتوحة أو قل بلوكا عليها . فجمعوا في أشخاصهم بين الطابع العسكري والشخصية المدنية ، وتولوا القضاء والنشئون المالية والسلطتين التشريعية والتنفيذية في البلاد .

وقد يكون من الميسور ، مع ما أسلفنا ذكره في الفصل الأول من هذا الكتاب ، تكوين فكرة عن جيوش اغسطس والولايات التي وقعت تحت حكمه . ولما كان يستحيل عليه أن يتولى قيادة الجيوش بنفسه في عدة جبهات بعيدة ، أجاز له السنااتو — كما كان الحال مع بومبي من قبل — أن يفوض عددا كافيا من النواب أو الوكلاء في تنفيذ المهام الضخمة لمنصبه . ولم يبد أن هؤلاء الضباط كانوا أقل في الرتبة والسلطة من الولاة القدامى ، ولكن مراكزهم كانت تابعة مزعومة ، فقد يتقلدون وظائفهم ويقومون بعملهم تحت رحمة رئيس كان ينسب قانونا لنفوذه الميمون المبارك ، كل فضيل لهم في أعمالهم . وكان هؤلاء ممثلين للامبراطور ، وكان الامبراطور هو القائد الأوحد للجمهورية ، وكانت ولايته المدنية والعسكرية ،

تمتد لتشمل كل فتوحات روما . بيد أن السناتو وجدد نوما من الترضية في أن الإمبراطور كان دائماً يفوض سلطاته لأعضاء هذا المجلس . أما نواب الإمبراطور فكانوا من مرتبة القناصل أو الحكام ، كما كان يتولى قيادة الفرق أعضاء من السناتو ، أما منصب والى مصر فكان المنصب الهام الوحيد الذى يعهد به الى أحد الفرسان الرومان .

وبعد ستة أيام من اضطرار أوغسطس الى الرضا بهذه المنحة السخية ، قرر أن يرضى غرور السناتو بتضحية يسيرة . ذلك أنه أبدى لهم أنهم منحوه من السلطات حتى أكثر مما تدعو اليه الظروف السينة آنذاك ، وأنهم لم يتركوا له فرصة ليمتنع عن قبول العبد الشاق ، عبي قيادة الجيوش والجيئات ، ولكنه يصر اصرارا على أن يرخص له في إعادة الولايات التى هى أكثر وداعة وأمانا بين أيدي حكام مدنيين يديرونها ادارة رفيقة . ولم يغفل أوغسطس في تقسيمه للولايات امر قوته هو ، وأمر كرامة الجمهورية ، بل احتاط للأمرين وحسب لكل حسابيه . وحظى الولاة المختارون من السناتو ، وعلى الأخص ولاة آسيا واليونان وأفريقية ، على مرتبة أكبر من نواب الإمبراطورية الذين حكموا في بلاد الفسال وفى سوريا . وكانت حاشية الأولين من الضباط ، والآخرين من الجنود ، وصدر قانون ينص على أنه حيثما كان الإمبراطور حاضرا فإن ما يتبتسح به من تفويض خارق يجب أية ولاية شرعية عادية للحاكم ، وأبندع عرف جديد يقتضى بأن تكون الفتوحات الجديدة من نصيب الإمبراطور وسرعان ما استبان أن قوة « الأمير » ، وهو اللقب الأثير لأوغسطس كانت هى بنفس القدر فى مختلف أرجاء الإمبراطورية .

وحصل أوغسطس فى مقابل هذا التنازل الوهمى أو الإذعان الصورى ، على ميزة هامة جعلته سيدا على روما وعلى إيطاليا ، ذلك أنه استثناء من المبادئ القديمة — وهو استثناء خطير — خول حق الاحتفاظ بالقيادة العسكرية مدمية بعدد كبير من الحرس حتى فى زمن السلم ، وفى قلب العاصمة . حقا كانت أمرته مقصورة على المواطنين الذين انتصقوا بالخدمة بمقتضى اليمين العسكرية ، ولسكن تلك كانت نزع الرومان الى المبودية ، حتى أن السناتو والحكام والفرسان كانوا يتقسمون اليمين ، الى أن انقلب الانساق مع النفاق الى اعسلان سنوى مدو مهيب عن الولاء والاخلاص .

وكان أوغسطس يرى فى القوة العسكرية أقوى ركيزة ، ولسكنه رغم ذلك أنكر عليها ش حكمة وتبصر ، أن تكون أداة مقسوتة

للحكم . وكان أكثر الثأما مع مزاجه ومع سياسته في وقت معا ،
يحكم تحت ظل الاسماء الوقورة لالوان الحكم القديم ، على ان
يجمع في شخصه ، بهسارة ودهاء ، كل الخيوط المبعثرة للسلطة
المدنية ، وعلى هذا الأساس سمح للسناتو أن يمنحه مدى الحياة
سلطات الوظائف القنصلية والتربونية ، وقد بقيت هذه السلطات
على هذا النسق ، لجميع خلفائه . وكان القناصل قد سمو الى مرتبة
ملوك روما — ومثلوا كرامة الدولة وجلالها . فراسوا الاحتفالات
الدينية ، وحشدوا الفرق وتولوا قيادتها . واستقبلوا السفراء
الأجانب ، ورأسوا اجتماعات السناتو والمجالس الشعبية ، كما عهد
ودوميتيان . والواقع أن أوغسطس سمح لبعض مدن الولايات أن
الفراغ ما يتولون فيه القضاء بأنفسهم ، لكنهم كانوا رغم ذلك
يسيطرون الحياة الأعلى للقانون والعدالة والسلام العام . تلك كانت
حدود ولايتهم الشرعية العادية ، أما إذا فوض السناتو المعامل الأول
في السهر على سلامة الجمهورية والنود من حياضها ، فإنه كان
يرتفع بمقتضى هذا القرار فوق القانون ، وكان يمارس ، من أجل
الدفاع عن الحرية ، سلطانا مطلقا بصصفة مؤقتة . وكانت شخصية
التريبون Tribune تخلف عن شخصية القنصل من كل النواحي ،
فكان الأول يتسم في مظهره بالبساطة والتواضع ، ولو أن شخصه
كان مقدسا لا يمس . وكان له أن يعارض ويناهض أكثر من أن يعمل
أو يبت في الأمر . وأنشئ منصب التريبون للدفاع عن المظلومين
والدفع عن الاسماءات ، ولاستجواب أعداء الشعب ، ولوقف
اجراءات الحكومة كلها ، بكلمة واحدة منه ، إذا رأى أن الضرورة
تتطلب ذلك . وطيلة أيام الجمهورية كانت ثمة قيود هامة تحد من
النفوذ الخليلر لكل من القنصل والتريبون ، ذلك النفوذ الذي كانت
تسببه عليهم وتلائفهم . من ذلك أن سلطتهم كانت تنقضي بانقضاء
السنة التي انتخبوا فيها ، وكانت الوظيفة الأولى — القنصل —
موزعة بين شخصين ، والثانية بين عشرة أشخاص . ونظرا لتمارض
المصالح الخاصة والعامة لكل من الفريقين — القنصل والتريبون —
فان الصراع بينهما أدى ، أكثر مما أدى ، الى تدعيم التوازن
الاستورى ، لا الى تحلييه . ولكن حين اتحدت وظيفتا القنصل
والتريبون ، وخولت سلطتهما مدى الحياة لفرد واحد ، حين كان
قائد الجيش هو نفسه رئيس السناتو وممثل الشعب الروماني
فقد كان من المستحيل عليه ألا يمارس الحق الامبراطورى أو يمين
حدوده ومده .

وسرعان ما اُضيفت سياسة أوغسطس الى هذه الوظائف التي
تجمعت له ، وظيفتين عظيمين هما : في وقت معا : الحبر الاعظم
والرقيب ، فبالأولى تولى أمور السدين ، وبالتالي اكتسب حقاً
قانونياً في الرقابة على ملوك الشعب الروماني وفي البحث عن ثرواته .
واذ لم تلتئم هذه السلطات المتميزة المستقلة بعضها مع بعض التماساً
تأماً ، فإن السناتو — أدباً منه ولطفاً — كان على استعداد لمعالجة
أي نقص بالرخص والتنازلات الكثيرة الخارطة الى أبعد حد .
وتحرر الأباطرة بوصفهم الرؤساء الأول في الدولة من التزامات
وعقوبات كثير من القوانين المضايقة ، وكان لهم حق دعوة السناتو
للاجتماع ، وإجراء عدة اقتراحات في نفس اليوم ، وتقسيم أسماء
المرشحين لوظائف الدولة ورتبها ، وتوسيع حدود المدينة ، والتصرف
في التدخل حسب تقديرهم وإعلان الحرب والسلام ، والتصديق
على المعاهدات ، وأخيراً كانوا يفوضون ، بقرار شامل جاسع أن
يفعلوا ما يرونه نافعا للامبراطورية ، متفقا مع الجلال والعظمة ، في
الخاص والمعام ، والانساني واللاهوتي من الأمور .

وحين انتقلت هذه الصلاحيات التنفيذية المختلفة للحكومة الى
شخص « الحاكم الامبراطور » ، قبع الحكام العاديون في الجمهورية
في أركان مظلمة خاملين بل عاطلين عن العمل في الغالب . واحتفظ
أوغسطس بكل اسماء وأشكال الإدارة القديمة في أبلغ عناية ولحالة .
وكان العند المؤلف من القناصل ومساعدتهم Praetors ومن الترابيون
يزودون في كل عام بشعارات وأعلام ووظائفهم ، وقد استمروا على
القيام بآئنه مهامهم . وكانت هذه الشعارات والأوسمة لا تزال تثير
في نفوس الرومان طموحاً وغروراً ، وحتى الأباطرة أنفسهم ، رغم
ما منحوا من سلطان القنصل مدى الحياة ، كثيراً ما تشبوهوا الى
هذا التكريم السنوي ، وقد تنازلوا غارتضوا أن يشاركوا فيه أكثر
مواطنيهم امتيازاً وسموا . وقد أتاح انتخاب هؤلاء الحكام ، في
عصر أوغسطس ، للشعب فرصة اظهار كل متاعب الديمقراطية الفجة
السافجة ، وما كان هذا الأمير الداهية الماكر ان يظهر عليه أقل أمارات
الضجر أو الضيق بهذا الذي يقولون ، بل انه بدلاً من ذلك ، كان
ينبه الى كل هذه المتاعب ، وكان بكل تواضع يوجه نظره زملائه اليها ،
ثم يؤدي — في دقة وامانة — واجبه كأي مرشح عادي . ولكن يمكن ،
في شيء من الجراءة ، أن ننسب الى مجالسه أول اجراء اتخذته العهد
الذي أعقبه ، وهو الاجراء الذي أدى الى انتقال هذه الانتخابات
الى السناتو . غالغيت المجالس الشعبية الى الأبد ، وبذلك تخلص

الاباطرة من التجمع الخطير الذى كان يمكن - اذا لم تسرد له حريته - ان يهز اركان الحكومة الوطنية او يعرضها للخطر ويمصف بها .

ولقد حطم ماريوس وقصر دستور البلاد حين اعلنا انها حماة الشعب . ولكن سرعان ما اتضح ان السناتو الذى يضم خمسمائة او ستمائة عضو ، أصبح بعد ان اخضع واذل وجرد من قوته - أصبح أداة للسيطرة انفع واساس قيادا . ومن هنا يمكن القول بان اوغسطس وخلفاءه انما شادوا امبراطوريتهم الجديدة على حساب السناتو ، وما كان له من مقام ومكانة . وكانوا يتظاهرون فى كل مناسبة بانهم يقتبسون لغة النبلاء ورجال السناتو ومبادئهم . وكثيرا ما التمسوا الراى والمشورة عند هذا المجلس الودلى المؤقت فى تادية مهام وثلثتهم ، وبدا انهم يرجعون الى قراراته او يأخذون بها فى أهم قضايا الحرب والسلام . وكانت روما وايداليا والولايات الداخلة خاضعة للسلطة القنصلية للسناتو مباشرة . فكان هو بمثابة محكمة الاستئناف العليا بالنسبة للأحوال المدنية . أما فيما يتعلق بالجنايات فكان هو ، أى السناتو ، محكمة مشككة لانظر فى الجرائم التى يرتكبها الموظفون العاملون فى الدولة أو التى تكدر السلم أو تسيء الى كرامة الشعب الرومانى ومثلته ، فاصبحت ممارسة السلطة القنصلية هى الشكل السائد للسناتو وأخطر المهام التى يضطلع بها ، وكنت ترى فى السناتو ، عند نظير القضايا الكبرى التى تستأنف اليه ، ترى آخر منبر للبلانة القديمة . وكانت السلطة بوضعه مجلسا للدولة ومحكمة للقضاء ، امتيازات هامة ، أما بالنسبة لقوة التشريع ، فكان المقرر أو المعترف به أن حقوق السيادة كانت مركزة فى هذا المجلس الذى كان مفروضا فيه أنه فى الحقيقة يمثل الشعب . ان اية قوة كانت تسد من سلطته ، ولا يجاز أى قانون الا بتسديق منه . وكان السناتو يعقد اجتماعات دورية فى ثلاثة أيام معينة هى الاول والتاسع والخامس عشر من كل شهر . وكانت المناقشات تدار فى حرية تنقسم بالوقت والحسنة ، وكان الإبلارء الذين تالقوا فى مقاعد الشيوخ ، يأخذون امساكنهم ويصرون مع زملائهم من الاعضاء او يخالفونهم .

فكرة عامة عن النظام الإمبراطوري

يمكن في عبارة موجزة ، أجمال نظام الحكومة الإمبراطورية ، كما وضعه أوغسطس ، واحتفظ به أولئك الأمراء الذين أدركوا مصالحهم الخاصة ومصالح الشعب - بأنه ملكية مطلقة مستقرة وراء أظهارات جمهورية ، وقد لف سادة دنيا الرومان ، عروشهم في غلالات من الغموض والظلام ، واخفوا قوتهم القاهرة الغلبة ، وأعطوا في خثسوع وتواضع أنهم الوزراء المسئولون للسنانو الذي أملاوا هم أوامره العانية ثم أطاعوها .

وكان مظهر البلاط يطابق المظاهر الخارجية للحكومة . وباستثناء أولئك الطعنة الذين انتهكوا حرمة كل قوانين الطبيعة والوقار بحماقتهم الخرقاء ، نجد أن الأباطرة كانوا ينفرون من كل مراسيم الأبهة والمغظة التي قد تسيء إلى مواطنيهم ، والتي لا تجديهم هم أنفسهم نفعا ولا تزيد في قوتهم شيئا . فظاهروا بأنهم يشاطرون رعاياهم في كل ما يهمهم من أمور الحياة ، وتبادلوا معهم سلسلة من الزيارات والحفلات المنتظمة . ولم يسموا في ملابسهم وقصورهم وموائدهم عن مرتبة عضو ميسور من أعضاء السنانو . أما اتباع الإمبراطور أو معيته ، مهما بلغ من وفرة عسدها ومن سنانها ، فكانت تتكون كلية من عبيده المحليين والمعتقين (١) ، وربما كان أوغسطس أو تراجان يستحي ويخجل من استخدام أقل الرومان شأنا في مثل هذه الوظائف الحثيرة التي يلتبسها ويسيل لها لعاب أكثر النبلاء البريطانيين فرورا ، في حاشية مسلك صغير أو في شرفة نومه .

وكان تقديس الأباطرة إلى حد العبادة هو الأمر الوحيد الذي خرجوا فيه عن مألوف فطنتهم وتواضعهم . وكان الإغريق الآسيويون أول من ابتدعوا هذا اللون الذليل الملحد من المسداهنة والرياء ، وكان خلفاء الاسكندر أول هدف لهذا التقديس . وما كان أبسر امتداد هذا التقديس أو التاليه من الملوك إلى الحكام في آسيا ، وكثيرا ما كان الحكام الرومان يعبدون بوصفهم آلهة محليين ،

(١) كان اتباع الإمبراطور الضعيف يسيطرون عليه ويسبونه ، وكانت قوة الامم دسطن من سنان من ملوك الرومان وتزيدهم عارا . وكما احتفى السنانو بالشبان الغفترين وأنشأت انجيميلات من هؤلاء الاتباع . وكانت الفرمة موافقة ليدفء أحد امشرين المدطيين الجدد في عداد السادة المهذين الاجلاء .

بكل ما تقتضيه العبادة من أبهة المذابح والمعابد والأعياد والقربان .
وحان من السبيعي ألا يأتى الإباطرة على انفسهم ما ارضاهم استحصل
والولاء ، ولا شك فى أن هذه الامجاد الالهية التى كان يطلقها
هؤلاء وهؤلاء كانت اهرارا باستياداد روما اكفر منها بعبوديتها *
ولكن سرعان ما قلد الغزاه الفاتحون الأمم المقهورة فى أفانين الملق
والرياء ، فسهل على القيصر الأول ، وهو على قيد الحياة مع
ما ركب فيه من عتو وغطرسة ، أن يرتضى له مكانا بين الآلهة الاوصياء
الحراس على روما . ولم يتعلق خلفه ذو المزاج الأرق ببطل هذا
الملح الخليلر ، الذى لم يحيه قط من جسد الا جنون كاليجولا
ودوميتيان . والواقع ان أوغسطس سمح لبعض مدن الولايات أن
تقيم المعابد تكريما وتمجيذا له ، شريطة أن يربطوا عبادة روما بعبادة
الملك ، وتسلمح فى بعض الخرافات الخاصة التى قد تدور حول
شخصه ، ولكنه قنع بأن يكون اجلال السناتو والشعب له على
اساس شخصيته الانسانية ، وفى حكمة وتبصر ترك لخلفه مهمة
إثباته العلم . واستحدث حرف جديد ، ذلك ان السناتو كان يصدر
عند وفاة الإمبرطور السذى لم يحك فى حياته او مبادئه سيره
البلانية — يسدر قرارا خطيرا بادراجة فى عداد الآلهة . وكان الاحتفال
بضمه الى الآلهة يخلط بهراسم دفنه . وكان مبدأ الشر وتسد
الآلهة ، بما اتسم به من سهولة وبساطة يتقبل ، فى غير ما ضجة ،
هذا الامتهان القانونى الذى يبدو غريبا طائشا ، كما يبدو
بغيرضا مقينا كل البغض والمقت فى نظر مبادئنا التى هى اشد
مراعاة ودقة ، ولكنه كان يتقبل على أنه لون من نظم السياسة ،
لا الدين . وانا لنحسد من قدر فضائل الانطونيين اذا قارناها
برذائل هرقل او جوبيتر . بل ان شخصية قيصر او أوغسطس كانت
تسود كثيرا على شخصية الآلهة المحليين ، ولكن من سوء حظ
الأولين انهما عاشا فى عصر مستنير ، وأن أعمالهما دونت بأمانة
سجحت بمثل هذا الخليط من الخرافة والغموض الذى أرادته عبادة
السيرة والسلة وولاؤهم . وما أن تقررت الوهيتهم بمقتضى القانون
حتى اندمرت الى زوايا النسيان ، دون أن تخيف شيئا الى شهرتهم
او الى مكانة خافاتهم .

ونكثرا ما أوردنا ، فى الحديث عن الحكومة الامبراطورية ، ذكر
المؤسس الداهية تحت اللقب الذائع « أوغسطس » ، الذى لم يسمخ
عليه الا عندما كاد الصرح ان يكتمل . أما الاسم الضال المهجور
« أوكتافىوس » فقد أخذه عن اسره وشيعة فى المدينة المنيرة

أريتشيا *Aricia* ، وكان ملطخا بدم حكم الاعداد ، ومن ثم كان مثلها ما أمكن على محبو آية ذكريات لحياته الأولى . أما اللقب اللامع « قيصر » فقد كسبه بوصفه ابن الدكتاتور بالتبني . ولكنه أوتى من سمة العقل ما جعله لا يأمل في أن يقترن بهذا الرجل الخارق أو يرغب في أن يقارن به . واقترح في السناتو فكريم وزيره بتسمية جديدة ، واختير ، بعد مناقشة حامية اسم « أوغسطس » من بين عدة أسماء . لأنه أصدق تعبيراً عن طبيعة السلام والطهر التي اصطفاها روما . ومن هنا كان أوغسطس امتيازاً شخصياً ، أما قيصر فهو امتياز تابع من الأسرة ، وكان من الطبيعي أن ينقضى الأول بانقضاء حياة الأمير الذي أسبغ عليه ، ومهما يكن من أمر انتشار اللقب الأخير — قيصر — عن طريق التبني أو تحالف الأسرات ، فإن نيرون كان آخر أمير يستطيع أن يدعى أي حق وراثي في أمجاد فرع يوايوس . ولكننا نجد عند وفاته أن ما تم على مدى قرن من الزمان قد أحكم الصلة بين هذه التسميات وبين المقام الإمبراطوري الجليل ، كما حافظ عليها تعاقب طويل لباطرة من الرومان واليونان والفرنجة والألمان ، منذ سقوط الجمهورية إلى وقتنا هذا . على أن غارقاً واحداً أدخل ، ألا وهو الاحتفاظ باللقب المقدس « أوغسطس » لشخص الملك ، أما اسم « قيصر » ، فكثيراً ما انتقل في هرية أكثر إلى ذوي قرباه . ومنذ عهد هادريان — على الأقل — خصص هذا الاسم الأخير للشخص الثاني في الدولة ، الذي كان يعتبر الوريث المحتمل للإمبراطورية .

ويمكن تفسير الاحترام الهزيل الذي أبداه أوغسطس للدستور الحر الذي حمله ، بالتأمل الدقيق الواعي في شخصية هذا الطاغية الداهية المحتال . لقد كان رصينا هادئ الطبع ذا قلب لا يتأثر ، نزاعاً إلى الجبن والتهيب ، كل أولئك مسكن له في سن التاسعة عشرة من أن يلبس قناعاً من النفاق لم يتخل عنه بعدها قد . فتراه يوقع بنفس اليد ، وأغلب الظن بنفس الروح ، الحكم بالاعداد على شيشرون ، وقرار العفو عن سسنا *Cinna* . وكانت فضائله ، بل وحتى رذائله ، متكلفة مصطنعة ، وكان في بداية الأمر عدواً للمعالم الروماني ، ثم غدا في النهيائية أباً له ، وكل أولئك خطميرات من املاء مصلحته (١) . ولا وضع النظام الخبيث للسلطة الإمبراطورية كان

(١) عندما ارتقى اكتافيوس إلى مرتبة القيامة ، كان بمثابة هرياء تقتلون بالزنا كثيرة : صفراء شاحبة هي البداية ، ثم حمراء ، وبعد ذلك سوداء ، وفي النهاية تقمص أرواح الهة الربيع والاخوات الثلاث الهات مسرات الحياة ومباهجها . تلك هي الصورة -

اعتداله متبعنا من مخاوفه . غاراد أن يخدع الشعب بطيف الحرية المدنية كما يخدع الجيوش بصورة الحكومة المدنية .

١ — لقد كان موت قيصر مثلاً أبداً أمام عينيهِ ، فأغدق المال والرتب على أتباعه وأشياعه ، ولكن أخلص الأصحقاء المقربين الى عمه كانوا في عداد المتأمرين . وقد يجدي اخلاص القسوات المسلحة في التصدي للعصيان أو التمرد السافر على سلطته ، ولكن يظنهم لن تنقذ شخصه من طعنة خنجر من يد جمهوري متشدد ، ولا بد أن الرومان الذي مجسوا ذكرى بروتس ، سيبتدحون ويصنقون لمن يفعل فعلته . لقد تعجل قيصر مصيره بفعل مفاخرته بقوته وبفعل قوته على قدر سواء . ولربما كان قد حكم في سلام وهدوء لو أنه اكتفى بمنصب القنصل أو التربيون . غير أن طمعه في أن يكون ملكاً أمطى الرومان سلاحاً يستخدمونه في قتله . وكان أغسطس يدرك أن البشر تفرهم الألقاب ، كما أنه لم يكن مخدوعاً في توقعه أن السناتو والشعب لا بد أن يستكينوا ويستسلموا ، شريطة أن يؤكد لهم في احترام وإجلال أنهم لا يزالون يتمتعون بحريتهم القديمة . . وكان السناتو الضعيف والشعب الذي وهنت عزائمه يقنعون مبنهجين بهذا الوهم السار ، طالما كان يعتمد على فضيلة خلفاء أوغسطس ، أو حتى على حكمتهم . والحق أنه كان دافعاً من دوافع الإبقاء على الذات ، لا مبدأ من مبادئ الحرية ، ذلك الذي أثار المتأمرين ضد كاليجولا ونرون ودوميتيان ، فقد تصددوا لشخص الطاغية ولكنهم لم يسندوا ضربتهم الى سلطة الإمبراطور .

ويبدو في الواقع أن هناك مناسبة واحدة جديرة بالذكر ، قام فيها السناتو بعد سبعين سنة تنزع فيها بالصبر ، بمحاولة عديمة لاسترداد حقوقه التي طال عليها عهد النسيان . ذلك أنه عندما خلا العرش ، بقتل كاليجولا ، دما القناصل هذا المجلس الى الاجتماع في الكابيتول ، ونددوا بذكرى القيصرة ، وأعطوا كلمة السر « الحرية » للفئة القليلة من الفرق العسكرية التي التفت في فتور حولهم ، ثم تصرفوا (القناصل) لمدة ثمان وأربعين ساعة وكانهم

= التي رسمها جوليان لى قصته البارعة ، وهي صورة صادقة رشيقة . ولكنه حين يتسبب تغلب شخصيته الى قوة الفلسفة ، انما يولى الفلسفة ويولى أوكتايفيوس حراماً أكثر مما ينبغي . (« القيصرة » تأليف لوشيان - وهو كاتب يوناني عاش في القرن الثاني الميلادي)

رؤساء مستقلون لجمهورية حرة . وفي الوقت الذي كانوا يتدبرون فيه الأمر في روية . كان رجال الحرس الإمبراطوري قد حزموا أمرهم ، واستقر قرارهم ، بل وكان كلوديوس الغبي شقيق جرمانيكس في معسكرهم في حلة الإمبراطورية الأرجوانية مستعداً لتثبيت اقتضابه بحد السيف . وهنا تبخر حلم الحرية ، وفتح السناتو عينيه على مظالم العبودية التي لا مفر منها . وأرغم هذا المجلس الهزيل ، وقد نخلى عنه الشعب وهددته القوة العسكرية ، أرغم على إقرار ما اختاره الحرس ، والاستفادة من العفو العام الذي اقتضت فطنة كلوديوس أن يعرضه ، كما اقتضى كرمه أن يتبته إليه .

٢ - وأثارت سفاهة الجيش ومصلفه في نفس أوغسطس مخاوف تفاقم نذيرها على مر الأيام . وبلغ بالمواطنين القنوط إلى حد أنهم لم يحاولوا إلا أن يعرفوا ماذا تستطيع قوة الجنود أن تفعل في أي وقت . وكم كان سلطانه (أي أوغسطس) مزعزها غير مأمون على قوم لقنهم هو أن ينتهكوا حرمة كل واجب اجتماعي ! لقد سبع من قبل صخبهم المثير للفتنة ، كما توجد خيفة من لحظات تأملهم الهائلة . وقد يكن شراء ثورة واحدة لقضاء ثمن باهظ ، ولا بد أن يكون هذا الثمن مضاعفا لشراء الثورة الثانية ، لقد أعلن الجنود أشد التعلق ببيت قيصر ، ولكن تعلق الجماهير مقتل غير ثابت ، ولكن أوغسطس أهلب لمعونه بكل ما تبقى في تلك المقول من أهواء وتحيزات رومانية ، وفرض نظاماً صارماً بقوة القانون ، ووضع هيئة السناتو بين شتى الرحي : الإمبراطور والجيش . ثم جنح أطراف شجاعته ومطالب بولائهم له بوصفه الحاكم الأول للجمهورية .

ومنذ أقيم هذا الأسلوب البارع الماكر حتى وفياة كومودس Cominodus ، أي طيلة فترة امتدت مائتين وعشرين سنة ، توقفت إلى حد كبير الأخطار الملازمة للحكومة العسكرية ، فغلبا كان الجنود يوقظون إلى حد الإحساس بخطورة قوتهم ، وبضعف السلسلة المدنية ، ذلك الضعف الذي كان ، من قبل ومن بعد ، نتيجة لنشل هذه الكوارث الرهيبة . لقد ذبح كل من كاليغولا ودوميتيان في قصره بيد خدمه ، وكانت الهزة التي أصابت روما لمسوت الأول محصورة بين جدران المدينة ، ولكن وفاة نيرون هزت أركان الإمبراطورية بأسرها . وفي مدى ثمانية عشر شهراً هلك أربعة من الأمراء بحد السيف ، وانقضت حنيا الرومان لهذا الصراع المحتدم بين الجيوش المتنازعة . وباستثناء احتدام هذه المنازعات العسكرية القصيرة ، ولكن العنيفة ، فإن القرنين من الزمان - من أوغسطس

الى كومودس - لم تلطخهما دماء الحروب الاهلية او تكثر صغوهما
اية ثورات . فكان الامبراطور ينتخب بمقتضى ما للسناو من سلطة ،
وبرضا من الجيش . واحترمت القوات بين الاخلاص الذى كانوا
يؤدونه . ويتطلب الأمر فحصا دقيقا لسجلات التاريخ الروماني
للاعتداء الى ثلاث ثورات تافهة اُعيدت في بضعة شهور ، دون المخاطرة
بالدخول في معركة .

ان ساعة خلو العرش في الملكية الانتخابية مخوفة بالخطر منذرة
بالسوء . ومن ثم اتجهت رغبة اباطرة الرومان الى أن يجنبوا الفرق
العسكرية فترة الترقب والبلبله هذه ، ويجنبوهم الاغراء باختيار
شاذ ، ولذلك زودوا الشخص الذى يقصدون أن يكون خلفا لهم
بنصيب كبير من سلطتهم الراهنة ، بالقدر الذى يستطيع معه ، بعد
وفاتهم أن يستحوذ على ما تبقى من سلطة دون أن تعاني الامبراطورية
مشقة ادراك التغيير في الحكم . ومن هنا نرى أن أوغسطس بعد
أن اختطفت منه تطلعاته التى هى أكثر ازدهارا بأحداث المسوت التى
جاءت في غير اوانها ، ركز آماله الأخيرة على تيبيريوس ، وحصل
لابنه بالتبني على سلطات الرقيب والتربيون ، ثم فرض قانونا زود الأمير
المنظر بسلطة مساوية لسلطته هو ، على الولايات والجيش . وكذلك
كبح فسبازيان التطلع الجامح لابنه الأكبر ، وكان تيتس معبود
الفرق العسكرية الشرقية التى اتمت مؤخرًا ، تحت امرته ، فتح أرض
يهودا Judea . وكان مرهوب الجانب ، وكانت تشوب فضائله مسحة
من طيش الشباب ، ولذلك كانت مشروحاته موضع الشك والريبة .
وبدلا من الاصفاء الى هذه الريب التافهة ، عمس الملك النطن
(فسبازيان) الى اشراك تيتس في السلطات الامبراطورية كاملة .
وأثبت الابن الشكور دائما أنه الوزير المخلص المتواضع للأب
اللطيف المتساهل .

والحق أن ادراك فسبازيان السليم أدى به الى أن ينشغل باتخاذ
اجراء لتدعيم هذا الارتقاء المزعزع حين تبوأ العرش حديثا . لقد
كانت اليمين العسكرية كما كان اخلاص القوات ، وفقا للمعادن التى
تأملت لمدة مائة عام وفقا على اسم قيصر وأسرته . يتطلع الرومان
في شخص نيرون ، يجولون حفيد جرمانيكوس والخليفة الوراى
لاوغسطس ، على الرغم من أن هذه الأسرة لم تستمر في الوجود
الا بهذه السنة الملفقة ، الا وهى سنة التبنى ، ولم يكن اقتناع الحرس
الامبراطورى وتحريضه للتضلى من الطاغية أمرا خاليا من التسدم

والمضايقة . وقد علم انسقوط السريع لجنالبا Galba واثو Otho وفبتيوس Viteilius علم الجيوش أن تنظر الى الأباطرة على أنهم من صنع ارادتها ، وأدوات لسلطانها . لقد كان فسبازيان من أصل وضيع ، كان جده جنديا خالصا ، وأبوه مأمورا صغيرا للدخل ، وقد رفعت مواهبه الخاصة الى مرتبة الامبراطور ، ولكن مواهبه كانت نائفة أكثر منها لامعة مشرقة ، وتلوث فضائله ببخله الشديد الدنيء . وقد رعى هذا الأمير مصلحته الحقيقية بإشراك ابنه الذي يمكن أن تصرف شخصيته العظيمة المحبوبة الأنظار العامة عن الأصل المظلم الى ما ينتظر في المستقبل من أجداد لبنت فلانيوس Flavius وفي ظل الاعتدال الذي اتسمت به ادارة تيتس استروح عالم الرومان نسيما عاجرا من الغبطة والهناء ، حتى لقد غطت ذكراه المعطرة المحببة ، لمدة تزيد على خمسة عشر عاما ، سيئات أخيه دوميشيان .

وما كاد فرما Nerva يتسلم طليسان الملك من قتله دوميتيان حتى تبين له أن تقدمه في السن يجعله عاجزا عن صد تيار الفوضى الجارف الذي استشرى طيلة حكم سلفه الطاغية . وكانت ميرله الطبية مريض تقدير كرام القوم ، ولكن الرومان الذين دب فيهم الانحلال كانوا يتطلبون شخصية أصلب وأتقى ، حتى تلقى عدالتها الرعب في قلوب المجرمين ، وكان لديه العديد من ذوي قرباه ، ولكن وقع اختياره على رجل غريب ، فتبنى تراجان الذي كان آنذاك في الأربعين من العمر ، والذي كان تحت امرته جيش قوى في ألمانيا السفلى (في الجزء الجنوبي من ألمانيا) . وبمقتضى قرار من السناتو ، أعلن فرما على الفور تراجان زميلا له وخلفا له في الامبراطورية . وأنه لما بيعت حقا على الأسى ، أنه في الوقت الذي نشق فيه بالسرد الملل الكريه لجرائم نيرون وحمقاته ، نجد أنفسنا مضطرين الى جمع أعمال تراجان من شئت موجز أو مخلفات مديح مسريه . على أن هناك مديحا واحدا يرتفع عن الشبهات وعن مظنة الملق . ذلك أنه بعد مرور مائتين وخمسين عاما على موت تراجان وفي غمرة الهتاف والتهليل المألوف المناسبة اعتلاء امبراطور جديد على العرش ، تمنى السناتو للمعامل الجديد أن يبرز أوغسطس في هناة عهده ، وأن يبرز تراجان في فضائله .

وقد نكون على استعداد للقول بأن أبا البلاد تردد فيما اذا كان ينبغي له أن يعهد الى شخص قريه المتقلب الريب هادريان ببعض السلطات الملكية . فلما حانت منيته استخدمت الامبراطورة بلوتينسا

Plotina دماها وجعلها في اخراج تراجان من حيرته ، أو أنها تجاسرت غلفت له امرا لم يأمن مخبة الجدل فيه . واتفق الأمر بالاعتراف في سلام بهادريان خلفا شرعيا لتراجان . ونعمت الامبراطورية على عهده . كما استغنا بالسلام والرخاء ، وقد شجع الفنون واصلح القوانين ، واقتر النظم العسكرية ، وزار كل الولايات بنفسه . كما وجه فكاكه الواسع العمال ، بنفس القدر ، الى كل كبيرة وصغيرة في مجال السياسة المدنية . ولكن الزموس والفضول كانا يملكان عليه جوانب نفسه بكلها لها عليه ، وكلما ثارا لشيء في الآخر ، انقلب هادريان بدوره من أمير ممتاز الى سيستاني يدمسو الى السخرية ، والى طاغية تاكل الخيرة قلبه . لقد كان الرجل يستحق القاء لما تميز به الطابع العام لسلوكه من انصاف واعتدال ، ومع ذلك غشى الأيام الأولى أعين أربعة من أعضاء السيناتو القناصل ، كانوا امداء الداء له ، وكانوا جديرين بمنصب الامبراطورية . وكان يعاني من داء عضال . جعل منه في النهاية رجلا شريرا قاسيا . وحار السناتو هل يدموه الها أو طاغية . ولم يقرر تبجيد ذكره الا نتيجة لتوسلات انطونينوس التقي .

واثرت نزوات هادريان وشذوذه في اختيار خلفه . ويعد أن عمل فكره في عدة رجال من ذوى المواهب البارزة ، الذين كان يقدرهم ويفضهم في وقت معا ، اختار اليوس فيروس Aelius Verus وهو شخص مرح دأمر من الاشراف ، اوصى به جمال ساحر لدى هادريان عشيق انطونينوس . وبينما كان لاهيا ذامعا بما يكال له من مدح وتقريظ ، ويتلهل الجنود الذين حصل على موافقتهم بما أفسد عليهم من هبات ضخمة ، اختطف القيسر الجديد من بين يديه صوت مناجيء . وقد ترك ولدا وحيدا ، اوصى به هادريان الانطونيين خيرا ، فقد تبناه انطونينوس فيوس ، كما زود بنصيب من السلطة الملكية مساو لنصيب ماركوس عند اعتقاله المرسى . والى جانب رذائله الكثيرة كان فيروس الصغير يتولى بمضيئة واحدة : الاحترام والامتثال لزيميله الذي هو أرجح عقلا ، الذي ترك له رغبا مشقة المهام الجسم في الامبراطورية . وغض الامبراطور الفيلسوف الطرف عن حماقاته ، وحزن لموته المبكر واستدل سترا وتورا على ذكره .

وعندما اشيعت رقبة هادريان أو خابث ، صمم على أن يتغاضى شكر الأعقاب باجلاس اعظم الموهوبين المبجلين على العرش انروماني ، موثقت عينه الفاحصة على صفاتور في نهو الخمسين من العمر ،

لم تلصق به في أي من وظائف الحياة شائبة ، وعلى شاب في نحو السابعة عشرة تبشر سنو نضجه العادمة بإمارات الفضيلة . وعن أولهما ابنا وخلفا له شريطة أن يتبنى هذا الشخص الأول نفسه الشاب الثاني على الفور . وحكم هذان الاثنان الانطونيين (ونحن هنا إنما نتحدث عن الانطونيين) دنيا الرومان طيلة اثنين وأربعين عاما بروح ثابتة لم تتغير من الحكمة والفضيلة . وكان لانطونينوس بيوس ابنان ، ولكنه رغم ذلك أثر مصلحة الإمبراطورية على مصلحة أسرته ، فزوج ابنته فوستينا من ماركوس الشاب ، وحصل من السناتو على سلطات التربيون والتنصل ، وفي احتقار كريم منه ، بل قل في جهل منه بمشاعر الغيرة والحق ، اشركه معه في كل أعمال الدولة . واحترم ماركوس ، من جهة أخرى ويحل الرجل الذي اسدى اليه الخير على أنه والد له ، وأطاعه بوصفه مليكا وسيدا له ، فلما قضى ، سار في إدارته على مثال سلفه ونهج على مبادئه . وربما كانت فترة هذين الحاكمين المتحددين هي الفترة الوحيدة في التاريخ التي كانت فيها سعادة شعب عظيم هي الهدف الأوحد للحكومة .

وقد نعت تيتس أنطونينوس بيوس بأنه نوما Numa ثان (ثاني ملوك روما في القرن السابع ق.م .) . فقد كان حب الدين والسلام هو الخاصة المميزة لهذين الأميرين كليهما . وربما افسح موقف المتأخر منها (أنطونينوس) مجالا أكبر لممارسة هاتين الفضيلتين . لقد استطاع نوما فقط أن يحول حون أن تسطو بضع قرى متجاورة على محصولات بمضها بغضا . ولكن أنطونينوس نشر النظام والهدوء في أكبر رقعة من الأرض . وتترد حكمة مميزة نافذة ، تلك هي قلة المواد التي زود بها التاريخ الذي لا يعدو أن يكون شيئا أكثر من سجل لجرائم البشر وحمقاتهم وبكباتهم ، وكان في حياته الخاصة رجلا طيبا محبوبا . وكانت البساطة الفطرية لفصله لا تلتزم مع أي زهو أو تكلف . ولقد تمتع مقمة طابعها الاعتدال بما اتاحه له حظه من وسائل ، وبما تيسر في المجتمع من مسرات بريئة ، وتمثلت طيبة نفسه في طبع هادئ ينبض بالبشر والبهجة .

أما فضائل ماركوس أوريليوس أنطونينوس فكانت من طراز آخر أكثر عنفا وإرهاقا ، كانت حصيلة مكتسبة اكتسابا جادا من كثير من مؤتمرات العلماء ، والمحاضرات التي يتجدد البرء للاستماع إليها ، ومن طسول السهر في التحصيل والطلب . فقد اعتشق ، وهو في

الثانية عشرة من مبره مذهب الرواقيين الصالحين الذي عليه ابن
يخضع جسده لعقله وهواه لمنطقة ، وإن الفضيلة هي الخير كله ،
وإن البرذيلة هي الشر كله ، وإن يعتبر الأشياء المظهرية ، (الخارجية)
أشياء لا تستحق الاهتمام . وما تزال « تأملاته » التي وضعها وسط
ضجيج المعسكر وصخبه باقية ، بل أنه تنازل فأعطى دروسا في
الفلسفة بطريقة علنية أهم وأكثر مما قد يتفق مع تواضعه بوصفه
حكيمًا ، أو مع وقاره بوصفه امبراطورا . ولكن حياته كانت أنبل
تعبير عن نوايا زينون مؤسس المدرسة الرواقية - القرن
الرابع ق.م. لقد كان عتيقا مع نفسه ، متسامحا مع عيوب الآخرين ،
مسادلا خيرا مع جميعهم . وكبم أسف وحزن لأن أميديدوس
كاثيس الذي أثار تمردا في سوريا مات طواعية واختيارا ، فحرمه
بذلك مما يجد من لذة وسرور في تحويل عدو إلى صديق ، وأكد
صدق هوافه بالتغلب من حدة السناتو بازاء اتباع الخائن .
وكره الحرب باعتبارها كارثة الطبيعة البشرية والمار انلاصق بها ،
ولكن عندما دعا داعي الحرب إلى امتشاق الحسام من أجل دفاع
عادل ، بانر على النور فعاد بنفسه ثمانى حملات في الشتاء على
ضفاف الدانوب المتجمدة ، مما لم تحتل بنينه الضعيفة قسلاوتها .
فمضى فيها نحيبه . وقد وجدت الأجيال الشاكرة العارفة لفضله
ذكراه . واحتفظ كثير من الناس ، لأكثر من قرن من الزمان بمعد موته ،
بصورة ماركوس أوريليوس بين صور آلهتهم المحليين .



تحریر: النظام القديم

الفصل الرابع

(١٨٠ - ١٩٢ م)

عصر توموس

كان اعتدال ماركوس الذى لم تجد المبادئ الرواقية الصارمة في اقتلاعه منه ، يشكل في نفس الوقت احب الجوانب في خلقه والنعيمية الوحيدة في شخصيته . وكان قلبه الطيب الذى لا يميل الى الشك ، كثيرا ما يخدع ادراكه المبتاز . واتصل به نفس من الدهاء المحتالين الذين يدرسون سوى الأمراء ، ويخفون مشاعرهم هم انفسهم ، مفكرين في طهارة الفلسفة وقداستها ، ينشدون الثروة والمجد عن طريق التظاهر باحتقارها والتعفف عنها . وتجاوز افراطه في التسامح مع أخيه وزوجه وابنه حدود المعاملة الطيبة اللائقة بهم ، حتى صار اساءة عامة شاملة ، لأن ردائلهم أصبحت نموذجاً يحتذى ، وكثت لها نتائج وبيلة .

واشتهرت فوستينا ، ابنة بيوس وزوجة ماركوس بفرايانتها ومجونها قدر ما اشتهرت بجمالها . وقدر خطأ أن ما في الفيلسوف من بساطة وقورة رزينة قد تشغل وتغضى رعونتها الطباغية ، وتكبح جراح اللهنة غير المحدودة على التغيير والتنوع ، وهى نزوة كثيرا ما تكتشف جدارة خاصة في احط بنى البشر . ولكن كيوبيد الاقدمين الها عاطفيا عابة ، اما عشاق الامبراطورة ، الذين توددت هى اليهم . وارخصت نفسها لهم فقلبا كانوا يستشعرون اية لذة عاطفية . وكان ماركوس الشخص الوحيد في الامبراطورية ، الذى يبدو انه كان جاهلا او غير شاعر بمساوىء فوستينا التى كانت - كما هو مألوف في كل عصر - تعكس العار والفضيحة على الزوج النكوب . ورمى ماركوس نفرا من عشاقها الى مراكز تفضى شرفا ومجدا وتدر مالا . ولم ينقطع عن أن يقدم لها طيلة ثلاثين عاما الدليل على الدليل على ثقته الكريمة بها واحترامه لها ، وهو احترام ام يفتنه بوفائتها ، فنى « تأملاته » فراه يشكر الآلهة التى وهبته زوجة مخلصة رديعة

مبتلية يمثل هذه البساطة في سلوكها (١) . وأعلن السناتو الخنوع بعد توسل حار منه وضعها في مصاف الآلهة . وكانت تمثل في معابدها بصور جينو وفينوس وسيريز Ceres . وتقرر أن يقسم الشباب من الجنسين ، عند الزواج يمين الوفاء أمام مذبحها بوصفها حاميتهم أو حارستهم العفيفة الطاهرة .

وألقت رذائل الابن الرهيبة ظللا على نقلاوة فضائل الوالد . وقد أخذ على ماركوس أنه ضحى بسعادة الملايين في سبيل التحيز الجارف لولد غير أهل له ، وأنه اختار خليفة له في أسرته هو ، لا في الجمهورية ، ومها يكن من أمر ، فإن الوالد القلق ورجال العلم والفضل الذين أجاب بهم لمساعدته ، لم يدخروا جهدا في تعليم كومودس وتوسيع مداركه الضيقة ، وفي تقويم رذائله الناشئة ليكملوا منه شخصا جديرا بالعرش الذي أعد له . ولكن قل أن تكون قوة التوجيه والتعليم ذات فعالية كبيرة إلا مع الميول والاستعدادات الطيبة حيث يكون التعليم نافذة لمجرد التزويد . ومن ثم فإن الدرس الكريه الذي كان يلقيه الفيلسوف الجداد سرعان ما كانت تمحوه وتطسه في لحظة واحدة همسات أقران السوء . وقد انسد ماركوس نفسه ثمار هذا التعليم الذي جهد وكد فيه ، حين أشرك ابنه في سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة ، إشراكا تاما في السلطة الإمبراطورية . ومائس بعد ذلك أربعة أعوام ، ولكنه في الواقع قضى وقتا كاثيا بعض بنان الندم على الخطوة الطائشة التي قفزت بابنه الشاب المتهور عن حدود العقل وتقيود السلطة .

أن معظم الجرائم التي تمكر صفو الأمن الداخلي في المجتمع تلجم من القيود التي تفرضها قوانين الملكية ، تلك القوانين الضرورية غير المتكاثفة مع شهوات الإنسان ، وهي قيود تخص القلة من الناس بملكية ما تطبع الكثرة في الاستحواذ عليه أو اقتنائه . ومن بين كل ما تنفتح له الشهية أو تهفو له الشهوة ، قد يكون حب السلطة أكثرها طغيانا وجفاء ، وبمدا من الروح الاجتماعية . ففي هذه الحالة يتطلب غرور الفرد الواحد خضوع الجماهير ، وفي غمرة الخلافات الداخلية تنفذ قوانين المجتمع قوتها . وقل أن نحل محلها قوانين الانسانية . وعندئذ تساعد حدة النزاع وزهو النصر ، واليأس من النجاح ، ونكريات المساوىء والأضرار السابقة ، والخوف من أخطار لاحقة — تساعده هذه

(١) لقد سخر المسالم من سلامة نية ماركوس . ولكن مدام داسييه Dacier تؤكد لنا (وقد صدق سيده !) أن الزيج سيخدع إذا ارتضت الزوجة أن تتلقى .

كلها على اثاره العقول وكم اصوات الرحمة والاشفاق . ومن جراء مثل هذه البواصت تكاد تكون كل صفحات التاريخ ملطخة بدماء الحروب الاهلية . ولكنا لا نجد في هذه البواصت كلها تفسيراً لفظائع كومودس الذى لم يثر حفيظته شيء ، والذى اوتى كل شيء ، ونعم بكل شيء ، مما ليس بعده زيادة لمستزيد . لقد خلف الابن الحبيب اباه ماركوس وسط هتاف السنتو والجيش ، وجلس الشاب السعيد على العرش فلم ير حوله منافسا يقضى عليه او اعداء ينزل بهم المقاب . وكان من الطبيعي حقا في مثل هذا المركز الرنيح الهادي ان يؤثر حب الناس على ان يضر لهم الكراهية والبغض ، وان يؤثر العظبة الوادعة في عهد اسلافه الضمة على المصير الشائن المخزي لليرون ودوميتيان .

ولكن كومودس لم يكن — كما يصورونه — وحشا ولد وبه ظبا لا يرتوى قط الى دم البشر ، قادرا منذ نعومة اظفاره على الاتيان باى عمل غير انساني . لقد شكلت فيه الطبيعة استعدادا ضعيفا اكثر من ان يكون خبيثا شريرا . وجعلت منه بساطته وجبته عبدا اسيرا لاتباعه الذين اسندوا عليه عقله يوما بعد يوم ، فان قسوته التي كانت في بداية الامر اطاعة لأوامر الآخرين تحولت الى عادة ، وأصبحت في النهاية غاية الهوى في نفسه .

وجد كومودس نفسه ، بموت أبيه ، مثقلا بقيادة جيش ضخم ، وشحن حرب ضرور ضد قبائل كوادى Quadi وماركومانى Marcomanni (في غرب ألمانيا) . وسرعان ما استعساد الشهاب الذليل الخليع الذين كان ماركوس قد اقصاهم ، مكانتهم ونفوذهم لدى الامبراطور الجديد ، فحولوا وبالفوا له في أسر المشلق والمخاطر المتوقعة في حملة في بلاد متوحشة وراء الدانوب ، واكدوا للأمير الكسول الخامل ان الرعب الذى يبعثه اسمه في النفوس واسلحة فواده كافية لاتمام غزو هؤلاء المتبررين المرتعبين ، او لاقرار الأمور بشكل اكثر جدوى من الغزو والحرب . واثاروا نزواته الشهوانية بطريقة ماهرة مأكرة ، ثم قارنوا له بين الهدوء والابهة وصفو المسرات في روما وبين الضخ في معسكر بانوتيا حيث لا فراغ ولا ترف . وأصفى كومودس الى هذه النصيحة السارة ، ونميا هو متردد بين ميله الخاص وبين الرهبة التي كان لا يزال يحتفظ بها لمستشارى أبيه ، ولى الصيف دون ان يحس ، وتأجل دخوله الطافر الى العاصمة الى الخريف . ونال حظوة الجماهير لرشاqqته وتلففه المحبوب وقضائله الموهومة وعم الفرح بالصلح المشرف الذى تفضل به على المتبررين . واعتز

الناس بأن ينسبوا تلهفه على العودة الى روما الى حبه لبلاده .
أما لهوه الفاجر فقد أنكروه انكارا خافتا على أمير في سن التاسعة
عشرة .

وفي السنوات الثلاث الأولى من حكم كومودس احتفظ المستشارون
الأمناء الذين كان ماركوس قد أوصاهم ببلنه ، بكل أشكال
الإدارة السابقة ، بل حتى بروحها كذلك ، وكان كومودس
لا يزال يحتفظ في غضاظة ، بشيء من التقدير لهؤلاء المستشارين
وحكمتهم ونزاهتهم وتبرغ الأمير الشاب وخلصاؤه الفجار وعربدوا
في حبوكة الملكية وسلطانها ، ولكن يديه لم تطلخا بعد بالدماء ، بل انه
أظهر من كرم العاطفة ما كان يحتفل أن يتأصل حتى يصبح فضيلة
راسخة ، ولكن حادثا فظيما حسم له شخصيته المتقلبة .

في ذات مساء ، بينما كان الإمبراطور عائدا من المدرج الى
قصره ، عبر رواق ضيق مظلم ، اندفع نحوه قاتل كان يرقب مروره ،
ويده سيف مسلول وصاح بصوت عال : « ان السفاتو يبعث بهذا
اليك » . وحال التهديد دون ارتكاب الجريمة ، وأطبق الحراس
على القاتل ، وكشفوا النقاب في الحال عن مدبري المؤامرة .
ولم تكن المؤامرة من تدبير الدولة ، بل نسجت خيوطها داخل جدران
الصر ، ذلك أن لوتشلا Lucilla أخت الإمبراطور ، وأرملة لوتشيس
فيروس ، وهي تتحرق لهناء على المرتبة الثانية في الإمبراطورية ،
وغيره وحقدا على الإمبراطورة الحاكمة ، هي التي زودت القاتل
بالسلاح للقضاء على أخيها . ولم تجرؤ على أن تطلع على خطتها
الرهيبية ، زوجها الثاني كلوديوس بومبيانوس ، وقد كان عضوا
في السفاتو ذا مواهب ممتازة وولاء لا يتزعزع ، ولكنها وجدت
بين جمهور عشاقها (وكانت تقلد في ذلك فوستينا) رجلا ذوي
مستقبل يائس ومطامع جاحدة ، مستعدين لخدمة أهوائها العنيفة
والرقيقة في وقت مما ، وواجه المتأبرون حرمة العدالة ، وعوقبت
الأميرة المنبوذة بالننى أولا ، ثم بالموت أخيرا .

ولكن كلمات القاتل حفرت لها مجرى عميقا في ذهن كومودس ،
وتركت فيه شعورا ثابتا لا يتزعزع بالخوف والكراهية لكل هيئة
السفاتو . وكانت ثمة طائفة من الوزراء اللجوجين الذين كان يرهب
جانبهم ، ونراه الآن يرتاب فيهم على أنهم أعداء مستترون .
وكانت هناك جماعة الهمازين المشائين — وكانت قد كسرت شوكتهم
وشطت عزائمهم في العهود الماضية ، ولكنهم وجدوا الفرصة سانحة
لرفع رعوسهم واسترداد هيبتهم حين راوا في الإمبراطور ميلا الى

الكشف عن الخيانة والسيخط في السناتو . وكان هذا المجلس الذى اعتبره ماركوس المجلس الأعلى في الأمة ، يتشكل من افاضل الرومان واكثرهم امتيازاً . وسرعان ما أصبح أى امتياز في اية ناحية جريئة ، وحفز التلطف على الثراء هؤلاء المشائين النمايين الى العمل . فاعتبرت الفضيلة الحقبة لوما صامتا مساوياً كومودس ، والخدمات العظيمة موهبة غائقة تنذر بالخطر ، ومصادقة الوالد تحولوا عن الابن . وكان مجرد الشك مساوياً للدليل القاطع ، والمحكمة مساوية للادانة . وكان اعدام عضو محترم يستتبع قتل كل من يرى لمصيره أو يثار له . وما أن تفوق كومودس طعم الدم البشرى مرة ، حتى بدا عاجزاً عن استشعار الرحمة أو الندم .

ومن بين الضحايا البريئة للطغيان كان الحزن اشد ما كان على الأخوين مكسيموس وكنتديانوس - من أسرة كونتيليا Quintilia - اللذين لم يتطرق النسيان الى اسميهما قط ، لما كان يربط بينهما من مرى المحبة الاخوية التى خلدت ذكرهما في الأجيال اللاحقة . فقد ظلا صنوين في الدراسة والمهنة والمطالب والمسرات ، وفي ادارتهما لضيعة كبيرة لم يسلبا قط بأن لاي منهما فيها مصلحة منفصلة عن مصلحة الآخر ، وما تزال توجد شذرات من رسالة اشتركا في تأليفها ، وكان ملحوظاً في كل ميل من أعمال الحياة أنهما جسيان تحركهما روح واحدة . وكان الأنطونيونيون يقدرون مزاياهما ويتجهجون لاتحادهما ، ولذلك رفعوها الى مرتبة القنصل في نفس العام . وعهد اليهما بما ماركوس بعد ذلك بالادارة المدنية في بلاد اليونان ، وبقيادة حملة عسكرية هامة انتصرا فيها انتصاراً مشهوداً على الألمان . هكذا اجتمعا في حياتهما ، حتى جاء كومودس فجمعت قسوته الرحيمة بينهما في الممات !

وبعد أن سلك كومودس أكرم الدماء في السناتو ، نكص في النهاية الى الاداة الرئيسية لقسوته . ذلك أن كومودس غرق في الدم وانغمس في اللهو والترفا ، وترك أمر الدولة كله بين يدي برنيز Perennis ، وهو وزير ذليل طموح ، قفز الى منصبه بقتل سلفه . ولكنه أوتى حظاً وافراً من النشاط والقدرة . وقد جمع ثروة ضخمة بطريق الإكراه وعن طريق ضياع الاشراف المصادرة والمرهونة اشباعاً لجشعه ، وكان الحرس الإمبراطوري تحت أمرته المباشرة ، وكان ابنه - الذى أظهر هجة عبقرية عسكرية ، على رأس غرق الليريا Illyria عند ذلك هفت نفس برنيز الى الإمبراطورية

أو أنه كان قادرا على التطلع إليها ، الأمر الذي بدأ في عيني كومودس أنه الجريمة بعينها . فحيل بينه وبين منية نفسه وأخذ على غرة وأعدم . وسقوط الوزير حادث تافه في التاريخ العام للإمبراطورية ، ولكن الذي عجل به هو ظرف غير عادي ، وأثبت فعلا إلى أي حد تراخت أوصال النظام ، فلم تكن القوات في بريطانيا راضية عن إدارة برنيز فأرسلوا نيابة عنهم ألفا وخمسمائة رجل شخصوا إلى روما ليبسطوا شكواهم للإمبراطور . واستطاع هؤلاء الشاكسون العسكريون — الذين حزموا أمرهم فأنهبوا غرق الحرس ، وبالفوا في قوة الجائش البريطاني ، وأثاروا مخاوف كومودس — استطاعوا أن يطالبوا برأس الوزير ، علاجا وحيدا لدرد ما لحق بهم من ضميم واذى ، وكان لهم ما أرادوا . فكانت جراءة هذا الجيش الذي هو في أقصى الأرض ، وكشفه عن ضعف الحكومة نذيرا أكيدا بأخطر الفتن والاضطرابات .

وسرعان ما المتضح بعد ذلك أمر الأهمال في الإدارة العامة نتيجة اضطراب جديد ، فكان بمثابة نذر نتجت عن أصغر الشرر . ذلك هو الهرب من الجيش الذي بدأ يشكل ظاهرة عامة بين القوات ، ولم يلتزم الهاربون النجاة في الفرار أو الاختفاء ، بل أنهم قطعوا الطرق العامة وأعملوا السلب والنهب . وجمع ماترنوس Maternus وهو جندي خالص ذو جراءة نادرة تفوق مركزه — جميع هذه العصابات من اللصوص وكون منها جيشا صغيرا ، وفتح أبواب السجون ، ودعا المبيد لإعلان حريتهم ، وعاث فسادا ونهباً ، دون حسيب أو رقيب ، في المدن الفنية المزلا في الغال وإسبانيا . وأخيرا ، وأزاء تهديدات الإمبراطور ، أفاق بعد طول تراخ وتعامس ، حكام الولايات الذين طال وتوهم موقف المتفرج على هذه الفجرات ، أن لم يكن موقف الشريك فيها . ورأى ماترنوس أنه قد أحيط به وأنه لابد مغلوب على أمره ، فنثر آخر ما في جيبته في محاولة يائسة ، ذلك أنه أمر أتباعه بالتفرق ، ويعبور جبال الألب في جماعات صغيرة متنكرين في أشكال مغيرة بعضها لبعض ، والتجمع في روما ، في غمرة الهرج والمرج في عيد القديسة سبيل . وكان اللص العشوائي يطمع في قتل كومودس واعتلاء العرش ، والتأمت خطواته في براعة ، حتى ملأت قواته بالفعل شوارع روما ، ولكن حقد أحد شركائه المواطنين معه أباط اللثام عن هذا المشروع الشاذ الفريب وحطمه في اللحظة التي آذن فيها بالتنفيذ .

ومن عادة الأمراء الذين تملأ الريبة والشكوك قلوبهم ، أنهم

كثيراً ما يرغبون من مرتبة احط بنى البشر ، حيث يغريهم الوهم بان هذا الذى لا يعتمد الا على حظوته لدى سيده ، لن يتعلق الا بشخص هذا السيد الذى اكرمه ، ولن يحب الا اياه . ومن هنا نرى كلياندر Cleander ، وهو من اهل فريجيا (مملكة قديمة وسط اسيا الصغرى) ، وكان منهم من الخسة والعناد ما لا يجدى معه الا كيل الضربات لهم . وارسل كلياندر من موطنه الى روما بوصفه عبداً . والتحق بالقصر الإمبراطورى بهذه الصفة ، ووضع نفسه رهن إشارة سيده ، وسرعان ما قفز الى أعلى مرتبة يمكن أن يحظى بها واحد من الرعية ، وكان تسلطه على عقل كومودس أقوى بكثير من نفوذ سلفه ، لأن كلياندر لم يكن له من المقدرة او المزايا ما يغير حفيظة كومودس أو يزعزع ثقته فيه . وكان الشره هوى نفسه وأساس ادارته . وكانت وظائف القناصل والنبلاء ، وعضوية السناتو ، مفتوحة للبيع والشراء . وكان الابتاع عن شراء هذه الأمجاد العقيمة المهينة بأكبر جزء من الثروة يعتبر ضرباً من النفور والبغض . وكان الوزير يشارك الحاكم فيما يفعله من الشعب في الوظائف والأشغال التى ندر ربحاً . وكان تنفيذ القوانين أمراً تعسفياً تتدخل فيه الرشوة ، وكم استطاع المجرم الثرى ، لا مجرد إلغاء الحكم الذى صدر عليه عدلاً وحققاً محسوب ، بل كذلك أنزال أى عقاب تطيب له نفسه بمن اتهمه وبالشهود وبالقاضى .

وبهذه الوسائل استطاع كلياندر في سنوات ثلاث ، أن يجمع من الثروة أكثر مما تيسر لعبد ممتق قط . وكسلان كومودس راضياً غاية الرضا بالهدايا الفلخرة التى كان تديهـ يضمها تحت قدبيه في انسيب الأوقات . وليحول كلياندر عن شخصه نظرات الشعب الحاقدة الحاسدة ، سيد باسم سيده ، الحمايات والأروقة والملاعب لخدمة الجمهور ، وكان يبنى نفسه بأن الرومان البهورين المظلمين بهذا السخاء الظاهر ، لابد أن يكونوا أقل تأثراً بالمشاهد الذهبية التى تقع تحت بصرهم كل يوم ، وأن ينسوا موت بيرثس Byrthus ، وكان شيخاً في السناتو ، زوجة الإمبراطور احدى بناته جزاء مواهبه الفائقة ، وأن يصفحوا عن اعدام آريوس أنطونينوس آخر من مثل اسم الانطونيينين وشماثلهم الطيبة . وكان الأول قد حاول فى نزاهة أكثر منه فى حزم ، أن يظهر مسهره على حقيقة شخصية كلياندر . وكان الثانى ، وهو يشغل وظيفة البروقنصل فى آسيا ، قد أصدر حكماً ضد مخلوق تافه من رجال صاحب الحظوة (يقصد كلياندر) ، فكان فى اصدار الحكم تمناً عليه هو نفسه . وبعد سقوط برنيز

اتخذت فظائع كومودس ، لفترة قصيرة ، مظهر الرجوع الى الفضيلة ، حيث نقض أشنع تصرفاته ، وحشا ذاكرته بلعنات الجمهور ، ونسب الى هذا الوزير وتصلحه الخبيثة كل الأخطاء التي ارتكبت عندها كان الامبراطور شاباً يافعا غير محنك . ولكن نمده لم يدم أكثر من ثلاثين يوماً ، وكثيراً ما بات عهد برنيز أمراً مبكياً مأسوفاً عليه ، الى جانب طغيان كلياندر .

وبلغ الطامعون والقحط بروما اقصى ذروة الكارثة . وعزى الاول - الطامعون - الى سخط الآلهة فقط ، أما المجاعة فقد أعتبر السبب المباشر لها ، احتكار القمح بعون من الوزير وثروته وقوته . عندئذ انفجر السخط علانياً بين الجموع في الميادين ، بعد أن ظل طويلاً لا يعدو أن يكون همساً هنا أو هناك . وعزف الناس عن مسراتهم المفضلة الى مسرة البذ وائسهى وهى الانتقام ، واندفعت جموعهم الى قصر في الضواحي ، كان يقضى فيه الامبراطور خلواته ، وطالبوا في صيحات غاضبة برأس عدو الشعب . فأمر كلياندر ، بوصفه قائد الحرس البريتورى ، فرقة من الفرسان بالاسراع الى مهاجمة الجموع المتردة وتفريقهم . واندفعت الجسوع هاربة الى المدينة ، وذبح كثيرون ومات أكثر منهم تحت الأقدام ، ولكن عندها دخل الفرسان المدينة عباى تقديهم فى شوارعها وأبل من الحجارة والنبال امطروا به من سطوح المنازل ونوافذها ، وانحاز الى جانب الشعب الحراس المشاة الذين كانوا من قديم ينتمون على الفرسان امتيازاتهم ووقاحتهم . وأصبح الهياج عاماً شاملاً ، وأندثر بذهبة عامة . واستسلم الفرسان آخر الأمر ، وقد غلبتهم الكثرة ، وعادت نورة الشعب أشد عنفاً ، واندفع الناس الى أبواب القصر الذى تباع فيه كومودس غارقاً فى ألوان الترف ، وكأنه الوجيبذ الذى لم يدر من أمر الحرب الأهلية شيئاً . وكان شبح الموت يقترب من شخصه بهذه الأتباء السيئة . وكاد الهلاك يكون مصيره ، وهو مستلق فى مأمته لولا أن ابرائين - فادلا Fadille أخيه الكبرى ومارتشسيا Marcia أحب خليلاته اليه - تجسرتا فافتحتا عليه الباب ، وأرتتا تحت قدميه وقد خنقتها العبرات ، وشعث شعر رأسيهما ، وبكل ما أوتيتا من نصيحة إلهامها منطق الفزع ، كشتا للامبراطور المرتعب عن جرائم الوزير ، وغضب الشعب ، والخراب المحدث الذى قد يحيق فى بضع دقائق ، بقصره وشخصه . ونفاق كومودس من سكرته وأمر بأن تلقى رأس كلياندر الى الشعب ، وهذا المشهد المأمول - يشهد رأس الوزير ب من سورة الهياج ، وربما كان فى مقدور ابن ماركوس بعد ، أن يستعيد ثقة رعاياه به وحبه له .

ولكن كل احساس الفضيحة والانسانية كانت خالدة في نفس كومودس . فانه في الوقت الذي ترك فيه مقاليد الأمور لهؤلاء المقربين غير الجديرين بشيء ، نراه لم يقدر من قوة السيادة شيئا أكثر من حرية الانغماس بلا حدود في ملذاته الشهوانية . فكان يقضي ساعاته في بيت الحريم الذي يضم ثلاثمائة من جميلات النساء ، وكثيرا من الفلمسان من كل مرتبة ومن كل ولاية ، وحينها لم تجد كل افانين الاغواء والاعراء ، لجا الوحش العساقي الى استعمال العنف . وكما اسهب وافاض المؤرخون القدامى في ذكر مثل هذه المشاهد المبقوطة من العهر والفجور ، تلك المشاهد التي لم ترع حكمة لاية ضوابط من الطبيعة او من الاحتشام ! . ولكن ليس من اليسير ان نترجم أوصافهم الامينة الدقيقة في وقار لغتنا الحديثة . وكانت اوقات اللهو تعج باحط ألوان التسلية . ولم يفلح قط اثر اى عصر مذهب أو أية تربية يقظة في صب أبسط قطرة من العلم في مخه البهيمى الغليظ . وكان أول امبراطور روماني لم يشذوق لذة المعرفة . لقد تفوق فيرون نفسه ، أو تظاهر بأنه متفوق ، في فنون الموسيقى والشعر الجميلة ، وليس لنا أن ننقص من قدر تطلعاته ، لولا أنه حول لذة الراحة في ساعات فراغه الى الأعمال والأطباع الرهيبة لحياته . ولكن كومودس ، منذ هباه المبكر ، تبين في نفسه نفورا شديدا لكل ما هو مقبول أو كريم ، وتعلقا شديدا بالتسلية والمسرات الشعبية ، مثل ألعاب السيرك والمدرجات المجالدة وصيد الوحوش . وكان يستنج الى المسلمين الذين رتبهم له أبوه في مختلف الفروع ، في شرود وضجر ، على حين وجد إليه العرب والبارثيون الذين كانوا يدربونه على الرماية بالقوس والنشاب ، تلميذا فرحا مبتهجا بعمله ، سرعان ما تعادل مسح أمهرهم في ثبات المين وخفة اليد .

وكان الجمهور الضخوع الذي اعتمد مصيره على ردائل سيده ، يصفق ويهلل لهذه التصرفات الشائنة . وأعاد صوت الملقى الغدار الى ذاكرته أن هرقل الاغريقي حظى بمكان بين الآلهة ، ويذكرى خالدة بين الناس ، يمثل هذه المآثر ، ويقهر اسد نيميا (واد في بلاد اليونان) ويقتل خنزير اريمانثوس البرى . ولكن غلب عن اذهانهم أنه في العصور الأولى للمجتمع حين كانت هذه الحيوانات المفترسة كثيرا ما تنازع الانسان السيطرة على الأرض غير المسكونة ، كان النزاع مع هذه الوحوش يعتبر من أثبل الأعمال البطولية البريئة النافعة ، أما في حالة الامبراطورية الرومانية المتحضرة ، فان هذه الحيوانات المتوحشة

قد ولت الأكليل من وجه الإنسان ومن الأماكن المجاورة للبحر الآهلة بالسكان . أما مفاجأة هذه الحيوانات في ماؤها المنعزل وحملها إلى روما ليزبحها الإمبراطور بيده وسط مظاهر الأبهة والعظمة ، فكانت عملا سخيفا من جانب الإمبراطور ، صعب الاحتمال على الشعب (١) . وجهلا منه بهذه الفوارق ، عمد كومودس إلى التشبه بهذا المجد ، ولقب نفسه (كما نقرأ حتى اليوم على أوسيته) « بهرقل الرومان » . ووضع الهراوة وجلد الأسد إلى جانب العرش وسط الشعارات الملكية ، واقبض التماثيل التي تصور كومودس في شخصية وقى خواص الآله الذي حاول كومودس في البرنامج النعوى لمسراته الشرسة - أن ينافس نفسه .

وقرر كومودس - وهو يزهر ويتيه عجبا بهذا المديح الذي قتل في نفسه كل شعور دفين بالخزي والعار - أن يعرض هذه الألعاب أمام انظار الشعب الروماني - وكانت حتى تلك اللحظة ، وقارا واحتشاما منه ، محصورة بين جدران قصره لا يشهدا إلا فئة قليلة من المقربين . وجذبت مختلف بواعث الملل والخوف والفضول إلى المسرح المدرج جمهورا لا يحصى من المتفرجين وحظيت مهارة الإمبراطور الخارقة في اللعب بشيء من الاستحسان الذي تستحقه . وأينما طعن في رأس الحيوان أو قلبه كان الجرح محققا ممتنا سواء بسواء . وكثيرا ما ضيق كومودس الخنثى استعدادا للعمل الخاطف ، وكان يعاجل العنق العظمى الطويل للنعمة ، بسهم صنع رأسه على شكل هلال ، فيطرحها إلى الأرض ، وكان يطلق سراح نمر . وينتظر رامي السهم حتى يهجم النمر على مجرم يرتعد فرقا ، وفي اللحظة حينها ينطلق السهم فيردى الحيوان قتيلا ، دون أن يصيب الرجل أى أذى . وكانت حظائر المسرح المدرج تملج على الفور بمائة من الأسود التي صرعتها من نبال كومودس ، وهي تجرى هائجة حول العرين . ولم تحم ضخامة جسم الفيل أو جلد الخرثيت الأعرش هذا أو ذاك ضد ضرباته . وجادت أثيوبيا والهند بنتائجها ، وكم في المدرج من حيوانات قتلت لم يكن لها أى وجود من

(١) كانت الأسود في أفريقيا - إذا غلبها الجوع - تغير على القرى المكشوفة والإراذى المتزرعة ، دون حساب . أما حيوان الملك فكان مخصصا لخدمة الإمبراطور والمامسة . وكان الفلاح المنكود يمرض لعقاب شديد إذا هو قتل واحدا منها ، ولو دفاعا عن نفسه ، وقد خلف هونوريوس من قوانين اللعبة هذه ، ثم الغاما جيستنتان بها.

قبل الا في تصاوير الفن أو ربما في الخيال (١) . واتخذت في كل هذه المروض أشد الاحتياطات لحماية شخص « هرقل الرومان » من أية ميتة يائسة من حيوان مفترس قد لا يحسب حسابا لحرمة الامبراطور أو قدسية الاله .

ولكن احط الناس قدرا من بين الرومان كانوا يستشعرون الفضيحة والحيلة حين يرون ملكهم يدخل الطبعة بوصفه مجالدا ويتالق في حرفة دمهنتها القوانين والآداب الرومانية بأعدل امارات العار والفجور . واختار الامبراطور لنفسه ملابس السكوتر Secutor وسلاحه ، ذلك الذي يشكل مصراحه مع الرتياريوس Retiarius أجمل مناظر الألعاب الدامية في المسرح المدرج . وكان السكوتر بخوذة وسيف وقرص ، أما غريمه العاري فكان يتسلح بشبكة كبيرة ورمح ذي ثلاث شعب ، بالأولى يحاول أن يحتبل عدوه ويعرقه ، وبالتالي يفتك به . فإذا أخطأ الرمية الأولى اضطر الى الفرار من تعقب « السكوتر » له حتى يهبط شبكته لجولة ثانية . وصارع الامبراطور على هذا النسق سبعمائة وخميس وثلاثين مرة . وكانت هذه المنجزات المجيدة تسجل بعناية ضمن الأعمال العامة للامبراطورية . وحتى لا يترك بابا للسفالة والانحطاط دون أن يطرقه ، كان الامبراطور يتقاضى من الاعتمادات العامة المخصصة للمجادة راتبا باهظا حتى لقد أصبح ضريبة جديدة شساعة حقيرة يدفعها الشعب الروماني . ومن الميسور أن يذهب بنا الظن الى أن سيد العالم كان غائزا على طول الخط في هذه الميغيلت في المدرج . أما اذا مارس مهارته في مدرسة المجالدين أو داخل قصره ، فكثيرا ما تشرف منازلوه التعماء بضريبة قاتلة من يده ، وبهذا ييصمون ملتهم بخاتم من دمايتهم . وعند ذاك كان يحترق اسم « هرقل » ولم تكن أذناه تطرب الا لاسم بولوس Paulus وهو اسم مجالد « سكوتر » مشهور . وكان هذا الاسم محفورا على تماثيله الضخمة ، وبكررا في الهياكل الكثيرة للسنانو المهلل الذي يرثى لحاله . وكان كلوديوس بيبيانوس ، زوج لوتشيليا الفاضل هو السنانور الوحيد الذي حافظ على شرف مكانته ، فسمح لابنائه — بوصفه والدا — بارتداد المدرج حفاظا على سلامتهم ، وأعلن — بوصفه رومانيا — أن حياته تحت تصرف امبراطوره ، ولكنه لن يشهد قط ابن ماركوس وهو يتهن شخصه ووقاره . وأفلت بيبيانوس من غضب الطاغية ، وأوتى من الحظ السعيد ما أمكن معه الابقاء على حياته ، وعلى شرفه .

(١) قتل كومودس الزرافة ، وهي أطول الحيوانات الكبيرة ذوات الأربع وأكثرها وداعة وأقلها نفعا . ولم تر أوروبا هذا الحيوان الغريب الذي يستوطن الأجزاء الداخلية في إفريقيا بعد ذلك حتى عهد النهضة وحاول مسيو دي بوفون M. de Buffon وصفه في كتابه « التاريخ الطبيعي » المجلد الثاني ، ولكنه لم يجرؤ على رسم الزرافة .

وبلغ كومودس الآن ذروة الرذيلة والعار . وكان ، وسط تهليل حاشية مرانية متبلقة ، عاجزا عن أن يخفى عن نفسه أنه استحق احتقار ويغض أى إنسان أوتى ذرة من الفضيلة فى الإمبراطورية ، واهاج روح الشراسة فيه وعيه لهذه الكراهية وحقده على أية شيمة غاضلة ، وتوقعه الحقيقى للخطر ، وعادة القتل التى مارسها فى مسرانه اليومية . واحتفظ التاريخ بقائمة من الشيوخ القناصل الذين ضحيت حياتهم على مذبح رغبة الإمبراطور الطائشة ، التى كانت تفتش فى لهف زائد عن هؤلاء الأشخاص المنكودين الذين تربطهم صلة القربى ، مهما كانت بعيدة ، بالأنطونيين ، ولم يفلت منهم حتى الوزراء الذين كانوا أدواته فى جرائمه وفى ملاحيه . وأثبتت تساوته فى النهاية أنها لابد قاضية عليه . لقد سفك أنبل دماء روما دون رقيب أو حسيب ، ولكنه هلك حين تولاه الفرع فأوجس خيفة من معيته ، ذلك أن مارتشيا خليلته المقربة ، واكتيكتوس *Aclectus* حاجبه ، وليتوس *Aetius* رئيس حرسه ، كل أولئك أزعمهم وأنذرهم مصير أقرانهم وأسلافهم ، لينفادوا الدمار المحقق بهم فى كل ساعة ، نتيجة نزوات الطاغية المجنونة أو السسخط المفاجيء للشعب ، فانتهزت مارتشيا فرصة تقديم جرعة من النبيذ لعشيقها بعد أن عاد متعبا مكدودا من صيد الوحوش . وأوى كومودس الى غرائسه ، ولكن بينما كان يتلوى بفعل السم والخمر ، اقتحم غرته شاب ملتول العضلات — يحترف المصارعة — وقتله خنقا دون مقاومة . ونقل الجثمان سرا خارج القصر ، قبل أن تظهر فى المدينة ، أو حتى فى البلاط أية بادرة من الريبة فى موت الإمبراطور ، وهكذا كان مصير ابن ماركوس ، وهكذا كان من السهولة بمكان تحطيم الطاغية البغيض الذى أبعن ، بسلطاته الحكومية المصطنعة ، على مدى ثلاثة عشر عاما ، أبعن فى ظلم الملايين الكثيرة من الرعايا الذين كان الواحد منهم يستوى مع سيدهم فى القوة وفى القدرات الشخصية .

يعتمد جيبون ، فى كلامه عن كومودس ، على الإشاعات المتواترة التى اتارها سلوك الإمبراطور ، ولم يكن كومودس رومانيا فى تفكيره ، وقد تحدى الآراء النقدية عن الحرية . وبدا يهبط بروما من ذرى سموها الأصل . وبوصفه « هرقل الرومانى » ، و « الشمس المشرقة » ، تخلى الحدود ووجد الطقوس الوطنية القديمة ، ومهد الطريق لأسرة سيفيروس Severus ، وكان قتلته يمثلون القوات الرجعية . وقدم هؤلاء المتآمرون الملك الى برتيناكس *Pertinax* وهو سناتور معبر محافظ ، ولكنه قتل بيد الحرس البريتورى بعد أن حاول القيام ببعض الإصلاحات ، وبعد حكم دام ستة وثمانين يوما .

نموا الأوتوقراطية العسكرية
وتدفع الروح الشريفة

الفصل الخامس

(١٩٣ - ١٩٧ م)

البريتوريون يبيعون الامبراطورية

قيام سبتيميوس سيفيروس

ان الاحساس بقوة السيف لهو أكثر وأوضح في الملكة المترامية الأطراف منه في الجماعة الصغيرة . ولقد حسب اقدر السياسيين أنه ليست هناك دولة تستطيع أن تحتفظ بأكثر من واحد من مائة من أفرادها مسلحين ولكن خاملين لا يعملون ، دون أن يفتأها الازهاق السريع . وقد يكون هذا التقدير النسبي قياسياً ، ولكن رغم ذلك ، يختلف اثر الجيش على بقية المجتمع تبعاً لدرجة قوته الايجابية . ولن تتحقق مزايا العلوم العسكرية والنظام العسكري الا اذا توحّد عدد مناسب من الجنود في هيئة واحدة تحركها روح واحدة . ويكون هذا الاتحاد عقياً اذا قامت عليه حفة من الرجال ، واذا كان الجيش أضخم من أن يساس سار اتصافاً غير عملي ، فان قوة الآلة تتحطم بالصغر المذاهمي أو الثقيل المفرط في زباركها سواء بسواء . ولتوضيح هذه الملاحظة ، يكفي أن نشير الى أنه ليس هناك من تفوق القوة الطبيعية ، أو الأسلحة الصناعية ، أو المهارة المكتسبة ، ما يتمكن به رجل واحد من اخضاع مائة من أقرانه اخضاعاً دائماً ، وسرعان ما يكتشف الطاغية في مدينة واحدة أو في اقليم صغير أن مائة من أتباعه المسلحين أن يشكلوا الا دفاعاً ضعيفاً في مواجهة عشرة آلاف من المواطنين أو الفلاحين . ولكن مائة ألف من جنود أحسن تنظيمهم يمكن أن يسيطروا سيطرة مطلقة على عشرة ملايين من الرعايا ، كما أن عشرة آلاف أو خمسة عشر ألفاً من الحرس لابد أن يلقوا الرعب في قلوب أكبر عدد من السكان ازدحم في شوارع عاصمة ضخمة .

وجدير بالذكر أن هذه المعصيات البريتورية — التي كان عنها الفاجر أول أعراض اضطلال الإمبراطورية الرومانية وسببه — قل أن بلغت هذا العدد الذي أسلفنا ذكره . وبدأ انشاؤها في عهد أوغسطس . كان هذا الطاغية الماكر يدرك أن القوانين قد تضيء على ملكه المختصب لونا ما ، ولكن قوة السلاح وحدها هي التي تستطيع المحافظة عليه ، ولهذا شكل بالتدريج هيئة قوية من الحرس ، على استعداد دائم لحماية شخصه ، وأرهاب السناتو ، وتحول إما دون أية بادرة للثورة أو تقوم بسحقها . وميز هذه الفرق المحظية بأجر مضاعف وامتيازات هائلة ، ولكن لما كان مظهرها الرهيب قد يربب الشعب الروماني أو يستغزه ، فقد اكتفى بإبقاء ثلاث كتائب منهم فقط في العاصمة ، ووزع الباقي على المدن القريبة في إيطاليا . ولكن بعد خمسين عاما من السلام والعبودية ، أقدم تيبريوس على اتخاذ إجراء حاسم كان من شأنه أن يحكم إلى الأبد الأغلال في بلده . ذلك أنه تذرع بادعاءات منقطة قوامها الرغبة في تخليص إيطاليا من عبء الأحياء العسكرية الثقيل بادخال نظام أكثر صرامة في الحرس ، ومن ثم جمعهم في روما في معسكر دائم ثم تحصينه بعناية بارعة ، وأقيم في موقع متحكم .

ومثل هؤلاء الخدم الأشداء ضروريون دوما ، ولكنهم في الغالب يشكلون خطرا قفالا على عروش الاستبداد . وياقحام الحرس البريتوري ، بهذا الشكل ، على القصر وعلى السناتو ، عليهم الإمبراطور كيف يدركون قوتهم ويقفون على ضعف الحكومة المدنية ، وكيف يشهدون مساوئ سادتهم في احتقار مألوف ، وكيف يطرحون جانباً رهبة التوقيير التي لا يبقى عليها في النفوس نحو القوة المتصورة سوى البعس والغموض . ووسط الخمول المترف في مدينة غنية كان شعور الحرس بقوتهم التي لا تقاوم ، يخذى غرورهم ، كما أنه لم يكن من الميسور أن ينفى عليهم أن شخص الملك وسلطة السناتو والخزانة العامة وعرش الإمبراطورية ، كل أولئك كان بين أيديهم وتمت تصرفهم . واضطرس أكثر الأباطرة حزما وأكثرهم استقرارا ، من أجل صرف هذه المعصيات البريتورية عن مثل هذه التاملات الخطيرة — اضطر إلى مزج الأوامر بالملاطفة والثواب بالمعقاب أو إلى تملق غرورهم والانغماس في ملذاتهم ، والتغاضي عن مخالفاتهم ، وإلى شراء اخلاصهم المزعزع بالعطايا السخنة التي أصبحت منذ عهد كلوديوس حقا مشروعا لهم عند جلوس إمبراطور جديد على العرش .

وحاول المدافعون عن الحرس أن يبرروا بالحجة والبرهان تلك القوة التي قروها لأنفسهم بحد السيف . فقالوا أن موافقة الحرس

على تعيين الامبراطور ضرورة أساسية بمقتضى اقوم مبادئ الدستور .
ومهما كان من أمر اغتصاب السنانو مؤخرا لانتخاب القناصل والقواد
والقضاة ، فان هذا الانتخاب كان حقا قديما غير مشكوك فيه للشعب
الرومانى . ولكن اين يوجد الشعب الرومانى ؟ لن نجد ، على التحقيق
وسط الجمع المختلط من العبيد والغريب الذى ملا شوارع روما ، وهم
سوقة اذلاء لا روح لهم ولا يمتلكون شيئا . اما المدافعون عن الدولة
والذائدون عن حياضها فكانوا يختارون من بين زهرة شباب ايطاليا ،
ويدربون على استخدام الاسلحة وممارسة الفضيلة ، ومن ثم كانوا
المثلين الأصلاء للشعب ، وخير المؤهلين لانتخاب الرئيس المسمى
للجمهورية . ومهما أعوزت الحكمة والعقل هذه الادعاءات فانه لم يكن من
الميسور حضنها ، عندما زاد البريتوريون الأشداء من وزنهم بوضعهم
أسلحتهم فى كفة الميزان ، كما فعل المتبرير الذى غزا روما .

لقد انتهك البريتوريون حرمة العرش بقتلهم برتيناكس شر قتلة ،
كما أساءوا الى جلاله بسلوكهم بعد ذلك . وكان المعسكر بلا قائد ،
بل ان لاتوس ، الذى كان قد أثار العاصفة زاع عن السخط العام .
ووسط هذه الفوضى الرهيبة ، وفيما كان سلبشيانوس *Sulpicianus*
وهو حمو الامبراداور وحاكم المدينة الذى أرسل الى المعسكر عند أول
انذار بالتمرد - يحاول تهدئة سورة الجاهير ، أخروسته العودة الصاخبة
لقتلة برتيناكس وهم يحملون رأسه فوق حربة . ولو أن التاريخ قد
علمنا أن نلحق كل مبدأ وكل عادلة تستسلم لأحكام الطمع العاتية ،
الا أننا لا نكاد نصدق أن سلبشيانوس ، فى هذه اللحظات الرهيبة المليئة
بالفزع ، كان يمكن أن يتطلع الى عرش تلخ بدم حديث أو أحد من
ذوى قرباه الأقربين ومن أفضل الأمراء . ولكنه شرع بالفعل فى استخدام
الحجة القاتلة ، والمفاوضة من أجل المنصب الامبراطورى ، ولكن واحدا
من أحزم البريتوريين توقع أنهم يمثل هذا التماقد الخاص قد لا يحصلون
على شئ عادل لهذه السلعة القيمة ، فأسرع الى الأسوار وأعلن بأعلى
صوته أنهم لن يتخلوا عن العالم الرومانى الا لن يدفع أغلى ثمن فى
مزاك عام .

وأثار هذا العرض الدنى ، وهو أوقع ما وصل اليه تلخرف
السيطرة العسكرية - أثار فى المدينة غما وعارا واستياء عاما ، ووصل
فى النهاية الى مسامع نيديرس جوليانوس *Didius Julianus*
وهو سنانور غنى كان منصرا الى شهوات بطنه ، دون اعتبار لهذه
الكوارث العامة . وسهل على زوجه وابنته ومعتقيه وأذنبه أن يقنعوه
بأنه جدير بالعرش ، وناشدوه فى حماس أن ينتهز هذه الفرصة

السميدة . وأسرع الرجل العجوز الملبث الى معسكر البريتوريين ، حيث كان سليشيانوس لا يزال يفاوض الحرس ، ودخل في المزاك ضده ، من أسفل السور . وأجريت المفاوضات غير اللائقة عن طريق رسل أمعاء تقتلوا بالتناوب من طلب الى آخر ، ليبلغوا كلا منهم بالعرض الذي قدمه منافسه . وكان سليشيانوس بالفعل قد وعد كل جندي بخمسة آلاف درهم (أكثر من مائة وستين جنيها) ، ولكن جوليان المثلث على المنصب قفز على الفور الى ستة آلاف ومائتين وخمسين درهما (أكثر من مائتي جنيه استرليني) . وفتحت في الحال أبواب المعسكر للمشتري ، وأعلن امبراطورا ، وتلقى يمين الولاء من الجنود الذين مادوا الى شيء من الانسانية الى حد أنهم اشترطوا عليه أن ينسى ويغفر لسليشيانوس منافسته اياه .

وكان حتما على البريتوريين ان ينفذوا الآن شروط البيع . فوضعوا ملكهم الجديد ، الذي خدموه واحتقروه معا ، وسط صفوفهم ، وأحاطوه من كل جانب بدروعهم ، وقادوه في نظام دقيق لاحتراق الشوارع الخالية في المدينة . وصدرت الأوامر الى السناتو بالاجتماع . ووجد اصدق اصدقاء برتيناكس ، او الأعداء الشخصيون لجوليان انه من الضروري أن يتظاهروا بقدر أكثر من عادي من الرضا بهذه الثورة السعيدة . وبعد أن ملا جوليان دار المجلس بالجنود المسلحين ، انماض في الكلام عن الحرية التي اقترن بها انتخابه ، وفي شمائله العالية وفي تأكيد التام من تعلق السناتو به . وأظهر المجلس الخنوع (بفتح الخاء) غبطته وغبطة الناس عامة ، وقدموا له ولاءهم ، ومنحوه كل السلطات الامبراطورية على اختلاف انواعها . وتوجه جوليان في نفس الموكب العسكري من السناتو الى القصر ليضع يديه عليه . وكان أول ما استرعى نظره فيه جذع برتيناكس الذي ترك بالقصر والمائدة المتواضعة التي أعدت لعشائه . فنظر الى الواحد دون اكتراث ، وإلى الآخر باحتقار ، ثم أعدت ، بناء على أوامره ، وليمة فاخرة ، ثم تسلى الى ساعة متأخرة من الليل بلعب النرد وبمشاهدة الراقصة الشهيرة بيلاديس Pylades . على أنه لوحظ أنه ، بعد أن انصرف حشد المتملقين وتركوه للظلام والوحدة والتأمل الرهيب ، قضى ليلة لم يذق فيها طعم النوم ، ومن المحتمل أنه أخذ يقلب في نفسه حماقاته المتهورة ، ومسير سلفه الفاضل ، وحق التملك الخطير المشكوك فيه لامبراطورية ، ذلك الحق الذي لم يكسبه من جدارة ، بل اشتراه بالمال .

وحق له أن ترتعد مرائسه ، فقد وجد نفسه على عرش العالم وحيدا بلا صديق أو حتى مرافق ، بل ان الحرس أنفسهم عراهم الخجل من

الأمير الذى اغراهم جشعهم بقبوله ، كما أنه لم يكن نمة دواطن لم ينظر بعين الجزع الى اعتلائه العرش على أنه آخر وصمة لاسم الرومان . أما الاشراف الذين اقتضت مكائنتهم البارزة وثروتهم الطائلة اشد الحرص ، فقد وضعوا كبرياءهم فى جيوبهم وتصنعوا عواطفهم وقابلوا ما تظاهر به الامبراطور من لطف ورقة بابتسام الرضا وبما يقتضيه المقام من واجب الحفاوة . أما الشعب فقد وجد فى كثرة عدده وخمول ذكره مأمنا للتفليس الحر عما يجيش فى صدره . وردت الشوارع والمحال العامة فى روما صدى الصيحات واللعنات ، وجابه الشعب الحائق جوليان بالاساءة وأبوا عليه سخاءه ، وادراكا منهم لئلا يسه استيائهم ، استدعوا علانية فرق الحدود لتؤكد جلال الامبراطورية الذى انتهك وأسىء اليه .

أعلنت قوات بانونيا Pannonia سبتيميوس سيفيروس Septimius Severus امبراطورا ، فعبر الألب ، وقره السناتو على المرش ، ثم اعدم جوليانوس ، وهزم سيفيروس منافسيه المطالبين بالعرش وهما بيسكنيوس نيجر Pescennius Niger حاكم سوريا ، وألبينوس Albinus حاكم بريطانيا .

سبتيميوس سيفيروس

ان المصلحة الحقيقية لاي حاكم مطلق لتتفق بصفة عامة مع مصلحة شعبه ، فان اعدادهم ووثوتهم ونظامهم وامنهم لى افضل الأسس ، وهى الدعائم الوحيدة لعظمته الحقيقية . واذا كان مجردا من الفضيلة ، فان الحزم قد يعوض عنها ، وقد فرض نفس قواعد السلوك . واعتبر سيفيروس الامبراطورية الرومانية ملكا خاصا له ، فما ان استتب له الملك حتى أولى هذا الملك العظيم عنايته لاصلاحه وتحسينه ، وسرعان ما صححت القوانين الصالحة التى نفذت فى عزم لا يلين ، معظم الاسوء التى انتابت — منذ موت ماركوس — كل ناحية فى الحكومة . وفى ولاية القضاء تميزت احكام الامبراطور بالبصر والفضة وعدم التحيز ، وما انحرف يوما عن الطريق المستقيم للعدالة الا كان هذا بصفة عامة مجاملة للمقراء والمظلومين ، ولم يكن فى الحقيقة صادرا عن معنى من معانى الانسانية اكثر منه عن ميل طبيعى فى الحاكم المطلق ليذل غرور العظمة ، ويهبط بجميع رعاياه الى نفس المستوى العام من النجاسة

المطلقة . وكان تفوقه الباهظ الثمن لاقامة المباني والحفلات الفخمة ،
وفوق كل شيء توزيعه المستمر السخى للفلال والمؤن — كل أولئك كان
انجح الوسائل الأكيدة لانتزاع حب الشعب الرومانى له وتعلقه به .
وزالت مسؤولى الفتن الأهلية . ونعمت الولايات مرة أخرى بهدوء
السلام والازدهار . واستردت أريحية سيفيروس وسخاؤه كثيرا من
المدن ، غدخلت في عداد مستعمراته ، وأظهرت اغتباطها وامتنانها بما
شيد من أنار عامة . وأحيا ذلك الإمبراطور المحارب الموفق شهرة
القوات الرومانية ، وكان يزهو بحق بأنه تسلم الإمبراطورية منهوكة
بالحروب الخارجية والمحلية ، ثم خلفها مستقرة في سلام تام شسامل
مشرق .

وبدا أن كل جراح الحرب الأهلية قد التامت تساما ، ولكن
سومها القاتلة كانت لا تزال تكمن في جوهر الدستور . ولقد أوتى
سيفيروس قدرا كبيرا من العزم والقدرة ، ولكن جراحة القيصر الأول
لو عمق سياسة أوغسطس لم تتكافأ مع مهمة الحد من وقاحة القوات
المنتصرة وصلفها . وأغرى سيفيروس بارخاء قبضة الظلم والتخفيف
من قيوده ، أما عرفانا للجميل ، أو نتيجة لسياسة مضللة ، أو لما بدا
أنه ضرورة حتمية . واشبع غرور جنوده وزاد زهوهم بما تحلوا به من
خواتم من ذهب ، واكتملت أسباب الراحة بالترخيص لهم بالعيش مع
زوجاتهم داخل الثكنات في دمة وخمول ، ورفع رواتبهم فوق ما كانت
عليه من قبل . وعليهم أن يتوقعوا — وسرعن ما طلبوا — بمعطايا غير
عادية في أية مناسبة عامة ، احتفالا كانت أو خطرا داهيا . والآن وقد
انفلخت أوداجهم بأصابوا من نجاح ، ووهنت عزائمهم بما أترفوا
فيه ، ورفعتهم ابتزازاتهم الخطيرة فوق مستوى أفراد الرعية ، فقد
أصبحوا عاجزين عن احتمال أى جهد عسكرى ، كما أصبحوا عالة على
البلاد مرعقين لها ، وضاقوا ذمرا بأية تبعية عادلة مقبولة . وأكد
ضباطهم سمو الرتبة بالاسراف في الكماليات والأناقة . وهناك رسالة
ما تزال باقية من رسائل سيفيروس ، يرثى فيها لحالة الفوضى نتيجة
لسيطرة الجيش ، ويحض فيها أحد قواده على المبادرة بالإصلاح
الضرورى ابتداء من التريبون نفسه ، حيث — كما لاحظ بحق — أن
الضابط الذى يفقد مكانته ويبتهن كرامته لا يستطيع أن يفرض طاعته
على جنوده . ولو استرسل الإمبراطور في تأملاته لتبين له أن السبب
الأساسى في هذا الفساد العام ، ربما كان راجعا ، لا الى القدوة
(الضابط) فى الواقع ، بل الى النمساخ المعيب الخطير من جانب
القائد الأعلى نفسه ، على أية حال .

ونال البريتوريون الذين قتلوا امبراطورهم وباعوا امبراطوريتهم جزءا عادلا لقاء خيانتهم فسرعان ما وضع سيفيروس لنظام الحرس ، ذلك النظام الضروري رغم خطورته ، أساسا جديدا . وزاده الى اربعة امثال عدده القديم . وكانت فرق الحرس تجند قديما في ايطاليا ، ولما تشربت الولايات المجاورة شيئا فشيئا اساليب روما ، التي هي اكثر رقة ونعومة ، امتد تجنيد هذه الفرق الى مقدونيا ونوريكسوم Noricum (جزء من النمسا الحالية) . واسبانيا وقرر سيفيروس ، بالنسبة لهذه الفرق الاثنية التي كانت البق بابهة البلاط منها بالاستخدام في الحرب ، قرر ان يختار بين الحين والحين ، من بين قوات الحدود اكثر الجنود امتيازاً لقوتهم وبسالتهم واخلاصهم ، ويرقوا الى صفوف الحرس ، وهى البقى بهم ، تشريفا ومكافأة لهم . ويهذا النظام تحول الشباب الايطالى عن خدمة الجيش واستعمال السلاح ، وروعت العاصمة بجموع المتبررين وبسلوكهم ومناظرهم الغريبة ، ولكن سيفيروس كان يعطل النفس بان قوات الجيش سوف تعتبر ان هؤلاء البريتوريين المختارين يمثلون التشكيل العسكرى بأسره ، وان العون الحالى الذى يتألف من خمسين الفا متفوقين فى السلاح والرواتب (من الحرس) على اية قوة يؤتى بها الى الميدان ضدهم ، لابد ان يتغنى الى الابد على اى أمل فى العصيان ، ويؤمن الامبراطورية له ولخريته من بعده .

وسرعان ما أصبحت قيادة هذه الفرق ذوات الخطوة والبأس المنصب الأول فى الامبراطورية. فلما انحدرت الحكومة الى استبدادية عسكرية. وضع قائد البريتوريين — الذى لم يكن فى الاصل الا نقيباً فى الحرس ، وضع — لا على رأس الجيش فحسب ، بل على رأس الخزانة والقانون كذلك . ومثل فى كل اقسام الادارة شخص الامبراطور ومارس سلطاته . وكان بلوتيانوس Plautianus — الوزير الاثير المقرب الى سيفيروس — اول قائد تمتع بهذه السلطة الواسعة واستغلها اسوا استغلال ، هائلة عهده الذى دام اكثر من عشر سنوات ، حتى زوج ابنته من اكبر أبناء الامبراطور ، وكان يبدو أن فى هذا الزواج ضمانا لحسن مستقبله ، ولكن ثبت انه كان ايذانا بسقوطه (١) واهاجت احتقاد القصر اطماع بلوتيانوس واثارت مخاوفه ، ومن ثم هدعت بلصداث ثورة ، واجبرت الامبراطور الذى لا يزال يحبه على الموافقة على قتله ، على غير رضا

(١) من اكثر تصرفاته فزقا وجرة خصى مائة من احرار الرجال الرومان . خيمهم المتزوج وفيهم رب الامرة لا لشيء الا ان يكون فى ركاب ابنته عند زواجها من الامبراطور الصغير حاضيا من « الخصيان » ، مما هو جدير بملكة شرقية .

منه . وبعد موت بلوتيانوس عين المحامي العظيم المشهور بابنيان Papinian في المنصب الزاهي ، منصب رئيس الحرس البريتوري .

والمشاهد أنه حتى عصر سيفيروس تميزت فضيلة الاباطرة ، او حسن ادراكهم باحترامهم الحقيقي او المصطنع للسناتو ، وفي الرعاية الكريمة للاطرار الجميل للسياسة المدنية التي وضعها اغسطس . ولكن سيفيروس كان قد درج طوال سنين شبيهه على الطامعة المبياه في المعسكرات ، وقضى اعوامه الاكثر نضوجا في استبداد القيادة العسكرية ، فلم تستطع روحه المتعالية العنيدة ان تكتشف ، او قل لم تعترف ، بميزة الابتاء على قوة وسط ، مهابا كانت صورية ، بين الامبراطور والجيش . فاحتقر أن يعترف بأنه خادم لجلس اضر البغض لشخصه على حين كانت ترتعد فرائسه فرقا لمجرد عيوسه ، فاصدر الاوامر حيثما ثبت انها تقضى بأريه . وسلك سلوك الملك والفاتح ونهج منهجها ، ومارس دون استخفاء السلطين التشريعية والتنفيذية معا .

وكان الانتصار على السناتو امرا ميسورا تالها معينا لا يتسم بأى مجد ، ألم تكن كل العيون وكل الاحاسيس موجهة الى الحاكم الأعلى الذي تملك الجيش والمال في الدولة ؟ على حين أن السناتو الذي لم ينتخبه الشعب ، ولم تحبه القوات العسكرية ، ولم تنعشسه الروح العامة - هذا السناتو اقام سلطته المتداعية على اساس واه مخطم من وضعه القديم ؟ واختفت النظرية الجميلة من الجمهورية بطريقة غير محسة واخلت مكانها لمشاعر الملكية ، وهي مشاعر طبيعية أساسية الى حد أكبر . ولما أسبغت حرية روما وامجادها تباها على الولايات ، حيث كانت الحكومة القنسية غير معروفة ، أو كان ذكرها يقترب بالقت والذم ، محيت معها تدريجا كل تقاليد المبادئ الجمهورية ، ويلاحظ المؤرخون اليونانيون في عصر الانطونيين ، في اغتباط خبيث ، أن ملك روما - على الرغم من أنه ، مساليرة لهوى مندثر ، كان يجفل من لقب الملك ويتورع عنه - لكنه مع ذلك ، كان يتبع بالسلطة الملكية في أبعد حدودها . وامتلا مجلس السناتو على عهد سيفيروس بعبيد فصحاء مصقولين جاءوا من الولايات الشرقية ، وبرروا الملق الشخصي بمبادئ نظرية نبعت من الجوديسة . وغرح البلاط ، على حين كان الشعب ينفذ صبره عند الاستماع الى هؤلاء المدافعين الجدد عن الامتيازات ، حين كانوا يقررون واجب الطاعة المبياه ، ويسهبون القول في المساوية المحتومة للحرية . واتفق المحامون والمؤرخون على تلقين الناس أن الامبراطور لم يتول السلطة نتيجة لتفويضه بهذه المهام ، بل نتيجة الاستسلام القاطع والتنازل التام من

جانب السناتو . وبأنه متحرر من قيود القوانين المدنية ، وبأنه يستطيع التصرف في حياة رعاياه وثرواتهم ، والتخلص من الامبراطورية كما لو كانت ميراثا خلاصا له . وترعرع أبرز هؤلاء المحامين المدنيين ، وخاصة يابنيان ، ويولوس والبيان في ظل بيت مسيقيروس . وقد افترض أن الفقه الروماني بلغ غاية النضج والكمال ، منذ أن ارتبط ارتباطا وثيقا بنظام الملكية .

وغفر معاصرو سيفيريوس له ضروب القسوة التي استهل بها عهد ، حين نعموا بالسلم والمجد بعد ذلك . ولكن الاعقاب الذين خبروا الآثار الفتاكة لمبادئه ولمن هذا حذوه ، اعتبروه ، حقا وعدلا ، « المنفي » . او المخطط الاساسي لاضمحلال الامبراطورية الرومانية .

الفصل السادس

(٢١١ - ٢١٥ م)

أسرة سيفيروس

كاراكلا وجيتا • ايلاجابالوس الاسكندر سيفيروس

نمو نفوذ المرأة في البلاط

قد ييتمث ارتقاء سلم المجد ، معها كان الارتقاء وعرا خطيرا ، في الانسان روحا وثابة تعى قوتها وتمارسها . ولكن امتلاك عرش ، اى عرش ، لن يستطيع أن يشبع في النفس الطامحة قناعة دائمة . وقد احس سيفيروس بهذه الحقيقة المحزنة واعترف بها . لقد سبأ به حظه ومواهبه من الحضيض الى اسنى مكان بين بنى الانسان ، أو كما قال هو في نفسه : « لقد كان هو كل شيء ، ولكن ما من شيء كانت له قيمة تذكر » . والآن وقد ساورته الهوم ، لا من أجل الحصول على امبراطورية ، بل من أجل المحافظة عليها ، وارهقته الشيخوخة والعلل ، وعزف من الشهرة ، واتخم بالسلطة ، وضاعت به سبل الحياة . لئانه لم يبق من مطامعه ومن حنائه الأبوى الا الرغبة في الحفاظ على مجده الأسرة وعظمتها ابدا طويلا .

وأولع سيفيروس — مثل معظم الأفريقيين — بالدراسات العقيدة . في السحر والالهيات . وكان خبيرا عليها بتفسير الأحلام والنذر ، كما كان على دراية تامة بالتنجيم الشرعى ، وكل أولئك كان يتبلك عقل الانسان في كل زمان ، فيما خلا عصرنا هذا . وقد غفد زوجته الأولى عندما كان حاكما على اقليم ليون في الغال . وجرى في اختيار زوجته الثانية وراء ارتباط بذات حظ سعيد . وما ان اكتشف أن سيدة شابة من حمص في سوريا قد خبأت لها النجوم طالعا ملكيا ، حتى أسرع في التوصل اليها وحظى بالزواج منها . وكانت جوليا دونا Julia Donna

(وكان هذا اسمها) تستحق كل ما يمكن أن تعد به النجوم ، فقد وهبت ، حتى عندما تقدمت بها السنون ، كل مقاتل الجبال ، وجمعت بين روعة الخيال ورياسة العقل وقوة الحكم ، مما يندر أن يوهب لبنات جنسها . ولم يكن لهذه الصفات الحميدة أثر عميق قط في المزاج الكتيب الحقود لزوجها . ولكنها على عهد ابنها ، تولت المهام الرئيسية في الإمبراطورية ، في لحظة دعيت سلطته ، وفي اعتدال صحح في بعض الأحيان من حماقاته ألهمجية . وانصرفت جوليا إلى الأدب والفلسفة فحاصبت فيهما بعض النجاح ، وأحرزت أكبر شهرة . وكانت ترى كل من ، وتشجع كل نبوغ ، وكان تعلق العلماء لها ، أعرفنا منهم بفضلها ، سببا في تجيد سمائلها ، ولكن إذا كان لنا أن نصديق افتراء التاريخ القديم ، لكأن العنة أبعد من أن تكون أبرز صفات الإمبراطورة جوليا .

وكانت ثمة هذا الزواج ولدين هما كازاكلا وجينا الوريثان المحتومان للإمبراطورية . وسرعان ما خابت الآمال العريضة للوالد وللعالم الروماني في هذين الشابين العائنين اللذين استنابا إلى حياة الاطمئنان الخلل لأمرأ ورائيين ، مفترضين أن الحظ سيعوض عن الجدارة والمثابرة . وتجردا من المنافسة في الفضائل أو المواهب ، ولكنها اكتشفا ، حتى منذ طفولتهما على الأغلب ، جنوة عاتية راسخة في الواحد منهما نحو الآخر .

وثبتت السنون جذور الكراهية ، وأهانتها المائين الخللان المفترضين ، حتى انفجرت بينهما منافسات صبيانية ، زادت حدتها على مر الأيام ، مناقشات شطرت المسرح والملاعب والسيرك والبلاط إلى حزبين تتحركهما آيال ومخاوف القائنين على الأمر في كل منها . وتذرع الإمبراطور الرزين بكل ضروب النصيح والبلطان ليهدئ من هذه العداوة المترايدة . وغشي هذا الخلاف المنكود بين ولديه كل تطلعاته بسحب من الكأبة ، وهدد بسقوط العرش الذي أقامه بالكثير من الجهد والكد ، ودعمنه بالكثير من الدماء ، وذاد عنه بقوة السلاح والمال . وفي غير ما تحيز ، وحفظا على التوازن الدقيق بينهما وزع بينهما رغائنه وحظوته بالمدل والقسطاس ، فحبا كلا منهما بمرتبة « أوغسطس » مع الاسم المعظم « أنطونينوس » . وبذلك شهد العالم الروماني لأول مرة ثلاثة أباطرة في وقت معا . ومع ذلك غائنه حتى هذه المساواة لم تجد إلا في اذكاء النار بينهما ، واستمسك كازاكلا الشرس بحق الابن البكر ، على حين استلدر جينا المعتدل عطف الشعب والجنود ، وفي ألم مبرح تنبأ الوالد اليائس سيفيروس بأن الابن الأضعف سيقع فريسة لابنه الأقوى الذي لابد ، بدوره ، أن يخر صريع رذائله هو نفسه .

وفي تلك الاثناء جاءت انباء حرب نشبت في بريطانيا، وغزو المتبريرين في الشمال لهذه الولاية ، وتلقى سيفيروس هذه الأنباء بسرور ، وصمم ، على الرغم من أن يقطعة قواده ربما كانت كافية لصد هذا العدو البعيد ، على انتحال مبرر نبيل لانتزاع ولديه من أحضان الترف في روما ، ذلك الترف الذي أوهرن عقليهما وأثار مواطفيهما ، كما صمم على أن يعرك شبابهما ويعودهما على مشاق الحرب والحكم . ورغم تقدمه في السن (كان آنذاك قد تجاوز الستين) ، ورغم داء النقرس الذي كان يستلزم حمله على محفة — خرج بنفسه الى هذه الجزيرة النائية يتبعه ولداه وكل حاشيته وجيش قوى . واجتاز من فوره أسوار هادريان وأنطونينوس ، ودخل بلاد الأعداء مصمما على اكمال فتح بريطانيا الذي طالما جرت محاولته من قبل . وتوغل الى الطرف الشمالي من الجزيرة دون أن يقابل عدوا . ولكن كمائن الاسكتنديين Caledonians الخفية التي اطبقت على جناحي جيشه ومؤخرته ، وبرودة الجو ، وقسوة الشتاء الذي حل بتلال اسكتلنده وبطاحها ، كل أولئك ، على ما قيل ، كبد الرومان أكثر من خمسين الفا من الرجال . . واستسلم الاسكتنديون في النهاية لهذا الهجوم القوى العنيد ، وتوسلوا للصلح ، وسما جزءا من أسلحتهم ورقعة كبيرة من أراضيهم ، ولكن خضوعهم الظاهري لم يدم لأكثر من فترة ازمة الرعب الراهنة ، وحالما انسحبت القسوات الرومانية ، استأنفوا استقلالهم العدائي . وحفزت روحهم الفلقة المتبرمة سيفيروس الى ارسال جيش جديد الى كاليدونيا (اسكتلنده) ، مع كل الأوامر المشددة ، لا باخضاع السكان ، بل ببادتهم . ولم ينقذهم الا موت عدوهم المتعجرف .

ولا تستحق منا حرب كاليدونيا أى اهتمام ، حيث لم تتميز بأية أحداث حاسمة ، ولم تنجم عنها أية نتائج هامة ، ولكن المظنون ، مع شيء كبير من الاحتمال ، أن غزو سيفيروس يرتبط بالمع فترة في التاريخ البريطاني أو الأساطير البريطانية . ويقال ان فنجال Fingal الذى أحيى شهرته وشهرة أبطاله وشعرائه في لغتنا الانجليزية أحد المؤلفات الحديثة . قاد الاسكتنديين في هذه الفترة العصية المشهورة ، وأنه ضلل قوات سيفيروس ، وأنه انتصر في معركة مشهورة على ضفاف نهر كارون ، ثم فيها كراكون ابن « ملك الدنيا » من جيشه الى مراتع زهوهِ وخيلائه . وما تزال بعض سحائب الشك تتعلق بهذه الروايات الاسكتلندية ، ولو أنه لا يمكن لأحق النقاد الحديثين نقضها نقضا تاما . ولكن اذا استطعنا أن نسلم مطمئنين بالمزاعم السارة بأن فنجال عاش ، وان أوسيان Ossian انشد ، فقد يكون في المفارقة الأخاذة بين موقف

وسلوك الأمتين المتنازعتين بعض التسلية للعقلية الفلسفية . ولن تجدى المقارنة شيئا لصالح الشعب الذي هو أكثر تحضرا ، إذا قارنا انتقام سيفيروس الشديد بالصنع الكريم من جانب فنجال ، وقسوة كاراكلا الوحشية المتهمة ، بالشجاعة والوداعة والعبقرية الرقيقة من جانب أوسيان ، والرؤساء المرتزقة الذين خدموا في ظل الراية الإمبراطورية ببواعث من الخوف أو المصلحة ، بالحريين الذين ولدوا أحرارا الذين هرعوا الى أسلحتهم تلبية لنداء ملك مورفن Morven ، أو بعبارة موجزة إذا تأملنا الأسكتلنديين الجهال وقد تألقوا في فضائل الطبعة والغيرة ، والرومان المنحطين وقد تلوثوا بأحط رذائل الثروة والعبودية .

كاراكلا وجيتسا

أذكى تدهور صحة سيفيروس ومرضه الأخير نار الأطماع الوحشية والأحاسيس السوداء في نفس كاراكلا . وضاق ذمعا بأى إبطاء في تقسيم الإمبراطورية ، محاول غير مرة التعجيل بالأيام القليلة الباقية من حياة والده ، وجهد دون جدوى في أحداث غفنة بين الجنود . وكثيرا ما عاب الإمبراطور العجوز على ماركوس ترفقه المضلل ، حيث كان في مقدوره ، بتصرف عادل واحد منه ، أن يخلص الإمبراطورية من طغيان ابنه التافه . فلما وضع سيفيروس في هذا الموقف أدرك كيف تذبذب هرامة القاضي في رفق الوالد . لقد أطلت التفكير في الأمر ، ثم هدد ، ولكنه لم يستطع الى المقاب سبيلا . وكان هذا المثال الوحيد والأخير من الرحمة أشد فتكا بالإمبراطورية من سلسلة طويلة من ضروب القسوة . وحرك اضطراب ذهنه آلام جسمه ، حتى تمنى الموت بفارغ الصبر ، وعجل قلقه ونفاد صبره بساعته الأخيرة . وقضى نحبه في يورك في سن الخامسة والستين ، وفي السنة الثامنة عشرة من حكم مجيد موفق . وفي لحظاته الأخيرة أوصى ولديه بالوفاء والوفاء ، كما أوصى الجيش بها . ولم تنفذ النصيحة النافعة الى قلب الشابين العنيدين ، بل لم تصل الى إدراكهما . ولكن القوات التي هي أكثر انصياعا ، والتي تذكر جيدا يمين الولاء كما تذكر سلطة سيدها المتوفى . قاومت توهمات كاراكلا ، وأعلنت كلا من الأخوين إمبراطورا على روما . وترك الأميران الجديدان في الحال كاليدونيا في سلام ، وعادوا الى العاصمة ، واحتفلا بدفن والدهما وسط مظاهر التكريم الإلهية ، واعترف بهما السناتوق والشعب والولايات في ابتهاج ومرح . ويبدو أنه

قد اسبغ على الأخ الأكبر شيء من مرتبة أرفع . ولكن كليهما تولى.
الامبراطورية بسلطة متكافئة مستقلة .

وكان حتما أن يؤدي مثل هذا التوزيع في الحكومة الى نشوب
الخلاف بين أحب أخوين . وكان من المستحيل أن يدوم طويلا بين عدوين
حقودين ، لم يرغبوا في التراضي أو يستطيعا الاطمئنان اليه . وكان من
الواضح أن واحدا منهما فقط يستطيع أن يتولى الحكم ، وأن الثاني
لابد أن يستط . وأن كلا منهما ، وهو يحكم على نوايا غريبة بمقياس
نواياه ، كان يحصى حياته في اشد يقظة حادثة ، ضد الهجمات المتكررة
بالسم أو بالسيف . وظهرت رحلتها السريعة عبر الغال وايطاليا ، تلك
الرحلة التي لم يجلسا فيها الى مائدة واحدة للأكل ، أو يأويا الى مكان
واحد للنوم — أظهرت للولايات على المنظر الكريه للشقاق الأحمى .
ولدى وصولهما الى روما عمدا على الفور الى تقسيم القصر الامبراطوري
الفسيح . ولم يسمح بأى اتصال بين مسكنيهما ، وحصنت كل الأبواب
والممرات ، وتسلم الحراس مواقعهم أو انصرفوا بنفس الصرامة التي
تتبع في مكان محاصر ضيق عليه الحصار . ولم يلتق الامبراطوران الا في
مناسبة عامة ، وفي حضرة امها المفجوعة ، يحوط كلا منهما فوج كبير
من الاتباع المسلمين ، وحتى في هذه المناسبة الرسمية ، لم يكن نفاق
الحاشيتين ليخفى ما تنطوى عليه القلوب من أضعاف .

وكان من شأن هذه الحرب الأهلية الخفية أن توقع الحكومة بأسرها
فعلا في حيرة ، عند اقتراح أى مشروع يبدو أنه يحقق نفعا متبادلا
للأخوين المتناجزين ، ولما كان من المتعذر التوفيق بينهما فقد اقترح
الفصل بين مصالحهما وتقسيم الامبراطورية بينهما . وصيغت بالفعل
بنود المعاهدة بدقة . واتفق على أن يحتفظ كراكلا ، بوصفه الأخ
الأكبر بأوروبا وغرب أفريقية ، وأن يترك آسيا ومصر لأخيه جيتا ، الذي
يمكن أن يتخذ مقرا له في الاسكندرية أو في انطاكية ، وهما لا تشلان
كثيرا عن روما ذاتها من حيث الثروة والعظمة ، وعلى أن تمسك دائما
قوات كبيرة على ضفتي البسفور في تراقيا لتصمى حدود الملكتين
المتنافستين ، وعلى أن يعترف أعضاء السفناتو الذين هم من أصل أوربي
بامبراطور روما ، ويتبع أهل آسيا ملك الشرق . وقطعت دموع جوليا
الامبراطورة الأم تلك المفاوضات التي ملأت فكرتها الأولى صدر كل
روماني دهشة ومخاطا . وكان الزمن والسياسة قد ربطا بين الكتلة
القوية التي كونتها الفتوحات ، في وجدة وثيقة الى حد أنها كانت تتطلب
أشد العنف قسرا لفصم عراها . وكان للرومان كل البعذر في أن يوجبوا

خيفة من عودة سريعة لهذه الأوصال الممزقة الى يدى سيد واحد نتيجة حرب أهلية ، ولكن اذا استمر الفصل ، فان تقسيم الولايات لابد أن ينتهى الى ذوبان الامبراطورية التى لم تمس وحدتها حتى الآن ، وهذان امران أحلاهما مر ، (الحرب الأهلية أو ذوبان الامبراطورية) .

ولو ان المعاهدة وضعت موضع التنفيذ لسارع ملك أوروبا توا الى غزو آسيا . ولكن كاراكلا أحرز انتصارا أيسر ، ولكنه أشد أجراما . فقد أضفى فى احتيال ودهاء الى توسلات أمه ، ورضى ببقاء أخيه فى بيتها على أساس من المصالحة والتراضى ، وفيما هما يتحدثان اندفع جماعة من الضباط كانوا مختبئين بسيوف مسلولة وانهلوا بها على جيتا المسكين . وحاولت الأم المضطربة ان تحميه بين ذراعيها ، ولكن ميثا كانت تكافح . وجرحته يدها وتلطخت بدماء ابنها الأصغر ، بينما رأت الأكبر يستحث الفاحين ويعاونهم ، وما أن فعل فعلته حتى أسرع الخطى والفرع يرتسم على محياه ، الى معسكر البريتوريين بوصفه الملجأ الوحيد له ، وارتمى على الأرض تحت تماثيل الآلهة حياته . وحاول الجنود أن يرفعوه من الأرض ويسروا عنه ، وفى كلمات مقطعة تهوشة أبلغهم من الخطر العظيم المحقق به ، وعن هربه الموفق ، محاولا أن يقر فى أذهانهم انه حال دون تنفيذ خطط عدوه ، وأعلن تصميمه على الحياة أو الموت برفقة جنوده المخلصين . وكان جيتا أثيرا لدى الجنود ، ولكن ماذا تجدى الآن الشكوى ؟ والانتقام محفوف بالخطر ، وهم لا يزالون على أجلالهم لابن سيفيروس . وتبخر استياؤهم فى شيء من تذير خافت ، وسرعان ما أقنعهم كاراكلا بعدالة قضيته ، حين أجزل لهم العطاء فوزع عليهم الاموال التى جمعها أبوه طيلة حكمه . وكانت للمشاعر الحقيقية للجنود وحدها أهميتها من أجل قوته أو سلامته . وتحكم الاعلان الذى أصدره لصالحه فى موقف السناتو مما يجب عليه بحكم وظيفته . وكان المجلس الخنوع مستعداً دائماً للرضاء بما قسم به الحظ . ولكن كاراكلا كان راغباً فى التخفيف من بساوير الاستياء العلم ، ومن ثم أحيط اسم جيتا بكل وقار . وأضفى على جنازته كل مظاهر التكريم الواجب لكل امبراطور رومانى . ورثى خلفه لسوء حظه فأسدل الستار على مساوئه . وأنا لنعتبر هذا الأمير الشاب ضحية بريئة لطمع أخيه ، دون أن نستخدم الى الذاكرة انه هو نفسه أراد القوة ، لا الميل ، لانتهاء محاولات الثار والقتل هذه نفسها .

ولم تطو الجريمة دون عقاب . ذلك أن العمل واللهو والتعلق لم تجم كاراكلا من وخزات الضمير الأثم ، وقد اعترف هو ، فى نوبة كرب

وضيق الميت بعقله المعذب ، أن خياله المضطرب صور له أباه وأخاه يعودان الى الحياة ليهدداه ويؤنباه . وكان الأجدر أن يفرجه شعوره بجريمتيه باقتناع الناس ، عن طريق مزاييا حكمه ، بأن هذه الفعلة الشنيعة أكرهته عليها ضرورة ملحة . ولكن ندم كراكلا لم يوح اليه بشيء اللهم الا أن يحو من الوجود كل ما يذكره بآثمه ، أو يعيد الى الأذهان ذكرى أخيه القتيل . ووجد ، لدى عودته من السناتو الى القصر اسمه وسط جمع من النسوة النبيلات يبكين الابن الصغير الذي لقي حتفه قبل أوانه . مهددهن الامبراطور الحقوق بالموت غورا ، بل أنه نفسا تهديده بالفعل في فاديل ، ابنة الامبراطور ماركوس الوحيدة الباقية ، وحتى جوليا المفجوعة نفسها ، مماها اضطرت الى أن تكتم نحيبها وآهاتها ، وتستقبل السفاح بابتسامة الرضا والفرح . وقدر عدد الذين أعدموا بحجة غامضة ، هي أنهم أصدقاء جيتا ، بأكثر من عشرين ألفا من الجنسين ، كان من بينهم حراسه ومعتقوه ، ووزراؤه ومعاونوه في مهمته ، ومرافقوه في أوقات فراغه ، الذين اقتضت مصلحته اسناد بعض الوظائف اليهم في الجيش والولايات ، وكل السلسلة الطويلة ، من الاتباع الذين ارتبطوا بهؤلاء جميعا . كل أولئك حششروا في قائمة الاعدام التي حاولت أن تصل الى كل من ارتبط أقل ارتباط بجيتا ، أو حزن لموته ، أو حتى ذكر اسمه . وراح هلفيوس برتيناكس Helvius Pertinax ، وهو ابن امبراطور بهذا الاسم ، ضحية نكتة في غير أوانها وكانت الجريمة الوحيدة الكافية لادانة ترازيا بيسكس Thrasea Pisces أنها انحدرت من أسرة بدا أن حب الحرية صفة وراثية فيها . واستنفدت أخيرا الأسباب الخاصة والوشاية للرئاسة لغرضها ، فإذا أنهم أحد أعضاء السناتو بعدائه الخفى للحكومة ، تنع الامبراطور بالدليل العام المائع وهو أنه من أصحاب الثروة والنفيلة . وانطلاقا من هذا المبدأ الراسخ كثيرا ما انتهى الامبراطور الى أخطر الاستنتاجات .

لرب الأصحاء والأسرات الدبوع خفية حزنا على اعدام هؤلاء المواطنين الأبرياء ، وهم كثر ، ولكن موت بلينيان ، رئيس الحرس البريتوري ، كان محزنا بوصفه كارثة عامة ، فقد تقلد أهم مناصب الدولة في السنوات السبع الأخيرة من حكم سيفيروس ، وبنفوذ ، المفيد الناجح ، قاد خطوات الامبراطور في طريق العدل والاعتدال . وكان سيفيروس ، وهو على سرير الموت ، لتأكده التام من قدراته وفضائله ، قد أوصاه بالسهر على وحدة الأسرة الامبراطورية ورمهايتها . ولكن جهود بلينيان المخلصة لم تفلح الا في انكاء شعور البغض السدى

كان يضمه كاراكلا لوزير أبيه . وبعد مقتل جيتا ، تلقى بابنيان أمرا بأن يفرغ كل ما أوتى من مهارة وفصاحة في تلمس الأعداء لهذه الفعلة النكراء . وكان الفيلسوف سفاكا قد تنازل وقيل أعداد رسالة مماثلة للسنانو ، باسم ابن أجريينا Agrippina وقائله . فما كان الجواب العظيم لبابنيان ، الذى لم يتردد فى أن يؤثر فقدان حياته على ضياع شرفه ، إلا أن قال : « أن ارتكساب جريمة قتل الوالدين أيسر من تبريرها » . ومثل هذه الشيم الفاضلة الجريئة التى خرجت نقية سليمة من برائن الدسائس فى البلاط ، ومن خطايا العمل ومكائد المهنة ، تعكس على ذكرى بابنيان بهاء ورواء أكثر مما تمكسه وظائفه المالية وكتاباتة الكثيرة ، وشهرته الذائعة التى ظل يتمتع بها فى كل عصور التشريع الرومانى بوصفه محاميا أو من رجال القانون .

لقد كان كل ما يفتبط له الرومان بنوع خاص ، أو يخلف منهم فى أحلك المصور ، حتى الآن ، هو نشاط جاسب الفضيلة فى الإبطرة وخمود جانب الرذيلة فيهم . فقد شخص أوغسطس وتراجان وهادريان وماركوس بأنفسهم إلى مختلف أنحاء ممتلكاتهم الواسعة ، وتميز تقديمهم بها أدوا من أعمال تتسم بالحكمة والبر . وكان طغيان تيبيريوس ونيرون ودوميتيان - الذين أقاموا على الأغلب دائما فى روما أو فى الريف المجاور لها - منصبا على طوائف السناتو والفروسية وحسدها . ولكن كاراكلا كان المدعو المشترك للبشرية جمعا . وغادر العاصمة (ولم يعد إليها قط) بعد حوالى عام من مقتل جيتا . وقضى بقية سنى حكمه فى مختلف ولايات الإمبراطورية وبخاصة فى الولايات الشرقية ، وكانت كل ولاية بدورها مسرحا لسلبه ونهبه وقسوته . وكان أعضاء السناتو مضطرين ، بدافع الخوف إلى مصاحبته فى كل تحركاته ، وإقامة العفلات اليومية له بأبهظ النكال . ذلك الحفلات التى كان يتركها فى احتقار لحرمة ، وإلى تشييد القصور والمسارح الفضة فى كل مدينة ، لمكان يحتقر زيارتها أو يأمر بهدمها فى الحال . وحل الخراب بأغنى الأسرات نتيجة الغرامات الضالمة التى تفرض عليها أو مصادرة أموالها . وأرهق السواد الأعظم من الرعية بالتفنن فى جمع الضرائب الثقيلة منهم . ووسط الهدوء الشامل بالاسكندرية ، فى مصر ، ولأنه بادرة من الاستفزاز ، أمر بمذبحة سلمه ، شهدها وأدارها من مكان آمن فى معبد سيرابيس ، وراح ضحيتها عدة آلاف من المواطنين والغريباء دون أن يتبين عددهم أو جرائمهم ، حيث أن كل السكندريين - كما أبلغ هو السناتو فى برود - من مات منهم ومن قتل ، مجرمون على حد سواء .

ولم تترك توجيهات سيفيروس الحكيمة أي أثر دائم قط في عقل ولده الذي لم يكن مجرداً من الخيال والفصاحة ، ولو أنه عاطل بالمثل عن المميز والانسانيه . وتمه مبدا حطير جدير بالطاغية كان يذكره كاراكلا ويستغله ، وهو « كسب محبة الجيش ، والنظر الى بغيضة رعاياه على انهم قليلو الاهمية » . ولكن سخاء والده كانت له ضوابط من الحرص والروية ، كما كان تسامحه مع القوات العسكرية مقروما بالحزم والسلطة . أما تبذير الابن بغير حساب فكان طابع سياسسة حكمه ، وكان فيه الخراب المحتوم للجيش والامبراطورية معا . وتبددت عزائم الجنود وهمهم في بذخ المدن ، بدلا من تدعيمها بالنظام الصارم في المعسكرات . وارهقت الدولة لاثراء العسكريين بالاسراف في زيادة رواتب الجنود واغداق المنح عليهم ، على حين ان في الفقر المشرف احسن ضمان لاحتشامهم في اوقات السلم وخدماتهم في زمن الحرب . وكانت الفطرسية والزهو طابع سلوك كاراكلا ، ولكنه مع الجنود نسي حتى الوفاق الواجب لمرتبه ، فشجع رفع الكلفة ، والالفة الوثقة بينه وبينهم ، واهمل الواجبات الأساسية للقائد ، فتنصنع تقليد الجندي المعادي في زي وسلوكه .

وكان من المستحيل أن يوحى بالحب أو التقدير مثل هذا الخلق ومثل هذا السلوك ، ولكن كاراكلا كان يأمن خطر الثورة طالما كانت رذائله ومساوئه خيرا على الجيوش ، ولكن حقدده هو نفسه كان سببا في إثارة مؤامرة خفية تانلة للطاغية . ذلك أن رئاسة البريتوريين كانت موزعة بين وزيرين ، فتولى الثئون العسكرية احدهما ، وهو أدفنتوس Adventus ، وحن رجلا محنكا اكثر منه عسكريا قديرا . وتولى الثئون المدنية أوبليوس مكرينوس Opilius Macrinos الذي استطاع أن يسمو بنفسه في هودة ورفق الى هذا المركز الرفيع بفضل براعته في عمله . ولكن مصلحته تعارضت مع نزوات الامبراطور ، وربما تعلقت حياته بأوهن خيط من الشك أو باى ظرف مفاجيء أكثر ما تكون المفاجأة . وجادت قريحة رجل أفريقي ذى خبرة عميقة في أمور المستقبل والمفيع ، نكاية أو تعصبا ، بنبوؤة خطيرة ، تقول انه مقدر لمكرينوس ولده ، أن يحكما الامبراطورية . وسرعان ما انتشر النبا في الولاية وجرى بالرجل الى روما مكبلا بالسلاسل ، وظل يؤكد صدق نبوءته في حضره حكام المدينة . وتلقى حاكم المدينة تعليمات مشددة بأن يبلغ بنفسه عن « خلفاء » كاراكلا — فنقل على الفور نتائج التحقيق مع الأفريقي واختباره الى البلاط الامبراطوري الذي كان يقيم آنذاك في سوريا ، ولكن رغم يقظة الرسل العامين استطاع أحد اصدقاء مكرينوس أن يجد

وسيلة لظهاره على جليلة الخطر المحدث به . وتلقى الامبراطور الرسائل من روما ، ولما كان آنذاك مشغولا بسباق العجلات ، فقد سلم الرسائل دون أن يفتحها الى رئيس الحرس البريتورى ، وكلفه بترك المسائل العادية جانبا ، واعداد تقرير عما قد تحتويه الرسائل من مسائل أكثر أهمية . وقرأ مكريئوس فيها مصيره ، وعقد العزم على تجنبه . وأهاج مكريئوس سخط بعض سفار الضباط ، واستخدم مارتياлис Merialis وهو جندى يائس أبوا عليه رتبة « ضابط مائة » . ودفع التقي والورع كاراكلا الى الحج من اذاسا Idessa (مدينة أورفة الحالية في تركيا) الى معبد القمر في مدينة كاره Carthae (مدينة شران الحالية) وكانت تتبعه كوكبة من الفرسان ، قلما توقف في الطريق لضرورة طارئة ، بقى الحرس على مسافة محترمة منه ، واقترب مارتياليس من شخص الامبراطور مدعيا أنه انما يؤدى واجبه ، وطمعه بخنجر . وسرعان ما سدد رماح سكوذى من الحرس الامبراطورى رمحه الى الفاتل الجرىء ، فارداه قتيلا . تلك كانت نهاية المارد الجبار الذى لطخت حياته الطبيعة الانسانية بالعار ، والذى عيل صبر الرومان بحكمه . ونسى الجنود العارفون لفضله مسألته ، ولم يذكروا الاسماء المتميز عليهم ، فأرغموا السناتو على أن يسئ الى نفسه ويمتهن كرامته وكرامة الدين بمنح الامبراطور القتل مكانا بين الآلهة ، وكان البطل الوحيد الذى اعتبره هذه الآلهة (كاراكلا) فى حياته جديرا باعجابها هو الاسكندر الاكبر ، ولذلك اتخذ لنفسه اسمه وشعاراته ، وكون فرقة مقدونية من الحرس ، واضطهد تلاميذ أرسطو ، وتفاخر فى حماس صبيانى سخيف ، بالحماسة الوحيدة التى اكتشف بها أى اهتمام بالفضيلة أو العظيمة . ومن الميسور علينا أن ندرك أنه بعد معركة ناربدا وغزو بولنדה ، كان شارل الثانى عشر « ملك السويد ١٦٨٢ — ١٧١٨ » (ولو أنه كان لا يزال فى حاجة الى منجزات انخم تليق بابن غيليب الذى هو انخم وأروع) يستطيع أن يفاخر بأنه نائس كاراكلا فى بأسه وشهامته ، ولكن كاراكلا ، فى أى عمل فى حياته ، لم يتشبه اقل شبيه ببطل مقدونيا الا فى قتل عدد كبير من أصدقائه وأصدقاء والده .

اجلس البريتوريون مكريئوس على المرثى ، ولكن محاولاته لاصلاح الجيش جعلته غير محبوب ، وادعت جوليا ميسا — اخت زوجته — أن حفيدها هو ابن كاراكلا ، وأعلن امبراطورا باسم انطونينوس . وهزم مكريئوس وقتل . ورحل انطونينوس وحاشيته الى روما .

الاجبالوس

كان اتفه الوان اللهو والتسلية يشد انتباه الامبراطور الجديد ، ومن ثم اضاع عدة شهور في انتقاله الذى اقترن بكل ترف وبذخ من سوريا الى روما . وقضى في نيقوميديا اول شتاء له بعد الانتصار ، واجل دخوله الظاهر الى العاصمة الى طول الصيف . وسها يكن من شئ ، فان الصورة الامينة التى سبقت وصوله ، والتى وضمت بأمر نورى منه فوق مذبح النصر في دار السناتو ، قد حملت الى الرومان شيها صادقا ، ولكن غير لائق ، بين شخصه وخلقه . وقد رسمت له الصورة وهو يرتدى يابا كهنوتية من الحرير والذهب على غرار زى الميديين والفينيقيين الفضااض المنساب ، وفوق رأسه تاج مثلث سابق ، ورسمت أساوره وأطواقه الكثيرة بجواهر ثمينة لا تقدر قيمتها ، وقد زججت حواجيه بالسواد ، وصبغ خداه بلون غير طبيعى من الاحمر والابيض . واعترف شيوخ السناتو ، وهم يصعدون الزفرات ، بأن روما بعد ان لاقت اقصى طفيان ابناء جلدتهم طويلا ، ارتكست أخيرا تجرع الذلة والهوان في ظل الترف المخنث للحكم الشرقى المستبد النطلق .

وكانوا في حمص Eimesa يعبدون الشمس تحت اسم الاجبالوس ، وكانوا يظفونه على هيئة حجر مخروطى الشكل ، كان يسود الاعتقاد بأنه سقط من السماء الى هذه البقعة المقدسة . ولأمر ما نسب انطونينوس ارتقاء العرش الى حامى الحمص ، الى هذا الاله . وكان الشغل الشاغل له في حكمه هو اظهار امتنانه الخرافى وعرفانه لجميله ، وكان انتصار اله حمص على جميع ديانات الأرض موضعا مظلما لزهوه وغروره ، وكان اسم الاجبالوس (وقد قرر ان يتخذ هذا الاسم المقدس بوصفه حبرا أعظم ، ومن المقربين) أمر لديه من لقب الجلالة الامبراطورية وفي موكب مهيب اخترق شوارع روما المغطاة بالتبر ، ووضع الحجر الأسود ، وقد رصع بالجواهر الثمينة ، على عربة تجرها ستة جياذ بيضاء في لون اللبن مطهية بأبهى الحلى ، وأمسك الامبراطور التقي بأعنتها ، وهو يتحرك الى الورا في أناة ، يعاونه وزراؤه ، حتى ينعم دائما ببهجة الحضرة الالهية وكانت القرابين التى تقدم للاله الاجبالوس في معبده في تل بالاتين Palatine Mount بألفة غاية القيمة والقدااسة . فكانت تنشر على مذبحه أندر الانبذة وأعلى الضحايا وأحسن العطور في اسراف شديد . وكانت فرقة من العذارى السوريات تقدم رقصاتها الداعرة حول المذبح ، على حين قام اكبر شخصيات الدولة والجيش ،

وقد ارتدوا الملابس الكهنوتية الفينيقية بأننا الحركات ، وهم يتصنعون الحماس ، ويخفون السخط والاستياء .

وحاول الامبراطور المتعصب أن ينقل الى هذا المعبد ، بوصفه المركز العام للعبادات الدينية ، كل التماثيل المقدسة التي ترمز لعبادة نوما ، ولحق حشم كبير من الآلهة الصغرى ، بالله حمص في جلاله وعظمته ، بدرجات متفاوتة . ولكن حاشيته لم تكن تسد اكتملت بعد ، حتى سمح لاثني رفيعة الشأن بقرانه . واختيرت في أول الأمر بالاس Pallas (الالهة اثينا - الالهة الحكمة) زوجة له . ولكن خيف أن تزعج فظائرها الحربية رقة الاله السوري ونعمته ، وقدر أن الاله القمر التي كان يعبدونها الافريقيون تحت اسم « عشتارت » قد تكون رفيقا اليق بالشمس ، فحمل تماثيلها من قرطاجة الى روما مع كل ما احتوى معبدها من نفائس وهدايا لتكون صداقا للزواج . واصبح يوم هذا الزواج الرمزي الفاضل عيدا عاما في العاصمة وفي سائر أنحاء الامبراطورية .

وقد يلزم الانسان شره معقول ، مع احترام ثابت . لكل ما تملبه الطبيعة من سنن معتدل ، بما يعمل على تحسين ملذات الحواس عن طريق المخالطة الاجتماعية وتعزيز الروابط ، والتشجيع الرقيق للذوق والخيال . ولكن الاجابالوس (اعني الامبراطور المسمى بهذا الاسم) ، وقد أسفده شبابه ويلده وحظه ، أسلم نفسه الى أغلظ الملذات بلا حدود ، وسرعان ما أحس الضجر والتفمة وسط هذا النعيم . ودعى الى تجذته أشد قوى الفن اثاره ، واستخدم لتحريك شهوته وشهواته الفاترة جموع مختلطة من النساء ، ومجموعات من مختلف الأنبذة واللوان الطعام ، وتشكيلة بدروسة من الأوضاع وعصارات التوابل ، حتى لقد تميز عصره بأسماء جديدة وبدع جديدة في هذه الفنون ، وهي الأشياء الوحيدة التي تمهدها ورعاها الملك بنفسه (١) ، ثم حلت عساره وفضاضته الى الأجيال من بعده . وعوض التبذير الجفونى عن الضرر الذى الذوق والرشاقة ، وبينما يكثر الاجابالوس كنوز شحمه ذات اليبين وذات الشبال في اسراف بالغ ، كان هو وممثلوه يرددون اصوات الاستحسان ويمتدحون روح العصر وعظمته ، مما لم تالفه وداعة اسلافه . وكان من الذى تسليته ومسرته ان يشوه نظم الفصول والمناخ ، وأن يداعب اهواء رعاياه وحزائهم ، وأن يقلب قوانين الطبيعة وقواعد

(١) كوفى بسخاء اختراع جديد من عصارات التوابل . ولكنه لم يكن مستظا .
لأرغم المخترع على الا ياكل شيئا غيره . حتى ابتدع نوعا آخر أساغه ذوق الملك .

الحشمة والوقار . ولم يكف لاثباع شهواته البهيمية فوج كبير من الخليئات ، وتعاقب سريع من الزيجات ، كان من بينهم عذراء بتول انتزعت من ماواها المقدس . وتظاهر سيد دنيا العالم بمحاكاة النساء في زيهن وسلوكهن ، وآثر القرفانس (صفارة المغزل) على الصولجان ، وامتنع المهام الرئيسية للامبراطور فوزعها على حبيباته الكثيرات ، فخلع على واحدة منهن علنا لقب الامبراطور وسلطته او - بشكل أدق - سلطة زوج الامبراطورة ، كما سمي هو نفسه .

ويبدو من المحتمل ان رذائل الاجابالوس قد دبجها الخيال وسودها التحيز ، ولكننا اذا اقتصرنا على المشاهد العامة التي كانت تعرض على الشعب الروماني ، والتي اكدها المؤرخون الجادون المعاصرون ، لوجدنا ان عارها الذي لا يوصف ، يجاوز مثيله في أي زمان ومكان . ان الاسوار العالية لبית حريم أي ملك شرقي لتحجب رذائله عن عيون أي متطفل او محب للاستطلاع . ولقد ادخلت احاسيس الشهامة والشرف ، تهذيب المذات والاهتمام بالحشمة والوقار واحترام الراي العام في البلاط الحديث للوك اوريا ، ولكن نبلاء روما الفاسدين الكثيرين اغتبطوا لكل رذيلة اقتبسوها من التدفق الجارف للأمم والمعادات . وطالما كانوا يمانون من المقاب ، لا يابهون للوم او التوبيخ ، فقد عاشوا ، دون قيود ولا حدود ، في المجتمع الذليل الصبور ، مجتمع العبيد والاتباع ، فلما رأى الامبراطور ، بخوره هذا الاستهتار الشائن المصيب في الشعب على مختلف طبقاته ، دعم من امتياز الملكى فى الجشع والبذخ .

ولن يتورع احط بنى الانسان عن ان ينكر على غيره ما يجيزه لنفسه من نقائص . ويجد فى الحال غارقا لطيفا فى العمر او الخلق او المكانة ليبرر به هذا التمييز غير الفزيه . وكان الجنود الفجار هم الذين رفعوا الابن المنحل لكاراكلا على العرش ، والآن نراهم وقد احبروا خجلا من هذا الاختيار المخزى ، وولوا وجوههم ، فى ضيق وضجر ، عن هذا المارد ليتأملوا فى سرور الفضائل المفتحة فى ابن خالته الاسكندر بن ماميا Mamaea . ولما احسست مايسا Maesa الداهية المحتالة بان حفيدها الاجابالوس لابد انه سيحطم نفسه برذائله ، قدمت لاسرتها دعامة اخرى اشد ثباتا . فافترت الامبراطور الصغير ، فى لحظة مواتية من لحظات الغرام والاخلاص ، بان يتبنى الاسكندر ويخلع عليه لقب قيصر ، حتى لا تعود مهامه الالهية تضطرب لانشغاله بهموم الدنيا ، وقد اصبح الامير المحبوب الرجل الثانى فى الدولة ،

كسب محبة الشعب وأثار حقد الطاغية الذي صنم على وضع حد لهذه المنافسة الخطيرة ، بأن يفسد على قريبه خططه أو يقضى على حياته . ولم تنجح أساليبه ، وغضحت حماقته الثرثرة بمشروعاته العابثة ، فأحبطها أولئك الخدم الأمناء الأفاضل الذين اقتضى حرص ماميا أن تحيط بهم ابنها ، وفي نزوة انفعال سريعة وطد الاجبالوس العزم على أن ينفذ بالقوة ما عجز عن تنفيذه بالاحتيال والغش . وأصدر حكما جائرا جرد بك ابن خالته من لقب قيصر ومن أمجاده ، وتلقى السناتو الرسالة في صمت ، ولكنها أثارت حمية المعسكر وغضبه . فقد انقسم الحرس البريتورى على حماية الاسكندر ، والثار لكرامة العرش التي امتنعت ، وصرفتهم عن سخطهم العادل دموع الاجبالوس المرتعد ووموده ، ولم يكن يرجو الا الإبقاء على حياته ، مع هيروكليز Hierocles المحبوب ، وقنعوا بتفويض رؤسائهم بالسهر على سلامة الاسكندر ومراقبة سلوك الإمبراطور .

وكان من المتعذر أن تدوم هذه المصالحة ، أو أن تتقبل نفس الاجبالوس الدنيئة حكم الإمبراطورية على أساس شروط التبعية المذلة هذه . وسرعان ما دخل في تجربة قاسية لإصلاح الجنود وتقويمهم . وذاع نبا وفاة الاسكندر ، فاشتد هياجهم لموته ولارتياحهم الطبيعى في أنه مات قتلا ، ولم تهدأ العاصفة في المعسكر الا بحضور الشاب المحبوب ، وينفوذه هو نفسه ، فاستفز الاجبالوس وأثاره هذا المثال الجديد لتعلقهم بأبن خالته واحتقارهم لشخصه ، ومن ثم أقدم الإمبراطور على معاقبة بعض قادة الفتنة . ولكن ثبت على الفور أن شدته التي جاءت في غير أوانها ، كانت وبالا على أتباعه وعلى أمه وعلى شخصه ، فقد ذبحه البريتوريون الساخطون ، وجروا جثته المشوهة في شوارع المدينة ، وألقوا بها في نهر التير . ووصم السناتو ذكراه بالعار الأبدى ، وصدق الاعتقاد على عدالة هذا القرار .

الاسكندر سيفيروس يتولى العرش

رفع الحرس البريتورى الاسكندر على العرش مكان الاجبالوس . وكانت علاقته بأسرة سيفيروس ، التي اتخذ اسمها لنفسه ، هي هي علاقة سلفه بها ، وعززت فضائله وخطره بالفعل مكانته لدى الرومان ، واغدى عليه السناتو المتلهف السخى في يوم واحد مختلف القاب وصلاحيات السدة الإمبراطورية ، ولكن لما كان الاسكندر شابا يافعا

متواضعا طيعا في سن السابعة عشرة ، فقد وضع زمام الحكم في أيدي
سينتين : أمه ماميا وجدته ماميسا . وبعد موت هذه الأخيرة التي لم تعمر
الا قليلا بعد توليه العرش ، بقيت ماميا وصية على ابنها وعلى
بلاد آل مسكيبو .

وكان أعقل الجسسين ، أو قل أقواهما ، في كل عصر وفي كل بلد ،
يغتصب سلطة الدولة ، ويحصر الجنس الآخر في مشاغل الحياة المنزلية
وملاهيها ، ومهما يكن من أمر ، ففي الملكيات الوراثية ، وخاصة في
أوربا الحديثة ، عودتنا روح الشهامة في الفروسية ، وقانون اعتلاء
العرش أن نسمح باستثناء واحد ، وكثيرا ما اعترف بامراء لتكون سيدة
مطلقة لمملكة عظيمة ، قد نحسب أنها غير قادرة على أصغر المهام المدنية
أو العسكرية . فلما كان الإباطرة الرومان لا يزالون يعتبرون القادة
والحكام في الجمهورية ، فإن زوجاتهم وأمهاتهم ، رغم تميزهن بلقب
« أوجستا » ، لم يشتركن قط في مهام الشخصية ، ولهذا ، ربما بدا
حكم النساء عى أنه هول لا يغفر في أعين الرومان البدائيين الذين
تزوجوا دون حب ، أو أحبوا دون لذة أو احترام . وتطلعت أجريپينا
Agrippina المتفطرسية ، فعلا الى المشاركة في أمجاد الامبراطورية التي
خلعتها على ابنها ، ولكن أطباعها الجنونية التي كرهها كل مواطن
يستشعر مكانة روما ، خابت أمام الحزم البارح الذي أظهره سينيكا
Seneca وبرهوس Burhus ومنع الأمراء المتعاقبين حسن ادراكهم .
أو قل استهتارهم ، من الاساءة الى الآراء غير الناضجة لرعاياهم ،
واحفظ للناجر الاجابالوس بأن يشين قرارات السناتو باسم أمه سواميا
التي اجلست جنباً الى جنب مع القناصل ، ومهتت قوانين الهيئسة
التشريعية بوصفها عضوا منتظبا . ورغضت أختها التي كانت اشد منها
حرصا وروية ، هذا الامتياز الكريه العقيم ، ومن قانون صارم استبعد
النساء من السناتو الى الأبد ، ونذر للآلهة الخبيثة رأس اللعين الذي
يخرق هذا القانون . وكان طمع الرجولة في ماميا يهدف الى جوهر
السلطة لا الى ابهتها وجمال منظرها . وكانت لها سيطرة مطلقة مستمرة
على عقل ولدها ، ولم تكن لتطيق صبرا على من يزاحمها في حبها له
وتعلقها به . وتزوج الا . كندر بموافقتها من ابنة أحد النبلاء ، ولكن
احترامه لصوره أو لزوج ، الامبراطورة لم يكن ليتفق مع حنان ماميسا
ومصلحتها . أما النبيل (الصهر) فقد أعدم بتهمة الخيانة المبررة ،
أما زوجة الاسكندر فقد أخرجت من القصر بالعار ثم نفيت الى أفريقية .
وعلى الرغم من هذا التصرف القاسي الذي ينم عن الحقد ، وغيره
من أعمال الجشع التي اتهمت بها ماميا ، فإن طابع ادارتها كان خير

ابنها وخين الامبراطورية سواء بسواء واختارت بموافقة السناتو ستة عشر من أرجح شيوخه عقلا وأفضلهم ، وشكلت منهم مجلسا دائما للدولة تناقش أماله أهم مسائل الساعة ويبت فيها ، وكان على رأسهم البيان Ulpian المشهور الذى تميز بحسن درايته وباحترامه لقوانين روما . وقد اعد حزم هذه الهيئة الأرستقراطية الحريصة المتبصرة النظام والسلطة الى الحكومة ، وسرعان ما طهر المدينة من الخرافة والبذخ الغسريين عنها ، أى مما خلفته نزوات طغيان الاجبالوس ، ثم لجأ الى ابعاد تلك المخلوقات الدنيئة من وظائف الادارة العامة ، واحل محلهم رجالا من نوى الكناية والفضل . وأصبح التعليم وحب العدالة هما المؤهلين الوحيدين للوظائف المدنية ، والشجاعة وحب النظام للوظائف العسكرية .

ولكن تكوين شخصية الامبراطور الصغير كان أهم ما يشغل بال مابيا ومستشاريها ، حيث كانت سعادة العالم الرومانى أو شقاؤه يعتمد فى النهاية عليها . وعاونت التربية الخصبة - أو قل الاستعداد الطيب - على الفراس ، بل كتبت ابدى الفارسين عن الافراط فى الجهد . ذلك أن الاسكندر سرعان ما اقنعه حسن الادراك بزايا الفضيلة ولذة المعرفة وضرورة العمل وبذل الجهد ، كما أن الطبيعة حبته رقة واعتدالا فى المراج عملا على حمايته من نزوات الانفعال واغواء الرذيلة ، كما وقى احترامه الذى لم يتحول لآله وتقديره للبيان الحكيم شبابه غير المجرب من مسموم الملل والنفاق .

ويبرز السجل اليومى لأعماله العادية صورة بهيجة لامبراطورون مهذب ، وقد تكون جذيرة ، مع التسامح فى بعض فوارق السلوك ، بأن يقلدها أمير حديث . كان الاسكندر يستيقظ من نومه مبكرا ، ويخصص وقت البكور لتمعنه الخاص ، حيث كان معبده فى القصر زائرا بصور أولئك الأبطال الذين ارتقوا بالحياة الانسانية أو اصلحوها ، ومن ثم استحقوا اجلال أممهم واعترافهم بجميلهم . ولكنه اعتبر خدمة الناس أكثر عبادة قبولاً لدى الآلهة ، فمضى معظم ساعات الصباح فى مجلسه ، حيث ناقش الشئون العامة ، وبت فى القضايا الخاصة ، فى صبر وحصالة تفوقان سنه ، وكانت روائع الأديب تخلف من شقوة العمل ، فقد كان دائما يخصص جزءا من وقته لدراساته المحببة فى الشعر والفلسفة ، وشكلت مؤلفات نرجيل وهوراس وجيهوريتا افلاطون وشيشرون ثوقه ووسعت مداركه ، وزودته بانبسل الفكر من الانسان والحكومة ، وسبغت رياضة جسمه الى رياضة عقله . وتفوق الاسكندر ، الطويل النشيط المقتول العضلات ، على لداته فى الألعاب

تفكر الإمبراطورة

الفصل السابع

(٢٣٥ - ٢٤٨ م)

امبراطور من المتبريرين • الجورديانيون • فيليب العربي

من بين مختلف أشكال الحكومة التي سادت العالم ، يبدو ان الملكية الوراثية ، هي التي تمثل النيق مجال جالهمز والسخرية . وهل يمكن القول ، دون ابتسامة ساخنة . انه عند موت الاب - تؤول ممتلكات الامة - وكأنها ارث من قطع من الثيران - الى ابنه الطفل الذي لم يعرفه الناس ، ولم يعرف هو نفسه بعد ، ومن ثم يتفحى أشجع المحاربين وأحكم السياسيين من حقهم الطبيعي في تولي الحكم ، ويقتربون من المهد الملكي راكمين مظهرين اخلاصهم المكين ؟ وقد يصور الهجو والنقد مثل هذه الموضوعات الواضحة بالوان تبهر العيون ، ولكننا قد نحترم ، في تفكير أكثر جدية ورزائة ، أى تحيز نافع يقرر قاعدة للتماقب على الحكم بعيدة عن أهواء الانسان . وسنرتضى بكل سرور أية وسيلة تحرم الجماهير من هذه السلطة المحفونة بالخطر ، والمثالية حقاً ، وهي سلطتهم في تنصيب سيد عليهم .

وقد يسهل علينا في استجملة هادئة ان نبتكر اشكالا خيالية للحكومة ، يسلم فيها الصولجان دائماً لأجدر فرد ، من طريق الانتخاب الحر النزيه للجماية بأسرها ، ولكن التجربة تهدم هذه التليفقات الوهمية ، وانها لتعلمنا ان انتخاب حاكم في مجتمع كبير لا يمكن قسط ان يؤول الى اعقل افراد الشعب أو الى أكبر جزء منه . والجيش هو الفئة الوحيدة من الرجال الذين يتحدون بدرجة كافية ليلتقوا بعضهم مع بعض في نفس المشاعر ، والذين تبلغ قوتهم حداً يستطيعون معه ان

يفرضوا هذه المشاعر على سائر مواطنيهم . ولكن طبيعة العسكريين التي الفت الضعف والاستعباد معا ، تجعلهم خراسا او حماة غير صالحين لأى دستور شرعى او حتى مدنى ، فالمعدالة او الانسانية او الحكمة السياسية انما هى صفات ليس لهم بها كبير دراية فيها بينهم وبين انفسهم ، الى حد أنهم لا يقدرونها فى الآخرين ، ان شدة البأس تكسب تقديرهم ، والسخاء يشتري اصواتهم . ولكن أولى هاتين الخلتين غالبا ما تكون مودعة فى اشد الصدور قسوة ، وليس للثانية وجود الا على حساب الشعب ، ويمكن ان تنقلب كلتاها على رأس صاحب العرش نتيجة لطمع منافس جرسور .

اما الامتياز الاسمى وهو امتياز المولد ، اذا توفر له ضمان من الزمن ومن رأى الشعب ، فهو أبسط الامتيازات واقلها أثارة للبغضاء لدى بنى الانسان . فان الحق المعترف به يهدم آمال الفتنة ، والطمأنينة الواعية تجرد الحاكم من قسوته . وانا لمدنيون بالتوارث السلمى للعرش فى الملكيات الاوربية وباداتها الواحدة . اما ما يشوب هذه الفكرة من نقص فلا بد لنا ان ننسبه الى تلك الحروب الاهلية الكثيرة التى يضطر فيها حاكم يستبد مطلق من آسيا ، الى ان يشق طريقه نحو عرش آبائه . ان مجال التصارع حتى فى الشرق ، محصور عادة فى امراء البيت المالك ، وجالما يقضى المنافس الذى هو اسعد حظا على اخوته بمسد السيف او بالقوس والنشاب ، فانه لا يعود يستشعر أى حق او غيره من رعاية الذين هم ادنى مرتبة . ولكن بعد موت سلطة السناتو الى الحضيض اصبحت الامبراطورية الرومانية مسرحا للفوضى والاضطراب ، وسيفت الاسرات الملكية وحتى الاسرات النبيلة فى الولايات لمهد مايل سونا ظاهرا امام مجلة الجمهوريين المتعالمين . وسقطت الاسرات القديمة فى روبا صريعة طغيان القياصرة . وبينما قلت ايدى اولئك الامراء باشكال الحكومة الجمهورية (الحكم الذاتى) فى مجموعة الامم الرومانية ، وخابت آمالهم بما اصاب ذريتهم من فشل متكرر ، كان من المتعذر ان تتأصل جذور فكرة التوارث فى اذهان رعاياهم . فادعى كل حق العرش لنفسه جدارة واستحقاقا ، لأن احدا لم يستطع ان يطالب به بحق المولد . وتحللت آمال المطامع الجامحة من القيود السلمية للقانون ، ومن ثم قد يتعلق أحط بنى الانسان ، دون ان يكون فى ذلك أى حسق من جانبه . يتعلق بأهداب الأمل فى ان ترفعه شجاعته وحظه الى مرتبة فى الجيش ، حيث تمكنه جريمة واحدة يقتربها من انتزاع صولجان الملك من سيد ضعيف غير محبوب . وبعد قتل الاسكندر سيفيروس واعتلاء مكسيمين Maximin لم يعد أى امبراطور يظن انه آمن فسوق عرشه ،

وربما تطلع كل فلاح من المتبريرين على الحدود الى هذا المركز الرفيع
المحفوظ بأخطر — الى العرش .

وقبل هذا الحادث بنحو اثنتين وثلاثين سنة ، توقف الإمبراطور
سيفيروس ، وهو هائد من حملته في الشرق ، في تراقيا ، ليحتفل بعيد
ميلاد ابنه الأصغر جيوتا ، بإقامة بعض الألعاب العسكرية ، وجاء الناس
افواجا ليشهدوا مليكهم ، وبرز من بينهم شاب من المتبريرين ، ضخم
الجسم وتوسل في لهجة خشنفة أن يسمح له بالاشتراك في حلبة المصارعة
بغية الحصول على الجائزة . وخيف آنذاك من امتحان النظام واختلاله
إذا تغلب فلاح من تراقيا على جندي روماني ، فسمح له بدخول
المباراة مع أقوى رجال المعسكر ، فطرح منهم ستة عشر على الأرض
تباعا ، ولكنه كوفى على فوزه ببعض جوائز تافهة ، وبالسباح له
بالأنخراط في سلك الجيش . وفي اليوم التالي أظهر المتبرير السعيد
امتيازاً وتفوقاً على حشد من أقرانه المجندين حين كانوا يرقصون
ويعمرحون وفقا لتقاليد بلدهم ، وما أن أدرك أنه قد جذب انتباه
الإمبراطور حتى لحق في الحال بجواده ، وجرى وراءه في سرعة فائقة
لمسافة طويلة دون أن يظهر عليه أى أثر لاجهاد أو كلل . فقال سيفيروس
في دهشة : « أيها التراقي ، هل تميل الى المصارعة بعد هذا السباق ؟ »
فاجاب الشاب الذي لم يكن قد نال منه التعب بعد : « بكل سرور
يا سيدي » . وفي طرفة عين صرع سبعة من أقوى الجنود في الجيش ،
فكان جزاؤه على نشاطه وبأسه الذي لا يبارى طوقاً من الذهب ، وعين
في الحمال في الحرس الراكب الذي يلزم الملك نفسه .

وانحدر مكسيمين — وهذا هو اسمه — من عرق مختلط من
المتبريرين ، ولو أنه ولد بالفعل في بقعة من بقاع الإمبراطورية . وكان
والده من القوط ، ووالدته من أمة الغلاني ، وقد أظهر في كل مناسبة
جراً تتعادل مع قوته . وسرعان ما خفت حدة شراسته الفطرية
أو استقرت ، بازدياد معرفته بالعالم . وحصل على مرتبة « ضابط
مئة » في حكم سيفيروس وولده ، مع تقديرها له وعطفا عليه ،
حيث كان أولهما حكما ممتازا على البدارة والموهبة ، ومنع مكسيمين
عرفانه للجميل من اللحاق بخدمة قاتل كاراكلا ، وعلمه الشرف أن يتزده
عن اساءات الاجابالوس المخنثة ، وعاد الى البلاط عند اعتلاء الاسكندر
العرش ، فوضعه الأمير في مركز يمكن أن ينتفع فيه بجهوده ، وهو كذلك
مشرف لشخصه ، وسرعان ما أصبحت الفرقة الرابعة التي عين فيها في
وظيفة تربيون ، احسن فرق الجيش نظاما بفضل عنايته . ونتيجة

لامتداح الجنود له ابتداحاً عاماً شاملاً. — حتى لقد أضفوا عليه لقب
أجلكس وهرقل ، بلغ مكسيمين أرفع مرتبة عسكرية . ولولا أنه ظل
محتفظاً بشيء كثير من أرومته الوحشية ، فلربما زوج الإمبراطور أخته
من ابن مكسيمين .

ومثلت هذه الرعية والمنن على اذكاء روح الطمع — بدلاً من الإبقاء
على الاخلاص والولاء ، في قلب غلاخ تراقيا ، الذي حسب أن حظه
لا يكافئ استحقاقه ، طالما أكره على الاعتراف برئيس أعلى منه . ورغم
أنه كان دخيلاً على الحكمة الحقيقية ، إلا أنه كان له من دهائه الذاتي
ما أوضح له أن الإمبراطور قد فقد حب الجيش له ، وعلمه أن يعمل
على زيادة الاستياء في الجيش من أجل مصلحته هو (مكسيمين) .
وإنه لمن اليسير أن تنفث الوحشية والفتنة سُمومها في إدارة أحسن
الأمراء ، وأن تنهم فضائلهم عن طريق خلطها في دماء بترك الرذائل التي
تكون لها بها أقرب علاقة وأصفى الجنود مبتهجين إلى رسل مكسيمين .
وخلجوا لصبرهم المخزي لمدة ثلاث عشرة سنة ، ذلك الصبر الذي مكن
لهذا النظام الملىء بالمضايقات . والذي فرضه عليهم هذا السوري
المخنث ، والعبد الجبان لأمه وللسناتو ، وهنا ارتفعت أصواتهم بأنه
قد حان الوقت ليقتفوا بهذا الشبح العظيم ، شبح السلطة المدنية ،
وينتخبوا كأمير وقائد لهم جندياً حقيقياً تعلم في المعسكر وتدرس في
الحرب ، يستطيع أن يؤكد مجد الإمبراطورية ويوزع عليهم كنوزها .
وكان هناك آنذاك جيش متجمع على خلف الراين تحت قيادة
الإمبراطور نفسه ، الذي اضطرب بعد موافته من الحرب الفارسية إلى أن
يتقدم نحو المتبربرين في ألمانيا . وكانت مهمة تدريب الجنود واستعراض
الفرق الجديدة — وهي مهمة خطيرة — موكلة إلى مكسيمين . فلما
دخل هذا ذات يوم ميدان التدريب ، ما كان من الجنود ، نتيجة
دافع مناجيء أو مؤامرة مدبرة ، إلا أن رحبوا به إمبراطوراً ، وأسكتت
هتافاتهم العالية رفضه العنيد ، وأنهوا ثورتهم بقتل الإسكندر
سيفيروس .

واختلفت الروايات في ظروف موته ، فيقول الكتاب الذين يظنون
أنه مات وهو يجهل مطامع مكسيمين وجووده ، أنه أوى إلى فراشه
بعد أن تناول وجبة بسيطة من الطعام على مرأى من جيشه وأنه في
الساعة السابعة صباحاً ، اقتحم جزء من الحرس الخيمة الإمبراطورية ،
وظعنوا أميرهم الفاضل المطمئن عدة طعنات حتى مات . وإذا كان لنا أن
نصدق كاتباً آخر ، وقد تكون روايته في الواقع أرجح ، فإن ثلة كبيرة
من الجيش ، على مسافة عدة أميال من مقعر القيادة ، قد خلعت على

مكسيمين الحلة الامبراطورية ، وانه كان على ثقة من النجاح نتيجة
للرغبات الخفية ، أكثر منه للاعلان العام للجيش الكبير . وكان لدى
الاسكندر وقت كاف ليقاظ شعور هزيل من الولاء في قواته ، ولكن
أقراهم بالاخلاص سرعان ما تبدد لدى ظهور مكسيمين الذي اعلن
نفسه صديقا ونصيرا للعسكرية ، واعترفت به القوات المصفقة بالاحيان
امبراطورا على الرومان ، فما كان من ابن مابيا ، المنبوذ المبدور ، ازاء
ذلك ، الا ان انسحب الى خيمته ، وهو راغب على الاقل في الاعتماد
بمصيروه المقرب من اهانات الجيوش المحتشدة . وبسرعان ما تبعه
تربيون وبعض ضباط المئات - وهم رسل الموت ، ولكنه بدلا من تلقى
الضربة المحتومة بعزيمة الرجال ، تاملت مرخاته وتوسلاته العتيبة
لمشوهت آخر لحظات حياته ، وحولت الى احتجاز جزءا من الاشفاق
الصادق الذي كانت توحى به براعته وفكياته . اما أمه مابيا التي انهم
كبريالاها وجشعها بأنهما سبب دبلره ، فقد هلكت مع ابنها ، وراح
أصدق استحقاقه ضحية الفورة الأولى للجشود ، وأبقى على آخرين
ليكونوا طلعاما مقصودا لتسوية الغاصب . أما هؤلاء الذين لقوا أرق
المعاملة فقد فصلوا من وظائفهم ، وأبعدوا بطريقة مخزية عن البلاط
والجيش .

لقد كان الطغاة السابقون جميعا : كاليجولا ، ونيرون ، وكومودس ،
وكاراكلا - شبانا منطليين غير مجربين ، تلقوا تعليمهم في أحضان العز
وأبهة الملك ، وأفسدهم زهو الامبراطورية وبذخ روما وصوت المسق
الغدار . ولكن تسوية مكسيمين كانت من منبع آخر ، ذلك هو الخوف
من الازدراء به . فانه رغم ملازمته للجنود الذين أحبوه لما يتطلى به من
مضائل من جنس فضائلهم ، كان يعرف أن أصله المتبربر الوضيع
ومظهره الوحشي وجهله المطبق بفنون الحياة المدنية ونظمها ، كل أولئك
شكل مفارقة شديدة جدا مع الخلق الرضي المحبوب عند الاسكندر
التمس . وتذكر انه أيام حظه المتواضع كثيرا ما كان يقف على ابواب
أشراف روما المتفطرين ، وقلما كانت تسمح له وقاحة عبيدهم
بالدخول . كما تذكر صداقة أمراء قلائل انتشلوه من وهدة الفقر ،
ومدوا يد المساعدة لأماله المفتحة ، ولكن هؤلاء الذين ترسموا عن ملاح
تراقيا ، وهؤلاء الذين بسطوا له أجنحة الحماية والرعاية - كانوا
مذنبين لجريمة واحدة بعينها ، تلك هي معرفتهم بوضاعة منبته وخمول
فكره أصلا . وسيق الى الموت بهذه الجريمة كثيرون ، وكانى بمكسيمين ،
وقد أعدم كثيرا من المحسنين اليه ، قد سطر بالدم صفحات تاريخ
خسسته وجحوده .

وكانت نفس الطاغية المظلمة الجوانب المتعطشة للدم مفتحة لاية ربية تحوم حول أولئك الذين ارتفعت أقدارهم بحكم مولدهم أو مواهبهم من بين رعاياه ، فلم يطرق سبمه يوما نذر خيانة الا آمن في القسوة بلا حدود وبلا رحمة . واكتشف ، أو توهم ، يوما ، مؤامرة على حياته قيل ان مدبرها هو ماجنس Magnus السناتور القنصل ، ودون شهود أو محلكة أو فرصة للدفاع أعدم ماجنس وأربعة آلاف ظن انهم مقواطئون معه . وملئت ايطاليا والامبراطورية بأسرها بالجواسيس والمخبرين . وكان أنبل الرومان الذين حكموا الولايات وقادوا الجيوش ومنحوا أرفع أوسمة القناصل والانتصارات يساقون مكبلين في الأغلال في العربات العامة ليعجل بهم الى حضرة الإمبراطور . وكانت مصادرة الأموال أو النفي أو مجرد الموت ، تعتبر أمثلة شاذة لرفقه ورافته ، فقد كان يأمر بأن يخاط بعض هؤلاء المعنبيين المنكودين داخل جلود الحيوانات المذبوحة ويلقى بأخرين الى الحيوانات المفترسة ، ويضرب لمريق آخر بالنبأيت حتى الموت . ورفض طوال سنين حكمه الثلاث أن يزور روما أو ايطاليا ، وكان ممسكه الذي ينتقل من حين الى حين بين ضفاف الراين والدانوب هو مقر حكمه المطلق الكالج الذي داس كل مبادئ القانون والعدالة ، والذي كانت تدعمه قوة واحدة معترف بها هي قوة السيف . ولم يطق أن يرى الى جانبه رجلا كريم المحتشد ، أو ذا أعمال جليلة ، أو ذا دراية بالشئون المدنية . وبمقت حاشية إمبراطور الرومان الفكرة القديمة من رؤساء العبيد والجلادين ، الذين خلقت قوتهم الوحشية أثرا عميقا من الارهاب والكرهية .

وطالما كانت نسوة مكسيين مقصورة على مشاهير رجال السناتو ، أو حتى على المفاهيرين الجسورين في الجيش أو البلاط ، الذين عرضوا أنفسهم لنزوات الحظ ، فقد نظر جمهور الشعب الى ما يكابدونه في استهتار ، أو قل في سرور ومرح ، ولكن رغبات الجنود التي لا تشبع أهاجت جشع الطاغية حتى سطا في النهاية على الأموال العامة . ذلك أنه كان لكل مدينة في الامبراطورية مورد مستقل مخصص لشراء الخلال من أجل الجمهور ، أو لتغطية نفقات الألعاب والحفلات ، فعمد الطاغية بقرار واحد من قرارات السيادة الى مصادرة كل الثروة في الحال لمصلحة الخزانة الامبراطورية . فانتزع من المعابد اثنى الهدايا والقرايين من الذهب والفضة ، وصهرت تماثيل الآلهة والأبطال والإباطرة وسكت نقودا . ولم تنفذ هذه الأوامر المفاجرة دون شغب أو مذابح ، حيث أثر الشعب في أماكن كثيرة أن يموت دفاعا عن معابده ، على أن يرى المدائن معرضة في هدوء للسلب والنهب وفظائع الحرب . وحتى الجنود الذين

وزعت عليهم هذه الأسلاب المدنسة تقبلوها في خجل ، كما أوجسوا خيفة ، وهم الذين تحجرت قلوبهم بأعمال العنف ، من التائب العادل من أصحابهم وأقربائهم ، ودوت في العالم الروماني صيحة الاستياء العام ، تهيب بالانتقام من العدو المشترك للجنس البشرى ودفعت إلى الثورة دفعا ولاية ممسالة عزلاء من السلاح ، بسبب قرار ظالم خاص بها .

ذلك أن مراقب أمريقية كان خادما يليق لمثل سيده الذي اعتبر قهريم الأثرياء ومصادرة أموالهم من أغنى مصادر الدخل الإمبراطوري . وصدر ضد جماعة من الشبان الأثرياء حكم جائر ، لو تم تنفيذه لتجردوا من الجزء الأكبر من ثروتهم . وفي غمرة اليأس صح عزيمتهم على أمر قد يكون فيه انتقامهم أو القضاء المبرم عليهم . ذلك أنه أمكنهم الحصول بعد لأي من الصراف الجشع على مهلة قدرها ثلاثة أيام جمعوا فيها عددا كبيرا من العبيد والفلاحين من ضياعهم ، وهؤلاء العبيد والفلاحون ينصاعون لأوامر سادتهم انصياعا أعمى ، ويحملون أسلحة ساذجة من النشابيت والبلط ، فلما سمح لزعماء المؤامرة بالدخول على الحاكم ، أعللوا فيه الطعن بخناجرهم المخبأة تحت ملابسهم واستطاعوا بمعونة الجوع المشاغبة أن يستولوا على المدينة الصغيرة تسدروس *Thysdrus* (كانت سوقا تجارية في تونس) ورفعوا راية العصيان ضد سيد الإمبراطورية الرومانية ، وبنوا آمالهم على كراهية الناس لمكسيين . فاعتزموا في فطنة وترو أن يضربوا الطاغية البغيض بالإمبراطور حظيت مزاياء فعلا بتقدير الرومان وحبهم ، كما أن سلطانه في الولاية لأبد وأن يضنى على المشروع وزنا وتمكينا ، لقد وقع اختيارهم على جورديانوس — البروقنصل ، ولكنه رفض في إباء خالص لا تصنع فيه ، هذا الشرف المحفوف بالخطر ، وتوسل اليهم وهو يخرف الذبح أن يسمحوا له بأن ينهى حياته الطويلة البريئة في هدوء دون أن يطلع أيابه الأخيرة بسلم الإنسان ، ولكنه — أزاء تهديداتهم — قبل الحيلة الإمبراطورية ، والحق أنه لم يكن إلا القبول ملجأ له من قسوة مكسيين الحاقدة ، تمشيا مع منطق الطغاة الذي يقول : أنها يستحق الموت من هم في نظر الناس جديرون بالعرش ، أما أصحاب العقول المفكرة لهم في نظره ثوار . »

الجورديانيون

كانت أسرة جورديان من أبرز الأسر في المستنقعات الروماني . ويمتد أصله من جهة أبيه إلى جراكى ، ومن جهة أمه إلى الإمبراطور تراجان ، وكانت له ضيعة كبيرة مكنته من تدعيم كرم محتده ، وقد أظهر في مباشرتها ذوقا عاليا ونزعة خيرة . وكانت أسرة جورديان ، لعدة أجيال مالكة لقصر روما الذى سبق أن اقام فيه بومبي الكبير ، وكسان القصر مشهورا بالانصاب التذكارية القديمة للانتصارات البحرية ، ومزدانسا بالرسوم الحديثة . أما فيلا جورديان - على الطريق إلى برانست Pareneste فقد اشتهرت بحماماتها الفريدة في جمالها واتسامها ، وبثلاث حجرات ضخمة طول الواحدة منها مائة قدم ، وبرواق ضخم مقام على مائة عمود من أعلى وأروع أنواع الرخام الأربعة . وكان يبدو أن الحفلات التى اقيمت على نفقته الخاصة ، والتى ظهر فيها مئات من المجالدين والحيوانات المتوحشة ، تتجاوز حدود ثروة فرد من الرمية . وعلى حين لم يتعد سخاء الحكام الآخرين اقلية بعض حفلات وتصوره في روما ، تكررت حفلات جورديان الضخمة مرة كل شهر في روما عندما كان مكلفا بالأشغال العامة ، وامتدت إلى مدن إيطاليا الرئيسية عندما كان تنصلا ، وقد رفع إلى هذه المرتبة مرتين على عهد كاراكلا والاسكندر ، لأنه كان ذا موهبة خارقة في كسب تقدير الأمراء الأفاضل ، دون أن يثير حفيظة الطغاة . وقضى حياته الطويلة ببساطة في دراسة الآداب وفي الأعمال السلبية الجيدة في روما ، ويبدو أنه رفض في حرص قيادة الجيوش أو حكم الولايات ، حتى حين « بروقنصل » في أفريقية بناء على رأى السناتو وموافقة الاسكندر . وكانت أفريقية سعيدة طوال حكم الاسكندر ، تحت ادارة مثله المتنازة فلما اغتصب مكسيين المنبر المرش . خفف جورديان من أمر المصائب التى كان عاجزا عن ودها . وكان عمره ، يوم قبل الحلة الإمبراطورية على مضض ، أكثر من ثمانين عاما ، فكان آخر خلف عظيم من عهد الانطونيين الزاهى ، الذى أحيا هو فضائله في سلوكه الخاص ، وخلد ذكرها في قصيدة ماهرة سجلها في ثلاثين كراسة . ومع البروقنصل المحترم أعلن ابنه إمبراطورا كذلك ، وكان يرافقه أباه من قبل بوصفه نائباً له . وكان سلوكه أقل نفاوة ، ولكن شخصيته محبوبة مثل أبيه ، وكانت له اثنتان وعشرون خليفة معترف بهن ، كما كانت لديه مكتبة تضم اثنتين وستين ألف مجلد ، مما يدل على تنوع ميوله ، ويتضح من الانتاج الذى تركه وراءه أن الخليلات والكتب كانت تخدم غرضا ، أكثر منها لمجرد التباهى والتظاهر . وتبين الشعب الروماني في ملامح جورديان الصغير شبه سكيبيو الأفريقى

وتذكروا في ابتهاج أن امه كلثت ابنة انطونينوس بيوس الكبرى ، وعقدوا
الآمال على هذه المزايا الكاثنة التي ظلت — كما حلا لهم أن يتمسكوا —
مختفية حتى الآن بين طيات الخمول المترف في حياة خاصة .

ونقل الجورديانيون بلاطهم الى قرطاجنة ، حالما أخذوا الهياج في
اول انتخايب شعبي . واستقبلتهم هتافات الأفريقيين الذين مجدوا
فضائلهم . والذين لم يشهدوا منذ عهد هادريان مظلة امبراطور روماني .
ولكن هذه الهتافات العقيمة لم تقو ولم تثبت لقب الجورديانيين . وكانوا
مدفوعين بحكم المبدأ وبحكم المصلحة معا الى التماس موافقة السناتو ،
ومن ثم أرسل دون ابطاء ، وفد من علية القوم في الولاية ، الى روما
ليروى القصة ويبرر تصرف مواطنيه الذين صبوا في النهاية على العمل
في عزم وشدة ، بعد أن صبروا على الشقاء طويلا . وكانت رسالتك
الأميرين الجديدين متواضعة وقورة ، تلمس العفو للضرورة التي
الجأتها الى قبول اللقب الامبراطوري ، مع اخضاع انتخايبها
ومصيرها للرأى الأعلى للسناتو .

ولم يشب اتجاهات السناتو أى شك أو انقسام ، فان المولد
والروابط الكريمة قد وثقت العلاقة بين الجورديانيين وبين المح بيونات
روما . وقد خلق ثراؤهم اتباعا كثيرين لهم في المجلس . كما جذبت
مواهبهم اليهم اصديقاء كثيرين ، وساعدت ادارتهم المعتلة على التطلع
البراق الى استعادة — لا الحكومة المعنية فحسب ، بل الحكومة
الجمهورية كذلك . وانك لتجد الآن ان ارهاب العنف العسكري —
الذى أرغم السناتو في البداية على نسيان قتل الاسكندر والتصديق
على انتخايب ملاح متبرير — قد أتى بنتيجة عكسية ، وحفز على تأكيد
حقوق الحرية والانسانية التي سبق اهدارها والاساءة اليها . حيث
كانت كراهية مكسيمين للسناتو سافرة لا تفت ، ولم يكن أرق الوان
الخضوع ليخفف من حدته ، كما لم تكن البراءة الحفرة لتزول شكوكه ،
بل ان حرصهم على سلامتهم أغراهم بالاسهام في مشروع يثقون في
أنهم سيكونون أول ضحاياها اذا لم يكتب له النجاح . وكانت هذه
الاعتبارات وربما غيرها ، مما قد يكون لها طبيعة أخصى ، قد نوقشت
في مؤتمر سابق للقناصل والحكام . ولما انتهوا من وضع قرارهم ، دعوا
السناتو بكامل هيئته الى الاجتماع في معبد كاستور Castor ، طبقا
لتقليد قديم من السرية ، وذلك لاثارة انتباههم وكتمان قراراتهم . وقال
القنصل سلانوس Syllenus : « ايها الأعضاء : ان الجورديانيين
— وكلاهما من مرتبة القنصل : بروقنصل ونائبه — قد أعلنهما أفريقية
امبراطورين بموافقة عامة » . وأضاف في جراءة : « فلنقدم الشكر الى

ثياب تسيدروس Thysdrus ولشعب قرطاجة المخلص ، وهم متقذون
أفكار من الملوك الرهيب . لماذا تصفون الى بفتور وفي جبن هكذا ؟
ولماذا تلقون هذه النظرات القلقة بعضكم على بعض ؟ فيم تترددون ؟
إن مكسيمين عدو للشعب ، ولتنقض عداوته بالقضائه ، ولننعم طويلا
في ظل روية وتبصر جورديان الأب وغبطته ، وفي ظل عزم جورديان
الابن ووفائه » . وأحييت حماسة المنصل الكريمة روح السناتو
الخامدة ، وصدق بالاجماع على قرار انتخاب الجورديانيين . وأعلن أن
مكسيمين وابنه وأتباعه أعداء لبلادهم . ووعد بمكافآت سخية لمن يجد
في نفسه الشجاعة ويؤاتيه الحظ للقضاء عليهم .

وفي أثناء غياب الامبراطور بقيت فرقة من الحرس البريتوري ، في
روما لتحمي العاصمة او بالاحرى لتتولى زمام السلطة فيها . وتميز
أخلام فيناتوس ، رئيس حرس مكسيمين ، بخفته ومسارعته الى
اطاعة الاوامر القاسية للطاغية ، بل في التحيلولة دونها . والحق أن موته
(رئيس الحرس) كان الوسيلة الوحيدة لانقاذ سلطة السناتو من
التوقف ، وانقاذ حياة أعضائه من الخطر المحقق بهم . وقبل أن يذبح
السناتو قراراته ، وكل الى خسابط من الفرسان وبعض الثرييون
الاضطلاع بهمة القضاء على نحياته الفانية ، ووقفوا في تنفيذ هذا الأمر
في جراحة لا يعدها الا توفيق السناتو وجراته في القرار الذي اتخذته .
ثم جروا في الشوارع بخناجرهم الملطخة بالدماء في أيديهم يعلنون
للشعب وللجيش أبناء الثورة السعيدة ، وضاعفت الوعود بأغداق المال
والأرض من الحماس للحرية ، وحطمت تماثيل مكسيمين ، رافرت
العاصمة في فرح واحتجاج سلطة الجورديانيين والسناتو ، وحذت بقية
مدن إيطاليا حذو العاصمة .

وظهرت روح جديدة في هذا المجلس الذي ميل صبره الطويل
بالاستبداد الرهيب والنوضى العسكرية . وتسلم السناتو مقاليد الحكم ،
واستمد في جراحة هائلة لتأييد قضية الحرية بقوة السلاح . وكان من
السهل اختيار عشرين من بين الشيوخ القناصل الذين كانوا مقربين لدى
الامبراطور الاسكندر بسبب مواهبهم وخدماتهم ، ممن يضارع بعضهم
بعضا في القدرة على قياد الجيوش وإدارة الحروب ، وقد عهد الى
هؤلاء بالدفاع عن إيطاليا . وعين كل منهم ليعمل في دائرة معينة ، وخول
تجنيد شباب إيطاليا وتنظيمه ، وأمر بتحسين الموانئ والطرق ضد أي
غزو متوقع من جانب مكسيمين ، واختير عسدد من النواب من أبرز
شخصيات السناتو والضباط ، وأوفدوا في نفس الوقت الى حكام

الولايات المختلفة يناشدهم أن يسارعوا إلى تجديدهم ، ويذكرون
الأمم بروابط الصداقة القديمة بينهم وبين السناتو والشعب الروماني .
ويدل الاحترام العام الذي قوبل به هؤلاء المبعوثون ، وتحسن إيطاليا
والولايات للسناتو ، على أن رعايا مكسيمين قد اشتد بهم الكرب إلى
حد غير عادي ، أصبح معه جمهور الشعب يخشى الجور والظلم أكثر
مما يخشى المقاومة . وقد أذكى الشعور بهذه الحقيقة المريرة الأليمة
روح المثابرة على الهياج والغضب ، بدرجة قل أن توجد في مثل هذه
الحروب الأهلية التي تشعل نيرانها بطرق مصطنعة لمصلحة بعض
الزعماء المدبرين المشاغبيين .

ولكن بينما قوبلت قضية الجورديانيين بحماس شامل ، نجد أنهم هم
أنفسهم لم يعد لهم وجود ، فقد روع بلاط قرطاجه الضعيف بالتقدم
السريع لحاكم موريتانيا : كابليانوس Capellanus الذي شن بعصاة
صغيرة من المحاربين المحنكين وجيش متوخش من المتبرزين ، هجمه
على ولاية مخلصه ، ولكن غير محاربة . وخرج جورديان الأصغر للقاء
العدو على رأس عدد قليل من الحرس وجمهور غير منظم من تروا
في أحضان الترف والهذوء في قرطاجه . ولم تجد جرأته العقيمة إلا في
أنها هيات له مئة شريفة في ساحة الوفى . أما أبوه الشيخ المجور الذي
لم تتجاوز فترة حكمه سنة ولثلاثين يوما ، فإنه وضع حداً لحياته لدى
سبأه بأول أبناء الهزيمة . وفتحت قرطاجه الخالية من وسائل الدفاع
أبوابها للفتح ، وتعرضت الفريضة بأسرها لقساوة رهينة من عبد كان
لزما عليه أن يرضى ويشبع نهم سيده الذي لا يرحم ، بأكثر قدر من
الدم والمال .

اتبرى السناتو الآن لمقاومة مكسيمين ، وانتخب امبراطورين
مشتركين بيوبينوس Pupienus (ورد في كتاب جيون مكسيموس)
وبالبيينوس Balbinus واعد مكسيمين العسدة لدخول إيطاليا بطريقة
تعيد إلى الأذهان صورة غزوات المتبرزين .

تميز مكسيمين من الخيف حين تعاقبت الثورات في روما والفريضة
بهذه السرعة ، وقيل أنه لم يلق أبناء ثورة الجورديانيين وقرار السناتو
ضده بمزاج رجل ، بل بغضبة وحش مفترس عجز عن أن يصف جام
غضبه على السناتو البعيد عنه ، وهدد بالانتفاض على ابنه وأصدقائه
وكل من يجسر على الاقتراب منه ، وسرعان ما أعقب النبأ السعيد بموت
الجورديانيين ، التوكيد بأن السناتو - وقد ودع كل أمل في العفو
أو التوفيق ، قد وضع مكانهما امبراطورين آخرين لا يمكن أن يجهل

هو مواهبها وقدرتها . . ولم يبق لمكسيمين من عزاء الا الانتقام ، وليس من وسيلة للانتقام الا السيف . وكان الاسكندر قد جمع قواته من مختلف ولايات الامبراطورية ، وقد رنمت حملات ثلاث مظفرة ضد الألمان والسارماتيين من ذكر هذه القوات ودعمت نظامها ، بل حتى زادت من أعدادها عن طريق ملء المناصب بزهرة شباب المتبريرين . وكان مكسيمين قد قضى حياته في الحرب ، ولن يستطيع التاريخ في صراحته القاسية أن يغمطه حق في عزمة الجندي بل في مقدرة القائد المحنك . وكان من الطبيعي أن يتوقع من أمير على هذا الخلق — بدلا من السماح للثوار بتدعيم أنفسهم بمثل هذا الإبطاء — أن يسارع على الفور بمفادرة ضفاف الدانوب الى ضفاف التير . وان جيشه — وقد اغترته السخريه من السناتو ، وهزه الشوق والظف على جبع الأسلاب والغنائم من ايطاليا ، ليتحرق لها على انجاز هذه الغزوة اليسيرة الراحه . ولكن يبدو — قد ما نستطيع الركون الى التسلسل الغامض لتاريخ تلك الحقة — أن عمليات حرب خارجية أجلت الحملة الإيطالية الى الربيع التالي . وقد تبين من سلوك مكسيمين الذي يتسم بالروية والتبصر أن جوانب الوحشية والشراسة مبالغ فيها بدافع التحيز ، وأن مشاعره بها كانت عنيفة ، خضعت لقوة المنطق ، وأن الرجل المتبرير كان يتحلى بشيء من روح سلا Sylla الكريمة ، ذلك الذي أخضع أعداء روما قبل أن يسمح لنفسه بالثار لما لعق به هو نفسه من أذى .

ولما وصلت قوات مكسيمين — في نظامها الرائع — الى سنوح الالب البوليائية ، روعوا وذعروا للسكون والوحشة اللذين سادا الحدود الإيطالية . وهجر السكان القرى والمدن المفتوحة عند اقترابهم منها . كما انسحبت منها الماشية ، ونقلت المؤن وأطلقت ، ودمرت الجسور ، ولم يبق ثمة شيء يأوي اليه الغزاة أو يتبلغوا به . تلك كانت الأوامر الحكيمة الرشيدة التي أصدرها قواد السناتو ، الذين كان من خطتهم أن يطيلوا أمد الحرب ، ويحطموا جيش مكسيمين بالمجاعة ويستنزفوا قوته في حصار المدن الرئيسية في ايطاليا ، وقد زودت هذه المدن بالوقود من الرجال والمؤن من البلاد المهجورة . وتلقت اكويليا أول ضربة وتمسدت لها . وفاضت بذوبان ثلوج الشتاء الجاري المائية التي تخرج من أعالي رأس بحر الأدرياتيک ، وشكلت عقبة غير متوقعة أمام جيش مكسيمين ، ولكنه في النهاية ، وعلى جسر واحد أقيم بصعوبة وبمهارة وفن ، من البراميل الكبيرة ، نقل جيشه الى الضفة المقابلة ، واقتلع الكروم النجيلية ، في ضواحي اكويليا ، وهدم الضواحي واستخدم أخشاب المباني في الآلات والأبراج التي هاجم بها المدينة من كل جانب .

وكانت الأسوار آيلة الى السقوط لطول عهدها بالأمن. والسلام ، فجرى
تربيمها على عجل لمناسبة هذه الضرورة المفاجئة ، ولكن الحق ان اصلب
دفاع عن المدينة يكمن فى ثبات اهلها ، فان الخطر المصدق بهميم ،
ومعرفتهم بمزاج الطاقية الذى لا يرحم — بدلا من أن يزوعهم ويفزعهم —
ايقتلهم واليهيم على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم ، وكان كرسينوس
Crispinus ومينوفيلوس Menophylus — وهما من نواب السناتوس
العشرين — يدعمان شجاعتهم ويوجهاتهما ، وقد استطاعا بقوة صغيرة
من الفرق النظامية أن يلقوا بأنفسهم وسط المكان المحصور . وحد
جيش مكسيمين فى هجمات متكررة ودبرت آتاه بما اطروها به من
نيران صناعية . وارتفع الحماس الكريم الذى هم اهل اكويلى الى ثقة
بالنصر حين وقر فى اذهانهم أن بيلينوس Belenus الاله الحارس ،
قاتل بنفسه دفاعا عن عبادة المكرويين .

ونظر الامبراطور مكسيموس الذى كان قد وصل الى رافنا Ravenna
ليستحوذ على هذا المكان الهام ويعجل بالاستعدادات العسكرية —
نظر الى قيام الحرب ، بمنظار أكثر اخلاصا وأمانة ، بمنظار المنطق
والسياسة . فادرك كل الادراك أن أية مدينة واحدة لن تستطيع أن
تقاوم الجهود الدائبة لجيش كبير . كما خشي أن يفض العدو الذى
سئم مقاومة اكويلى الحصار العقيم فجأة ، ويسير قدما نحو روما .
ومن ثم يعتمد مصير الامبراطورية ومصير قضية الحرية على نتيجة
معركة ، وأية قوات يمكن أن تتحدى وتتحدى لفرق الراين والدانوب
المحنكين ؟ لقد جندت بعض الفرق حديثا من شباب ايطاليا البكر
المنهوك ، كما كانت هناك قوات مسامدة من الألمان من الخطر أن يوفق
بصمودهم فى ساعة المسرة . وفى وسط هذا الذعر والفزع ، كانت
مؤامرة داخلية لمكسيمين ضربة كانت هتقا وفاقا لما اقترب من جرائم ،
وخلصت روما والسناتوس من الكوارث التى كان من المحقق أن تحصل فى
اعقاب انتصار المتبريد الغاصب .

نلك ان اهل اكويلى الذين لم يذوقوا بالكاد ويلات الحصار المألوفة
كانت حوانيتهم مزودة خير تزويد وأوفره . كما أمحتهم النافورات
الموجودة داخل الأسوار بهمين لا ينضب من الماء العذب . وعلى النقيض
من ذلك كان جنود مكسيمين ، الذين تعرضوا لقسوة الطقس ، وعدوى
المرض وارهاب المجاعة . وخرب الريف المكشوف المنبسط ، وإماتات
الأنهار بجثث القتلى ، وتلوث مياهها بدمائهم وبدأت روح اليأس
والكراهية تنتشر بين الفرق ، ولما كانوا منقطعين انقطاعا تاما غير
الاخبار ، فقد سهل عليهم أن يصدقوا أن الامبراطورية بأسرها وقفت

صف السناتو . وانهم قد تركوا ضحايا هالكة يقضون نحبهم تحت أسوار
أكوليا التي يتعذر اختراقها . وهاجت شراسة الطاغية للخيبة والياس
الذين نسبها الى جبن الجيش . واثارت مشوونه الرهيبة التي لا تتحيز
الوقت المناسب - كراميته ورغبة صداقة في الانتقام ، بدلا من ان
تقضى على الفزع والرعب . وفنذ جماعة من الحرس البريتورى - كانوا
يرتعدون خوفا على زوجاتهم وأولادهم في معسكر البيا قرب روما -
حكم السناتو . ولما قطي عن مكسيمين حراسه ، ذهب في خيمته مع ابنه
(الذى كان رشحه للسدة الامبراطورية) وانولينوس Anulinus
رئيس الحرس ، ووزراء الطاغية الاساسيين . واقتعت رعوسهم المعلقة
على الحراب اهل أكوليا بان الحصار قد انتهى . وفتحت ابواب المدينة
واقامت موائد سخية لفرق مكسيمين الجائعة وشارك الجيش بأسره في
اعلان الولاء في هبة ووقار للسناتو ولشعب روما وللإمبراطورين
الشرعيين مكسيموس وبالبينوس . وكان هذا هو المصير الجدير
بوحش كابر ، مجرد كما كانوا يمثلونه دائما ، من أية عاطفة يتميز بها
انسان متمدين ، أو قل أى انسان كائنا من كان . وكان جسمه يتفق
مع نفسه ، فقد جاوزت قامة مكسيمين ثمانية أقدام ، وقد روى ما لا يكاد
يصدق من قوته وشهيته في الأكل ، ولو أنه عاش في عصر أكل استنارة ،
لمنته الثقايد والأشجار على انه شيطان مارد استخدم قوته الخارقة في
تحطيم البشر .

ومن اليسير أن نترك ، أكثر من أن نصف ، ما غم دنيا الرومان
من فرح وسرور لسقوط الطاغية . وقيل ان وصول ابنائه من أكوليا الى
روما استغرق أربعة ايام . وعاد مكسيموس في موكب ظافر ، وخف
لاستقباله زميله جورديان الأصفر ، ودخل الأمراء الثلاثة العاصمة ،
وفي ركبهم مبعوثو كل مدن ايطاليا تقريبا . وقد استقبلوا بأروع مظاهر
التقدير والتقدير وأصدق هتافات السناتو والشعب ، الذين منوا
انفسهم بان عصرا ذهبيا سيمقب عصر الحديد . والحق ان سلوك
الامبراطورين كان يلتئم مع هذه التنبؤات . فقد توليا القضاء
شخصيا ، وخفف حلم الواحد منهما من عنف الآخر . وقد ألغيت ، أو على
الأقل عدلت الضرائب الجائرة التي كان مكسيمين قد فرضها على حقوق
الوزراء والأهلولة ، وأعيد النظام ، وسن الوزراء الإمبراطوريون بمشورة
السيناتو خيرا من القوانين الحكيمة محاولين بذلك اقامة دستور مدنى
على انقاض الطغيان العسكرى . وسال مكسيموس يوما في جو مشبع
بالحرية والثقة : « أى جزاء تنتظر من وراء تخليص روما ؟ » فكان
جواب البينوس بلا تردد : « حب السناتو والشعب والجنس البشرى

بأسره » . فأرشف زميله الذي هو أعمق تفكراً « والسفاه واحسرتاه !
أنى لأخشى كراهية الجنود والنتائج الوييلة لاستيائهم ! » .

بعد فترة وجيزة من موت مكسيمين ، نبح البريتوريون بيوبينوس
Pupienus وبالبينوس ، وبعد حكم جورديان الثالث الذي لم يدم
طويلاً . خلع الجنود الحلة الإمبراطورية على « فيليب » وهو عربي
المولد .

فيليب العربي

عندما عاد فيليب من الشرق إلى روما ، اشتدت به الرغبة في محو
ذكريات جرائمه ، وفي كسب محبة الشعب . فعبد إلى احاطة حفلات
الألعاب القرنية (التي تقام كل مائة سنة) بكل مظاهر الأبهة والعظمة .
وقد احتفل بها - منذ أنشأها أو أحيائها أوغسطس - كل من كلوديوس
ودوميتيان وسيفيروس ، والآن تتجدد للمرة الخامسة لمناسبة مرور
الف سنة على تأسيس روما . وكانت فرصة هذه الألعاب تفتخر بمهارة
لتعبئة العقليّة الخرافية بأعمق الاحترام . والحق أن الفترة الطويلة بين
هذه الألعاب تجاوز دورة الحياة الإنسانية ، ولم يكن أي من المتفرجين
قد شهدوا بالفعل ، ومن ثم لا يعطل أحد نفسه بالأمل في رؤيتها مرة
ثانية . وكانت القرابين الخفية الرمزية تقدم في ثلاث ليال على ضفاف
التيرير وكانت ساحة مارسيوس تمتج بالموسيقى والرقص ، وتضاء بعدد
لا يحصى من المصابيح والمشاعل . ولم يرخص للبيد والفرياء في
الاشتراك في هذه الحفلات الوطنية . وكانت هناك فرقة من سبعة وعشرين
شاباً وعدة عذارى من أثيل العائلات ممن لا يزال والدوهن
أحياء - تنشّد الإتهالات إلى الآلهة المعطونة من أجل الحاضر ، ومن
أجل الأجيال الصاعدة ، وتتوسل إليها في ترانيم دينية أن تحافظ على
الفضيلة وعلى الغبطة وعلى إمبراطورية الشعب الروماني طبقاً لما نزل
به الوحي القديم . وقد بهرت عظمة الاستعراضات - الحفلات التي
أقامها فيليب أعين الناس ، وانصرف الانتباه الورعون إلى ممارسة
الطقوس الخرافية ، بينما تدبرت القلة المفكرة في عقولها القلقة ماضي
الإمبراطورية ومستقبلها .

وقد انقضت الآن عشرة قرون منذ اتخذ روميلوس Romulus

مع عصابة صغيرة من الرعاة والخارجين على القانون ، مقراً حصيناً لهم
على التلال القريبة من نهر التيرير ، وفي الأجيال الأربعة الأولى من هذه
الحقبة ، وفي مدرسة الفقر الشاقة المجهدة ، حصل الرومان مزايماً
الحرب والحكم . وعن طريق الممارسة الجلدة العنيفة لهذه الفضائل ،

وبمساعدة الحظ ، كسب الرومان في غضون القرون الثلاثة التالية امبراطورية مطلقة السلطان على بلاد كثيرة في أوروبا وآسيا وأفريقية . أما ثلاثئة السنة الاخيرة فقد كان طابعها ازدهاراً ظاهرياً ، واضمحلالاً داخلياً . أما أمة الجنود والحكام والمشرعين التي كانت قبائل الامبراطورية الرومانية البالغ عددها خمسا وثلاثين قبيلة فقد ذابت في كتلة الجنس البشري ، واختلطت بملايين التابعين الأذلاء من أهل الولايات الذين أخذوا اسم الرومان دون أن يقتبسوا الروح الرومانية ، وكان جيش المرتقة الذي تكون من الرعايا ومن المتبريرين على الحدود، هو الطبقة الوحيدة من الرجال الذين حافظوا على استقلالهم واستقلاله . وعن طريق انتخاباتهم التي يسودها الشعب حظى السورى والقوطى والعربى بشرف التربع على عرش رومة ، وزود بالسلطة المطلقة على الفتوحات وعلى بلاد آل سكيبيو .

وكانت حدود الامبراطورية لا تزال تمتد من المحيط الاطلسى الى الدجلة ، ومن جبال اطلس الى الراين والدانوب . وكان غيليب يبدو في عين الساذج الاصحق الذي يحسن التمييز ، ملكا لا يقل قوة عن هادريان وأوغسطس . وبتى الشكل كما هو ، ولكن ولت الضحة والقوة اللتان تبعثان النشاط والانتعاش . وثبطت ألوان الظلم همة الشعب واستنزفت جهوده ، وأفسد طبع الأباطرة نظام الجيش ، كما كان ضعفهم سببا في تراخى هذا النظام الذي كان يمكن أن يكون دعامة عظيمة الدولة ، اذا ما تبخرت كل الفضائل والمزايا الأخرى . أما قوة الحدود التي كانت ترتكز دائما على الفرق أكثر منها على التحصينات ، فقد تقوضت بطريقة غير ملبوسة ، وتعرضت أجمل الولايات لسلب المتبريرين وطمعهم ، وهم الذين تبينوا بسرعة اضمحلال الامبراطورية الرومانية .

وبينما كانت هروب الحدود لزمان تطويل هي الشغل الشاغل للحكومة الامبراطورية دوما فإن الغزوات الكبرى للمتبريرين ، التي كانت الآن في ذروتها - كانت نتيجة لأسباب جديدة ، وفى الشرق انتهت قوة أسرة ارشك The Archuk فى بارثيا. ولكن جاء التهديد الجديد من فارس . أما فى الحدود الشمالية فقد تجمعت الآن شعوب المانيا الشرقية ، وهى الشعوب التي لم تكن ألقت الرومان بعد ، وقد اخصص جيسون الفصلين الثامن والتاسع لهذه الموضوعات .

الفصل العاشر

(٢٥٣ - ٢٦٨ م)

الكوراث العاسه فى عهد فاليريان وجالينوس

غارات القوط ، غزو الفرس لأرمينيا ، وأسرة فاليريان

قتل فيليب فى ٢٤٩ . وأعقبه نيكوس ، وهو رجل قدير ، قائد الحرب ضد القوط ولكنه قتل هو وابنه فى المعركة فى دبرودسكا . وتوالى بعد ذلك فى تعاقب سريع عهود جالوس وإميليانوس ، وفى ٢٥٣ أصبح فاليريان إمبراطورا ، وسرعان ما أشرك ابنه جالينوس . وقد أورد جيون سيرة جالينوس بشكل يحط من قدره على طول الخط ، ولكن النقاد الحديثين ردوا عليه باعتباره ، ومهما يكن من أمر ، فإن الصورة التى رسمها جيون للكوارث فى عهد فاليريان وجالينوس صادقة .

كان فاليريان فى نحو الستين من العمر حين اعتلى العرش ، لا نتيجة لخطرات من وساوس الشعب أو هتافات الجنود ، ولكن باجماع العالم الرومانى بأسره . وقد استحق طوال تدرجه فى مناصب الدولة حب أفاضل الأمراء ، كما أعان فى كل مناسبة أنه عدو للظلمة . وقد سجد فيه السناتو والشعب كريم محتده وخلقه المعتدل النقى وعلمه وتبصره وخبرته ، ونجا مثل أحد الكتلب التدامى : لو ترك الجنس البشرى حرا فى اختيار سيد له ، لوقع اختياره بكل تأكيد على فاليريان . وربما كانت مواهب هذا الإمبراطور غير متكافئة مع شهرته ، أو كانت قدراته ، أو على الأقل روحه متأثرة بما يقترب بكبر السن من ضعف وفنور ، وقد أدى به شعوره بالاضمحلال الى أن يجعل له على العرش شريكا أصغر سنا وأكثر نشاطا . وكانت ظروف الحال تتطلب قلدا كما تتطلب بنفس القدر ملكا . وربما كان حريا بالرقيب الرومانى أن تهدى تجاربه الى أين يتجه ، ليخلق الحلة الإمبراطورية على من تؤهل لها الموهبة العسكرية ، ولكن فاليريان بدلا من الاختيار السليم الذى قد ثبتت

ملكه ويخلد ذكره ، انقاد لما أملاه عليه الحب أو الغرور ، فاضفى في الحال على ابنه جالينوس هذا المجد الفاهر ، وهو شاب استقرت رذائله الأنتوية تحت غموض الحياة الخاصة . وبقيت الحكومة المشتركة بين الوالد والولد سبع سنين ، وانفرد جالينوس بالادارة نحو ثمانى سنين . ولكن الفترة كلها — فترة الخمسة عشر عاما — كانت سلسلة متصلة الحلقات من الفوضى والكوارث . ولما كانت الامبراطورية الرومانية قد انقضت عليها في نفس الوقت ، ومن كل جانب ، غزاة اجانب في غارات رهيبة عاتية ، كما اجتاحتها الاطماع الوحشية للفاصبين المحليين — فاننا لن نحيد عن جادة النظام والوضوح ، اذا نحن لم نتبع كثيرا الترتيب الزمنى المشكوك فيه ، وتتبعنا التقسيم الطبيعى للموضوعات . وكان الد اعداء روما في عهد غاليريان وجالينوس هم :

١ — الفرنجة ، ٢ — الألمان ، ٣ — القوط ، ٤ — الفرس . ويمكن ان ندرج تحت هذه التسميات العامة مغامرات قبائل اقل اهمية لن يكون في ذكر اسمائها الغامضة الثقيلة الا ارهاق لذاكرة القارئ ، وتشتيت لانتباهه .

١ — لما كان نibel الفرنجة وذراريهم يكونون اليوم امة من اكبر امم اوربا واعظمها استنفارة فقد استندبت كل قوى العلم وكل البراعة في الكشف عن اسلافهم الاميين . وجاءت اساليب الخيال بعد القصص البساج . ونشطت عمليات الغزيلة والحص والمسخ في كل قطعة وفي كل بقعة مما يحتل ان يبيط اللثام ، ولو يسيرا ، عن اصلهم ونشأتهم . وكان المظنون ان بانونيا ، وان الغال وان الاجزاء الشمالية من المانيا كانت فيها النشأة الاولى لهذه الجماعة الفذة من المحاربين . واخيرا اقتنع اعظم النقاد منطلقا ومعتلا . الذين رمقوا هذه الهجرة الوهمية لهؤلاء الغزاة المثلاليين — اقتنعوا بفكرة تغرى ساطنها بصحتها . فقد ذهبوا الى الظن بان السكان القدامى في الراين الأدنى والاوز — كسونوا ، حوالى عام ٢٤٠ م اتحادا جديدا تحت اسم « الفرنجة » . وكانت منطقة وستفاليا الحالية ، واقطاعات هيس ودوقيات برنزويك ولونبرج Luneberg كانت هذه كلها الموطن القديم لقبيلة تشوسى Chauci (من أشهر القبائل في غرب المانيا قديما) التى تحدث الجيش الرومانى في مستنقعاتها التى لا يمكن اجتيازها ، ولقبيلة تشيروسكى Cherusci الفخورة بشهرة ارمينيوس Armenius ، ولقبيلة كاتى Catti الشديدة البأس بفضل مشاتها الاقوياء البواسل ، ولعدة قبائل أخرى اقل قوة وشهرة . وكان تعشق الحرية هو منتهى ما يسيطر على عقول هؤلاء

الألمان ، والتمتع بها أعلى كنز لديهم ، والتعبير عن متعة الحرية ونعيمها أحسن ما تطرب له أسماعهم . ومن ثم استحقوا هذا اللقب الكريم وانخدعوا لأنفسهم وحافظوا عليه وهو «الفرنجة» أى الرجال الأحرار freemen وهذا اللقب هو الذى حجب الأسماء الخاصة لمختلف الولايات الداخلية فى الاتحاد ، ولو أنه لم يقض عليها تماماً . وقد غرست الموافقة الضمنية والمنفعة المتبادلة أول قوانين الاتحاد ، ثم وطدت العادة والخبرة يوماً بعد يوم دعائمه . وقد تفتح عصبة الفرنجة مجال المقارنة بالاتحاد السويسرى (Helvetia الاسم القديم) الذى كان كل قسم فيه يحتفظ بسيادته المستقلة ، ويتشاور مع سائر الأقسام فى القضايا العامة ، دون الاعتراف بسلطة أى رئيس أعلى أو جمعية تمثيلية أو نيابية ، ولكن مبدأ كل من الاتحادين يختلف عن الآخر كل الاختلاف ، فقد نعم السويسريون بالهدوء والسلام لمدة قرنين من الزمان ، جزاء وفاقاً لسياستهم الحكيمة الآمنة . ولكن روح التقلب ، والتعطش إلى السلب والنهب ، وعدم احترام أعظم المعاهدات جدية وخطورة - كل أولئك دمج خلق الفرنجة بالعيب والعار .

وكان الرومان قد خبروا لمهد طويل ، شدة بأس سكان ألمانيا السفلى (الجنوبية) وجراتهم . وقد هدد اتحاد قوتهم بلاد الغال بغارة شديدة ، مما اقتضى حضور جالينوس شريك الإمبراطور ووريثه ، وبينما كان الأمير وابنه الطفل سالونينوس Saloninus يظهران عظمة الإمبراطورية فى بلاط تريف (Treves مدينة على نهر الوزل) كان للقائد بستوموس Posthoms يقولى قيادة الجيوش فى مقدرة مائة ، وقد غدر هذا القائد بعد ذلك بأسرة فاليريان ، ولكنه كان أميناً دائماً على مصلحة الإمبراطورية . وتدل اللغة الزائفة المضللة - لغة المديح والاطراء والملقب - على أن هناك سلسلة طويلة من الانتصارات ، كما تشهد النصب التذكارية والألعاب (إذا كان لها أن تشهد) على شهرة بستوموس الذى سعى مراراً وتكراراً « قاهر الألمان ومخلص الغال » .

ولكن حقيقة واحدة ، وهى فى الواقع الوحيدة التى نعلمها حق العلم ، قد تبهر إلى حد كبير كل الآثار التى أتت بها الغرور والمداينة . ان الراين - رغم أنهم كرموه بتسميته هامى الولايات - كان يشكل حاجزاً ضعيفاً أمام روح الطموح الجريئة التى طغت على أعمال الفرنجة . فقد امتد اكتساحهم الخاطف من النهر إلى سفوح جبال البرانس ، بل ان هذه الجبال لم توقف تقدمهم ، حتى ان اسبانيا التى لم تخش يوماً حملات الألمان - كانت عاجزة من المقاومة . وكانت هذه البلاد الغنية

مسرحة لمناوشات مخربة غير متكافئة طوال اثني عشر عاما - أي الجزء الأكبر من عهد جالينوس . وسلبت ، أو قل حُمرت ، المدينة الزاهرة تاراجوانا Tarragona عاصمة الولاية المسالمة . وكانت لا تزال تلك الأكواخ التعيسة الكثيفة المبعثرة وسط خرائب المدن تشهد على بطش المتبربرين ، - حتى أيام أوريوس سيوس الذي كتب في القرن الخامس . فلما نصب معين البلاد المنهوككة ولم تعد صالحة للسلب ، استولى الفرنجة على بعض المراكب في موانئ أسبانيا واثقلوا بها الي موريثانيا . وذهلت الولاية الثانية لشدة هؤلاء المتبربرين ، الذين بدوا وكأنهم جاءوا من عالم جديد ، حيث لم يكن أسهم ولا عاداتهم ولا ملانح وجوهم معروفة في ساحل افريقية .

٢ - كان يوجد في غابر الزمان في الجزء الواقع من سكسونيا العليا وراء نهر الإلب - وهي المسماة الآن إمارة لوساك - غابة مقدسة - هي الموطن الرهيب لخرافة السويي Sneyi ، وما كان مرخصا لأحد في الدخول إلى هذا الحرم المقدس دون الاعتصاف . وهو راكم متوسل ، معاهد متظل ، بوجود الإله الملك على الفور ، والواقع أن الوطنية والفيرة اسهتا في تقديس سوننفالد Sonnenwald أو غابة السمنونيين Semnones . وساد الاعتقاد بأن الإسمة نشأت أول ما نشأت في هذه البقعة المقدسة . وكانت القبائل الكثيرة التي تنه عجا وتجد شرفا في جريان الدم السويي في عروقها ، تبعث في فترات محددة ببعضائها ، وكانت الطقوس البربرية والبضحايا الانسانية تخلد نكري المنبت المشترك بينهم . وبلا الاسم الذائع « سويي » كل أقطار ألمانيا الداخلية من ضفاف نهر الأودر إلى ضفاف الدانوب . وكانوا يتميزون عن سائر الألمان بخرابة تصنيف شعرهم الطويل الذي جمعوه في خصلة غير مهذبة في قمة الرأس ، كما اغرموا بحلية تظهرهم أعلى مرتبة وأشد بأسا في أمين المدو . ولما كانوا - كما هي عادة الألمان - غيورين على السمعة العسكرية ، فانهم جيما اعترفوا بشوكة سويي الفائقة ، واعلنت قبائل أوسيبيت Uspites وتنكتيري Tencteri التي قهرت الدكتاتور قيصر بجيش عظيم ، أنه لم يكن عارا عليها أن تهرب أمام قوم (أي السويي) لم تكن الآلهة الألية لتقف أمام أسلحتهم .

وفي عهد الامبراطور كراكلا ظهرت افواج لا تحصي من السويي على ضفاف نهر السين وفي الأماكن المجاورة للولايات الرومانية ، سعيا وراء الطعام ، أو السلب أو النهب أو المجد ، والتامت افواج المتطوعين

المتوطينين في أمة عظيمة ثابتة ، ولما كان هؤلاء ينتهون الى الكثير من القبائل المتبليغة ، فانهم جميعا اتخذوا اسم « الليماني Allmanni » أى كل الرجال All Men ليدل غورا على اختلاف أنسابهم وشجاعتهم المشتركة . وسرعان ما أحس الرومان بهذه الشجاعة في الكثير من الحملات العدائية . وحارب الليماني أصلا على ظهور الخيل ، ولكن قوى من عزمة خيالهم جماعة من المشاة الخفيفة مختارة من أشجع وأنشط الشباب ، أهلهم تدريبهم المستمر لمصاحبة الفرسان أطول مسافة ، وفى أسرع هجوم أو فى أعنف انسحاب .

ودعش هذا الشعب الجرمانى المحارب لاستعدادات استنصر سيفيروس الضخمة ، كما أفزعهم أسلحة خلفه ، وهو متبربر يعدلهم بأسا ووحشية . ولكنهم ظلوا يحومون حول حدود الإمبراطورية ، فزادوا من الاضراب العام الذى أعقب موت دكيوس . وأصابوا ولاية الغال الغنية بجراح قاسية . وهم أول من كتف القناع عن العظمة الهزيلة لإيطاليا ، وسارت جماعة كبيرة من الألمان عبر الدانوب واخترقت جبال الألب الراهية الى سهول لمبارديا ، وتقدمت حتى وصلت الى رافنا . ووقفت رايات المتبربرين الطافرة على مرأى من روما تقريبا . وأذكت الصفعة والخطر في السناتو من جديد ومضات من شمائل غابرة ، وكان الإمبراطوران كلاهما مشغولين في حروب نائية : فكان فاليريان في الشرق وجالينوس في الراين . وتعلقت كل آمال الرومان بالسنتاتو ، ولم يكن لهم من ملجأ الا اليه . فاستأنف أعضاؤه في هذا الطرف الطارئ الدفاع عن الدولة . وسحبوا الحرس البريتورى الذى تخلف لحماية المدينة ، وزادوا عددهم بتجنيد أقوى أفراد البلبيان (طبقة العامة) وأكثرهم رغبة في الخدمة العامة ، وذهل الألمان لظهور جيش أكبر من جيشهم فجأة ، فانسحبوا الى ألمانيا محملين بالغنائم ، واعتبر الرومان غير المحاربين أن فى انسحابهم انتصارا لهم (أى الرومان) .

ولما تلقى جالينوس أنباء انقاذ عاصمته من المتبربرين ، كان سروره بها أقل بكثير من فزعه لشجاعة السنتاتو ، التى قد تحفزهم يوما الى تخليص الشعب من الطغيان الداخلى والغزو الخارجى سواء بسواء . ونشر على الناس جحوده الذى أملاه عليه الجبن ، فى مرسوم حرم فيه على أعضاء السنتاتو القيام بأى عمل عسكري ، بل حتى مجرد الاقتراب من معسكرات الفرق . ولكن مخاوفه لم يكن لها أى أساس ، فان النبلاء الأغنياء المترفين ، وقد عادوا سيرتهم الى خلقهم الطبيعى — قبلوا هذا الاعفاء المذل المشين من الخدمة العسكرية على أنه منة من الإمبراطور وفضل . وطالما كانوا يتبرغون فى نعيم حمايتهم ومبارحتهم ومساكنهم ،

فقد تنازلوا في غبطة وسرور عن هذه المهام الخطيرة ، مهام الإمبراطورية ،
للأيدى الخشنة ، أيدي الفلاحين والجنود .

وثمة حملة أخرى قلم بها الألمان ، تبدو أشد هولاً ورهبة ، ولكنها
حدث أبهى سناء وروعة ، ذكرها أحد كتاب الإمبراطورية القديمة .
فقد قيل إن عشرة آلاف فقط من الرومان على رأسهم جالينوس هزموا
ثلثمائة ألف من ذلك الشعب المحارب في معركة قرب ميلان . ومهما يكن
من أمر ، فإننا قد ننسب على الأرجح ، هذا الظفر الذي لا يمكن
تصديقه ، إما إلى سلامة نية المؤرخين ، أو إلى عمل مبالغ فيه قام به
أحد قواد الإمبراطور . والواقع أن جالينوس استخدم أسلحة من جنس
آخر لصالية إيطاليا من بطش الجرمان ، فقد تزوج من بيبا Pipa
ابنة أحد ملوك ماركوماني Marcomanni ، وهي قبيلة من السويى ،
كانت كثيراً ما تشترك مع الألمان في حروبهم وفتوحهم . وقد أقطع
والدها — ثينا للتحالف — رقعة كبيرة في باتونيا . ويبدو أن المغان
الأصيلة في الجبال الفطرى غير المصقول قد مكن لحب العروس في
أعماق الإمبراطور المقلب . ووثقت روابط الحب من علاقات السياسة
وزادتها مقالة . ولكن تهيز روما الذى يتسم بالتماعى والفطرسه انكر
صفه الزواج على علاقة دنسة بين مواطن وبربرية . ودمغ الأميرة
الألمانية باللقب الفاضح المخزى ، أى بانها « خليفة جالينوس » .

غارات القوط

٣ — لقد تعبتنا حتى الآن هجرة القوط من اسكنديناوه — أو على
الأقل من بروسيا ، حتى مصب نهر الدنيبر ، وتتبعنا انتصاراتهم من
الدنيبر إلى الدانوب . وفي عهد فاليريان وجالينوس كتفت غارات الألمان
والسرماتيين Sarmatians (إحدى القبائل الرحل القديمة) تنقض على
الدوام على حدود الدانوب ، ولكن الرومان كانوا يدافعون عنها بعزم
وتوغيق بشكل غير عادى . ذلك أن الولايات التى كانت مسرحاً للحرب
كانت تزود جيوش روما بمعين لا ينضب من الجنود الأشداء . وكسب
من ملاحى الليريا هؤلاء ، ارتفع إلى مرتبة القيادة وأظهر صفات القائد
وقدراته . وتوقفت حشود هابرة من المتبريرين ، الذين يحومون حول
الحدود بلا انقطاع — إلى تخوم إيطاليا ومقدونيا . ولكن ولاية
الإمبراطور كانوا يصدونهم عادة ، أو يعترضون طريق عدوتهم . ولكن
السييل الجارف من هجمات القوط تحول إلى طريق آخر . فان القوط
باستيطانهم الجديد في أوكرانيا أصبحوا سلالة على الشاطئ الشمالى

للبحر الأسود . ولكن كانت تقع الى الجنوب من هذا البحر الداخلى
الولايات الغنية الوادعة في آسيا الصغرى ، تلك الولايات التى حوت
كل ما يجذب الانتظار ، وخلت من أية وسيلة لصد أى فتح متبرير .

ولا تجاوز المسافة بين ضفاف الدنيبر وبين المدخل الضيق لشبه
جزيرة القرم ستين ميلا . ومن هذا الشاطئ المائل اتخذ يوربيدس
مسرحا لأحداث واحدة من أعظم مآسيه إثارة للعواطف ، تدبج القصص
القديم بفنه الرائع وأسلوبه الجميل ، وقد تصلح قرابين ديانا الدمية ،
ووصول أورستيز Orestes وبيلاوس Pylades ، وانتصار الفضيلة
والعقيدة على الشراسة الوحشية وتصلح لتبثل حقيقة تاريخية : تلك هى
أن الثورى Tauri — وهم السكان الأصليون لشبه الجزيرة —
هذبوا الى جد ما من سلوكهم الوحش ، بفضل اتصالهم التدريجى
بالمستعمرات اليونانية التى استقرت على الشاطئ . وكانت منكبة
اليسفور الصغيرة تتألف من اليونان المنحليين والمتبريرين نصف
المتحضرين ، وكانت عاصمتها تقع على المضائق التى يتصل بها بحر
آزوف بالبحر الأسود ، وقد بقيت كدولة مستقلة منذ حروب البلويونيز ،
حتى ابتلعها أطباع متريدانس ، ثم سقطت مع بقية ممتلكاته في أيدي
الرومان ، وبقي ملوك اليسفور منذ عهد أوغسطس خلفاء متواضعين ،
ولكنهم كانوا ذوى نفع للامبراطورية . ذلك أنهم من طريق الهدايا
والأسلحة وبعض التحصينات اليسيرة عبر البرزخ ، وقتلوا سدا منيعا
في وجه قطاع الطرق القراصنة من اهل سارماتيا Sarmatia وحالوا
دون وصولهم الى بلاد تتحكم في البحر الأسود وآسيا الصغرى بفضل
نوعها الممتاز وموانئها الملائمة ، وطالما تعاقب على العرش ملوك
وراثيون ، فانهم أدوا مهمتهم في يقظة وتوفيق . ولكن الخلافات الداخلية ،
ومخاوف الفاسيين الأتنياء الذين استولوا على العرش الخالى ، أو
مصلحتهم الخاصة ، مكنت القوط من التوغل الى قلب اليسفور .
وبحصول هؤلاء الفاتحين على قطعة أرض خالية ذات تربة خصبة ،
امكنهم أن يسيطروا على قوة بحرية كائنية لنقل جيوشهم الى شاطئ
آسيا . وكانت السفن المستغلة في الملاحة في البحر الأسود فريدة في
مبناها : كانت مراكب شراعية صغيرة ذات قاع مسطح من الخشب
فقط ، وليس فيها حديد قط ، يغطيها في بعض الأحيان سقف واق ،
يستخدم عند هبوب عاصفة . وفي هذه المنازل العائمة لم يبال القوط أن
يضعوا أنفسهم تحت رحمة بحر مجهول بقيادة بحارة دفعوا الى العمل
ههنا ، مشكوك في مهارتهم وامانتهم بقدر سواء . ولكن الأمل في السلب
والنهب كان يحجب التفكير في الخطر ، وغرس مزاج الجراة الطبيعي في

نفوسهم الثقة التي هي أكثر تعقلا والتي هي في الواقع وليدة المعرفة والخبرة . ولابد أن المخاربين الذين اوتوا هذه الجراءة والجسارة ، كثيرا ما ضجوا لجبن أدلائهم الذين كانوا يتطلبون أقوى التأكيدات على هدوء البحر واستقراره قبل أن يغامروا بالانطلاق ، والذين كان ينذر اغراؤهم بالبعد من الأرض ، فلا تكون دائما على رأى منهم . تلك — على الأقل — هي الحال في تركيا الحديثة . وليس من المحتمل أنهم في فن الملاحة دون مكان البسفور القدامى .

وظهر أسطول القوط ، وقد خلف شركاسيا Circassia على يساره ، أول ما ظهر ، أمام بتيوس Pityus وهي آخر حدود الولايات الرومانية . وهي مدينة مزودة بمرقا ملائم ومحصنة بسور منيع . وهنا لقوا مقاومة أكثر عنادا مما كان لهم أن يتوقعوا من حامية ضعيفة في قلعة نائية . وردوا عن المدينة . ويبدو أن خيبتهم حطت من رهبة اسم القوط . وطالما كان يتولى الدفاع عن هذه الحدود سكسيانوس Successianus وهو ضابط كبير موهوب ، ذهبت جهود القوط ادراج الرياح ، فلما اقتصاه الخليريان الى مركز أكثر شرفا وأقل أهمية ، استأنفوا الهجوم على بتيوس . وبتمير هذه المدينة ، محسوا ذكرى عارهم السابق .

وكانت المسافة من بتيوس الى طرابزون ، طواما حول الطرف الشرقي للبحر الأسود ، تبلغ نحو ٣٠٠ ميل . واتخذ القوط طريقا جعلهم دائما على رأى من كولكيس (Cholchis بلاد في شرق البحر الأسود) التي خلدتها « الأرجونوت Argonauts » (من أقدم ملاحى الأساطير الاغريقية) ، بل أنهم حاولوا سلب معبد غنى عند مصب نهر فاسيس Phasis ولكنهم لم يفلحوا .

وقد استمدت طرابزون — التي اشتهرت في انسحاب الألوف العشرة بأنها مستعمرة يونانية قديمة — استمدت ثروتها وعظمتها من أرباحية الامبراطور هادريان وسخائه ، حيث شيد ثغرا صناعيا على ناطيء مهجور حرمة الطبيعة من موان آمنة ، وكانت المدينة ضخمة أهلة بالسكان ، ويبدو أن الأسوار المزودة تحمت بطش القوط ، وعززت الحامية المعتادة بعشرة آلاف رجل قزاق قوتها . ولكن ليس شمة أية مزايا يمكن أن تعوض عن انعدام النظام واليقظة . فان حامية طرابزون الضخمة انصرفت الى الشغب والترف ، وتزنجعت عن خراصة محصناتها المنيع . وسرعان ما اكتشف القوط هذا الاهمال الفاحش من جانب المحصورين ، وشيدوا كومة شاهقة من الأغصان وتسلقوا .

الأسوار في سكون الليل ، وخطوا المدينة العزلاء شوارعهم سيوفهم .
واعقب ذلك مذبحة شاملة بين الأهالي ، وهرب الجنود الذين تولاهم
الفرار من الأبواب الخلفية للمدينة . ولم ينج من التخریب اقدس المعابد
وأغنى المباني ، ووقعت في أيدي القوط أسلاب ضخمة ، حيث كانت
ثروات البلاد المجاورة مودعة في طرابزون باعتبارها مأوى آمنا . واقتحم
المتبربرون المنتصرون الطريق دون مقاومة في ولاية بنطس القراميسية
الأطراف ، وبلغ أسرهم عددا لا يصدق . وملأت الغنائم الثمينة من
طرابزون أسطولا عظيما من السفن وجدوه في الميناء ، وربط شبان
الشاطئ الأتداء بالسلاسل إلى المجاديف ، وعاد القوط عودا مظفرا
ثانعين بنجاحهم في حملتهم البحرية الأولى ، إلى مواطنهم الجديدة في
مملكة البسفور .

وخرج القوط في حملتهم الثانية بقوة أكبر من الرجال والسفن ،
ولكنهم سلكوا طريقا آخر ، حيث صرفوا النظر عن ولاية بنطس التي
استنزفت ، وساروا مع الساحل الغربي للبحر الأسود ، ومروا بالمصبات
الضخمة للنديير والديستبر والدانوب ، وزادوا من أسطولهم بالاستيلاء
على عدد كبير من قوارب الصيد ، ثم اقتربوا من المتفد الضيق الذي
يصب البحر الأسود منه مياهه في البحر المتوسط ، ويفصل بين قارتي
آسيا وأوروبا . وكانت حامية خلقدونية Chalcedon تعسكر قرب
معبد جوبيتر يورپوس Jupiter Urius على راس جبل يشرف على
مدخل المضيق ويتحكم فيه . وهكذا كانت غزوات المتبربرين المتهوبين
الجانب هزيلة إلى درجة أن عدد أفراد هذه الحامية كان يفوق عدد جيش
القوط . ولكن الحق أن التفوق كان عدديا فحسب ، فقد تخلصوا في
اندفاع وتهور عن موقعهم المناز ، وهجروا مدينة خلقدونية ، وهي
المدينة الزاخرة بالسلح والأموال ، وتركوها لحكمة الفاتحين . وبينما
كان الفاتحون يترددون في أي طريق يسلكون : البر أم البحر ، وأين
يتجهون لمواصلة الأعمال العدوانية ، إلى آسيا أم أوروبا ، أشار أحد
الهاربين الخونة عليهم بالاتجاه إلى نيقوميديا ، وكانت يوما عاصمة
ملوك بيثينيا كما أنها غنية ميسور فتحها . وقاد الطريق الذي لم يكن
ييمد عن معسكر خلقدونية بأكثر من ستين ميلا ، وأدار دفعة القتال
دون مقاومة ، وتسلم في الغنائم . فقد تعلم القوط قدرا كائيا من
السياسة في مكافأة الخائن الذي كانوا يكرهون . واثابت نيقية وبروسة
وأباميا وسيوس — وهي مدن نافست أو قلقت أحيانا نيقوميديا في
مخاضها وعظمتها — نفس الكارثة التي اندلعت في مدى عدة أسابيع
في كل ولاية بيثينيا ، وكان سكان آسيا الوادعون قد تبعوا بالسلام

والهدوء ثلاثمائة عام الغنى فيها استخدام السلاح ، وزال من الأذهان
توقع الخطر ، وتركت الأسوار القديمة تتداعى ، وخصصت كل موارد
أغنى المدن لتشبيد الحملات والمعابد والمسارح .

كانت مدينة سيزيكوس Cyzicus (مدينة قديمة على الشاطئ
الجنوبى لبحر مرمرة) — عندما تحدث أقصى جهود مقريداتس —
تتميز بالقوانين الحكيمة ، وبقوة بحرية قوامها مائتا زورق كبير وثلاث
ترسانات للأسلحة والآلات الحربية ، والغلال . وكانت لا تزال
مستودعا للثروة وممرها للترف ، ولكن لم يبق من سابق قوتها
الا موقعها ، فى جزيرة صغيرة فى بحر مرمرة ، تربطها بقارة آسيا
قنطرتان فقط . وبعد غارتهم على بروسة Prussa تقدم القوط
حتى أصبحوا على مسافة ثمانية عشر ميلا من مدينة سيزيكوس التى
انصرفوا بكل قواهم لتدبيرها ، ولكن هذه العملية تعطلت بسبب حادث
سعيد ، ذلك أنه قد حل فصل الأمطار ، وارتفع الماء الى حد غير عادى
فى بحيرة أبولونيائس Apolloniates وهى خزان لمياه كل الينابيع فى
جبل أولبس ، كذلك طغت مياه نهر رنداكوس الصغير الذى ينبع من
البحيرة ، حتى تحول الى مجرى واسع سريع الجريان ، فعلق تقدم
القوط ، وكان انسحاب القوط الى مدينة هرقلية البحرية حيث يحتل
وجود الأسطول — مصحوبا برتل طويل من العربات المحملة بها غنوه
من بيثينيا ، كما تميز بالسنة النيران المنطلعة فى نيقية ونيقوميديا اللتين
أحرقوهما فى نسوة بالغة . وهناك اشارات غامضة ذكرت عن معركة
مشكوك فيها أمنت انسحابهم ، ولكن ، حتى الانتصار الكامل كان
لزما أن يبقى ذا قيمة تالفة ، لأن اقتراب الانقلاب الخريفى كان
يستحثهم على التعميل بالعودة . وان الأتراك الحديثين يعتبرون الملاحه
فى البحر الاسود قبل شهر مايو ، أو بعد شهر سبتمبر ، ضربا من التهور
والحماسة لا نزاع فيه .

وإذا علمنا أن الأسطول الثالث الذى أمده القوط فى موانئ
البحر كان يتكون من خمسمائة سفينة شراعية ، لاستطاع خيالنا فى
الحال أن يحمى ويقدّر التسليح الرهيب ، أما وقد أكد لنا المؤرخ
الحكيم سترابون Strabo أن قوارب القرصنة التى استخدمها المتبربرون
فى بنطس وسكيزيا الصغرى لم يكن يتسع الواحد منها لأكثر من
خمسة وعشرين أو ثلاثين رجلا ، غنى إمكاننا أن نتخيت ، ونحن مطمئنون ،
من أن خمسة عشر الفا على الأكثر قد أتلعوا فى هذه الحملة الكبيرة .
وضاق صدر القوط ، باتساع أطراف البحر الاسود فحولوا طريق حملتهم

المدمرة من أرض القيوم والضباب الدائم إلى اليسفور عند تراقيا ،
 لما كانوا يبلغون وسط المضائق حتى انساقوا نجاة إلى الورا نجا
 مخذل المضائق ، حين هبت نجاة في اليوم التالى ربح مواتية حبلتهم
 في بضع سامات إلى البحر الهادى ، أو بالأحرى إلى بحر مرمره .
 وما أن نزلوا إلى جزيرة سيزيكوس حتى سمروا هذه الميمنة القديمة
 المجيدة ، ومن هنا تقدموا ثلثة في الممر الضيق عبر الدردنيل ، ثم
 واصلوا إبحارهم ذات اليمين وذات الشمال ووسط الجزر الكثيرة
 المتناثرة في بحر إيجة ، وكان لابد من الاستعانة بالأسرى والهاربين
 ليقودوا سفنهم ، وليوجهوا هجماتهم المختلفة على شواطئ اليونان
 وشواطئ آسيا على السواء . وأخيرا رسا أسطول القوط في ميناء
 بيريه على بعد خمسة أميال من أثينا التى حاولت أن تتأهب لدفاع مجيد .
 وأصدر الإمبراطور أوامره إلى المهندس كليوداموس Cleodamus
 بتحصين المدن الساحلية ضد القوط ، فشرع فعلا في إصلاح الأسوار
 القديمة التى كانت آيلة إلى السقوط منذ عهد سلا Sylla . ولم نجد
 مهارته وجهوده شيئا ، وأصبح المثيربون سادة بلد الفنون والأكر .
 ولكن بينما أبعن الغزاة في السلب والنهب وانغمسوا في الدعارة
 والفجور ، باغت دكسيوس Dexippus الجريء - الذى كان قد نجا
 بنفسه مع المهندس كليوداموس أبان غزو أثينا - أسطولهم الرابض
 في ميناء بيريه تحت حراسة هزيلة ، وانقض عليهم بما جمع في سرعة من
 جشود من المتطوعين والفلاحين والجنود ، وإلى حد ما ثار لما حل بوطنه
 من كوارث .

ومهما أفسى هذا العمل من رونق وبهاء على عصر اضطلال أثينا ،
 فإنه أهاج ، أكثر من أنه أهد ، روح الجرأة والاقدام في الغزاة
 الشماليين . واشتملت النار في نفس الوقت في مختلف أنحاء اليونان .
 وغدت طيبة وأرجوس وكورنثة واسبرطة التى شنت فيها مضى حزوبا
 بشعواء مشهودة ضد بعضها بعضا - فبت الآن عاجزة عن تجنيد أى
 جيش في الميدان ، بل من مجرد الدفاع عن تحصيناتها المتداعية ،
 وامتدت لظى الحرب في البحر والبر من سونيريم Sunium في أقصى
 الشرق إلى شاطئ أبيروس في الغرب . وتقدم القوط الآن على مرأى
 من إيطاليا ، حين أيقظ اقتراب هذا الخطر الجسيم جالينوس الخامل
 من أحلامه السعيدة . وظهر الإمبراطور على رأس جيشه . ويبدو
 أن وجوده كف في عضد أعدائه ووزع قنوتهم . وقبل نولوباتوس
 Naulobatus رئيس قبائل الهيرولز Heruli التسليم بشروط كريمة ،
 ودخل مع غريق كبير من بنى جلته في خدمة روما ، ومنع أوسمة

مرتبة القنصل التي لم تكن لوئتها بعد أيدي أحد من المتبريرين ، وتولى القوط الضجر بأخطار هذه الرحلة المملة ومشاقها ، فاتجهوا الى ميسيا Maesia ، وقد اعتزموا أن يشقوا طريقهم عنوة عبر الدانوب الى مراضهم في أوكرانيا . وكانت هذه المحاولة الضيالة تعنى خرابا محققا ، لو لم يهين أرتباك القواد الرومان للمتبريرين وسائل الهرب . ذلك أن البقية القليلة من هذا الجيش المدمر قفلت راجعة على سفنهم ، وفيما هم يشقون طريق العودة عبر الدردنيل والبسفور ، إغاروا على شواطئ طروادة ، التي خلد لها هوميروس شهرة أبقي على الزمان من ذكرى غزوات القوط . وحالما وجدوا أنفسهم آمنين في مرض البحر الأسود نزلوا في انخيلوس في تراقية ، قرب سفح جبل هيموس Haemus ، وانصرفوا بعد هذا الكد والجد الى التمتع بهذه الحملات الصحية البهيجة . ولم يبق من المرحلة بعد ذلك الا رحلة بحرية يسيرة قصيرة . وهكذا تنوع مصير مشروعهم البحري الثالث وهو أعظم مشروعاتهم . وقد يكون من العسير أن تتصور كيف استطاع الجيش الأصلي المكون من خمسة عشر ألف محارب أن يحتل الخسائر والتفرق في مثل هذه المغامرة الجريئة . والواقع أنه كلما تناقص عددهم بفعل السيف أو الفرق أو الحر ، عوضوا عنه دائما بأفواج من الأبقين وقطاع الطرق الذين انضموا تحت راية السلب والنهب ، وبهشود من العبيد اللاجئين — من ألمانيا وسارماتيا في الغالب — الذين انتهزوا الفرصة العظيمة ، فرصة الحرية والانتقام . وزعمت أمة القوط لنفسها نصيبا أكبر من الشرف والمخاطرة في هذه الحملات ، ولكن القبائل التي حاربت تحت راية القوط أحيانا تميزت وأحيانا غبط حقها فيها دون أن يروى من تاريخ غير دقيق لهذا العصر ، ولما كان يبدو أن أسباطيل المتبريرين تبدأ من مصب نهر الدون ، فإن التسمية الفاضحة المألوفة وهي « السكوديون » كانت تطلق على الجميع المختلط .

وفي الكوارث العلية التي تفتاب النضج البشري ، قد يمر الناس مرورا عابرا غائلا على موت مزدهرهما كان عظيما ، وعلى خراب بناء مهبا كان مشهورا . ولكننا لا نستطيع أن ننسى معبد ديانا في افيونس ، فإنه بعد أن أميد بناؤه في بهاء مقرايد بعد سبع كوارث متكررة ، قسد أحرقه القوط في غزوتهم البحرية الثالثة . إن فنون اليونان وكنسوز آسيا تضافرت على تشييد هذا البناء الفخم المقدس ، وقد اقيم على مائة وسبعة وعشرين عمودا من الرخام وفق الطراز الايوني ، وكانت كلهمنا هدايا من الملوك الاتقياء ، وكان ارتفاع كل منها ستين قدما . وزين المذبح بأروع تماثيل النحت براكسيتيلس Praxiteles الذي ربما

-اختار موضوعاتها من أساطير المكان المخبوية عن مؤلّد أطفال لاتونيا
Latona المقدسين ، واختفاء أبولو بعد نبح سيكلوبس Cyclops
وترفق باخوس بالأمازونيين المتهورين . على أن طول معبد افيسوس
كان أربعمائة وخمسة وعشرين قدماً فقط ، أي نحو ثلثي كنيسة القديس
بطرس في روما . وكان في أبعاده الأخرى لا يزال أقل كثيراً من هذا
النتاج المعماري الحديث . والواقع أن الأثر الممتد للصليب المسيحي
تتطلب اتساعاً أكبر كثيراً من المعابد الوثنية المستطيلة ، وزبناً فزرع
وارتبك أجزاء الفنانين القدامى لمجرد الاقتراح برفع شبهة في الهواء في
حجم البانيثون ونسبه وأبعاده . ومهما يكن من أمر ، فقد كان ينظر
إلى معبد ديانا باعتباره إحدى عجائب الدنيا . وقد احتسرم قدسيته
الاباطرة المتعاقبون والفرس والمقدونيون والرومان وزادوا في بهائه .
ولكن متوحشي البلطيق الغلاظ لم يتذوقوا الفنون الجميلة ، واحتقروا
الاهوال الخيالية لخرافة أجنبية .

وهناك ، غير ذلك ، ما يروى من أحداث هذه الغزوات ، مما يستحق
اهتمامنا ، لولا أنه قد يتطرق إلينا الشك بحق ، في أنه من تصوير
خيال سفسطائي حديث . فقد قيل أن القوط في غارتهم على أثينا ،
جمعوا كل الكتب من المكتبات ، وكانوا على وشك إشعال النار في هذا
الكوم الجنائزي من علوم اليونان ، لولا أن أحد رؤسائهم — وكان
أكثر تهذيباً وأحسن سياسة من رفاقه — تناههم عن هذا العمل بأن أبدى
ملاحظة عميقة ، مؤداها أن اليونان إذا انكروا على الدرس والبحث
لن يتجهوا إلى الحرب والسلاح . والواقع أن المفسر الحكيم
(لو سلمنا بصدق هذه الرواية) فكر على طريقة مجرب بجاهل ، غنى
أقوى الأمم وأكثرها تهذيباً ظهرت المبغرية في مختلف صورها في نفس
الوقت تقريباً ، وكان عصر العلم ، بصيغة صالحة ، هو عصر المواهب
العسكرية والنجاح الحربي .

غزو الفرس لرومانيا : أسرار غليريوسيان

{ — انتصر ملك الفرس الجديد أرجزيسيمش وابنه شاپور
(كما رأينا) على أسرة أرشك (الأسرة المالكة في بارثيا) . والواقع
أن خسرو ملك أرمينيا هو الوحيد من بين الأمراء العديدين من هذا
العرق القديم ، الذي احتفظ بحياته وباستقلاله ، فقد دافع عن نفسه
بالمقاومة الطبيعية لبلدة ، وبالسيل المستعمر من اللاجئين والساحطين ،

وبالتحالف مع الرومان ، وفوق ذلك بشجاعته هو نفسه . انه لم يقهر
في حرب دامت ثلاثين عاما ، ولكن قتله آخر الأمر ريسل شابور ملك
الفرس . وتوسل حكام أرمينيا المحبون لوطنهم ، والذين اكنوا حرية
التاج وكرامته ، الى روما لتحمي بلادهم ، رعاية لمصلحة الوريث
الشرعى « تيريداتس Tiridates » . ولكن ابن خسرو كان طفلا ، وكان
الحلفاء على مسافة نائية ، فتقدم ملك الفرس نحو الحدود على رأس
جيش تمذر صده ، وانقذ اخلاص احد الخدم تيريداتس الصغير ، وهو
أمل المستقبل في بلده . ولكن أرمينيا ظلت سبعا وعشرين سنة ولاية
ساخطة نافرة وسط مملكة الفرس الكبيرة . وتشجع شابور — وقد
انتفخت أوداجه بهذا الفتح اليسير المنال ، وأخذ مساوىء الرومان
وكروبهم قضية مسلما بها — فارغم الحاميات القوية في القارة ونصبيين
على التسليم ، ونشر الخراب والرعب على جانبي الفرات .

وخسرت روما حدا هاما ، وانهار طيف طبيعي مخلص لها ،
وتحقت بسرعة اطباع شابور ، كل أولئك أثار في روما شعورا عبقيا
بالاهانة ، كما أهاج احساسا شديدا بالخطر . وتوهم فاليريان أن يثقله
ولائه قد تكفى لتأمين سلامة الراين والدانوب ، ولكنه عقد العزم ، رغم
تقدم سنه ، على أن يشخص بنفسه للدفاع عن الفرات ، وفي أثناء تقدمه
في آسيا الصغرى توقفت حملات القوط البحرية ، ونعمت الولايات
المنكوبة بهدمه . عابر خداع . وجاوز الامبراطور الفرات والتقى بملك
الفرس قرب أسوار مدينة أذاسا فهزمه شابور وأسر . وذكرت
تفاصيل هذا الحدث الجلل مشوية بالغبوض والنقص ، ولكن يمكن من
البصوة الذي تيسر لنا أن نكشف من جانب الامبراطور الرومانى عمن
سلسلة طويلة من التهور والخطأ والنكسات التى نزلت به ، وهو أهل
لها ! فقد وضع في ماكريانوس رئيس الحرس البريتورى ثقة وطيدة .
ولكن هذا الوزير الثامنه جعل من سيده شخصا شديد البأس أمام
رعاياه المظلومين فقط ، وشخصا محظورا في أعين اصدقاء روما . وانهار
الجيش الامبراطورى بفضل نصائحه الهزيلة أو الخبيثة الى وضع
أعوزته فيه الشجاعة والمهارة العسكرية على حد سواء . وقام الرومان
بمحاولة جريئة بأسلة لاقتحام جيش الفرس ، ولكنهم صدوا ، وسقط
عدد كبير من رجالهم قتلى . وتفرع شابور ، الذى طوق المعسكر بأعداد
كسرة من الجنود — تذرع بالصبر وانتظر حتى اشتدت وطأة المجاعة
والوباء ، ليتأكد من الفوز ، وسرعان ما تعالت الصرخات الفاجرة من
الجنود تنهم فاليريان بأنه سبب النكبات ، وطلبت صيحاتهم المتمردة
بالتسليم فورا . وعرض مبلغ كبير من الذهب ثمنا للتريخيص في انسحاب

مهيئ ، ولكن ملك الفرس الواثق من تفوقه رفض المال باحتقار ، واحتجز المندوبين ، وتقدم هو في تشكيل معركة ، حتى وصل الى بداية استحكامات الرومان ، وأصر على الاجتماع بالامبراطور شخصيا . وبلغ الهوان بفاليريان الى حد الحاجة الى أن يكل أمر حياته وكرامته الى الثقة في عدوه ، وانتهت المقلبة بما كان طبيعيا أن تنتهي به ، فقد أسر الامبراطور وسلمت قواته المذهولة أسلحتها . وفي لحظة النصر ، أبت سياسة شابور وغروره عليه الا أن يضع على العرش الخالي خلفا تابعا ذليلا يعتمد على رضاه ككل الاعتماد . واختير لتطويع العرش الروماني سرياديس Cyriades . وهو لاجئ حقير من أنطاكية لم ينورع عن أية سيئة أو رذيلة ، وحظيت إرادة الملك الفارسي الظافر بهتافات الجيش الأسير تصديقا عليها ، وإن كانت هذه قد جاءت على مضض .

وتلف الامبراطور العبد على كسب رضا سيده بخيانة يرتكبها ضد بلده الأصلي ، فقاد شابور عبر الفرات ، ثم عن طريق كلكتيس Chalcis الى عاصمة الشرق ، وكانت تحركات الخيالة الفرس سريعة جدا ، الى حد أن أنطاكية — إذا صدقنا مؤرخا حكيما جدا — أخذت على غرة ، على حين كان الجمهور الخامل الكسول تابعا يحلق في مباحج المسرح معتزا بها . وسلمت أو خربت المباني الجميلة ، الخاص منها والعام ، في أنطاكية . وضربت أعناق جمهرة السكان أو أسروا . وتوقف التخريب أبدا قصيرا بناء على قرار من كاهن حمص الأعظم ، فقد ظهر ، مرتديا حلتة الكهنوتية ، على رأس حشد من الفلاحين المتعصبين وقد تسلحوا بالمقاليع ليس غير ، ليدافع عن معبوده وأملكه ضد أتباع زرادشت Zoroaster وأيديهم المدنسة . وفيما مدا هذا المثل الفريد فان تدجير طرسوس وكثير غيرها من المدن يقدم دليلا محزنا — على أن غزو سوريا وتيليقيا قلما هاق تقدم الجيش الفارسي . لقد عدلوا عن مزايا الممرات الضيقة في جبال طوروس ، تلك التي يشتبك فيها في قتال غير متكافئ ، أي مانع تتركز قوته الأساسية في مرساته . وتمكن شابور من فرض الحصار على قيصرية ، عاصمة كبادوكيا ، وهي مدينة كانت فرضا تضم أربعمائة ألف من السكان ، ولو أنها من مدن الدرجة الثانية . وسيطر ديومستين على المكان ، لا بأمر من الامبراطور ، أكثر منه بتطوعه للدفاع عن بلاده . وقد أجل مصيرها وقتا طويلا . فلمسا سقطت قيصيرية أخيرا نتيجة لغدر أحد الأطباء ، شق ديومستين طريقه وسط الفرس الذين صدرت اليهم الأوامر لينذلوا أقصى الجهد لياخذوه حيا . ولكن الرئيس البطل أفلت من قوة عدو ربما رفعه مكانا عليا أو أنزل به أشد العذاب جزاء مصلحته العنيدة ، ولكن عدة آلاف من

بنى وطنه راحوا ضحية مذبحه عامة ، ويتهم شابور بمعاملة أسراه معاملة قاسية عاتية ، ولا بد هنا من افساح المجال للكلام عن الكراهية الوطنية والكبرياء الجريئة والانتقام الهزيل . ولكن يمكن القول بصفة عامة بأنه من الحق أن الأمير الذي ظهر في أرمينيا بمظهر المعتدل ، ظهر للرومان في هيئة فاتح كثر عن أنيابه ، وقد يؤس من اقامة صرح ثابت في الامبراطورية ، تسعى في أن يخلف وراءه خرابا بلقعا ، على حين أنه نقل الى فارس اهالى الولايات وكنوزها .

وفي الوقت الذي كانت فرانس الشرق ترتعد فرقا لمجرد ذكر اسمه ، تلقى شابور هدية تليق بأعظم الملوك ، وهى عبارة عن قافلة كبيرة من الجمال محملة بأندر السلع وأثمنها ، ومعها رسالة كريمة ، ولكنها ليست مهيئة ولا ذليلة ، من أوديناتورس (أذينه) ، وهو من أنبل وأغنى شيوخ السفنوق في تدمر Palmyra . وتساءل الظاهر المتطهرس المتعالى ، وقد أمر بأن يلقى بالهدايا في نهر الفرات : « من هو أوديناتورس هذا الذى تبجح هكذا وكتب الى مولاه ؟ اذا كان يبنى نفسه بتخفيف عقابه فدموه يخر راكمنا تحت اقدام مرشنا ويداه مفلولتان الى ظهره ، فاذا تردد ، فلتصبوا الخراب فوق رأسه وبني جنسه وبلده ! » واستبد اليأس المتطرف المستهتت بشيخ تدمر حتى أثار كوامن القوى في نفسه ، فالتقى بشابور ، ولكنه كان لقاء مسلحا . فقد حوم حول جيش الفرس بجيش صغير نفخ فيه من روحه ، جمعه من قرى سوريا ومن خيام الصحراء لمعوق انسحاب الفرس واحتجز جزءا من كنوزهم ، وأغلى من أى كنز وأثمن ، مددا من نساء الملك العظيم الذى اضطر الى أن يعبر الفرات ثانية في شىء من العجلة والاضطراب . وبهذا الصل وضاع أوديناتورس أسس شهرته وثروته فيما بعد . وهكذا احتفظ سورى أو عربى من تدمر لروما بمعظمتها التى امتننها الفرس .

ويعيب صوت التاريخ . وهو عادة لا يزيد كثيرا عن موارد المقت أو سوانح الملق ، على شابور استغلاله لحق الفتح استغلالا مشويشا بالغرور والتفاخر ، فيخبرنا أن فاليريان عرض لتشهده الجماهير وهو مكبل بالأغلال في حلته الامبراطورية ، رمزا لعظمة تهاوت ، وأنه كلما امتطى ملك فارس صهوة جواده أناخ بقدمه على عنق الامبراطور الرومانى . وبقي شابور عنيدا لا يرموى ، على الرغم من اعتراضات حلفته الذين طالما اخلصوا له النصيح أن يتفكر تقلبات الحظ ، ويخشى استرداده روما لقوتها ، وأن يجعل من أسيره الكبير رهينة للصلح و السلام ، لا هدفا للمهانة والامساء . فلما قضى فاليريان تحت وطأة العار

والحزن حتى جلده بالتشوش وشكل على هيئة انسان وحفظ لعدة اجيال .
في اشهر معابد فارس رمزا للنصر ، وقد كان اصدق من تلك الانصاب
الخلافة النحاسية أو الرخامية التي غالبا ما شيدها غرور الرومان .
والقصة قصة اخلاقية تثير الشجون . ولكن يجوز أن يكون وجه الحق
فيها مثار نزاع . فالرسائل الموجودة حتى الآن من امراء الشرق الى
شابور عبارة عن تزييف صارخ ، وليس من الطبيعي أن يذهب بنا الظن
الى أن اى ملك حقود لابد أن يحط من جلال الملوك حتى ولو في شخص
منافسه . ومهما كان من امر المعاملة التي لقيها غاليريان المنكود الحظ
في فارس ، فانه من المحقق على الاقل انه امبراطور روما الوحيد الذي
وقع في ايدي الأعداء وأفنى حياته اسيرا بالناس .

اما الامبراطور جالينوس الذي احتل طويلا ، بصبر نافذ ، من أبيه .
وزميله قساوته اللاذمة فقد تلقى أنباء فكباته بسرور خفي . وفي استهتار
عنى قال : « لقد هزمت أن أبى فان وليس مخلدا ، ولقد فعل كما يليق .
بالشجعان أن يفعلوا ، ومن ثم فاني راض كل الرضا » . وفي الوقت
الذي كانت فيه روما ترثى لمصير مليكها ، كان رجال البلاط الانبياء
الأذلاء يمتدحون الفتور الوحشي في ابنه ، وكأنه كمال الصلابة والعزم
في بطل أو رواقى . وليس من اليسير أن تصور الأخلاق الهزيلة المتقلبة
المزمنة التي تكشفت بلا ضبط في جالينوس حالما أصبح المالك الأوحد
لزام الامبراطورية ، وفي كل من حاوله مكنته عبقريته النشيطة من
النجاح ، ولما كانت عبقريته مجردة من القدرة على التمييز ، فقد حاول
كل من اللهم الا أهم الفنون : فن الحرب وفن الحكم ، فكان بارعا في
كثير من العلوم الغريبة ، ولكنها جميعا عقيدة عديمة الجدوى . كان
خطيبا حاضر البديهة ، وكان شاعرا رقيقا ، وبستانيا ماهرا ، وطباخا
مهنازا ، كما كان أجدر أمير بالهزة والزراعة ، ففى الوقت الذي كانت
المهام العاجلة للدولة تتطلب وجوده وعنايته ، كان هو يشغل نفسه
بالمناقشة مع الفيلسوف بلوتينيوس Plotinus أو يقضى وقته في مناسف
الأمور ، أو في اللذات الفاجرة ، أو في الاستعداد للأسرار اليونانية ،
أو في القباس مكان في الأريوبلجوس Areopagus (المحكمة العليا)
في أثينا وكان امراطه في العظمة والجلال اساءة الى تفقر العام . وغرست
السخرية الكثيرة من انتصاراته في النفوس شعورا أعمق بالعار . وكان
يتلقى الأنباء المتكررة من الغزو والهزيمة والعصيان بلبتسامة غير مبالية ،
ثم يخص بالذكر ، مع التظاهر بالازدراء ، انتاجا معيناً من الولايات
المفقودة ، ويتساءل في غير اكتراث : هل يحل الخراب بروما اذا لم تزود
بالتيل من مصر وستائر الجدران من الغالي ؟ على أن في حياة جالينوس

لحظات قليلة قصيرة ، حين كانت تهيج غضبه لملة طارئة ، فانه كان عند ذلك يبدو فجأة جنديا بالسلا وطاغية قاسيا ، حتى اذا شبع من الدم أو تعب من المقاومة ، عاد ، دون أن يشعر ، الى سابق الاعتدال والبلادة ، وهما من طبيعة خلقه .

وليس مما يدعو الى الدهشة انه ، في الوقت الذي تراخت فيه قبضته على مقاليد الأمور ، برزت شذوثة من الفاسدين في مختلف ولايات الامبراطورية ، تعمل ضد ابن غاليريان . وربما كان هذا الضرب من الخيال الرائع الذي اوحى بمقارنة الطغاة الثلاثين بنظرانهم الطفافة الثلاثين في اثينا ، هو الذي أغرى كتّاب تاريخ أوغسطس باختيار هذا الرقم الذي أصبح بالتدريج تسمية مألوفة . ولكن التوافق من كل الوجوه عقيم سقيم ، فإى شبه يمكن أن يتكشف لنا بين مجلس مكون من ثلاثين شخصا اجتمعوا على ظلم مدينة واحدة بأكملها ، وبين قائمة مشكوك فيها تضم منافسين مستقلين نهضوا وسقطوا في تعاقب غير منتظم في مختلف انحاء امبراطورية شاسعة ؟ كذلك لن يكتمل رقم الثلاثين هذا الا اذا دخلنا في حسابنا النساء والأطفال الذين أسبغ عليهم شرف اللقب الامبراطوري . وأنتج حكم جالينوس ، على ما كان عليه من خبال ، تسعة عشر فقط ممن زعموا لهم حقا في العرش ، وهم سريادس Cyriades ، مكريانوس ، بالستا Balista ، أودينانوس ، رزنوبيا ، في الشرق — بوستوموس Posthumus ، لوليانوس Lollianus ، فيكتورينوس وابنه فيكتوريا ، ماريوس ، تريكوس Tetricus في الغال والولايات الغربية — انجينوس Ingenuus ورجليانوس Regillianus ، وأوريولوس Aureolus في الليريكوم ومنطقة الدانوب — ساتورنينوس Saturninus في بلاد بنطس — وتربليانوس Trebellianus في ايزوريا (في اقليم طوروس) — وبيزو Piso في تساليا — فالنز Valens في آخيا Achia — أليانوس في مصر — سلسوس Celsus في أفريقية . وقد نجد مشتة في تبيان آثار كل منهم في حياته ومماته ، وهو كذلك عمل لا غناء فيه ولا لذة ، وقد تكتفى بـ « على الطبيعة العلية التي تميز أحوال العصر وسلوك الرجال » زاعمهم ويواعثهم ومصيرهم ، والنتائج الوبيلة، التي نجمت عن اغتصابهم الحكم .

من المعروف جيدا ان «نظريته» «طاغية» غاليسا ما كان يستعملها القدامى للدلالة على مجرد الاستيلاء غير الشرعى على زمام السلطة العليا ، دون اشارة الى سوء الاستغلال . وكان كثير من المدعين الذين رفعوا راية العصيان ضد الامبراطور جالينوس ، نماذج مشرقة

للفضيلة ، وكادوا جميعا يتحلون بقسط كبير من النشاط والمقدرة ، وقد اهلتهم مواهبهم وجدارتهم لنيل الحظوة لدى فاليريان الذى رفعهم تدريجا الى اهم مراتب الامبراطورية . اما القواد الذين حظوا بلقب اوفسطس ، فقد كان جنودهم يحبونهم لسلوكهم الذى يقسم بالكفاية والمقدرة ولصرامة النظام الذى يسود الجيش ، او يعجبون بهم لشدة باسهم ونجاحهم فى الحرب ، او يحبونهم من اجل صراحتهم وكرمهم . وكان ميدان النصر ، هو فى الغالب مقر انتخابهم ، وحتى ماريوس صانع الاسلحة والدروع ، احق طالبى العرش بالزراية والاحتقار ، كان يتميز على اية حال بشجاعة لا تلين وقوة لا تبارى ، وبأمانة مطلقة ، وقد اقلت مهنته الحديثة الفتيحة فى الواقع ظلا من السخف والسفاهة على ترقيته ، ولكن نشأته ، او مولده ليس أكثر خمولا وضعة من غالبية منافسيه الذين ولدوا من آباء فلاحين وانخرطوا فى الجيش كاندان او مساكين صليين . وفى وقت الفوضى والاضطراب يجد كل ذكى نشيط المكان الذى حددته له الطبيعة ، وفى حالة الحرب العامة تكون الموهبة العسكرية هى السبيل الى المجد والعظمة ، وكان تتركوس عضو السناتو الوحيد بين الطغاة التسعة عشر ، كما كان بيزو وحده من النبلاء . وجرى دم نوما Numa ، ثمانية وعشرين جيلا متعاقبة ، فى عروق كالفورنيوس بيزو الذى جاز له بمقتضى زيجات من سيدات من أسرته ، ان يدعى حق عرض صور كراسوس وبومبي الكبير فى بيته . وكان اسلافه يكرمون دوما بكل الامجاد التى كانت الجمهورية تستطيع ان تمنحها . وأسر كالفورنيوس هى الوحيدة ، من بين الأسرات القديمة فى روما ، التى افلتت من طغيان القياصرة ، وقد أضفت صفات بيزو الشخصية مزيدا جديدا من السناء والرفعة على محتده الكريم . واحترف الغاصب بالنس ، الذى قتل بيزو بأمر منه ، فى ندم عميق ، بأن العدو نفسه كان ينبغي أن يجلب بيزو ويرمى له حرمة ، وعلى الرغم من أنه قضى نحبه فى الحرب ضد جالينوس ، الا أن السناتو — بترخيص كريم من الامبراطور ، قرر منح اوسمة النصر لذكرى الناصر الفاضل .

وكان ولاية فاليريان يعترفون له بفضل الوالد الذى قدروه تقديرا . ولكنهم احتقروا ان يخدموا ابنه التافه غير الجدير بالملك ، السادر فى خمول الترف وبلادة البذخ . ولم يكن يدعم عرش العالم الرومانى أى مبدا من مبادئ الولاء . وقد يكون من السهل أن تعتبر خيانة مثل هذا الأمير وطنية ولاء للدولة . على أنه يتضح لنا من الفحص الدقيق لسلوك هؤلاء الغاصبين انهم كانوا فى الكثير الغالب مسوقين الى الثورة بدافع من مخاوفهم ، أكثر منهم باغراء من مطامعهم . لقد توجسوا خيفة

من شكوك جالينوس الفاشمة ، ومن النزوات العنيفة الطائشة لقوات الجيش . فإذا أعلن الجيش دون تبصر ، نتيجة لحبه المحفوف بالخطر ، استحقاقهم للعرش ، فكأنما واناهم الدمار المحقق ، ومن ثم يكون من الأفضل التمتع بالامبراطورية ، لفترة قصيرة . وهنا تكون تجربة الحظ في الحرب خيرا من انتظار يد الجلاذ — ولما أسبغت هتافات الجنود على هؤلاء الضحايا غير الراغبين شمعارات السلطة الملكية، حزنوا ورثوا في أنفسهم لدنو أجلهم . وقال ساتورنينس *Saturinus* يوم اعتلائه العرش « لقد فقدتم قائدا، نافعا ، وصنعتم امبراطورا شقيا تعيسا » .

وكانت النورات المتكررة تبرير مخاوف ساتورنينس ، فان أحدا من الفاصبين التسعة عشر الذين ظهروا في أيام جالينوس ، لم ينعم في حياته بالسلام أو الهدوء أو ببيئة طبيعية، فانهم حالما يرتدون الحلة الامبراطورية المملوطة بالدم ، يرحلون الى أتباعهم وأشباعهم بنفس المخاوف والضيوع الذي دما الى ثورتهم ، لقد أحاطت بهم المؤامرات الداخلية والفتن العسكرية والحروب الأهلية حتى ارتعدوا فرقا على حافة هلاوية لن يجدوا منها مصرا بعد فترة من القلق طالت أو قصرت . وتلقى هؤلاء الملوك المزعزعون من التكريم والأجلاذ ما شاء مطلق ورياء جيوشهم وولاياتهم ان يضيفه على كل منهم . ولكن دعواهم المؤسسة على الثورة لا يمكن أن تحصل على ضمان وسند من القانون أو التاريخ . والتزمت إيطاليا وروما والسناطو جانب الامبراطور ، واعتبروه سيد الامبراطورية . ونفازل الأمير في الحقيقة فاعترف بانتصار قوات اوديناتوس الذي استحق التكريم والتشريف لسلوكه الكريم الذي التزم به دوما ازاء ابن فاليريان ، فمنح السناطو ابن تدمير الباسل لقب أوغسطس وسط مظاهر الاستحسان العام من الشعب الروماني ، وبموافقة جالينوس . ويبدو أنه عهد اليه بحكومة الشرق ، التي كان يتولاها بالفعل ، بدرجة من الاستقلال ، حتى انه أوصى به لأرملته الشهيرة زنوبيا ، وكأنه تركه وراثية .

وربما كان في الانتقالات السريعة المستمرة من الكوخ الى العرش ، ومن العرش الى القبر تسلية لفيلسوف عديم الاكتراث ، اذا استطاع الفيلسوف ان يستمر على الاستهتار وعدم الاكتراث وسط الكوارث العامة التي تنتاب الجنس البشري . وكان في انتخا ب هؤلاء الإباطرة المزعزين وفي سلطاتهم وموتهم وبأل على رعياهم وانتصارهم : ألم يكن ثمن هذا الارتقاء المبيت يسدد نفورا للقوات في هبات سخية تبتز من بطون الشعب المنهوك ، ومهما كان خلقهم كريما فاضلا ، ومهما كانت

نزعاتهم طيبة نقية ، فقد وجد هؤلاء الغاصبون أنفسهم مضطرين الى الانحطاط الى مستوى الضرورة الملحة لارتكاب الكثير من أعمال السلب والنهب والقتل لتدمير هذا السلطان الذي اغتصبوه . وكانوا اذا سقطوا يطوون معهم الجيوش والولايات في هوة السقوط . ولا يزال يوجد حتى الآن أمر وحشي أصدره جالينوس الى أحد وزرائه بعد جمع انجينيوس الذي كان يطلب بالعرش في الليريكوم ، يقول فيه الأمير الفاعم المجرد من الروح الانسانية : « ليس يكتفى أن تبديد كل من يحمل سلاحا ، فقد حققت فرصة المعركة أغراضها بنفس القدر ، ولكن يجب أن نقضى على الذكور من مختلف الأسنان ، شريطة أن تدبر ، في حالة اعدام الأطفال والشيوخ ، الوسائل الكثيلة بانقضاء سمعتنا ، فليمت كل من تفوه بعبارة عدائية ، أو راوده تفكير عدائي ضدي ، ضدي أنا ، ابن فاليريان ، والوالد والأخ لكثير من الأمراء . تذكر أنهم صنعوا من انجينيوس امبراطورا ! مزق ، اذبح ، اقطع اربا اربا ، انى اكتب اليك بيدي ، لعلى أوحى اليك بشاعري » . وانغضبت القوات العامة للدولة في النزاعات الخاصة ، على حين بقيت الولايات العزلاء الخالية من الدفاع معرضة للغزاة . واضطر أشجع الغاصبين ، نتيجة لاضطراب مواقفهم ، الى عقد معاهدات مغرية مع العدو المشترك ، وإلى شراء حياء المتبريرين أو خدماتهم لقاء أتاوة فادحة ، وإلى اتمام أمم معادية مستقلة على قلب الامبراطورية الرومانية .

هكذا كان المتبريرون ، وهكذا كان الطغاة على عهد فاليريان وجالينوس ، فقد مزقوا الولايات ، وانزلقوا بالامبراطورية الى أسنى مهاوى العار والدمار ، حتى بدا من المتعذر انتشارها منها قط . لقد حاولنا ، قدر ما سمحت به ضالة المواد ، أن نتعقب في نظام ووضوح الأحداث العامة في هذه الفترة المليئة بالنكبات ، ويبقى بعد ذلك بمض حقائق معينة قد تعكس ضوءا أقوى على الصورة القائمة الرهيبة :

١ - الاضطرابات في صقلية .

٢ - الشغب في الاسكندرية .

٣ - الثورة في ايزوريا .

١ - اذا تحدثت عصابات اللصوص وقطاع الطرق التي تنمو وتتكاثر بفضل ما تصادف من نجاح وأمان من العقاب والحساب - اذا تحدثت العدالة في بلدها علنا ، دون مجرد الافلات من يدها ، فلما أن نستخلص مطمئنين - أن لاحظ طبقات الجماعة قد أحست واستغلت افراط الحكومة في الضعف . أن موقع صقلية حماها من المتبريرين ،

كما أن الولاية العزلاء من السلاح ما كانت لتحتل غاصيا . فان الجزيرة التي كانت يوما مزدهرة ، والتي لا تزال تربتها خصبة ، عانت ما عانت على أيد أخط وأدنا . فقد سيطرت جماعة فلجرة من العبيد والفلاحين على البلد السليب بعض الوقت ، وأعادت الى الأذهان ذكرى حروب العبيد في الأزمنة السحيقة ، ولابد أن عمليات التخريب والتدمير ، التي كان الفلاح ضحية لها أو شريكا فيها ، قد أتلفت زراعة مسقية ، ولما كانت الضياع الرئيسية فيها ملكا للأثرياء من شيوخ السناتو في روما ، الذين أدخلوا في نطاق مزارعهم مساحات كانت ملكا للجمهورية القديمة ، فانه لم يكن من غير المحتمل أن تتأثر العاصمة بهذه الأضرار الخاصة ، أكثر منها بفزوات القوط والفريس .

٢ — كان تاسيس الاسكندرية مشروعا عظيما ارتآه ونفذه معا ابن فيليب . وكان محيط هذه المدينة العظيمة — ذات الشكل الجميل المنظم ، الثانية بعد روما — يبلغ خمسة عشر ميلا ، يقطنها نحو ثلثمائة ألف من الأحرار ، فضلا عن عدد مساو لهم على الأقل من العبيد . وتدفتت تجارة الهند وبلاد العرب الراحبة الى عاصمة الإمبراطورية وولاياتها من طريق ميناء الاسكندرية . ولم تعرف المدينة الى الضمول سبيلا . فاشتغل أناس بنفخ الزجاج وآخرون بنسج الكتان وصناعة البردى . فكل الجفسين من مختلف الأسنان كان مشغولا في مطالب الصناعة ، بل إن الكفيف أو الأعرج لم يعدم عملا يتناسب مع حالته . ولكن أهل الاسكندرية ، وهم خليط متباين من الأمم ، جمعوا غرور الإغريق وترفعهم الى خرافة المصريين وعنادهم . فان اتفه مناسبة : مثل نقص طارئ في اللحوم أو العنيس ، أو أهمال في تحية مالوفة ، أو خطأ في تقاليد الصيامات العامة ، أو حتى نزاع ديني — كانت كفيلا في أي وقت بإثارة الشغب بين الجمهور الذي كان في غيظه وحنقه شرسا لا يرحم . وبعد أن أضعف أسر فاليريان ووقاحة ابنه من سلطان القانون ، أرخى السكندريون العنان لأهوائهم ، في حدة لا ضابط لها . وأضحى بلدهم المنكود مسرحا لحرب أهلية ، استمرت (مع قليل من هدنات قصيرة مشكوك فيها) أكثر من اثني عشر عاما . وانقطع الاتصال بين الأحياء الكثيرة في المدينة المنكوبة ، وتلطخت الشوارع كلها بالدماء ، وتحول كل بناء متين الى قلعة ، ولم يهدأ الهياج الا بعد أن دبر من المدينة جزء كبير بشكل لا يمكن معه تعويضه . وكان قسم بروشيون Bruchion النسيج الفخم ، حى القصور والمتحف ، مقر ملوك مصر وغلاستتها ، وقد وصفه بعضهم بعد ذلك بأكثر من قرن من الزمان ، فقال انه انحط بالفعل الى ما هو عليه الآن من عزلة موحشة .

٣ - أسفرت الثورة الغابضة التي قام بها تريليانوس الذي اتخذ لنفسه لقب الإمبراطور في أيزوريا - وهي ولاية صغيرة في آسيا الصغرى - عن نتائج غريبة تستحق الفكر ، فسرمان ما أسد أبهة الملك أحد ضباط جالينوس ، ولكن أتباعه قد يتسوامن الرحمة أو الرفق بهم ، وترروا أن يطرحوا ولاءهم - لا للإمبراطور وحده - بل للإمبراطورية بأسرها كذلك . وعادوا فجأة إلى سلوكهم الوحشي الأول الذي لم يتخلوا عنه تماما قط . وأمنت صخورهم الشاهقة - فرع من جبال طوروس الواسعة الامتداد - لهم ملاذا منيعا لا يمكن معه الوصول اليهم . وفلحوا بعض الأرض الخصبة فزودتهم بضرورات المعيشة ، كما هيأت عادة السلب والنهب لهم حياة الترف والبذخ . لقد بتى أهل أيزوريا أمدا طويلا أمة من المتبريرين المتوحشين في قلب الإمبراطورية الرومانية ، وعجز الأمراء المتعاقبون عن ردهم إلى الطاعة بالسيف أو بالسياسة ، حتى اضطروا - اقرارا منهم بالضعف - إلى احاطة هذه البقعة المعادية المستقلة بسلسلة طويلة من التحصينات التي ثبت في كثير من الأحيان أنها غير كافية لصد غارات هؤلاء الأعداء المحليين ، ومد الأيزوريون رقعتهم إلى ساحل البحر ، ومن ثم أخضعوا الجزء الغربي الجبلى من قيليقيا ، الذي كان من قبل وكر هؤلاء القراصنة الجريئين ، الذين اضطرت الجمهورية يوما إلى أن توجه اليهم أعظم قوة تحت إمرة بومبي الكبير .

ان من عاداتنا في التفكير أن نوجد صلة وثيقة بين نظام الكون وبين مصير الإنسان ، إلى حد أن هذه الحقبة الكثيرة من التاريخ ملئت بالفيزئانات والزلازل والظواهر الجوية الشاذة والظلمة الخارقة للعادة ، ومجموعة من الأعاجيب الملفة أو المبالغ فيها . ولكن كانت هناك المجاعة العامة التي دامت زمنا طويلا ، وكانت كارثة أشد واقسى ، وكانت النتيجة الحتمية للسلب والنهب والظلم الذي استنزف المحاصيل الحاضرة والمرتبقة ، وغالبا ما تجيء الأوبئة في أعقاب المجاعة ، نتيجة للتغذية الضئيلة غير الصحية . ولابد أن هناك أسبابا أخرى عملت على ظهور الطاعون الرهيب ، الذي اكتسح دون توقف من سنة ٢٥٠ - ٢٦٥ م كل ولاية وكل مدينة ، بل كل أسرة في الإمبراطورية الرومانية ، وجاء وقت كان يموت فيه في روما خمسة آلاف شخص يوميا ، وثمة مدن افلقت من أيدي المتبريرين ، ولكنها الآن أقفرت من أهلها بفعل الطاعون .

واما الآن شيء غريب حقا ، قد يكون ذا دلالة ، في هذا التقدير المحزن لكوارث الإنسان . فقد حفظ في الاسكندرية سجل دقيق للمواطنين الذين يحق لهم تسلم الغلال الموزعة ، وقد وجد أن العدد

القديم المدرج في السجل لمن هم بين الأربعين والسبعين سنة كان مساويا لمجموع الطالبين من الرابعة عشرة الى الثمانين ، أولئك الذين بقوا على قيد الحياة بعد عصر جالينوس . فاذا طبقنا هذه الحقيقة الرسمية الموثقة على أصح جداول المواليد والوفيات ، لثبت بوضوح ان أكثر من نصف سكان الاسكندرية ، قد هلك . فاذا تجرأنا على الامتداد بهذا القياس الى سائر الولايات ، لجاز أن نظن أن الحرب والوباء والمجاعة تفضت على نصف الجنس البشرى .

انحصار المد

الفصل الحادى عشر

(٢٦٨ - ٢٧٥ م)

زنوبيا ومملكة تدمر • انتصار أوريليان ووفاته

تولى العرش بعد جالينوس سلسلة من الأباطرة الأقوياء الذين قال عنهم جيون بالنس : « انهم يستحقون اللقب المجيد : معبد بناء العالم الرومانى » • وقد اصلىح الامبراطور الجديد كلوديوس الجيش ، وحرز انتصاراً فريداً على القوط • وانهى خلفه أوريليان Aurelian لحرب مع القوط بحصرهم فى ولاية داثيا وسحب القوات من جبهة داثيا • وصد بعد ذلك قبائل الليبانى ، واسقط تتركوس الذى كان قد ادعى لنفسه السيادة فى بلاد الفال واسبانيا وبريطانيا • اما هزيمة تتركوس التى وصفها جيون فى سنة ٢٧١ فالمعروف انها اعقبت سقوط زنوبيا ، وانها وقعت فى سنة ٢٧٤ •

ما كاد أوريليان يستولى على ولايت تتركوس ويقبض عليه ، حتى أسرع بتوجيه قوته الى زنوبيا ملكة تدمر والشرق المشهورة ، وقد أنجبت أوربا الحديثة عدة نساء لامعات احتلن عبيد الامبراطورية ، احتمالاً مجيداً ، وليس عصرنا نحن خالياً من مثل هذه الشخصيات الفذة . ولكننا اذا استثنينا مفضات سميراميس (١) المشكوك فيها ، فربما كانت زنوبيا هى السيدة الوحيدة التى شقت ميعقتها الفذة استار الضمور الذليل الذى مرضه على جنسها مناخ آسيا وتواعد السلوك فمهما • وادعت انها انحدرت من الملوك المقتونيين الذين حكموا مصر • وكانت تستوى فى الجمال مع سلفها كليوباترا ، ولكنها فاقتها عفة وطهارة

(١) • - اشهر ٨١٠ - ٨٠٦ ق.م اشتهرت بالجمال والحكمة - تقول الاساطير انها

هى التى اسست بايل - (المترجم) •

وجرأة وشجاعة ، وقد قدروا أن زنبوبيا ألطف بنات جنسها وأكثرهن بطولة . وكانت سمراء الوجه (وهذه الأشياء التافهة تصبح هامة عند الكلام من سيدة) ذات أسنن ناصعة البياض كاللؤلؤ . وغاضت عيناها السوداوان حيوية غير عادية ، مع رقعة جذابة الى أبعد حد . وكان صوتها قويا مطريا . وكان لها ادراك رجل ، وقد زادت منه وزينته بالدرس ، ولم تكن تجهل اللغة اللاتينية ، ولكنها كانت تجيد اليونانية والسريانية والعبرية بنفس القدر . ولقد دونت لنفسها خلاصة لتاريخ الشرق ، وألفت أن تعقد الموازنة بين روائع هوميروس وأفلاطون تحت إشراف لونجينس Longinus الجليل .

وتزوجت هذه المرأة المهذبة المثقفة من أوديناتوس الذي ارتقى بنفسه من مركز خاص محدود الى السيطرة على الشرق ، وسرعان ما أصبحت هي صديقة البطل ومرافقته ، وكان أوديناتوس ، في أوقات الحروب ، يسر غاية السرور بممارسة الصيد ، فتعقب في حراسة وشغف وحوش الصحراء الكاسرة مثل الأسد والفيل والدب . ولم يقل تلف زنبوبيا على هذه التسلية الخطرة عن تلفه . وقد عودت جسمها وبنيتها على التعب والجهد واحتقرت استخدام عربة مكشوفة ، وظهرت بصنة عامة في لباس عسكري مبتلية جنودا ، وسارت أحيانا على قدميها عدة أميال على رأس القوات . ونسب نجاح أوديناتوس — الى حد كبير — الى حسن بصرها بالأمور وجلدها وثباتها ، وكلها صفات منقطعة النظير . ووضعت أسس وحدة الشهرة والقوة بينهما تلك الانتصارات الرائعة على الملك المعظم الذي تعقبوه مرتين الى أبواب طيسفون Ctesiphon (المدائن) ولم تعترف الجيوش التي توليا قيادتها، أو الولايات التي أنقذها بأي سيد آخر سوى هذين الرئيسين اللذين لا يقهران . وكرم السناتو وشعب روما الرجل الفريب الذي ثار لامباطورهم الأسير . بل إن نفس الابن الجاهل الناقص الاحساس — ابن فاليريان — ارتضى أوديناتوس زميلا شرميا له .

وبعد حملة موفقة ضد قطاع الطرق القوطيين في آسيا عاذا ملك تدمر الى مدينة حمص في سوريا . وهناك أجهزت الخيانة الداخلية على الرجل الذي لم يقهر في الحرب ، وكانت هوايته المفضلة — صيد الوحوش — هي السبب ، أو على الأقل المناسبة الواضحة لموته . ذلك أن ابن أخيه ماؤنيوس Moeonius حسب أن يضرب ضربه قبل أن يسبقه عمه . وقد حذر من الوقوع في هذا الخطأ إلا أنه استمر سادرا في غيه . وثارت نائرة أوديناتوس ، وهو الملك الرياضي ، ونزل عن جواده وأبعده — وتلك دلالة العار عند المتبريرين — وعاقب الشاب الطائش بالحبس

لمدة قصيرة . وسرعان ما نسي الشاب ما قدمت يداه ، ولكن عقاب الحبس ظل عالقا بذاكرته ، وقتل ملؤنيوس مع جماعة من أعيانه الجريئين عمه وسط احتفال كبير ، وقتل معه هيرود ، ابنه من غير زنوبيا ، وكان شابا ذا مزاج رقيق أنثوى . ولم يصب ملؤنيوس من نعلته النكراء الا فرحة الانتقام ، فلم يكد يتسع له الوقت ليتخذ لنفسه لقب أوغسطس قبل أن تضحي به زنوبيا تكريما لذكرى زوجها .

وتبوات زنوبيا نورا على العرش الخالي بمعونة أخلص أصدقائه زوجها ، وحكمت في عزم الرجال تدبر وسوريا والشرق لأكثر من خمس سنوات . وكانت قد انتهت بموت أوديناتوس تلك السلطة التي كان السفاتو قد حولها إياه وحده ، بوصفها امتيازاً شخصياً له . ولكن الأرملة العسكرية المحاربة احتقرت السفاتو وجالينوس كليهما ، وأرغبت القائد الروماني الذي أرسل لمحاربتها على العودة إلى أوربا بعد أن فقد جيشه وشهرته ، وسارت زنوبيا في إدارتها الحازمة على هدى من أحكم مبادئ السياسة بدلا من أن تتردى في حمة الأهواء التافهة التي كثيرا ما تشوب حكم النساء ، فإذا كان الأوفق أن تغفو وتصفح ، استطاعت أن تحد من غضبها وتخفف من غلوائها ، وإذا كان لزاما أن تبطش استطاعت أن تخرس نداء الشفقة والرحمة . وقد اتهم اقتصادها الدقيق بالبخل ، ولكنها ظهرت في كل مناسبة صحيحة بمظهر الجلال والسخاء . واستشعرت الدول المجاورة : العرب وأرمينيا وفارس ، الرهبة من عدائها وتوسلت لحالفها ، وأضافت الأرملة إلى ممتلكات أوديناتوس التي كانت تمتد من الفرات إلى حدود بيشينيا ، الملكة الخصبة الأهلة بالسكان التي كانت قد ورثتها من أسلافها ، وهي مصر ، وأقصر . الإمبراطور كلوديوس بفضلها ، وكان مقتنعا بأنه في الوقت الذي يتابع فيه الحرب مع القوط ، ستثبت هي مكانة الإمبراطورية في الشرق ، ومهما يكن من أمر فإن سلوك زنوبيا كان يشوبه شيء من الغموض ، وليس من المستبعد أن يكون قد جال بخاطرها مشروع أقالة ملكة مستقلة معادية ، لقد مزجت زنوبيا قواعد السلوك المألوفة لدى أمراء الرومان بشيء من الأبهة والجلال المعروفين في بلاط أمراء آسيا . وكان رعاياها يصبونها كما كان خلفاء كوروش يدون . وعلمت أبناءها الثلاثة تعليمها لاثينيا ، وكثيرا ما أظهرتهم أمام الجيش في الحلة الإمبراطورية ، لما هي فقد احتفظت لنفسها بالتاج مع «لقب الفخم المشكوك فيه « ملكة الشرق » .

ولما عبر أوربيليان إلى آسيا ، في اثر عدوة ، لها من جنسها وحسده ما يدعو إلى الزرابة والسخرية ، أعاد وجوده ولاية بيشينيا إلى حظيرة

الطاعة والولاء ، وكانت قوات زنوبيا وحساباتها قد هزت كيان هذه الولاية . وتقدم على رأس جيشه فقتل ولاء مدينة أنسيرا Ancera ودخل مدينة تيانا Tyana بمعونة مواطن غادر بعد حصار شديد . وتخلّى أوريليان الكريم الطبع ، والقلبي رغم ذلك ، عن هذا الخائن للجنود في سورة غضبهم ، فان احتراماً خرافياً حفزه الى معاملة مواطني الفيلسوف أبولونيوس Appolonius (١) برغق ولين . أما انطاكية فقد هجرها أهلها لدى اقتراب الإمبراطور منها ، الى أن أصدر الإمبراطور مراسيم لعلاج هذه الحالة استدعى فيها النازحين للعودة ومنع عنوا عاماً عن كل من كانوا يعملون في خدمة ملكة تدمر ، كرهاً بحكم الضرورة ، لا طواعية واختياراً . وهذا من روع السوريين هذا الاعتدال غدير المتوقع ، ومن ثم تقدم الى أبواب حمص ، ومن ثم عززت رغبات الشعب ارهاب الجيش على طول الطريق حتى أبواب حمص .

وما كانت زنوبيا لتستحق شهرتها لو أنها تراخت وسمحت للإمبراطور الغرب بالاقتراب الى مسافة مائة ميل من عاصمتها . ولقد تحدد مصير الشرق في محركتين عظيمتين تكادان تتشابهان في كل النواحي تقريباً ، حتى يكاد يتعذر التمييز بينهما ، اللهم الا اذا لاحظنا أن واحدة منهما وقعت قرب انطاكية ، والثانية قرب حمص . وفي كلتا المحركتين أثارت زنوبيا حمية الجنود بوجودها بينهم ، وعهدت بتنفيذ أوامرها الى زابداس Zabdas الذي برزت بالفنل مواهبه العسكرية في فتح مصر . وكان الجزء الأكبر من قوات زنوبيا الضخمة يتألف من رماة السهام الخفاف ، ومن الخيالة الثقيلة المحرمة بالصلب ، فلم يقو فرسان جيش أوريليان ، المتعطين جياداً عربية أو ليرية ، على تحمل الهجوم الثقيل من جانب عدوهم ، فهربوا في غير نظام ، تصنعاً أو حقيقة ، فأرهقوا جيش تدمر في تعقبه لهم وضايقوه بناوشات متقطعة ، وفي النهاية دحروا هذا الكيان من الفرسان الذي كان يصعب النفوذ اليه ، ولكنه كان مرتبكاً ثقیلاً الحركة . ولا نغفل ، في نفس الوقت ، ما في جمجمة المشاة الخفيفة ، وأصبحوا ولاعاصم لهم من أية مباداة قريبة ، تعرضت جوانبهم المارية لسيوف القوات الإمبراطورية . وكان أوريليان قد اختار هذه القوات المحنكة التي رابطت عادة في أعمال الدانوب ، والتي امتحنت صلابتها وبأسها أقصى امتحان في حرب الألمان . ووجدت زنوبيا بعد هزيمة حمص ، أنه من المتعذر جمع جيش ثالث ، وانضوت

(١) ولد أبولونيوس في تيانا حوالي الوقت الذي ولد فيه السيد المسيح عليه السلام . وقد روى تلاميذ أبولونيوس قصة حياته في شكل خرافى الى حد الصيرة في الكشف عن هويته : أمر حكيم أم نجال أم متعصب .

تحت لواء الفاتح كل الأمم التي كانت خاضعة لزنوبيا حتى حدود مصر .
وأصبحت تدمر الملجأ الأخير لأرملة أوديناتوس ، وقبعت داخل أسوار
عاصمتها ، وقد أمدت كل العدة لمقاومة صلبة ، وأعلنت في شجاعة
بطولية أنها لا بد أن تقرر نهاية حياتها بنهاية حكمها .

وتنشأ وسط الصحراء القاطلة بقاع قليلة مزروعة ، وكانها جزر في
بحار من الرمال . وحتى اسم تدمر أو بالميرا ، يدل في اللغتين السريانية
واللاتينية على مجموعة ضخمة من النخيل الذي يظل هذا الاقليم
المعتدل ويكسبه نضرة وخضرة . وكان هواؤه نقيًا ، وكان من
الميسور انتاج الفواكه والفلل حيث تروى الأرض بواسطة بعض ينابيع
عظيمة . وسرمان ما ترددت على هذا المكان ذى المزايا الفريد الواقع
على مسافة مناسبة بين الخليج الفارسي (العربي) والبحر المتوسط -
القوافل التي حملت الى أمم أوربا جزءا كبيرا من تجارة الهند الثينة ،
ونمت بالميرا - بطريقة غير ملحوظة - الى مدينة غنية مستقلة ، سمح
لها بالانزاع جانب الحياد المتواضع ، حيث كانت تربط بين دولتي الرومان
وبارثيا من طريق المصالح التجارية المتبادلة . ولكن الجمهورية
الصغيرة ، ارتقت في النهاية ، بعد انتصارات تراجان ، في أحضان
روما ، وازدهرت لمدة تزيد على مائة وخمسين عاما ، بوصفها مستعمرة
ذات مركز ثانوي تابع ، ولكنه مشرف . وإذا استطعنا أن نستخلص
شيئا من بعض النقوش القليلة الباقية ، فإنه يمكن القول بأن فترة
الهدوء والسلام هذه ، هي التي شيد فيها أهل بالميرا الموسرون - على
الطراز الاغريقي - هذه المعابد والقصور والأروقة ، التي نجد اطلالها
مبعثرة على مدى عدة أميال ، تجذب سيلحنا وتثير فضولهم ، ويبدو أن
ارتفاع أوديناتوس وزنوبيا عكس على البلد سناء جديدا ، وباتت لفترة
من الوقت منافسة لروما ، ولكن المنافسة كانت قتلة ، فضحيت عصور
طويلة من الازدهار والرفاء من أجل برهة قصيرة من الجد .

وكان العرب كثيرا ما يزعمون أوريليان في الصحراء بين حمص
وتدمر ، ولم يكن يستطيع حماية جيشه ، وخاصة العناد والمهبات ،
ضد هذه المعصبات الطائفة من اللصوص المثلثين جراءة ونشاطا ، الذين
ترقبوا فرصة المفاجأة ، واغلتوا من القوات التي تتبعهم ببطل . وكان
حصار تدمر أمرا أشق وأهم كثيرا . وأصيب الإمبراطور الذي تولى
بنفسه الهجوم في عزم وصلابة ، بجرح من إحدى النبال . وقال أوريليان
في خطاب له : « ان الشعب الروماني يتحدث في استهزاء وبسخرية عن
الحرب التي أشعلها لقد امرأة . ولكنهم يجهلون شخصية زنوبيا وقوتها .

وانه لمن العسير ان تحصي معداتها الحربية ، من الحجارة والسهام ، وكل انواع القذائف ، وكان كل جزء في الاسوار مزودا باثنين أو ثلاثة من المجانيق للقذف بالحجارة ، كما كانت النار الصناعية تقذف بالذهب من كل جانب . كما ملا الخوف من الحصار نفسها بشجاعة مستميتة . ومع كل هذا غانى ما ازال كبير الثقة في حماية آلهة رومها ، تلك الالهة التي كانت الى جانبى حتى الآن في كل ما قمت به من اعمال . ومهما يكن من امر ، فان اوريليان ساوره الشك في رعاية الالهة وفي نتيجة الحصار ، الى حد انه ارتأى انه من الحكمة ان يعرض عليهم التسليم بشروط اجدى وانفع ، فعرض على الملكة انسحابا كريما ، وعلى المواطنين الاحتفاظ بامتيازاتهم القديمة . ورفضت شروطه بلباء وشتم ، بل اقترن الرفض بالالهة .

والحق ان صلابة زنوبيا كانت ترتكز على الأمل في ان ترغب المجاعة جيش الرومان على التعجيل بمفادرة الصحراء في اقرب فرصة ، وعلى النطلع المعقول الى ان ملوك الشرق ، وخاصة عاهل الفرس ، لابد ان يبتشعوا السلام دفاعا عن حليتهم الطبيعي الى أبعد حد . ولكن حظ اوريليان ومثابرتة ظللا كل عقبة وقلبا الآية ، ذلك ان موت شابور في تلك الاثناء ، اذهل والهى مجالس الفرس . وكان من السهل على حراب الامبراطور وسخائه ان يقطعا الطريق على النجذات الهائلة التي حاولت انقاذ تدمر . وتتابع بانتظام وصول القوافل بسلام من مختلف أنحاء سوريا الى معسكر الرومان الذى زاد عدده . برجوع برويوس Probus بقواته الظافرة بعد غزو مصر . وعندئذ قررت زنوبيا الهرب ، غامتت اسرع هجتها ، وما كادت تصل الى شواطئ الفرات ، على بعد ستين ميلا من تدمر ، حتى ادركها فرسان اوريليان على جيادهم الخفيفة التي جدت السير في أثرها ، وقبضوا عليها وعادوا بها اسيرة بين قسدى الامبراطور . وسرعان ما سلبت عاصمتها بعد ذلك ، وعوملت في رفق لم يكن يتوقعا . وسلمت الاسلحة والخيول والجمال مع ثروة ضخمة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة الى الامبراطور الذى ترك حامية قوامها ستبائة قواس ، وعاد الى حمص ، حيث قضى بعض الوقت في توزيع الثواب والعقاب في نهاية حرب مشهودة ، أعادت الى حظيرة روما تلك الولايات التي كانت قد شقت عليها عصا الطاعة منذ أسر فلبريان .

ولما مثلت الملكة السورية بين يدي اوريليان سالها مدبها : « كيف اجترأت على حمل السلاح في وجه اباطرة الرومان ؟ » فكان جواب زنوبيا مزيجا حكيما من الاحترام والحزم والعزم : « لائى احتقرت أن

اعتبر امثال اوريولوس او جالينوس اباطرة رومان ، ولكى اتمر بانك انت وحدك ملك وفتح . ولكن جسد النساء عادة مصطنع ، ويندر أن يكون ثابتا أو متاسكا . فان زنوبيا خلقتها شجاعتها في ساعة المحاكمة ، وارتعدت غرائصها لدى سماعها لصيحات الجنود الذين طالبوا باعدامها فوراً ، ونسيت موقف كليوباترا الكريم البائس ، التي اتخذتها نهوجاً لها . واشترت ، شراء مخزياً شائناً ، حياتها بتضحية شهرتها واصدقاتها ، الذين نسبت وزر تعديها العنيد الى نصائحهم التي ساست ضعف النساء . ومن ثم وجهت اليهم انتقام أوريليان الغاشم القاسى . وستخلد شهرة لونجينوس الذي حشر في زمرة ضحاياها الكثيرين ، وربما الأبياء ، بعد شهرة الملكة التي قدرت به او الطافية الذي أعدمه . ولم تجد العبقرية والعلم في تحريك جندي أمى شرس ، ولكنهما نجحا في السمو بروح لونجينوس وانعاشها ، فانه تبع السيف في هدوء دون أن ينبس ببنت شفة ، يندب سيدته التعسة ، ويقدم المراء والسلوى لاصدقائه المنكوبين .

وما كاد أوريليان يعبر المضائق التي تفصل بين أوروبا وآسيا ، عائداً من فتوحاته في الشرق ، حتى فوجيء بالأنباء التي تقول بان أهل تدبر رفعوا راية المصيان من جديد وذبحوا الحاكم والحامية التي كان قد تركها هناك . فلم يضيع لحظة واحدة في الأخذ والرد ، بل ولى وجهه في الحال مرة أخرى شطر سوريا . وروعت مدينة أنطاكية لاقتراب الإمبراطور على عجل ، واضست مدينة تدبر العاجزة البائسة وطاة حنقه الذي لا يمكن دفعه . وهناك رسالة لأوريليان نفسه يعترف فيها بان الشيوخ والنساء والأطفال والفلاحين لم يسلموا من الأعدام الرهيب الذي كان خليقا أن يقتصر على المتمردين المسلحين ، وعلى الرغم من أن عنايته اتجهت الى اعادة بناء معبد الشمس ، فانه استشعر شيئاً من الشفقة نحو من بقي من أهل تدبر ، فمنحهم ترخيصة في اعادة بناء مدينتهم وسكنها . ولكن الهدم أيسر من اعادة البناء . فقد انحط مركز التجارة والفنون ومقر زنوبيا ، مع الأيام ، الى مدينة صغيرة خابلة ، وحسن تائه ، ثم الى قرية تصمة في النهاية . واتلم مواطنو تدبر الحاليون — وعددهم لا يجاوز ثلاثين أو أربعين أسرة — أكواخهم من الطين في الفناء المسيع للمعبد الفخم .

وثمة عمل آخر ، وهو الأخير ، كان ينتظر أوريليان الذي لا يكل ولا يمل ، ذلك ان يخذ ثورة خطيرة ، ولو أنها غابضة ، قامت على ضفاف النيل في أثناء ثورة تدبر . ولم يكن فرموس Firmus — صديق لوديناتوس وزنوبيا وحليفهما ، كما كان يفخر بان يسمى نفسه — أكثر

من مجرد تاجر ثرى فى مصر . وفى تجارته مع الهند وطد اوثق الصلات بينه وبين العرب والبلبيين Blemunyes الذين كانوا يقطنون على جانبى البحر الأحمر ، ومن ثم سهل اتصالهم بصعيد مصر ، والهب فرموس نفوس المصريين بالأمل فى نيل الحرية ، وسار على رأس الجمهور الهائج الى مدينة الاسكندرية حيث اتخذ لنفسه لقب الإمبراطور ، وسك النقود وأصدر الأوامر ، وكون جيشا كان يفخر عبثا بأنه يستطيع الاحتفاظ به والاتفاق عليه من أرباحه من تجارة الورق وحدها . ولكن مثل هذه القوات لم تشكل الا دغايا هزيلا ضد الإمبراطور الذى كان يقترب من الميدان ، ونحن فى غنى عن القول بأن فيرموس هزم وأخذ وعذب ثم أعدم . واستطاع الآن أوريليان أن يهنئ السناتو والشعب ، ويهنئ نفسه ، لأنه تمكن فى ثلاث سنوات ، أو زد عليها قليلا من أن يحيد السلام والنظام شاملين الى ربوع العالم الرومانى .

انتصار أوريليان ووفاته

لم يكن ثمة قائد أجدر من أوريليان بالفوز والظفر ، منذ تأسيس روما ، كما لم يحفظ أى انتصار يمثل هذا الاعتزاز الكبير والأبهه العظيمة . وبدأ الموكب بعشرين فيلا ، وأربعة نمور ملكية ، وأكثر من مائتين من أغرب الحيوانات من مختلف الأجواء فى الشمال والشرق والجنوب ، يتبعها ألف وستائة من المجالدين المتفرجين لتسلية المدرج الخطيرة . وعرضت كتوز آسيا وأسلحة وشعارات أهم كثيرة ، ولوحة ملكة سوريا الفخية وخزانة ملابسها فى ترتيب دقيق وخط خبيث . وكشف عن مظلة إمبراطور الرومان وقوته هذا الحشد الكبير من سفراء أقصى أهم الأرض : اثيوبيا وبلاد العرب وفارس وبكتريانا والهند والصين ، بملابسهم الفاخرة أو الفريدة فى بابها ، كما عرض الإمبراطور بدوره لأنظار الجباهير الهدايا التى كان قد تلقاها ، وبخاصة هذا العدد الكبير من التيجان الذهبية التى قدمت له المدن العارفة لفضله . وشهد على انتصارات أوريليان هذا الحشد الكبير من الأسرى الذين ساروا كارهين فى ركابه المظفر ، من القوط والوندال والسلمانيين والألمسان والفرنجة والغال والسوريين والمصريين . وقد تميز كل شعب بكتابته الخاصة ، ومنع لقب « المجتندات » لشر بطالات محاربات من القوط أسرن بكامل أسلحتهم . ولكن العيوب تانت مركزة على الإمبراطور تتركس ، وعلى ملكة الشرق ، بصرف النظر عن سائر حشود الأسرى . وكان الأول ، وابنه الذى أضفى عليه لقب أوغسطس ، يرتديان سروالا

غاليا (بنطلون يلبس في بلاد الغال) وقميصا زعفرانيا ورداء أرجوانيا(١). أما زنوبيا فقد كبت في أصفاد من ذهب ، وقد أمسك أحد العبيد بالسلسلة التي طوقت عنقها ، وكانت تنوء بما لا يحتمل من ثقل الحلى والمجوهرات التي عليها ، وسارت على قدميها أمام العربة الفاخرة التي كانت تؤمل يوما أن تدخل فيها أبواب روما . وتبعها عربتان أخريان أوفر وأبهى من عربة أوديناثوس وعربة كسرى فارس . أما مركبة النصر ، الخاصة بأوريليان (والتي كان يستخدمها أحد ملوك القوط من قبل) فكان يجرها في هذه المناسبة المشهودة أربعة من الأوعال أو من الفيلة . واختتم المركب بأبرز أعضاء السناتو والشعب والجيش . وتعالق هتافات الجميع معبرة عن الفرح الخالص والدهشة والامتنان . أما ارتياح السناتو فقد كدره ظهور تتركوس ، ولم يستطع شيوخ السناتو أن يكتبوا تذكروهم من أن يعرض الإمبراطور المتفطرس للسخط العام شخصا رومانيا وحاكما .

لكن أوريليان ، مهما أرضى غروره في معاملته لمنافسيه وأعدائه ، فإنه نهج معهم مسلكا كريما رحبما قل أن سلكه الغزاة القدامى ، حيث تشبوا ما كان يزوج بالأمراء الذين دافعوا عبثا عن مروشهم وحریاتهم في غياهب السجون ، بمجرد وصول مكعب النصر إلى الكابيتول . أما هؤلاء الفاصبون الذين دمغتهم هزيمتهم بجريمة الخيانة ، فقد رخص لهم في قضاء حياتهم في أسر وبجوبة ، فقد أهدى الإمبراطور زنوبيا ميلا جميلة في تيفولي ، على بعد خمسة وعشرين ميلا من العاصمة . وتحولت الملكة السورية دون أن تشعر إلى امرأة رومانية عسوان (متوسطة العمر) وتزوجت بناتها من أسرات نبيلة ، ولم يكن عنصرها قد انقرض بعد في القرن الخامس . أما تتركوس وابنه فقد ردت إليهما وظائفهما وثوراتهما وشيدا تمرا فخما فوق تل كلبان Caelian Hill دعى إليه ، بمجرد الانتهاء منه أوريليان لقتال العشاء ، وفوجيء عند دخوله بهناجة لطيفة ، حيث وقع بصره على صورة تمثل منظرا فريدا في تاريخهما الفريد ، وهما يقدمان للإمبراطور أكليل الفار وصولجان الغال ، وهما يتناولان من يده أوسمة عضوية السناتو . وأسندت إلى

.. (١) كان استخدام السراويل لا يزال يقتصر في إيطاليا زيا غاليا أو بربريا . وقد أدخل عليه الرومان تحسينات كثيرة على أية حال . أما لف الأرجل والألفاظ بالعصائب ، فكان يؤخذ في عهد بومبي وهوراس على أنه دليل على اعتلال الصحة والافتقار . وكانت هذه العادة مقصورة في عهد تراجان على الأجنبياء والمترايين ، ثم اقتبسها بالتدريج سلك القزم .

تتريكوس الوالد بعد ذلك حكومة لوكانيا Lucania . وسرعان ما مكن أوريليان أواصر الصداقة بينه وبين هذا الملك المخلوع ، وتجاذب معه أطراف الحديث فسأله يوما في غير ما كلفة : أما كان من الأفضل أن يدير ولاية في إيطاليا أكثر من أن يحكم فيها وراء الألب ؟ أما الابن فقد بقى طويلا عضوا محترما في السناتو . ولم يحظ أحد من النبلاء الرومان بأكثر مما حظى هو بتقدير أوريليان وخلفائه .

واستطال وقت موكب النصر وتنوعت عروضه . فقد بدأ مع خيوط الفجر ، ولكن الموكب كان يتهادى يحف به الجلال والمظلة ، فلم يصل إلى الكابيتول قبل الساعة التاسعة ، وخيم الظلام بالفعل قبل أن يعود أوريليان إلى قصره . وقد تخلل الاحتفال بعض المشاهد المسرحية واللعاب السيرك ، وصيد الوحوش ومنازلة المجالدين والاشتباكات البحرية ، ووزعت العطايا السخية على الجنود والشعب ، وساهمت بعض المشروعات الخيرية أو المفيدة للملائة للشعب في تخليد مجد أوريليان . وخصص جزء كبير من غنائه في الشرق لآلهة روما ، وتالقت في الكابيتول وغيره من المعابد الهدايا التي قدمها الإمبراطور المتباهى بتقواه ، وتلقى معبد الشمس وحده أكثر من خمسة عشر ألف رطل من الذهب . وكان هذا المعبد الأخير تحفة رائعة في عالم البناء شيده الإمبراطور على أحد جوانب تل كويرينال ، وخصص بعد النصر مباشرة لذلك الإله الذي عبده أوريليان على أنه مصدر حياته ونزواته . وكانت أمه كاهنة صغيرة في معبد صغير للشمس ، وفي عهد طفولته رسخ في نفس الفلاحة السعيدة الحظ عاطفة تبتل خاص لاله النور ، وكانت كل خطوة في سلم المجد ، وكل انتصار أحرزه أثناء حكمه ، بمثابة تديميم الخرامة بالعرفان والامتنان .

وقهرت أسلحة أوريليان أعداء الجمهورية في الداخل والخارج . فقد ثبت لنا من يقين أنه بفضل صراجه الناجمة ، قد محيت من العالم الروماني ، الجرائم والفتن ، والأعياب السوء والمجاعة الخبيثة ، كما جيل بين النبو المفرط لحكومة ضعيفة ظالمة ، ولكننا إذا تذكرنا إلى أي حد يكون استثمار الفيساد أسرع من علاجه ، وإن عدد المستن التي ساد فيها الخلل العام الشامل جاوز الشهور التي قضاهما أوريليان في الحكم العسكري — لا عترنا بأن فترات السلم القليلة القصيرة لم تكن كافية للمهمة الشاقة ، مهمة الإصلاح . وحتى محاولته لاستعادة سلامة العملة ، فأنها لقيت معارضة شديدة . ويتفجر غيظ الإمبراطور في رسالة خاصة يقول فيها : « حقا لقد قضت الآلهة بأن تكون حياتي جريسا منملة . فقد أدت فتنة داخل الجدران إلى حرب أهلية طاحنة . فإن

عمال سك النقود - يتحريض من فلوكسيموس Feliciasimus وهو عبد عينته في وظيفة في المالية هبوا ثائرين ، وقد أخذت في النهاية ثورتهم ، ولكن بعد أن فُبح في النزاع سبعة آلاف من الجنود الذين كان مقرهم الأصلي في داشيا والمسكرات الواقعة على طول الدانوب . ويقول كتلب آخرون ، ممن يذكرون الحقيقة نفسها ، انه حدث بعد انفصال أوريليان مباشرة ، وأن المعركة الفاصلة نشبت فوق تل كليان ، وأن عمال سك النقود زينوا العملة ، وأن الإمبراطور استرد ثقة الشعب بأن وزع عملة أصيلة بدلاً من العملة الزائفة التي أمر الناس أن يردوها إلى الخزنة .

وقد نكتفى بسرد هذه العمليات الشاذة ، ولكننا لا نستطيع أن نغض الطرف عن مدى ما يبدو فيها من تناقض ، ومن عدم امكان تصديتها ، فقد يلتزم تزييف العملة حقاً مع حكم جالينوس ، على حين كان من المحتمل أن تخشى آلات الفساد عدالة أوريليان التي لا تلتين ولا تنثنى . ولكن الجريمة والريخ لابد أنهما كانا محصورين في فئة قليلة ، وليس من السهل أن ننتين الأمانين التي استطاعوا بها أن يسلحوا شعباً آذوه وأساعوا اليه ضد ملك غدروا به ، وقد يكون من الطبيعي أن نتوقع أن مثل هؤلاء الأشرار قد شاركوا النمامين وغيرهم من أعوان الظلم في استياء الشعب ، وأن اصلاح العملة لابد أن يكون عملاً رحب به الشعب قدر ترحيبه باتلاف الحسابات القديمة بأمر الإمبراطور في ساحة تراجان . وفي عصر لم تكن أصول التجارة معروفة فيه معرفة دقيقة ، قد تنفذ الغاية المرجوة بالوسائل الخسنة الغريبة . ولكن قل أن تأثير شكوى طارئة من هذا النوع حرباً أهلية رهيبية . أما تكرار غرض الإضراب المجحف على الأرض وعلى ضرورات الحياة ، فإنه يثير في النهاية الذين إن يهجروا بلدهم أو الذين لا يستطيعون أن يهجروها . ولكن المسألة كانت تختلف من ذلك تماماً ، في كل عملية كان يمكن أن تعيد إلى العملة قيمتها الحقيقية مهما كانت الوسائل . فسرعان ما تمحو المنفعة الدائمة أي أذى عاجل ، وتتوزع الخسارة بين الجباهير . وإذا عانى قليل من الأضرار المؤسرين نقصاً في أموالهم ، فإنهم في نفس الوقت سيفقدون إلى جانب ثرواتهم تلك الأهمية وذلك الوزن اللذين كسبهما عليهم تملكهم لهذه الثروات . وبهذا أراد أوريليان أن يخفي السبب الحقيقي للفتنة ، فإن اصلاحه للعملة لن يقدم إلا إدماء طفيفاً لجماعة كانت لا تزال قوية غير راضية ، فقد أزعج الشعب روما رغم حرمانها من الحرية ، فإن الشعب الذي أظهر له الإمبراطور دأباً - وهو نفسه واحد من العامة - ولماً خافاً ، عاش في شقاق دائم مع السناتو

والفرسان والحرس البريتورى . ولم يكن ثمة شيء اقل من المؤامرة الحازمة الخفية التى تحيكها هذه الهيئات : الأولى بما لها من نفوذ ، والثانية بثرائها ، والثالثة بسلاحتها — يمكن أن يشكل قوة تناهض فرق الدانوب القدامى المحنكين ، الذين أنجزوا فتح الغرب والشرق تحت إمرة الامبراطور الذى اولع بالحرب .

ومهما كان الاحتمال ضعيفا فى ارجاع سبب هذه الثورة الى عمال سك النقود ، فإن أوريليان استغل انتصاره فى صرامة عاتية ، وكان بفطرته نزاعا الى القسوة ، ويوصفه فلاحا وجنديا ، لم ترق اعصابه ، بسهولة لدوافع الشفقة والعطف ، وكان يحتفل دون انفعال ومشاهد التعذيب والقتل ، وقد تحرب منذ نعومة اظفاره على السلاح ، ومن ثم لم يقيم كبير وزن لحياة الفرد ، وعاقب آتفه الذنوب بالاعدام ، ونقل صرامة النظام فى المعسكر الى مجال الادارة المدنية للتوانين . وكثيرا ما انقلب حبه للمعدالة الى هوى اعمى عنيف . وحيثما حسب أن هناك خطرا على سلامته او سلامة الشعب اغفل كل قواعد الاثبات والبينة ، واغفل تناسب العقوبات . فإن الثورة التى لم يكن لها ما يبررها والتى كانا بها الرومان خدماته ، أثارت نفسه المتعالية . وأخذت أنبل الأسرات فى العاصمة بهذه الجريرة ، أو بالشك فى اشتراكها فى المؤامرة الخفية . فندفعت روح طائشة للانتقام الى الاضطهاد الدموى الذى راح ضحيته أحد أبناء أخوة الامبراطور ، ولقد تعب الجلادون (اذا جاز لنا أن نستخدم تعبير شاعر معاصر) وامتلأت السجون ، وحزن السناتو المنكود على موت أو غياب أبرع أعضائه ، كما لم تكن فطرسة أوريليان وغروره اقل ايذاء للسناتو من قسوته ، فاته — جهلا منه أو ضيقا بضوابط النظم الادارية — احتقر أن يمارس سلطته تحت أى لقب الا السيف ، وحكم ، بحق الفتح ، الامبراطورية التى انتقذها واخضعها .

وقد لاحظ واحد من أحكم أبراء الرومان أن مواهب سلفه أوريليان كانت البقى بقيادة جيش منها بحكم امبراطورية . وكان أوريليان يدرك الدور الذى هبات له الطبيعة والتجربة أن يبرع ويبرز فيه ، ولذلك عاد الى الميدان بعد بضعة شهور من انتصاره . وكان من الخير أن يستخدم تلطف الفرق وغورائها فى حرب خارجية ، وكان كسرى الفرس الذى يتهلل ويعتز بغضبة الفارسيين لا يزال يجترى ، دون حساب أو عتاب ، على كبرياء روما الجريحة . وتقدم الامبراطور على رأس جيش اقل فى الجدد منه فى النظام والاشجاعة ، نحو المضائق التى تفصل أوروبا عن آسيا . وهناك خبر وعرف أن أكبر قوة لا تعدو أن تكون دفاعا ضعيفا

ضد آثان اليأس وخيبة الأمل . وكان قد وجه تهديدا إلى أحد أفراد سكرتيريته ، اتهمه بإقتزاز الأموال ، وكان المعروف أن تهديده قل أن يذهب سدى . وكان آخر أمل تعلق به المجرم هو أن يشرك بعض كبار ضباط الجيش في الخطر المحقق به ، أو على الأقل في مخلوقه . فمعد في براعة ودهاء إلى تزوير خط الإمبراطور ، ثم أطلع هؤلاء الضباط على قائمة طويلة لعينة تضمنت أسماءهم والحكم عليهم بالإعدام . ومن ثم عقدوا النية ، دون أن يساورهم الشك أو أن يحققوا في هذا الغش والاحتيال — على انقاذ حياتهم بقتل الإمبراطور . وفي أثناء سيره بين بيزنطة ومرطية انقض على المتأمرين الذين كانت تخولهم مراتبهم أن يحيطوا بشخصه . وبعد مقاومة قصيرة خر صريعا بيد موكابور Mucapor ، وهو قائد كان أوريليان يحبه ويثق فيه . وقضى الإمبراطور نحيبه بأسوأ عليه من الجيش ، مكروها من السفاتو ، ولكن كان ثمة اقرار عام شامل بأنه كان أميرا محاربا سعيد الحظ ، وبأنه كان المصلح الناجح لدولة منحلّة ، رغم قسوته .

وبعد قتل أوريليان ، مارس السناتو سلطته ، للمرة الأخيرة وانتخب م . كلوديوس تاسيتس M. Claudius Tacitus وأرتضاه الجيش ، وقاد حملة موفقة ضد الألان Alans (قبيلة من المتبربرين الرحل) ، استقروا في جنوب شرقي روسيا في القرون الثلاثة الميلادية الأولى) ثم انتخب الجيش بعد مقتله م أوريليوس بروبوس M. Aurelius Probus . وقد أحرز انتصارات في الراين والدانوب قبل أن يقتل في سيرميوم Sirmium . ومات خلفه م أوريليوس كاروس Carus في ظروف غامضة في بداية حملة ضد فارس . وأعقبه أولاده من بعده . على أن جماعة من الضباط في خلقونية انتخبوا س . أوريليوس فاليريوس وبقلديانوس . وحكم كارينوس الابن الذي بقي بعد أبيه كاروس ، حكم فترة في الغرب . وانتصر بقلديانوس في معركة مارجوس Margus ومن ثم أصبح السيد الأوحّد في عالم الرومان . وقد ورد ذكر هذا كله في الفصل الثاني عشر . وقد حلفنا من هذا المختصر .

النظام الإمبراطوري الجديد

الفصل الثالث عشر

(٢٨٥ - ٣١٣ م)

حكم دقلديانوس وشركائه الثلاثة : انتصاره وتنظيمه الجديد

نشوء مراسم البلاط . اعتقال دقلديانوس . اضحلال الفنون

كان عصر دقلديانوس ازهى من أى عصر من عصور اسلافه ، كما كان مولده كذلك أكثر غبوضا وضمة . وكثيرا ما حصلت ادمعات الجدارة والموهبة والعنف — نقول حلت تلك الادعاءات العريضة محل الميزات المثالية للنبل والشرف . ولكن حاجزا واضحا فاصلا كان لا يزال حتى الآن قائما بين الحر والعبد من بنى الانسان . لقد كان آباء دقلديانوس مبيدا في بيت انولينوس *Anulius* وهو شيخ روماني من أعضاء السناتو ، ولم يكن دقلديانوس نفسه يتميز بأى اسم آخر غير هذا الذى اشتقه من مدينة صغيرة في دلماشيا ، حيث كان مقيم أبه ، ومن المحتمل على أية حال أن يكون أبوه قد حصل على حرية الأسرة ، وأنه حصل كذلك بسرمة على وظيفة كاتب ، التى كان يشغلها عادة أشخاص من امثاله . وألهمت كلمات الوحي الطيبة ، أو قل حسن ادراكه لمواهبه السامية ، ألهمت الابن المتطلع ليسلك طرق الجندي ويتعلق بأمانى الحظ السعيد . وقد يكون من أعجب العجب أن نعتقد تدرج الاساليب والأحداث التى مكنته آخر الأمر من تحقيق النبوءات واطهار هذه المواهب للعالم أجمع . فقد ارتقى دقلديانوس على التوالي الى حكومة ماسيا *Moesia* ثم الى مرتبة القنصل ، ثم الى قيادة حرس قصر ، وهى وظيفة خطيرة الشأن . وقد تجلت قدرته وكفايته في حرب

نارس . وبناء على اعتراف منافسيه وحكمهم ، وبعد موت نومريان Numerian ، أعلنوا أنه — وهو العبد — أجدر شخص بعرش الإمبراطورية . وعلى حين دمغت الغيرة الدينية المشوبة بالخبط والحدس ، زميله مكسيميان Maximian بالقسوة الوحشية فانها عملت على القضاء ظلال من الشك في شجاعة الإمبراطور دقلديانوس الشخصية . وليس من اليسير أن تقتنع بجبن جندي من جنود الحظ ، حظى بتقدير الفرق ، ويحب كثير من الأمراء المحاربين ، في وقت معا . ولكن الوشاية تقتزن عادة بقدر من الفطنة والذكاء يجعلها قادرة على اكتشاف أضعف الجوانب ومهاجمتها . ولم تقصر هبة دقلديانوس به يوما عن النهوض بواجبه ، أو عن مواجهة أية مناسبة طارئة ، ولكنه لم يبد أنه قد أوتى الروح الجريئة الكريمة لبطل يرحب بالخطر وينشد الشهرة ، ويحترق التصنع ، ويتحدى في جراءة ولأه النظراء ، فكانت مواهبه نافعة أكثر منها باهرة أو بارزة . وكان ذا عقل راجح تصقله وترقى به التجربة ودراسة البشر ، مع سعة الحيلة وتطبيق العلم على العمل ، ومزيج معقول من السخاء والاقتصاد ، ومن الرقة والصرامة ، ورياء عميق تحت ستار من الصراحة العسكرية ، وجلد على تحقيق الغايات مع مرونة في تنويع الوسائل ، وفوق كل هذا ، تفنن عظيم في إخضاع أهوائه وأهواء الآخرين لمصلحة أطماعه ، وفي صلب هذه الأطماع بأشدّ الإدماجات خداعا ، مدعيا أنها من أجل العدالة والمصلحة العامة . ويمكن أن يعتبر دقلديانوس ، مثله في ذلك مثل أوغسطس ، مؤسسا لإمبراطورية جديدة ، وتميز — كما تميز ابن تيمر المتينى — بأنه رجل دولة وسياسة أكثر من رجل حرب وطعان ، فان أحدا من هذين الأميرين لم يستخدم القوة حيثما تحققت أغراضه بالسياسة .

وقد تميز انتصار دقلديانوس بالاعتدال الفريد في بابه . فان الناس الذين تعودوا أن يبتدحوا الفاتح ورحيقه إذا أنزلت عنونه الموت أو الذنى أو المصادرة في شيء من المساواة والرفق ، شهدوا — لشدة دهشتهم واغتيالهم — حربا أهلية يخمد أوارها في ساحة القتال . فقد وثق دقلديانوس في أرسطوبولوس الوزير الأول في بيت كساروس ، واحترم حياة أعدائه وأموالهم ومكنتهم ، بل أبقى على الجزء الأكبر من اتباع كارينوس في مناصبهم . وليس من غريب المحتمل أن بواعث الفطنة والتدبير قد ساعدت روح الانسانية لدى هذا الدلمشى الداهية المحتال ، فان كثيرا من هؤلاء الأتباع اشتروا حظوتهم لديه بالخيانة المستورة ، كما أنه قدر في آخرين إخلاصهم واعترافهم بفضل سسيدي منكود بلثس . وكان أوريليان وبروباس وكاروس بفضل بصيرتهم

النافذة قد ملأوا إدارات الدولة والجيش بموظفين ذوي مواهب معترف بها ، ممن كان إخراجهم من وظائفهم يضر بالخدمة العامة ، دون أن يحقق أية مصلحة لمن يتولى العرش بعدهم . وقد أظهر مثل هذا السلوك ، على أية حال ، للعالم الروماني أجمل جوانب الحكم الجديد ، وتظاهر الإمبراطور بتوكيد هذا الإرث المحمود حين أعلن أنه - من بين فضائل وسجالي أسلافه ، كان يطمح أكثر ما يطمح في محاكاة فلسفة ماركوس أنطونيوس القائمة على الخير والإحسان .

ويبدو أن أول عمل هام قام به قد أوضح إخلاصه واعتداله معا . ذلك أنه هذا حذو ماركوس فجعل من مكسيميان Maximian زميلا له ، وأضنى عليه في البداية لقب قيصر ، ثم لقب أوغسطس فيما بعد ، ولكن بواعث هذا السلوك والشخص الذي اختاره ، كانت تختلف كل الاختلاف عن بواعث واختيار سلفه موضع إعجابه . فان ماركوس ، بتوليته شأبا مترفا على العرش ، قد دفع في الواقع دين الاعتراف بالفضل الخاص ، على حساب سعادة الدولة . ولكن دقلديانوس ، بإشراكه صديقا ورفيق سلاح في مهام الحكم ، قد أعد العدة للدفاع عن الشرق والغرب على السواء ، إذا ما أهدق أى خطر داهم . فقد ولد مكسيميان مثل أوريليان نالجا في مقاطعة سرميوم . فكان أميا لا يعبا بالقوانين ، وكانت سذاجة مظهره وسلوكه ، تنضح ، حتى في أسس مراتب حظه ، وضاعة نشأته . ولم يحذق إلا فن الحرب . وقد اشتهر موقفه في كل بقعة من حدود الإمبراطورية ، طوال سنين خدمته الكثيرة الحافلة ، ورغم أن مواهبه العسكرية كانت ألبق بالطاعة أكثر منها بالقيادة ، وأنه لم يرق إلى مهارة قائد بلغ حد الكمال ، فإنه ، بفضل عزيمته وثباته وخبرته ، استطاع أن ينهض بأشق الأمباء . كما أن مساوئ مكسيميان لم تكن أقل نلعا لولى نعمته . فقد كان لا يستشعر الشفقة ولا يتهيب العواقب ، ومن ثم أصبحت في يده الأداة الطيبة المستعدة لكل عمل من أعمال القسوة تسمى به وتتصل منه معا سياسة الأمير الداهية المحتال . فما أن تضى على مذبح الحذر أو الانتقام غريسة ، حتى يسارع دقلديانوس بشفاعته التي يؤديها في وقتها إلى انقاذ الفئة القليلة الباقية من الأفراد الذين لم يفكر قط في أنزال العقاب بهم ، ثم ينفى باللائمة في وداعة ورفق على زميله العنيد وينسدد بقسوته ، وينعمسم بالمقارنة بين العصر الذهبي (أى حكمه هو) وعصر الحديد (أى حكم زميله) ، كما نعتها الناس ، على أساس مبادئها المتناقضة في الحكم . ورغم تباين شخصيتي الإمبراطورين ، فقد احتفظا وهما على العرش بهذه الصداقة التي كانت تربط بينهما منذ كانا رقيقى سلاح . فقد ألف

مكسيميان — بما ركب فيه من صلف وهوج وتهيج ، مما كان سببا في القضاء عليه وعلى السلام العام — ألف أن يحترم ذكاء دقلديانوس وعبقريته ، واعترف بسيادة منطق العقل على مطلق العنف الوحشى . ولسنا ندرى اهو يدافع من الزهو أو باعث من الخرافة أن اتخذ الواحد منهما لنفسه لقب جوفوريوس Govius والثانى لقب هرقلوليوس Hercules وبينما كان جوبيتر يصسون حركة العالم بحكمته المحيطة بكل شىء (هكذا كان يقول خطباؤهما المرتشون) كانت يد هرقلوليوس التى لا تقهر ، تبطش بالطفافة والجبابة وتطهر الأرض منهم .

ولكن حتى القدرة على كل شىء عند جوفوريوس وهرقلوليوس ، لم تكن كافية لاحتمال ثقل الإدارة العامة . فقد اكتشفت فطنة دقلديانوس أن الامبراطورية التى يقتحمها المتبربرون من كل جانب تتطلب في كل ناحية منها جيشا كبيرا وامبراطورا . وفي ضوء هذا التفكير عقد المزم مرة أخرى على تقسيم السلطة المريكة المتشعبة . وتوزيع السيادة العليا ، على قدم المساواة ، بين قائدين موهوبين مشهود لهما بالفضل ، على أن يكون لكل منهما لقب أدنى مرتبة وهو « قيصر » . أما الشخصان اللذان حباها بمرتبة الشرف الثانية في السدة الامبراطورية، فهما جالوريوس ، وكثيته أرمنطاريوس ، وكان في الأصل يشغل برعى الماشية ، وقسطنطيوس Constantius الذى بلغ من شحوب وجهه أن سموه كلورس Chlorus . وفي وصفنا لبلد هرقلوليوس ومنبته وخلقه، نكون كذلك قد وفيينا جالوريوس حقه في هذه النواحي . وكثيرا ما كان يسمى ، وبحق ، مكسيميان الأصفر ، ولو أنه أثبت في مناسبات كثيرة أنه يئوق الأكبر فضلا وكفاية ، بشكل واضح . أما منبت قسطنطيوس فكان أقل غموضا من أقرانه . فقد كان أبوه يثروبيوس Eutropius من اكبر اشراف دردانيا Dardania ، وكانت أمه ابنة أخت الامبراطور كلوديوس . ونفى قسطنطيوس شبابه في خدمة الجيش ، ولكنه كان على خلق رضى رقيق . وقد اعترف الناس بجدارته بهذه المرتبة الرفيعة التى بلغها في النهاية . ورغبة في توثيق أواصر الوحدة السياسية بالوحدة الداخلية الاسرية ، انتحل كل من الامبراطورين صفة الوالد لأحد القيصرين : دقلديانوس لجالوريوس ، ومكسيميان لقسطنطيوس . والزمنا كما 'منهما بطلاق زوجته المسابقة ، ووهب كل منهما ابنته زوجة لابنه بالتبنى . واقتسم هؤلاء الأمراء الأربعة فيما بينهم أركان الامبراطورية الرومانية المترامية الاطراف ، فعهد الى قسطنطيوس بالدفاع عن الغال واسبانيا وبريطانيا ، واتخذ جالوريوس من ضفاف الدانوب ركزا له لكون وقاية لولايات الليريا . واعتبرت ايطاليا وأفريقية نطاق حكم

مكسيميان ، واحتفظ دقلديانوس بتراقيا ومصر واقطار آسيا الغنية ، نصيبا خاصا به . وكان كل منهم ملكا وسيدا في نطاق ولايته الشرعية ، ولكن سلطتهم المتحدة امتدت على المملكة بأسرها ، وكان كل منهم على اتم استعداد لمعاونة زملائه بمشورته أو بحضوره . وعرف القيصران ، في مكاتهما الرفيع ، للامبراطورين جلالهما وعظمتهم ، أما الأمراء الثلاثة الصغار ، فقد اعترفوا ، على قدم المساواة بأبيهم المشترك ومقدر حظوظهم ، فالتزموا طاعته وعرفوا له أياديه البيضاء عليهم . ولم تجد الغيرة المرتبة التي تقتن بالسلطة والقوة طريقها اليهم ، أو مكانا بينهم قط ، حتى لقد قورفت وحدتهم السعيدة بفرقة موسيقية حافظت مهارة الفنان الأول فيها على التناسق والانسجام بينها ، وضبطتها .

ولم يتم هذا الاجراء الهام الا بعد ست سنوات من اشراك مكسيميان . على أن هذه الفترة من الزمن لم تخل من أحداث تذكر . ولكننا ، زيادة في الايضاح ، آثرنا أن نصف ، أولا الشكل الأدق المحكم في عهد دقلديانوس ، ثم نردنه بأعماله ، متبعين في ذلك الترتيب الطبيعي للأحداث أكثر من التسلسل التاريخي المشكوك فيه .

أخمد مكسيميان ثورة الفلاحين في الغال ، وكان كاروس سيوس Carausius قد سيطر على اسطول القتال بحر الشمال ، فاحتل لنفسه صفة الامبراطور في بريطانيا ، ولكن قتله انتهى باستعادة قسطنطينوس لبريطانيا . وهى القيصران حدود الراين والدانوب . ووجه دقلديانوس اهتمامه نحو الشرق بعد أن اخمد ثورة في مصر ، ونصب حاكما صديقا هو تيريدانس Tiridates على أرمينيا ، وتنازل لفارس عن الولايات الواقعة فيها وراء حجلة ، وعقد معها صلحا دام أربعين عاما .

انتصار دقلديانوس ، ونظامه الجديد

وما وافت السنة العشرون من حكم دقلديانوس حتى احتفل بهذه الفترة المشهودة ويظفر جيوشه في موكب نصر روماني . ولم يشاركه في جلال هذا اليوم وبهائه الا مكسيميان شريكه التكافئ معه في القوة والسلطة . وقد حارب القيصران وفتحوا — ولكن ، تبعا لصرامة المبادئ القديمة ، نسب الفضل في كل منجزاتها الى النفس الموفق والطالع السعيد لأبويهما وامبراطوريهما . وربما كان اقتصاص دقلديانوس

ومكسيهيان أتل مخارا من انتصار أوريليوس وبروبوس ، ولكن عدة ظروف أضفت على الأول شهرة أكبر وحظا أسعد ، فقد أقيمت الانصاف التذكارية في أفريقية وبريطانيا والراين والدانوب والنيل . ولكن أبرز زينة وأبهى احتفال كانا ذوى طبيعة غريفة : انتصار في فارس أعقبه فتح مابين ، فحملت أمام العرية الامبراطورية رسوم الانتصار والجبال والولايات . وثمة مشهد جديد أرضى غرور الشعب : زوجات كسرى العظيم وأخواته وأطفاله ، ممن وقعن أسيرات . وهذا انتصار مشهور مذكور لدى الذراري والأعقاب ، لأنه ينفرد بميزة أدنى شرما وأقل مجدا . ذلك أنه كان آخر انتصار شهدته روما ، فقد توقفت الإباطرة بعد هذه الفترة عن تهر الأعداء ، وتوقفت روما عن أن تكون عاصمة الامبراطورية .

وكانت الميعة التي أسست عليها روما قد اختصت بطقوس قديمة ومعجزات موهومة . فبدأ أن وجود الله ما ، أو ذكرى أى بطل ما أنعمش كل أرجاء المدينة وبمخ فيها الحياة . وأن الكابيتول قد وعد بالامبراطورية العالم . وأحس المواطنون الرومان بقوة هذا الوهم المقبول وأقروه . فقد نبع من آباءهم الأولين ، ونما وترعرع مع أقدم عادات حياتهم ، ثم رمنه وتمهده ، الى حد ما ، فكرة المنفعة السياسية . وكان كيان الحكومة ومقرها ممتازين الواحد منهما بالآخر مزجا شديدا . ورش أنه لم يكن من الميسور نقل أحدهما دون تدبير الآخر . وتقلصت مع الأيام سيادة العاصمة بالتوسع في الفتوح ، وارتقت الولايات الى نفس المستوى ، وحصلت الأمم المقهورة على الاسم والامتيازات دون أن تتفدى بشاعر الحب والتعلق التي وضعها الرومان . على أن بقايا الدستور القديم وتأثير العرف حافظا على مكانة روما لفترة طويلة . ورغم أن الإباطرة كانوا قد نشأوا في أفريقية أو في الليريا ، فانهم احترموا البلاد التي جنوها ، بوصفها مقرا لسلطانهم وقوتهم ، ومركز أملاكهم الشاسعة . وكثيرا ما اقتضت طوارئ الحرب وجودهم على الحدود ، ولكن دقلديانوس ومكسيهيان كانا أول الإباطرة الرومان الذين حددوا اقامتهم العادية في الولايات في زمن السلم . ومهما كان من بواعث خاصة وراء سلوكهما هذا ، فقد برراه باعتبارات سياسية نيقوها تمويها . فاستقر بلاط امبراطور الغرب ، على الاغلب ، في ميلان ، حيث بدا موقعها في سفح جبال الالب افضل من موقع روما ، تحقيقا لنرض هام هو مراقبة حركات المتبريرين في ألمانيا . وسرعان ما انتحلت ميلان بهاء المدينة الامبراطورية وغلختها . فوصفت الدور بالوفرة وجبال البناء ، ووصف سلوك الشعب بالتهذيب والصقل والسخاء .

وزاد في رواء العاصمة الجديدة السيرك والمسرح ، ودار سك النفود ، والقصر ، والحمامات ، التي حملت اسم سيدها مكسيميان ، الى جانب الأروقة التي زينت بالتماثيل والأسوار المزخوجة التي أحاطت بها ، كذلك يبدو انه لم يضايقها قربها من روما . وكان دقلديانوس كذلك يطمع في منافسة عظمة روما ، وكان قد استغل أوقات فراغه كما استخدم ثروة الشرق في تجميل نيقوميديا ، وهي مدينة تقع على حافة لوريا وآسيا ، على مسافة تكاد تكون واحدة بين الدانوب والغرات . وفي بضع سنين قليلة بلغت نيقوميديا درجة من الفخامة ارتضاها ذوق الملك ، ودفع ثمنها الشعب ، حتى بدا انه قد تم في بضع سنين ما كان انجازه يتطلب جهد العصور ، وباتت نيقوميديا أقل من روما والأستكدرية وأنطاكية في كثافة السكان فقط . وكانت حياة دقلديانوس ومكسيميان حياة جد وعمل ، ولقد قضيا جزءا كبيرا منهما في المعسكر ، أو في مسيراتهم الطويلة الكثيرة ، حتى اذا سمحت الأعباء العامة لهما ببعض الاسترخاء والاستجمام سعدا باللجوء الى مقرهما المفضل الاثير في نيقوميديا وميلان . ومن المشكوك فيه كثيرا أن يكون دقلديانوس قد زار يوما العاصمة القديمة للإمبراطورية الى أن احتفل بيوم النصر في العام العشرين من حكمه ، وحتى في هذه المناسبة المشهودة لم تطلق أقامته فيها لأكثر من شهرين . وضاق ذرعا واستاء من مجور الناس في رفع الكلفة ، فغادر روما قبل الموعد الذي كان متوقعا أن يحضر فيه الى السناتو ليضعوا عليه شعارات مرتبة القنصل ، بنحو ثلاثة عشر يوما .

ولم يكن المقت الذي أبداه دقلديانوس نحو روما ونحو الحرية الرومانية نتيجة لنزوة ماهرة ، بل كان نتيجة لأعظم دهاء في السياسة . فقد ابتدع هذا الأمير المحتال أسلوبا جديدا للحكومة الإمبراطورية ، استكملته فيها بعد أسيرة قسطنطين ، ولما كان شبح الدستور القديم محفوظا في السناتو يحوطه التقديس والاحلال ، فقد صمم على أن يحرم هذا النظام من بقايا قوته وأهميته . وقد تعود بذاكرتنا الى ما قبل ارتقاء دقلديانوس على العرش بثلاث سنوات ، الى مظمة السناتو الزائلة وآماله العريضة . وما دام هذا المماس سائدا ، فقد اندفع كثير من النبلاء في اظهار غيرتهم على الحرية . وبعد أن سحب ظلام بروبوس تمضيدهم من الحزب الجمهوري ، لم يعد أعضاء السناتو قادرين على اخفاء استيائهم العاجز . وعهد الى مكسيميان — بوصفه ملك ايطاليا — بقمع هذه الروح الزعجة ، ولو أنها ليست خطيرة . والحق أن هذه المهمة التامت كل الالتئام مع طبعه العنيف القاسي ، فآخذ مكسيميان الي

شيوخ السناتو الذين تظاهروا بدقلديانوس بتقديره لهم ، بتهمة الاشتراك في المؤامرات الوهمية . وكان اقتناء دار فخمة أو ضيعة معتنى بزراعتها يفسر على أنه دليل قاطع على الجريمة . وبدأ معسكر البريتوريين يحصى مكانة روما بعد أن كان رجحا طويلا من الزمن أداة ظلم لها ، ولما كانت هذه الفرق المتفطرة تدرك اضمحلال سلطانهم فاتهم جنحوا بطبيعة الحال الى التوحيد بين قوتهم وبين سلطة السناتو . وتناقص عسدد البريتوريين بطريقتهم غير ملحوظة طبقا لاجراءات الحيلة والحذر التي اتخذها دقلديانوس ، كما ألغيت امتيازاتهم ، وحل محلهم فرقان مخلصتان موثوقتان من الليريكوم ، عينتا للقيام بمهام الحرس الامبراطوري ، تحت اسم جديد : « الجوفانيون والهرقوليون » ولكن اتبى طعنة مينة تلقاها السناتو من يد دقلديانوس ومكسبيان ، ولو أنها طعنة خفية ، هي غيابها المحتوم الذي لا مناص منه . فطالما سكن الأباطرة روما ، فمن الجائز أن يعاني هذا المجلس شيئا من الظلم والجور ، ولكن لا يغفل أمره قط . ولقد مارس خلفاء أوغسطس سلطة مرض القوانين التي ترتضيها حكمتهم أو توسوس بها نزواتهم ، ولكن اجازة هذه القوانين كانت تتم بعد اقرار السناتو لها : وبقي النموذج القديم للحرية مائلا في مناقشاته وقراراته . وإلى حد ما اضطر الأمراء الحكماء الذين احترمو آراء الشعب الروماني ، الى انتحال السلوك واسلوب الكلام اللذين يليقان بهذا المصدر العام الأول للحكم في الجمهورية . انهم في الولايات ومع الجيوش اظهروا ابهة الملك ورفعة السلطان ، ولكنهم اذا اتخذوا مقرا لهم بعيدا عن العاصمة ، نبذوا الى الأبد ذلك الرياء أو التصنع الذي أوصى به أوغسطس خلفاءه . فتداول الملك مع وزرائه فيما يتعلق بمملوكته لسلطته التنفيذية والتشريعية على حد سواء ، بدلا من التشاور مع المجلس الموقر للأمة . وقد احيط اسم السناتو بالتكريم والتبجيل حتى نهاية عهد الامبراطورية . وكسائت الامتيازات الشرفية لا تزال تشيع غرور الأعضاء ، ولكن المجلس الذي طالما كان مصدر السلطة وأداتها آذن بالتردى في زوايا النسيان في خشوع واجلال ، وبقي سناتو روما ، بعد أن فقد صلته بالبلاط الامبراطوري وبالدستور الفعلي تحفة جليلة عديمة النفع من الآثار القديمة ، غرق تل كاسيتولين .

وقد سهل على أمراء الرومان — وقد تخلوا عن السناتو وعن عاستهم القديمة فلم يعودوا يرون منها شيئا — أن ينسوا مصدر سلطتهم الشرعية وطبيعتها . فلان الوظائف المدنية : القنصل ، والبروقنصل ، والراقب ، والتريبون ، — تلك التي شكلت باتحادها معا

هذه السلطة — هي التي فضحت للشعب نشأتها الجمهورية . وطرحت هذه الالفاظ المتواضعة جانباً ، واذا كانت قد احتفظت بمقامها الرقيق تحت اللقب الفخم « الامبراطور » فان هذه الكلمة قد فهمت بمعنى جديد اسمي ، ولم تعد تدل على قائد الجيوش الرومانية ، بل على سيد العالم الروماني . وارتبط اسم « الامبراطور » الذي كان في بداية الامر ذا طبيعة عسكرية — باسم أخسر من طراز أكثر ذلة . ولم يكن لقب دومينوس Dominus أو سيد Lord في دلالة البدائية ، يعنى سلطان الأمير على رعاياه ، أو القائد على جنوده ، ولكنه كان يعبر عن السلطة الاستبدادية المطلقة للسيد على عبيده المحطين . وعلى اساس هذه النظرة الكريمة ، رفضه القيامة الأولون ، مقتاً ونفورا . ولكن ضعفت مقاومتهم بشكل غير ملحوظ ، وأصبح الاسم أقل مقتاً ، حتى ان اسم « سيدنا وامبراطورنا » لم يعد في النهاية يسبغ ملقا ورياء فحسب ، بل أدخل كذلك في القوانين والآثار العامة . وكانت مثل هذه الانقلاب الرقيقة كافية لترضى وتشبع أشد الغرور ، واذا كان خلفاء دقلديانوس قد ظلوا يتخلون عن لقب « ملك » ، فيبدو أن هذا لم يكن راجعاً الى اعتدالهم ، أكثر منه الى ضعفهم . وحيثما استخدمت اللغة اللاتينية (وقد كانت لغة الحكومة في مختلف أرجاء الامبراطورية) كان لقب « امبراطور » — وهو خاص بهم أنفسهم — يحمل فكرة الاجلال والاكبار أكثر مما يحمل لقب « ملك » الذي ربما شاركوا فيه مائة من رؤساء المتبربرين أو على احسن الفروض ، اخذوه من رميلوس وتاركين، وكانت العواطف والاحاسيس تخطف في الشرق عنها في الغرب . ومنذ اقدم عصور التاريخ كان حاكم آسيا يكرمونه في اللغة اليونانية بأن يطلقوا عليه لقب « باسيليس » Basileus أو « ملك » . ولما كان هذا اللقب يعتبر ارفع مقام بين الرجال، فان أهل الولايات التابعين الخاضعين لبرمان ما استخدموه في مخاطبتهم المتواضعة الى العرش الروماني ، واغتصب دقلديانوس ومكسيميان حتى صفات « الألوهية » أو على الأقل القابها ، ونقلوها الى سلسلة متعلقة من اباطرة مسيحيين ممن جاءوا فيما بعد ، على أن هذه المدائح والتعظيمات المسرقة لبرمان ما تفقد روعتها بضياع معناها ، حتى اذا ألقت الآن يوماً رنينها ، استمتعت اليها في استهتار ، وكأنها احترام غامض مسرف للاجلال والاحترام .

نشوء مراسم البلاط

كان أمراء الرومان ، من عهد أوغسطس الى عصر دقلديانوس يتحدثون بشكل علنى مألوف مع بنى وطنهم ، الذين كانوا يحيونهم ويسلمون عليهم بنفس الاجلال الذى حيوا عادة به شيوخ السناتسو والقضاة والحكام ، ليس غير . وكان امتيازهم الاساسى يتمثل فى الحلة وردداء العسكرية بشرط ضيق ، من نفس هذا اللون الممتاز . وزين الغرور ، او بالأحرى السياسة ، لهذا الأمير الداهية ادخال نظام بلاط غارسى بها فيه من فخامة وأبهة وسناء . وتجاسر فأتخذ لنفسه التاج ، وهو عبارة عن حلية مقتها الرومان بوصفها رمزا كريها للملكية ، كما اعتبروا استخدام كاليجولا له ذروة الجنون والجرأة . ولم يعد التاج ان يكون مصابة عريضة بيضاء مرصعة باللكلئ تحيط برأس الامبراطور . وكانت الملابس الفاخرة لدقلديانوس وخلفائه تتخذ من الذهب والفضة ، وكان الملحوظ ، مع اشد الاستياء ، أنه حتى أحذيتهم كانت مرصعة باثني الجواهر . وكان الوصول الى أشخاصهم المقدسة يزداد صعوبة يوما عن يوم ، بابتداع الاشكال والبراسم الجديدة . وكانت تقوم على حراسة مداخل القصر ، حراسة شديدة ، طوائف - يدعوا يسمونها مدارس Schools - من الضباط المحطين . أما الغرف والحجرات الداخلية فقد عهدوا بحراستها الى بقطة الخصيان ، تلك التى تقسم بالحدق والفيرة ، وكان تزايد عدد هؤلاء الخصيان ونفوذهم ، اصدق اعراض تفائق الاستبداد . فإذا حظى أى فرد من الرعية ، فى النهاية بالثول بين يدى الامبراطور ، كان عليه ، مهما كانت مكانته أو مقامه ، ان يخر الى الأرض ساجدا ، وأن يسبح ، وغتسا للطريقة الشرقية ، بقداسة سيده ومولاه . وكان دقلديانوس رجلا غطنا حسن الادراك ، عرف لنفسه قدرها ، كما عرف للناس اقدارهم ، بالمعدل والقسطاس ، فى مجال الحياة الخاصة والحياة العامة ، سواء بسواء . كما أنه ليس من السهل ان تتصور أنه كان فى احلاله العادات الفارسية محل عادات روما ، مدفوعا اندفاعا جديا بمبدأ وضيع مثل مبدأ الزهو او الغرور . انه كان يطل النفس بأن التظاهر بهذه الفخامة والابهة والشرف قد يقهر خيال الجماهير ، وأن الملك قد يكون أقل تعرضا للاباحية السمجة فى الشعب والجيش ، اذا احتجب شخصه عن الانتظار العامة ، وأن عادة الخضوع والخنوع لابد أن تنبثق بطريقة غير ملحوظة عن مشاعر الاجلال والاحترام . على أن الصالة التى ظهر عليها دقلديانوس ، مثل التواضع الذى اصطنعه أوغسطس ، لم تكن الا تمثيلا

مسرّحبا ، ولكن لابد أن نعترف بأن المهزلة الأولى التي مثلها أوغسطس كانت ذات طابع أكثر رجولة وسخاء من تلك التي مثلها دقلديانوس فيها بعد ، لقد كان هدف الواحدة أن تخفى وتستر ، على حين كان غرض الثانية أن تكشف وتعرض ، السلطان المطلق غير المحدود الذي كان للأباطرة في العالم الروماني .

وكان حب الظهور أول مبادئ النظام الجديد الذي أسسه دقلديانوس . أما الثاني فكان التقسيم ، فقسم الإمبراطورية والولايات ، وكل فرع من فروع الإدارة المدنية أو العسكرية . فضاء عجلات الإدارة الحكومية ، وجعل عملياتها أقل سرعة ولكن أكثر سلامة وأمن . ومهما كان من مزايا أو مساوئ هذه المبتكرات فإنه يجدر أن ننسبها — إلى حد كبير — إلى المبدع الأول ، ولكن الأمراء المتعاقبين حسّنوا وأكملوا على مر الأيام الإطار الجديد للسياسة ، ومن ثم كان من الأولي أرجاء دراستها حتى يتم نضجها واكتمالها . وما دمنا استبقينا لعصر قسطنطين ، الصورة الأدق للإمبراطورية الجديدة ، فإننا نكتفي بوصف التخطيط الرئيسي الحاسم الذي سمي إليه دقلديانوس . لقد أشرك في ممارسة السلطة العليا ثلاثة من الزملاء ، ولما كان مقتنعا بأن قدرات أي فرد واحد لا تكفي للاضطلاع بعصب الدفاع العام ، فإنه اعتبر الإدارة المشتركة للأمراء الأربعة ، لا مجرد وسيلة مؤقتة ، بل قانونا أساسيا في الدستور . وكان من رايه أنه يجب تمييز الأميرين الأكبرين باستخدام التاج ولقب أوغسطس ، وأن يختارا بانتظام لمعاونتهما ، حبا أو تقديرا ، زميلين تابعين ، وأن يرثى هذان القيصران بدورهما إلى المرتبة الأولى (أوغسطس) بحيث لا ينقطع تعاقب الأباطرة . وقسمت الإمبراطورية إلى أربعة أجزاء ، كان الشرق وإيطاليا أشرف المراكز ، والدانوب والراين أشقها . وتطلب الأولان وجود أوغسطس ، على حين مهد بإدارة الآخرين إلى القيصرين . وكانت قوة الجيش موزعة بين شركاء السيادة الأربعة . وقد يحد من طيوح أي قائد متطلع يأسه من قهر المنافسين الأربعة الأشداء الواحد بعد الآخر — وكان المفروض — فيها يتعلق بالحكومة المدنية ، أن يمارس الإمبراطوران سلطة الحاكم التي لا تنجزا ، وإن أوامرها الممهورة بتوقيعيهما تطلقها الولايات وكأنها صادرة من مجالسهما وسلطاتهما المتبادلة . ورغم هذه الاحتياطات ذابت الوحدة السياسية في العالم الروماني شيئا فشيئا ، وساد مبدأ التقسيم الذي كان ، في بضع سفن قلائل ، سببا في الفصل الدائم بين الإمبراطوريتين الشرقية والغربية .

واقترن نظام دقلديانوس بعيب آخر هام جدا ، لا يمكن التغاضي عنه جملة واحدة حتى في الوقت الحاضر ، وهو فداحة تكاليف الإدارة الحكومية ، وتفاقم الزيادة في الضرائب ، وظلم الشعب . وبدلا من أسره متواضعة من العبيد والأحرار، مثل تلك ارتضتها بسلطة عظيمة أوغسطس وتراجان ، شيد بلاط غخم في ثلاثة أو أربعة أركان من الإمبراطورية ، وتطاحن عدد من ملوك الرومان بعضهم مع بعض ومع ملك الفرس على التفوق العاقل العقيم في مجال الأبهة والبذخ . وتضاعف — بشكل لم يسبق له مثيل في العصور الخوالي — عدد الوزراء والحكام والموظفين والخدم ، لملء مصالح الدولة وإداراتها . وإذا جاز لنا أن نستعير عبارة حماسية لأحد المعاصرين ، فهو يقول : « إذا رجعت نسبة أولئك الذين يأخذون نسبة من يعطون ، فقد وقع على الولايات حيف كبير من فداحة الجزية » . وقد يكون من الميسور أن نستنتج ، منذ هذه الفترة حتى سقوط الإمبراطورية ، سلسلة لا تنقطع من الصرخات والشكاوى . ويختار كل مؤرخ ، تبعاً لديانته وموقفه ، واحداً من هؤلاء موضوعاً لذمه ولعنته : دقلديانوس ، أو قسطنطين ، و فالينس Valens أو تيوديسيوس ، ولكنهم متفقون بالإجماع على تصوير ثقل التكاليف المفروضة على الناس ، وبخاصة ضريبة الأرض وضريبة الرأس ، على أنهما الحيف المتفاقم الذي لا يحتمل في أيّامهم ، ولا شك في أن المؤرخ النزيه المتجرد المضطر إلى استخلاص الحقيقة من بين سطور القدح والمدح أو التهكم والثناء على حد سواء ، سيتجه إلى توزيع اللوم على هؤلاء الأمراء المتهمين جميعهم ، وأن يرجع هذا الابتزاز والاغتصاب إلى أسلوبهم الموحد في الإدارة أقل كثيراً مما ينسبه إلى مساوئهم الشخصية . والحق أن الإمبراطور دقلديانوس كان منشئ هذا النظام ، ولكن في أثناء حكمه كانت بذور الشر محصورة داخل نطاق من التواضع والحزم ، فهو يستحق اللوم على وضع هذه السوابق الخبيثة أكثر منه على ممارسة الظلم والجور عملاً . وقد نضيف أن تصرفه في موارد كان يتسم بالاعتصام والتدبير والحرص ، وأنه قد تبقى في الخزائن الإمبراطورية ، بعد سداد المصروفات الجارية ، رصيد للسخاء المعتدل الحكيم ، أو لاية ملهمة طارئة تنزل بالدولة .

اعتزال دقلديانوس ووفاته

وفي السنة الحادية والعشرين من حكمه ، نفذ دقلديانوس قراره المشهور في اعتزال الإمبراطورية ، وهو عمل كان من الطبيعي توقعه من أنطونيوس الأكبر أو الأصغر ، منه من أمير لم يمارس أو يطبق دروس

الفلسفة ، لا في الوصول الى السلطة العليا ، ولا في استخدامها ، وبذلك احرز دقلديانوس قصب السبق وبلغ مناط المجد في أنه قدم للعالم أول مثال في الاعتزال ، وهو مثال قل أن اقتدى به من جاء بعده من الملوك . وطبيعي أن يقتفز الى اذهانتنا مثال شارل الخامس ، لا لجرد أن بلاغة مؤرخ حديث قد جعلت هذا الاسم مألوفاً لدى القارئ الانجليزي نحسب ، بل كذلك من أجل الشبه الصارخ بين شخصيتي هذين الامبراطورين اللذين تسامت قدراتهما السياسية على عبقريتهما العسكرية ، ونبتعت فضائلهما الخداعة المنمقة من الدهاء والاحتيال أكثر منها من الطبيعة . ويبدو أن تقلبت الحظ هي التي عجلت باعتزال شارل الخامس ، وأن خيبة أمه في مشروعاته الأثيرة لديه دفعتة الى التخلي عن السلطة ، التي وجدها لا تتناسب مع أطباعه . ولكن حكم دقلديانوس مضى في فيض لم ينقطع من التوفيق والنجاح ، كما أنه يسدو أنه لم يراوده شيء من هذا التفكير الجدي في اعتزال الامبراطورية ، الا بعد أن قهر كل أعدائه ، وأنجز كل مشروعاته . ولم يبلغ أي من شارل الخامس أو دقلديانوس أرذل العمر ، حيث كان الأول في الخامسة والخمسين ، والثاني في التاسعة والخمسين من العمر نحسب، ولكن حياتهما الجادة النشيطة وحروبهما ورحلاتهما ، وهبوم الملك وانصرافهما الى العمل ، كل أولئك هد من كيانهما وأصابهما بعلل الشيخوخة المبكرة .

وغادر دقلديانوس إيطاليا — رغم قسوة شتاء قر مطير — بعد احتفال النصر مباشرة ، وبدأ تقديه نحو الشرق ، دائراً حول ولايات الليريا . وانتابته من رداءة الجو ونصب السفر علة بطيئة ، ورغم أنه أبطاً السير وأخذ في تقديه شيئاً من الراحة، وأنه كان بصفة عامة محبواً في محفة مغلقة ، اشتدت عليه العلة قبل وصوله الى نيقوميديا حوالى نهاية الصيف ، وبانت تنذر بالفطر . واعتكف طوال الشتاء في القصر ، وأثار الخطر المحدق به اهتماماً عاماً صادقا غير مصطنع . ولكن الناس لم يتبينوا التغير في صحته الا من علامات الفرح أو التجهم التي اكتشفوها في محيا أتباعه وفي سلوكهم . وقد صدق القوم عامة ، لبعض الوقت ، إشاعة موته ، وظنوا أنهم انما أخفوا موته درءاً للمتاعب التي قد تنشأ من جراء غياب القيصر جاليريوس . وأخيراً ، وفي أول مارس، ظهر دقلديانوس أمام الجماهير مرة أخرى ، ولكن على درجة من الشحوب والهزال ، لم يكد يتعرف عليه معها أكثر الناس معرفة لشخصه . وحين الآن الوقت لوضع حد للنزاع المرير بين العناية بصحته ورعاية مهام منصبه ، فاقترضت الأولى الرفق والراحة ، على حين أرغفته الثانية على

أن يتولى من غراش المرض ادارة الامبراطورية الضخمة . ومن ثم اعتزم أن يقضى بقية أيامه في راحة مشرفة ، وأن يضع مجسده فوق مقناول الحظ ، وأن يتخلى عن المسرح العالى لشركائه الذين هم أصغر سنا وأوفر نشاطا .

وأقيم احتفال تنازله عن الحكم في سهل فسيح على بعد نحو ثلاثة أميال من نيقوميديا . واعتزل الامبراطور عرشا سامقا . وفي خطاب ملىء بالمنطق والوقار ، أفصح عن عزمه الى الشعب والجنود الذين تجمعوا في هذه المناسبة الفريدة الخارقة . وما أن جرد نفسه من الحلة الأرجوانية حتى اختفى عن اعين الجماهير المحيطة ، واخترق المدينة في عربة مغطاة ، وجد السير دون ابطاء الى مأواه الأثير لديه والذي اختاره في مسقط رأسه دلماشيا . وفي نفس اليوم ، أى في أول مايو ، اعتزل مكسيميان ، وفقا لاتفاق سابق ، منصب الامبراطورية في ميلان . لقد فكر دقلديانوس في مشروع اعتقاله الحكم حتى وسط أبهة الانتصارات الرومانية ، ولما أراد أن يؤمن انصياع مكسيميان ، استخلص منه اما توكيدا عاما بأن يخضع تصرفاته لسلطان ولى نعمته ، أو عهدا خاصا بأن ينزل عن العرش عندما يحين الوقت الذى ينبغى عليه أن يتلقى النصح والقدوة . ورغم توكيد هذا التعهد بقسم غليظ أمام مذبح جوبيتر في الكابيتولين ، فقد كان من الجائز أن يكون قيذا هزيلا لمكسيميان ذى المزاج الحاد الشرس الذى كان حب السلطة منتهى هواه ، والذي لم يشته الهدوء السائد أو الشهرة في المستقبل ، ولكنه رضى ، مهما كان كارها ، للسيادة التى مرضها عليه زميله الذى هو أرجح عقلا ، وأوى غور اعتقاله الى دار في لوكفيا (في جنوب ايطاليا) حيث كاد يتعذب أن تجد مثل هذه الروح القلقة أية راحة دائمة .

وقضى دقلديانوس ذو المنبت الوضيع أعوامه التسعة الأخيرة من حياته ، معتكفا عن الحياة العامة . لقد أملى عليه العقل انسحابه . ويبدو أن القناعة لازمته فيه ، كما نعم فيه بالجلال واحترام أولئك الأمراء الذين نزل لهم عن ملكية العالم . وفرد أن تعودت العقول التى كابدت امدا طويلا مهام الأمور ، أن تتحدث الى نفسها وتجاهدها ، بل انها عند غقدان السلطة لتبكى حاجتها الى ما يشغلها ، وكانت ملسذات الادب أو العبادة التى تملأ كثيرا فراغ العزلة ، عاجزة عن أن تسترعى انتباه دقلديانوس ، ولكنه احتفظ ، او على الأمل سرعان ما استعاد هواه لأطهر المسرات والصقها بالطبيعة ، فمضى ساعات فراغه الى حد كلف في البناء والزراعة وفلاحة البساتين . وان جوابه الى مكسيميان لهو جواب

مشهود يستحق الذكر . فقد توسل اليه هذا الرجل العجوز أن يسترد زمام الحكم ، ويستعيد الحطة الأرجوانية ، ولكنه أبى أن يستجيب لهذا الاغراء بابتسامة مشفقة ، وأشار في هدوء الى أنه لو استطاع أن يرى مكسيميان الكرنب الذى زرعه بيديه فى سالونا ، فانه لن يعود يصفى لاي اغراء يقنيه عن التمتع بهذه السعادة طلبا للسلطة . وطالما اعترف فى مناقشاته مع اصدقائه بأن أشق من هو من الحكم ، وعبر عن نفسه فى هذا الموضوع المحبب اليه فى حرارة لا بد أنها كانت نتيجة الخبرة والتجريب . وقد تعود أن يقول : « ما أكثر ما تقتضى مصلحة أربعة أو خمسة من الوزراء بأن يتكثروا ليغفروا بملكهم ، فهو معزول فى مكانه الرنيح عن بنى الانسان ، ومن ثم يحتجب الحق عن ناظره ، فهو لا يرى الا باعين هؤلاء الوزراء ، ولا يسمع الا تمويهاتهم وابطالهم ، وأئسه يكرم اهل السوء والذيلة والضعف والجور باسناد أخطر الوظائف اليهم على حين يمتن أفضل وأجدر رعاياه ، وبمثل هذه الاماين الشائنة يصبح خير الأمراء وأعظمهم فريسة لرجال حاشيته الذين استشرى فيهم الفساد والرشوة » . وقد يسخ لنا التقدير الصادق للمظية وضمان خلود الشهرة طعم وسائل السرور واللذة فى أيام التقاعد ، ولكن الامبراطور الرومانى شغل فى العالم منصباً بلغ من الخطورة درجة لا يستطيع معها أن ينعم براحة الحياة الخاصة وطمانينتها دون أى مكر . فكان من المستحيل عليه أن يبقى بمنجاة من المتاعب التى ظم بالامبراطورية بعد اعتزاله ، أو الا يبالى بنتائجها . لقد تعقبه الخوف والأسى والاستياء الى عزلته فى سالونا . وجرحته رفته ، على الأمل كبرياؤه بما انتاب زوجته وابنته من كوارث ، كما عكرت صفو أيامه الأخيرة بعض اسامات كان يستطيع لينيوس وقسطنطين أن يجنبها الرجل الذى يعتبر أبا لكثير من اباطرة والمخطط الأول لحظوظهم . وجاء فى تقرير وصل اليها عليه فى أيامنا هذه ، ولو أنه مشكوك فيه كثيرا ، أنه انسحب فى حرم وحذر من دنيا سلطانهم بالموت طوعا واختيارا .

وننتقل الآن ، وقبل أن نبتعد من دراسة حياة دقلديانوس وشخصيته ، الى المكان الذى آوى اليه وتقامد فيه ، وهو سالونا ، وهى مدينة رئيسية فى ولايته وموطنه دالماشيا ، وكانت تبعد نحو مائتين من الأميال الرومانية (وفقا لمقاييس الطرق العامة) عن أكويليا ومشارف ايطاليا ، ونحو مائتين وسبعين ميلا عن سيرميوم ، وهى المقر المعتاد للاباطرة كلما زاروا حدود الليريا . وما تزال هناك قرية حقيرة تحمل اسم سالونا . ولكن كان يشهد على عظمتها حتى القرن السادس عشر

أطلال مسرح ومنظر مهوئ لعقود متهادمة وأعمدة من الرخام . وشيد دقلديانوس قصرا فخما على مسافة ستة أو سبعة أميال من المدينة . وقد نستنتج من ضخامة هذا البناء الى أى مدى طال أمد تفكيره في مشروع اعتزال الإمبراطورية . فان اختيار البقعة التى تجمع بين الصحة والمتعة لم يتطلب تحيز المواطن . « كانت التربة خصبة جافة ، والهواء نقيا صحيا . وقلما تحس هذه البلاد ، رغم حرها القاسط في شهور الصيف ، بالرياح اللافحة المؤذية التى تتعرض لها شواطئ أسطريا وبعض أجزاء من إيطاليا . ولم يكن المنظر من القصر أقل جمالا وجاذبية من التربة والمناخ ، وكان يسهل على الغرب الشاطئ الخصب الذى يمتد على طول شاطئ الأدرياتيك الذى تفتتت فيه مجموعة من الجزر الصغيرة الى درجة يظهر معها هذا البحر وكأنه بحيرة عظيمة . وفي الشمال يتبع الخليج الذى يؤدي الى مدينة سالونا القديمة والريف من ورائها ، يشكل للناظرين مفارقة واضحة مع السطح المنبسط من الماء في بحر الأدرياتيك ، امتدادا الى الشرق والجنوب . وينتهي المنظر في الشمال بجبال عالية غير منتظمة ، واقعة على مسافة بعيدة ، تغطيها ، في كثير من الأماكن ، القرى والغابات والكروم (١) .

وعلى الرغم من أن قسطنطين يتصنع نتيجة حزاة سافرة أن يذكر قصر دقلديانوس في احتقار ، فان أحد خلفائها ، ممن لم يروا القصر الا في حالة مهله مشوهة ، يشيد بفخامته في لغة تفيض بأعظم الإعجاب . فقد كانت مساحة أرضه تتراوح بين تسعة وعشرة أفدنة انجليزية (أكر) . وكان ذا أربعة أضلاع يطوقها ستة عشر برجاً . وبلغ طول اثنين من الأضلاع نحو ستمائة قدم ، والآخرين نحو سبعمائة . وقد شيد البناء كله من الحجر الرملي الجميل المأخوذ من محاجر ترو Trau أو تراجوتيوم Tragutium المجاورة . وهو أقل قليلا من الخام نفسه . وفصلت بين الأجزاء المختلفة لهذه المزار الضخمة أربعة شوارع متقاطعة في زوايا قائمة . وكان الوصول الى المنطقة الرئيسية في قصر عن طريق متخل آية في العظمة والروعة ، يسمى حتى اليوم « البوابة

(١) انظر آدم في كتابه « آثار قصر دقلديانوس في سبالاترو Palatro الصحيفة ٦ » ونصف هنا امرين آخرين نقلنا عن « أباتي فورتيس » Abate Fortis « فان ترعة هبادر الصغيرة التى ذكرها لوكان Lucan كان فيها سمك السمون ، وهو من أفسر السمك ، ويقترض كاتب حكيم ، ولعله راهب ، انه كان - أى السمك - من الأسباب الرئيسية التى تحكمت في اختيار دقلديانوس لمكان تقاعده . ويقول نفس المؤلف ان تذوق الزراعة ، انما انتعش في سبالاترو ، وان جمعية من كرام القوم أسست مزرعة تجريبية قرب المدينة .

الذهبية « وكان يوصل اليه بهو للأعمدة المصنوعة من الجرانيت ، يمكن أن نرى على أحد جانبيه معبدا اسكولابوس Aesculapius المربع ، وعلى الجانب الثانى معبد جوبيتر المثلث الاضلاع . وقد عبد دقلديانوس الاله الأخير من هذين الالهين بوصفه حارس أمواله ، والأول باعتباره راعى صحته . وإذا قارنا بين الأطلال الحالية وبين سنن فيثروفيوس Vitruvius (مهندس معمارى رومانى فى عصر أغسطس وله مؤلف فى فن العمارة ، ظل مدة طويلة المرجع الأساسى للمهندسين المعماريين) لوجدنا أن عدة أجزاء من البناء ، والحصانات والمخدع ، والقاعة والبازيليك Basilica (كلمة لاتينية معناها مبنى كبير مستوف كان يستعمل فى الخدمة العامة : أسواق ، محاكم ، قاعات للاجتماعات) والقاعة السيزينية Cyziene (نسبة الى مدينة Cyziens بآسيا الصغرى على مقربة من بحر مرمرة ، أسسها اليونان فى القرن الثامن ق.م ، وتوالى على حكمها اليونان والفرس والرومان . وانتعشت أيام الإمبراطورية) والقاعة الكورنثية والقاعة المصرية ، قد وصفت كلها فى شيء من الدقة ، أو على الأقل من الاحتمال . وقد تعددت أشكالها . ولكن نسب بنائها كانت صحيحة ، ولكن كان يشوبها كلها عيبان تنفر منها آراؤنا الحديثة فى الذوق ووسائل الراحة . فإن هذه الغرف الفخمة لم تكن بها نوافذ أو مداخن ، وكانت تضاء من أعلى (يبدو أن البناء كله كان طابقا واحدا) وتزود بالحرارة عن طريق أنابيب كانت تهد على طول الجدران ، وكان صف الأجنحة السكنية الرئيسية يحيطها نحو الجنوب الغربى رواق طوله خمسمائة وسبعة عشر قدما . ولا بد أن هذا كان يشكل نزهة لطيفة بهيجة اذا أضيفت بوائج النحت والتصوير الى جمال المنظر .

اضمحلال الفنون

ولو أن هذا القصر النخم بنى فى مكان منعزل لتعرض لمعواذى الزمان ، ولكنه ربما أغفلت من سلب الإنسان . لقد نشأت قرية اسبالاتوس ، وبعدها بزمان طويل مدينة سبالاترو ، على أنقاضه ، وتفتح البوابة الذهبية الآن على ساحة السوق واغتصب يوحنا الممدان أمجاد اسكولابيس ، وتحول معبد جوبيتر الى كاتدرائية تحت حماية السيدة العذراء . وأنا لمدينون بوصف قصر دقلديانوس الى فنان عبقري مواطن ومماصر ، حملته حب الاستقصاء الشديد الى قلب دالماتيا ، ولكن هناك مجالا للشك فى أن روعة أعماله ونقوشه هو قد توخت شيئا من المجاملة للأشياء التى كان يهدف الى وصفها واعطاء صورة عنها :

فقد ذكر سائح حكيم أحدث عهداً ، أن الاطلال الرهيبة في سبالاترو لا تعبر عن اضمحلال الفنون أقل مما تعبر عن عظمة الامبراطورية الرومانية في عهد دقلديانوس . فاذا كانت تلك حقيقة الحال في فن العمارة ، فمن الطبيعي أن نعتقد بأن التصوير والنحت قد انتابهما اضمحلال ملحوظ أكثر . فان العمارة تحكمها بضعة قواعد قليلة عامة ، بل قل آلية ، ولكن النحت ، وفوق كل شيء التصوير ، يتطلبان إبراز — لا أشكال الطبيعة وحدها محسب ، بل كذلك إبراز شخصية النفس البشرية وانفعالاتها . ولا تجدى في هذه الفنون الرائعة العالية خفة اليد ، الا اذا اثارها الخيال ووجهها أرفع الذوق وادق الملاحظة .

وقد يكون من نافلة القول ان نشير الى ان الخيال الداخلى الذى انتاب الامبراطورية الرومانية وفجور الجنود ، وغارات التبريريين ، وتفاقم الاستبداد ، كل أولئك لم يكن مناخاً مواتياً للعبقرية والنبوغ ، بل ولا مجرد التعلم ، فقد أعاد تعاقب امراء الليريا الامبراطورية ، دون أن ينمى العلوم . فلم يقدر لتعليمهم العسكرى أن يفرس فيهم حب الأدب . ومهما كان من أمر نشاط دقلديانوس وقدرته على العمل ، فان ذهنه لم يفتح قط للدراسة أو التأمل . وجدير بالذكر أن لمهنتى القانون والطب فائدة عامة ، وهما مدران ربحا ، ومن ثم يتوفر لهما دائماً عدد من الناس ، على درجة معقولة من الكفاية والمعرفة ، يبارسونها ، ولكن لا يبدو أن هؤلاء الطلبة لجأوا الى اساتذة مشهورين ممن برزوا في ذلك الزمان . وخرست السنة الفصحى ، وانحط التاريخ الى موجزات جافة مهوشة خالية من التبسلي والتعذيب . وبقي شيء من البلاغة الجامدة المتكلفة في خدمة الأباطرة على نفقتهم ، حيث لم يشجعوا من الفنون الا ما أرضى غرورهم أو دافع عن سلطانهم .

ومهما يكن من أمر ، فان عصر اضمحلال العلوم والبشر ، يتميز بظهور الأفلاطونيين الحديثين وتقديهم . لقد أخرجت مدرسة الاسكندرية ، السنة فلاسفة أثينا ، وانضوت الطوائف القديمة تحت ألوية المعلمين الذين هم أكثر عصرية ، والذين أوصوا باتباع سبيلهم لجدة منهجهم وصرامة سلوكهم ، وكان كثير من هؤلاء الاساتذة — أمونيوس Ammonius ، بلوتينوس Plotinus ، أمليوس Amelius وبورفيرى Porphyry — رجالاً قوى فكر عميق ودأب شديد ، ولكنهم أخطأوا الهدف الحقيقى للفلسفة ، ومن ثم أسهت جهودهم أقل كثيراً فى النهوض بالعقل الانسانى منها فى افساده . فان الأفلاطونيين الحديثين أهملوا المعرفة الملائمة لمعصرنا وقدمائنا ، كما أهملوا كل دأثرة العلوم

الروحية والطبيعية والرياضية . على حين ارهقوا انفسهم في المناقشات اللفظية في الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) وحاولوا أن يستجلبوا أسرار العالم غير المرئي ، وجاهدوا ليوفقوا بين أرسطو وأفلاطون ، في موضوعات لم يكن جهل هذين الفيلسوفين بها أقل من جهل سائر الجنس البشري ، واستنفدوا منطقتهم في هذه التأملات العميقة غير الثابتة ، ومن ثم تعرضت أذهانهم لأوهام الخيال وتوهموا أنهم يضعفون أيديهم على سر تخليص النفس من هذا السجن المادي (وهو الجسم) ، وادعوا أنهم اتصلوا اتصالا عاديا بالجن والارواح ، وفي ثورة غريزة في بابها حولوا دراسة الفلسفة الى دراسة السحر . لقد سخر العقلاء الأقدمون من الخرافة الشعبية المألوفة ، ولكن تلاميذ بلوتينوس وبورغيري أخفوا ما فيها من سرف عن طريق مزاعم هزيلة لجسازات واستعارات ، ثم بعد ذلك أصبحوا أشد المدافعين عنها حماسا وغيرة . ولما اتفقوا مع المسيحيين في بعض النقاط الخفيفة في العقيدة ، هاجبوا بقية نظامهم اللاهوتي بكل جنون الحرب الأهلية وفسادتها . ولا يكاد الأفلاطونيون الحديثون يستحقون مكانا في تساريخ العالم الحديث ولكن كثيرا ما سيرد ذكرهم في تاريخ الكنيسة .

الفصل الرابع عشر

(٣١٥ - ٣٢٣ م)

قسطنطين في روما : اصلاحاته التشريعية

تمثل الصدع أو المييب الاساسى الخطير في نظام دقلديانوس في أن مكسيميان ابنا هو مكسنتيوس Maxentius ولسطنطيوس ابنا هو قسطنطين Constantine وتحكم العطف الأبوى وطنى على نظام الانتخاب وحسن الاختيار . وحاول جاليريوس أن يفرق بين قسطنطين ووالده . لكن المشاب ، رغم ذلك ، لحق بوالده في بريطانيا ، وعند موت الوالد في يورك ، نودى بالابن امبراطورا « أوغسطس » . وفي نفس المسام نقض مكسنتيوس الميثاق ، وخرج من عزلته .

وكانت استراتيجية قسطنطين وخططه الدقيقة البارعة هي الخيط الأول الرئيسى في كل الحروب والمناورات السياسية ، فقد تولى هو ادارة الغال ، بينما اقام مكسنتيوس حكما طاغيا غاشما في ايطاليا وافريقية . ثم غزا الأول ايطاليا وهزم مكسنتيوس وقتل عند جسر ميليفيان Milivian خارج روما . وقد زعموا ان قسطنطين رأى ، قبل هذه المعركة ، الرؤيا التى قرر من اجلها التحول الى المسيحية .

قسطنطين في روما

لا يستحق قسطنطين في استقلاله لثمار النصر ، الاطراء لاعتداله ورمقه ، ولا اللوم لعنفه وبطشه ، فقد سقى بالكأس التى كان لابد أن يتجرعها هو وأسرته لو كانت الهزيمة حلت به . فاعدم ابنى الطاغية ، وحرص على أن يستأصل كل من ينتمى اليه . ولا بد أن أبرز اتباع مكسنتيوس توقعوا أن يتشاركوه مصيره كما شاركوه يسره ورغشاء

وجرائمه ، ولكن لما تعالت أصوات الشعب الروماني مطالبة بالمزيد من
الضيحايا ، تصدى الفاتح فيرشيء من الثبات والانسائية لهذه الصيحات
الدليلة التي ملأها الرياء والاستياء معا . وعوقب المخبرون الوشاة
ولم يلتوا تشجيعاً ، واستدعى من المنفى أولئك الأبرياء الذين غانوا من
قبل من ظلم الطاغية السابق . وصنر قاتون عفو عام هذا الخواطر وأقر
الممتلكات في إيطاليا وفي أفريقية . ولخص قسطنطين خدمته ومشروعاته
في خطاب متواضع له أمام السيناتو عندما شرفه بزيارته لأول مرة ، وأكد
احترامه الخالص للمجلس الموقر ، ووعد بتقديم مكانته وأمتهاراته
القديمة . ورد المجلس المشكور على هذه الاعترافات الجوفاء بالقباب
الشرف الزائفة التي كان لا يزال من سلطته أن يمنحها . وأصدروا ،
دون أن يحصلوا على تصديق قسطنطين ، مرسوماً بتفخيته في المكان
الأول بين الأباطرة الثلاثة الذين يحملون لقب « أوغسطس » والذين
يحكمون العالم الروماني . وأقيمت الألعاب والأحتفالات تخليداً
لذكرى انتصاره ، كما أن عدة مبان شيدتها مكسنطيوس على حسابه قد
كرست لتكريم غريمه المنتصر . ولا يزال قوس نصر قسطنطين قائماً ،
دليلاً محزناً على اضطلال الفنون ، وشاهداً قريداً على انحط الوان
الزهو والغرور ، فانهم لما تعذر عليهم أن يجدوا في عاصمة الامبراطورية
نحاتاً يستطيع أن يتولى بلمساته تزيين هذا الأثر العظم ، هودوا الى قوس
نصر تراجان مجرثوة من أروغ رسومه ، دون احترام للكرامه ، او رعاية
للقواعد المنكية . وأهملوا كل الاغفال تصاوت الأزمان والأفراد والأعمال
والشخصيات . من ذلك ان الأسرى البارثيين يبدون منبطحين تحت
قدمي امير لم يجرد قط جيشاً ميماً وراء القرائت ، وما يزال في مقدور
الاثريين المدققين أن يكتشفوا رأس تراجان فوق نصب قسطنطين . أما
الزخارف التي كان لزاماً أن يبلأوا بها الفراغات في الفتح القديم لقد
تبتت على اقبح صورة وأبعدها عن المهارة والانتقان .

أما القضاء النهائي على الحرس الريفوري فكان إجراء ينسجم
بالحرص والبطنة ، كما يمثل ضرباً من الانتقام . ذلك ان قسطنطين أخذ
الى الأبد قوة هذه الفرق التي ملأها الصلف والفطرسه ، والتي أبقى
مكسنطيوس على أعدادها وأمتهاراتها ، بل زاد منها وبالغ فيها . ودمر
المعسكر الحصين ، وتبعثرت الفئة القليلة من هؤلاء البريتوريين ،
تلك التي اطلقت من بطش السيوف ، نقول تبعثرت بين مختلف قسوات
الجيش أو نفيت الى أقصى حدود الامبراطورية ، حيث يمكن أن ينتفع
بهم دون أن يشكلوا خطراً . واذا قضى قسطنطين على هذه الفرق التي
كانت ترابط عادة في روما ، فانته وجه بذلك ضربة قاضية الى مكانة

السنانو والشعب ، كما باتت العاصمة العزلاء من السلاح معرضة لاساءات مليكها الثائى أو اهلله ، وليس لها ما يعصمها من هذا أو تلك . وتعد نلاحظ أن الرومان فى محاولتهم الأخيرة للحفاظ على حريتهم المنهارة المحتضرة وقد توجسوا خيفة من الجزية ، دفعوا مكسنتيوس الى العرش ، ولكنه تقاضى هذه الجزية على اعتبار انها مقدمة خالصة . واهابوا بقسطنطين لمساعدتهم ، فقهر الطاغية ، وجول الهدية الخالصة الى ضريبة دائمة . وقسم شيوخ السناتو الى طبقات تبعا لما أعلنوه عن بيان ممتلكاتهم ، فدفع أكثرهم يسارا وغنى ثمانية أرتال من الذهب سنويا ، ودفعت الطبقة الثانية أربعة أرتال ، ودفعت الأخيرة رطلين ، أما أولئك الذين كان يجوز لهم طلب الاعفاء لفقرهم فقد فرض عليهم سبع قطع ذهبية . وإلى جانب أعضاء السناتو الفعليين ، تمتع أبنائهم وذرياتهم ، بل وأقربائهم ، بالامتيازات الزائفة التى لا قيمة لها ، واحتلوا العبء الثقيل لهذا النظام ، وليس مما يدعو الى الدهشة بعد ذلك ، أن يوجه قسطنطين عنايته الى الاستزادة من عدد هؤلاء الذين ينطبق عليهم هذا الوصف المجدى . ولم يقض الامبراطور الظافر ، بعد موت مكسنتيوس أكثر من شهرين أو ثلاثة فى روما التى زارها مرتين بعد ذلك طوال ما تبقى من سنى حكمه ، ليشارك فى الاحتفالات العظيمة بالعيد السنوى العاشر والعيد العشرين لقوليه الحنكم . فقد كان قسطنطين فى حركة دائبة لتدريب جنوده أو لتفقد الأحوال فى الولايات ، وكانت أقامته متنقلة بين تريف Treves وميلان وأكويلا وسرميوم ونسوس Naissus وسالونيكيا - الى أن أسس « روما جديدة » على تخوم أوربا وآسيا .

عقد قسطنطين فى البسداية تحالفا مع ليسينيوس Licinius ثم ائتبق معه بعد ذلك فى حرب . وتم الصلح بينهما بعد معركة سيباليس Cibalis وماريا Mardia .

اصلاحات قسطنطين التشريعية

حقق الصلح بين قسطنطين وليسينيوس ، على أية حال ، العالم الرومانى هدوءا دام أكثر من ثمانى سنوات ، رغم ما كان يشوبه من نفور وحقد ، وذكريات الاساءة الأخيرة ، وتوقع الخطر فى المستقبل . واذ تبدأ حوالى هذه الفترة سلسلة منتظمة من القوانين الامبراطورية ، فليس

من العسير أن نسجل تلك التنظيمات المدنية التي شملت فراغ قسطنطين .
ولكن أهم النظم التي ابتدعها مرتبطة أشد الارتباط بأسلوبه الجديد في
السياسة والدين ، ذلك الأسلوب الذي لم يستقر ويتأصل بالفعل ، إلا في
سنى الهدوء والسلام الأخيرة من حكمه . ويرجع كثير من قوانينه
المتعلقة بحقوق الأفراد وملكيته وممارسة المصالح إلى التشريع
الخاص أكثر منها إلى التشريع العام في الإمبراطورية . كما أنه أصدر
عدة قوانين ذات طابع محلي مؤقت ، بدرجة لا تستحق معها عناية
التاريخ العام . على أنه يمكن اختيار قانونين اثنين من هذه المجموعة :
واحد لأهميته والثاني لغرابته ، الأول لخيره المشهود ، والآخر
لقسوته المتناهية :

١ - انتشرت إلى حد رهيب يوما عن يوم في الولايات وخاصة في
إيطاليا ، العادة الفظيعة القديمة ، وهي تعريض الأطفال حديثي الولادة
لموت أو قتلهم ، وكان هذا نتيجة الضيق الناتج أساسا من عبء
الضرائب وفداستها التي لا تحتمل ، ومن مضايقات واضطهادات مأموري
الدخل لمدينهم المعسرين ، ومن ثم رأى أقل الناس ثراء وعيلا - بدلا
من الإحساس بالمتعة في كبر الأسرة - أنه من الحنان الأبوي والعطف
أن يخلصوا أطفالهم مما يحرق بهم من البؤس والفاقة في حياة يعجز
الآباء أنفسهم من احتمالها . وتحركت روح الإنسانية في نفس قسطنطين
نتيجة لبعض أمثلة صارخة حديثة من اليأس ، ودفعته إلى إصدار أمر
عال إلى كل مدن إيطاليا ثم أفريقية فيما بعد ، بتقديم مساعدة عاجلة كافية
إلى الآباء الذين يحضرون أمام الحكام أولئك الأبناء الذين لا يستطيعون
تعليمهم نتيجة لفقرهم . وكان الوعد سخيا والشرط غامضا ، إلى درجة
لم يحقق معها أي نفع عام أو دائم . فإن القانون رغم ما هو جدير به من
ثناء وتقدير ، لم يفلح في تخفيف ويلات الناس أكثر الخطباء في اظهارها .
ولكنه سيظل حجة دامغة تتحدى وتتحدى لأولئك الخطباء المرتشين
الذين بلغوا من الرضا بموقفهم حدا لا يستطيعون معه تبين الرذيلة
أو التماسه في ظل حكومة ملك جواد .

٢ - أما قوانين قسطنطين ضد هتك العرض ، فلم تتسم إلا بأبسط
القليل من التغاضي عن أحب نقاط الضعف في الطبيعة الإنسانية ، حيث
إن وصف هذه الجريمة لم يقتصر على الاقتصاب بالقوة ، بل تعداه
إلى الإغواء الناعم الذي يغري امرأة غير متزوجة دون الخامسة والعشرين
من العمر ، بترك بيت والديها . « هكذا عوقب الغاصب الذي هتك
العرض بالموت ، فإذا لم يتكافأ الموت البسيط مع فداحة الجرم ، أحرق

حيا أو قطعته الوحوش الكاسرة أربا في المسرح . وإذا اعترفت العذراء بأنها اختطفت برضاها ، فإنها لن تنقذ بذلك حبيبها ، بل كانت تتعرض لمساكرته مصيره . وعهد برفع الدعوى الى أبوى المجرم أو الفتاة المنكودة ، فإذا تغلبت عليهما عواطف الطبيعة وأدت بهما الى التفاوض عن الأذى ، واللجوء الى الزواج بعد ذلك محافظة على شرف الأسرة ، فإن الأبوين يعاقبان بالثني والمصادرة . أما العبيد من الإناث أو الذكور الذين يثبت عليهم الاشتراك في جريمة الاغتصاب أو الإغواء ، فكانت عقوبتهم الموت بهذا اللون البارع من التعذيب ، وهو صب كمية من الرصاص المصهور في حلقهم . ولما كانت هذه الجريمة ذات صفة عامة ، فقد أجيء توجيه الاتهام حتى للأجانب ، ولم يكن الشروع في إقامة الدعوى محددًا بفترة محددة من السنوات ، وكانت نتائج الحكم تمتد لتشمل النتائج البريئة لهذا الاتصال الشاذ . ولكن لما كانت المعصية تثير من الزعيق والفرغ أقل بكثير مما تدعو الى العقوبة ، فإن مراعاة هانن العقوبات لابد أن تدعن لمشاغل البشر . فقد خففت أو ألغيت بعض الأجزاء في هذا القانون في العهود التالية . بل أن قسطنطين نفسه خفف من شراسة نظمه العامة ، من طريق قرارات جزئية خاصة أصدرها في بعض الحالات ، رافعة باصحابها . هكذا كان الزواج الشاذ للإمبراطور الذي تساهل بل تلكأ وتوانى في تنفيذ قوانينه ، قدر ما كان متشدداً بل قاسيا في سنها . ولا يكاد يكون من المستور أن تجد أكثر من هذا علامات خاسمة للضعف ، في خلق الأمير أو في نظام الحكم .

في سنة ٣٢٣ نشبت الحرب الأهلية من جديد بين قسطنطين ووليسينيوس . وانفرد قسطنطين بالسيادة على الامبراطورية بعد معركة أدرنة وكزييسوبوليس ، وموت غريمه .

ظهور المسيحية

الفصل الخامس عشر

خمسة أسباب لنمو المسيحية : الظروف المواتية لتقدمها

اعداد المسيحيين الأولين وأحوالهم

قد يعتبر البحث الصادق المنطقي لتقدم المسيحية واستقرارها من أهم الموضوعات في تاريخ الامبراطورية الرومانية . وفي الوقت الذي تمرض فيه هذا الكيان الضخم للعنف السافر أو قوضه الانحلال البطيء ، تسلك في خفة ورقة الى اذهان الناس دين نقي متواضع ، ونما في صمت وخفاء ، واستمد من التصدي له عزما جديدا . وكتب له في النهاية أن يرفع الصليب الظاهر فوق اطلال الكابيتول . ولم يكن أثر المسيحية مقصورا على مصر الامبراطورية الرومانية وفي نطاق حدودها ، فما تزال تعترف بهذا الدين — بعد ثورة دامت ثلاثة عشر أو أربعة عشر قرنا ، أهم أوروبا ، وهي أبرز بنى الانسان في الفنون والعلوم والحرب ، على حد سواء . وبفضل حماسة الأوربيين وجددهم انتشر بسرمة الى أقصى شواطئ آسيا وأفريقية ، ومن طريق المستعمرات تركر واستتر من كندا الى شيلي ، في عالم لم يكن يعرفه الاقدمون .

ومهما كان هذا البحث نافعا وطريفا فانه تكتفه صعوبتان . فان مواد التاريخ الكنسي الهزيلة الضئيلة المشكوك فيها ، لا تكاد نستطيع معها أن نبذل الغيوم المظلمة التي تتلبد في سماء العصر الاول للكنيسة . وكثيرا ما يضطرنا قانون التجرد والنزاهة العظيم الى الكشف عن مثالب المعلمين غير الملهمين والمؤمنين بالانجيل ، وقد يبدو للمراقب المستهين أن أخطاءهم تلقى ظلا على العقيدة التي يقرونها . ولكن خسرى المسيحي النقي ، والظفر الكاذب للكافر ، لابد أن ينقضيا حالما يتذكران : من

أنزل الوحي الالهى ، وكذلك الى من نزل هذا الوحي . وقد ينصرف عالم اللاهوت الى المهمة الحبيبة السارة مهمة وصف الديانة كما نزلت من السماء ترفل في حلك الطهر والنقاوة . ولكن هناك واجبا أشد حزنا وكآبة ملقى على عاتق المؤرخ ، فان عليه ان يميظ اللثام عن الخليط المحتوم من الخطأ والفساد اللذين علقا بالديانة في اقامتها الطويلة على الأرض بين جماعة ضعيفة منحلة من البشر .

ومن الطبيعى ان يحدثونا حب الاستطلاع الى تقصى الوسائل التى احرزت بها العقيدة المسيحية هذا النصر المؤزر على الديانات الغائبة فى الأرض . وقد يرد جوابا واضحا مرضيا عن هذا التساؤل ، القول بان هذا يرجع الى البرهان المقنع فى العقيدة نفسها ، والى التدبير المحكم المكين لمنشئها العظيم . ولما قل أن يجد الحق والمنطق ترحيبا فى هذا العالم ، ولما اقتضت حكمة العناية الالهية أن تتنازل فتتخذ من أهواء الناس ومشاعرهم ومن الظروف العامة المحيطة بالجنس البشرى، أدوات لتحقيق أغراضها ، فانه ما يزال يحق لنا أن نتساءل فى الواقع — مع التسليم بالإتيقار — لا عن الأسباب الأولى ، بل عن الأسباب الثانوية للنمو السريع للكنيسة المسيحية . وربما يبدو أن الأسباب الخمسة الآتية قد ساندتها مساندة صائقة وعاونتها معاونتها فعالة :

١ — غيرة المسيحيين التى لا تثنين ، وبالأحرى ، الغيرة المتعصبة (اذا جاز لنا ان نستعمل هذا التعبير) والحق ان هذه الغيرة مأخوذة من الديانة اليهودية ، ولكنّها خلقت وتطهرت مما كان يشوب هذه الديانة من روح ضيقة انمزالية غير اجتماعية ابعدت الامميين (غير اليهود) عن شريعة موسى بدلا من جذبهم اليها .

٢ — نظرية الحياة الآخرة ، وقد عضتها كل الظروف الإضافية التى يمكن أن تضفى على هذه الحقيقة الهامة قيمة وإعمالية .

٣ — قوى الامجاز المنسوبة الى الكنيسة فى صدر المسيحية .

٤ — اخلاق المسيحيين النقية الصارمة .

٥ — الإوجدة والنظام فى الجمهورية المسيحية التى شكلت ، مع الأيام ، دولة مستقلة متزايدة فى قلب الإمبراطورية الرومانية .

١ — الغيرة التى لا تثنين والتي ورثها المسيحيون عن اليهود :

لقد إتيانا بالفعل على وصف الانسجام الدينى فى المساليم القديم ، والسهولة التى اعتقت بها ، أو قل احترمت ، معظم الأمم ، حتى المتعادية

منها ، خرافات بعضها بعضا ، ولكن شعبا واحدا فقط رفض أن يختلط بهذا العالم . فان اليهود الذين انزوا ليهود كثيرة تحت حكم ملوك آشور وفارس بوصفهم احقر العبيد ، خرجوا من الظلام في عهد خلفاء الاسكندر . ولما كثر عددهم إلى درجة مذهلة في الشرق ، ثم في الغرب ، فانهم سرعان ما أثلوا دهشة سائر الأمم وفضولها . ويبدو ان عنادهم الرهيب في الحفاظ على طقوسهم الخاصة وآدابهم الإنعزالية البعيدة عن الروح الاجتماعية ، ميزتهم بأنهم جنس مختار من البشر ، وأعلنوا في جراءة أو إخفا قليل ، كراهيتهم الشديدة لسائر بني الانسان . ولم يفلح عنف انتيوخوس ، ولا دهاء هيرودس ، ولا الانتداء بالأمم المجاورة ، في اغراء اليهود بالربط بين ناموس موسى وبين الأساطير اليونانية الرشيقية . وطبقا لمبادئ التسامح العلم السامل ، كان الرومان يحمون الخرافة التي يحثقرونها . وقد تنازل أوغسطس المذهب فأصدر اوامره بتقديم القرابين من أجل رخائه وازدهاره في هيكل اورشليم . على حين ان احقر ذرية ابراهيم ، الذي كان لازما عليه ان يقدم مثل هذا الولاء لجوبيتر في الكابيتول كان يصبح موضع احتقار من نفسه ومن سائر اخوته ، اذا هو أقدم على شيء من هذا . ولكن اعتدال الغزاة لم يكن كافيا لإخماد الإحتقاد والحزازات في نفوس رعاياهم الذين غرغوا واشمازوا من الشعائر الوثنية ، التي دخلت بالضرورة الى ولاية رومانية . واحبطت محاولة كاليجولا المجنونة لوضع تمثله في هيكل اورشليم امام التصميم الاجتماعي للشعب كان يخشى الموت لقل كثيرا مما يخشى مثل هذا الرجس الوثني . وكان تعلقهم بشريعة موسى يعادل مقتهم لسائر الديانات الأجنبية . فلما انحصر تيار الغيرة والإخلاص في هذا المجرى الضيق ، انبفع في قوة السيل الجارف ، بل احيانا في مثل عنفه وشده .

ويتخذ هذا الإصرار الذي لا يلين والذي بدأ للعالم القديم انه كريد مدعاة للسخرية ، شكلا أشد رغبة ، حين شاعت العناية الإلهية أن تكشف لنا أستار الغموض الذي أحاط بتاريخ الشعب المختار . ولكن هذا التعلق المروع بل الملتزم بشريعة موسى ، والذي برز في اليهود الذين عاشوا في ظل الهيكل الثاني (١) ، يظل أدمى الى المزيد من الدهشة

(١) الهيكل الثاني بناء اليهود في اورشليم عام ٥٢٦ ق م . عقب عودتهم من المنفى . أما الهيكل الاول فكان قد بناه سليمان ودمر حوالي عام ٥٨٦ ق م . ثم بدأ هيرودس العظيم في بناء الهيكل الثالث الذي دمره الرومان عند استيلائهم على اورشليم حوالي سنة ٧٠ م . وكانت كل هذه الهياكل لعبادة يهوه - (المترجم) .

إذا تورن بعناد آبائهم الأولين في الارتياب وعدم التصديق ، ذلك أنهم عندما نزلت الشريعة من جبل سيناء وسط الرعود ، وعندما توقف جريان البحر وتعطل سير الكواكب. خدعة لبني اسرائيل ، وعندما كان الثواب أو العقاب الدنيوى نتيجة سريعة مباشرة لتقواهم أو لكفرهم — عندما حدث ذلك كله نراهم قد صمدوا باستمرار الى التمرد على جلالة مليكهم الالهى (أى ربهم) الذى يروونه أمامهم ، والى وضع أصنام الأمم القديمة في محراب يهوه ، والى تقليد كل طقوس غريبة من طقوس العرب في خيامهم أو الفينيقيين في مدنهم . فلما حبست العناية الالهية بحق رعايتها عن هذا المنصر الجحود ، اكتسب ايمانهم قدرا متناسبا من القسوة والنقاوة . وقد شهد معاصرو موسى ويسوع في استهتار مهين أغرب المعجزات . وتحت وطأة الكوارث كلها حفظ الايمان بهذه المعجزات اليهود في عصر متأخر من عدوى الوثنية الشاملة . ويبدو أن هذا الشعب الريد — خلافا لكل مبادئ العقل البشرى المعروفة — قد آمنوا ايمانا أقوى واسرع بتقاليد أسلافهم الأولين ، منه بالأدلة القى لمسوها بأيديهم أو أنكروها بحواسهم (١) .

وكانت الديانة اليهودية مهياة للدفاع بشكل يدعو الى الإعجاب . ولكنها لم تكن معدة قط للهجوم والتوسع ، ويبدو من المحتمل أن عدد المهتدين لم يزد كثيرا على عدد البارقين في يوم من الأيام . لقد نزلت الوعود الالهية على شعب واحد كما أمر الشعب نفسه بشعيرة الختان المميزة . فلما تكاثرت نسل ابراهيم حتى أصبحوا كرمل البحر ، أعلن الاله الذى تلقوا من فمه مجموعة الشرائع والطقوس — أعلن أنه الاله الخاص باسرائيل وكأنه الاله القومى لهم ، وأفرز شعبه المفضل ، دون سائر البشر ، بأشد ما تكون العناية والغيرة . وقد اقترن غزو أرض كنعان بكثير من الظروف العجيبة والدامية كذلك ، الى درجة أن اليهود المتأخرين باتوا وقد احتدم العداء بينهم وبين كل جيرانهم بشكل لا يهدأ . وأمرؤا أن يستأصلوا بعضا من أشد القبائل وثنية ، وقلما عوق ضعف البشر تنفيذ الأوامر الالهية . وحرّم عليهم الزواج من الأمم الأخرى أو التحالف معها . أما تحريم قبولهم في الجماعة اليهودية ، وقد كان تحريما دائما في بعض الأحيان ، فقد امتد في الغالب الى الجيلين الثالث، والسادس ، بل حتى الى الجيل العاشر . فإن الالتزام بتبشير الأمميين

(١) وقال الرب لموسى : « حتى متى يهيننى هذا الشعب ، وحتى متى لا يصدقون بجميع الآيات التى عملت فى وسطهم ، » (سفر العدد - الأصحاح الرابع عشر - الآية ١١) .

بعقيدة موسى ، لم يعتبره اليهود يوما مبدا من مبادئ ناموسهم ، كما
انهم لم يميلوا الى فرضه على انفسهم باعتباره واجبا يتطوعون لادائه .

ونمينا يتعلق بقبول المواطنين الجدد ، فقد تأثر هذا الشعب الانعزالي
غير الاجتماعى وتصرف فى هذا الصدد وفق التقليد اليونانى الذى يشوبه
الغرور والاثنية ، لا وفق سياسة روما التى تتسم بالكرم والسماحة .
فقد خدع أحماد ابراهيم انفسهم بانهم وهدهم ورقة العهد بين الله
والانسان كما ورد فى التوراة . ولشد ما توجسوا خيفة من الانتقاص
من قيمة ميراثهم لو سهل على الغرباء الاشتراك معهم فيه . ان المزيد من
التعرف على الجنس البشرى قد وسع مداركهم ولكنه لم يهذب تحيزهم
او يحد من تعصبهم . وما اكتسب اليه اسرائيل يوما مؤمنين جددا الا كان
مدينا للمزاج المتقلب عند المشركين أكثر منه للحماسة الجادة عند المبشرين
بدينه . ويبدو ان عقيدة موسى شرعت لبلد واحد ، وكذلك لامة واحدة .
ولو أطاع اليهود طاعة عبياء الامر الذى يحتم مثول كل ذكر ثلاث مرات
سويا امام يهوه ، لكان من المستحيل عليهم ان ينتشروا خارج الحدود
الضيقة لأرض الميعاد . والواقع ان هذه العقبة ذلت بهدم هيكل
اورشليم ، ولكن تورط مع هذا التدمير أهم جزء فى الديانة اليهودية .
ووقع الوثنيون الذين طال بهم أمد الدهشة والاستغراب للنبا الغريب ،
نبا هيكل خال - وقعوا فى حيرة من أمرهم ، فأى هدف وأية أدوات
يمكن ان تكون لعبادة جردت من المعابد أو المذابح أو الكهنة أو القرايين .
ومع ذلك فإن اليهود ، حتى فى حالة الوهن والتدهور جنلوا - وظلوا
يؤكدون امتيازاتهم المتفطرة الخاصة بهم - من مجتمع الغرباء ، بدلا
من التودد اليهم ، واستمر اصرارهم ، فى صلابة لا تلين ، على تلك
الأجزاء التى كان فى مكنثهم أن يمارسوها من شريعة موسى . فلن تميزهم
الغريب بين الأيام بعضها بعضا ، وتميز بعض اللحوم عن البعض ، الى
جانب مجموعة كبيرة من الطقوس البناهة ، ولو أنها ثقيلة ، كل أولئك
كان يشير اشمئزاز ومقت الأمم الأخرى التى كلثوا يختلفون معها اختلافا
نبا هيكل خال - وقعوا فى حيرة من أمرهم ، فأى هدف وأية أدوات
لكنيلة وحدها برد المهتدى ذى الرغبة الأكيدة فى الايمان ، عن باب
معبد اليهود .

وفى هذه الظروف تقدمت المسيحية الى العالم ، مسلحة بقوة الشريعة
الموسوية ، متحررة من ثقل قيودها وأغلالها . وأشرب النظام الجديد فى
عناية فائقة ، مثل النظام القديم تماما . ، حماسا مطلقا لصديق العقيدة
يوحداية الله . ورتب كل ما كشف الآن للانسان من طبيعة « الكائن

الأعلى » وتدبيره ، بحيث يزيد من إجلالهم وتقديرهم لهذه النظرية الخفية الغامضة . وسلم بالسلطة الإلهية لوسى وإلرسل ، بل اعترف بها على أنها أقوى أركان المسيحية . وظهرت منذ بدء الخليقة سلسلة لا تنقطع من النبوءات التي بشرت وهيأت لقدم السيد المسيح الذي طال ترقب تدومه ، وطبقا لتوقعات اليهود ومخاوفهم الشديدة ، كان كثيرا ما يمثل في شخصية ملك وفتاح ، أكثر منه في شخصية رسول وشهيد وابن الله . وختمت بقربانه المكر على الفور كل قرابين المعبد الناقصة والغيت ، وجاء بعد الطقوس التي تألفت من بعض الأسماء والأرقام ، عبادة نقية روحية تصلح لكل مناخ ، كما تتفق بالمثل مع ظروف الجنس البشري . وبدلا من التذنين بالنم ، حل شيء أقل ضررا وهو التذنين بالماء . وبعد أن كان الوعد برضا الله محصورا في ذرية إبراهيم — تحزيا وتحزبا — أصبح اليوم قدرا مشتركا للأحرار والعبيد ، واليونان والمبربرين واليهود والأمميين . وكل ميزة يمكن أن ترقى بالمهتدي من الأرض إلى السماء أو تمجد إخلاصه أو توفر له السعادة ، أو حتى ترضى الغرور الخفي الذي يقرب إلى نفس الإنسان في صورة التقوى والايان — ظلت محتفظا بها لأعضاء الكنيسة المسيحية ، ولكن في نفس الوقت ، كان الناس جميعا مرخصا لهم ، بل مدعويين رجاء وتوسلا ، لتقبل هذه الميزة التي لم تمنح مجاملة وتفضلا ، بل فرضت فرضا والتزاما . وأصبح من أقدس الواجبات على كل من تحول إلى المسيحية أن ينشر بين أصدقائه وإقربائه البركة التي تلقاها والتي لا يمكن تقديرها ، وأن ينذرهم بأشد العقاب للرفض الذي يعتبر مخالفة آتمة لإرادة الله المحسن العلي البدير .

وكان تحرير الكنيسة من قيود هيكل بنى إسرائيل ، على أية حال ، عملا يتطلب وقتا ، كما أنه شاق نوعا . واعترف من تحول من اليهود يسوع على أنه المسيح الذي أنبا به الوحي القديم ، وأجلوه واحترموه باعتباره رسولا يعلم الناس الفضيلة والدين ، ولكنهم تشبثوا تشبثا عنيدا بشعائر وطقوس أسلافهم ، حتى لقد أراحوا فرضها على الأمميين (غير اليهود) الذين كانوا يزيدون باستمرار في عدد الدخلين في المسيحية . ويبدو أن هؤلاء المسيحيين المتهودين ناقشوا ، على درجة من الصواب ، المصدر الإلهي للشريعة الموسوية ، والكمال الثابت لمنشأها العظيم ، وأكدوا أنه إذا كان « الكائن الاسمي » وهو هو نفسه عبر الخلود ، قد شرع إلغاء الطقوس المقدسة التي كانت تميز شعبه المختار ، ولما كان الغاؤها أقل وضوحا وجلالا ومهابة من سننها في البداية ، فإنه بدلا من هذه التصريحات المتكررة التي تفترض أو تؤكد خلود العقيدة

الموسوية ، كان من الممكن تمثيلها على أنها مشروع مؤقت قصد به أن يستمر حتى قدوم المسيح الذي سيعلم الناس أمور العقيدة والعبادة في أسلوب أقرب إلى الكمال ، وأن المسيح نفسه وتلاميذه الذين حاوروه في الأرض ، بدلا من اجازتهم - عن طريق القدوة - لأصغر الشعائر في الشريعة الموسوية ، كان يمكن أن ينشروا على العالم الغاء تلك الطقوس المقيمة القديمة المهجورة ، دون أن تتكلف المسيحية عناء البقاء سنين طوالا حائرة مرتبكة بين مختلف طوائف الكنائس اليهودي . وقد يبدو أن في مثل هذه المناقشات دفاعا عن قضية شريعة موسى المثبتة ، ولكن أحبارنا المفتحين كثيرا ما استطاعوا بجدهم أن يفسروا لغة «العهد القديم» المبينة ، وسلوك «المعلمين الرسولين» الغامض . وكان الأفضل والأسلم أن يكشف النقاب تدريجا عن الأسلوب الموجود في الإنجيل وأن يصدّر - في غاية الحذر والرفق - حكم يدين هؤلاء اليهود المؤمنين ، وهو أمر تعافه نفوسهم وتبفضه تعصباتهم .

ويقدم تاريخ كنيسة اورشليم دليلا قاصدا على ضروره مثل هذه الاحتياطات ، وعلى اثر الذبابة اليهودية العميق في عقول أتباعها . وكان الاساقفة الخمسة عشر الأولون في اورشليم من اليهود المختلئين . وجمع شعب الكنيسة الذي ترأسوه بين شريعة موسى وتعاليم المسيح . وكان من الطبيعي أن تتقبل التقاليد البدائية للكنيسة التي أسست بعد موت المسيح باريعين يوما فقط ، والتي حكمتها في الكثير الغالب حواريوه ورسله لغدة سنتين - تتقبل على أنها مقياس الصحة أي المذهب الصحيح - الأرثوذكسي . أما الكنائس النائية فكثيرا ما لجأت إلى الكنيسة الأم (كنيسة اورشليم) ، وفرجت كروبيها عن طريق الصدقات النسخية ، فلما نشأت المجتمعات العديدة الغنية في المدن الكبرى في الامبراطورية : في انطاكية ، الاسكندرية ، امينوس ، كورنثة ، روما ، قلص الاحترام الذي كانت اورشليم توحى به إلى المراكز المسيحية ، وسرعان ما وجد اليهود المرتدون إلى المسيحية ، أو كما سموا فيما بعد «النصارى» (نسبة إلى مدينة الناصرة) والذين وضعوا أساس الكنيسة - نقول وجدوا أنفسهم وقد طغت عليهم الجذوع التزائيدة الذين انضموا تحت راية المسيح من مختلف مذاهب الشرك . وزغض الأميون - بموافقة رسولهم الخاص - ثقل الطقوس الموسوية الذي لا يحتمل ، وأبوا آخر الأمر ، لأخوانهم الذين هم أكثر غيرة على الحق نفس التسامح الذي نضروا هم في بداية الأمر من أجله . وقد أحس النصارى احساسا عميقا مريرا بدمار المعبد والمدينة والعقيدة اليهودية ، فقد احتفظوا في سلوكهم - لا في عقيدتهم - بأواصر وثيقة بينهم وبين بنى وطنهم غير الاتقياء

الذين نسب الوثنيون كوارثهم الى احتقار الاله الاعظم ، ونسبهم الى المسيحيون ، بشكل أحق وأصدق ، الى غضبه . وارتد النصارى من اطلال اورشليم الى مدينة بلا Pella الصغيرة وراء نهر الأردن ، حيث انزوت تلك الكنيسة القديمة فى عزلة وخفاء ، ولكنهم ظفوا يجسدون المراء فى التردد على المدينة المقدسة لزيارتها ، وبالأمل فى عودتهم يوما الى هذه الأماكن التى علمتهم الطبيعة والعقيدة معا أن يحبوها ويجلوها كذلك . ولكن تمصّب اليهود الذميم اليائس ، فى عهد هادريان زاد الطين بلة فى النهاية ، حتى بلغت الكارثة ذروتها ، فاستخدم الرومان الذين اهاجتهم ثوراتهم المتكررة ، حق النصر فى شراسة بالغة غير عادية ، وأسس الإمبراطور ، تحت اسم ايليا كابيتولينا مدينة جديدة على جبل صهيون ، وأعطاه كل امتيازات المستعمرة ، وتوعد بأشد العقوبات أى فرد من الشعب اليهودى يجرؤ على الاقتراب من تخومها ، ووضع حامية يتفلة من الجنود الرومان لتقوم بتنفيذ أوامره . ولم يكن أمام النصارى للاملات من هذا الحكم الا سبيل واحدة ، وعضد الدين التويم هذه المرة ، ما للزاياء المؤقتة من اثر ، فانخبوا ماركوس أنقفأ لهم ، وهو من احبار عنصر الأميين الغرباء ، وأغلب الظن أنه كان من مواطنى ايطاليا أو احدى الولايات اللاتينية . وبفضل اقناعه ، أشاد معظم شحب الكنيسة بشرية موسى التى ثابروا على اتباعها أكثر من قرن من الزمان . وبهذه ضحية بعداداتهم وأرائهم اشتروا السماح لهم بالدخول الى مستعمرة هادريان كما دمبوا وخذتهم مع الكنيسة الكاثوليكية ، بشكل أقوى وأثبت .

ولما استعاد جبل صهيون اسم كنيسة اورشليم وأمجادها ، نسبت جرائم الانشقاق والضلال الى البقية الحقيمة من النصارى الذين رفضوا أن يرافقوا استقهم اللاتينى . وظل هؤلاء يحتفظون بمدينة بلا Pella موطنهم السابق ، وانتشروا فى القرى المجاورة لدمشق ، وأنشأوا لهم كنيسة هزيلة فى مدينة حلب بسوريا . واعتبر اسم « النصارى » أسبى وأشرف من أن يطلق على هذه الشرذمة من اليهود المسيحيين ، وسرعان ما أضفى عليهم ما افترض فيهم من ضيق الأثق وضالة الإدراك ، بالإضافة الى حالتهم — الاسم الحقيقير المسزرى « الابونيون Ebionites » . وبعد عودة كنيسة اورشليم ببضع سنين ، ثار الشك والجدل حول المسألة الآتية : هل يمكن أن يطمع فى الخلاص رجل آمن عن يقين بيسوع المسيح فى الوقت الذى ظل فيل يتبع شريعة موسى؟ ونزعت بالقديس جوستين الشهيد Justin Martyr روحه الانسانية الطيبة ، فرد على هذا التساؤل بالإيجاب ، والحق أن جوابه

كان يتسم بأكبر التحفظ والحياء ، ولكنه رغم ذلك تجاسر فوقف الى جانب مثل هذا المسيحي غير المكتمل ، شريطة ان يكتفى بممارسة الشملات الموسوية دون أن يعمد الى تأكيد نفعها وضرورتها . فلما الحوا على جوستين في الانصاح عن رأى الكنيسة ، قال ان بين المسيحيين الارثوذكس كثيرين جدا ، لا يستبعدون اخوتهم اليهود المتنصرين من امل الخلاص محسب ، بل كذلك يفكرون الاتصال بهم في المجالات العامة ، مثل الصداقة والضيافة والحياة الاجتماعية . وتغلب الراى الذى هو اشد صرامة وقسوة ، كما كان متوقفا بطبيعة الحال ، على الراى الذى هو اكثر اعتدالا . ومن هنا وجد حاجز ابدى يفصل بين أتباع موسى وأتباع المسيح . اما الأبيونيون التمساء الذين لفظتهم ديانة بانهم ملوثون ، ولفظتهم الأخرى لانهم هراطقة ، فقد وجدوا انفسهم مضطرين الى تحديد موقفهم بشكل أدق ، وربما وجدت حتى القرن الرابع بقية لهذه الطائفة البالية ، الا انها ذابت بطريقة غير ملحوظة فى الكنيسة المسيحية أو فى الهيكل اليهودى .

وبينما اتخذت الكنيسة الارثوذكسية مكانا وسطا سويا بين الانراط فى الاحترام والاجلال وبين الزنداء غير اللائق ، لشريمة موسى ، نجد ان مختلف الهراطقة قد انصرفوا الى النقيض بنفس التقدر من التطرف ، حتى بلغوا غاية الخطا وغاية الاسراف . فقد انتهى الأبيونيون ، وغنا لما اعترفوا به من هدى الديانة اليهودية ، الى انه لا يمكن الغاؤها أو ازالها قط . على حين سارع اللا أدريون (الغنوصيون Gnostics) طائفة تقول بان الخلاص بالمعرفة دون الايمان) فاستخلصوا من عيوبها المزعومة انها لم تكن قط من انشاء حكمة الاله . وهناك — على سلطان موسى والرسول — بعض الاعتراضات سرعان ما تقفز الى اذهان المتشككين الملحدين ، ولو أنها تنبع من جهلنا بالآباد السحيقة وعجزنا عن تكوين فكرة كافية عن التدبير الالهى . ورحب علم الغنوصيين العقيم فى لهنة بهذه الاعتراضات ، ودافع عنها فى جراءة ووقاحة . ولما كان معظم هؤلاء الهراطقة يرفضون ملذات الحواس أو الملذات المادية فقد هاجبوا بشدة تعدد الزواج عند البطارقة (الاشراف) وفروسية داود وحريم سليمان . وبعد فتح ارض كنعان وابادة السكان الاصليين غير الابريين الأبرياء الذين لم يتوقعوا شرا ، بانوا فى حيرة من أمرهم ، كيف يلتزمون مع الافكار العامة المشتركة للانسانية والعدالة . ولكنهم لما تذكروا السجل الدامى الزاخر بالقتل والاعدام والمذابح ، الذى يسكاد يلطخ كل حشوات تاريخ اليهود ، أدركوا أن المتبريرين فى فلسطين أظهروا من الرحمة والرفق بأعدائهم الوثنيين مثل ما أظهروا لأصدقائهم ؟ بنى

جلدنتهم . وعندما تجاوزوا المذاهب الفرعية الطائفية للشريعة الى الشريعة نفسها وجدوا أنه من المستحيل على حياة لا تتألف الا من القرايين الدموية والمقوسات الثقافية ، وطبيعة الثواب والعقاب ، على السوء فيها ، هي طبيعة جسدية دنيوية مؤقتة — من المستحيل على هذه الحياة أن توحى بحب الفضيلة أو تكبح جماح الانفعالات والمواقف . وعالج الغنوصيون موضوع خلق الانسان وموتسه في سخرية يشوبها الدنس والاحاد ، فانهم لم يصفوا في اناة وصبر الى ان الاله قد اخذ الى الزاحة بعد ستة ايام من جهد شاق ، الى ضلع آدم ، والى جنة عدن والى شجرة الحياة والمعرفة ، والى الامعنى الناطقة ، والى الفاكهة المحرمة ، والى الحكم الصادر ضد الجنس البشرى نتيجة لخطيئة تافهة اقترفها اجداده الاولون . ومصور الغنوصيون — في الحاد بالغ — اله اسرائيل ، بأنه معرض للاهواء والخطا ، متقلب في حبه ، عنيد لا يطاق في غضبه ، غيور بشكل دنيء على عبادته الخرافية ، وقد قصر غنايته المتحيزة على شعب واحد وعلى هذه الحياة المؤقتة الزائلة . ولم يستطيعوا أن يثبتوا في هذه الشخصية أية معالم لاله الكون الحكيم القدير على كل شيء . لقد ذهبوا — اى الغنوصيون — الى القول بأن عقيدة اليهود اقل اجراما — نوعا ما — من وثنية الاميين ، ولكن عقيدتهم الانسانية قامت على ان المسيح الذى يعبثونه هو اول والمع انبعثت من الالهة ظهر على الارض ليخلص بنى آدم من اخطائهم المختلفة وليبذل طريقا آخر للحق والجمال . واقر الآباء ، في تواضع فريد — بسفاسة الغنوصيين ، واذا اقروا بأن المعنى الحرفى كربه تنفر منه كل مبادئ الايمان والمنطق ، فانهم حسبوا انفسهم فى بأمن لا يأتهم الباطل من بين ايديهم ولا من خلفهم اذا احتموا فى الثوب الفضاض ، ثوب الاستعارة والمجاز ، الذى اشاعوه فوق كل الاجزاء الضعيفة فى ناموس موسى .

ومثل فى براعة اكثر منه بحق ، ان الطهر المسكرى فى الكنيسة لم تشبه اية شائبة من الانسحاق أو الزرع قبل عصر تراجان أو هادريان ، بعد موت المسيح بنحو مائة عام . ولكننا نلاحظ ، فى دقة اكثر ، أن تلاميذ المسيح خلال تلك الفترة انصرفوا الى العقيدة والعبادة فى حرية اكثر مما اتبع فى المصور التالية : ولما ضيق اخوية الكنيسة بطريقتهم غير ملحوظة ، وما رست الطائفة الغالبة سلاطتها الروحية فى قسوة متزايدة ، فان كثيرا من اجل اتباعها الذين دعوا لتبذرها ، استثمروا اللادلاء بأرائهم الخاصة ، وتتبع نتائج مبادئهم الخاطئة ، وبعبارة صريحة اعلنوا تمردهم على وحدة الكنيسة . ولقد تميز الغنوصيون بانهم اكثر

المسيحيين أدبا وعلميا ومثالا . وأما هذه التسمية العنابة — التي تعبر عن اتساع معرفتهم وسموها — فقد أنتطها لهم غرورهم ، أو خلعها عليهم حقد أعدائهم تهكما وسخرية . وكاد الغنوصيون ، دون استثناء يكونون من جنس الأميين . ويبدو أن المؤسسين الأصليين لهذه الطائفة كانوا من أهل سوريا أو مصر ، حيث تفاء الفناخ الذى يهيم للعقل والجسم معا جو التقى والورع في دعة وتامل . وظط الغنوصيون بالإيمان بالمسيح كثيرا من العقائد أو المذاهب الرائعة الغامضة في وقت معا ، تلك التى اشتقوها من الفلسفة الشرقية ، بل حتى من ديانة زرادشت التى تتعلق بخلود المادة ووجود عنصرين والتسلل الغامض للعالم غير المرئى ، وعندما انزلقوا إلى هذه الهوة السحيقة اسلموا قيادهم لخيال مهوش ، وقد كانت مسالك الخطأ متشعبة غير محدودة ، فقد انقسم الغنوصيون ، دون أن يحسوا ، إلى أكثر من خمسين شعبة خاصة ، يبدو أن من أشهرهم البازيليديين Basiliadians والفالنتينيين Valentinians والماركيونييين Marcionites ثم المانيكانز Manichaeans في عصر متأخر . وتفاخرت كل شعبة منها بأساتفتها وأشياعها وعلماؤها وشهادتها . وأخرج الهرطقة — بدلا من الأناجيل الأربعة التى قررتها الكنيسة ، مجموعة كبيرة من التواريخ التى نلثم فيها مناقشات المسيح وجوارييه وأعمالهم مع أفكار كل شعبة بعينها . وكان نجاح الغنوصيين سريعا واسع النطاق ، فقد ملأوا آسيا ومصر ، وثبتوا مكانهم في روما ، وتوغلوا أحيانا في ولايات الغرب . والأرجح أنهم نشأوا في القرن الثانى ، وترعرعوا في القرن الثالث ، ثم خدوا في القرن الرابع أو الخامس بقيام جدل ومناقشات أكثر عصرية ، وبفضل العيادة العليا للسلطة الحاكمة . وعلى الرغم من أنهم عكروا السلم دائما ، وأنهم كثيرا ما أساعوا إلى اسم الدين ، فإنهم أسهموا في تقدم المسيحية أكثر مما عوقوها . ووجد الأميون الذين تحولوا إلى المسيحية ، والذين وجهت كل اعتراضاتهم وتحزباتهم ضد شريعة موسى ، وجدوا منفذا إلى كثير من المجتمعات المسيحية ، التى لم تتطلب من عقولهم الأبية الجاهلة أى إيمان بوحى سابق . فتوى وزاد إيمانهم بشكل غير ملحوظ ، وأفادت الكنيسة في النهاية من دخول الد أعدائها إليها .

ومهما يكن من أمر الخلاف في الراى بين الأرثوذكس والأبيونيين والغنوصيين ، فيما يتعلق بالوهية شريعة موسى أو سندها ، فقد جمعهم جميعا على قدم المساواة ، نفس الغيرة المطلقة ونفس الكراهية لعبادة الأصنام ، مما ميز اليهود عن سائر الأمم في العالم القديم ، أن الفيلسوف الذى أعجب الشرك وتعدد الآلهة مزيجا من غش الانسنان وخطئه ،

ليستطيع أن يخفى ابتسامة السخرية تحت ستار التقوى ، دون أن يخشى أن تعرضه السخرية أو الالتماس لغضب أى قوى خفية — أو كم تصورهما هو — قوى وهمية . ولكن المسيحيين الأولين كانوا ينظرون الى الديانات الوثنية القائمة نظرة أشد مقنا ورهبة . وكان الاعتقاد السائد عند الكنيسة والهرطقة معا أن الشياطين هم منشئو الوثنية وحياتها وأصنامها . فمن هذه الأرواح المتمردة التى حرمت من منزلة الملائكة والتقى بها فى نار جهنم ، كان لا يزال مقدرا لها أن تحوم حول الأرض لتعذيب أجسام البشر الأتقين وتضل عقولهم ، وسرعان ما اكتشف الشياطين واستغلوا فى الإنسان استعداده الطبيعى للعبادة والنسك ، نحولوا الإنسان فى دهاء واحتيال عن عبادة ربه ، واقتصبوا هم مكان الآله الأعظم وأمجاده . وبنجاحهم فى محاولاتهم الخبيثة ، أرضوا فى الحال غرورهم وأشبعوا شهوتهم فى الانتقام ، وحصلوا على الراحة التى كانوا فى شك منها ، تلك هى آملهم فى انزلاق الجنس البشرى معهم لمشاركتهم انهم ويؤسهم . وقيل ، أو على الأقل تصور ، انهم تقاسموا فيما بينهم أهم شخصيات الآلهة التى مرغها المشركون ، فانتحل فرد من الجن اسم جوبيتر وصفاته ، وآخر اسكولاببوس وثالث مينوس ، وربما انتحل رابع اسم أبولو . . . وانهم بفضل مرانهم الطويل وبفضل طبيعتهم الهوائية استطاعوا فى قدر كاف من المهارة والوقار أن يمثلوا الأدوار التى عهد اليهم بها . وقبّعوا فى المعابد ، ونظّموا الاحتفالات والقرايين ، وابتدعوا الخرافات ، ونطقوا بالوحي ، وكثيرا ما سمح لهم بالانتيان بالمعجزات ، أما المسيحيون الذين كانوا يستطيعون على الفور — بفضل توسط الأرواح الشريرة — أن يفسروا أية ظاهرة خارقة للطبيعة ، فقد كانوا يميلون ، بل يرغبون ، فى التسليم بأشد أوهم وخيالات الأساطير الوثنية أسراما ، ولكن إيمان المسيحي كان مشوبا بالرعب . واعتبر أقل بادرة من الاحترام للعبادة الوطنية ولاء مباشرا مقدما للشيطان ، ونهدا على جلال الله .

وتبعنا لهذا الراى ، كان أول ، ولكن أشق ، واجب على المسيحي هو أن يحافظ على طهارة نفسه وينأى بها عن أرجاس الوثنية . ولم تكن ديانة الأمم مجرد عقيدة نظرية يمتدح بها فى المدارس أو يوعظ بها فى المعابد . ولقد تداخلت وامتزجت آلهة الشرك وطقوسه العسيدة امتزاجا دقيقا بكل ظروف العمل واللهو ، ظروف الحياة العامة والخاصة ، وبدا أنه يستحيل على الإنسان أن يتحاشى ملاحظة وجودهم فى كل شيء ، إلا اذا تخلى فى نفس الوقت عن مخالطة الجنس البشرى ، وعن جميع وظائف المجتمع ومسراته . وكانت أمور الحرب والسلام تبدأ

أو تختم بتقديم قرابين رهيبة ، كان لزاما على الحاكم والسناو والجندي أن يرأسها أو يسهم فيها (١) . وكانت المشاهد العامة جزءا أساسيا في ميادة الوثنيين المرحية وكان المروض أن الآلهة تتقبل الألعاب التي يشترك فيها الأمير والشعب تكريما لأعيادها الخاصة ، على أنها — أى الألعاب — أعظم مقدمة تفيض بالشكر والعرفان (٢) . ووجد المسيحي الذي تجنب — وربما وفزعا — نفس السيرك أو المسرح ، وجد نفسه يقع في ورطات خبيثة في كل احتفال بهيج كلما عمد أحدناؤه — في صحة بعضهم بعضا — الى صب الخمر قربانا وضراعة الى الآلهة . وعندما كانت العروس تزف في موكب الزوجية ، وسط النظار المتفنن بالمنع والخمر ، الى عتبة دارها الجديدة ، أو كان موكب الجنائز الحزين يسير الهوينى الى المحرقة (٣) ، فإن المسيحي في هذه المناسبات الهامة كان يفضل مضطرا: التخلي عن أعز الناس لديه ، على أن يرتكب الاثم الكامن في هذه الاحتفالات البعيدة عن الورع والتقوى . وتلوث بدنس الوثنية كل من أو مهنة اتصلت ولو اتصالا يسيرا — بصناعة الأصنام أو تزيينها . وهذا حكم قاس ، لانه جلب البؤس والشقاء الدائمين على أكبر جزء من الجماعة المشتغلة بالمهن الفكرية أو الآلية . وانك اذا التفت نظرة على المخطفات القديمة ، لوجدت فضلا عن تماثيل الآلهة والأدوات المقدسة لمباتهم — الأشكال الجبيلة والأقاصيص اللطيفة التي قدمها خيال الاغريق ، قد انسلت وكانها اثنان الزخارف لبيوت الوثنيين وملابسهم وأثاثهم . بل ان غنون الموسيقى والرسم والبلاغة والشعر نفسها نبتت من نفس هذا المورد المكر . وفي رأى الآباء كان أبولو والموزيات *Muses* (٤) لسان حال الشيطان ، وهومر وفرجيل من أبرز خدامه . وقدر للأساطير الجبيلة التي تسود وتحيى.

(١) كان السناو يعقد اجتماعاته في معبد أو في مكان مقدس ، وقبل أن يبدأ العمل ، كان كل عضو يقدم على المذبح شيئا من النبيذ ، والبخور .
(٢) انظر ترتليان *Tertullian* في كتابه "المشاهد" *De Spectaculis* . ولا يظهر هذا المصلح العنيف من التسامح مع مأساة ليوربيديس ، أكثر مما يظهره نعر نزال المصارمين . وكان لباس اللاميين ، بصفة خاصة ، يضايقه . وقد حاولوا — في ضلال وكفر — باحتيئهم الطويلة أن يخففوا ذراعا الى طولهم .
(٣) لم يحف فرجيل الجنائز القديمة (في أيام ميسينوس *Misenus* وبلاس *Pallas*) بدقة أقل مما أوضحها بها سرفيوس *Servius* (الملق عليه) وكانت المحرقة نفسها مذبحا . وكانت النار تنفذى بدم الضحايا ، وكان المشيعون يرشون بماء معطر .

(٤) جمع موزية : وهي إحدى ربوات تسع في أساطير اليونان اختصصت بحماية الآداب والعلوم والفنون ، (المترجم) .

نتاج عبقريتها ، أن تشيد بعظمة الشياطين . وقد زخرت اللغة الدارجة في اليونان وفي روما بتعبيرات مألوفة ، ولكنها غائبة ، مما يمكن أن ينطق به المسيحي المتهور في غير تبصر ، أو يستمع إليها في صبر شديد كذلك (١) .

إن المخبريات الخطيرة التي ترمصت من كل جانب بالمؤمن غير اليقظ ، كانت تهاجمه بأشد العنف المضاعف في أيام الأعياد البرهية . وكما أن تنظيم وتدبر على مدار السنة في دهاء وحيلة ، بدرجة تخلع على الخرافة ثوب المسرة وغالبا ثوب الفضيلة كذلك . وخصصت بعض أقدس الأعياد في الطقوس الرومانية للاحتفال بأول يناير في أشد مظاهر الاحتياج العام والخاص ، ولتعداد المآثر النقية للأبوات والأحياء ، ولتوكيد الحدود التي لا يجوز الاعتداء عليها للممتلكات ، أو للترحيب ، عند عودة الربيع بقوى الإخصاب والنماء ، ولتخليد ذكرى التاريخين الخالدين في روما : تاريخ تأسيس المدينة وتاريخ قيام الجمهورية ، والاستعادة المساواة البدائية الفطرية بين الناس في أيامهم الأولى ، وذلك أثناء الإباحية الرحيمة التي يتسم بها عيد زحل (١٧ ديسمبر من كل عام ، يوم الانقلاب الشتوي) . ويمكن تكوين فكرة عن كراهية المسيحيين لمثل هذه الاحتفالات البعيدة عن التقوى والورع ، من الإحساس المرفف الذي أظهروه في مناسبة أقل خطرا بكثير . فقد تعود القدماء في أيام الأعياد العامة ، أن يزينوا أبوابهم بالمصابيح وأكاليل الفلار ، وأن يتوجوا رموسهم بأكاليل من الزهور ، وربما كان من الميسور احتمال هذا الطقس اللطيف البريء باعتباره عملا مدنيا ، ولكن حدث من سوء الحظ أن الأبواب كانت تحت حراسة المعبودات المنزلية ، وأن الفلار كان مقدسا عند عشاق دافني Daphne (في الأساطير اليونانية حورية هربت من أبولو) . وأن أكاليل الزهور التي كانت توضع رمزا للفرح أو للأسى خصصت في بداية نشأتها لخدمة المعتقدات الخرافية . وهنا نجسد المسيحيين المرتعدين الذين استخرجوا في هذه الحالة للشمس مع عرف بلدهم ومع أوامر الحاكم - نجد أنهم شقوا تحت وطأة الخوف الرهيب من تائب ضمايرهم ومن لوم الكنيسة ، ومن الإنذار بالانتقام الإلهي .

هذا هو الجهد المضني القلق الذي كانت تتطلبه حماية ظهرارة الإنجيل ضد الجرائيم المعدية لعبادة الأوثان . وكان أتباع الديانة القائمة يمارسون ، بحكم التلقين أو بحكم العادة ، دون وعي ، هذه الطقوس

(١) تروبوليان في كتابه « الأصنام » إذا استعمل صديق وثني - لمناسبة العطس مثلا (عبارة « يرحمك جوبيتر » اضطر المسيحي إلى الاحتجاج على ألوهية جوبيتر .

الخوافية العامة أو الخاصة ، ولكنهم — كما حدث غالباً — هياؤا الفرصة للمسيحيين ليعطوا أو يؤكثوا تصديقهم التغيير لها . وبهذه الاحتجاجات المتكررة تدعم باستمرار تعلقهم بعقيدتهم . وكلما ازدادت غيرتهم ، خاضوا ، بمزيد من الحماسة والتوفيق ، الحرب المقدسة التي شنوها على امبراطورية الشياطين .

٢ — عقيدة الحياة الآخرة :

تمثل كتابات شيشرون ، بأجلى بيان ، جهل الفلاسفة القدامى وأخطائهم وترددهم فيما يتعلق بخلود الروح . فالفهم عندما كانوا يرغبون في تحسين حواريتهم ضد الخوف من الموت كانوا يقررون ولو أن ما يقولون واضح ، ولكنه محزن ، أن هذه الضربة القاضية التي نصيبنا — أى الموت — إنما تخلصنا من نوائب الحياة ، وأن الموتى لن يقاسوا منها بعد موتهم . على أنه كان هناك نفر قليل من حكماء الاغريق والرومان ، تبينوا فكرة أسس ، ومن بعض الوجوه أصدق ، عن الطبيعة البشرية ، رغم أنه يجب الاعتراف بأنه في هذا البحث الجليل كان خيالهم يوجه منطقهم ، وأن غرورهم كان يلهب خيالهم . انهم لما نظروا في ارتياح الى مدى قواهم العقلية ، وملسوا مختلف قوى الذاكرة والخيال ، والحكم على الأشياء ، في اعماق التأملات وفي اشق الاعمال ، وتملكتهم الرغبة في الشهرة التي سبحت بهم في آفاق المستقبل ، وراء حدود الملقيا والتبور ، لم يترضوا أن يحشروا أنفسهم في زمرة حيوانات الحقل ، أو يفترضوا أن الكائن الذي أبجوا اعظم الإعجاب وأصدق بجلاله ووقاره يمكن أن يوارى في حفرة ضيقة من الأرض ، وأن يحدد وجوده بسنوات معدودات من العمر . وفي غمرة هذا التحيز السائد أهابوا بعلم الميتافيزيقا ، أو على الأصح بلغتها ، لنجدتهم . وسرعان ما اكتشفوا ، حيث أن أيا من خواص المادة لا تنطبق على عمليات العقل — اكتشفوا أن الروح الانسانية لا بد أن تكون شيئا لذلك شيئا متميزا عن الجسم ، شيئا نقيا بسيطا روحيا ، غير قابل للتدخل أو الفناء ، حساسا لأكبر قدر من الفضيلة والسعادة بعد تخلصه من سجنه الجسدى . ومن هذه المبادئ النبيلة الخداعة خرج الفلاسفة الذين تائروا خطى أفلاطون بنتيجة لا مبرر لها ، حيث أكتوا ، لا مجرد الأبدية الآخرة محسب ، بل كذلك الأزلية السابقة للروح البشرية التي تقبلوا بأحسن القبول اعتبارها جزءا من الروح المرمدية الموجودة بنفسها وجودا ذاتيا ، والتي تعم الكون وتدعمه . وقد تجدى

مثل هذه النظرية التي جاوزت مجال الحواس والتجربة البشرية في شغل فراغ عقلية فلسفية ، أو أنها ، في سكون العزلة قد تضيئ شيئا من الراحة على قلب انسان فاضل تولاه القنوط فخارت عزيمته . ولكن سرعان ما محا مهترك الحياة الجادة ومشاعلها أثر البصمات الباهتة التي تركتها هذه النظرية في المدارس . وانا لنعرف حق المعرفة الاشخاص الأفاذ الذين نبغوا في عصر شيشرون والقيصرة الاوائل ، ونحن على بينة من أعبالهم وشخصياتهم وبواعثهم ، مما يؤكد لنا ان سلوكهم في هذه الحياة لم يصدر عن أى اقتناع جازم بثواب أو عقاب في الحياة الآخرة ، ولم يخش أبرع الخطباء في ساحة المحكمة أو السناتو في روما ان يسئلوا الى سامعيهم بالتعريض بهذه النظرية على انها رأى فحج متطرف ينبذه في ازراء أى رجل متحرز في تعليمه وفى مهمه للأمور .

فلما لم تستطع الجهود الفائقة للفلسفة ان تخطو الى اكثر من الاشارة الباهتة الى الرغبة أو الأمل ، أو على الأقل احتمال حياة مستقبلية (ما بعد الموت) فانه لم يعد هناك الا وحى الهى يمكن ان يؤكد وجود عالم غير مرئى مخصص لاستقبال أرواح الناس بعد انفصالها عن اجسادهم ويصف الأحوال في ذاك العالم المجهول . ولكننا نلمس في الديانات المعروفة في اليونان وروما عدة نقائص كامنة فيها جعلتها عاجزة عن الاضطلاع بهذه المهمة العسيرة :

١ - ذلك ان الاسلوب العام في اساطيرهم لم تعززه أية براهين قاطعة . بل ان أعقل الوثنيين قد أنكر بالفعل على هذه الاساطير سلطانها المقتضب .

٢ - اما وصف جهنم فقد تركوه لخيال الرسامين والشعراء الذين حشدوا فيها الكثير من الأطياف وغرائب الوحوش التي وزعت ثوابها وعقابها في شيء يسير من المساواة والانصاف ، الى حد ان هذا الخليط المسخيف من اشد الأوهام والباطيل جنوحا ووحشية ازرى بالحسق الصراح وضيق عليه الخنلق ، على حين انه أحب شيء الى قلب الانسان .

٣ - ونذكر ان اعتبر المشركون الانتقاء في اليونان وروما نظرية « الحياة الثانية » ركنا أساسيا من اركان الايمان . فان عناية الآلهة ، بوصفها تتعلق بالجماعات العلية اكثر منها بأفراد خالصين بذواتهم ، نجلت على المسرح الظاهر للحياة الراهنة . فمقد عبرت الابتهالات والنومولات التي كانت تقدم على مذابح جوبيتر وأبولو عمن تلهف

عبادها على السعادة الدنيوية ، وعن جهلهم أو عدم اكتراثهم بالحياة المستقبلية (الثانية) . أما في الهند وآشور ومصر والغال ، فقد أشربت القلوب الحقيقة الهامة المتعلقة بخلود الروح بدرجة أكبر من المثابرة والنجاح ، ولما كنا لا نستطيع أن ننسب الفارق إلى علو كعب المتبريرين في المعرفة ، فانه لجدير بنا أن نرجعها إلى نفوذ الكهنة الوطيد السذي استخدم بواعث الفضيلة بمثابة وسائل لتحقيق أطماعهم .

وطبيعى أن نتوقع أن يتكشف هذا المبدأ الأساسى فى الديانة بأجلنى معانيه للشعب المختار فى فلسطين . وإن يعهد به إلى كهنة هارون الوريثين . وكان حتما مقضيا علينا أن نعبد النواميس الخفية للعناية الالهية ، على حين نكتشف أن نظرية خلود الروح ليس لها وجود فى شريعة موسى ، لقد اقحمها الرسل خلصة ، وفى الفترة الطويلة التى انقضت بين الاستبعاد فى مصر وفى بابل ، يبدو أن آمال اليهود ومخاوفهم بما كانت محصورة فى الدائرة الضيقة للحياة الراهنة (الحياة الدنيا) وبعد أن رخص كورش (١) للأمة المنفية فى العودة إلى الأرض الموعودة ، وبعد أن استرد عزرا (٢) Ezra السجلات القديمة للديانة ، نشأت فى أورشليم ، بطريقة غير ملحوظة ، طائفتان مشهورتان : الصدوقيون Sadducees والفريسيون Pharisees . والتزم الألوان - وهم من أغنى وأبرز طبقات المجتمع - التزاما شديدا بالمعنى الحرفى لشريعة موسى ، وأنكروا ، عن ورع وتقى ، خلود الروح ، باعتباره فكرة ليس لها سند فى الكتاب المقدس الذى يجلونه بوصفه السركيزة الوحيدة لعقيدتهم . وأضاف الفريسيون إلى سلطان الأسفار المنزلة سلطان التقاليد والأعراف ، حيث تقبلوا باسم التقاليد والأعراف ، بعض الأفكار النظرية فى فلسفة الأمم الشرقية أو فى ديانتها ، وكانت فى عداد هذه الأركان الجديدة للمعقيدة نظريات القضاء والقدر ، والملائكة والأرواح ، والحياة الثانية بما فيها من ثواب وعقاب . ولما كان الفريسيون ، نتيجة لصراية سلوكهم ، قد جذبوا إلى صفوفهم جمهرة الشعب اليهودى ، فقد أصبح خلود الروح هو الشعور السائد فى المجتمع اليهودى تحت حكم ملوك الأزمنين Asmonaenoena وأخبارهم . وعجز مزاج اليهود عن أن يتقبل مثل هذا التوافق الواهى الفاتر الذى ترتضيه عقلية المشركين ، فلما اقروا فكرة الحياة المستقبلية ، اعتنقوها بالغيرة التى شكلت دائما

(١) كورش Cyrus . مؤسس امبراطورية الفرس ٦٠٠ - ٥٢٩ ق م -
(المترجم)

خاصية الامة . ولكن غيرتهم على أية حال لم تضاف عليهما شيئا من
الوضوح ، او حتى احتمال وجودها . وظلت نظرية الحياة والخلود التي
فرضتها الطبيعة واقرها المنطق ، ورحبت بها الخرافة ، في حاجة الى
ضمان وسند حقيقة الالهة ترجع الى المسيح والمثل الذي ضربه هو
نفسه .

ولما وعد الناس بالنعيم الأبدى ، شريطة الايمان واتباع تعاليم
الانجيل ، غلبت من عجب في أن تتقبل افواج كبيرة من كل دين ومن
كل طبقة ومن كل ولاية في العالم الروماني ، هذا العرض الكريم . لقد
الهب المسيحيين الأتقيين اجتذاهم لحقيقتهم الدنياء ، وثقتهم الحقبة
بالخلود الذي لا يستطيع الايمان الضعيف المزعزع في العصور الحديثة
أن يعطينا أية فكرة وافية عنه . واثار الحق بشكل قوى في الكنيسة
الأولى ، نتيجة رأي ، مهما كان جديرا بالاحترام لنفعه وقدمه ، وجد أنه
لا يلتئم مع الخبرة والتجربة . لقد ساد الاعتقاد بأن نهاية العالم
وملكوت الرب وشيكنا المجيء . وتبنا الرسل بقرب وقوع هذا الحدث
المعجب ، وقد احتفظ تلاميذهم الأولون بهذا النبا العظيم ، واضطر
أولئك الذين فهموا أحاديث المسيح بمعناها الحرفي أن يرتقبوا في السحب
عودة « ابن الانسان » عودة مجيدة ثانية ، قبل أن ينقرض تماما هذا
الجيل الذي شهد حياته المتواضعة على الأرض ، والذي قد يظل شاهدا
على ما أصاب اليهود من كوارث على عهد غسبازيان وهادريان . وقد
علبتنا ثورة الفكر في القرون السبعة عشر الا نعتد كثيرا على لفظة
النبوة والوحى الخفية الغامضة ، ولكن طالما سمح — ومن أجل
أغراض حكيمة — بأن يعيش هذا الخطأ في الكنيسة ، فإنه أسفر عن
خير الآثار على عقيدة وأعمال المسيحيين الذي عاشوا في هذا الترقب
الرهيب لتلك اللحظة التي ترتعد فيها فرائص الكرة الأرضية والجنس
البشرى بأجمعه لظهور تلاميذهم الالهى .

وكانت النظرية القديمة المعروفة ، « نظرية العصر الألفى السعيد » ،
مرتبطة ارتباطا وثيقا بعودة المسيح ثانية الى الأرض . ولما كان خلق
الدنيا قد تم في سنة أيلام ، فإن بقاءها على حالتها الراهنة قد تحدد
بستة آلاف سنة ، كما جاء في تواتر منسوب الى ايليا (Elijah)
(أحد أنبياء بنى اسرائيل في القرن التاسع قبل الميلاد) . واستدل بنفس
هذا القياس على أن هذه الفترة الطويلة من الكد والصراع — والتي
انقضت الآن معظمها — سوف تعقبها راحة (سبت) بهيجة مريحة مقدارها
الف سنة ، وأن المسيح ، مع زمرة القديسين الظافرين والصفوة الذين

نجوا من الموت أو الذين بعثوا الى الحياة بمعجزة ، سيحكم على الأرض ، حتى يجين الموعد المقرر لهم البعث النهائي أو العالم . وكم كان هذا الأمل سارا لعقول المؤمنين الى حد أن « أورشليم الجديدة » مقر هذه الملكة المنعمة سرعان ما صورها الخيال في أبهى زينة وأبهج حلة . ومثل هذه الجنة الهائلة التي لا تنطوي الا على اللذة الطاهرة البريئة الروحية فحسب ، قد تبدو في أعين ساكنيها أنقى مما يحتلون ، إذ المفروض فيهم أنهم لا يزالون على طبيعتهم البشرية مالكون لحواسهم الانسانية . وأن جنة عدن بها غيبا من ملذات تصلح لبيئة المرامى لم تعد تصلح للمجتمع الذي هو أكثر تقدما ورقيا ، والذي ساد الامبراطورية الرومانية . ومن ثم شيدت مدينة من ذهب وأحجار كريمة ومنح للبقعة المجاورة لها كل ما تشتهي النفس من غلال وخمر ، في غرفة خارقة ، يتبع السعداء الإخبار بنتائج التلفائى تمتا حرا لا يشوبه جحد ولا حسد ، ولا تحجبه قيود الملكية الخاصة المبنوعة . وعنى تؤكد البشرى بهذا العصر الألفى السعيد ، وترسيخها في أذهان الناس سلسلة من الآباء ابتداء من جوستين الشهيد Justin Martyr وإيرنيوس Irenaeus اللذين تبادلوا الحديث مباشرة مع تلاميذ الرسل والحواريين ، حتى لاكتانتىوس Lactantius الذى كان معلما لابن قسطنطين . وربما أمكن القول بأنه من الجائز أن هذه الفكرة لم ينتقلها الجميع ، الا أنها كانت شمورا ملحا على صدور المؤمنين الارثوذكس . كما يبدو أنها كانت تلفظ مع رغبات الانسان ومواجهه ، الى حد أنها لابد أن تكون قد أسهبت بنصيب واغر في تقدم العقيدة المسيحية . ولكن لما اكتمل صرح الكنيسة او كاد ، نعى هذا السند المؤقت جانبها . فقد أخذت نظرية حكم المسيح على الأرض في البداية على أنها مجاز عميق ، ثم اعتبرت ، بدرجات متفاوتة ، رأيا عقيبا مشكوكا فيه ، ثم فى النهاية رفضت على أنها بدعة سخيفة من صنع الهرطقة والتعصب . ونجت بأعجوبة من حكم الكنيسة ، نبوءة خفية غامضة لا تزال تشكل جزءا من الشريعة المقدسة ، ولكن كان المظنون أنها تظاهر المملطنة المنجزة وتلنثم معها .

وبينما وعد تلاميذ المسيح بالسعادة والمجد فى الحكم الدنيوى ، أئذ الذين لا يؤمنون بلويل والثبور وعظائم الأمور . وتقدم تدعيم عقيدة أورشليم الجديدة جنباً الى جنب بنفس الخطى مع تدمير عقيدة بابل الغامضة . وطالما كان الأباطرة الذين حكموا قبل قسطنطين يصرون على الوثنية ، فإن اسم بابل كان يطلق على مدينة روما وامبراطوريتها . فقد أعدت سلسلة منتظمة من المصائب المادية والمعنوية

التي يمكن أن تنزل بآلة مزدهرة : الاضطرابات الداخلية ، غارات أعند
المقبرين من الأقاليم الشمالية المجهولة ، الوباء والجاعة ، الفيضانات
والكسوف والخسوف ، الزلازل والطوفان . وكان كل أولئك مجرد
علامات ونذر أولى للكارثة العظمى التي تنزل بروما ، حين تفنى بلاد
آل سكيبو والقيصرية بدخان يغشاها من السماء ، وتدفن مدينة التلال
السبعة بقصورها ومعابدها وأقواس النصر بها ، في بحيرة من نثار
وحمم . ومهما يكن من أمر ، فقد يكون لغرور الرومان وكبريائهم بعض
العزاء في أن فترة إمبراطوريتهم هي فترة حياة العالم نفسه ، تلك الحياة
التي أهلكها مرة عنصر الماء ، ثم قدر لها أن تبلى ثانية بدمار عاجل من
عنصر النار . ولحسن الحظ تالقت أمام فكرة الحريق العام عقيدة
المسيحيين وعرف الشرق وفلسفة الرواقين ومقاييس الطبيعة ، بل أن
البلد الذي اختير لدوام دينية ليكون المصدر والمشهد الرئيسي لهذا
الحريق ، كان مهيا على أحسن وجه لهذا الغرض لأسباب طبيعية ومادية
بمخارجه السحيقة وطبقاته الكبريتية وبراكينه الكثيرة ، وما اتنا
ونيزوف وليباري إلا أمثلة بسيطة لها . وما كان في مقدور أعداء
المتشككين واتجمعهم أن يرفض الاعتراف بأن تدمير النار للنظام الحالي
للعالم ، كان في حد ذاته محتلا إلى أبعد حدود الاحتمال . وتوقع
المسيحي الذي أسس إيمانه على حجج العقل المضلة ، أقل كثيرا من
أقامته على سلطان العرف وتأويل الأسفار المنزلة ، توقع هذا الدمار
في رهبة وثقة باعتباره حدثا أكيدا قريبا ، ولما كان عقله مملئا دائما بهذه
الفكرة المقررة ، فانه اعتبر كل مصيبة تحل بالامبراطورية بمثابة علامة
محققة من علامات الساعة أو علامات انتهاء العالم .

إن رمى عقل الوثنيين وأفاضلهم بالجهل أو عدم التصديق بالحقيقة
الالهية يبدو في العصر الحاضر اساءة وامتهانا للعقل والانسانية . ولكن
الكنيسة الأولى التي كان إيمانها أثبت قواما حكمت دون تردد بالعذاب
الأبدى على أكبر عدد من الجنس البشري . وقد يكون هناك أمل كريم
في التسامح مع سقراط أو بعض الحكماء الأقدمين الآخرين الذين
استخاروا العقل قبل ظهور الانجيل ، ولكن تأكد بالإجماع أن أولئك
لذين أصروا في عناد ، منذ ولادة المسيح أو وفاته ، على عبادة الشياطين
والجن ، لا يستحقون ، وليس لهم أن يتوقعوا ، العفو من الإله الذي
استثير غضبه . ويبدو أن هذه المشاعر القاسية التي لم تكن معروفة في
العالم القديم نفثت روحا من المرارة في نظام كان يسوده الحب
والانسجام . وكثيرا ما مزق الخلاف في العقيدة الدينية روابط الدم

والإخاء والصدقة ، ورأى المسيحيون أنهم يزرعون في هذه الدنيا تحت نير الوثنيين ، فاضلهم أحيانا بحقهم وكبريائهم الروحي وأغوتهم بنسوة الفرح بالانتصار في المستقبل . ويقول ترتوليان (١) المتشدد Tertullian منعبا : « انك مولع بالمشاهد ، فتوقع أعظم المشاهد في المحاكمة الأزلية الأخيرة ، كم إعجب ، كم اضحك ، كم أبتهج ، كم أطرب واتهلل ، حين أرى الكثير من الملوك المتكبرين والآلهة الوهمية يفنون في أعماق مهاوى الظلام ، والكثير من الحكام الذين اضطهدوا اسم الله يذوبون في نار أشد سعيرا مما أشعلوا ضد المسيحيين ، والكثير من الفلاسفة الحكماء يصلون مع تلاميذهم الخدوعين نارا حامية ، وكثيرا من الشعراء المشهورين يرتعدون فرقا أمام محكمة المسيح . — لا محكمة مينوس (٢) Minos ، والكثير من المثلثين التراجيديين أكثر انسجاما في الغم تعبيراً عما يعانون ، والكثير من الراقصين والراقصات .. » ولكن أنسانية القارئ قد تستبجح لى العذر في اسدال الستار على بقية هذا الوصف الجهنمي الذي يسترسل فيه هذا الأمريقي في مجموعة طويلة من الفكاهات المصطنعة المجردة من الشعور .

ولا ريب في أنه كان من بين المسيحيين الأولين كثيرون ذوو طبع أكثر التثاماً وتوافقاً مع وداعة عقيدتهم وما تدعو اليه من البر المحبة ، فكان هناك كثيرون ممن استشعروا الرهبة الخالصة لمصائب أصدقائهم وبني وطنهم ، وأحسوا بالغيرة الخيرة لانتقاذهم من الدمار المصدق بهم . أما المشرک الغافل الذي كانت تطارده الأهوال الجديدة غير المتوقعة التي لم يزوده كهنته أو فلاسفته بأي عاصم منها ، فكثيرا ما أزهبه وأخضعه التهديد بالمذاب الأبدى . وربما ساعدت مخاوفه على النهوض بعقيدته ومقله ، وإذا حمل نفسه يوما على الظن بأن الدين المسيحي قد يكون صحيحا صادقا ، ربما بكت من السهل اقتناعه بأنه أسلم وأحكم عقيدة يمكن أن ينضم إليها .

٣ — قوى المعجزات في الكنيسة الأولى :

ان المواهب الخارقة التي نسبت ، حتى في هذه الحياة ، الى المسيحيين ، دون سائر الجنس البشري ، لأبد وانها امت الى راحتهم

(١) من أعظم أباء الكنيسة اللاتينية ١٦٠ - ٢٥٥ م . قضى معظم حياته في قرطاجة (ولاية افريقية الرومانية) وله كتابات كثيرة باللاتينية واليونانية .
(٢) تقول الأساطير اليونانية أنه ملك كريت ، وابن زيوس ، وأصبح بعد موته أحد القضاة الثلاثة في العالم السفلي - (المترجم) .

هم أنفسهم ، وفي الغالب الى اقتضاع الزنادقة ، ونضلا عن المعجزات الطارئة ، التي كانت تحدث نتيجة التدخل المباشر للاله ، حين كان يعطل قوافل الطبيعة خدعة للمسيحيين ، ادعت الكنيسة المسيحية ، منذ عهد الحواريين وتلاميذهم الأولين ، سلسلة لم تقطع من قوى المعجزات ، مثل الالهام باللغات والرؤى ، والقتبؤ ، والقدرة على طرد الشياطين ، وشفاء المرضى واحياء الموتى ، وكثيرا ما وصلت المعرفة باللغات الأجنبية الى معاصري إيرينيوس ، رغم انه هو نفسه ترك ليمانى مصاعب لهجة بربرية وهو يبشر بالانجيل اهالى الغال ، ويقال ان الوحى الالهى سواء جاء على شكل رؤيا فى اليقظة أو فى المنام ، انما هو ممة ينهم بها فى سضاء على مختلف طبقات المؤمنين : على الفساء والشيوخ وعلى الأولاد وعلى الاساقفة ، سواء بسواء ، فاذا تهيأت عقولهم الى حد كاف ، عن طريق منهج من الصلوات والصوم وقيام الليل ، لتلقى هذا المحرك الخارق ، غابوا عن هواسهم ونغلوا فى نشوة كل ما أوحى اليهم ، بوصفه جوارح من الروح القدس ، مظهر فى ذلك مثل الزمار أو الفناء ، فهو جزء لا يتجزأ عن ينبغ فيه . ويمكن ان تضيف ان القصد من هذه الرؤى كان فى الكثير الغالب ، اما كشف الستار عن غيب التاريخ المستقبل للكنيسة ، أو توجيه ادارتها الحالية . اما طرد الشياطين من أجسام أولئك التمساء الذين كان مسموحا للشياطين بتعذيبهم ، فقد اعتبر علامة على الدين ، ولو انه انتصار عاوى له ، وكمن مرة فسر المدافعون القدامى عن الدين بأنه أعظم دليل مقنع على صدق المسيحية ! وكانت العملية البشعة تتم فى حفل عام ، ويحضره عدد كبير من النظارة وكانت سلطة طارد الأرواح الشريرة أو مهارته تخلص المريض من الشيطان ، وكان الشيطان يعترف بصوت مسبوع انه كان أحد الآلهة الكافية القديمة ، التى عرضت غصبا وكفرا على البشر عبادتها . بيد أن شفاء الأمراض المستعصية أو الشاذة الى أبعد حد ، لم يعد يدمو الى العجب أو الدهشة ، اذا تذكرنا أنه فى أيام إيرينيوس ، حوالى أواخر القرن الثانى الميلادى ، كان أحياء الموتى أبعد ما يكون عن اعتباره حدثا غير عاوى ، وأن هذه المعجزة كثيرا ما ثبتت فى المناسبات الضرورية ، بالصوم الكبير واشترائك الكنيسة المحلية فى التضمرسات ، وأن الأشخاص الذين استعادهم هؤلاء الضارمون عاشوا بعد ذلك بين ظهرانيهم سنوات طوالا . وفى مثل هذه الحقيقة التى استطاع الايمان فيها أن يفاخر بانتصاراته العجيبة على الموت ، يبدو من العسير ان نعل تشكك أولئك الفلاسفة الذين ظلوا ينكرون ويسخرون من نظرية البعث . وقد ركز أحد نبلاء اليونان كل جدله فى هذه النقطة الحساسة

الخطيرة ، ووعده توفيلوس أسقف أنطاكية باعتناق المسيحية غورا ، لذا سمح له برؤية فرد واحد بعث حيا بالمعل . وقد يكون جديرا بالذكر ، الى حد ما ، أن مطران الكنيسة الشرقية الاولى ، رغم خلفه على تحويل صديقه الى المسيحية ، رأى من الحكمة أن يزوغ من هذا التحدى الجادل المقول .

وبعد أن اكتسبت معجزات الكنيسة الاولى على مر العصور سيذا ومنعة ، هوجت مؤخرا ، في استقصاء حر بارع يبدو أنه أثار — رغم أن الناس تابلوه بترحاب بالغ — فضيحة جلية بين رجال كنيستنا وبساتر الكنائس البروتستانتية في أوروبا . وسوف نقاثر نظيرتنا الى هذا الموضوع بأية حجج أو مناقشات معينة ، لعل كثيرا منها يعادتنا في البحث والدرس والتأمل ، وغويق كل شيء بقيمة الدليل الذي تعودنا على أن نطلبه لاثبات حادثة معجزة . ولا يقتضى واجب المؤرخ منه أن يقدم رايه الخاص في هذه الإشادة الحساسة الهامة ، ولكن ينبغي عليه ألا يفض الطرف من الصعوبة التي تعترض تبنى نظرية توفيق بين مصلحة الدين ومصلحة العقل ، وأجراء تطبيق سليم لتلك النظرية ، وتعيين حدود هذه الحقبة السعيدة بدقة ، تلك الحقبة التي خلت من الخطأ ومن الغش ، والتي قد نميل الى أن نخلع عليها هبة القوى الخارقة للطبيعة . فقد تعاقبت بلا انقطاع — منذ أول الآباء الى آخر البابوات — سلسلة من الأسلفه والقديسين والشهداء والمعجزات ، وكان تقدم الخرافية متدرجا ، ويكاد يكون غير ملحوظ ، الى حد أننا لا نعرف في أية نقطة معينة يمكن أن نحطم أغلال الجرب . وأن كل عصر ليحمل شاهدة على الأحداث العجيبة التي يتميز بها ، ولا يبدو هذا الشاهد أقل وزنا وتقديرا من شاهد الجيل السابق ، حتى أدى بنا الأمر ، دون أن نشعر أو نحس الى اتهام أنفسنا بالخفة والقلب ، اذا كنا في القرن الثامن أو القرن الثاني عشر ننكر على الأب المحترم «بيد» Bede ، أو القديس « برنار » Bernard تلك الدرجة من الثقة التي أوليناها ، في سخاء ، في القرن الثاثنى ، لجوسيتين أو أرينوس (١) . وإذا قدرت صحة كل من المعجزات على أساس بآدتها ولياقتها الظاهرتين ، فقد كان في كل عصر منكرون لاتقناعهم وهراطة لتفنيد آرائهم ، وأهم وثنية لإهدايتها ، كما كانت هناك بواعث يمكن إهدايتها لتبرير تبخل السباء ، على أنه اذا

(١) قد يبدو جديرا بالذكر أن برنار (من بلدة كليرفو Clairvaux) الذي سجل كثيرا من معجزات صديقه القديس مالاتش ، لا ينكر شيئا عن معجزاته هو نفسه ، على أنها يسورها له رواها في عناية تامة وفاقه وتلاميذه . وهل يوجد في سلمة التاريخ الكنسي الطويل مثال ولحد لقديس يثبت لنفسه موهبة الاتيان بالمعجزات ؟

كان كل صديق للوحى موقنا بصحة قوى المعجزات وكل رجل عاقل مقتنعا بتوقفها ، فواضح أنه لا بد كانت هناك فترة من الفترات انسحبوا إما فجأة أو تدريجاً من الكنيسة المسيحية . وأياً فترة اختيرت لهذا الغرض : موت الحواريين ، أو تحول الإمبراطورية الرومانية (إلى المسيحية) ، أو خمود الهرطقة الأريوسية (١) . فان بلاداً شهور المسيحيين الذين عاشوا في تلك الأيام مثار للدهشة الحقة بنفس القدر . فانهم ظلوا يميزون مزاعمهم بعد فقدان قوتهم ، فقد أدت سرعة التصديق أو سلامة النية مهمة الايمان ، ورخص للتعصب في انتحال لغة الوحى ، ونسبت نتائج المفاجآت أو الحيل إلى أسباب خارقة للطبيعة . وكان لابد لتجربة المعجزات الحقيقية الأصلية الحديثة أن تكون قد علمت العالم المسيحى طرق العناية الالهية ، وراشت عيونهم . (إذا جاز لنا أن نستعمل تعبيراً ناقصاً كثيراً) على أسلوب الفنان « الالهى » . وإذا اجتراً اليوم أبرع فنان في إيطاليا الحديثة على أن يهر رسومه المقلدة الضعيفة باسم رافائيل أو اسم كورجيو Correggio ، فما أسرع ما يكشف هذا الاحتيال الوقح ، ويرفض في ازدراء ! .

ومهما يكن من رأى في معجزات الكنيسة الأولى في صدر المسيحية على عهد الحواريين ، فان هذه النعومة المستسلمة البارزة بروسيا عظيماً في طبع المؤمنين في القرنين الثانى والثالث أثبتت أنها ذات فائدة طارئة لقضية الحق والدين . غلبة شك دفين ، بل قهرى لا ارادى ، يلزم في المصور الحديثة أكثر الناس نزوعاً إلى التقى والورع . فان اقرارهم بالحقائق الخسافة للطبيعة انما هو رضا جاد أقل كثيراً منه اذعاناً قاتراً وسليماً . واذ نرجعنا منذ زمن طويل على أن نلاحظ ونختبر النظام الثابت « للطبيعة » فان عقلنا ، أو على الأقل تصورنا ليس مهياً بدرجة كافية لاحتمال العمل المرئى « للاله » . ولكن موقف الجنس البشرى في المصور الأولى للمسيحية كان مختلفاً كل الاختلاف . فسان أكثر الناس فضولا أو أسرعهم تصديقاً بين الوثنيين غالباً ما كانوا يحملون على الدخول في مجتمع أكد وأقر الدعوى الفعلية لقوى المعجزات . لقد وطلت اقتدام المسيحيين الأولين دوماً أرض الأسرار والغسوس ، وألفت عقولهم تصديق أكثر الحوادث شذوذاً وغرابية . وشعروا أو تصوروا أن الشياطين كانت دون انقطاع تلاحقهم من كل جانب كما

(١) غالباً ما يحدد البروتستانت ، عادة ، هذه الفترة بتحول قسطنطين إلى المسيحية . ولا يرتضى أكثر رجال الدين تعقلاً اقرار معجزات القرن الرابع ، على حين لا يرتضى أكثرهم سذاجة أن ينكروا معجزات القرن الخامس .

كانت الاشباح تدخل السكينة على قلوبهم ، والنسوعات تهديهم ، وابتهاالات الكنيسة تنقذهم من الخطر وتبرئهم من العلة بل وتخلصهم من برائن الموت نفسه بشكل يدعو الى العجب . ان المعجزات او الكرامات الحقيقية او الوهمية التي كثيرا ما رأوا أنهم كانوا هم أنفسهم امدانا او ادوات لها ، أو شهودا عليها ، جنحت بهم ، في سعادة غامرة الى ان يتيقنوا ، بنفس القدر من السهولة واليسر ، ولكن بقدر اوفر كثيرا من الانصاف والحق ، العجائب الموثوقة الاصلية في تاريخ الانجيل ، ومن ثم فن المعجزات التي لم تقعد نطاق تجربتهم وممارستهم ، اوحى اليهم بأن يؤكّدوا ويؤمنوا الى أبعد حد بالأسرار التي اعترف بأنها تجاوز حدود ادراكهم . ان هذا الأثر العميق للحقائق الخارقة للطبيعة هو الذي عرفوه وعظموه تحت اسم الايمان . وهو حالة من حالات العقل وصفت بأنها أكبر ضمان لرضوان الله وللسمعة في الآخرة ، وأوصوا بها على أنها أول ميزة ، أو قل انها الميزة الوحيدة ، التي يتحلى بها المسيحي . ومن رأى العلماء الذين هم أكثر تشدداً في الفضائل الاخلاقية التي قد يتحلى بها الكافرون — على هذا النسق سواء بسواء — مجرد من أية قيمة او قاعدية ، فيما تأخذ به من تبريرات .

٤ - الاخلاقيات الصارمة عند المسيحيين الأوائل :

ولكن المسيحي في صدر المسيحية عبر عن ايمانه وأبرزه في فضائله . وكان المظنون حقا وصدقا ان اليقين بالله الذي أثار العقول أو لخصها ، لابد ، في نفس الوقت ، ان يطهر القلوب ويوجه أعمال المؤمن . ان المدافعين الأول عن المسيحية ، الذين يبررون طهر اخوانهم وبراءتهم ، والكتاب الذين جاسوا في عصر لاحق يمجّدون طهارة أسلافهم ومقداستهم ، يعرضون في أجلى بيان ما طرأ على العالم من تهذيب واصلاح في السلوك والآداب بفعل تعاليم الانجيل . ولما كنت أقصد أن أشير الى الأسباب الانسانية التي ساعدت على تدعيم آثار الوحي ، نأني سأعرض في بساطة لعاملين كان طبيعيا أن يجعلوا حياة المسيحيين الأولين أكثر نقاوة واشد صرامة من حياة معاصريهم من الوثنيين أو حياة خلفائهم المنحطين : هما الندم على ما اقترغوا من أثام سابقة ، والرغبة المحمودة في الاعلاء من شأن المجتمع الذي ارتبطوا به .

ومقديما وجه الكفار ، جهلا أو خبثا ، الى المسيحيين اللوم بأنهم اغروا بالدخول الى حظيرتهم اخطر المجرمين الذين حملوا في سهولة

ويسر ، بمجرد أن استشعروا كنيئاً من التائب ، على أن يغسلوا في ماء التعميد كل آثامهم اللبسية ، التي رفضت مغايد الآلهة أن تمنحهم أى تكفير عنها ، ولكن هذا اللوم ، إذا جرد من التوبيخ والتحريف اتسا بسهم في تمجيد الكنيسة كما أسهم في زيادة عدد شعبيها . قد يعترف أصدقاء الكنيسة دون مؤاربة أو خجل ، بأن كثيراً من أبرز القديسين ، كانوا قبل التعميد أكبر المجرمين المتبوزين . أن الذين اتبعوا ، في هذه الدنيا ، ولو بشكل منقوص ، تعاليم الخير واللياقة ، استنبطوا من فكرة استقامتهم هم أنفسهم شعوراً بالارتياح الهادئ الذي جعلهم أقل تعرضاً للانفعالات المفاجئة بالعار أو الحزن أو الفزع ، تلك الانفعالات التي كانت سبباً لكثير من الانحرافات العجيبة . واقتداء بسيدهم الرباني ، لم يحتقر المبشرون بالانجيل المجتمع ورجاله ، وخاصة نساءه ، ممن اتقى مضاجعهم وعيهم لردائهم ، وفي الكثير الغالب أزعجتهم آثامها . فلما برثوا من الخطيئة والخرافة وانطلقوا الى الأمل المشرق في الخلود عقدوا النية على أن يهبوا أنفسهم . لا لحياة الفضيلة وحدها ، بل لحياة التوبة والندم . وتبكت نفوسهم الرغبة في الكمال ، ومن المعروف جيداً أنه على حين يتخذ المعتل موقفاً وسطاً فاتراً ، فإن أهواننا تسرع بنا في تهور شديد الى المجال الذي يقع بين أشد المتناقضات .

ولما أدخل المتحولون في عداد المؤمنين ورخص لهم في الأسرار المقدسة في الكنيسة ، وجدوا أنهم قد امتنع عليهم الافلات الى مفاسدهم الماضية نتيجة لاعتبار آخر ذي طبيعة بريئة جديدة بالاحترام الى حد كبير ، ولو أنه أقل تعلقاً بالناحية الروحية . ذلك أن أى مجتمع معين يخرج على جبهة الأمة أو الدين الذي يتبعه ، سرعان ما يصبح هدفاً للنظرات الحاسدة الحاقدة من الجميع ، وبالنسبة لصفوف عدده ، يتأثر خلق هذا المجتمع بفضل الأئمة الذين يتكون منهم وبرائهم ، ويكون كل فرد فيه مشغولاً — مع أكبر درجة من العناية واليقظة — بمراقبة سلوكه الخاص وسلوك أخوانه ، فانه ، بقدر ما يجب أن نتوقع أن يكابد جزءاً من العار المشترك ، قد يأمل في أن يتمنع بنصيب من السمعة الطيبة المشتركة . فلما أحضر مسيحيو بثنيا Bithynie أمام محكمة بلينى الصغير ، أكدوا لهذا البروقنصل أنهم — بحرف النظر عن بعدهم عن الاشتراك في أية مؤامرة غير مشروعة ، مرتبطون بالتزام مقدس ، بالامتناع عن ارتكاب جرائم تذكر السلام الخاص أو العام في المجتمع مثل السرقة ، النهب ، الزنا ، قول الزور ، والغش والتدليس . وحق لقرتوليان ، بعد ذلك بنحو قرن من الزمان ، أن يفاخر في صدق وامانة أن نفراً قليلاً جداً من المسيحيين وقعوا تحت

يد الجراد ، اللهم الا بسبب ديانتهم . ان حياتهم المحفوفة بالخطر المنعزلة ، المتنافرة مع ترف العصر ، عودتهم على العفة وضبط النفس والاقتصاد ، وسائر الفضائل الوقورة العائلية . ولما كان الجزء الأكبر منهم من ذوى الحرف أو المهن ، فقد كان لزاما عليهم أن يزيلوا — بانقضى ما يمكن من النزاهة ، وباعدل ما يمكن من التعامل — كسل الشكوك التى قد تساور الكفار — وما أشد استعدادهم لها — فى مظاهر الطهر والقداسة . كما أن احتقارهم للدنيا عودهم على التواضع والحلم والصبر . وكلما آمن فى اضطهادهم زادت وشائج الارتباط وثوقا بينهم : ولحق الكفار ما بينهم من تواصل وتراحم ، وكثيرا ما استغله أسوا استفلال أصدقائهم الغدارون المخائون .

وانه لشرف كبير لأخلاق المسيحيين الأوائل أن تكون هفوات ، بل ذنوبهم ، نابعة من الإفراط فى الفضيلة . ان اساقفة الكنيسة ومعنا الذين دلت شهادتهم ، بل وربما اثر سلطنتهم ، على وظائف ومبادئ أقرب الى التعبد منها الى الدراسة الفاحصة الماهرة ، وكثيرا ما تلقوا تعاليم المسيح والحواريين الصارمة بمعناها الحرفى ، أكثر ما تكون الحرفية ، هى التعاليم التى اقتضت فطنة الملقين المحدثين أن يتبعوا فى تفسيرها أسلوبا أكثر تفككا وأبعد مجازا . وطبعاً فى تمجيد سمو الانجيل على حكمة الفلاسفة أخذ الآباء الفيورون أنفسهم بالانقشاف وجمع الشهوات والطهارة والصبر الى ذروة ينذر امكان بلوغها ، والآنذر منه ، المحافظة عليها فى مثل حالتنا الراهنة من الضعف والفساد . ان عقيدة خارقة سامية لا بد حتما أن تجلب احترام الناس ، ولكن قدسرها خطأ أن تحظى بهوافقة هؤلاء الفلاسفة الدنيويين الذين لا يستشعرون فى توجيه هذه الحياة الانتقالية (الحياة الدنيا) الا مشاعر الطبيعة ومعالج المجتمع .

وهناك نزعتان طبيعيتان كثيرا ، يمكن أن نميزهما من بين أغضل الميول وأكثرها تحررا : حب اللذة وحب العمل . ولكن اذا هذبت النزعة الأولى بالفن والتعليم ورقيت بيفاتن الاتصالات الاجتماعية ، وازدبت بمراعاة الاقتصاد والصحة مراعاة صادقة ، فانها تحقق أكبر قسط من السعادة فى الحياة الخاصة . أما حب العمل فانه يبدأ ذو طبيعة أقوى بكثير ، وكذلك أكثر ابهاما وشككا ، فانه يؤدى فى الغالب الى الغضب والطبع والانتقام ، ولكنه اذا هداه احساس باللياقة والخير — يصبح مصدرا لكل فضيلة ، واذا اقترنت تلك الفضائل بقدرات متكافئة ، كانت أية أسرة ، او دولة ، او امبراطورية محينة بأمنها ورخائها

لشجاعة فرد واحد غير هيلب ولا وجل . ويمكن ، على هذا ، أن ننسب الى حب اللذة اليق الصفات واكثرها استحصانا ، وننسب الى حب العمل اكثرهم تفعا واحتراما . وان الشخصية التي يمكن ان يجتمع ويلتزم فيها الواحد مع الآخر (حب اللذة وحب العمل) لتبدو أنها تشكل اكمل فكرة عن الطبيعة الانسانية . اما الفطرة الخامدة الفاقدة الوعى ، والتي يجب ان يفترض أنها مجردة منهما ، على حد سواء ، فيجب ان يابهاها الجنس البشرى بأسره ، بوصفها عاجزة تمام العجز عن تحقيق اية سعادة للفرد ، او أى نفع عام للعالم . ولكن لم تكن هذه هى الدنيا التي كان المسيحيون الاولون يرغبون في أن يجعلوا من انفسهم اناسا مقبولين فيها او نافعين لها .

ان طلب المعرفة ، وتدريب العقل أو الخيال ، والتبادل الشهى للحديث امور تشغل وقت فراغ الذهن المتحرر ، ولكن صرامة الآباء كانت تأبى هذه السرقات وقتا وازدراء ، أو تسلم بها في حذر بالغ ، لأنهم احتقروا كل معرفة غير مجدية في الخلاص ، واعتبروا الرعوننة في الحديث استغلالا آنها لموهبة الكلام . فالجسم في حياتنا هذه مرتبط بالنفس ارتباطا غير منفصم ، الى حد يبدو معه أنه من مصلحتنا أن نتذوق ، في براءة واعتدال ، كل هذه المتع التي يتأثر بها هذا الرفيق المؤمن في سرعة شديدة . لقد كان منطق أسلافنا الانتقاء مخطئا كل الاختلاف ، فئاتهم كانوا يتوقون عبثا الى الاقتداء بكمال الملائكة ، ماحتقروا أو تظاهروا باحتقار ، كل بهجة دنيوية أو جسمية ، ان بعض حواسنا ضرورى في الواقع لحفظ النوع ، وبعضها لمعاشنا ، وبعضها الآخر للاملام والمعرفة ، ومن ثم كان من أبعد المستحيلات أن نستمتع عن استخدامها . وكانت أول بادرة للذة بمثابة الايذان بساءة استغلالها (الحواس) . اما المرء البليد الحس المرشح للجنة فقد لقن الا يقاوم كبرى مغريات الذوق والشم فحسب ، بل كذلك ان يصم اذنيه عن النغم المنسجم الدنس ، وأن ينظر في غير اكثرات الى أروع ما أنتجه من الانسان ، فالملابس الزاهية والدور الفخمة والأثاث الفاخر افترض فيها كلها أنها تشكل جريمة مزدوجة ، وهى الزهو وحب الشهوات . ان مظهر البساطة والتكشف هو البقى شئ بالمسيحي الواثق من خطاياها المرتاب في خلاصه ، وكان لوم الآباء على القرف عارضا طفيفا . ومن بين الأشياء العديدة التي تثير استنكارهم الورع يمكن أن نعدد الشمر المستعار ، أى رداء ذى لون غير الأبيض ، الآلات الموسيقية ، والزهرات من الذهب أو الفضة ، الوسائد الوثيرة (لأن يعقوب أسند رأسه الى حجر) الخبز الأبيض ، الألبدة الأجنبية ، التحفيلت العلمية ، استعمال

الحمام الساخن ، وحلق اللحية الذى هو ، على حد قول ترتوليان بمثابة كذب على وجوهنا ومحاولة فاسقة لتعديل صنع « الخلق » . وعند دخول المسيحية بين الاغنياء والمهذبين أهل اتباع هذه القواعد او السنن الشاذة كما لو كانت ، كما هى الحال فى الوقت الحاضر ، للقلة الطامعة فى طهارة اسمى . وانه لمن السهل دائما ، كما انه من اللائق ، أن تدعى الطبقات الدنيا من الجنس البشرى لنفسها امتيازاً بازديادها هذه الإبهة وهذه اللذة اللتين وضعهما الحظ فوق متناول أيديهم . ان فضيلة المسيحيين الأولين ، مثل فضيلة الرومان الأوائل ، كثيرا ما كانت مصنوعة او محكومة بالفقر والجهل .

ونبعت مراعاة الآباء العنيفة فى كل ما يتعلق بالاختلاط بين الجنسين ، من نفس المبدأ او القاعدة — أى مقتهم لكل متعة ترضى الطبيعة الشهوانية وتحط من شأن الجانب الروحى فى الإنسان . وكانوا يؤثرون القول بأنه لو أن آدم استمر على طاعة الخالق لمعاشى الى الأبد فى طهر عذرى ، ولوجدت طريقة وديعة للتكاثر فى الجنة بجنس من الكائنات البرية الخالدة . أما الزواج فقد رخص فيه لفريقه المنحلة فقط كوسيلة ضرورية لاستمرار النوع الإنسانى وليكون بمثابة قيد ، وان يكن ناقصا ، للجوهر الطبيعى فى الشهوة . وان تكرر المقتن الشرعيين الأرثوذكس فى هذا الموضوع الهام لينفض ارتباك الرجال الذين لا يريدون اقرار نظام ارغوا هم على احتماله . وان تعداد القوانين الغريبة الأطوار جداً ، والتي فرضوها على مخدع الزوجية بطريقة أكثر ما تكون عرضية طارئة ، لما يدمو الشباب الى الابتسام ، وتتورد له وجنات الجنس اللطيف حياء وخجلا . وقد أجمعوا على أن الزواج الأول كاف للوفاء بأغراض الطبيعة والمجتمع . أما الاتصال الشهوانى فقد بلغوا فى تنقيته وتهذيبه الى حد الشبه بالاتحاد الخفى الغامض بين المسيح وكنيسة ، وأعلنوا انه لا ينقسم بالطلاق او بالموت . أما الزيجات التالية فقد دمجوها بأنها زنى قانونى ، أما الأشخاص الذين يقتربون هذه الخطيئة الفكرة ضد الطهارة المسيحية فانهم سرعان ما كانوا يحرمون من أمجاد الكنيسة بل يطردون من بين أعضائها . وطالما وصيت الرغبة بأنها جريمة ، واحتل الزواج على انه نقية أو علة ، فانه لما يتمشى مع نفس المبدأ أن تعتبر حالة العزوبة اقرب منطلق الى الكمال الإلهى . وكان مسيرا على رومس القديمة ان تتقبل نظام الراهبات

العذارى الست (١) ، ولكن الكنيسة الأولى كانت تزخر بعدد كبير من الجنسين ممن نذروا أنفسهم للعبث الدائمة . وقليل من هؤلاء - يمكن أن نعد من بينهم أوريجن Origen ، رأوا أن من أكبر الفطنة أن ينفذوا من الجسم سلاحه (٢) وكان بعضهم جامدا بليد الاحساس ، كما صمد بعضهم أمام مغريات الجسد . واحتقاروا لهذا الهروب الشائن ، جابهت عذارى الجو الحار في أفريقيا عدوهم في عقر داره وفي أوثق التحام ، فسمحوا للقساوسة والشمامسة بمشاركتهن الفراش ، وبباهين في وسط اللهب بالطهارة التي لم تلوث . ولكن « الطبيعة » المهانة أثبتت في بعض الأحيان حقوتها ، ولم يجد هذا اللون الجديد من الاستشهاد الا في انه الصق فضيحة جديدة بالكنيسة (٣) ، ومهما يكن من أمره فإن كثيرا من الرهبان المسيحيين (وهو اسم اكتسبوه من عملتهم المؤلة) ربما كانوا أكثر توفيقا لأنهم كانوا أقل جراحة . فقد أمدوا فقدان اللذة الشهوانية بل وعوضوا عنه بالاعتزاز الروحي . وحتى جمهور الوثنيين كانوا يقدرون قيمة التضحية بمقدار المشقة الظاهرة فيها ، وقد أسرع الآباء بلاغتهم المجددة في إمداد أقران المسيح المعنفين هؤلاء . تلك هي آثار قواعد الرهبة ونظمها ، تلك التي توازنت ، في مصر تال ، مع كل المزايا الدنيوية للمسيحية .

ولم يكن المسيحيون أقل عدا للعلل منهم للذة في هذه الدنيا . انهم لم يعرفوا كيف يوثقون بين الدفاع عن الأشخاص والممتلكات وبين نظرية الصبر التي أوصت بالصفح بلا حدود عن الإيذاعات الماضية وأمرتهم بطلب اساءات جديدة . وقد امتنعت بساطتهم باستخدام الحلف والقسم ، وبإبهة الولاية ، وبالصراع القائم في الحياة العامة ، كما أن جهلهم الموسوم بالرفق والشفقة لم يستطع أن يقتنعهم بأنه من الأمور المشروعة ، في أية مناسبة ، سفك دماء الناس بسيف العدالة

(١) ورغم الأمجاد والثواب الذي كان يجزل لهؤلاء العذارى ، كان من العسير الحصول على عدد كبير منهن ، كما أن الغشية من موت رهيب أشد ما تكون الرهبة . لم تحل دائما بين وبين الدعارة .

(٢) قبل أن تثير شهرة أوريجن الحقد عليه واضطهاده ، كان هذا المثل الشداد يدعو إلى الإهجاب أكثر منه إلى اللوم ، ولا كان من عادته بمسبة عامة أن يؤثر الأسفار المنزلة ، فإنه يبدو من سوء الحظ أنه كان لزاما عليه ، في هذه الحالة فقط ، أن يقتبس المعنى الحرفي .

(٣) وصم بشيء من مثل هذه المحاولة الطائشة ، بعد ذلك بزمان طويل ، مؤسس طائفة فرنترفول Fontevrault وقد اتحف بيلي نفسه وقراءه بالكتابة في هذا الموضوع الحساس .

أو في الحرب ، مهما كانت محاولتهم الإجرامية أو العدائية تهدد سلام وأمن الجماعة بأسرها . وكان من المعروف أنه ، في ظل قانون أقل كمالا ، تمت ممارسة سلطات الدستور اليهودية بموافقة السماء على أيدي أنبياء ملهمين وملوك مرسومين . وأحس المسيحيون وأعترفوا بأن مثل هذا النظام ربما كان ضروريا للوضع الحاضر في العالم ، وخضعوا بكل سرور لسلطان حكامهم الوثنيين . ولكنهم في الوقت الذي استوعبوا فيه مبادئ الطاعة السلبية أبوا أن يقوموا بأي دور فعال في الإدارة المدنية ، أو في الدفاع العسكري عن الإمبراطورية . وقد نقضوا ، نوعا ما ، عن الأشخاص الذين كانوا ينهضون بالفعل قبل تحولهم إلى المسيحية بهذه المهام الثقيلة الدمية ، ولكنه كان يستحيل على المسيحيين - إلا إذا نبذوا واجبا أكثر قداسة ، أن يتخذوا شخصية الجنود ، أو الحكام أو الأمراء (١) . ولقد عرضهم اغفالهم المتراخي ، بل الأثم ، للمصلحة العامة ، لاحتقار ولسوم الوثنيين الذين كانوا يتسلطون كثيرا : ماذا عسى أن يكون مصير الإمبراطورية إذا هاجمها المتبريرون من كل جانب ، إذا تبنى الناس جبيها ما تقبناه الطائفة الجديدة من مشاعر الجبن والخور ؟ وكانت أجابلت المدافعين المسيحيين عن هذا السؤال المهين غامضة مبهمة ، لأنهم لم يزدوا على أن يفصحوا عن السبب الخفى لهذه الطائفة ، ذلك هو توقعهم أنه ، قبل أن يتم تحول الجنس البشري (إلى المسيحية) لن يكون للحرب ، والحكومة ، والإمبراطورية الرومانية ، والعالم نفسه ، أي وجود . وقد يلحظ في هذه الحالة كذلك ، أن موقف المسيحيين الأوائل تلافى تهاها لحسن الحظ مع شكوكهم الدينية ، وأن عزوفهم عن الحياة الجادة النشيطة ساعد على إعفائهم من الخدمة أكثر منه على حرمانهم من أمجاد الحكم والجيش .

٥ - نمو حكومة الكنيسة :

ولكن الخلق الإنساني ، مهما خلق أو انحط نتيجة لحماس وقتي طاريء ، لابد أن يعود شيئا فشيئا إلى مستواه الصحيح الطبيعي ، ويسترد هذه الأحاسيس التي تبدو أنها أصلح شيء لظروفه الراهنة . ان المسيحيين الأوائل لم يعنوا بمشاغل الدنيا وملذاتها ، ولكن حبهم

(١) اقترح عليهم ترتوليان أن يتخذوا مفارقة البلاد ذريعة . وهي نصيحة لم هاجت معرفتها لا صلحت لكسب رضا الإباطرة علم الطائفة السبحة .

للعمل ، ذلك الحب الذى لم تكن جفوته لتتطفئ غيهم كلية ، سرعان ما انتعش ووجد مجالا جديدا في حكومة الكنيسة . ذلك ان المجتمع المستقل او المنفصل الذى تصدى للديانة القائمة في الامبراطورية ، كان مضطرا لاقتباس شكل من اشكال السياسة الداخلية ، وتعيين عدد كاف من السدنة لا يعهد اليهم بالمهام الروحية محسب ، بل حتى بالادارة الدنيوية (الزمنية) للجمهورية المسيحية كذلك . ونبتت سلالة هذا المجتمع ومجده وتوسيعه ، حتى فى اتقى العقول ، من روح وطنية شبيهة بتلك التى استشعرها الرومان الأولون نحو الجمهورية ، كما نبتت أحيانا من عدم اكتراث مماثل باستخدام أى الوسائل التى يحتمل ان تؤدى الى هذه الغاية المرجوة . وكان طمعهم فى السمو بأنفسهم وبأصدقائهم الى امجاد الكنيسة ومناصبها ، مستترا في نيتهم الحسنة فى أن يخصصوا للمصلحة العامة تلك القوة والاهمية اللتين أصبح من واجبهم ان يلتصوها لهذا الغرض وحده . وكثيرا ما اقتضت مباشرة وظائفهم ان يكتشفوا اخطاء الهرطقة أو احابيل الفتنة ، وان يقاوموا خطط اخوانهم الفدارين ، ويمنعهم بما يستحقون من عار وفضيحة ، ويخرجوهم من أحضان المجتمع الذى حاولوا ان يكسروا هدوءه وسلامته . وتعلم الحكام الكنسيون المسيحيون ان يجمعوا بين فطنة الثعبان وبراءة الحمام ، ولكن كما قتل ونجح الأول ، فقد انسد الثانى تقاليد الحكومة ، فلى الكنيسة ، كما فى العالم بأسره ، أضفى الأشخاص الذين تولوا المناصب العامة على أنفسهم أهمية واعتبارا ببلاغتهم وحزمهم ، ومعرفتهم بالجنس البشرى وبراعتهم فى العمل ، وكثيرا ما انتكسوا — فى الوقت الذى أخفوا فيه من الآخرين ، وربما عن انفسهم ، البواعث الخفية لسلوكهم — انتكسوا الى الأهواء الطائشة فى خضم الحياة الصاخبة التى اصطفت بقدر اكبر من المرارة والمناد نتيجة للفيرة الروحية .

وغالبا ما كانت حكومة الكنيسة موضوع الجهاد الدينى وحصيلته ، سواء بسواء فقد كافح جميع المنافسين المعادين فى روما وباريس واكسفورد وجنيف، ليهبطوا بالمثل الذى ضربه الرسل أو الحواريون(١)، الى مستوى سياسة كل منهم على حدة . وكان من رأى التنفر الدلائل الذين تتبعوا هذا البحث باخلاص ونزاهة ، ان الحواريين رفضوا مهمة

(١) حاولت الفتنة الأرستقراطية فى باريس ، وكذلك فى انجلترا ، فى جرة وحماس أن تحتفظ بالثقل الإلهى للأصاغة . ولكن شيوخ الكنيسة الكلفينية ضاقوا ذرعا بأى رئيس . أما الحبر الرومانى فلم يعترف بأن له نظيرا .

النشرع وأنهم آثروا أن يعلنوا بعض الافتراءات والانقسامات الجزئية، على أن يحرموا المسيحيين في الأجيال القادمة من حرية تنويع أشكال حكومتهم الكنيسية تبعاً لتغير الأزمان والظروف . وربما اكتشف نتيجة للخبرة والمران ، في أورشليم أو روما أو أفيسيوس أو كورنثوس ذلك الأسلوب من السياسة الذي اتبع بموافقتهم (الحواريين) في القرن الأول . ولم ترتبط المجتمعات التي تكونت في مختلف مدن الإمبراطورية الرومانية إلا بروابط الإيمان والبر والاحسان فقط . وكان قسوم دستورهما الداخلي الاستقلال والمساواة . أما حاجتهم من النظام والتعليم الإنساني فكان يزودهم بها « الرسل » الذين كانوا يدعمون لهذه المهمة دون تمييز في العمر أو في الجنس أو في القدرات الطبيعية ، والذين كانوا ، كلما أحسوا بالدفع الإلهي ، صوبوا فيض « الروح » في جماعة المؤمنين . ولكن هذه المواهب الخارقة كثيراً ما أساء هؤلاء المعلمون الرسوليون استخدامها أو تطبيقها . ذلك أنهم عرضوها في وقت غير مناسب أو شوهوا خدمة الجماعة في غطرسة وجراة ، وقد أدخلوا إلى الكنيسة الرسولية في كورنثوس بصفة خاصة ، نتيجة لغرورهم وغيرهم الخاطئة ، سلسلة طويلة من الملعيب المحزنة . ولما بات نظام « الرسل » (المعلمين) عتيقاً غير مجد ، بل ضاراً مؤذياً ، سحبت سلطاتهم وألغيت وظائفهم وأسندت الوظائف الدينية العامة إلى سحنة الكنيسة الثابتين وإلى الأساقفة والمشايع وحدهم ، ويبدو أن هذين اللقبين في نشأتها الأولى ، كانا يدلان على نفس الوظيفة ونفس الفئة من الأفراد . وكان اسم « الشيخ » يعبر عن العمر والهبة والحكمة . أما لقب الأسقف فكان يدل على تفقدهم إيمان وسلوك المسيحيين الذين وضعوا تحت رعايتهم في أبرشياتهم . وكان يتولى نفر من مشايخ الكنيسة ، يقل أو يكثر تبعاً لأعداد المؤمنين نسبياً — توجيه كل جماعة ناشئة بنفس القدر من السلطة ، وبالنصائح الموحدة .

ولكن نزوة اكتمال المساواة في الحرية تتطلب مداً موجهة لحاكم أعلى ، وسرعان ما يخلق نظام المداولات العامة وظيفة الرئيس الذي يعهد إليه ، على الأقل ، بجمع آراء الجماعة وتنفيذ قراراتها . وحمل المسيحيين الأولين اهتمامهم بالهدوء العم الذي كثيراً ما كان يمكن أن يضطرب نتيجة للانتخابات السنوية أو الطارئة — فنقل حملهم على إنشاء حكومة محترمة دائمة ، وأن يختاروا من بين المشايخ واحداً من أعقلهم وأقدسهم ليقوم مدى الحياة ، بأعباء حكمهم الكنسي . ومن هنا بدأ اللقب السامي « أسقف » يرتفع فوق الاسم المتواضع « شيخ » وبينما ظل هذا الأخير أفضل تمييز طبيعي لأعضاء كل مجلس لكبار

المسيحيين ، خصص الأول للدلالة على مقام الرئيس الجديد ومكانته .
ان مزايها هذا الشكل الكنسى للحكم الذى يبدو انه ابتدع قبل نهاية
القرن الأول (١) ، كانت واضحة وهامة لعظمة المسيحية فى المستقبل ،
ولسلامها فى الوقت الراهن . حتى لقد تبناه ، دون تأخير ، كل المجتمعات
التي كانت منتشرة بالفعل فى أرجاء الامبراطورية والتي كانت فى حاجة
الى سند من القديم (٢) ، وما تزال تجله أقوى الكنائس فى الشرق
والغرب ، باعتباره مؤسسة بدائية ، بل حتى الهية (٣) .

وليس بنا من حاجة الى القول بأن المشايخ الانتقاء المتواضعين
الذين كرموا باللقب الكنسى فى البداية ، لم يكن لهم ، وربما أبوا على
انفسهم السلطة والابهة اللتين تحيطان الآن بتاج الحبر الرومانى ، أو
كبير الاساقفة الألمان . ويمكن أن نحدد فى ايجاز الحدود الضيقة لولايتهم
التي كانت اساسا ولاية دينية ، ولو انها كانت فى بعض الأحوال ذات
طبيعة دنيوية . وقد انحصرت فى ادارة الاسرار المقدسة ونظام الكنيسة ،
وفى الاشراف على الاحتفالات الدينية التي زادت وتنوعت بشكل غير
ملحوظ ، ورسامة تنسب الكليروس الذين يحدد الاستقف لكل منهم
عمله ، وادارة اموال الكنيسة ، وحسم الخلافات التي لم يكن المؤمنون
يريدون طرحها أمام محاكم القضاء الوثنى . وكانت ممارسة هذه
النصاحيات — لفترة قصيرة — تتم وفقا لمشورة رابطة المشايخ ،
وبموافقة جماعة المسيحيين . واعتبر الاساقفة الاولون فى مكان الصدارة
من نظرائهم ، والخدام المكرمين لشعب حر . فاذا خلا كرسي رئاسة
الكنيسة اخير رئيس جديد من بين المشايخ بالتصويت العام فى المجتمع ،
الذى كان يظن كل عضو فيه انه يتمتع بشخصية مقدسة كهنوتية .

هذا هو الدستور الذى اتسم بالاعتدال والمساواة والذى حكم
المسيحيين لأكثر من قرن من الزمان بعد وفاة الرسل ، وشكل كل مجتمع
فى نطاقه الخاص جمهورية منفصلة مستقلة . ورغم ما كان من الصلة

(١) انظر مقدمة « أبوكاليسى Apocalypse » (سفر رؤيا يوحنا العهد الجديد)
وعين الاساقفة بالفعل فى المدن السبع فى افريقيا . على أن رسالة كلمنز Clemens
(التي يحتمل أنها كانت ذات تاريخ قديم) لم تؤد بنا الى اكتشاف أى آثار لحكومة
الكنيسة لا تم كورنثة ولا فى روما .

(٢) كان المعروف انه لا وجود لكنيسة بدون أسقف ، كان هذا هو الحد الأعلى منذ
عهد تروتيان وايرينوس .

(٣) وبعد اجتياز عقبات القرن الأول ، نجد أن الحكومة الكنسية قد صمت واستقرت
حتى قوضت أركانها البقيرية الجمهورية عند المصلحين السويسريين والألمان .

بين أقصى هذه الدويلات الصغيرة بعضها مع بعض ، عن طرق الرسائل أو المندوبين ، فإن العالم المسيحي لم يكن بعد مرتبطاً بأية سلطة عليا أو جمعية تشريعية . فلما تضاعف عدد المؤمنين تبينوا المزايا التي تسد بحود عليهم من وحدة المصلحة والخطط . وفي أواخر القرن الثاني اقتبست الكنائس في اليونان وآسيا النظم المقيدة ، نظم « السنودس » في الولايات ، أي مجمع الرؤساء الروحانيين في كل منها ، والمفروض بحق أنهم استعاروا نظام المجلس التمثيلي من النماذج المشهورة في بلادهم : مجالس المدن ، أو العصبة الأخوية ، أو مجالس المدن الأيونية . وسرعان ما تقرر ، بحكم العادة ، أو كثائون ، أن يجتمع أساقفة الكنائس المستقلة في عاصمة الولاية في فترات معينة في الربيع والخريف . وكانوا يسترشدون في مداولاتهم بمشورة نفر من المشايخ المتنازين ، كما كان يخلف من حدثها حضور جمهور من المستمعين . وسوت الأوامر العالية التي كانت تصدر عنهم ، والتي كانت تسمى « شرائع » أي خلاف في العقيدة أو في النظام . وكان طبيعيا أن يسود الاعتقاد بأن غيضا كريما من « الروح القدس » كان يتدفق على هذه الجمعية المتحدة من وفود الشعب المسيحي . وواءم نظام « المجلس الكنسي » إلى حد بعيد ، بين الطمع الشخصي والمصلحة العامة على حد سواء ، مما أدى إلى تمحيه في كل أرجاء الإمبراطورية ، في مدى سنين قلائل . وتبدلت المراسلات بانتظام بين مجالس الولايات التي اتصلت بعضها ببعض ، كما تبادلت التصديق على إجراءات كل منها . وسرعان ما اتخذت الكنيسة الكاثوليكية شكل الجمهورية الاتحادية (الفيدرالية) واكتسبت قوتها .

ولما حلت المجالس محل السلطة التشريعية لكل كنيسة بعينها ، ظفر الأساقفة — بفضل تحالفهم — بنصيب أكبر من السلطة التنفيذية التعسفية وحالما ارتبطوا بوحى من مصلحتهم المشتركة ، أمكنهم ، في عزم موحد ، أن يتحدوا الحقوق الأصلية لقسمهم وشعبهم ، واستبدل أحبار القرن الثالث بشكل غير ملحوظ لغة الأمر بلغة النصح والتحذير ، وبذروا بذور اغتصاب السلطة فيما بعد ، وعوضوا عن افتقارهم إلى القوة والمنطق بهجازات الكتاب المقدس وبالبلاغة الحماسية . وأشادوا بذكر وحدة الكنيسة وقوتها ، ممثلة في منصب الأسقف ، وقد حظى كل أسقف من هذه الوحدة والقوة بنصيب متساو لا يتجزأ . وكثيراً ما تردد القول بأن في مقدور الأمراء والحكام أن يباهوا بملك دنيوى عابر : والواقع أن السلطان الأسقفي وحده هو الذى ينبع من الإله ، وامتد فوق هذه الحياة وفوق الحياة الآخرة . وكان الأساقفة نواب

المسيح وخلفاء الرسل ، والبديل الخفى للكهنة الأعظم لشريعة موسى ، واجتاحت سلطاتهم المطلق في رسم القساوسة حرية الانتخابات الدينية والشعبية على حد سواء ، وحتى اذا ظلوا ، في ادارة الكنيسة ، يهتمون رأى المشايخ وميول الشعب ، فانهم في أكبر عناية وحرص كانوا يقرون في الاذهان انهم يفعلون ذلك متفضلين طواعية واختيارا ، واعترف الأساقفة بالسلطة العليا المخولة للجمعية المشكلة من اخوانهم ولكن كل اسقف انتزع — في حكم أبرشيته الخاصة — من « قطيعه » (شعبه) نفس القدر من الطاعة العمياء ، كما لو كان هذا المجاز المحبوب صادقا بمعناه الحرفي ، وكما لو كان « الراعي » من طبيعة أفضل من طبيعة « غنمه » . ومهما يكن من أمر ، فان هذه الطاعة لم تفرض دون بعض الجهود من جانب ، وبعض المقاومة من الجانب الآخر ، فقد كانت المعارضة الغيورة او المغرضة من جانب الاكليروس الذين هم اثنى مرتبة تعزز الناحية الديمقراطية في الدستور تعزيزا كبيرا في كثير من الأماكن . ولكن وطنيتهم رميت بالنفوت الشائنة المخزية : بالشغب والخروج على الكنيسة ، وكانت قضية سلطان الاسقف مدينة ، في تقديمها السريع ، لجهود كثير من الأساقفة الجادين الذين استطاعوا — مثل سيرريان القرطاجي — أن يوقفوا بين اثنان اشد رجال السياسة والدولة طمعا ، وبين الفضائل المسيحية التي تبدو مطابقة او ملائمة لشخصية القديس والشهيد (١) .

ويلاحظ أن نفس الأسباب التي قضت على المساواة بين المشايخ في البداية ، أضفت على الأساقفة تفوقا في المنزلة ، ومن ثم سموا في الولاية والاختصاص . فانهم كلما اجتمعوا في الربيع والخريف في سنودس الولاية (مجلس الآباء الروحانيين) شعر أعضاء الجمعية صراحة بالفارق بينهم في المكانة والسمة الشخصية ، وسيطرت على الجمع حكمة فئة قليلة من الأعضاء وبلاغتهم . ولكن نظام الاجراءات العامة تطلب تبييزا أكثر تحديدا وأقل إثارة للحقد والبغضاء . وكان نظام الرئاسة الدائمة للجالس في كل ولاية مقصورا على أساقفة المدينة الرئيسية فيها ، وأعد هؤلاء الأساقفة المتطلعون الذين ظفروا بسمرة على الانقلاب الضخمة : مطران العاصمة ، ورئيس الأساقفة — اعدوا أنفسهم سرا ليقتصبوا من رغبتهم في حكومة الكنيسة نفس السلطة

(١) لو لم يكن نوفاتس Novatus وملتشيسيموس Felicissimus وغيرهما — ممن طردهم اسقف قرطاجة من الكنيسة بل من أفريقية كلها — نقول لو لم يكونوا من أكبر أئمة الشر العقوتين ، لطفت غيرة سيرريان على صدق روايته في بعض الأحيان .

التي انتحلها الأساقفة أخيرا فوق رابطة المشايخ ، بل لم يمض وقت طويل حتى صمت المنافسة بين المطارنة أنفسهم في مجال الاستعلاء والصدارة ، حيث تظاهر كل منهم بإبراز الأمجاد والمزايا الدنيوية لمدينته التي يرأسها ، في أبهى مظاهرها ، وأعداد المسيحيين الداخلين في نطاق رعايته الكنسية وراثهم ، والقديسين والشهداء الذين ظهروا بينهم ، والنقاوة التي حافظوا بها على تقاليد العقيدة كما انتقلت على يد سلسلة من الأساقفة الأرثوذكس من الرسل أو التلاميذ الرسولين الذين ينسب اليهم تأسيس كنيستهم . وكان من السهل التنبؤ بأن روما — من كسل الوجوه ، مدنية كانت أو كهنوتية — لابد أن تحظى باحترام الولايات — وإن تطلب بامتنالها جميعا لها . وكان عدد المؤمنين كبيرا إلى الحد الذي يتناسب مع عالمية الإمبراطورية العظيمة ، وكانت كنيسة روما أعظم الكنائس وأضخمها عددا ، كما كانت بالنسبة للغرب أقدم المؤسسات المسيحية التي أخذت عنها كثير من هذه المؤسسات ديانتها بفضل الجهود النقية لمبشرى كنيسة روما وأرسالياتها . وبدلا من مؤسس رسول واحد ، وهو أكبر موضع للفخر في أنطاكية ، أو أنيسيس ، أو كورنثة ، قبل أن ضفاف الليبر شرفت بوعظ أعظم اثنين من الرسل واستشهادها ، وأدعى أساقفة روما أنهم ورثوا كل المزايا المنسوبة إلى شخص القديس بطرس أو إلى منصبه (١) . وكان أساقفة إيطاليا والولايات يعملون إلى أن يسمحوا لهم (لأساقفة روما) بالأولوية وبهذه المشاركة (وهذا هو نص تعبيرهم) في الأرستقراطية المسيحية . أما سلطة ولي الأمر فقد رفضت في وقت شديد ، حيث عانت روح روما الطامحة من أمم آسيا وأفريقية مقاومة أشد لسلطانها الروحي منها لسلطانها الدنيوي . فإن سبيران المحب لوطنه ، والذي تحكم في كنيسة قرطاجة والمجالس الكنسية (Synods) في الولايات بأكثر تسلط مطلق ، عارض بكل قوة ونجاح طمع الحبر الروماني ، وربط في دهاء بين قضيته وبين قضية الأساقفة الشرقيين ، وسمى — كما فعل هانيبال — إلى كسب حلفاء جدد في قلب آسيا . وإذا كانت هذه الحرب البونية (حرب قرطاجة) قد استمرت دون أراقة دماء ، فإن هذا يرجع إلى ضعف الأساقفة المتنازعين أقل

(١) إن الإشارة المشهورة إلى اسم القديس بطرس مطبوعة في اللغة الفرنسية فقط. حيث يقول المسيح لبطرس (و Pierre معناها بالفرنسية صخرة) : « وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيتي » (إنجيل متى ١٦/١٨) ونفس المعنى غير دقيق في اللغات اليونانية والإيطالية واللاتينية وغيرها . وغير مفهوم إطلاقا في اللغات القبطية .

كثيرا مما يرجع الى اعتدالهم . فقد كان القدح والحرمان من الكنيسة أسلحتهم الوحيدة التى شهروها فى وجه بعضهم بعضا طيلة احتدام النزاع ، بنفس القدر من العنف والحماس . وان الضرورة المبررة التى اقتضت يوما لوم أحد البابوات أو القديسين أو الشهداء لتبعث الأسى فى نفوس الكاثوليك الحديثين عندما يضطرون الى سرد تفاصيل هذا النزاع الذى انغمس فيه أبطال الكنيسة فى مثل هذه الأهواء التى هى اليق بمجلس للسناتو أو بمعسكر للجيش .

وقد نشأ عن نمو سلطان الكنيسة ذلك التمييز الذى لا ينسى ، من حيث تقسيم الناس الى علمانيين وكليروس ، ذلك التفریق الذى لم يكن معروفا لدى الاغريق والرومان (١) وكانت التسمية الأولى تشمل كل الشعب المسيحى بأسره ، أما التسمية الثانية — طبقا لمعنى اللفظ — فقد أطلقت على الفئة المختارة التى أفردت لخدمة الدين ، وهم الطائفة المشهورة من الرجال الذين قدموا للتاريخ الصديق أهم الموضوعات ، وان لم تكن فى كل الأحوال أكثرها تهذبا وثقافة . وقد اقلقت عداوتهم المتبادلة فى بعض الأحيان هدوء الكنيسة الناشئة ، ولكن غيرتهم ونشاطهم اتحدا فى مجال الصالح العام ، وحلزم حب السلطة الذى استطاع أن يتسلل الى قلوب الأساقفة والشهداء (تحت أشد الألقعة دهاء واحتيالا) الى الاكثار من عدد رعاياهم ، وإلى توسيع حدود الامبراطورية المسيحية . وكانوا مجردين من أية قوة دنيوية ، وظل الحكام المدنيون لفترة طويلة ، يثبطون همهم ويضيقون الخناق عليهم ، أكثر من أن يعاونوهم ، ولكنهم اكتسبوا ، واستخدموا ، فى نطاق مجتمعاتهم ، اثنين من أشد أدوات الحكم فعالية : الثواب والعقاب : الاول من سنن المؤمنين النابع من تقواهم ، والثانى من مخاوفهم المنبثقة من خشوعهم وورعهم .

١ - اقتبست الكنيسة البدائية الأولى ، لفترة قصيرة ، فكرة المشاركة العامة فى طيبات الحياة ، تلك الفكرة التى داعبت خيال أفلاطون وطابت لها نفسه ، والتى عاشت بدرجة ما ، بين طائفة « الاسينيين » المتشددة Essenians ، ولقد هزت الحمية المهتدين الاولين فباعوا كل ما يملكون من المتاع الدنيوى الذى احتقروه ، ووضعوا ثمنه تحت اقدام الرسل ، وقنعوا بنصيب متساو منه عند التوزيع العام ، ولكن تقدم الديانة المسيحية عوق وابطل شيئا فشيئا هذا السنن الكريم ،

(١) نشاهد التفریق بين العلمانية والدنيوية قبل عصر ترتوليان .

الذى كان لابد من أن تفسده وتسمى استغلاله سريعا جدا عودة الانانية المركبة في الطبيعة البشرية ، اذا وضع بين أيدي اقل نقلود وطهرا من ايدى الرسل . ورخص للبرتدين الذين اعتنقوا الدين الجديد في الاحتفاظ بأرائهم ، وتسلم التركت والميراث ، وزينة املك الزوجة بكل الوسائل المشروعة في التجارة والصناعة . وبدلا من التضحية المطلقة اخذ المساواة نسبة معدله . وفي الاجتماعات الاسبوعية او لتسهره خان كل مؤمن يقدم طائعا مختارا - تبعا لمتقضى المناسبه ولدرجته نرائه وتقواه - ما تجود به نفسه لخدمة الصندوق العام . ولم يكن اى شيء يرفض منها كان تافها ، ولكنهم دأبوا على ملقين الناس ان رخص « العشور » (أو مادة الزكاة) في شريعة موسى لا يزال يشكل التزاما الهيا ، وأنه اذا كان اليهود في ظل نظام اقل كمالات قد أمروا ان يدفعوا عشر ما يمتلكون ، فالأولى بتلاميذ المسيح ان يميزوا أنفسهم بدرجة أعلى من السخاء ، وأن يظفروا بفضل النزول عن مائض ثروتهم التي سرعان ما تبنى بفساد الدنيا نفسها (١) . وقد لا تدعو الضرورة الى القول بأن دخل كل كنيسة بعينها ، ذلك الدخل غير المحقق المتقلب ، لابد أنه كان يختلف تبعا لفقر أو غنى المؤمنين الذين انتشروا في القرى المضمورة او تجمعوا في المدن الكبيرة . وكان من رأى بعض الحكام في عهد الامبراطور ديسيوس Decius أن المسيحيين في روما امتلكوا ثروة طائلة ، وانهم استعملوا في عبادتهم اوانى من الذهب والفضة ، وأن كثيرا من المهتدين باعوا اراضيهم وبيوتهم ليزيدوا في الثروة العسابة للطائفة . وان هذا في الواقع على حسب اطفالهم البؤساء الذين وجدوا أنفسهم متسولين لأن آباءهم كانوا قديسين ، ويجدر بنا أن نستمع في ارتياب الى اتهامات الفرياء والامعاء ، بيد انها في هذه المناسبة ، على أية حال ، تتسم ظاهريا بالصحة والاحتفال ، الى حد بعيد ، كما يتبين من الحالتين الآتيتين ، وهما الوحيبتان اللتان وصلتا الى علمنا ، واللذان تحددان مبالغ دقيقة أو تعطيان فكرة واضحة . فقد جمع أسقف قرطاجة ، حوالى هذه الفترة تقريبا ، من مجتمع اقل ثراء من مجتمع روما مائة الف قطعة من العملة الفضية (أكثر من ثمانمائة وخمسين جنيهها امسترلينيا) ، في نداء عاجل للبر واحسان لاغثة الاخوة في نوميديا ، الذين وقعوا أسرى في أيدي برابرة الصحراء . وقبل عهد ديسيوس بنحو مائة عام ، تلقت كنيسة روما دفعة واحدة هبة قدرها مائتا الف قطعة (أى ضعف المبلغ السابق) من أحد الفرياء في بنطس ، أراد

(١) ساد نفس الرأى حوالى سنة ١٠٠٠ م . وترتبت عليه نفس النتائج . وكانت كل الهيئات تقدم بدافع « أن العالم قد اقتربت نهايته » .

لـ يتخذ العاصمة مقرا له . وكانت هذه القرايين ، في معظمها ، نقدا ، لأن المجتمع السحي لم يكن راغبا ، بل لم يكن قادرا ، بدرجة كبيرة ، على احتمال عبء الممتلكات العقارية ، فقد اشترطت عدة قوانين سنت على نسق نظام الوقف عندنا ، الا تمنح أية ضياع حقيقية لأية هيئة دون امتياز خلص أو اجازة معينة من الامبراطور أو السناتو ، اللذين قلما اتجها الى منحها لمصلحة طائفة كانت في البداية موضع احتقارها ، وفي النهاية مثار خوفها وحقدتها ، وقيل على أية حال ، بأنه في عهد اسكندر سيفيروس تمت صفقة يتبين منها ان الصطر قد أمكن أهيانا التخلص منه ، أو عطل ، وأنه قد رخص للمسيحيين في امتلاك الأراضي خارج حدود روما . وساعد تقدم المسيحية واضطراب الأحوال المدنية في الامبراطورية ، على الارخاء من قبضة القوانين ، ووهبت ، حوالى نهاية القرن الثالث ، ضياع كبيرة كثيرة للكنائس الغنية في روما وترطاجه وانطاكية والاسكندرية ، وغيرها من المدن الكبرى في ايطاليا وفي الولايات .

وكان الأسقف هو الرئيس الطبيعي لسدنة الكنيسة ، وكان هو المتصرف في الموارد العامة للكنيسة دون حسيب أو رقيب . واقتصر المشايخ على المهام الروحية ، أما فئة الشمامسة ، وهم التابعون الأدنى درجة ، فكانوا يستخدمون فقط في ادارة دخل الكنيسة وتوزيعه . وإذا جاز لنا أن نصدق تصريحات سبريان العنيفة لقلنا معه انه كان من بين الأخوة الأمريقيين كثيرون ممن دنسوا ، أثناء تأدية وظائفهم ، لا كل نواويس الكمال في الانجيل محسب ، بل كل جوانب الفضائل الأخلاقية كذلك . فان بعض هؤلاء السدنة المؤمنين بدوا أموال الكنيسة في صفوف الملذات الشهوانية ، كما انحرف بها بعضهم الى أغراض الكسب الخاص ، وإلى صفقات الشراء المزورة ، وإلى عمليات الربا الفاحش . ولكن لما كانت تبرعات الشعب المسيحي حرة مطلقة ، فمن المتوقع أن سوء استغلالهم لم يتكرر كثيرا . كما أن المنافع العامة التي نبتت من سخائهم عكست على المجتمع الدينى شرفا ونبلا . واحتفظ بنصيب متواضع لاعالة الأسقف ومعاونيه من الاكليروس ، وخصص مبلغ كاف لنفقات العبادة العامة ، وكان من بينها أعياد المحبة والاحباب (كما كانوا يسمونها) وكانت تشكل جانباً سارا . أما الجزء الباقي فكان هبة مخصصة للفقراء موقوفة عليهم ، ترك التصرف فيه لحكمة الأسقف ، من أجل اعانة الأرايل واليتامى والعرج والمرضى والمعجائز في المجتمع ، ومساعدة الغرباء والحجاج ، وتخفيف ويلات المسجونين والأسرى ، وخاصة اذا كانت مناعبهم ناجمة عن استمساكهم بمعروة

الدين . ولقد وحد بين أقصى الولايات بعضها بعضا رباط كريم من البر والاحسان ، وكانت أصغر المجامع تطلق المساعدات عن طيب خاطر من صدقات اخوانهم الذين هم أكثر يسارا . وأدى مثل هذا النظام الذى عنى بأهلية الشخص أقل منه ببؤسه أو محفته ، الى تقدم المسيحية ، ومن ثم نرى الوثنيين الذين كلفت تعتمل فيهم معان انسانية ، يعترفون بروح البر والخير في الطائفة الجديدة (١) على حين كانوا يسخرون من عقائدها . وجذب الأهل في المعونة العاجلة وفي الرعاية الآجلة الى أحضانها الكريمة كثيرا من التمساء الذين ربما تركهم اغفال الدنيا لهم غريسة للفاقة والمرضى والشيخوخة . وهناك أيضا ما يحمل على الاعتقاد بأن عددا كبيرا من الأطفال الذين كان آبائهم يعرضونهم للموت — طبقا للمعادة غير الانسانية التى كانت سائدة في ذلك العصر — كانوا كثيرا ما ينقذون ويمدون ويعملون ، ويعيشون بفضل تقوى المسيحيين وعلى حساب الأموال العامة (٢) .

٢ — من الحقوق المقررة التى لا نزاع فيها أنه يمكن لكل مجتمع ان يستبعد من نطاقه ومن مزاياه الأعضاء الذين يرغبون أو يتعدون القواعد التى استقرت وتركت برضا من الناس عامة . وفي ممارستها لهذا الحق ، كانت الكنيسة المسيحية تفزل مقاييس أساسا يمرتكي الخطايا الفاضحة ، وبخاصة الآثمين الذين ارتكبوا جرائم القتل أو التدليس أو الدعارة ، وبببندى أو معتقى آراء الهرطقة التى كانت تدينها حكومة الكنيسة ، وبإولئك التمساء الذين دنسوا أنفسهم طوعا أو كرها بأية طقوس وثنية بعد تمبيدهم . وكانت عواقب « الحرم » أى الحرمان من الكنيسة ذات طبيعة نيسوية وروحية فى وقت معا . حيث كان المسيحي الذى يصدر عليه هذا الحكم يحرم من الاشتراك فى عبادات المؤمنين وقرايبتهم ، وتقطع العلاقات الدينية والخاصة معه . ومن ثم وجد نفسه شيئا دنسا يمتنه الأشخاص الذين كان يكن هو لهم أعظم التقدير ، أو الذين كانوا يحبونه أشد الحب ، وبقدر ما كان الطرد من مجتمع محترم يدمغه بالخزى والمار كان الجنس البشرى عامة يعرض عنه ويرتاب فيه . وكان موقف هؤلاء المبعدين المنكودين أليسا

(١) يبدو أن جوليان شعر بالذلة والهوان لأن المساعدات المسيحية لم تكن قسرا على الفقراء الغرياء كذلك .

(٢) هذا هو — على الأقل — السلوك المحمود للرساليات الحديثة . تحت نفس الظروف فإن أكثر من ثلاثة آلاف طفل منوياء يتعرضون للموت فى شوارع بكين . (المعروف أن هذا كتب فى القرن الثامن عشر ، وأيت جييون يعيش الآن ليرى بعينيه رأسه كيف تبدلت الأحوال فى بكين بالذات) — (المترجم) .

محزنا في حد ذاته ، ولكن مخاوفهم كانت — كما يحدث عادة — تفوق
ألامهم . فان مغنم الجماعة المسيحية كانت خلدة أبدية . ولن تمحى
من الأذهان تلك الفكرة الرهيبة ، تلك هي ان الله قد أودع مفاتيح
الجحيم والجنة في ايدي هؤلاء الحكام الكنسيين الذين أصدروا عليهم
الحكم بالادانة والإبعاد . وحقا حاول الهراطقة — مقتنعين بصواب
مقاصدهم ، او يحدوهم الأمل الموهوم بأنهم هم وحدهم الذين اكتشفوا
الطريق الصحيح للخلاص — حاولوا أن يستعيدوا — من طريق
جميعياتهم المستقلة — الراحة ، الدنيوية والروحية ، التي لم يعمدوا
يستمدونها من المجتمع المسيحي الأكبر ، ولكن معظم الذين استسلموا
كرها لسلطان الرذيلة وعبادة الأصنام ، أدركوا سوء حالتهم ، وتلهفوا
على العودة الى مزليا الجماعة المسيحية .

وهناك ، غيبا يتعلق بهؤلاء القاتنين النادمين ، رايان توزعت بينهما
الكنيسة الأولى ، أولهما طابعه العدالة ، ويتسم ثانيهما بالرحمة .
أما أهل الفتوى القساة المتشددون الذين لا تلين قلوبهم ، فقد
أبوا عليهم ، الى الأبد ودون استثناء ، أحقر مكان في رحلب الجماعة
المقدسة التي امتنوها او هجروها ، وتركوهم لعذاب الضمير الأثم ،
ولم يتسلحوا معهم الا في بزيق باهت من الأمل في أنه يمكن أن يتقبل
« الكائن الأعظم » (١) توبتهم وتذلهم في حياتهم وماتهم . ولكن أظهر
الكنايس المسيحية وأكثرها احتراما اعتنقت عمليا ونظريا ، فكرة أكثر
اعتدالا ، فان أبواب الوفاق والمصالحة ، وأبواب السماء قل أن توصد
في وجه القاتن المنيب ، ولكنهم ابتدعوا نظما قاسيا رهيبا ، قد
يؤدي الى محو جريمته ، ولكنه في نفس الوقت يردع الناس بشدة عن
الاعتداء به ، ذلك ان هذا القاتن المنيب — بعد أن يعترف امام الملا
اعترافا يستشعر معه الاذلال ، ويصوم الى حد الضعف والهزال ،
مرتديا أسمالا من الخيش — كان بعد هذا كله يخر ساجدا على الأرض
امام أبواب الكنيسة يتوسل بالدموع لغفران ذنبه ، ويلتمس صلوات
المؤمنين من أجله (٢) . واذا كان الجرم فظيما ، لم تكن السنوات
الطوال من التوبة تعد كافية لارضاء « العدالة الالهية » . وكان المذنب
او الهرطيق ، أو المارق ، يعاد دائما الى أحضان الكنيسة بعد هذه
السلسلة البطيئة الالهية من التكفير . واحتفظ بالحكم بالحرمان الدائم

(١) وجد المنتانيون (أتباع مونتانيوس Montanus في القرن الاول) والنوفاغانيون
(أتباع نوفاشيدس Novachides في القرن الثالث) — الذين اعتنقوا هذا الرأي
في خراوة وعناد — وجدوا انفسهم في النهاية في عداد الهراطقة المحرومين من الكنيسة .
(٢) يأسف المعجبون بالقديم على زوال هذه الكفارة .

لبعض الجرائم الفظيعة الى حد خارق للعادة ، وبصفة خاصة الانتكاسات التي لا تغتفر من هؤلاء التائبين الذين جربوا وأساءوا استغلال رفق رؤسائهم الكنسيين . واختلف تطبيق هذا النظام المسيحي تبعا لحكمة الأساقفة ، ووفقا لظروف الأئمة وعددهم . وكان مجلس انسييرا Ancyra والاليرس Illiberis يعقدان في نفس الوقت تقريبا الواحد منهما في غلطية والثاني في اسبانيا ، ولكن قراراتهما — الموحدة حتى الآن ، يبدو أنها مختلفة في روحها ، فان ابن غلطية الذي تكرر منه تقديم القرايين الى الأوثان بعد تعميده ، كان يمكنه ان يظفر بالفقران بعد سبع سنين من التكفير والنوبة ، أما اذا أغرى غيره بالاعتداء به ، أضيفت الى مدة الحرمان ثلاثة اعوام آخر . أما الاسباني المنكود الذي ارتكب نفس الخطيئة . فقد حرم من الأمل في المصالحة حتى في لحظة الموت . ووضعت وثيقته على رأس قائمة تحوى على سبع عشرة خطيئة كان يصدر عليها حكم لا يقل رهبة عن هذا ، ويمكن ان نميز بينها الجرم الذي لا يغتفر ، وهو الطعن في الأسقف أو الشيع أو حتى الشماس .

ان هذا المزيج الذي أحسن تركيبه من السخاء والصرامة ، وهذا المنهج القويم من الثواب والعقاب ، قد شكلا — وفقا لمقاييس السياسة والعدالة سواء بسواء — القوة الانسانية في الكنيسة . فان الأساقفة الذين بسطوا رعايتهم الأبوية على الحيائين الأولى والآخرة ، كانوا يدركون أهمية هذه الامتيازات ، وكانوا — وهم يسرون أطباعهم بادعائهم اللطيف محبة الطائفة — يحققون على كل من ينافسهم في تطبيق مثل هذا النظام الضروري لمنع ارتداد هذه الجموع التي انضوت تحت راية الصليب ، والتي كلفت أعدادها تتزايد يوما بعد يوم . ومن الطبيعي أن نخلص من خطابات سبريان المؤثرة المتشددة الى أن نظريق الحرمان والتكفير كاننا أهم جزء أساسي في الديانة . وأنه كان أقل خطرا على تلاميذ المسيح ان يهملوا في اداء الواجبات المعنوية من أن يحتقروا عقاب أساقفتهم أو سلطانهم . وقد نتصور أحيانا أننا انما نصفي الى صوت موسى حين أمر الأرض أن تنشق وتبتلع في سعيها المهلك أولئك المتبردين الذين رفضوا الامتثال لكهنة هرون ، وأحيانا يجدر بنا أن نفترض أننا سمعنا صوت قنصل روماني يؤكد عظمة الامبراطورية ، ويعلم عن عزه الأكيد الذي لا ينثنى على فرض صرامة القوانين . « اذا أجزى هذا الاموجاج دون عقاب أو جناب .. » . (هكذا يؤنب أسقف قرطاجة زملاءه . لرفقتهم ورقمتهم) ، « اذا أجزى هذا الاموجاج ، فسوف يكون في هذا نهاية قوة الأساقفة وعزمهم ، ونهاية للمسلطة

الالهية السامية في حكومة الكنيسة ، ونهاية المسيحية نفسها . وربما نبذ سبريان هذه الامجاد الدنيوية التي كان من المحتمل الا يحصل عليها قط ، ولكن اكتساب السيطرة على ضمائر المجمع وإدراكه — مهما كان صغير الشأن أو موضع احتقار العالم — أضيق أرضاء لغرور النفس البشرية ، من تملك أكبر سلطة مطلقة استبدادية تفرضها قوة السلاح والغزو على شعب أبى كاره .

لقد حاولت في هذا البحث الهام ، رغم أنه ربما كان شاقا ، أن أعرض الأسباب الثانوية التي عاونت معاونة فعالة على سلامة تعاليم الدين المسيحي ، وإذا نحن اكتشفنا بين هذه الأسباب شيئا من الزخارف المصطنعة أو الظروف الطارئة أو المزيج من الخطأ والهوى ، فليس هناك ما يدعو إلى العجب من أن يتأثر الجنس البشرى وطبيعته الناقصة بهذه البواعث ، تأثرا بالغا محسوسا ، فقد بسطت المسيحية لجنحتها بتجاح كبير ، على الإمبراطورية الرومانية نتيجة لهذه الأسباب : الفيرة المطلقة ، الترقب العاجل المباشر للحياة الآخرة ، دعموى المعجزات ، ممارسة الفضيلة الصارمة ، انشاء الكنيسة الاولى . وكان المسيحيون مدينين لأول هذه الأسباب بياسهم الشديد الذي لا يفلب والذي احتقر أن يذعن للعدو الذي صمموا على قهره . أما الأسباب الثلاثة التالية فقد أهدت شجاعتهم بأقوى الأسلحة . أما آخر هذه الأسباب ، فأنه وحد قلوبهم ، وسدد أسلحتهم ، وأضفى على جهودهم هذا الوزن الثقيل الذي لا يقاوم ، والذي غالبا ما تفوقت به فئة قليلة من المتطوعين الشجعان الذين أحسن تدريبهم ، على حشد كبير سييء النظام جاهل بالموضوع غير مكترث بقيام الحرب . ومن بين مختلف ديانات الشرك ، ربما كان بعض المتمصبين المتجولين في مصر وسوريا — ممن أسلموا أنفسهم للخرافة السائدة بين السكان — هم الفئة الوحيدة من الكهنة الذين استمدوا العون والسطوة من مهنتهم الكهنوتية ، وكانوا متأثرين من الأملق باهتمامهم الشخمي بسلامة أو رخاء معبوداتهم الحارسة . أما كهنة المشركين في روما وفي الولايات ، فقد كانوا ، في الكثير الغالب ، رجالا من أصل نبيل ، ذوى ثراء وافر ، تقبلوا مهمة العناية بمعبود مشهور ، أو قربان عام ، على أنها امتياز مشرف ، وكثيرا ما عرضوا ، على حسابهم الخاص ، بعض الألقاب المقدسة وأقاموا في استهتار وفقر الطقوس القديمة ، طبقا لقوانين بلادهم وأسلوبها ، ولما كانوا مشغولين بهمام الحياة العادية ، فقلما أثار غيرتهم واخلاصهم أى لون من ألوان المصلحة ، أو أية سجايا ذات طابع كهنوتى . وقبى كل منهم في معبده أو مدينته ، غفلوا دون أن

يرتبطوا بأى رباط من روابط النظام أو الحكومة . وفى الوقت الذى اعترفوا فيه بالسلطة العليا للسنانو ومجمع الأبحار والامبراطور ، كان هؤلاء الحكام المدنيون يقنعون بالمهمة اليسيرة ، ألا وهى الإبقاء على العبادات العامة للناس فى هدوء ووقار . وقد رأينا بالفعل كم كانت العواطف الدينية لدى المشركين متباينة ، مفككة ، غامضة ، فقد تركوا بلا ضابط تقريبا للأوهام الخرافية وأفاعيل الطبيعة . وقد حسدت الظروف الطارئة ومراكزهم هدف إخلاصهم ودرجته . وطالما كانت عبادتهم نهبا مباحا لآلاف من المعبودات على التعاقب ، فقد قل أن مس واحد منا شغل القلب ، أو نفذ إلى أعماق النفس .

الظروف المواتية لتقدم المسيحية

وفى الوقت الذى ظهرت فيه المسيحية فى العالم ، كانت حتى هذه الانطباعات الباهتة المهيبة قد فقدت قوتها الأصلية ، فإن العقل البشرى ، القادر بقوته وحدها على ادراك خفايا العقيدة ، كان قد انقصر فى سهولة ويسر على حياة الوثنية . واضطر قرتوليان ولكتانتىيوس ، عندما بذلا الجهود فى فضح زيورها وسرورها ، الى اقتباس مصالحة شيشرون أو حسانة لوشيان . وانتقلت عدوى هذه الكتابات الملحدة الى محيط أبعد كثيرا من محيط قرائها . وانتقلت بدعة الشك أو عدم التصديق من الفيلسوف الى رجل الملذات أو الأعمال ، ومن النبلاء الى العامة ، ومن السيد الى المعبود الوضيع خدام مائدته الذى اتصت فى لهفة الى حرية سيده فى الحديث . وتظاهر الفلاسفة فى المناسبات العامة بالنظر بعين الاحترام والوقار الى النظم الدينية فى بلادهم . ولكن احتقارهم الخفى كان ينفذ من خلال التنازع الرقيق ، وحتى الناس أنفسهم — عندما تبينوا أن معبوداتهم كانت موضع استنكار وسخرية لدى الفئة التى درجوا على تبجيلها لعلو مكانتها وحسن ادراكها — امتلأت نفوسهم بالشكوك والمخاوف ازاء تلك المعتقدات التى ظلوا لها عاكدين فى ايمان ثابت . ويانهيار الآراء القديمة تعرض الجزء الأكبر من الجنس البشرى لموقف اليم مخض ، وقد تتلهى وتتسلى بعض العقول الفضولية الكثيرة التساؤل بحالة الشك والتردد هذه . ولكن ممارسة الخرافة أمر محبب الى جبهة الناس ، الى حد أن ايقاظهم عنوة يظل يثير فى نفوسهم الأسف لفقدانهم هذه الرؤية البهيجة السارة . وكان حبيهم لكل ما هو غريب وخالق للطبيعة ، وحبيهم لاستطلاع الحوادث المستقبلية ، ونزعتهم القوية الى الامتداد بأمالهم ومخاوفهم الى ما وراء

حدود العالم المرئى - هى الأسباب المواتية لتثبيت دعائم الشرك وتعدد الآلهة . وكانت حاجة الرجل الهمجى الى العقيدة تلح عليه الحاحا يغدو معه من اقرب الاحتمالات أن يحل طراز جديد من الخرافة وشيكا محل آية أساطير قندثر . وربما احتلت بسرعة بعض المعبودات التى هى من طراز احدث وأكثر جدة معابد جوبيتر وأبولو المهجورة اذا لم تكن حكمة « العناية الالهية » قد أقحمت فى اللحظة المناسبة تنزيلا اصيلا صالحا يوحى بأعظم التقدير والاقتناع المعقولين ، وازدانت فى نفس الوقت بكل ما يثير فضول الناس ودهشتهم وينزع احترامهم . ولما كان كثير من الناس متحررين تقريبا من تحيزاتهم المصطنعة ، ولكنهم بنفس القدر شديدو الحساسية والرغبة فى اعتناق مذهب جديد اعتناقا مخلصا ، فربما كان أى شئ كافيا ، ولو كان أقل جدارة واستحقاقا ، فى غمرة هذا الاستعداد الفعلى ، نقول كافيا للماء الفراغ فى طويهم ، ولتسكين هذا القلق المرتاب فى مشاعرهم . وقد يعجب الذين يميلون الى تتبع هذه الفكرة من أن نجاح المسيحية ظل أقل سرعة وانتشارا ، بدلا من أن يدهشوا لتقدمها السريع .

وقد اثبتت ملحوظة صادقة قدر ما هى لائقة ، تلك هى أن مفتوح روما قد مهدت السبيل وسهلت فتوح المسيحية ، وقد حاولنا فى الفصل الثانى من هذا الكتاب أن نوضح كيف أن اعظم الولايات حضارة فى اوربا وآسيا وأفريقية توحدت فى ظل ملك واحد ، وأنها ارتبطت ، على مر الأيام ، بأوثق روابط القوانين والسلوك واللغة . وقد استقبل يهود فلسطين الذين ترقبوا فى لهفة وشغف مخلصا دنيويا ، استقبلوا بفور شديد معجزات النبى المرسل ، الى حد أنهم لم يجدوا ضرورة لنشر انجيل بالمعبرية ، أو على الأقل ، الاحتفاظ به . وكتبت التواريخ الموثوقة لأعمال المسيح باللغة اليونانية ، على مسافة بعيدة من اورشليم ، وبعد أن زاد الى حد كبير عدد الأميين الذين اهتموا الى المسيحية . وحالما ترجمت هذه التواريخ الى اللاتينية باتت واضحة مفهومة لرعايا روما ، فيما عدا فلاحى سوريا ومصر الذين كتبت من أجلهم ترجمات خاصة فيما بعد . ومهدت الطرق العابة التى كانت قد أنشئت لخدمة القوات الرومانية سبيل المبشرين المسيحيين من دمشق الى كورنثة ، ومن ايطاليا الى أقصى الأرض فى اسبانيا أو بريطانيا ، ولم يواجه هؤلاء الفزاة الروحون أيا من العقبات التى قد تؤجل أو تعوق عادة دخول دين جديد الى بلاد نائية . وهناك من اقوى الأسباب ما يجعلنا على الاعتقاد بأنه قبل عصر قنطديانوس وقسطنطين ، كان التبشير بعقيدة المسيح يجرى فى كل ولاية وفى كل المدن الكبرى فى الامبراطورية ، ولكن تأسيس

المجامع الكثيرة والأعداد التي تألفت منها . ونسبتها الى جمهور غير المؤمنين — كل أولئك محوطة بالفموض أو تائه وسط الخيال والحماس .
وستعتمد الآن الى سرد هذه الظروف المتتورة ، كما وصلت الى علمنا على أية حال فيما يتعلق بانتشار المسيحية في آسيا واليونان ، ومصر ، وإيطاليا والغرب ، دون أن نغفل المكاسب الحقيقية أو الخيالية فيها وراء حدود الإمبراطورية الرومانية .

وكانت الولايات الغنية الممتدة من نهر الفرات الى البحر الايوني ، هي المسرح الرئيسي الذي عرض عليه رسول الأميين غيرته وتقواه .
وقد تعهد تلاميذه ، في جد ونشاط ، بذور الانجيل التي كان قد غرسها في هذه التربة الخصبة ، ويبدو أن هذه المنطقة ، في القرنين الأولين ، كانت تضم الجزء الأكبر من المسيحيين . ومن بين المجتمعات التي انشئت في سوريا ، لم يكن هناك مجتمعات أقدم أو أسس من المجتمعات التي انشئت في دمشق وحلب وأنطاكية ، وقد وصفت المقدمة الرسولية لسفر الرؤيا (رؤيا يوحنا اللاهوتي — العهد الجديد) كنائس آسيا السبع وخلفتها : « أنفسس ، أزمير ، برجامس ، ثياتيرا ، سارديس ، لاودكيا ، فيلادلفيا » . وسرعان ما انتشرت مستعمراتها في هذه البلاد الآهلة بالسكان . وفي فترة مبكرة جدا استقبلت جزيرتا قبرص وكريت وولايتهما تراقيا ومقدونيا الدين الجديد استقبالا طيبا ، وأسست في الحال جمهوريات مسيحية في مدن كورنثة وأسبرطة وأثينا ، والحق أن قدم الكنائس في اليونان وآسيا هيا لها فسحة من الوقت للنمو والتكاثر .
بل إن جماعات الغنوصيين وغيرهم من الهرطقة لتفيد في تبيان مظاهر الانتعاش في الكنيسة الأرثوذكسية ، حيث كان لفظ الهرطقة يطلق دائما على الفئة التي هي أقل عددا . ويمكن أن نضيف الى هذه الشواهد المحلية اعتراف الأميين أنفسهم وشكاواهم ومخاوفهم . فمن كتابات لوشيان — وهو فيلسوف درس الجنس البشري ووصف أحواله في أجلى بيان — يمكن أن نستخلص أن وطنه — بلاد بنطس — كان يمج على عهد كومودس ، بالابيقوريين ، و « بالمسيحيين » . وبعد ثمانين عاما من موت المسيح كتب السياسي الروماني الخير « بليني » (٦٢ — ١١٣) يرثى لتفاهم السيئات التي حاول سدي أن يحوها ، فهو يؤكد في رسالته العجيبة الى الامبراطور تراجان ، أن المعابد كانت تصبح مهجورة ، وأن الضحايا المقدسة تكاد لا تجد من يشتريها ، وأن الخرافة (يقصد العقيدة المسيحية) لم تقتصر عدواها على المدن ، بل تجاوزتها الى القرى والريف في بلاد بنطس وبيثينيا .

والمحفوظ بصفة عامة ، ولو لم نلتحق النظر في تعبيرات أو في بواعث هؤلاء الكتاب الذين يشيدون بتقدم المسيحية في الشرق أو يرثون لها ، ان احدا منهم لم يترك لنا اسما يمكن ان يستخلص منها تقدير عادل للمعدن الحقيقيين للمؤمنين في تلك الولايات . وبقيت لحسن الحظ حالة واحدة يبدو انها قد تلقي ضوءا اكثر اوضاحا على هذا الموضوع الغامض الهام . ذلك انه في عهد تيوديسيوس ، ويعسد ان تمتعت المسيحية لمدة تزيد على ستين عاما ببقاء المعطف الإمبراطوري ، بلغ عدد شعب الكنيسة القديسة الالامعة في أنطاكية مائة ألف شخص ، عاش منهم ثلاثة آلاف على الهبات العامة . وقد تكون ابهة ملكة الشرق وعظمتها ، واكتظاظ السكان المعترف به في قيصرية وسلقية (مدينة على الفرات) والاسكندرية ، وهلاك مائتين وخمسين ألفا من الانفس بفعل الزلزال الذي اصاب أنطاكية أيام جوستين الأكبر — قد يكون كل اولئك عوامل كثيرة تقنع بان مجوع سكانها لم يكن يقل عن نصف مليون ، وان المسيحيين ، مهما تكاثروا عددهم نتيجة الفيرة والسلطة ، لم يتجاوزوا خمس اهل هذه المدينة العظيمة (أنطاكية) . وكم تختلف النسبة التي يجب ان نأخذ بها عندما نقارن بين المضطهدين وبين الكنيسة الظاهرة ، وبين الشرق والغرب ، وبين القرى الصغيرة والمدن الآهلة ، وبين الاقطار التي تحولت حديثا الى العقيدة وتلك التي كان المؤمنون فيها في طليعة من حظوا باسم « المسيحيين » ا على انه يجوز الا نفعل ان كريسستوم Chrysostom (احد آباء الكنيسة في أنطاكية في القرن الرابع) ، ونحن مدينون له بهذه المطولت المفيدة — قدر في مقرة اخرى ان عدد المسيحيين كان يفوق حتى عدد اليهود والوثنيين . ولكن نذليل هذه الصعوبة الظاهرة ميسور واضح : فان الواقع الفصيح قارن بين الدستور الكنسي والدستور المدني في أنطاكية ، وبين قائمة المسيحيين الذين ظفروا ببركة السباء بالتمديد وقائمة المواطنين الذين كان لهم حق الاسهام في الهبات العامة . وقد أدرج العبيد والغريباء والاطفال في القائمة الاولى ، واستبعدوا من الثانية .

وهيات تجارة الاسكندرية الواسعة ، وقربها من فلسطين ، منفذا سهلا للديانة الجديدة ، وقد امتنتها أعداد كبيرة من طائفة Therapeutae والأسينيين Essenians القاطنين في منطقة بحيرة مريوط — وهم طائفة من اليهود تخلت كثيرا عن احترامها للطقوس الموسوية . وقدمت حياة النكشف والتزمت التي كان يحياها هؤلاء الأسينيون وصومهم وحرمانهم من الهيكل ، واشتراكية الملكية عندهم ، وحب العزوبة ، وتحمسهم للاستشهاد ، وحرارة عقيدتهم ، رغم عدم نقاوتها — كل

اولئك قدم بالفعل صورة حية للنظام الفطرى البسدائى . ويبدو ان اللاهوت المسيحى اتخذ قاليه العلبى المحدد فى مدرسة الاسكندرية ، ووجد هانريان ، عند زيارته لمصر ، كنيسة تتألف من اليهود والاغريق بلغت من الاهمية ما يكفى لجذب انتباه هذا الأمير الفضولى المحب للاستقصاء . ولكن تقدم المسيحية ظل زمنا طويلا مقصورا على نطاق مدينة واحدة ، كانت فى حد ذاتها مستعمرة اجنبية . وظل أسلاف ديمتريوس ، حتى نهاية القرن الثانى ، هم الاحبار الوحيدين ، فى الكنيسة المصرية ، ثم رسم ديمتريوس بيديه ثلاثة أساقفة ، وراى عددهم الى عشرين فى أيام خلفه هرقلاس *Heraclas* . اما جمهور المواطنين ، وهم شعب يتميز بالصلابة الكثيفة ، فقد استقبلوا الدين الجديد فى غتور واشمئزاز ، وكان من النادر ، حتى فى أيام أوريجن *Origen* ان تلتقى بمصرى تغلب على تعصبه القديم للحيوانات المقدسة فى بلده . والحق انه حالما اعتلت المسيحية العرش ، امتثلت حماسه هؤلاء المتبريرين للرأى المقتنع السائد ، وزخرت مدن مصر بالأساقفة ، وهجت صحراء طيبة بالنسك .

وتدفق الى رحاب روما الواسع سيل من الغرباء وسكان الولايات ، وكان أى غريب أو مقنوت ، مذنب أو مشتبه فيه ، يمكن ان يأمل فى الامتلات من عين القانون الساهرة فى خضم هذه المدينة المترامية الأطراف . وسهل ، وسط هذا الخليط من الأمم ، على أى معلم يدمو الى الهدى أو الزيف ، واى مؤسس لرابطة تقوم على الفضيلة ، أو على الائم والعدوان ، ان يضاعف عدد تلاميذه أو شركائه . وبلغ عدد المسيحيين — كما صورته بالفعل تاسيتس — رقما كبيرا — أيام اضطهادات نيرون الطارئة . وتكساد لغة هذا المؤرخ العظيم تشبه الأسلوب الذى استخدمه ليفى *Livy* عندما روى قصة ادخال طقوس باخوس *Bacchus* الى الخمر عند اليونان والرومان والفائها . وبعد ان كان عباد باخوس قد أهجوا تمسوة السناتو ، توجس هذا المجلس خيفة من ان يكون حشده كبير — كما لو كان شمعيا آخر — قد لقن تلك الاسرار الموقوتة . ثم أظهر بحث أكثر دقة ان المخالفين الاثمين لم يتجاوزوا سبعة آلاف ، وهذا فى الواقع رقم مخيف ، اذا نظر اليه على انه هدف العدالة العامة . وفى مثل هذا الاعتراف الصريح يجب ان تفسر هذه العبارات الغامضة التى أوردها تاسيتوس ، أو التى جاءت فى حالة سابقة على لسان بلينى ، حين يبالغان فى حشود المتعصبين المخدوعين الذين نبذوا العبادات القائمة للآلهة . ولا ريب فى ان كنيسة روما كانت أولى الكنائس وأكثرها عددا . ولدينا سجل موثوق حجة يشهد بحالة

الديانة. في هذه المدينة حوالى أواسط القرن الثالث ، وبعد هدوء دام ثمانية وثلاثين عاما . وكان الكليروس آنذاك يتألف من أسقف وسنة وأربعين من المشايخ ، وسبعة شمامسة ومثلهم من وكلائهم ، واثنين وأربعين سادنا ، وخمسين من القرائين وطاردى الأرواح الشريرة والحمالين ، وبلغ عدد الأرامل والعجزة والفقراء الذين كانوا يعيشون على تبرعات المؤمنين ، ألفا وخمسمائة . ويحكم المنطق ، وبالقياص الى أنطاكية ، قد نجرؤ على تقدير المسيحيين في روما بنحو خمسين ألفا . وربما كان من المتعذر التحقق من عدد السكان في هذه العاصمة الكبيرة بالضبط ، ولكن أكثر التقديرات تواضعا لا يمكن ، على التحقيق ، أن يهبط به الى أقل من مليون نسمة ، يشكل المسيحيون منهم جزءا من عشرين جزءا .

ويبدو أن سكان الولايات الغربية استقوا معرفتهم بالمسيحية من نفس المنبع الذى نشر عليهم لغة روما ومشاعرها وماداتها . وتبنيات أفريقية والغال ، في هذا الطرف الذى هو أكثر أهمية وخطرا ، للاقتداء بالعاصمة ، ورغم المناسبات الكثيرة المواتية التى ربما دعت الارسلالات الرومانية الى زيادة ولاياتها اللاتينية ، فقد تأخر طويلا عبورهم للبحر أو جبال الألب ، فلسنا نستطيع أن نجد في هذه الاقطار العظيمة اية آثار محققة للمعقدة أو الاضطهادات، تصل الى ما بعد عهد الانطونيين . وكان التقدم البطيء للانجيل في المناخ البارد في الغال يختلف تماما الاختلاف عن الحماس الذى يبدو أنه استقبل به في الرمال المحرقة في افريقية ، وسرعان ما أصبح المسيحيون الامريقيون أحد الاعضاء الرئيسية في الكنيسة الاولى . وساعد التقليد الذى ادخل في هذه الولاية - افريقية - وهو تعيين الأساقفة في أصغر المدن وأحق القرى ، في حالات كثيرة جدا - ساعد على ازدياد عظمة وبهاء مجتمعاتهم الدينية التى ألهبتها طوال القرن الثالث ، غيرة ترتوليان ، ووجهتها مقسدة سبريان ، وتألفت بفصاحة لكتانتيوس ، ولكننا ، على النقيض من ذلك ، اذا ولينا وجوهنا شطر الغال ، لوجب علينا أن نقنع ، في عهد ماركوس انطونينوس ، بالمشور على المجمع الهزيلة ، الموحدة في ليون وغيين (جنوبى ليون في فرنسا) ، بل حتى عهد ديسيوس ، لم يكن يوجد ، على التحقيق ، إلا في قليل من المدن فقط - آرل ، ناربون ، تولوز ، ليموج ، كليرمونت ، تور ، وباريس - بعض الكنائس المبعثرة هنا وهناك ، والتى قامت على اخلاص نفر قليل من المسيحيين . والحق أن الصمت بلغنم مع التعبد والنسك كل الالتئام ، ولكنه قلما يلتم مع الغيرة والحماس ، ومن ثم يمكن أن نرى ونرثى لحالة جمود المسيحية

في هذه الولايات التي استبدلت اللغة اللاتينية بالكلتية حيث انها لم تنجب طوال القرون الثلاثة الاولى كتابا كهنوتيا واحدا . ومن بلاد الغال التي زعمت لنفسها التفوق في العلم والسلطان على كل البلاد الواقعة على هذا الجانب من الألب انعكس نور الانجيل ، على الولايتين السابيين : اسبانيا وبريطانيا ، في شعاع اشد خفوتا . واذا نحن صدقنا تأكيدات ترتوليان العنيفة ، فانهم تلقوا بالفعل القيس الاول من العقيدة عندما وجه هو خطابه الى حكام الامبراطور سيفيروس . ولكن المنشأ الغامض المهوش لكنائس غرب أوروبا دون في اهبال شديد ، الى حد اننا لو اردنا ان نروى زمن تأسيسها وظروفه ، لوجب علينا ان نعوض عن حسبت الأقدمين بتلك الأساطير التي املأها الجشع أو الخرافة ، بعد ذلك بزمان طويل ، على الرهبان في أديرتهم المظلمة الخاملة . ولا يستحق الذكر من هذه الأقاصيص الا قصة الرسول القديس جيس لتطرفها الشاذ . فقد تحول من صياد سمك مسالم في بحيرة جنسسارث Gennesareth ، الى فارس مقدم اغار على رأس الخيالة الاسبان في معاركهم ضد العرب . وقد مجد أعماله أكثر المؤرخين وقلرا . وظهر ضريح كيبوزتلا Compostella العجيب قوته ، وكان سيف الطائفة المحاربة تعاونه محاكم التفتيش كافيا للقضاء على أى اعتراض من نقد خبيث .

ولم يكن تقدم المسيحية محصورا في دائرة الامبراطورية الرومانية، فان الآباء الاولين الذين يفسرون الحقائق بالنبوءات ليقولون ان الدين الجديد طرق بالفعل ابواب المعمورة بأسرها في بحر قرن واحد من موت « منشئة الالهى » (السيد المسيح) ويقول جوستين الشهيد : « لا يوجد شعب يوناني أو متبربر ، أو أى جنس آخر من الناس ، يتميز بأية لغة أو سلوك ، جاهل بالفنون أو الزراعة ، يعيش تحت الخيام ، أو يجوب الأماق في عربات مغطاة ، لا تقام فيه الصلوات ، باسم المسيح المصلوب ، الله خالق كل شيء » . ولكن هذه المبالغة الفلخرة التي يصعب غاية الصعوبة ، حتى في وقتنا الحاضر ، التوفيق بينها وبين حقيقة احوال الجنس البشرى ، يمكن أن نعتبرها مجرد ملحطة طائشة من كاتب ورع غير موثوق لم يراع الدقة ، تحدت مقاييس ايمانه بقدر امانيسه . ولكن ايمان الآباء أو امانهم لا يمكن أن تغير حقيقة التاريخ . وستظل حقيقة لا يتطرق اليها الشك أن متبربرى سكينيا وألمانيا الذين قوضوا أركان الملكية الرومانية كانوا مغبورين في ظلام الوثنية ، وأنه لم يكن ثمة أى مسعى ناجح الى أية درجة من الفجاء لتحويل ايبيريا أو ارمينيا أو اثيوبيا الى الدين الجديد ، الى أن انتقل صولجان الملك الى بدى

إمبراطور ارثونكسى . وربما أفاقت ظروف الحرب والتجارة ، قبل ذلك الوقت ، في نشر بعض التعريف بالانجيل ، بين القبائل في كاليدونيا (اسكتلنده) وبين القاطنين على حدود الراين والدانوب والفرات ، ووراء هذا النهر الأخير ، تفردت أذاسا باعتناقها المبكر المكن للعقيدة . ومن أذاسا دخلت مبادئ المسيحية في سهولة ويسر الى المدن اليونانية والسورية التي خضعت لخلفاء ارتجزرسييس ، ولكن يبدو أنهم لم يؤثرأ تأثيرا عميقا في عقول الفرس ، الذين كان نظامهم الدينى قد انشئ بجهد طائفة دقيقة التنظيم ، بطريقة أكثر دهاء وصلابة من الأساطير اليونانية والرومانية الغامضة .

اعداد المسيحيين الأولين واحوالهم

وربما يبدو من هذا العرض التزيه ، وان كان عرضا غامضا ، لتقدم المسيحية أنه من المحتمل أن عدد المهتدين قد بولغ فيه الى حد الاسراف ، بفعل الخوف من ناحية والورع من ناحية أخرى . وكانت نسبة المؤمنين — طبقا لشهادة اوريجن التي لا يوجه اليها لوم ولا نقد — ضئيلة جدا ، اذا قورنت بمجموع عالم غير المؤمنين ، ولكن من الصعب — تبعا لامتقارنا الى معلومات واضحة — أن نحدد ، بل من الصعب حتى أن نحزر الأعداد الحقيقية للمسيحيين الأولين . ومهما يكن من أمر ، فإن أحسن تقدير يمكن استخلاصه من أمثلة أنطاكية وروما ، لا يجيز لنا أن نقصور أن عددا من جزء أكثر من عشرين جزءا من رعايا الإمبراطورية قد انضوا تحت راية الصليب قبل تحول قسطنطين ، ذلك التحول الماهم الخطير الى المسيحية . ولكن يبدو أن ما درجوا عليه في شئون العقيدة والغيرة الدينية والاتحاد ، قد ضاعف من أعدادهم . وساعدت نفس الأسباب التي أسهمت في ازدياد عددهم فيما بعد ، على إبراز قوتهم واكسابهم مزيدا من المهابة .

أن بناء المجتمع المدنى ليهيظ بجمهرة الشعب الى مهاوى الضعة والجهل والفقر ، في الوقت الذى تميز فيه فئة قليلة بالثروة أو المرتبة أو المعرفة . فكانت النتيجة أن الديانة المسيحية التي خاطبت الجنس البشرى بأسره ، لابد أن تضم تحت لوائها من المهتدين من المراتب الدنيا ، عددا أكبر بكثير منه من المراتب العليا في الحياة . ونحول هذا الظرف البرئ الطبيعى الى اتهام كريحه جدا ، يبدو أن المدافعين عن العقيدة أنكروه في جراءة أقل مما استغله أعداؤها للتحريض عليه ، وهو

أن الطائفة المسيحية الجديدة تكاد تتألف تماما من سفلة القوم ، من الفلاحين والميكانيكيين ، من الأطفال والنساء ، من المتسولين والعبيد ، وربما قدم هؤلاء الأخيرون - العبيد - في بعض الأحيان ، الإرساليات التبشيرية إلى الأسرات الغنية النبيلة التي يتبعونها . هؤلاء المعلمون الخاملون (وتلك هي نفثة الحقد والكفر) كانوا يلوثون بالصمت في العلن ، قدر ما يثرثرون ويؤكدون عقيدتهم في مجالسهم الخاصة . وبينما كانوا يتحاشون في حذر المجابهة الخطيرة للفلاسفة ، كانوا يختلطون بالجمهور الأمي الشرس ، ويتسللون إلى تلك العقول التي يجنح بها السن أو الجنس (ذكر أو أنثى) أو التعليم أحسن جنوح إلى التأثير بالارهاب الخرافي .

إن هذه الصورة القبيحة ، رغم ما تحمل من شبه لطيف ، لتفضح بتصويرها التائم ومعالجها المشوهة قلم الخصم الذي رسمها . فقد اعتنق المسيحية ، عندما انتشرت في العالم أفراد كثيرون ممن استبدوا ببعض النتائج من هبات الطبيعة أو الحظ . فإن أرسطيد الذي وجه إلى الإمبراطور هادريان دفاعا جيدا بليغا كان فيلسوفا أثينيا . والتبس جوستين الشهيد المعرفة الإلهية في مدارس زينون وأرسطو وغيثاغورس وأفلاطون ، قبل أن يسمده الحظ فابتدره الرجل الشيخ ، أو بالأحرى أحد الملائكة الذي حول انتباهه إلى دراسة أنبياء بني إسرائيل . وظنر كل من كليمنز الاسكندري ونسرتولين بقراءات كثيرة ، الأولى في اليونانية ، والثاني في اللاتينية ، كما حصل جوليوس الأفرتي وأوريجن على قسط كبير من التعليم في مصرهما . ورغم التباين الشاسع بين أسلوب كل من سبيريان ولكتانتايوس ، فإن هذين الكاتبين كانا مطيعين شغبيين للبلاغة . بل إن دراسة الفلسفة دخلت أخيرا بين المسيحيين ، ولكنها لم تسفر دائما عن أحسن النتائج ، وكثيرا ما كانت المعرفة داعية إلى الهرطقة أو التدين على قدر سواء . ويمكن أن يطلق الاسم الذي أُلحِق على أتباع أرتيمون Artemon بنفس القدر من اللياقة ، على مختلف الشيع التي قاومت خلفاء الرسل . « أنهم يجسرون على أن ينفروا الأسفار المنزلة المقدسة ، وينبذوا القاعدة القديمة للإيمان ، ويشككوا آراءهم وفق التعاليم الحقيقية للمنطق . وأهل علم الكنيسة سعيا وراء دراسة الهندسة . وإن أبصارهم لتعشى عن السماء عندما ينصرفون إلى قياس الأرض ، وإنك لتجد أقليدس يوما بين أيديهم ، وأرسطو وتيوفراستس Theophrastus موضع إعجابهم ، وكم من الإجلال والاحترام يظهرون لمؤلفات جالينوس . إن أخطاءهم صادرة عن سوء استخدامهم

لفنون الكفار وعلومهم . وانهم ليفسدون بمسألة الانجيل بتلميقات العقل البشرى » .

ولا يمكن التثبت بحق من أن مزايا المولد أو الثروة كانت جوامعاً يهزل عن اعتناق المسيحية . وقد مثل كثير من المواطنين الرومان أمام محكمة بليزى ، وسرعان ما اكتشف أن عدداً كبيراً من الناس من كل طبقة وطائفة في بيثينيا قد نبذوا ديانة آباؤهم وأجدادهم . وقد تحظى شهادته التي لا شبهة عليها ، في هذه المناسبة ، بنصيب من الثقة والتصديق أكبر من التحدى الجرى من جانب ترقوليان ، حيث يثير مخاوف البروقنصل في أفريقية ويهيب بالروح الانسانية فيه على حد سواء ، بقوله له انه يامعانه في اعمال القسوة سوف يبذل عشر أهمل قرطاجة ، وسوف يجد بين المخنئين أفراداً كثيرين من مرتبته ، ومن شيوخ السيناتو ، ومن نساء أشرف الأسرات ، ومن أصدقاء أو اقرباء أوثق صحابته صلة به ، ويبدو ، على أية حال ، أن الامبراطور فاليريان بعد اربعين عاماً من ذلك التاريخ ، قد اقتنع بصدق هذا الكلام . حيث يورد جراحة في أحد اواسره العلوية أن بعض اعضاء السيناتو والفرسان الرومان وفضليات النساء قد اعتنقوا المسيحية ، ودابت الكنيسة على الاستزادة من بهائها الظاهري حين نقدت نقاوتها الباطنة ، وفي عهد دقلديانوس اندس سرا في القصر وفي محاكم العدل ، بل وفي الجيش ، كثير من المسيحيين . الذين حاولوا التوفيق بين مصالح الدنيا ومصالح الآخرة .

على أن هذه الحالات الاستثنائية اما أن تكون قليلة العدد أو حديثة العهد ، الى حد لا يمكن معه أن تزيل تماماً هذا الاتهام بالجهل أو الوضاعة الذي الصق في غطرسة زائدة بالمهتدين الأوائل الى المسيحية . وبدلاً من أن نلجأ في الدفاع الى تخيلات وأقاصيص المصور المتأخرة ، قد يكون أقرب الى الفطنة والحرص أن نحول مظنة الفضيحة والعار الى موضوع للتهذيب والتثقيف . وقد يهدينا التفكير الجدى الى أن الرسل انفسهم قد اختارتم « العناية الالهية » من بين صائدى الأسماك في « الجليل » وأتينا كلما هبطنا بمستوى المسيحيين الاولين الدنيوى الى الحضيض ، توافر لنا المزيد من الأسباب الداعية الى الاعجاب بجدارتهم وتوفيقهم . انه لزام علينا الا تغرب عن أذهاننا قط مملكة السماء ، فقد وعد بها فقراء الروح ، وأن العقول التي توالى عليها المصائب وابتليت باحتقان الناس هي التي تصفى في ابتهاج وسرور الى الوعد الالهى بالسعادة في الحياة الآخرة ، بينما — على النقيض

من ذلك - يفتن المحظوظون بتملك هذه الدنيا . كما أن الحكماء يفرطون في الشك ويحاجسون في تفوقهم العقيم في حسن ادراكهم ومعرفتهم .

وقد نكون في حاجة الى بعض هذه التأملات لنخفف عن انفسنا خقدان بعض الشخصيات اللامعة التي قد تبدو في أعيننا اجدر بالنعمة الالهية . ان أسماء ، سنكا ، وبليني الكبير ، وبليني الصغير ، وتاسيتوس ، وبلوتارك ، وجالينوس ، والعبد ابكتيتوس Epictetus ، والامبراطور مارك انطونينوس - ان هذه الاسماء تزين العصر الذي ازدهرت فيه ، وترفع من شأن الطبيعة البشرية . فقد أضفى كل منهم مجدا وجلالا على المكان الذي شغله في دنيا النشاط والعمل او دنيا الفكر والتأمل على حد سواء ، ووسع البحث والدرس مداركهم المتأخرة ، ونقت الفلسفة اذهانتهم من شوائب الخرافة الشعبية ، وقضوا ايامهم في البحث عن الحقيقة وممارسة الفضيلة . ولكن هؤلاء الحكماء جميعا (وهذا مثار الدهشة ومثار الاهتمام معا) ضربوا صفحا عن كمال المذهب المسيحي أو أنكروه . وان افصاحهم او صمتهم ليشف ، بقدر سواء ، عن احتقارهم لهذه الطائفة الناشئة التي نشرت في زمانهم لواءها على الامبراطورية الرومانية . اما الذين تفضلوا منهم فذكروا المسيحيين ، فانهم اعتبروهم فتنة من المتحمسين العنيديين المتمردين الذين خضعوا خضوعا صريحا لمعتقداتهم الغامضة ، دون ان يكونوا قادرين على الاتيان بحجة واحدة يمكن ان تجذب انتباه اهل العقل والمعلم .

وقد يكون من المشكوك فيه ، على الاقل ، ان هؤلاء الفلاسفة تراوا كل ما نشره المسيحيون الأولون مرارا وتكرارا دفاعا عن انفسهم وعن دينهم ، ولكنه مما يدمو الى مزيد من الرثاء ان مثل هذه القضية لم يتول الدفاع فيها محامون اعظم قدرة ، فان هؤلاء انما يكشفون عن اسلاف الشرك في حماسة وفصاحة مسرعتين ، ويستندون رحبنا اذ يعرضون براءة اخوانهم المنكوبين وشقاءهم ، ولكنهم اذا ما رغبوا في عرض النشأة الالهية للمسيحية ، ألجوا على النبوءات التي بشرت بظهور المسيح الحاحا اقوى بكثير من على المعجزات التي صاحبت ظهوره . وقد تجدى حجتهم المفضلة في تثقيف المسيحي أو تحويل اليهودي ، لان هذا وذلك يعترفان بقوة هذه النبوءات ، ويقتضيها الاجلال الورع ان يسميا وراء معناها ووراء تحققها . ولكن هذه الطريقة في الاتباع تفقد كثيرا من وزنها وتأثيرها اذا توجهت الى اناس لا يفهمون الشريعة الموسوية والاسلوب الرسولي . ان المعنى البسامي

للوحى العبرى المنزل ليتبخر على الأيدى غير الحافظة ، أيدى جوستين ومن جاء بعده من المدافعين الذين لجأوا الى استخدام الأساليب المغرية والغرور المصطنع والمجازات الجاسدة ، بل ان حجية هذا الوحى او اصلاته وصحته أصبحت موضع شك الأسمى غير المستنير ، بفعل هذا الخليط من التفتيحات التى تتسم بالتقى ، والتى أقحمت باسم أورفيوس Orpheus وهرمز Hermes والعراغات والمنتنبات بالغيب(١) ، على هذا الأسمى ، وكأنها فى منزلة الوحى السماوى الأصل . وغالبا ما يذكرنا اقتباس هذا التحليس والسفسطة فى الدفاع عن الوحى المنزل بالسلوك المعيب الغرير للشعراء الذين يثقلون ظهور أبطالهم الذين لا ينفذ اليهم أى سلاح ، بدروع مريكة هشة لا فائدة فيها .

ولكن كيف نغفر للوثنيين ولعالم الفلسفة غفلتهم اللاهية من الأدلة التى قدمتها « القدرة الإلهية » لا لعقولهم ، بل لحواسهم ؟ ففى عهد المسيح وحواريه وتلاميذه الأوائل ، تأكدت العقيدة التى بشرها بهما بكثير من الكرامات والمعجزات ، فقد استوى الأهرج على قدميه ، وعاد الهى الأسمى نور عينيه ، وبرى المريض من علته ، وعاد الميت الى الحياة ، وطرد الجن والشياطين ، وكثيرا ما توقفت الطبيعة تدميسا للكنيسة . ولكن حكماء اليونان وروما أشاحوا بوجوههم عن هذه المشاهد العجيبة ، وبدا أنهم — فى غمرة مهام حياتهم العادية ودراساتهم — لا يلقون بالا الى أية تغييرات فى التدابير الأدبية او المادية التى تحكم العالم . ففى عصر تيبيريوس ، ساد العالم ، او قل ولاية مشهورة فى الإمبراطورية الرومانية — ظلام دامس غير طبيعى لمدة ثلاث ساعات . ولكن هذه الحادثة الخارقة التى كان يجدر أن تثير الدهشة والفضول والتقوى فى نفوس البشر ، مرت دون أن يلتفت اليها أحد فى عصر هو من عصور العلم والتاريخ . وقد وقعت هذه الحادثة فى حياة سنكا وبلينى الكبير اللذين كان مفروضا أن يعانيا النتائج المباشرة ، أو يتلقيا أول نبا لهذه المعجزة . وقد سجل كل من هذين الفيلسوفين فى مؤلف قيم ، كل الظواهر الطبيعية الكبرى ، الزلازل ، النيازك ، الشهب ، الخسوف والكسوف ، وغير ذلك مما جمه هبهم للاستطلاع دون كلال

(١) ربما كان يصبح من السهل على الفلاسفة الذين سحروا من ليونيات العراغات التى مى أقدم عهد ، أن يكتشفوا التفتيحات اليهودية والمسيحية التى كان يقتبسها الآباء غرحين منتصرين ، من عهد جوستين الى لكتاتيوس . فلما حقلت هذه التفتيحات غرشنا المحدث نبذت — كما نبذت فكرة « العصر الألفى السعيد » — ومن سوء الحظ ان العراغة المسيحية حدثت عام ١٩٥ موعدا لسقوط روما ، أى بعد ٩٤٨ سنة من تأميمها .

أو ملال . ولكن كليهما أغفل ذكر أكبر ظاهرة شهدت العين الغائبة منذ بدء الخليقة . وأفرد بلينى فصلا خلاصا عن كسوف ذى طبيعة خارقة استمر لمدة غير عادية ، ولكنه اكتفى بوصف النقص الشاذ فى الضوء ، الذى أعقب مقتل يوليوس قيصر ، حين بدا قرص الشمس باهتا لا يتألق طوال الجزء الأكبر من السنة . وخذ بالفعل معظم الشعراء والمؤرخين فى ذلك الزمان ذكر فصل الظلام ، هذا الذى لا يمكن ، على التحقيق ، مقارنته بالظلمة الخارقة التى خيمت على الأرض عند موت المسيح .

الفصل السادس عشر (٢٥٨ - ٣١٣ م)

سياسة الحكومة الرومانية ازاء المسيحيين

موقف الأباطرة • استشهاد سبريان • تنوع سياسة الاضطهاد
الكنيسة في عهد دقلديانوس وخلفائه • مرسوم جاليريوس
للتسامح

اننا اذا تأملنا جديا في في طهارة الدين المسيحي ، ونقاوة تعاليمه
الأخلاقية وبراءة حياة الكثرة الكثيرة ممن اعتنقوا الدين في صدر
المسيحية وتقشفهم وتشددهم ، لكان امرا طبيعيا بالضرورة ان نذهب
الى القول بان مثل هذه العقيدة الخيرة البارة كان يمكن ان يتلقاها ،
حتى العالم غير المؤمن ، بالاجلال اللائق ، وان يقرر العلماء والمهذبون
— رغم سخريتهم من المعجزات — فضائل الطائفة الجديدة ، وان يحى
الحكام ، بدلا من ان يضطهدوا ، افراد هذه الفئة الذين التزموا الطاسة
العمياء للقوانين ، ولو أنهم عزموا عن المهام الجديدة في الجيش والحكومة .
ولكننا ، من جهة أخرى ، اذا تذكرنا التسامح التام الذى قوبل به مذهب
الشرك وتعدد الآلهة ، ذلك التسامح الذى آمن به الناس دون تفريق ،
وتذكرنا ارتياب الفلاسفة وعدم تصديقهم ، وسياسة السناتو والأباطرة
الرومان ، اذا استرجعنا كل أولئك في الذاكرة لوضعنا في حيرة من الأمر ،
ولساعلنا : أى ذنب جديد جناه المسيحيون ، وأى استفزاز جديد أسخط
وغاظ اللامبالاة الرفيعة القديمة ، وآية بواعث جديدة دفعت بالأمرء
الرومان الذين لم يلقوا يوما بالا الى الف من الديانات عاشت في سلام
في ظل حكمهم الوداع — دفعت بهم الى انزال اشد العقاب باى فريق
من رعاياهم اختاروا لأنفسهم لونا مريدا بريئا من العقيدة والعبادة ؟ .

ويبدو ان السياسة الدينية القديمة اتخذت موقفا اشد صلابه
وابعد عن التسامح ، لتقاوم تقدم المسيحية . وبعد نحو ثمانين عاما من

موت المسيح عوقب تلاميذه الأبرياء بالاعدام الذى أصدر الحكم به بروتقنصل وديع مولع بالفلسفة ، بناء على قوانين سننها امبراطور انسمت ادارته العلية بالحكمة والعدالة . وكما امتلأت صفحات الدفاع التى وجهت مرارا الى خلفاء تراجان بالشكاوى المحزنة المثيرة من ان المسيحيين الذين استجابوا لحرية الضمير وتوصلوا اليها ، حرموا وحدهم ، دون سائر رعايا الامبراطورية ، من المزايا المشتركة لحكومتهم السعيدة الموفقة . وسجلت بعناية ومائة مدد قليل من الشهداء البارزين . ومنذ الوقت الذى تسلمت فيه المسيحية مقاليد السلطة العليا ، لم يكن هناك الكنيسة اقل انشغالا وتيقظا الى الكشف عن قسوة مخالفها الوثنيين ، منهم بالاعتداء بهم فى سلوكهم . وسبيلنا فى هذا الفصل هو ان نستخلص (اذا امكن) قليلا من الحقائق الصحيحة والطريقة مما من الركاب غير المستساغ من الروايات والقصص والأخطاء ، وان نسرد بشكل واضح معقول ، اسباب الاضطهادات التى تعرض لها المسيحيون الاولون ومدادها ومدتها وأهم ظروفها .

وانه ليندر أن يكون اتباع الديانة المضطهدة ، الذين يتغلب الخوف مضاجعهم ، ويهيجهم الاستياء ، وربما يلهيهم الحساس — ينسدر أن يكونوا فى مزاج عقلى سليم ، يمكنهم من النقيب الهادئ أو التقدير الصادق لبواعث أمدائهم ، تلك البواعث التى كثيرا ما تغيب عن النظرات المتجردة الغامضة حتى لأولئك الذين يقفون فى مأمن وبمناى عن نيران الاضطهاد ، وقد ذكر لسلوك الأباطرة ازاء المسيحيين الاولين ، على وجه التحديد ، سبب يبدو أنه أكثر تمويهها واقرب احتمالا ، لانه مشتق من عبقرية الشرك المعترف بها . فقد كان المحوظ بالفعل أن الوثنام الدينى فى العالم كان يمززه فى الأساس القبول والاحترام الصريحان اللذان كانت تظهرهما الأمم القديمة كل منها نحو تقاليد الأخرى وطقوسها . ومن ثم كان من المتوقع أن تتحد كلها ، بلا حرج ولا غضب ، ضد أية طائفة أو شعب ينزع نفسه عن جهاة الجنس البشرى ، ويحتقر بالضرورة — بحكم آدمائه الملكية المطلقة للمعرفة الالهية — أى لون من العبادة باعتباره ضلالا ووثنية ، اللهم الا عبادته هو محسوب . وكانت المثابرة على رعاية حقوق التسامح مقابلته بنفس القدر . وكانت هذه الحقوق تضيق عند الامتناع عن دفع الجزية المعتادة . ولما كان اليهود وحدهم هم الذين امتنعوا بتاتا عن دفع هذه الجزية ، فان الباعث الذى حدا بحكام الرومان الى المعاملة القليلة منها منهم اليهود قد يوضح الى أى مدى تبرر الحقائق هذه التأملات ، وتؤدى الى الكشف عن الاسباب الحقيقية لاضطهاد المسيحية .

وسوف نشير فقط ، دون تكرار الى ما أسلفنا بالفعل نكره من اختراعات الملوك والحكام الرومان للهيكل في اورشليم ، الى ان ندين الهيكل والمدينة ، اقترنا ، كما أعقبهما ، بكل الظروف التي تغضب الفاتحين ، ويتيح الاضطهاد الديني بأشد ذرائع العدالة الاجتماعية والأمن العام تمويهها وخداعها . فبمذ عهد نيرون حتى عهد أنطونينوس بيوس أظهر اليهود ضجيرا جديدا بحكم روما ، تجلى مرارا في أعنف المذابح والثورات . وإن العالم لمصعق لدى سماعه بأفظح أعمال القسوة الرهيبة التي ارتكبوها في مدن مصر وقبرص وبرقة ، حيث عاشوا في صداقة غداة خائنة مع المواطنين غير المرتابين . وانفسا لنميل الى امتداح القصص الشديدة الرادع الذي أنزلته فرق الجيش بهذا العنصر من المتعصبين الذين يبدو أن خرافتهم (عقيدتهم) الشريرة الغريبة جعلت منهم أعداء الداء ، لا للحكومة الرومانية وحدها ، بل للجنس البشرى بأسره . وكان حماس اليهود يستند الى الرأي القائل بأن دفع الضريبة لسيد وثني أمر غير مشروع لديهم ، وإلى الوعد الموهوم الذي استقوه من الوحي القديم الذي لديهم ، بقرب ظهور المسيح الذي سيفتح العالم ، ويحطم أغلالهم ، ويخلع امبراطورية الأرض على أحبباء السماء المقربين . وقد أعلن باركوكيباس Barchochebas الشهير نفسه مخلصهم الذي طال انتظارهم له ، وأهاب بخزية ابراهيم أن يحققوا أمل اسرائيل ، وبهذا جمع جيشا كبيرا تحدى به سلطان الامبراطور هادريان لمدة عامين .

ورغم الانتفاضات المتكررة ، زال استياء الامراء الرومان بعد انتصارهم ، ولم تدم مخالفتهم لأكثر من فترة الحرب والخطر . وبفضل التسامح العام الذي تميز به مذهب الشرك ، وبفضل الطبع الرقيق المعتدل الذي تميز به أنطونينوس بيوس أعيدت لليهود امتيازاتهم القديمة ، ورخص لهم ثانية في ختان أطفالهم ، مسمي قيد بسيط واحد ، وهو عدم اجراء هذه العملية المميزة للبرانيين لأى مهتد أجنبي . وسبح للبقايا الكثيرة من هذا الشعب ، رغم انهم ظلوا بعيدين عن تخسوم اورشليم — بإنشاء المؤسسات الكبيرة أو الاحتفاظ بها في إيطاليا وفي الولايات . وبالحصول على حرية روما ، وبالتمتع بمزايا المدينة ، على أن يكون في نفس الوقت حق الاعفاء من مناصب المجتمع الثقيلة العباء الكثيرة النفقة . وهيا اعتدال الرومان أو احتقارهم لهذه الطائفة سندا قانونيا لإنشاء نوع من الشرطة المالية (الكنسية) وخول الحاكم الذي اتخذ مقره في طبرية ، سلطة تعيين القسس والحواريين التابعين له وأن يمارس القضاء المحلى ، وأن يتلقى من اخوانه المبشرين هنا وهناك

اعانات سنوية . وكثيرا ما شيدت هياكل جديدة في المدن الرئيسية في
الامبراطورية ، واقامت احتفالات مهية عامة في ايام السبت ، او لمناسبة
الصوم ، او الاعياد التي فزلت بها شريعة موسى ، او اوصت بها تقاليد
الأخبار . وهدأت هذه المعاملة الكريمة من طبع اليهود الحاد بطريقة
غير ملحوظة ، فلما افاقوا من علم النبوة والغزو نهجوا منهج الرعايا
المسلمين المجددين . أما كراهيتهم التي لا تهدأ للجنس البشرى ، فانها
بدلا من أن تقتد في أعمال العنف والدم ، استنفدت في أعمال اقل
خطرا . ولكنها أعمال تشيع رغباتهم . وانتهزوا كل فرصة للتفوق على
الوثنيين في التجارة ، وصبوا اللعنات الخفية الغامضة على مملكة
ايدوم (Edom ، أى الدولة الرومانية) المتغطرة .

واذ تمتع اليهود الذين نبذوا في مقت واحتقار معبودات ملوكهم
وأقربائهم من الرعايا ، بالحرية في ممارسة ديانتهم الانعزالية غير
الاجتماعية على أية حال ، فلا بد أنه كان يوجد سبب آخر عرض تلايد
المسيح لأعمال القسوة التي أعفيت منها ذرية ابراهيم . والفرق بينهما
بسيط جلى ، ولكنه كان وفقا لمقاييس الأقدمين أو مشاهيرهم ، على أعظم
جانب من الأهمية ، ذلك أن اليهود كانوا أمة ، ولكن المسيحيين فرقة
أو شيعة . وإذا كان طبيعيا أن تحترم كل جماعة النظم المقدسة
لجيرانها ، فانه كان لزاما عليهم أن يبقوا على ملة آبائهم . ولقد فرض
صوت الوحي وتعاليم الفلسفة وسلطان القانون بالاجماع ، هذا الالتزام
الوطني . وربما أثار اليهود بادعائهم المريض تفوقهم في الطهارة
والقداسة ، حفيظة المشركين فاعتبروا اليهود جنسا كريها مقيوتا
غير نقي ، وربما كان اليهود جذيرين بهذا الاحتقار نتيجة ترفعهم عن
الانصال بالأمم الأخرى . وربما كانت قوانين موسى مستهجرة أو عابثة ،
ولكن طالما تلقاها على مر الأجيال مجتمع كبير ، فقد كان لاتباع موسى
في بنى الانسان أسوة ، وفيما أقروه عامة سند ، يبران حقهم في
ممارسة ما قد يكون اجراها منهم أن يهلوه . ولكن هذا البدأ الذي
حمى كنيس اليهود لم يقدم للكنيسة في صدر المسيحية أية رعاية أو
أمن . بل أن المسيحيين باعقنائهم رسالة الانجيل جلبوا على أنفسهم
الوزر المزعوم ، وزر جريمة غير طبيعية لا تفتقر : أنهم حلوا روابط
العرف والتعاليم المقدسة ، وانتهكوا حرمة النظم الدينية في بلدتهم ،
واحتقروا في جرأة ووقاحة كل ما آمن به آبائهم على أنه حق أو بجلوه
على أنه مقدس . كما أن هذه الردة (إذا جاز أن نستعمل هذه اللفظة)
لم تكن جزئية أو محلية ، لأن المرتد التقى الذي كان ينسحب من معابد
مصر وسوريا كان يستنكف أن يلتبس ملجأ في معابد أثينا وقرطاجنة .

ونبذ كل مسيحي ، في أزفراء ، خرافات عشيرته ومدينته وولايته ، ورفض جمهور المسيحيين عامة أى ارتباط بآلهة روما أو الإمبراطورية ، بل بمعبودات الجنس البشرى بأسره . وعينا أكد المؤمن المغبون حقوق الضمير والرأى الخاص التى هى وقف على كل فرد . ومهما دعا موقفه الى الاشتياق ، فان حججه لم تنفذ الى عقول الفلاسفة أو المؤمنين فى دنيا الاوثان . بل ان اعتناق بعض الأفراد للشكوك بدلا من الامتثال للون العبادة المقررة ، لم يثر فى عقولهم دهشة اقل منها غيما لو وقعت عيونهم فجأة على كراهية للعبادات والزى واللغة فى وطنهم .

وسرعان ما تحولت دهشة الوثنيين الى سخط واستياء . وتعرض أنقى الناس للاتهام الجائر ولكنه الخطير ، أى الكفر والالحاد . واجتمع الحقد والتعصب على تصوير المسيحيين على أنهم مجتمع من الكفار الذين استقوا — لهجومهم البالغ على الدستور الدينى للإمبراطورية — أعنف سخط من الحكومة المدنية ، فانهم ناوا بأنفسهم (وكم طرب المسيحيون لهذا الاعتراف !) عن كل لون من ألوان الخرافة رحب به لهم لمريق من أثبة الشرك فى مختلف أقطار الأرض ، كما انه لم يتضح قط أى معبود واية عبادة استبدلوها بمعبودات القدماء ومعبودهم . ولقد غابت الفكرة النقية السامية — فكرة « **الكائن الأعظم** » عن الإدراك البليد لدى جمهور الوثنيين الذين حاروا فى العثور على اله روحى اهد ، لا يتكلم فى صورة مجسدة أو رمز مرئى ، ولا يعبد بالآبهة المعهودة فى سكب الخبر والأعياد والمذابح والقرايين . ان حكماء اليونان وروما الذين سموا بعقولهم الى مرتبة التأمل فى الوجود وفى صفات « **الكائن الأول** » قد أغراهم ادراكهم السليم أو زهوهم بأن يحتفظوا لأنفسهم وللصفوة من تلاميذهم بامتياز هذا النسك الفلسفى . وكانوا أبعد ما يكونون عن اقرار أهواء بنى الانسان على أنها مقياس الحقيقة ، ولكنهم اعتبروها مثبتة من النزعة الأصلية فى الطبيعة البشرية ، وذهبوا الى أن أى لون مألوف من العقيدة أو العبادة ، رغم التنصل من مساعدة الهواس ، لا بد انه ، بنسبة ما يتنحى عن الخرافة — سيجد نفسه عاجزا عن الحد من شطحات الخيال أو أشباح التعصب . ان النظرة الوانية المستهزئة التى تغفل رجال العقل والعلم بلفائنها على الوحي المسيحى لم تجد الا فى توكيد رأيهم المتسرع واقتناعهم بأن المبدأ الذى كان يمكن أن يحترموه ، مبدأ « وحدانية الله » قد شوهته حماسة الطوائف الجديدة ، وأطاحت به تأملاتهم الخيالية . وانك لترى مؤلف الحوار المشهور ، الذى نسب الى لوشيان ، حين يتظاهر بمعالجة موضوع « التثليث » الغامض فى أسلوب من التفسير والتحقيق — تراه

يفضح جهله بضعف الادراك الانساني ، وبالطبيعة العويصة التي لا يمكن ادراك كنهها ، طبيعة الكمال الالهى .

وقد يبدو أقل اثارة للدهشة انه يجب على تلاميذ مؤسس المسيحية الا يوقروه بوصفه حكيمًا ونبيًا محسوبًا ، بل كذلك يعبدوه على انه اله ، وكان المشركون يميلون الى اقتباس أى ركن من أركان العقيدة قد يحمل أى شبه ، مهما كان بعيدا أو ناقصا ، بالخرافات المألوفة أو بإسماعير ياخوس ، وهرقل ، واسكولابيوس Aesculapius هيات خيالهم بشكل ما لظهور « ابن الله » فى صورة انسان ، ولكنهم تولاهم العجب من هجر المسيحيين لمعبود هؤلاء الأبطال القدامى الذين اكرموا فى بداية الدنيا الفنون وسنوا القوانين ، وقهروا الطفلة والمردة الذين أزعجوا الأرض ، من أجل أن يختاروا لهدمهم الوحيد المطلق للمعبادة الدينية محلها مغورا ، وقع فى سن مبكرة ، وسط شعب متبرير ، ضحية لضغن بنى جلدته أو حقد الحكومة الرومانية . ورغم جهور الوثنيين الذين رأوا الاحتفاظ بمزايا الحياة الدنيا وحدها ، رفضوا نعمة الحياة والخلود ، تلك النعمة التى تفوق حق التقدير التى وعد بها يسوع الناصرى جميع البشر . ولم يكف ثباته الهادئ وسط الآلام الرهيبة الاختيارية ، وبره العلم الشايل وبساطته الرائعة فى عمله وفى خلفه — لم يكف كل أولئك فى نظر هؤلاء الرجال الدنيويين الماديين ليعموض عن امتقاده الشهرة والملك والنجاح ، وبينما رفضوا الاعتراف بانتصاره الهائل على قوى الظلام وقوى الدمار ، نراهم حرموا ، أو احتقروا ، المولد المبهم للبشرى الالهى المسيحية وحياته المتجولة ، وميتته الشائنة .

ولقد بولغ الى أقصى حدود المبالغة فى الجرم الذى ارتكبه كل مسيحي فى ايثاره ماطفته الخاصة على الديانة الوطنية ، وجاءت هذه المبالغة نتيجة لتعدد المجرمين واتحادهم . ومن المعروف جيدا ، وقد لاحظ بالفعل ، أن السياسة الرومانية كانت تنظر بأشد التلق والريبة الى أية رابطة تقوم وسط رعاياها ، وكانت الامتيازات تمنح للهيئات الخاصة فى أضيق الحدود ، وفى تقدير شديد رغم أن الهيئات كانت ذات أهداف خيرة بعيدة عن الأذى والضرر . ولكن الجمعيات المسيحية التى انفصلت عن العبادة العامة الشائعة بدت ذات طبيعة أقل براءة . فقد كانت غير مشروعة من حيث المبدأ ، وربما باتت خطيرة من حيث العواقب ، ولم ير الأباطرة انهم انتهكوا حرمة قوانين العدالة حين حرموا — حرصا على سلامة المجتمع — هذه الاجتماعات السرية والليلية أحيانا . لقد

عكس تهرؤ المسيحيين التقى الورع على سلوكهم ، أو ربما على خططهم ، ضوءا بدا للناظرين منفرأ بخطر أشد وأجرام أذح . وفى بعض الأحيان حاول الأمراء الرومان — الذين أجازوا لأنفسهم أن يلقوا بسلاحهم ، اذا ما رأوا الاستعداد للتسليم والانتقاد ، مقتدين أن شرفهم متعلق بتنفيذ أوامره — حاولوا بالعقوبات الرادعة أن يخضعوا هذه السروح الاستقلالية التى اعترفت فى جرة ، بساطان يسمو على سلطان الحاكم . وبدأ أن اتساع مدى هذه المؤامرة الروحية واستطالة مدتها ، جعلها يوما بعد يوم أحق بلومه وسخطه . ولقد رأينا بالفعل كيف أن غيرة المسيحيين الجادة الموقفة قد أدت الى انتشارهم ، بشكل غير ملحوظ ، فى كل ولاية ، بل على الأقلب فى كل مدينة فى الإمبراطورية . وبدأ أن المهتدين الجدد انكروا عشيرتهم وبلدهم حتى يندمجوا فى عصابة موحدة لا تنفصم عراها ، تشكل مجتمعاً خاصاً معيناً اتخذ فى كل مكان طابعا مغايراً لساير البشر . وأدخل مظهرهم العبوس المتشدد ، وعزوفهم عن الأعمال والمباهج المشتركة فى الحياة ، وتنبؤاتهم الكثيرة بالبلايا المحدقة — كل أولئك ، أدخل فى روع الوثنيين توجس الخيفة من خطر ينجم من هذه الطائفة الجديدة التى هى أشد إزعاجا كما أنها أشد غموضا . وكما قال بلىنى « مهما يكن من أمر المبدأ الذى يحكم سلوكهم ، فإن عنادهم الذى لا يلىن ولا ينثنى بدا جديرا بالعقاب » .

وأملى الخوف والضرورة ، فى البداية ، تلك الاحتياطات التى لجأ اليها تلاميذ المسيح فى إقامة شمائر دينهم ، ولكنهم استمروا عليها طواعية واختيارا . وتوهم المسيحيون أنهم — باقتنائهم بالكتبان العجيب الذى كان يحوط « الأسرار الأليوسية Eleusinian Mysteries » (احتفالات دينية كانت تقام فى الربيع قديما بمدينة اليوسيس فى اليونان) — قد يضمنون على نظمهم المقدسة مزيدا من الاحترام فى أعين العالم الوثنى . ولكن هذا التصرف — كما يحدث غالبا فى عمليات السياسة الحاذقة — خدع أمانتهم وآمالهم . فقد استنتج أنهم إنما حجبوا فقط عن الأنظار كل ما كان يجدر أن تحمر وجوههم خجلا لأخفائه . فإن غطنتهم قد هيات الفرصة للحقد أن يفترع ، وللشذاجة المرتابسة أن تصدق تلك القصص الشنيعة التى نعتت المسيحيين بأنهم أشر البرية ، وأنهم كانوا فى خلواتهم المظلمة ياتون من المفكرات ما يزينه لهم اعط الخيال ، ويلتمسون رضا الهمم المجهول عن طريق التضحية بكل فضيلة أخلاقية . وكان ثمة كثيرون ممن ادعوا الاعتراف بطقوس هذا المجتمع البغيض أو سرد أنبيائها . فقل على وجه التأكيد أن « طفلا حديث الولادة مغطى تماما بالدقيق ، كان يعرض — وكأنه رمز روحانى للدخول

في الأخوية المسيحية — لسكين المهتدى الجديد الذي يهوى به فينخن على غير هدى الضحية البريئة لخطاياهم بكثير من الجروح الخفية القتلة ، حتى اذا ما انتهى من ارتكاب هذا العمل القسسى ، شرب المجتمعون الدم ، ومزقوا الاوصال المرتعدة في شره ونهم ، وتعاهدوا على كتمان السر الى الأبد ، شاعرين شعورا متبادلا بالذنب . كما قيل بنفس القدر من التاكيد ، ان هذه التضحية غير الانسانية كان يحقبها حفل لائق تلعب الخمر فيه برعوسهم وتؤفظ الشهوة البهيمية الجامحة بين ضلوعهم حتى اذا حانت اللحظة المقررة اطلقت الانوار بجأة ، وخلصوا عذار الحياء وتناثروا الطبيعة ، واختلط الحابل بالنابل ، ولوثوا سبوك الليل بارتكاب أشنع الفواحش : الاخوة مع الاخوات . والأبناء مع الأمهات « (١) » .

ولكن قراءة الدفوع القديمة كانت كافية لازالة حتى اتفه الشكوك من ذهن الخصم المنصف العادل . ومن ثم يعمد المسيحيون — في اطمئنان جرىء الى براءتهم — الى الاستعانة من ظلم الشائعات بانصاف الحكام ، فيقررون أنهم يكونون جديرين بأشد العقاب . اذا أقيم أى دليل على الجرام التى ألصقتها بهم الوشائيات ، انهم يتعجلون العقاب . ويتحدون البيئة ، وفي نفس انوقت يعترضون بشدة ، وبفلس القدر من الصدق واللياقة ، بأن الاتهام ليس اقل بعدا عن الاحتمال ، منه تجردا من الحجة والبرهان ، ويتسائلون عما اذا كان هناك من يصدق أن تعاليم الانجيل النقية المقدسة التى غالبا ما تحد من التمتع بأكثر المتع مشروعية ، تصرف الذهن الى اقتراح أبغض الآثام ، وأن سجنهما كبيرا يعمد الى تلطيع شرفه فى أعين أعضائه ، وأن جمعا كبيرا من الجنسين من مختلف الاعمار والأخلاق ، لا يتأثر بالخوف من الموت أو الشهيدة ، فينزهك حرمة المبادئ التى نقشتها الطبيعة والتعليم فى عقولهم مثل النقش فى الحجر . وقد يبدو أنه ليس ثمة شىء يمكن أن يضعف من قوة أو من أثر مثل هذا التبرير الذى لا يستطيع نقضه ، اللهم الا السلوك الفرير لأولئك المدافعين الذين خانوا قضية الدين ، ارضاء لبغضهم المروع لأعداء الكنيسة المحيطين . وقيل — تلميحا دليفا تارة ، وتوكيدا جريئا تارة أخرى — ان هذه الضحايا الدهوية

(١) لسا فى حاجة الى القول بأن هذا وراء بفع صورة خيال دنىء كافر بالقيم الانسانية ، وربما كان فحش بالوثنية ، والمسيحية منه براء بلا ريب . وكما كانت المسيحية والاسلام من ايذاء الملحدن بالقول والعمل . وقد اثبتناه لمجرد الامانة فى النقل . (المترجم)

وهذه الأعياد الفلحشة ، التي نسبت زورا ويهتانسا الى المؤمنين الأرثوذكس - كان يحتفل بها الماركيونيين Marcionites والكريكراتيون Carpocratians وغيرهم من شيع الغنوصيين (اللا أدريين) الذين كانوا لا يزالون يتأثرون بمشاعر المسيحيين ، وتحكمهم تعاليم المسيحية ، رغم أنهم ربما انزلقوا الى مهلوى الهرطقة . كما الصق بالكنيسة اتهامات من مثل هذا النوع جماعة المنشقين الذين انفصلوا عنها ، وقد اعترف في جميع الأحوال بأن أشد السلوك مجورا. كان يسود الأنواج الكبيرة التي تظاهرت باعتناق المسيحية . وربما سهل على الحاكم الوثني الذي لم يؤث فسحة من الوقت أو شين من القدرة على تبين الخط الطفيف غير المحسوس الذي يفصل بين الصراط المستقيم وبين الهرطقة - سهل عليه أن يتصور أن البغضاء المتبادلة بينهم هي التي أزاحت الستار عنوة من جرائمهم المشتركة . وكان من حسن حظ المسيحيين الأولين - من أجل طمأنينتهم ، أو على الأقل سبعتهم - أن تصرف الحكام اتسم أحيانا بيزيد من اللياقة والاعتدال أكثر مما يتأتى مع الخبرة الدينية ، وقالوا - كنتيجة متجردة غير متحيزة لتحرياتهم القانونية - أن الطوائف التي تخلت عن العبادة القائمة بدت لهم مخرصة في عقائدها ، وأنه لا خيار على سلوكها ، مهما تعرضت لمؤاخذة القانون بخرافتها المسرفة ألقاء .

موقف الإباطرة من المسيحيين

إن التاريخ الذي يأخذ على ملته تسجيل أحداث الماضي لتكون عبرة وتوجيها للأجيال القادمة ، لا يستحق شرف هذه المهمة ، إذا تنازل مدافع من قضية الطغيان ، أو برر منهج الاضطهاد . ومهما يكن من أمر ، فإنه يجب الاعتراف بأن سلوك الإباطرة الذين بدا أنهم اظهروا أقل العطف على الكنيسة الأولى ، ليس ، بأي حال من الأحوال ، في مثل القدر من الاجرام الذي يقسم به سلوك الملوك الحديثين الذين استخدموا وسائل العنف والارهاب ضد الآراء الدينية التي اعتنقها بعض رعاياهم . وربما اكتسب ملك مثل شارل الخامس أو لويس الرابع عشر ، بوحى من تأملاتهم أو من مشاعرهم الخاصة ، مبررة صادقة بحقوق الضمير أو بالتزامات العقيدة ، أو ببراءة الخطأ . ولكن أمراء روما القديمة وحكامها كانوا غريباء على هذه المبادئ التي ألهمت وعززت عناد المسيحيين الذي لا يلين ، في قضية الحقيقة ، كما أنهم هم أنفسهم لم يستطيعوا أن يتبينوا في أعماق صدورهم أى باعث كان من

الجائر أن يدفعهم الى رفض الخضوع المشروع ، بل الطبيعى ، للنظم المقدسة في بلادهم ، وكان نفس السبب الذى يساهم في تخفيف جريمة اضطهاداتهم ، لا بد وأنه اتجه الى الحد منها . ولما كانوا يصدرون ، لا عن غير المتعصبين العنيفة ، بل عن سياسة المشرعين المعتدلة فلا بد أن العصيان كثيرا ما أرحى ، وأن الروح الانسانية الطيبة غالباً ما عطلت تنفيذ تلك القوانين التى سنوها ضد أتباع المسيح الإذلاء المغمورين . وطبيعى أن نخلص من النظرة العامة الى اخلاقتهم وبيواتهم الى :

١ — أنه قد مضى زمن طويل قبل أن يتبينوا أن الطائفة الجديدة تستحق اهتمام الحكومة .

٢ — وأنهم في ادانة أى من رعاياهم الذين اتهموا بمثل هذه الجريمة الشاذة ، تصرفوا في حذر وعلى كره منهم .

٣ — وأنهم كانوا معتدلين في استخدام العقوبات .

٤ — وأن الكنيسة المنكوبة نعمت بفترات كثيرة من السلام والهدوء . وعلى الرغم من الاستهتار المقيم المهمل الذى مالح به أغزر الكتاب الوثنيين مادة ، وكذا أدقهم في التفاصيل في شئون المسيحيين ، فإنه سيظل في مكنتنا أن نثبت كل واحد من هذه الفروض المحتملة بشواهد من الحقائق الصادقة الصحيحة .

١ — اقتضت حكمة « العناية الالهية » أن تسدل على طفولة الكنيسة الأولى حجاباً غامضاً ، أطلع — حتى اشتد عود العقيدة المسيحية وزاد عدد المسيحيين — في وقايتهم ، لا من شر دنيا الوثنية نحسب ، بل حتى مجرد معرفتها بهم . فقد زود الالفاء المتخرج الثانى للطقوس الموسوية أول الداخلين في شريعة الانجيل بقناع آمن برىء ، ولما كان معظمهم من عشيرة ابراهيم ، فانهم تميزوا بتلك العلامة الخاصة وهى الختان ، وقاموا بعباداتهم في معبد اورشليم حتى دمر تدميراً نهائياً ، وتقبلوا « الشريعة » والرسل على ان الجميع تنزىل أصيل من عند الله . أما الأمميون المتحولون الذين كانوا قد ارتبطوا بأمل اسرائيل نتيجة اختيار روحى ، فقد كان يصعب تمييزهم ، وهم في رى اليهود ومظهرهم ، ولما كان اهتمام المشركين بأركان العقيدة أقل من اهتمامهم بالمظاهر الخارجية للعبادة ، فإن الطائفة الجديدة التى اخذت في عناية تامة ، أو أعلنت اعلاناً خافتاً عن عظمتها وأطماعها المستقبلية ، سمح لها أن تظلل نفسها بظل التسامح العام الذى كان مفوحاً لشعب قديم

مشهور في الامبراطورية الرومانية . وربما لم يمض وقت طويل قبل ان يدرك اليهود أنفسهم ، وقد تملكهم غيرة اشد ضراوة ، واثارهم ايمان اشد حثا ، ان اخوتهم النصارى ينفصلون تدريجا عن عقيدة الكنيس اليهودي ، وربما طاب لهم ان يطفئوا نيران هذه الهرطقة الخطيرة بجهاء اتباعها ! ولكن قضاء السماء احبط كيدهم . ورغم انهم عمدوا في بعض الاحيان الى التمرد المفاجيء ، فانهم لم يعودوا يملكون زمام القضاء الجنائي ، كما لم يكن من السهل عليهم ان ينفثوا في مصدر الحاكم الروماني الهادي سخائم غيرتهم وكراهيتهم . واعلن حكام الولايات انهم على استعداد للاستماع الى اى اتهام من شأنه ان يضر بالسلامة العامة . ولكنهم حالما كانوا يعرفون ان المسألة مسألة كلام ، لا حقائق ، ونزاع حول تفسير شرائع اليهود ونبوءاتهم ، كانوا يعتبرون انه لا يليق بمكانة روما وعظمتها ان يبحثوا بحثا جديا في الخلاصات الغامضة التي قد تنشأ بين شعب متبرير يؤمن بالخرافات . وكانى بالجهل والاحتقار كانا يحميان براءة المسيحيين الاولين . وكثيرا ما ثبت ان قضاء الحاكم الوثني كان خير عاصم لهم من غضب الكنيس اليهودي . ولو كنا ننجح حقا الى تبني تقاليد القدامى السذج الاغرار ، لسردنسا الجولات النائية والمنجزات المعجبية التي قام بها الرسل او الحواريون الاثنا عشر ، والمينة المختلفة التي لقيها كل منهم ، ولكن الاستقصاء الذي هو اكثر دقة قد يدفع بنا الى الارتياح في أن واحدا من هؤلاء الأشخاص الذين كانوا شهودا على معجزات المسيح ، قد أذن له فيما وراء حدود فلسطين أن يؤكد ببصمات من دمه صدق شهادته (١) . ومن الطبيعي ان نفترض ، تبعا للأجل العادي لحياة الانسان ، انهم قضوا نحبهم قبل ان ينفجر سخط اليهود في تلك الحرب الضروس التي لم يضع لها حدا الا تدمير اورشليم . فاننا طوال هذه الحقبة الطويلة التي انتقضت بين موت المسيح وبين هذه الثورة المشهودة لن نستطيع ان نتبين اى آثار لتشدد الرومان او عدم تسامحهم ، اللهم الا في هذا الاضطهاد المفاجيء العابر ، ولكنه كذلك القاسي ، الذي اذاته نثرون للمسيحيين في العاصمة ، بعد خمس وثلاثين سنة من سابقه ، وقبل عامين من ثاني هذين الحدثين الجسميين ، وان شخصية المؤرخ الفيلسوف الذي ندين له بالتعرف على هذا العمل الشاذ ، لتكفى وحدها لتجمله اهلا لحراستنا الواعية .

(١) انصر شرف الاستشهاد في أيام ترتوليان وكليمز السكندري على القديس بطرس والقديس يولس والقديس يوحنا . وقد أسبغ هذا الشرف على بقية الرسل الاغريق الذين هم احسن عهدا ، والذين اختاروا قلعة وحرسا منهم ، بلدا نائيا عن حدود الامبراطورية الرومانية ليكون مسرحا لعظمتهم والامهم .

ففى السنة العاشرة من حكم نيرون اصبحت العاصمة بحريق اندلع فى شدة لم يعرف لها فى التصور الخوالى نظير أو مثال . ولم تنج من الدمار الشامل آثار من اليونان وقوة الرومان والانصاب التذكارية لحروب البلوبونيز والغال ، وأقدس المعابد ، وأفخم التصور . ومن الأحياء الأربعة عشر التى كانت تضمها روما ، سلم أربعة فقط ، وبكى منها ثلاثة محوا تماما أما الأحياء السبعة الباقية التى تطلت فى سسمير النيران ، فقد كشفت عن منظر مفرج حزين للخراب والوحشة . ولا يبدو أن نقطة الحكومة لم تغفل اتخاذ أية احتياطات لتخفف من أثر هذه الكارثة الرهيبة . ففتحت الحدائق الإمبراطورية أبوابها للمجموع المنكوبة ، وشيدت بعض المباني المؤقتة لايوائهم ، ووزعت كميات كبيرة من الفصح والمؤن بأسعار معتدلة . وبدا أن أكرم سياسة قد أملت القوانين التى حددت فتح الشوارع وإقامة المساكن الخاصة — وكما يحدث عادة فى أيام الرخاء — وأنتج حريق روما فى بضعة سنين قلائل ، مدينة جديدة ، أدق نظاما وأوفر جمالا من سابقتها . ولكن كل الفطنة والروح الإنسانية اللتين تظاهرا بهما نيرون لم تنقذه من شكوك الشعب ، فإن أية جريمة يمكن أن تلصق بقائل زوجته وأمه ، كما يستحيل الظن بأن الأمير الذى أساء الى شخصه وإلى مكانته يعجز عن ارتكاب أشنع الخطايا . وانتهت الاثنا ساعات الإمبراطور بإحراق عاصمته عمدا ، ولما كانت أبعد القصص من التصديق هى التى تلثم أكثر ما يكون الاتهام مع عبقرية الشعب فى سورة فضبه ، فقد ذكر فى أسلوب جاد لا هز فيه كما ساد الاعتقاد الجازم الراسخ ، بأن نيرون الطروب للكارثة التى أحدثها ، تسلى على قبحته بانتسودة تدمير طروادة القديمة . وصمم الإمبراطور على الصلق التهمة ببعض المجرمين الوهميين ليحول عن شخصه الشبهة التى مجزت قوة الاستبداد عن القضاء عليها . ويتابع تاسيتس حديثه فيقول : « وعلى هذا الأساس أنزل (نيرون) أشد ألوان العذاب بهؤلاء الرجال الذين كانوا — تحت اسم المسيحية القبيح (فى رأى نيرون) — قد وصموا فعلا بأشنع العار ، فقد اثبتوا اسمهم ونشأتهم من المسيح الذى لقي حتفه فى عهد تيبيريوس ، على يد نائب الحاكم بيلاطس البنطى . وأخذت هذه الخرافة المروعة لفترة قصيرة ، ولكنها ما لبثت أن انتشرت وذاعت ، لا فى أرض الميعاد وحدها ، وهى الموطن الأول لهذه الطائفة الشريرة ، بل كذلك وصلت الى روما ، وهى الملاذ العام الذى يتلقى ويحوى كل ما هو ملوث مهما كان تلوثه ، وكل شيء مظلم مهما بلغت فظاعته . وكشفت اعترافات المقبوض عليهم عن شركساء كثيرين لهم ، وأدينوا جميعا ، بتهمة كراهيتهم للجنس البشرى ، أكثر منهم بنهمة ائتمال

النار في المدينة . وعذبوا حتى ماتوا ، وزاد السلب والسخرية من
مرارة التعذيب . ودق بعضهم بالمسايير على الصلبان ، وخيط آخرون
في جلود الحيوانات المتوحشة ، وتركوا لنهم الكلاب ، وصب على بعضهم
مواد محرقة ، وأوقدت فيهم النار ، واستخدموا كمشاعل تضيء حلقة
الليل . وخصصت حدائق نيرون للمشهد الحزين الذي صاحبه سباق
الخليل ، والذي شرف بحضور الإمبراطور الذي اختلط بالشعب في زى
وهيئة قائد عجلة حربية . واستحقت جريرة المسيحيين في الواقع أقسى
عقاب يكون فيه عبرة لغيرهم ولكن المقت العام تحول الى أشفاق ،
استنادا الى أن التضحية بهؤلاء الأتقياء التعساء لم تكن من أجل
المصلحة العامة قدر ما كانت لقسوة الطاغية الحقود . وقد يلحظ
كل الذين يستعرضون ثورات الجنس البشرى بنظرات خاصة مدققة
أن حدائق وملعب نيرون في الفاتيكان ، تلك التي لطخت بدم المسيحيين
الأولين قد ازدادت شهرتها بانتصار الديانة المضطهدة وبسوء
استغلالها . غنى نفس البقعة . ومن ذاك العهد ، أقيم معبد يفوق
الروعة التدنية للكابيتول بكثير ، أقامه أحيار المسيحية الذين استبدوا
دعوى ملكية العالم من صائد السمك المتواضع في « الجليل » فاعتلوا
عرش القياصرة ، وسنوا القوانين لغزاة روما المتبريرين ، وبسطوا
ولايتهم من ساحة البلطيق الى شواطئ المحيط الهادى .

وقد لا يكون من اللائق أن نترك اضطهاد نيرون دون ابداء بعض
ملاحظات قد تكون مفيدة في تذييل بعض المشاكل التي اقترنت به ،
والقاء بعض الضوء على التاريخ اللاحق للكنيسة .

(١) ان أكثر النقاد تشككا مضطر الى احترام صدق هذه الحقيقة
الشاذة ونزاهة هذه القطعة المشهورة التي كتبها تاسيتس . أما الحقيقة
فقد أكدها سويتونيوس Suetonius اليقظ الدقيق الذي أورد ذكر
العقوبة التي أنزلها نيرون بالمسيحيين ، وهم طائفة من الناس اعتنقوا
خرافة (عقيدة) جديدة آتية . أما النزاهة فقد تثبتت مطابقة الحقيقة
لأقدم المحفوظات ، والخاصية الفريدة المنقطعة النظير لأسلوب تاسيتس ،
وسبعته التي حصنت كتاباته ضد دس الاحتيال الورع ، وغوى روايته
التي اتهمت المسيحيين الأولين بأبشع الجرائم دون الإيعاز بأنه كانت لهم
قوى معجزة أو حتى سحرية تفوقوا بها على سائر البشر .

(ب) ورغم أنه يحتمل أن يكون تاسيتس قد ولد قبل حريق روما
ببضع سنوات قلائل ، فإنه كان من الميسور له من قراءاته وأحاديثه

أن يستقى معلوماته عن حادث وقع في طفولته . وكان قبل أن يظهر للناس وينبع هيئته بينهم ، قد انتظر في هدوء وسكون حتى بلغت مبعريته ذروة النضج ، وكان قد جاوز الأربعين من عمره حين انصبت مع التقدير والامتنان لفكريات أجريكولا الفاضل ، وانفتح منه أولى البواكير التاريخية في مؤلفاته التي قد تطيب لأبعد الأعقاب والذرائر مطالعتها ، والتي تثقف هؤلاء الأعقاب والذرائر . وبعد أن امتحن قوته وقدرته في تدوين حياة أجريكولا ، وفي وصف ألمانيا ، فكر في النهاية في إنجاز عمل أكثر مشقة ، هو « تاريخ روما » في ثلاثين جزءا ، من سقراط نيرون إلى اعتلاء روما العرش . وبدأ بحكم روما عصر من العدالة والازدهار ، خصصه تاسيتس ليكون شغله الشاغل أيام شيخوخته ، ولكنه لما دقق النظر في موضوعه — وربما ارتأى أن تسجيل مساوئ الطغاة السابقين مهمة أكثر شرفا وأقل إثارة للحسد والبغضاء من تمجيد فضائل الملك الحاكم — اختار أن يسرد على هيئة حوليات — أعمال الخلفاء الأربعة المباشرين لأوغسطس . وكان جمع سلسلة تغطي ثمانين عاما وتبويبها وتدبيجها في مؤلف خالد ، تنوء كل عبء عليه بأصق الملاحظات وأروع الصور — كل أولئك كان عبئا كاثيا لاستنفاد مبعرية تاسيتس نفسه في الجزء الأكبر من حياته . وفي أخريات حكم تراجلان حين بسط الملك الظافر سلطان روما فيها وزراء حكومتها القديمة ، كان المؤرخ يصف طغيان تيبريوس في الكتابين الثاني والرابع من حولياته ، ولابد أن الإمبراطور هادريان كان قد تنبأ العرش قبل أن يتمكن تاسيتس — في المدى الطبيعي لإنجاز عمله — من رواية حريق العاصمة وقسوة نيرون ضد المسيحيين التمساء . وكان من واجب كاتب الحوليات ، وقد مضى على حادث الحريق ستون عاما أن يقتبس رواية المعاصرين ، ولكن كان من الطبيعي أن ينصرف الفيلسوف إلى وصف نشأة الطائفة الجديدة وتقدمها وأخلاقتها ، على ألا يستند إلى معلومات عصر نيرون وما ساد من آراء متخيزة ، فقد استنفاده إلى عصر هادريان .

(ج) وكثيرا ما يترك تاسيتس لفضول قرائه أو تأملهم ، مهمة استيفاء الظروف أو الأفكار الوسيطة أو المتداخلة التي ارتأى هو في إنجازها المخل أنه من الأليق كتمانها . ومن ثم قد نجترىء فنتصور سببا محتملا لقسوة نيرون ضد المسيحيين في روما ، الذين كان ينبغي أن يكون لهم من غموضهم وبراعتهم سياج يحميهم من سخطه ، بل من علمه بوجودهم . على حين كان اليهود ، وهم كثرة في العاصمة ، وهم يقاسون الظلم ألوانا في بلدهم ، أكثر أهلية لأن يكونوا هدفا لشكوك

الامبراطور والشعب ، كما انه لم يكن من غير المتوقع لامة مقهورة
 اكتشفت بالفعل مفتها للنير الروماني ، ان تعتمد الى ايشع الوسائل
 لأرضاء شهوة الانتقام المتقدة في قلوبهم . ولكن اليهود كانوا يملكون
 ناصية دفاع قوى جدا في القصر ، بل حتى في قلب الطاغية ، أعنى زوجته
 ومحظيته ، بوبيا Poppea الجميلة ، ولعب أثير من قوم ابراهيم ،
 استخدما بالفعل شفاعتهما لمصلحة الشعب الكريه . وكان لزاما ان تقدم
 بدلا من هذا الشعب اية ضحايا أخرى . وكان من أيسر اليسير ان
 يقال — رغم براءة الاتباع الأصلاء لشريعة موسى من وزر حريق روما
 — انه قد ظهرت بينهم طائفة جديدة خبيثة من أبناء الجيل ، فئة قادرة
 على اقتراف ايشع الجرائم . واختلط تحت اسم « الجليليين » (أبناء
 الجليل) طائفتان متميزتان من الناس ، تختلف الواحدة منهما عن الأخرى
 كل الاختلاف في سلوكها ومبادئها : التلاميذ الذين اعتنقوا عقيدة يسوع
 الناصرة — والمتعصبون الذين اتبعوا مذهب يهوذا الجليلي ، وكان
 الأولون أصدقاء الجنس البشري ، والآخرين أمداءه . ويتركز الشبه
 الوحيد بينهما في الجلد الذي لا ينفنى ، الذي جعلهم لا يتأثرون بالموت
 أو التعذيب في دفاعهم عن قضيتهم . ولم يلبث أتباع يهوذا الذين حركوا
 بنى جلدتهم الى التمرد والعصيان — لم يلبثوا ان دفنوا تحت أنقاض
 اورشليم ، بينما انتشر أتباع يسوع الذين عرفوا بالاسم الأكثر شهرة :
 « المسيحيون » في مختلف أرجاء الامبراطورية . فكم كان طبيعيا ان
 ينسب تاسيتس ، في عصر هادريان ، الى المسيحيين جرائم وآلما كان
 يمكن ان ياصفها ، بدرجة أكبر من الصدق والعدل ، بطائفة كادت ان
 تخبو ذكراها المقتبة ! .

(د) ومهما كان الرأي في هذا الحديس والتخمين (لأنه لا يعدو
 ان يكون كذلك) فمن الواضح ان اثر اضطهاد نيرون ، مثله في ذلك
 مثل سببه — لم يعتمد جذرا في روما ، وان عقيدة الجليليين او المسيحيين
 لم تتخذ قط موضوعا للمقاب او حتى للتحقيق ، وأنه ، لما كانت فكرة
 الآلهة قد ارتبطت لفترة طويلة بفكرة التساوة والجور ، فان اعتدال
 الامراء المتعاقبين حدا بهم الى الابتعاد على طائفة عانت من ظلم طاغية
 اتجه حنقه عادة ضد الفضيلة والبراة .

وقد يكون من الغريب ، الى حد ما ، ان نيران الحرب التهمت ،
 في نفس الوقت تقريبا هيكلا اورشليم وكابيتول روما ، ولا يبدو اقل
 غرابة ان الجزية او الاتاوة التي كان الجيوش الديني قد خصصها الأول
 حولتها قوة فاتح منتصر لاعادة بناء الثاني وتمييقه . فقد مرض الأباطرة

ضريبة رأس عامة على الشعب اليهودى ، ورغم أن المبلغ المفروض على الرأس كان تنافها ، فإن وجه انفاقه والصرامة في جمعه ، اعتبرنا حيفا لا يحتمل . ولما جاوز مأمورو الدخل الحد وطالبوا بغير حق كثيرا من الأشخاص الغرياء على الدم اليهودى والديانة اليهودية ، كان من المستحيل على المسيحيين ، وهم الذين كثيرا ما استظلوا بظل الكنيس ، أن ينجوا بأنفسهم من الاضطهاد الوحش الجشع . وكان حرصهم شديدا على اجتناب أية شبهة وثنية ، فابت عليهم ضمانهم أن يسهموا في تكريم ذلك الشيطان الذى تقمص شخصية جوبيتر فى الكابيتولين . ولما كانت فئة كبيرة ، ولو أنها في طريق الاضمحلال ، بين المسيحيين ، ظلت ملتزمة بشريعة موسى ، فإن جهودهم في ستر منبتهم اليهودى قد مضى الاختبار الحاسم ، الا وهو الختان ، على حين لم يكن لدى الحكام الرومان فسحة من الوقت لاستقصاء أوجه الخلاف بين مبادئ الدينية . ومن بين المسيحيين الذين جئ بهم امام الامبراطور ، او على الاصح محكمة الحاكم في ارض الميعاد ، وجد اثنان قيل انها — فيما يبدو — يتميزان بكرم المحتد ، وانها يفوقان بحق اعظم الاباطرة شرقا ونبلا . وكان هذان الشخصان حفيدى القديس يهوذا الرسول ، من اشياى يسوع المسيح (وهو غير يهوذا الاسخريوطى) . وربما جذبت دعواهم الطبيعية بحقهم في عرش داود احترام الشعب ، واثارت حقد الحاكم ، ولكن وضاعة ملابسهم وبساطة اجاباتهم اتفنتاه في الحال بانهما لا يرغبان ، بل ولا يستطيمان ، تكدير صفو الهدوء في الامبراطورية الرومانية ، وقد اعترفا صراحة باصلهما الملكى ، وبقرابتهما القريبة للمسيح ، ولكنهما تنصلا من أية مطامح دنيوية ، كما قررا أن ملكوته الذى ارتقباه في لهفة ، انها هو من طبيعة روحية ملائكية خالصة . فلما سئلا عن ثروتهما ومهنتهما ، كشفا عن ايديهما التى اخشوشنت بفعل كنسها اليوسى ، واعلنا انهما يكسبان قوتهما من ملح مزرعة قرب كوكبه Cocaba ، تبلغ مساحتها اربعة وعشرين فداناً انجليزيا ، وتبلغ قيمتها تسعة آلاف درهم (ثلثمائة جنيه استرليني) . ومن ثم اخرج حفيدا القديس يهوذا مشيعين بالاشفاق والازدراء .

ولكن ، على الرغم من أن وضاعة آل داود ، ربما جاز أن نحبيهم من شكوك الطاغية ، فإن عظمة أسرته الصالية أزعجت مزاج درميتيان الجبان ، الذى لم يهدى من روعه الا دم أولئك الرومان الذين شافهم أو كرههم أو احقرهم . فسرعان ما أخذ اكبر ابنى عبه نسلاميوس سابينوس بتهمة الخيانة ، ابا اصفرهما ، وكان اسمه نلاميوس كليمر فقد كان مدينا بسلامته الى افتقاره الشجاعة والمقدرة . واختص

الامبراطور لفترة طويلة بحبه وحياته ابن صومته هذا الذى لا يقدم على اية اساءة أو اذى ، وخلق عليه ابنة أخيه ، وكان اسمها دوميتلا Domitilla وتبنى الأطفال الذين اثمرهم هذا الزواج ، على أمل أن يخلفوه على العرش ، ومنح أباهم مرتبة القنصل ، ولكنه لم يكذبهم فترة حكمه ، ومدتها عام ، حتى أدين لادعاء تافه وأعدم . ونفيت دوميتلا الى جزيرة مقفرة على ساحل كيبانيا . وصدرت الأحكام بالاعدام أو مصادرة الأموال على عدد كبير من الأشخاص الذين اشتركوا في نفس التهمة ، أما الجريمة التي نسبت اليهم فهي « الإلحاد » والتشبه بأخلاق اليهود ، وهو ترابط غريب لا يمكن تطبيقه بحال من الأحوال إلا على المسيحيين ، حيث كان الحكام والكتاب في ذاك الزمان يرونهم بشكل غامض مريب . وبمقتضى قوة هذا التفسير المحتل ، قتلها على التسليم بأن شكوك الطاغية تعتبر شاهدا على ذنبها المشرف ، وضمت الكنيسة كلا من كليمنز ودوميتلا في عداد شهدائها الأوائل ، ودمغت قساوة دوميتيان باسم الاضطهاد الثانى . ولكن هذا الاضطهاد (إذا استحق أن نسميه اضطهادا) لم تطل مدته . ذلك أنه بعد بضعة أشهر من موت كليمنز ونفى دوميتلا ، أعدم ستيفن - وهو رجل معتق ، كان من خدم الأخيرة ، حظى بعطفها ، ولم يكن من المحقق أنه اعتنق عقيدة محظيته - أعدم الامبراطور في قصره . وأدان السناتو ذكرى دوميتيان ، وأبطلت قوانينه ، وأعيد من نفاهم . وفى ظل الإدارة الوادعة على عهد نرما ، بينما نرى الأبرياء قد استعانوا مراكزهم وثرواتهم ، نجد أن أكبر المجرمين قد حصلوا على العفو أو هربوا من العقاب .

٢ - وبعد ذلك بنحو عشرة أعوام ، في عهد تراجان ، عهد الصديق والسيد ، الى بلىنى الصغير . بحكم بيثينيا وبنطس ، وسرعان ما وقع الحاكم في حيرة من أمره : اية قاعدة من قواعد العدل أو القانون يتخذها أساسا لسلوكه في ممارسة مهام وظيفته هي أبفض ما تكون الى روحه الانسانية . ولم يكن بلىنى قد اشترك قط في إجراءات قضائية ضد المسيحيين الذين يبدو أنه لم يعرف عنهم إلا مجرد اسمهم ، ولم يصل الى علمه شيء عن طبيعة جريمتهم ، وأسلوب اتهمهم ، ودرجة عقوبتهم . وعاد ، في غمرة هذه الحيرة ، الى مالوف طريقته ، وهى أن يرمع الى حكمة تراجان بيانا نزيها متجردا ، ومن بعض الوجوه لطيفا ، عن الخرافة (العقيدة) الجديدة ، ملتصقا من الامبراطور أن يتفضل فيديد شكره أو يجبر جهله . لقد قضى بلىنى حياته في طلب العلم والانشغال بأمر الدنيا ، فقد توافع بامتياز منذ سن التاسعة عشرة في محاكم روما ،

وشغل مقعدا في السناتو ، وتقلد منصب القنصل ، وكون علاقات كثيرة مع كل طبقات الناس في ايطاليا وفي الولايات . ومن ثم يمكن أن نستخلص من جهله بعض المعلومات المفيدة . فيمكن أن نوقن بأنه عندما قبل حكومة بيثنيا ، لم تكن هناك قوانين أو مراسيم عامة من السناتو ، نائدة المفعول ضد المسيحيين ، وأنه لا تراجان ، ولا أحد من أسلافه الأفاضل — ممن كانت أوامرهم العالية تصدر فيما يتعلق بالقضاة والمدنى والجنائى — أعلن بمراحة عن اتجاهاتهم أو مقاصدهم فيما يتعلق بالطائفة الجديدة ، وأنه مهما كان من اجراءات اتخذت ضد المسيحيين ، فإنه لم يكن من بين هذه الاجراءات شىء ذو قيمة وقوة يصلح معها ليشكل سابقة توجه سلوك أى حاكم رومانى .

ويكشف جواب تراجان ، ذلك الجواب الذى كثيرا ما لجأ اليه المسيحيون في العصر النسخالى ، يكشف عن احترام كبير للعسالة والانسانية ، مما تمكن الملاحة بينه وبين أفكاره الخاطئة عن السياسة الدينية . وبدلا من الكشف عن الغيرة الشديدة التى لا تذى من « محقق » متلف على استيضاح أدق تفاصيل الهرطقة ، نرى الامبراطور يعبر عن رغبة وقلق من أجل حماية أمن الأبرياء أشد كثيرا منه للحيلولة دون امالات المجرمين . وأنه ليعترف بالصعوبة في تحديد خطة عامة ، ولكنه يضع قاعدتين مفيدتين غالبا ما كان فيهما غوث وتدعيم للمسيحيين المنكوبين . فإنه رغم توجيهاته الى الحكم بان يعافوا الأشخاص الذين أدينوا قانونا ، يحرم عليهم ، فى تناقض رحيم جدا ، التحقيق مع المجرمين المشتبه فيهم ، كما انه لم يكن مرخصا للحكام فى ان يتخذوا اجراء بشأن كل بلاغ أو اخبارية تصل اليهم ، كما ان الامبراطور يرفض الاتهامات الغفل من الأسماء باعتبارها منافية لمبادئ الانصاف فى حكومته ، ويطالب بشدة وفى اصرار ، لادانة من تلصق بهم تهمة المسيحية ، بدليل ايجابى من مدع عادل يعلن عن اسمه . ومن المحتمل كذلك ان هؤلاء الأشخاص الذين تولوا هذه المهمة المثيرة للبغضاء ، كانوا ملزمين بالافصاح عن أسس شكوكهم ، وتفصيل (زمان ومكان) هذه الجرميات السرية التى تردد عليها اعداؤهم المسيحيون ، وامانة اللثام عن الظروف التى أخفيت بمنتهى الحقد الحذر عن أمين الكفار الدنسين ، فاذا افلحوا (أى المقبرين) فى رفع الدعوى ، تعرضوا لسخط فئة كبيرة من الناس ، ولوم الفئة التى هى أكثر تحمرا ، وللمقات الذى يلام شخصية المخبر أو المبلغ فى كل زمان ومكان . وعلى النقيض من ذلك ، اذا أخفقا فى اقامة الألة حطوا على أنفسهم عقوبة صارمة ، وربما كانت عقوبة الاعدام ، التى كانت تنزل — طبقا لقانون

أصدره هادريان - بأى شخص ينسب زورا وبهتاناً جريمة المسيحية إلى زملائه المواطنين . وربما طغى عنف الضمائر الشخصية أو الخرافية (العفائية) على أشد الخوف الطبيعي من العار أو الخطر . ولكن لا يمكن على التحقيق أن يتصور أن الرعايا الوثنيين في الإمبراطورية الرومانية عمدوا ، فى قليل أو كثير ، إلى هذه الاتهامات التى لا يبدو أنها تبشر بالخير .

إن الوسيلة التى استخدموها للأغلات من حصانة القانون ، لتقدم دليلاً كافياً على مدى الفعالية التى أحبطوا بها كل الخلط الشريرة المنبعثة من الحقد الشخصى أو الغيرة الخرافية ، وأن روادع الخوف والعار المفروضة تسرا على الأفراد فى الجماعة الكبيرة الساخبة لفقد الجزء الأكبر من تأثيرها . وترقب المسح ، اتقى الذى رغب فى الحصول على شرف الاستشهاد أو فى الاقلاق منه - ترقب وقد نفذ صبره أو تملكه الرعب - الموعد المحدد لعودة الألعاب والأعياد العامة ، وكان سكان المدن الكبرى فى الإمبراطورية ، فى مثل هذه المناسبات ، يتجمعون فى الملعب أو المسرح حيث كان كل مشهد من مشاهد المكان أو الاحتفال يساعد على إذكاء روح النسك والتعبد أو إخماد الروح الانسانية فيهم ، وبينما أسلم جمهور النظار - وهم يضعون أكاليل الغار على رؤوسهم وقد تطيبوا بالبخور ، وتظهروا بدم القرايين ، تحيط بهم مذابح وثائيل معبوداتهم الحارسة - بينما أسلبوا أنفسهم للتمتع بهذه المسرات التى اعتبروها جزءاً أساسياً من عبادتهم ، تذكروا أن المسيحيين وحدهم مقتوا آلهة بنى الإنسان ، وأنهم بخلافهم من حضور هذه الاحتفالات المهيبة ، أو شعورهم بالحزن إذا شهدوها ، بدوا وكأنهم يسيئون إلى الابتهاج العام أو يرثون لسه . وإذا ألت بالامبراطورية أية كارثة حديثة : طامون ، مجاعة ، حرب غير موفقة ، أو إذا فاضت مياه النهر على جوانبه ، أو لم يأت فيضان النيل ، أو زلزلت الأرض أو اختل النظام اللطيف فى تعاقب الفصول - إذا حدث شئ من ذلك ، اقتنع الوثنيون المؤمنون بالخرافات بأن كفر وجرائم المسيحيين الذين أبقي عليهم أفراد الحكومة فى الرفق واللين ، هى التى استفزت العدالة الإلهية آخر الأمر . وما كانت أساليب الإجراءات القانونية لتراعى وسط جمهور عاجز فاضب ، وما كان صوت الأسفاق والرحمة ليسمع فى مخرج ملطخ بدماء الحيوانات الكاسرة والمجالدتين . ولكن مسيحات الجمهور الجزوع توعدت المسيحيين بأنهم أعداء الآلهة والناس ، وقست عليهم بأشد العذاب ، وبلغت بهم الجراة إلى - سد وجهه الاتهام بالاسم إلى نفر من المع أفراد الطائفة الجديدة ، وطلبوا ،

في سورة غضبهم الذي لا يقاوم بالقبض عليهم والقائم الى السباع . وكان حكام الولايات الذين تصدروا الاحتفالات العامة يميلون عادة الى ارضاء نزعات الشعب وتهنئة خواطره ، بتقديم بعض الضحايا البغيضة ، ولكن حكمة الأباطرة عصبت الكنيسة شر هذه الطقوس الصاخبة والانهالت الشاذة التي عابوا عليها بحق أنها منافية لقواعد الحزم وللبادئ الانصاف في حكمهم . ونصبت مراسيم هادريان وأنطونيوس بيوس على أن صوت الجماهير لا يجوز أن يسلم به كدليل قانوني لادانة أو عقاب أولئك الأشخاص القساء الذين اعتنقوا العقيدة المسيحية .

٣ — ولم تكن العقوبة هي النتيجة المحتومة للادانة ، ذلك أن المسيحيين الذين ثبتت جرائمهم ثبوتا قاطعا بشهادة الشهود . أو حتى باعترافهم الاختياري ، ظل في مكتبهم هم أنفسهم أن يستبدلوا الحياة بالموت ، لأن الجرم السابق لم يكن يثير سخط الحاكم ، قدر ما تثيره المقاومة الفعلية ، فقد ايقن أنه إنما قدم لهم عفوا ميسورا ، حيث أنهم — إذا ارتضوا وضع بعض حبسات البخور على المذبح — كانوا يغادرون ساحة المحكمة في أمان واستحسان . فقد قدر أن من واجب القاضي الرحيم أن يصلح ويهذب أكثر من أن يعاقب ويعذب هؤلاء المتحمسين المخدوعين . وكان يبدل من ثبرات صوته ، تبعا لأعمار السجناء أو جنسهم (ذكر أو أنثى) ومراكزهم ، وغالبا ما يتلف معهم ، بميسر أمام أعينهم كل ما يمكن أن يجعل الحياة أكثر متعة وسرة ، أو يجعل الموت أكثر نزعاً ورهبة ، ويطلب منهم ، لا بل يتوسل إليهم ، أن يستشعروا شيئا من الرحمة بأنفسهم وبأسراتهم ، وباصدقائهم ، فإذا لم تنبذ التهديدات والمغريات نفعا عاد الى استعمال العنف ، واتي بالسوط والمخلة (أداة استعملت للتعذيب قديما) ليموضا عن عجز الجدل والمناقشة ، واستخدمت كل ألوان القسوة لاختضاع هذا العناد الذي لا يلين ، أو كما بدا للوثنيين العناد الاجرامى . وعسلب المدافعون القداسى عن المسيحية ، بنفس القسور من الصدق والعنف . على مضطهدهم سلوكهم الشاذ ، الذي أقر التعذيب خلافا لكل مبادئ العدالة والاجراءات القضائية ، لا من أجل الحصول على اعتراف من يحققون معهم ، بل لحملهم على انكار الجريمة موضوع التحقيق ، وكثيرا ما ابتدع رهبان العصور اللاحقة الذين تسلبوا في خلواتهم للهادئة بتعداد وفيات وآلام الشهداء الأوائل — ابتدعوا صنوعا من العذاب أكثر تهديبا وباعة . وجدير بالذكر أنه قد طالب لهم أن تذهب بهم العذوبون الى أن غيرة لحكام الرومان ، استخفنا منهم بكل فضيلة اخلاقية

وبآداب اللياقة العامة ، حاولوا أن يفسقوا بمن أخفقوا في إخضاعهم ،
وانهم أمروا بممارسة أشد ألوان التعذيب مع من استحال عليهم أن
يتلوا منهم شيئا من ذلك . ويروي أن النسوة الفاتيات اللاتي تهيأن
لاستعذاب الموت ، تعرضن أحيانا لامتحان أشد وأنكى ، حيث كان
يطلب اليهن أن يحددن أيهما أكبر عندهن قيمة : دينهن أم عفتن .
وحرض القاضي أيما تحريض أولئك الشباب الذين أسلم هؤلاء النسوة
لأحضانهم الفلجرة ، على بذل أقصى الجهد للاقتحام لمجد فينوس . (ربة
العشق والجمال عند اليونان) رغم أنف هؤلاء العذارى الملحدات
اللاني رفضن أحراق البخور في مذبحها . ولكن غالبا ما أحبطت عنة
هؤلاء الشباب ، على أية حال ، حيث تدخلت في الوقت المناسب قوة
خارقة معجزة فمضت فتيات المسيح الطاهرات العفيفات من الجمار ،
حتى ولو أكرهن على الاستسلام أكرها . ولكن يجدر بنا في الواقع
الأن نغفل الإشارة إلى أن أقدم وأصدق سجلات الكنيسة قل أن تلوثت
بمثل هذه الأفاقيص المسرفة الضائعة (١) .

ودعا إلى هذا الاغراق في اغفال الحقيقة ، وترجيح وقوع هذه
الاستشهادات الأولى خطأ طبيعى جدا . ذلك أن كتاب الكنيسة في
القرنين الرابع والخامس نسبوا إلى حكم روما نفس القدر من الفيرة
الطاغية التي لا تلتين ولا تثنى ، والتي أوغرت صدورهم ضد الهراطقة
أو الوثنيين في أيامهم . وليس بمستبعد أن يكون بعض هؤلاء
الأشخاص الذين تبوعوا مناصب الامبراطورية قد أشربوا تمصب
الشعب ، وأن تكون النزعة إلى القسوة قد استثارتها في آخرين بواضت
الجشع أو الاستياء الشخصي (٢) . ولكنه من المحقق - ويمكن الرجوع
في هذا إلى اعترافات المسيحيين الأولين التي تفيض بالشكر - أن
الأغلبية العظمى من هؤلاء الحكام الذين مارسوا في الولايات سلطة
الاباطرة أو سلطة السناتو ، والذين وضع في أيديهم وحدهم أمر التحكم
في الحياة والموت ، سلكوا مسلك رجال تحلوا بآداب رفيعة مهذبة
وتلقوا تعليما متحررا ، واحترموا قواعد العدالة ، وكنوا على اطلاع
واسع ببادئ الفلسفة ، وكثيرا ما نبذوا المهمة البغيضة ، إلا وهي
مهمة الاضطهاد ، واستقلوا الاتهام في احتقار ، أو أوهموا إلى المسيحي

(١) يروي لنا جيروم في كتابه « اسطورة بولس الناسك » قصة غريبة لشاب قدي
بالأغلال عاريا في فراش من الأزهار ، وبياغته غانية جميلة لعروب ، لما كان منه إلا أن
تضم لسانه ليخمد جذوة الشهوة بين ضلوعه .

(٢) استقر اعتناق زوجة كلوديوس هرمينيانوس Claudius Herminianus حاكم
كبادوكيا للمسيحية ، إلى معاملة للمسيحيين بقسوة غير عادية .

المتهم ببعض الحيل القانونية التي يمكن بها الإفلات من صرامة القانون . وكانوا إذا خولوا حرية التصرف — استغلوا في نجدة الكنيسة المنكوبة وفي مصلحتها أكثر كثيراً منها في البطش أو التنكيل بها . وكانوا بعيدين كل البعد ، عن الحكم على كل المسيحيين المتهمين الذين يمثلون أمام محكمتهم ، ويعيدين جداً عن الحكم بالاعدام على أولئك الذين أدينوا بالتعلق العنيد بالخرافة (العقيدة) الجديدة ، اكتفاء منهم ، في معظم الأحوال ، بالمقوية الأخف : السجن ، النفي ، السخرة في المناجم ، وتركوا لضحايا قضائهم البائسة فرصة التعلق بالأمل في مناسبة مسعدة مثل ارتقاء امبراطور إلى العرش أو زواجه أو انتصاره ، مناسبة يصدر فيها عفو عام يعجل بعودتهم سيرتهم الأولى . أما الشهداء الذين نفذ فيهم الحكام الرومان حكم الأعدام هورا ، فإنه يبدو أنهم أختبروا من بين فئتين على طرفي نقيض . فكانوا إما من بين الأساقفة والمساكين ، وهم أبرز الأشخاص وسط المسيحيين بحكم مراتبهم ونفوذهم ، من الذين يلقي أمثالهم الرعب في قلوب الطائفة بأسرها ، أو أخطا واحتر المسيحيين وبخاصة أولئك الذين اتسمت معيشتهم بالذل والاستعداد ، ممن قدر أن حياتهم غير ذات قيمة ، وممن نظر الاقربون إلى آلامهم وشقائهم بأكبر قدر من الاستهتار والافعال . ويعلن العلامة أوريجن ، وهو الواسع الاطلاع على تاريخ المسيحيين بحكم خبرته وقراءاته ، يظن في أجلي بيان أن عدد الشهداء كان قليلا جدا . وقد تكون حجته وحدها كافية لدحض القول بوجود هذا الجيش العرمرم من الشهداء الذين أخذت رفاتهم ، في معظم الأحوال من قبور روما ، وزخر بها كثير من الكنائس (١) . والذين كانت أمثالهم الخارقة موضوع مجلدات كثيرة

(١) إذا تذكرنا أن كل العامة في روما لم يكونوا مسيحيين ، وأن كل المسيحيين لم يكونوا قديسين أو شهداء ، لا يمكن الحكم إلى أي حد من الطائفة كانت الامجاد الدينية تفضل على المظالم أو زجاجات الرماد التي كانت تؤخذ دون تمييز من القابر العامة . وبعد عشرة قرون من عمل هر صريح نارت بعض الشكوك في أوساط الكاثوليك ، وخاصة الأكثر علما منهم ، فانهم يتطلبون الآن ، كدليل على القداسة والاستشهاد ، وجود الحرفين ب . م . (B.M.) أو قارورة مليئة بسائل أحمر يظن أنه دم ، أو صورة نخلة . ولكن الملامتين الأدليتين ليست لهما قيمة كبيرة ، أما عن العلامة الأخيرة فقد لاحظ النقاد : (١) أن صورة النخلة — كما يسمونها ، ربما كانت شجرة السرو ، وربما كانت مجرد نقطة (للوقت) ، أو التلميح بالصلوة (،) في النقوش الأثرية . (٢) أن النخلة كانت رمز النصر عند الوثنيين . (٣) أنها تستخدم عند المسيحيين كشعار الاستشهاد فقط ، بل صفة عامة لمبتدئين .

جداً من القصص الدينى (١) ، ولكن تؤكد أوريجن العالم قد « توضحه .
وتعززه الشهادة الخاصة لصديقه ديونيسيوس ، الذى يعد ، فى مدينة
الاسكندرية الضخمة ، وفى ظل اضطهاد ديسيوس العنيف ، يعد عشرة
رجال وسبع نساء شقوا باعترافهم بأنهم مسيحيون .

استشهاد سبيريان

وطوال نفس فترة الاضطهاد هذه ، تولى سبيريان ، الغيور البليغ
الطموح ، أمر الكنيسة ، لا فى قرطاجة وحدها ، بل حتى فى افريقية
باسرها ، وكان يتحلى بكل خصلة تجعله موضع احترام المؤمنين أو تثير
شكوك الحكام الوثنيين وحقنهم ، وبدا أن شخصية هذا الحبر المقدس
ومركزه يميزانه بأنه أبرز هدف للحقد والخطر . وإن التعرف على حياة
سبيريان ليكنى ، على أية حال ، للتدليل على أن خيالنا قد بالغ فى خطورة
موقف أى أسقف مسيحى ، وأن الاخطار التى كان يتعرض لها أقل من
تلك التى تنهيا الاطماع الدنيوية لمواجهة فى السعى وراء أمجاد الحياة .
فقد هلك بعد السيف أربعة من أباطرة الرومان مع اسراتهم وخصائهم
واتباعهم فى مدى عشر سنوات ، قاد فى أثنائها ، أسقف قرطاجة ،
بسلطته وبلاغته ، مجالس الكنيسة الأفريقية . أما سبيريان ، فلم يكن
أمامه ثمة شيء يخشاه ، اللهم الا فى السنة الثالثة من ولايته ، ولبضعة
شهور قلائل محسوب ، حين أوجس خيفة من مراسيم ديسيوس
الصارمة ، وتيقظ الحكام ، وصيحات الجاهل التى دوت مطالبة بوجوب
القاء سبيريان زعيم المسيحيين الى السباع ، وارتأت الفطنة ضرورة
الانزواء المؤقت . وكان الامثال لهاتف الفطنة ، فانسحب الى معزل
مجهول ، استطاع منه أن يكون على اتصال دائم برجال الدين والشعب
فى قرطاجة . وباختفائه حتى هدأت العاصفة استطاع أن يبقى على
حياته ، دون أن يتخلى عن سلطته أو شهرته . ولكن حرصه الشديد
لم ينبج ، على أية حال ، من لوم المسيحيين الذين كانوا أكثر تشدداً ،
والذين رثوا لهذا السلوك ، أو من تانيب أعدائه الشخصيين الذين
عابوه وسبوه حيث اعتبر هؤلاء وأولئك سلوكه تخلياً جبائلاً أثماً عن
أقدس واجب . وكانت الأسباب التى ساقها لتبرير سلوكه أنه رأى من

(١) قد نكتفى ، كسودج لهذه الأساطير ، بأن عشرة آلاف من الجنود صلبهم تراجان
أو هادريان فى يوم واحد فوق جبل أدرات . ويقال إن اللفظ المختصر (MII) الذى قد
يبدل على عدد « ألف » ، أو على « الجنود » قد سبب بعض أخطاء غير عادية .

الأوفق أن يدخر حياته لما تقتضيه حاجة الكنيسة في المستقبل ، وأنه اقتدى في ذلك بكثير من الأساقفة المقدسين ، وأنه - كما صرح هو بذلك - أنها فعل ذلك امتثالا للتنبيهات الالهية التي تلقاها في رؤياه ومنامه وفي غيبوبته واستغراقه . ولكن أحسن اعتذار يمكن أن نجده في الثبات البهيج الذي لاقى به الموت في سبيل الدين ، بعد ذلك بنحو ثماني سنوات . وقد سجل تاريخ استشهاده في صراحة ونزاهة غير عاديتين ، ومن ثم ، قد يكفي اقتباس قطعة صغيرة من أهم مشاهدته لتزويدنا بأوضح المعلومات عن روح الاضطهادات الرومانية وأساليبها .

عندما كان غاليريان منفصلا للمرة الثالثة ، وجالينوس للمرة الرابعة، دعا بالرنوس ، بروتنصل أفريقية ، سبريان للحضور الى قاعة مجلسه الخاص ، وهناك أطلعه على الأمر الإمبراطوري الذي كان قد تلقاه آنذاك ، بأنه يجب على الذين يبدؤوا الديانة الرومانية أن يعودوا من فورهم الى ممارسة طقوس آبائهم وأجدادهم . فأجاب سبريان دون تردد بأنه مسيحي وأنه أسقف متمسك بعبادة الاله الواحد الحق . الذي يرفع اليه كل يوم تضرعاته وابتهالاته من أجل سلامة ورخاء الإمبراطورين ، مليكه الشرعيين . وفي ثقة وتواضع التمس أن يمنح حق المواطن في الامتناع عن الاجابة عن بعض الاسئلة المثيرة ، وفي الحقيقة ، غير القانونية ، التي وجهها اليه البروتنصل . وصدر الحكم بالنفي مقابلا لعصيان سبريان ، وسبق دون إبطاء الى كوروبيس Curubis وهي مدينة حرة بحرية في زيوجيتانا Zeugitana ، ذات موقع جميل وسط أرض خصبة على مسافة نحو أربعين ميلا من قرطاجة . وقد تبتع الأسقف المنفى براحة الحياة ونعيم التقوى . وطبقت شهرته آناف أفريقية وإيطاليا ، ونشرت قصة مسلكه رغبة في الاشادة بذكر العالم المسيحي ، وكثيرا ما قطعت عليه خلوته رسائل المؤمنين وزياراتهم وتهانيهم له . وبدأ لبعض الوقت ، بوصول بروتنصل جديد الى الولاية ، أن حظ سبريان قد يتخذ طريقا أوفق ، فقد استدعى من منفاه ، ورغم أنه لم يكن سمح له بعد بالعودة الى قرطاجة ، فقد خصصت لاقامته بساتينه المجاورة المعاصرة .

وأخيرا ، وعلى التحديد بعد عام من القبض على سبريان لأول مرة، تلقى جاليريوس مكسيموس بروتنصل أفريقية أمرا إمبراطوريا بأعدام الفقهاء المسيحيين . وكان أسقف قرطاجة يحس بأنه سيكون من أوائل الضحايا ، فأغراه خور الطبيعة بأن ينجو بنفسه ، بالنهار سرا ، من خطر الاستشهاد وشرفه ، ولكنه سرعان ما استرد الصلابة التي

اقتضتها شخصيته وعاد الى بساطيته ، مرقبا ، في صبر وجلد ، وصول
رسول الموت . ووضح ضابطان كبيران مكلتان بهذه المهمة — وضعسا
سبريان بينهما في عربة ، ولما كان البروقنصل ساعته مشغولا ، فقد
قاداه — لا الى السجن — بل الى دار خاصة كان يملكها أحدهما في
قرطاجة . وأعد عشاء فاخر احتفاء بالأسقف ، وسمح لأصدقائه
المسيحيين أن يتمتعوا بصحبته لآخر مرة ، على حين ازدحمت الشوارع
بجموع المؤمنين ، قلقين جزعين لدنو مصير أبيهم الروحي . وفي الصباح
مثل أمام محكمة البروقنصل الذي أحيط علما باسم سبريان وموقفه ،
فأمره بتقديم قربان ، والحق عليه في تدبر مواقف عصيانه . ولكن رفض
سبريان كان حازما حاسما ، ونطق الحاكم بعد أن أخذ رأى المجلس
بحكم الإعدام وهو كاره ، وهذا نصه : « إن تالسيوس سبريانوس يجب
أن تضرب عنقه فوراً ، بوصفه عدواً للآلهة روما ، ورقيس وزعيم رابطة
أثيمة ، حرضاً على المقلومة الملحدة لقوانين أقدس إمبراطورين
« فاليريان وجالينوس » ، وكانت طريقة التنفيذ اللطيف وأقل ما يمكن
أيلاما بالنسبة لشخص أدين بجريمة عظمى ، كما أنه لم يسمح بتعذيب
أسقف قرطاجة لحمله على إنكار عقيدته أو الكشف عن شركائه .

وعندما أعلن الحكم . تعاملت على الفور صيحات جموع المسيحيين
الذين احتشدوا للاستماع اليه أمام أبواب القصر ، وهم يهتفون « لا بد
أن نموت معه » . ولكن نفثات غيرتهم ومحبتهم لم تكن ذات نفس
لسبريان ، أو ذات خطر عايمهم أنفسهم ، واقتيد في حراسة عدد من
التربيون وضباط المائة دون أن يتلوم أو تبدر منه أية أساءة ، التي ساحة
الإعدام ، في سهل مسيح منبسط بالقرب من المدينة ، مكتظ بالنظارة ،
ورخص لمشايخه وشبابه المستخلصين بمصاحبة أسقفهم المقدس ،
فعاونوه في خلع رداءه الخارجى ، وفرشوا على الأرض ملاء من الكتان
ليتلخوا عليها شيئا من دمه الغالى ، واستمعوا الى أوامره بمنح الجلاد
خمسا وعشرين قطعة ذهبية ، وعندئذ غطى الشهيد وجهه بيديه ،
وبضربة واحدة فصلت رأسه من جسده ، وبقي جثثانه لبضع ساعات
معرضا لأنظار الأميين ، ولكنه نقل في الليل وحمل في موكب ظافر وفي
أضواء باهرة الى مدافن المسيحيين ، واحتفل بجنائز سبريان احتفالا
عاما دون أى تدخل من جانب الحكام الرومان ، بل ان الأشخاص
المسيحيين الذين قاموا باتمام الواجبات الدينية لشخصه ولذكراه كانوا
بأمن من خطر التحقيق معهم أو عقابهم . وما تجدر الإشارة اليه ان
سبريان من بين العدد الكبير من الأساقفة في ولاية أفريقية ، كان أول
من قدر بأنه جدير بأن ينال شرف الاستشهاد .

ولقد ترك لسبريان الاختيار بين أن يموت شهيدا أو يعيش مرتدا ، ولكن على اختياره كان يتوقف الشرف أو العار . وإذا ذهب بنا الظن الى أن اسقف قرطاجة - سبريان - قد استخدم اعترافه بالعقيدة المسيحية مجرد أداة لجشعه أو طبعه ، لظل لزاماً عليه أن يدعم الشخصية التي انتحلها ، وأن يعرض نفسه ، إذا أوتى شيئا يسيراً من عزيمة الرجال لأشد ألوان العذاب ، خيراً من أن يستبدل ، في تصرف واحد من تصرفاته ، بشهرة العمر مقت اخوته المسيحيين واحتقار الكفار الامميين ، ولكن اذا كانت لفيرة سبريان ركيزة قوية من الاقتناع الخالص بصدق المبادئ التي بشر بها . فلماذا أن شرف الاستشهاد بدا له موضوع رغبة لا رهبة . وليس من السهل أن نستنبط أية أفكار واضحة من كتابات الآباء المؤثرة الفاضلة رغم فصاحتها ، أو تؤكد درجة العظمة والسعادة الخالدتين اللتين وعدوا بها عن ثقة أولئك الذين أسعدهم الحظ باراتة دعاتهم في سبيل الدين ، وقد لقنوا الناس ، في بقطة مقبولة أن حرارة الاستشهاد عوضت كل نقیصة ومحت كل خطیئة ، وأنه بينما كان لزاماً أن تمر ارواح المسيحيين العاديين بعملية تطهير بطيئة الیمة ، دخل المعذبون (المستشهدون) الظالمون مباشرة الى النعيم الخالد ، حيث ساروا مع المسيح ، وبرفقة الآباء والرسل والانبياء ، وشاركوا بوصفهم معاونيه ، في المحاكمة العامة للجنس البشرى . وقد افسح التبشير الاكيد بخلود الشهرة على الأرض ، وهو باعث بهيج حبيب الى الطبيعة الانسانية ، افسح في استحداث شجاعة الشهداء . وليست الامجاد التي اسبغتها روما أو أثينا على المواطنين الذين سقطوا من أجل وطنهم الا مظاهر جامدة عقيمة للاعترام والاجلال ، اذا قورنت بالتقدير والاخلاص اللذين اظهرتهما الكنيسة الاولى لأبطال العقيدة المنتصرين . واعتبر الاحتفال السنوى بذكرى فضائلهم وآلامهم ، لونا من الطقوس المقدسة ، وانتهى الامر بهم الى العبادة الدينية ، ومن بين المسيحيين الذين اعترفوا علنا بمبادئهم الدينية ، ظفر أولئك الذين لفظتهم محاكم الحكام الوثنيين أو سجونهم (كما حدث كثيرا) ، ظفروا من الامجاد بما هو جدير عدلا باستشهادهم الناقص وثباتهم الكريم . والتمس انقى النسوة السماح لهن بطبع قبلة على القيود التي كن مكبلات بها ، وعلى الجروح التي اثخنت بها اجسادهن . ورفعهن الناس الى مصاف القديسات . وتقبلوا قراراتهن باحترام . ولكنهن ، بزهوهن الروحي وسلوكهن المعيب ، كثيرا ما اُسيان استخدام المكانة السامية

التي أضفتها عليهن الخيرة والبسالة (١) . ان مثل هذه المفارقات تبرز للخصال الكريمة والثيم الحميدة ، ولكنها في نفس الوقت تكشف عن العدد الضئيل لأولئك الذين شقوا أو قضوا نحبهم من أجل المسيحية .

ان الادراك الرشيد في عصرنا الحاضر اكثر استعدادا ليعيب على المسيحيين الاولين غيرتهم اكثر من أن يعجب بها ، ولكن الامعاج بها اهن عليه من محالكتها ، فهؤلاء هم الذين كلنوا ، على حد التعبير الجميل الذي استخدمه سبكيوس وسيفيروس *Suspicius Severus* كانوا اكثر تلهفا على الموت في سبيل الدين ، من تلهف محاصريه على منصب الاسقف . ان الرسائل التي كتبها اجناطيوس ، وهو يرسف في الاغلال عبر مدن آسيا لتفويض بأسوا ما تعافه الاحاسيس العادية للطبيعة الانسانية . وانه ليهيب بالرومان ، الا يحرموه — عند تعريضه للوحوش في المدرج — من تاج المجد ، بتدخلهم الرحيم الذي يجرى في غير اوانه ، ويعلن تصميمه على استفزاز واهاجة الوحوش التي قد تستخدم ادوات لقتله . وثمة قصص تروى عن شجاعة نفر من الشهداء وغوا بالفعل بها كان يعتزمه اجناطيوس ، فهاجسوا غيظ الاسود ، واستحثوا الجلاد على انجاز مهمته ، وقفزوا في غبطة وابتهاج الى النيران التي اشعلت لالتهايم ، وغمرهم شعور من الجذل والانشراح وسط اشد الوان التعذيب . وهناك امثلة كثيرة لا تزال باقية عن اناس ضاقوا ذرعا بتلك القيود التي فرضها الباطرة من أجل أمن الكنيسة وسلامتها ، فمتطوع المسيحيون احيانا بالاعلان عن انفسهم اذا عز وجود من يوجه اليهم الاتهام ، وازعجوا الموظفين المدنيين الوثنيين ايما ازعاج ، واندفعوا في جوع جائشة حول محاكم الحكام الرومان ، يستصرخونهم ان ينطقوا بحكم القانون وينفذوه . وكان سلوك المسيحيين ابرز من أن تخطئه انظار الفلاسفة القدامى ، ولكن يبدو انهم امعجوا به اقل كثيرا مما عجبوا له . ولما كانوا عاجزين عن ادراك البواعث التي طلوت بثبات المؤمنين احيانا الى ما وراء حدود الروية او العقل ، فانهم نظروا الى هذا التشوق الى الموت على انه نتيجة غريبة لياس قاتل ، او جمود كالح او خبل خرافي ، وصاح البروقنصل انطونينوس في مسيحيي آسيا متعجبا : « ايها الرجال التمساء ! ايها الاشقياء ! اذا كنتم سئمتم الحياة الى هذا الحد ، فهل يصعب على الواحد منكم ان يجد حبسلا يشنق به نفسه وجدثا يواريه ؟ » وكان — (كما لاحظ مؤرخ عالم تقى)

(١) تضاعف عدد من زعموا انهم شهداء ، فنتيجة التقليد الذي درجوا عليه ، وهو اطلاق هذا اللقب الكريم على كل من يترف بالدين .

محاذرا غلية الحذر من معاقبة أناس لم يجتوا من يتهمهم الا انفسهم ،
لان القوانين الامبراطورية لم تتضمن مادة لمثل هذه القضية غير المتوقعة ،
فاصدر حكمه على نثر قليل منهم ليكونوا عبرة لآخوانهم ، وطردها الجموع
الحاشدة في استياء واحتقار . وعلى الرغم من هذا الازدراء الصادق
او المصطنع ، فان هذا الثبات الشديد الذي تعلق به المؤمنون كانت له
نتائج ابعد اثرا في تلك العقول التي هيأتها الطبيعة او السباحة لتقبل
الحق الذي أتى به الدين ، في يسر وهودة . وفي مثل هذه المناسبات
الجزينة ، كم من الامميين الكفار اشفق على من حكم عليهم ، وأعجب
بهم ، وتحول الى ديانتهم المسيحية ، فقد انتقل هذا الحساس الكريم من
المعذبين الى المثرجين ، واصبح دم الشهداء على حد ما جاء في تعليق
مشهور نواة الكنيسة ا .

نوع سياسة الازهاب

وعلى الرغم من أن التمرد رفع من حرارة تلك الحمى التي انتابت
العقول ، واستمرت البلاغة تزيدها التهابا ، فانها افسحت المجال ،
بطريقة غير ملحوظة ، للآمال والمخاوف التي هي اقرب الى طبيعة قلب
الانسان ، وطبيعة حبه للحياة ، وخشيته من الألم وفزعته من الموت .
ووجد اكثر حكام الكنيسة لمحنة وثبصرا ، انفسهم مضطرين الى
أن يكبحوا جياح هذه الحاسة الطائشة في افعالهم ، والا يثثوا في
هذا الوفاء الذي كثيرا ما هجرهم عند الامتحان ، ولما قل في الحياة
القصيف وقبح الشهوات ، قل في الناس الطيوح الى الاستشهاد ، يوما
بعد يوم ، وكثيرا ما تخلى جند المسيح عن مواعدهم ، بدلا من أن
تشهرهم اعمالهم البطولية الاختيارية ، وفروا على غير هدى امام العدو
الذي كان لزاما عليهم أن يتصدوا له . وكانت هناك ، على اية حال ،
اساليب ثلاثة للفرار من جحيم الاضطهاد ، لم تمنح كلها بنفس القدر من
المعصية ، وقد اعتبر اولها في الواقع اسلوبا بريئا بصفة عامة ، أما
الثاني فقد اكتنفه الشك ، او قل انه قابل للغفران . ولكن الثالث
انطوى على ردة مريعة آتية عن عقيدة الكنيسة .

١ - قد يدهش « المحقق » في عصرنا الحديث ، اذ يسمع أنه اذا
نمى الى علم أي حاكم روماني أن شخصا في دائرة ولايته قد انضم الى
الطائفة المسيحية ، كانت التهمة تبلغ الى المتهم ، وكانت تترك له مساحة

من الوقت لتسوية شئونه الخاصة ، وأعداد جواب عن التهمة التي الصقت به ، لماذا ساوره شيء من الشك في تجلده ، هيأت له هذه المهلة فرصة الإبقاء على حياته وشرعه بالهرب ، فرصة اللجوء الى مكان مجهول أو ولاية نائية ، والتذرع بالصبر انتظارا لعودة الهدوء والطمانينة . وسرعان ما أقرت فصائح أقدس الأخبار والافتداء بهم مثل هذا الاجراء الذى يتمشى مع العقل والادراك السليم . ولكن يبدو أنه قد ندد به نفر قليل ، اللهم الا المونتانيون الذين انزلقوا الى الهرطقة. نتيجة تعلقهم العنيد الشديد بصرامة النظام القديم (١) .

٢ - ان حكام الولايات الذين لم تملكهم الغيرة قدر ما سيطر عليهم الجشع ، ارتضوا عملية بيع شهادات (كانت تسمى الاقرارات) تثبت أن الشخص المذكور اسمه فيها قد امتثل للقوانين ، وأنه قدم القرابين للمعبودات الرومانية ، وبإبراز مثل هذه الاقرارات الزائفة تمكن المسيحيون الاثرياء الجبناء من أن يخرسوا المخبر الخبيث ، ويوفقوا ، بشكل ما ، بين سلامتهم وديانتهم . وكان يكثر عن هذا النفاق الدنس شيء قليل من التوبة .

٣ - ووجدت في كل اضطهاد أعداد كبيرة من المسيحيين التائهين الذين نبذوا أو انكروا صراحة وعلنا العقيدة التي سبق اعتناقهم لها ، واكدوا اخلاصهم في ارتدادهم بالأعمال المشروعة ، من احراق البخور أو تقديم القرابين . واستسلم بعض هؤلاء المرتدين لدى أول تهديد أو وعيد من الحاكم ، على حين استنفذ الامعان في التعذيب صبر آخرين منهم . ونم الفزع المرتسم على بعض الوجوه عما يعتدل في أعماقهم من تراجع عن عقيدتهم دون أن يبشروا حراكا ، على حين خف آخرون في ثقة ورشاقة الى مذابح الآلهة ، ولكن القناع الذى نسجه الخوف لم يدم لأكثر من ساعة الخطر . وما أن خفت وطأة الاضطهاد حتى هرعنا جموع النادمين التائبين الى أبواب الكنائس ، يلتمسون بنفس القدر من الحماسة والحمية ، اعادتهم الى المجتمع المسيحى ، ولكن تبليت درجة نجاحهم في تحقيق ملتزمهم .

(١) يعتبر ترتوليان أن القرار من الاضطهاد بمثابة ردة لم تقبل كل أركانها ، ولكنها اثم كبير ، ومحاولة كاذبة للهروب من ارادة الله . وكتب في هذا الموضوع رسالة مليئة بأشجع العصب ، وبأكثر الحاسن تنافرا . ومهما يكن من أمر ، فانه مما تجدر الإشارة اليه ، الى حد ما ، ان ترتوليان نفسه لم يمت شهيدا ، فلم يكابد الاضطهاد .

٤ - ورغم القواعد العامة المقررة في اتهام المسيحيين وعقوبهم ، فلا بد أن يتوقف مصيرهم إلى حد كبير ، متى مثل هذه المحسنة الاستبدادية المتزامنة الأطراف ، على سلوكهم هم أنفسهم ، وعلى ظروف عصرهم ومزاج الحكم الأعلى ومزاج مرعوسيه . وقد تهيج العيرة الحرامية ضد الوثنيين سورة غضبهم تارة ، ويوهن أو يخفف الترويض والتبصر منها تارة أخرى . وثمة دوافع مختلفة كانت تجنح بحاكم الولاية إلى تنفيذ القانون أو إلى التراخي في تطبيقه ، ومن أقوى هذه الدوافع ، اهتمامه ، لا بالقوانين العامة وحدها ، بل بالمقاصد الخفية للامبراطور نفسه ، حيث كانت نظرة منه واحدة تكفى لتستمر ناز الاضطهاد أو يخبو أوارها . وكان المسيحيون الأولون يندبون حظهم ، وربما بالغوا في آلامهم وشقائهم ، كلما نزلت بهم بعض الشدائد في مختلف أرجاء الإمبراطورية ، ولكن مؤرخى الكنيسة في القرن الخامس ، الذين أوتوا من نفاذ البصيرة ما استطاعوا معه أن يتبينوا ابتسام الحظ من عثار الجد في الكنيسة - من عهد نيرون إلى عهد دقلديانوس - وهم الذين حددوا الاضطهادات بالمعدد المشهور ، وهو « عشرة » اضطهادات . وأوحت اليهم المطبقات البارمة مع أحداث الطاعون « العشرة » في مصر ، وقرون القرنين « العشرة » التي ورد ذكرها في سفر الرؤيا (Apocalypse) الكتاب الأخير من العهد الجديد - أوحت إلى عقولهم بهذا الحساب في البداية ، ثم حرصوا ، في تطبيقاتهم لصديق النبوة على صدق التاريخ ، حرصوا على اختيار اليهود التي كانت أشد عداوة لقضية المسيحية . ولكن هذه الاضطهادات العابرة لم تثر إلا في بحث الغيرة وإعادة النظام إلى صفوف المؤمنين ، وعوضت جهود طويلة من السلام والأمن عن لحظات العنف الشاذة ، وهيا استهتار بعض الأمراء وأغضاء بعض آخر ، للمسيحيين فرصة التمتع بالتسامح الدينى الشامل ، تسليحا عمليا ، وربما كلن غير مشروع .

وتضمن دفاع ترتوليان مثاليين - قديمين جدا ، فريدين جدا ، ولكنها في نفس الوقت مشكوك فيهما - عن رفق الأباطرة واعتدالهم وهما الرسومان اللذان أصدرهما تيبيريوس وماركوس انطونيوس ، لا مجرد تمييز براءة المسيحيين فحسب ، بل حتى لإبراز تلك المعجزات الفذة التي شهدت بصدق عقيدتهم . وقد اكتنف المثل الأول بعض صعاب قد تربك العقيلة المتشككة . وانه ليراد بنا أن نصدق أن ييلاطس البنطى Pontius Pilatus أبلغ الإمبراطور نيا الحكم الجائر الذى أصدره ضد شخص برىء يبدو أنه مقدس ، عرض نفسه للخطر دون أن ينال شرف الاستشهاد ، وأن تيبيريوس الذى أعلن صراحة استهزاءه بكل الديانات

مقد النية على النور على ادراج « المسيح اليهودي » في قائمة آلهة روما ، وأن السناتو الخنوع تجلس على عصيان أوامر سيده ، وأن تيبيريوس — بدلا من استنكار هذا الرفض — قنع بأن يعصم المسيحيين من صرامة القوانين ، قبل عدة سنين من سن مثل هذين المرسومين ، وقبل أن تتخذ الكنيسة اسما أو كيانا متميزا. وأخيرا يراد هنا أن نصديق، أن ذكرى هذا التصرف الخارق محفوظة في اصدق السجلات العامة التي أخطأها علم مؤرخي اليونان والرومان ، والتي وقعت عليها لمقط عينا مسيحي أنريقي (ترتوليان) كتب دفاعه بعد مائة وستين عاما من وفاة تيبيريوس . أما مرسوم ماركوس أنطونينوس ، فالمفروض أنه جاء نتيجة اخلاصه وامتنانه لمعزة خلاصه وانقاذه في الحرب بينه وبين ماركوماني . وقد سجلت فصاحة عدة كتاب وثنيين ما عاناه جيش ماركوس من كرب وضيق في البداية ، والمطر الذي أنزلته الله عليهم لاطفاء عطشهم ، كما سجلت نزع المقبريين من الرعد الذي أرسله الله عليهم وهزيمتهم . ولو أن في الجيش نفرا من المسيحيين ، لسكان من الطيبى أن ينسب بعض الفضل الى الصلوات والدعوات الحارة التي تضرعوا بها في ساعة العسرة من أجل سلامتهم ، ومن أجل السلامة العامة . ولكن الآثار النحاسية والرخامية ، والأوسمة الإمبراطورية ، وعمود أنطونينوس ، ما تزال تؤكد لنا أنه لا الأمير ولا الشعب داخلهم الاحساس بهذا الالتزام الفريد ، لأنهم بالاجماع ينسبون خلاصهم الى عناية الاله جوبيتر ، وتتدخل الاله هرمس . واحتقر ماركوس المسيحيين طوال حكمه ، بوصفه فيلسوفا ، ووقع عليهم العقوبات بوصفه ملكا .

وتوقفت على النور ، قضاء وقدر ، تلك الأهوال التي قاسوها في ظل حكومة أمير ماضل حين تبوا العرش طاغية ، ولما لم يعان أحد غيرهم من جور ماركوس ، فأنهم وحدهم كذلك احتبوا في رفق كهودوس ونسامله . ذلك أن مارشا الشهيرة Marcia ، أحب خليلاته اليه، تلك التي حاولت آخر الأمر قتل عشيقها الإمبراطور ، تعلقت تعلقا شديدا غريبا بالكنيسة المظلومة ، وربما راودها الأمل — رغم استحالة التوفيق بين ممارسة الدعارة وبين تعاليم الانجيل — في أن تكفر عن سقطات بنات جنسها وحرمتها ، بأن تعلن أنها راعية المسيحيين ، ومن ثم قدسوا في ظل الحماية الكريمة لمارشا ، ثلاث عشرة سنة من الأمن والطمانينة ، وهي فترة حكم الطاغية الغاشم . فلما استقر عرش الإمبراطورية في أسرة سيفيروس ، أنشأ المسيحيون علاقة خاصة . واكتنفا علاقة اشرف ، مع الحاشية الجديدة . واقتنع الإمبراطور ،

بأنه في مرضه الخطير ، قد أفاد ، روحيا أو ماديا ، من الزيت المقدس الذي مسح به أحد عبيده . ومن ثم عامل عدة أفراد من الجنس من اعتنقوا الدين الجديد معاملة خاصة متميزة . وكانت مربية كاراكلا (ابنه) وكذلك معلمه ، من المسيحيين ، وإذا كان هذا الأمير الصغير قد أظهر يوما شيئا من العاطفة الانسانية ، فإن ذلك يرجع الى حادثة ارتبطت رغم تفاهتها بقضية للمسيحية . ففي عهد سيفيروس كبح جراح الجاهير ، وأوقف بطش القوانين ، وقنع حكام الولايات بتسلم هدية سنوية من الكنائس الواقعة في دائرته اختصاصهم ، ثمنًا أو مكافأة لاعتدالهم ، وأجج النزاع بين أساقفة آسيا وإيطاليا اختلافاً على الموعد الدقيق للاحتفال بعيد الفصح ، وكان هذا الاختلاف أهم ما يشغل فترة الفراغ والهدوء هذه ، كما أنه لم يعكر صفو الكنيسة وقتئذ شيء ، حتى تزايد عدد المهتدين الجدد الى العدد الذي يبدو أنه جذب انتباه سيفيروس وحول مجرى تفكيره . فأصدر ، بغية الحد من تقدم المسيحية ، قانوناً قصد أن يقتصر اثره على هؤلاء المرتدين الجدد الى المسيحية ، ولكنه رغم ذلك ، لم يكن من اليسور تنفيذه ، تنفيذاً دقيقاً ، دون أن يعرض للخطر وللعقاب ، أشد المعلمين والمبشرين غيره . ويمكن أن نقبل حتى في مثل هذا الاضطهاد المخفف ، روح التساهل في روما وفي الشرقيين ، تلك الروح التي تقبلت عن طيب خاطر كل عذر في جانب أولئك الذين مارسوا طقوس آبائهم الدينية .

ولكن سرعان ما زالت القوانين التي كان قد سنّها سيفيروس بزوال سلطانه ، ونعم المسيحيون ، بعد هذه العاصفة الطارئة بهدوء تام ثباتية وثلاثين عاماً . وكانوا حتى هذه الفترة يعتقدون اجتماعاتهم في دور خاصة أو أماكن منعزلة ، أما الآن فقد رخص لهم في تشييد أو تدشين أبنية مريحة ملائمة لأغراض العبادة ، وفي شراء الأراضي حتى في قلب روما ، لتستخدمها الطائفة في إجراء انتخاب الموظفين الكنسيين بطريقة علنية ، ولكنها كانت في نفس الوقت مثالية استحققت احترام الأميين ، واسترعت انتباههم . واقترب هذا الهدوء الطويل الأمد في الكنيسة بالجلال والعظمة . وثبت أن عهد الأمراء الذين نهبتوا في الولايات الآسيوية كانت أوفق العهد للمسيحيين . وسمح لألع افسراء الطائفة ، بعد أن كانوا يلتصون حماية أحد العبيد أو إحدى الحظيات ، بالذهاب الى القصر ، معززين بكرمين ، بوصفهم قساوسة أو فلاسفة . وأثارت مبادئهم الغامضة التي كانت قد انتشرت بالفعل بين الشعب ، أثارت تشوف الملك دون أن يشعر ، ولما مرت الامبراطورة مابيا

بأنطاكية أبدت رغبتها في التحدث إلى الرجل المشهور أوريجن ، الذي طبقت شهرة ورعه وعلبه آفاق الشرق ، ورحب أوريجن بهذه الدعوة المغرية ورغم أنه لم يكن يأمل في تحويل هذه المرأة النداهية الطموح ، فانها أصغت في سرور إلى عظاته البليغة ، وصرفت مكرما إلى باواه في فلسطين . وتبنى الاسكندر أحاسيس والدته ماميا ، وتميز النسك الفلسفي لهذا الامبراطور بتقدير فريد ولكنه تقدير طائش للسديانة المسيحية . ووضع في معبده الخاص بالقصر تماثيل ابراهيم ، وأورفيوس ، وأبولونيوس ، والمسيح ، تكريما جديرا بهؤلاء الحكماء الموترين الذين هدوا البشر إلى الطرق المختلفة التي يظهرون بها اجلالهم وولاءهم للاله الأعظم للكون كله . واعتنق كل من في القصر ، ومارسوا علنا ، عقيدة وعبادة أنقى . وشوهد الأساقفة ، وربما لأول مرة ، في الحاشية . فلما مات الاسكندر ، هب مكسيين الغليظ القلب جام غضبه على كل الخلاء والموظفين من رجال ولي نعمته المنكود الحظ ، وراح عدد كبير من المسيحيين من الجنسين ضحية هذه المذبحة الهوجاء ، التي أطلق عليها من أجلهم ، وبغير حق اسم « اضطهاد » .

ورغم اتجاهات مكسيين القاسية ، كانت آثار حنقه على المسيحيين محدودة مؤقتة جدا ، وظل أوريجن الذي أهدر دمه ، على أنه ضحية مظلومة ، يبشر الملوك بحقائق الانجيل ، ووجه رسائل تهذيبة إلى الامبراطور فيليب وزوجته وامه . وحالما اغتصب الأمير الذي ولد بجوار فلسطين ، عرش الامبراطورية ، التمس فيه المسيحيون صديقا وراعيا . واثار عطف ، بل تحيز ، الامبراطور فيليب للطائفة الجديدة ، وتوقيره الدائم لرجال الكنيسة ، آثار التشبهات التي حامت في أيامه حول اعتناقه المسيحية ، ومهد للخرافة التي ابتدعت بعد ذلك ، والتي تقول بأنه تطهر وكفر عن الوزر الذي ارتكبه بقتل سلفه البريء .

ويستقط فيليب وتغير الحكام والرؤساء تام أسلوب جديد من الحكم ، أسلوب شديد الجور على المسيحيين إلى حد أنهم صوروا حالتهم السابقة ، حتى منذ أيام دوميتيان ، على أنها حرية وطمأنينة كاملتان ؛ إذا عورفت بالمحاكمة البالغة القسوة التي عاثوها في فترة حكم ديسيوس القصيرة . ولا تكاد فضائل هذا الأمير تدع لنا مجالا للشك في أنه كان مسوقا بدافع من السخط الدنيء على خلاء سلفه . وأنه لأقرب إلى العقل والمنطق أن نعتقد أنه في متابعتة لخبطته العامة لاستعادة نقلاوة العائلات الرومانية ، كان يرغب في تخليص الامبراطورية

مما وصفه هو بأنه خرافة (عقيدة) مستحدثة آتية . فمضى على أساقفة أكبر المدن بالنفي أو بالاعدام . وحالت يقظة الحكام بين رجال الكنيسة في روما وبين إجراء أية انتخابات جديدة مدى ستة عشر شهرا . وقال المسيحيون إنه أهون على الإمبراطور أن يحتل منافسا له على العرش من أن يرى أسقفا في العاصمة . فهل كان من المحتمل أن بصيرة ديسيوس قد استشفت زهوا وغرورا تحت ثوب الوداعة والمسكنة ، أو أنه تنبأ بتطلع السلطة الدينية تحت ستار ادعاءاتها الروحية الى السلطة الدنيوية ، وربما كانت دهشتنا اقل اذا رأينا أنه اعتبر خلفاء القديس بطرس أخطر منافسين لخلفاء أوغسطس .

وتميزت ادارة فاليريان بطيش وتقلب لا يتلائم مع هيئة « الرقيب الروماني » ، ففى أوائل حكمه ، تجاوز رفقه رفق أولئك الأمراء الذين اشتهر في تعلقتهم بالمعقيدة المسيحية ، وفي فترة السنوات الثلاث ونصف السنة الأخيرة من حكمه ، وتحت تأثير أصغائه الى دس أو أفراد وزير انفس في خرافات مصر ، نرى الإمبراطور وقد ثنى مجادى سلفه ديسيوس ، واقتدى به في نسوته . الا ان ارتقاء جالينوس الى العرش وهو أمر زاد من مصائب الإمبراطورية ، أعاد الهدوء والسلام الى الكنيسة ، وحصل معه المسيحيون على حرية ممارسة عقيدتهم ، بمقتضى مرسوم وجه الى الأساقفة ، واعتبر اقرارا بوظيفتهم وشخصيتهم العامة . ولم تلغ الفواتين القديمة رسميا ، ولكن سمح بالقاءها في زوايا النسيان . ونعم تلاميذ المسيح (فيما عدا بعض النوايا العدائية التي نسبت الى الإمبراطور أوريليان) بأكثر من أربعين سنة من رخاء كان أشد خطرا بكثير ، على طهارتهم ، من أطمع بلال الاضطهاد .

وقد تكون قصة بولس السهمسطنى (اسمها الآن سمسط على الضفة الشرقية لأعلى الفرات) ، الذي كان يشغل كرسي الأسقفية في أنطاكية ، أيام حكم أوغستوس وزنوبيا في الشرق ، ذات فائدة في تصوير أحوال ذاك العصر وطبيعته . وكان ثراء هذا الحبر دليلا كافيا على جريمته ، لأنه لم يرثه عن آبلته ، ولم يكسبه عن طريق العمل الشريف ، ولكن بولس اعتبر خدمة الكنيسة مهنة تدر الربح الوفير . وكانت ولايته الكنسية دنيئة جشمة ، فكثيرا ما ابتز التبرعات من أغني المؤمنين من المؤمنين ، وجول لمصلحته الخاصة قدرا كبيرا من الدخل العام . وغدت الحياة المسيحية ، نتيجة غروره وبذخه ، مقينة كريمة في أعين الأميين . وكانت قاعة مجلسه وعرشه ، والهالة من الأبهة والفخفة التي أحاط بها نفسه أمام الناس ، وجموع ذوي الحاجات

الذين جاءوا يلتئمسون رعايته ، واكداس الرسائل والعرائض التي
أملى رحدوه عليها ، وزحمة العمل التي احتوتها — كانت كل هذه أموراً
البقي كثيراً بحالة حكم مدني (١) ، منها بوداعة أسقف بدائي .
وتكلف بولس ، في خطبه إلى شعبه من فوق المنبر ، الأسلوب المجازي
والإشارات المسرحية لسفسطائي أفريقي ، على حين كانت
الكاتدرائية تضح بأعلى صيحات الاستحسان وأكثرها تطرفاً لفصاحته
الإلهية ، أما مع أولئك الذين تحدوا سلطته أو أبوا أن يتلقوا كبرياءه
وغروره ، فقد كان حبر أنطاكية متعجباً عنيماً عنيداً ، ولكنه كان
يخرق النظام ويبعث أموال الكنيسة على المساواة التابعين له ،
والذين سمح لهم بالافتداء بسيدهم في كل نزوة شهوانية . فقد انغمس
بولس ، في شراة مطلقة في ملذات المائدة ، واستقبل في قصره الكني
غادتين جبيلتين ، كرميقتين دائمتين له في أوقات فراغه (٢) .

ولو أن بولس السيمطي — رغم رذائله الفاضحة — أبقى على
نقاوة المذهب الأرثوذكسي المستقيم لانتهت ولايته على عاصمة سوريا
بإنتهاء حياته بحسب ، ولو أن اضطهاداً معقولاً تدخل في الأمر فلربما
أدى ضرب من ضروب الشجاعة إلى رفعه إلى مراتب القديسين
والشهداء . ولكن بعض الأخطاء الخبيثة الرقيقة ، التي تبناها في غير
تبصر . وتمسك بها في عناد شديد ، فيما يتعلق ببدء التثليث ، أثارت
غيرة الكنائس الشرقية واستياءها ، وتكتل الأساقفة من مصر إلى
البحر الأسود ، وقاموا وتمعنوا وثاروا ثارتهم بسبب هذه الأخطاء ،
وعقدت عدة اجتماعات ، ونشرت مدة تفهيمات لحضها ، وصدرت
عدة قرارات بالحرمان من الكنيسة ، وظهرت من الجانبين تفسيرات
غامضة تارجمت بين القبول والرفض ، وعقدت معاهدات ثم نقضت ،
وانتهى الأمر بتجريد بولس السيمطي من منصبه الأسقفي بقرار من
سبعين أو ثمانين أسقفا اجتمعوا لهذا الغرض في أنطاكية ، وعينوا ،
بمقتضى سلطتهم الخاصة ، خلفاً لبولس ، دون أخذ رأي الأكليروس

(١) كان الاتجار بالمناصب الدينية مروجاً في هاتيك الأيام . فقد اشترى رجال
الأكليروس أحياناً ، ما كانوا يعززون بيصه . ويبدو أن أسقفية قرطاجنة قد اشترتها
سيده تدعى لوتشلا لأحد خدمها المدعو ماجورينوس ، بشئ قدره ٤٠٠ صرة من النقود . في
كل منها ١٢٥ قطعة من الفضة ويقدر المبلغ كله بنحو ٢٤٠٠ جنيه .

(٢) إذا أردنا أن نصمى رذائل بولس لكان لزاماً أن نثير الشبهات حول أساقفة
الشرق مجتمعين ، في أنهم نشروا أشنع الفضائح في رسائل دورية وجهت إلى كل كنائس
الامبراطورية

أو الشعب ، وزاد الشفوذ الواضح في هذا الاجراء من عدد أفراد الفريق المعارض ، ولما لم يكن بولس غريبا على أنثانين البلاط وحيله ، فقد تسلل الى عطف الملكة زنوبيا ، ومن ثم احتفظ لأكثر من أربعة أعوام بدار الأسقفية ومنصبها . ولكن انتصار أوريليان غير وجه الشرق ، وصدرت الأوامر للطرفين المتنازعين الذين رمى الواحد منهما الآخر بالمرق والزيف ، أو قل رخص لهما ، بعرض قضيتهما على محكمة الإمبراطور الفاتح . وان هذه المحاكمة العلنية الفريدة انتقدت برهانا قاطعا على اعتراف حكام الإمبراطورية على الأقل — ان لم تكن القوانين كذلك — بوجود المسيحيين وممتلكاتهم وامتيازاتهم وسياساتهم الداخلية . ولما كان من المتوقع أن يدخل أوريليان — بوصفه وثليا وجنديا — في مجادلات ليخلص الى أي الفريقين : بولس أو خصومه ، تتفق مبادئه مع العقيدة الصحيحة أكثر اتفاقا ! ومهما يكن من شيء فقد بنى الإمبراطور قراره على المبادئ العلمية للانصاف والمنطق . واعتبر أساقفة إيطاليا ، أكثر القضاة نزاهة واحتراما بين المسيحيين ، وحالما أبلغ انهم وافقوا على حكم المجلس بالإجماع ، أذن لرأيهم ، وأصدر على الفور أوامره بأرغام بولس على التنحي عن كل الممتلكات الدنيوية المرتبطة بمنصب قد صار حرمانه منه ، في رأي أخوته ، بطريقة سلمية . ولكننا اذ نمتدح العدالة ، يجدر بنا ألا ننفض الطرف عن سياسة أوريليان الذي كان يرنو الى استعادة اهتمام الولايات على العاصمة وتدعيم تبعيتها لها ، بكل وسيلة يمكن أن توثق لحبه أي جزء من شعبه وتقيد أهواءهم .

الكنيسة في عهد قنطديانوس وخلفائه

ظل المسيحيون يتمتعون بالسلام والرخاء وسط الثورات المتكررة التي اجتاحت الإمبراطورية . ورغم الحقبة المشهودة التي يطلق عليها « عصر الشهداء » ، نشأ بارتقاء قنطديانوس الى العرش ، أسلوب جديد من السياسة ، ابتدعته وتمهنته حكمة هذا الأمير ، واستمر هذا الأسلوب طوال ثمانية عشر عاما ينفع من روح التسامح الديني أكثرها اعتدالا وتحورا . والحق أن عقلية قنطديانوس نفسه كانت أقل استعدادا للأبحاث النظرية منها للأعمال الجادة في مجال الحرب والحكم . وقد نفره هزله ورويته من الانتدفاع في الابتداع والابتكار ، ورغم أن مزاجه لم يكن سريع التأثر بالغيرة والحماص . الا أنه درج على اظهار الاحترام للمعبودات القديمة في الإمبراطورية . ولكن شرع

الامبراطوريتين : بريسكا Prisca زوجته وفاليريا Valeira كريسته ،
هيا لهما سبيل الاصفاء ، في مزيد من الاهتمام والاحترام ، الى حقائق
المسيحية التي اعترفت ، في كل العصور ، بانها مجيئة اكبر الدين لتقبل
المرأة وولائها . وبسط الخصيان الرئيسيون : لوشنيان ودوروثيوس ،
وجورجونيووس ولندزو ، الذين لازموا شخص دقلديانوس ، وحظوا
بحبه وعطفه ، وكانوا اصحاب الأمن والتهب في قصره — نقول بسـ .
هؤلاء الخصيان ، بنفوذهم القوي ، حمايتهم على العقيدة الجديدة التي
كانوا قد اعتنقوها . وحذا حذوهم كثير من أهم الموظفين في القصر الذين
وكل اليهم ، كل — حسب وظيفته — أمر العناية بحلى الامبراطور ،
وبالملابس وبالأثاث وبالمجوهرات ، بل حتى بالخزانة الخاصة . وعلى
الرغم من التزامهم أحيانا بصاحبة الامبراطور في تقديم الضحايا
والقربان في المعبد ، هؤلاء الموظفين وزوجاتهم وأولادهم وعبيدهم ،
نعموا بالحرية في ممارسة الديانة المسيحية . وكثيرا ما خص
دقلديانوس وزملاؤه ، بأهم المناصب ، أولئك الأشخاص الذين اعلنوا
بغضهم لعبادة الآلهة ، ممن تكشفت فيهم القدرات والمواهب اللازمة
لخدمة الدولة : وكانت لكل من الاساقفة منزلة كبيرة في ولايته . وكانوا
يلقون معاملة ملؤها التقدير والاحلال ، لا من الشعب وحده ، بل من
الحكام أنفسهم . وقين في كل مدينة تقريبا أن الكنائس القديمة
لا تتسع للمتزايد من الداخلين في الدين ، فشيء مكانها ابنية
أخضر وأرحب تصلح لاقامة الصلوات العامة للمؤمنين . وقد يعتبر
سوء السلوك وفساد البسادة اللذين نعى عليهما يوسوبوس
Eusebius (أحد مؤرخي الكنيسة ٢٦٠ — ٣٤٠ م) لا مجرد
نتيجة ، بل برهانا على الحرية التي تمتع بها المسيحيون وأساءوا
استغلالها في عصر دقلديانوس . وكانى بالرعاية قد أرخت من
قبضة النظام ، وتفشى الغش والفساد والضعف في كل المصاغل
المسيحية . وتطلع المشايخ الى منصب الأنسقية الذي بات يوما بعد
يوم هدفا اجدر بالطبع فيه . أما الاساقفة الذين كانوا يزاحمون
بعضهم بعضا على التفوق في مجال الكنيسة ، فقد بدا من تصرفاتهم
أنهم يزعمون لأنفسهم سلطة دينوية استبدادية في الكنيسة . وتجلي
الايمان المتفصح الذي ظل يميز المسيحيين عن الكفار ، أقل كثيرا في
حياتهم منه في كتاباتهم الجدلية .

وربما تبين للمراقب اليقظ ، على الرغم من هذه الطمأنينة
الظاهرة ، بعض اعراض أنذرت الكنيسة باضطهاد أعنف من أي
اضطهاد عانت من قبل . ذلك أن غيرة المسيحيين وسرعة تقدمهم

ايقتطعا المشركين من سباتهم واستهانهم بقضية تلك المعبودات التي علمهم العرف والطقن. ضرورة اجلالها واحترامها . واثارت الاستغزازات المتبادلة في حرب دينية دامت لأكثر من مائتي عام — أثارت نائرة الفريقين المتنازعين ، وغاظ الوثنيين تهبور تلك الشسبة الحديثة الحقيرة التي اجترأت على رمى مواطنيهم بالبعد عن جادة الصواب ، والقاء آياتهم وأجدادهم في وعدة الشقاء المقيم . وولد دأبهم على الدفاع عن الأساطير الشعبية المألوفة ضد تجريح عدو عنيد ، ولد في اذمائهم مشاعر من الايمان والاجلال لأسلوب كانوا قد تعودوا أن ينظروا اليه بأكثر قدر من الاستهغار والاستهانة . وقد أوجت تلك القوى الخارقة التي انتقلت الكنيمة ، بالرهبة والمفاسسة في نفس الوقت . واعتصم أتباع الديانة القديمة (الوثنية) بسياج مماثل من الكرامات والمعجزات ، وابتدعوا أشكالاً جديدة للقرابين والضحايا ، وللكفارة ، وللدفول في الدين (١) ، وحاولوا أن يحيوا التصديق والتلة بالوحى المنقرض ، واستمعوا في سذاجة مطلقة الى أى دجال يتلق تحيزهم باحدى التمسس الملائى بالعجائب ، وبدا أن كلا من الفريقين اعترف بصديق المعجزات التي ادعاهما غريبه . وبينما ينجوا جيها بنسبتها الى إلهين السحري وقوة الجن ، نجد الفريقين كليهما قد استعدا للخرافة سلطنتها وثبتا دعائهما (٢) . وتحولت الآن الفلسفة ، وبهى الد أعدائها ، الى جليتها النافع ، الى أبعد حدود النفع ، وكادت أن تهجر جبهائل الاكاديمية وجدائق أبيقور ، بل حتى قاعات الرواقين ، لأن كثيراً من مختلف مدارس الشك أو الالجاد وكثيراً من الرومان ، رغبوا في وجوب إدانة كتابات شيبثرون وإبطالها بمقتضى ما للسناتو من سلطة ، ورات طائفة الأفلاطونيين الحديثين أنه من الفطنة أن يفتوا الى جانب الكهنة الذين ربما احتقرهم هؤلاء الأفلاطونيون الجدد ، ضد المسيحيين الذين كان ثمة ما يبرر توجس الخيفة منهم . واتخذ هؤلاء الأفلاطونيون أسلوب استخراج الحكمة المجازية من قصص

(١) وقد لفتبس من بين المبد الكبير من الأثلة ، العبادة الخفية لمثرا Mithra (عبادة الشمس في الفرس قديما) وتوروبوليا Taurobolia (عبادة وثنية نشأت أولا في آسيا الصغرى) ، وكانت هذه العبادة هي عبادة العصر في عهد الانطونيين . وان قصة أبوليوس Apuleius لتزخر بالنسك والهزاء بقدر سواء .

(٢) انه لما يؤسف له أشد الأسف أن الآباء المسيحيين ، باعتراهم بالجانب الخارق للطبيعة — أو كما قدروه هم أنفسهم — الجانب الخفيت هي الوثنية ، انما يقضون بأيديهم على الفائدة التي ربما حصلها عليها — لو لم يملوا ذلك — من ادعان خصومنا الذي يتسم بالتحذر .

الشعراء اليونانيين ، ومرضوا للعبادة شعائر خفية يقوم بها تلاميذهم المختارون ، وأوصوا بعبادة الأرياب القدامى بوصفها رموزا أو خداما « لئلا الأعظم » ، وألفوا لدحض عقيدة الانجيل كثيرا من الرسائل المتننة التي جعلتها مظنة الأباطرة طعنا للنار منذ ذلك الوقت .

وعلى الرغم من أن سياسة نقلديانوس وقسطنطينوس اتجهت الى الاستمساك باحترام مبادئ التسامح ، فإنه سرعان ما تبين أن شريكهما مكسيميان وجالريوس أضمرّا لاسم المسيحيين وديانتهم الدعاوة لا تليّن . أن نور العلم لم يجد سبيلا الى عقل هذين الأميرين ، ولم يصقل التعليم طباعهما قط ، وهما مدينان بعظمتها للسيف . وتمسكا ، وهما في أوج مجدهما ، بأراء الجنود والفلاحين المبنية على الخرافة ، ونفذا في ادارة الولايات تلك القوانين التي كان ولي نعمتهما قد شرعها ، ولكن كثيرا ما وجدا الفرصة سانحة في معسكرهما وفي قصورهما لممارسة الاضطهاد الخفى الذى أضفت عليه غيرة المسيحيين الطائشة أحيانا أشد المزاعم تلفيقا وتبويها . فمثلا نفذ حكم الاعدام في شاب أفريقى يدعى مكسيليانوس ، قدمه أبوه للحاكم على أنه في سن التجنيد وأنه لائق له ، ولكن الشلب أصر في عناد على القول بأن ضميره لا يطاوعه على الانخراط فى سلك الجندية . كما لا يكاد يكون من المتوقع أن تحتل أية حكومة تصرف ضابط المائة مارسيلوس Marcellus دون حساب أو عتاب ، ذلك أنه يوم عيد عام ، التى هذا الضابط بحزامه وسلاحه وشعارات وظيفته ، وصباح بصوت عال ، أنه لن يطيع الا يسوع الملك الأبدى ، وأنه سينبذ الأسلحة الدنيوية الى الأبد ، كما يطرح خدمة سيد وثنى . وسرعان ما أفاق الجنود من دهشتهم وقبضوا على مارسيلس . وحقق معه في مدينة تنجى Tingi بمعرفة رئيس هذا القسم من موريتانيا . وأدين بناء على اعترافه ، وحكم عليه ، وضرب عنقه بتهمة الهرب من الخدمة العسكرية . أن رائحة الاضطهاد الدينى لتفوح من مثل هذه الحالات أقل مما تفوح منها رائحة القانون المسكرى . بل حتى القانون المدنى ، ولكنها أفلحت في تحويل عقل الإمبراطورين ، وفى تبرير قسوة جالريوس الذى طرد عددا كبيرا من الموظفين المسيحيين من وظائفهم ، وفى تعزيز الرأى القاتل بأن مثل هذه الطائفة من المتحمسين الذين أعلنوا من المبادئ ما يضر بسلامة الدولة ، يجدر أن يبقوا عاطلين لا يرجى منهم نفع ، والا يلقوا خطرا على الامبراطورية .

وبعد أن رفع الانتصار في الحرب ضد غارس من آمال جالريوس وزاد من شهرته ، قضى الشتاء مع دقلديانوس في قصر نيقوميديا ، وكان تقرير مصير المسيحيين هدف مداولاتهم السرية . وكان الإمبراطور المحنك لا يزال ميالا الى الأخذ باللين والرفق . ورغم موافقته في الحال على استبعاد المسيحيين من وظائف القصر أو الجيش ، نراه يحذر من الخطر الذي ينجم عن سفك دماء هؤلاء المتعصبين المفر بهم ، ومن بشاعة هذا العمل وانتزع منه جالريوس آخر الأمر ترخيصا بدموية مجلس من نفر قليل من أبرز الموظفين والعسكريين في الدولة ، وأثيرت هذه المسألة الهامة بحضورهم ، وسهل على رجال البلاط الطامحين أن يدركوا أن من واجبهم أن يظاهروا ، بكل ما وتوا من قصاحة ، الصراح القيصري على استعمال العنف . ويمكن القول بأنهم أصروا على كل ما من شأنه أن يرضى غرور مليكهم أو تقواه أو مخاوفه ، فيما يتعلق بتدمير المسيحية . ولعلهم صوروا العمل المجيد ، ألا وهو انتقاذ الإمبراطورية ، بأنه سوف يظل ناقصا مشوبا ، طالما سمح لشعب مستقل بالبقاء والتكاثر في قلب الولايات ، وربما ذهبوا الى القول (وهو ادعاء خداع) بأن المسيحيين الذين نبذوا عبادة روبا ونظمها ، قد أسسوا جمهورية متميزة مستقلة ، من الميسور بعد القضاء عليها قبل أن تكون لها ثوة عسكرية ، جمهورية تحكمها قوانينها الخاصة ، ويتولى زمام الأمر فيها حكام منها ، ولها أموالها العامة ، وتربط بين مختلف أجزائها بروابط وثيقة تلك الاجتماعات المتكررة التي يعقدها الأساقفة الذين انصاع لقراراتهم رعاياهم الكثيرون الموسرين انصياعا تاما صريحا . ويبدو أن مثل هذه الحجج قطعت على دقلديانوس سبيل الاحجام وحبلته على اتخاذ أسلوب جديد في الاضطهاد ، وقد يساورنا الشك ، ولو أنه ليس في مقدورنا أن نسب القول ، في دسائس القصر الخفية ، وفي الآراء والضغائن الخاصة ، وحقد النساء أو الخصيان ، الى غير ذلك من الاسباب التافهة ، ولكنها الحاسمة التي تعمل عملها في مصير الإمبراطوريات ومجالس أرجح الحكام عقلا .

وتجلت آخر الأمر دلالة ابتهاج الإمبراطورين لاعين المسيحيين الذين كانوا يرقبون في قلق زائد ، طوال هذا الشتاء الكئيب ، نتيجة المشاورات السرية الكثيرة . وحدد (عفوا أو قصدا) اليوم الثالث والعشرون من فبراير ، الذي وافق يوم العيد الروماني ترميناليا Terminalia لوضع القيود على تقدم المسيحية ، ذلك أنه في الساعات الأولى من فجر ذلك اليوم ، قصد رئيس الحرس البريتوري وبرفقته عدد من القواد والتربيون ومأموري الدخل ، الى الكنيسة

الرئيسية في نيقوميديا ، الواقعة على مرتفع من الأرض في أجل بقساع المدينة وأكثرها ازدحاما بالسكان ، وفي الحال فتحوا الأبواب عنوة وأنصفوا إلى المحراب ، ولما فتشوا عثا عن أى جسم مادي للعبادة ، اضطروا إلى الاكتفاء بإحراق مجلدات الكتاب المقدس ، وكان وراء موظفي دقلديانوس حشد كبير من أفراد الحرس والطلانح مساروا في تشكيل معركة مزودين بكل الآلات اللازمة لتدمير اللحدن الحصينة . وواصلوا العمل ، حتى استطاعوا في بضعة ساعات قلائل أن يهدموا هذا البناء السامق المقدس الذي شمع فوق القصر الإمبراطوري والذي طالما أثار حنق الأميين وحقدهم .

ونشر في اليوم التالي مرسوم الاضطهاد العام ، وعلى الرغم من أن دقلديانوس ظل معارضا لسفك الدماء . وخلف من حدة جالريوس الذي اقترح أن يحرق حيا على الفور كل من يرفض تقديم القرابين والضحايا ، فإن العقوبات التي كانت تنزل بالمسيحيين المعاندين قد كانت تعتبر قاسية وفعالة إلى حد كاف . ونص المرسوم على أن كنائسهم في كل الولايات يجب أن تهدم من أساسها ، وعلى الحكيم بالاعدام على كل شخص يجرؤ على عقد أية اجتماعات بقصد العبادة الدينية ، أما الفلاسفة الذين انتحلوا لانفسهم المهمة العقبية ، مهمة توجيه التجمس الأعمى للاضطهاد ، فانهم يربوا دراسة يقطعة طبيعة الديانة المسيحية وقدرتها ، ولما كانوا لا يجهلون أن المبادئ النظرية مفروضة وجودها في كتابات الرسل والحواريين والانجيليين ، غالارح ان هؤلاء الفلاسفة اقترحوا إصدار أمر يحتم على الأساقفة والمبشرين أن يسلبوا كل كتبهم المقدسة إلى الحكام الذين أمروا — تحت طائلة أشد العقاب — بإحراقها بطريقة علنية مهيبه . وبمقتضى نفس المرسوم صودرت في الحال أملاك الكنيسة وبيعت أجزاؤها لمن يدفع أكبر ثمن ، أو ضمت إلى أملاك الإمبراطور ، أو وهبت للمدن والهيئات ، أو منحت لرجال الحاشية الجشعين بناء على توسلاتهم . وبعد هذه الخطوات الفعالة للقضاء على ديانة المسيحيين وحل حكومتهم ، رأى من الضروري أن يخضع لأشد العذاب الذي لا يطاق أولئك المتبردون الذين ظلوا يرفضون ديانة الطبيعة ، وديانة روما ، وديانة آبائهم . واعتبر الأشخاص الأحرار ذوو المنبت الكريم محرومين من الحصول على أية أيجاد أو وظائف ، وحرّم العبيد إلى الأبد من أى ابل في الحرية ، وحرّم الشعب (المسيحي) بأجمعه من حماية القانون . ورخص للقضاة في الاستماع والحكم في أية قضية ضد أى مسيحي ، ولكن لم يكن مرخصا للمسيحيين في حق الشكوى من أى ضرر أو أذى

بصبيهم هم أنفسهم ، ومن ثم تعرضت هذه الطائفة المنكودة لصرامة العدالة العامة ، على حين حرموا من التمتع بمزاياها . وربما كان مثل هذا الأسلوب من الاستشهاد الأليم البطيء الغليظ الكريه ، خير الأساليب لإرهاب عزيمة الجؤن والفت في عضده ، وليس من شك في اتجاه البشر ، في مثل هذه الظروف ، بعواظهم ويحكم مصلحتهم ، إلى مسانيرة رغبت الأباطرة ، ولكن لابد أن سياسة حكومة دقيقة التنظيم قد تدخلت أحيانا لمصلحة المسيحيين المظلومين ، كما أنه لم يكن من الممكن أن يحو الأمراء الرومان الخوف من العقاب محوا تاما ، أو يتستروا على أى عمل من أعمال التدليس أو العنف دون تعريض سلطتهم ، وتعريض سائر رعاياهم (غير المسيحيين) لأخطار الأخطار .

ولم يكد هذا الرسوم ينشر علنا في أبرز مكان في نيقوميديا قبل أن تبرقه أربا يدا مسيحي عبر ، في نفس الوقت ، بأذع السباب عن احتقاره ومقته لهؤلاء الحكام الملحد الطغاة . ورقى جرمه ، بمقتضى أخف القوانين إلى درجة الخيانة ، واستحق الإعدام . وإذا صح أنه كان رجلا متعلما ذا مرتبة عالية ، فإن هذه الظروف لم تثر شيئا سوى مضاعفة جرمه . وقد أهرق أو على الأصح شوى في نار هادئة . واستنفد جلادوه - في تحبسهم للثأر لهذه الصفعة الميئة التي أصابت أشخاص الأباطرة - استفدوا كل أمانين القسوة والعنف ، دون أن ينالوا من جلده وصيره أو يغيروا من الإبتسامة الساحرة الثابتة التي ارتسمت على وجهه ، حتى وهو يعاني سكرات الموت . واعترف المسيحيون بأن سلوكه لم يتفق اتهام الاتفاق مع قواعد الحذر والروية ، إلا أنهم رغم ذلك أعجبوا بقوة غيرته المقدسة ، كما أن انراطهم في تمجيد ذكرى بطلهم وشهيدهم ساعد على خلق احساس عميق بالرعب والكراهية في نفس قنطليانوس .

واهاج مكان الخوف عنده نذير سوء كاد يودي به ، ولكنه نجا منه بأعجوبة ، فعلى مدى خمسة عشر يوما أشعلت النيران مرتين في قصر نيقوميديا وفي مخدع دقلديانوس نفسه ، وأطفئ الحريق في المرتين دون خسائر مادية ، ولكن مجرد تكرار الحريق اعتبر بحق دليلا قاطعا على أنه لم يأت بمحض الصدفة أو نتيجة إهمال . وطبيعى أن تحسرم الشبهات حول المسيحيين ، وذهبت الظنون ، مع شيء من الترجيح ، إلى أن هؤلاء المتحصنين المستعيتين الذين استفزتهم الآلام الراحنة ، وتوقعوا المزيد من كوارث تحقق بهم ، قد دبوا مع اخوانهم المؤمنين

من خصيان القصر مؤامرة ضد حياة الامبراطورين اللذين يمتقنونهما كل المقت بوصفهما عدوين لحدودين لكنيسة الله . وملا الحقد والحقن كل الصدور وخاصة دقلديانوس . وزج في السجون بعدد كبير من ذوى المناصب أو الحظوة . وبلغ الامعان في التعذيب بمختلف الوسائل حد الشطط . وتلوث القصر والمدينة على السواء بدماء اولئك الذين نفذ فيهم حكم الاعدام . ولما كان من المتعذر استجلاء غوامض هذه الفعلة الخفية ، فيبدو أنه لزام علينا اما أن نفترض براءة هؤلاء المعذبين أو نبدي الاعجاب بقوة عزيمتهم . واسرع جالوريوس بعد ذلك بايام قلائل بغادرة نيقوميديا ، معلنا أنه لو أبطأ في الرحيل عن هذا القصر المتعبد لوقع حتما فريسة لغضب المسيحيين . اما مؤرخو الكنيسة الذين نستقى منهم شذرات من معلومات متحيزة مبتورة ، فانهم في حيرة من امرهم ، كيف يطلون بخاوف الامبراطورين ويعللون الخطر المحدق بهما . وكان اثنان منهم احدهما أمير والثاني من ائمة البلاغة - شاهدي عيان لحريق نيقوميديا ، وينسب أحدهما هذا الحريق الى صاعقة من غضب السماء ، بينما يؤكد الثاني أنه من تدبير جالوريوس وكيد .

ولما كان المرسوم الصادر ضد المسيحيين قد وضع على اساس أن يكون قانونا عاما يطبق في جميع أنحاء الامبراطورية ، ولما كان دقلديانوس وجالوريوس قد تأكد لهما اتفاق أميرى الغرب محميا في الراى ، ولو لم يكن لزاما عليهما أن يتريثا حتى تتم الموافقة ، فإنه يبدو أكثر تمشيا مع آرائنا في السياسة أن حکام جميع الولايات قد تلقوا تعليمات سرية لينشروا - كل في نطاقه - في يوم واحد اعلان الحرب ، وكان من المتوقع على الأقل أن الطرق العامة الميسرة ونقط الرقابة المقامة عليها سوف تمكن الأباطرة من نقل أوامرهم بأقصى سرعة من قصر نيقوميديا الى أقصى أطراف العالم الروماني ، والا يتحلوا مضي خمسين يوما قبل أن ينشر المرسوم في سوريا ، وقراءة أربعة شهور قبل أن يعلن في مدن أفريقية ، وربما رجع هذا الإبطاء الى طبع دقلديانوس الحريص المحاذر ، الذي وافق كارها على اجراءات الإضطهاد ، والذي رغب كل الرغبة في محاولة هذه التجربة ، أقرب ما يكون الى بصره وسمعه ، قبل أن يفسح المجال للاضطراب والنسخت اللذين لابد أن تحدثهما هذه التجربة في الولايات النائية . والحق أن الحكام منعوا أول الأمر من سفك الدماء ، ولكن رخص لهم فيما عدا ذلك من ألوان القسوة ، بل استحثوا عليها . على أن المسيحيين من جهة أخرى ، رغم أنهم تخلوا في رضا عن زخارف كنائسهم ،

لم يكن في وسعهم أن يقرروا ابطال اجتماعاتهم الدينية أو تسليم كتبهم المقدسة الى النيران . ويبدو أن ورع فيلكس Felix العنيد ، وهو استقف أفريقى ، قد أزعج صفار موظفى الحكومة ، فأرسله امين مدينته مكبلا بالأصفاد الى البروتنصل ، فحمله هذا بدوره الى رئيس الحرس البريتورى فى ايطاليا ، وأخيراً اطلقوا برأس فيلكس الذى احتقر حتى أن يجيب اجابة مراوغة فى مينوسيا فى لوكانيا ، وهو مكان اكتسب شهرة بولادة هوراس فيه . ويبدو أن هذه السابقة — بالإضافة الى مرسوم امبراطورى يحثل أن يكون قد صدر نتيجة لها — حولت حكام الولايات حق انزال عقوبة الاعدام بالمسيحيين الذين يمتنعون عن تسليم كتبهم المقدسة ، وليس من شك فى أن كثيراً من الناس انتهزوا هذه الفرصة ليفوزوا بشرف الاستشهاد ، ولكن كان هناك بالمثل كثيرون ممن اشقوا حياة بغيضة بالكشف عن مخبئ الكتب المقدسة وتسليمها غدرا الى الكفر . ووصم عدد كبير ، حتى من الاساقفة والمسايع ، من جراء هذا التواطئ الاجرامى ، بوصمة هذا النعت الشائن « الخونة » وكانت هذه الخطيئة سبباً فى كثير من فضائح العصر ، وفى كثير من الاضطراب والخلل فى الكنيسة الأفريقية فيما بعد .

وكانت نسخ الكتاب المقدس وترجماته قد تكاثرت عددها فى الامبراطورية الى درجة لم تعد تسفر معها اقصى التحريات عن نتائج حاسمة ، بل ان التضحية بتلك المجلدات التى كانت محفوظة فى كل المجامع للاستعمال العام ، كانت تقتضى رضاء بعض المسيحيين الخونة الأذنياء . ولكن عملية تدبير الكنائس كان من السهل تنفيذها بسلطة الحكومة وجهود الوثنيين . ومهما يكن من شيء ، فقد اكتفى الحكام فى بعض الولايات باغلاق أماكن العبادة . وكان آخرون اشد تمسكاً بحرمة نصوص المرسوم ، فنزعوا الأبواب والمقاعد والمبخر ، وأهرقوها ، وكأنها كومة جنائزية ، ثم هدموا بقية المبنى عن آخره . وربما كان لزاماً علينا ، من أجل هذه المناسبة الأسيفة ، أن نلجأ الى تلك القصة المشهورة التى تروى فى كثير من وجوه التباين والاستحالة ، الى درجة أنها قد تثير غضولنا أكثر مما تشبعه . ففى بلدة صغيرة فى فريجيا (إقليم قديم فى اواسط آسيا الصغرى) لم ننبأ باسمها أو موقعها ، والظاهر أن حكامها وجمهور شعبها كانوا قد اعتنقوا المسيحية — كان من المتوقع أن تحدث بعض المقاومة لتنفيذ المرسوم ، ومن ثم زود حاكم الولاية بفضيلة من جنود الجيش ، ولدى اقترابهم من المدينة هرع المواطنون الى الكنيسة موطين العزم على الدفاع بأسلحتهم عن هذا

المكان المقدس أو الهالك تحت اطلاله ، وأبوا في إجتياز المكان ، حتى استغزوا
بأبائهم العنيد . الجنود فاشعلوا النار في كل جوانب المكان ، وأبادوا
بهذا اللون الغريب من الاستشهاد عددا كبيرا من المبسلى غريغيسا
وزوجاتهم وأطفالهم .

وحدثت في سوريا وعلى حدود أرمينيا قلاقل بسيطة لم تلبث أن
ثارت حتى أصبحت ، ولكنها رغم ذلك هيأت لأعداء الكنيسة مناسبة
خداعة للايعاز بأن هذه المقامات إنما أثارها سرا سياسيا الإساقية
الذين نسوا في الواقع تفاخرهم بالاعتراف بالطاعة المطلقة بغير حدود ،
وتجاوز جنق دقلديانوس وبخلافه ، آخر الأمر ، حدود الاعتدال الذي
تذرع به حتى الآن . فاعلن في سلسلة من المراسيم الصارمة من عزمه
على مجو اسم المسيحية ، وقضى أول هذه المراسيم على حكام الولايات
باعتقال كل رجال الكنيسة ، وسرعان ما امتلأت السجون المخصصة
لكبار المجرمين بجموع الأساقية والمشيخ والشماسية والقراء . بل
حتى بطريركي الأرواح القديرة . وأمر الحكام بقتل المرسوم الثاني ،
باللجوء إلى كل وسائل العنف التي يمكن أن تبعد أولئك عن خرافتهم
الخبثية ، وتضطرهم إلى الرجوع إلى عبادة الآلهة القائمة . وامتد هذا
الأمر الرهيب ، بناء على مرسوم تال ، إلى جماعة المسيحيين كافة ،
ومن ثم تعرضوا لاضطهاد عنيف شامل . وأصبح من واجب الموظفين
الامبراطوريين ، بل ومن مصلحتهم كذلك بدلا من تلك القيود السلبية
التي كانت تتطلب من المدهم إقامة بيئة صريحة جديدة ، أن يكتشفوا
ويعتقبوا ويعذبوا أبغض الأشخاص من بين المؤمنين . ورفضت العقوبة
الصارمة على كل من يجرؤ على انتقاد أي مشيخ للمسيحية حرم من
حماية القانون ، من الغضب العادل للآلهة أو الأباطرة ، وعلى الرغم
من صرامة هذا القانون ، فإن الشجاعة الخيرة التي تجلت في إخفاء
كثير من الوثنيين لأصبتاتهم وأقربائهم ، لتقدم أنيل برهان على أن
بطش الخرافة لم يخد في نفوسهم مواطني الطبيعة والانسانية .

وما كاد دقلديانوس يصدر مراسيمه ضد المسيحيين ، حتى جرد
نفسه من صولجان الملك ، وكأنه بذلك أراد أن يلقي بمهمة الاضطهاد
إلى أيدي غير يديه . بيد أن أخلاق زملائه وخلفائه ومواقفهم دفعتهم
تارة إلى أعمال هذه القوانين الجائرة ونزعت تارة أخرى إلى وقف
العمل بها . ونحن لا نستطيع الحصول على فكرة صادقة واضحة عن
هذه الحقبة الخطيرة من تاريخ الكنيسة ، إلا إذا درسنا أحوال

المسيحية في مختلف أجزاء الإمبراطورية ، كل على حدة ، طوال الأعوام العشرة التي انقضت بين أول مراسيم ثقلديانوس وبين السلام النهائي في الكنيسة .

ولم يرتض طبع قسطنطينوس الرقيق الوديع ظلم أى فريق من رعاياه ، فتولى المسيحيون الوظائف الرئيسية في قصره ، وأحب أشخاصهم وقدر أمانتهم ، ولم يستشعر شيئا من الكراهية لمبادئهم الدينية ، ولكن طالما بقى قسطنطينوس في المركز التابع أو الثانى « قيصر » (لا أغسطس) ، فإنه لم يكن في مقدوره ، صراحة ، أن يرفض قوانين ثقلديانوس ، أو يعصى أوامر مكسيميان . لكن سلطته على أية حال ، ساعدت في تخفيف الآلام التي حزن لها وكرهها . فقد رضى على كره منه بهدم الكنائس ، ولكنه جرد على حماية المسيحيين أنفسهم من بطش الجمهور ومن جور القوانين . وذات ولايات الغال (ويمكن أن نلحق بها بريطانيا على الأرجح) بالهدوء الفريد الذي نعمت به ، لوساطة مليكهم الكريمة . ولكن داثيانوس ، رئيس أسبانيا أو حاكمها ، بفعل الغيرة أو السياسة ، أثر أن ينفذ المراسيم الناعمة التي أصدرها الإمبراطوران ، على أن يظن إلى المقاصد الدينية في نفس قسطنطينوس . وقل أن يوجد مجال للشك في أن ادارته للولاية قد تلطخت بدماء نفر من الشهداء . ولما تبوأ قسطنطينوس إلى الرئاسة السامية المستقلة — مرتبة أوغسطس — انسخ أماله مجال المصل الحر لتحقيق رغباته . ولم يمنعه قصر حكمه من ارساء أسلوب جديد للتسامح ، كان لابنه قسطنطين فيه ندوة يجتذبها ، ومنه نابوس يسير على هذبه . واستحق الابن الموفق — الذى أعلن نفسه منذ اللحظة الأولى لارتقائه عرش الإمبراطورية ، حامى الكنيسة — استحق أن يطلق عليه أنه أول إمبراطور اعترف علانية بالديانة المسيحية وثبت دعائمها . ان بواعث تحوله ، التي يمكن استخلاصها ، بشكل أو بآخر ، من حب الخير ، أو السياسة ، أو الاقتناع ، أو تائب الضمير ، ونجاح الانقلاب الذى أصبحت معه المسيحية ، بفضل نفوذه القوى ونفوذ أبنائه ، الديانة الغالبة في الإمبراطورية الرومانية — نقول ان كل أولئك سوف يشكل فصلا ممتعا هاما في فصل تال من هذا التاريخ ، أما الآن فيكفى أن نشير إلى أن كل انتصار أحرزه قسطنطين كان له بعض الأثر في التخفيف عن الكنيسة وبعض النفع لها .

وعانت ولايات إيطاليا وأمريقية من اضطهاد لم يطل أمده ولكنه كان عنيفا . ذلك أن مراسيم ثقلديانوس الجائرة نفذها ، في دقة

وابتهاج ، شريكه مكسيميان ، الذى كره المسيحية منذ زمن طويل ،
والذى كان يطرب لسفك الدماء وأعمال العنف . والتقى الامبراطوران
دقلديانوس ومكسيميان ، فى خريف العام الاول للاضطهاد ، فى روما ،
ليحتفلا بفكرى انتصارهما . ويبدو أن عدة قوانين جائرة قد انبثقت
عن مشاورتهما السرية ، واستمد الحكام من حضرة الامبراطورين قوة .
وبعد تنازل دقلديانوس عن الحلة الامبراطورية ، عهد بإدارة ايطاليا
وافريقية الى سيفيروس ، وتعرضتا — دون دفاع — لسيخط سيده
جالريوس الذى لا يرحم . ومن بين شهداء روما ، يستحق أدوكتس
Adauctus — تجميد الأجيال القادمة ، فقد كان سليل أسرة نبيلة فى
روما ، وتدرج فى مناصب القصر ، حتى وصل الى المنصب الخطير ،
خازن الممتلكات الامبراطورية الخاصة . وقد ذاعت شهرة أدوكتس
باعتباره أول شخص من ذوى المكاة والامتياز يبدو أنه لقى حتفه
طوال فترة هذا الاضطهاد العام .

وأعاد تهرد مكسنتيوس على الفور السلام والهدوء الى كنائس
ايطاليا وافريقية ، وظهر نفس الطاغية الذى سام سائر طبقات رعاياه
الوان الظلم — بمظهر العادل الوديع ، بل حتى التحيز للمسيحيين
المنكوبين . واعتمد على عرمانهم لجبيله وحبههم له . وكان طبيعيا أن
يقدر أن ما عانوا من أذى ، وما ظلوا يتوقعون من أخطار ، على يدي
عدوه العنيد لابد أن يؤمن له اخلاص غريق باتت له بالفعل أهميته
وتيمته عددا وثراء ، بل أن سلوك مكسنتيوس نحو أساقفة روما
وقرطاجة قد يعتبر دليلا على تسامحه ، حيث أنه من المحتمل أن أكثر
الأمراء استقامة وتهسكا بالدين لا بد أن ينهجوا مثل هذا النهج ازاء
رجال الدين القائم . وكان مارسلس Marcellus ، أول هؤلاء الأخبار
قد أثار الاضطراب فى العاصمة بما غرض من كنارة على عدد كبير من
المسيحيين الذين كانوا قد نبذوا أو تنكروا للدين ، فى فترة الاضطهاد
السابق . واشتد الهياج ، وتوالت الفتن العنيفة ، وسفك المؤمنون
دماءهم بأيديهم ، ووجد أن نفى مارسلس الذى بدا أن غطنته كانت أقل
سموا من غيرته — هو الاجراء الوحيد الذى يمكن به إعادة السلام الى
الكنيسة المهزقة فى روما . ويبدو أن سلوك منسوريوس Mensurius
أسقف قرطاجة ، ما غتئى ينذر بالخطر . فان أحد شمامسة هذه المدينة
نشر قذفا فى حق الامبراطور ، واحتسب الثماس المسء بدار الاسقفية،
ورغم أن الوقت لم يكن قد حان بعد للمطالبة بحق الحصانة الكنسية ،
فقد رفض الأسقف تسليمه الى أيدي العدالة . واستدعى منسوريوس
الى البلاط ، من أجل هذه المقاومة التى تتسم بالخيانة ، ولكنه ، بدلا

من أن يتلقى حكماً عادلاً بالاعدام أو النفي ، سمح له بعد تحقيق قصير بالانصراف الى أبرشيته . تلك كانت حالة السعادة التي نعم بها رعايا مكسنتيوس المسيحيون ، الى حد أنهم اذا عن لهم أن يحصلوا على بعض جنث الشهداء لاستعمالهم الخاص ، اضطروا الى شرائها من اقصى ولايات الشرق ، وثمة قصة تروى عن آجلا Aglae ، وهى سيدة رومانية منحدره من احدى أسرات القناصل ، تملك ضيعة كبيرة تطلبت ادارتها ثلاثة وسبعين موظفا ، كان بونيفاس Boniface أكثرهم حظوة لدى سيده ، ويروى أنه لما مزجت آجلا الحب بالعبادة ، سمحت له بمضاجعتها ، ومكنتها ثروتها من تحقيق الرغبة النقية فى الحصول على بعض الرمات المقدسة من الشرق ، فزودت بونيفاس بمبلغ كبير من الذهب ، وكية كبيرة من العطور ، وسعى عشيقها — يحف به اثنا عشر خيالا ، وتتبعه ثلاث عربات مغطاة ، حاجا الى مكان سحيق ، الى مدينة طرسوس فى قيليقيا .

مرسوم جالريوس للتسامح

كان جالريوس ذو المزاج الدموى والمنشئ الاول والرئيسى للاضطهاد — شديد البأس على المسيحيين الذين ألقى بهم عظم العائر فى نطلق مملكته . وقد يحق لنا أن نذهب بنا الظنون الى أن أفرادا كثيرين من الطبقة الوسطى الذين لم تحد من حريتهم قيسود الثروة أو اغلال الفاقة ، كثيرا ما هجروا وطنهم والتبسوا ملجأ وملأذا فى المناخ الذى هو أكثر اعتدالا فى الغرب ، وطالما اقتصر سلطان جالريوس — على جيوش الليريكوم Illyricum وولاياتها — غائه لقي صعوبة فى العثور على الشهداء أو صنع عدد منهم ، وسط بلد محارب استقبال المبشرين بالانجيل بفتور وامتعاض أكثر مما استقبلوا بها فى أى مكان آخر فى الامبراطورية . ولكنه حين استحوذ على السلطة العليا ، وآلت اليه حكومة الشرق ، سدر فى غيرته وقسوته الى ابعد مدى ، لا فى ولايتى تراقيا وآسيا فقط ، حيث دانت هاتان الولايتان لسلطانه المباشر ، بل كذلك فى ولايت سوريا وفلسطين ومصر ، حيث أرضى مكسيمين نزعته الخاصة بالطاعة العمياء لأوامر ولى نعمته الكالحة . أما جالريوس فقد اقنعه آخر الأمر خيبته المتكررة فى تحقيق أطماعه ، وتجربة سنوات ست من الاضطهاد ، والأفكار المفيدة التى أوحى بها الى عقله اعتلال حلول اليم فى صحته — اقنعه بان أعنف أعمال الاستبداد والظلم لا تكفى لآباداة شعب بأسره ، أو للقضاء على معتقداتهم

الدينية ، ومن ثم أصدر - تحذيره الرغبة في اصلاح ما افسدته يده - مرسوما عاما يحل اسمه ، واسمى ليسينيوس ، وقسطنطين ، تالقت في ديبلجته المشرقة الاثليبا الامبراطورية ، ثم جاء بعدها :

« من بين المهام الخطيرة التي تشغل اذهلتنا ، من اجل مصلحة الامبراطورية والحفاظ عليها ، ان اتجهت ارادتنا الى تصحيح كل الاوضاع ، واعادة بنائها ، وفقا للقوانين القديمة ، والنظام العام عند الرومان . وانا لشديدو الرغبة ، بصفة خاصة ، في ان نهدي الى طريق العقل والطبيعة اولئك المسيحيين المضللين الذين نبذوا الديانة والطقوس التي شرعها آباؤهم ، والذين تبجحوا فازدروا شعائر الاقدمين ، ومن ثم ابتدعوا قوانين وآراء متطرفة ، املأها عليهم خيالهم ، وشككوا مجتمعا متعدد الالوان في مختلف ارجاء الامبراطورية ، ان المراسيم التي اصدرناها لفرض عبادة الالهة ، عرضت كثيرا من المسيحيين للخطر والكروب ، فغضى الكثيرون نحبيهم ، على حين ظل عدد اكبر سادرين في حماقتهم الملحدة حيث جردوا من الحق في الممارسة العلنية للدين ، ومن هنا اتجهت ارادتنا الى ان نعسط مزايانا رائتنا المألوفة على هؤلاء الامراء التمساء . ولذلك نرخص لهم في اعلان آرائهم الخاصة في حرية تامة ، وفي عقد اجتماعاتهم السرية دون خوف او ازعاج ، شريطة ان يظهروا دوما الاحترام اللائق للقوانين والحكومة القائمة . ولسوف نوضح مقاصدنا للقضاة والحكام ، في مرسوم آخر ، وانا لنأمل ان يحفز تسامحنا المسيحيين الى الصلاة والتضرع الى الاله الذي يعبدون ، من اجل سلامتنا ورخائنا . وسلامتهم ورخائهم هم انفسهم ، وسلامة الجمهورية ورخائها » .

وليس من المألوف ان نقول ، في لغة المراسيم والمنشورات ، شخصية الامراء الحقيقية ، او دوائهم البغية . ولكن لما كانت هذه الفاظ الامبراطور يحضر ، فلربما سلمنا بان يكون موقفه بمثابة تعهد بأخلاصه .

ولما وقع جاليريوس مرسوم التسامح هذا ، كان متأكدا كل التأكد ان ليسينيوس على استعداد لمسايرة نزعت صديقه وولى نعمته ، وان اية خطوات تتخذ لمصلحة المسيحيين سوف تحظى بقبول قسطنطين ، ولكن الامبراطور (جاليريوس) لم يكن ليجرؤ على ان يضع في ديبلجة المرسوم اسم مكسيمين ، الذي كانت موافقته على اكبر جانب من الاهمية ، والذي كان قد تولى بعد ذلك بايام قلائل حكم ولايات آسيا .

وفي الشهور الستة الأولى من حكمه تظاهر مكسيمين ، على اية حال .
بأنه يتبع النصائح الحكيمة لسلفه ، ورغم أنه لم يتفضل يوما باصدار
مرسوم علم لتأمين هدوء الكنيسة ، فإن سبليينوبس رئيس حرسه
البرينوري ، وجه كتابا دوريا الى الولاة والحكام في الولايات ، أماض
فيه الحديث عن رفق الأباطرة واعترف فيه بضروة عند المسيحيين ،
وأشار فيه على رجال القضاء بوقف محاكماتهم العقيمة ، وغض الطرف
عن الاجتماعات السرية لهؤلاء المتحمسين . وتبعاً لهذه الأوامر أطلق
سراح كثير من المسيحيين من السجون ، أو انتقلوا من المناجم . وعاد
المصريون على عقيدتهم المسيحية الى بلادهم ، وهم ينشدون اغنية
النصر ، أما أولئك الذين كانت قد خارت قواهم واستسلموا لعنف
العاصمة ، فقد توسلوا في دموع الندم في أن يرخص لهم بالعودة الى
أحضان الكنيسة .

ولم يدم طويلا امد هذا الهدوء الفدار . وما كان مسيحيو الشرق
ليثقوا قط في ملكهم ، فإن القسوة والخرافة (العقيدة) كانتا تسيطران
على عقل مكسيمين ، أما القسوة فقد ابتدعت وسائل الاضطهاد ، على
حين جددت الثانية أهدافه . فقد كان الامبراطور مثابرا على عبادة
الآلهة ودراسة السحر والايهان بالوحى ، وكثيرا ما ارتقى بالرسل أو
الفلاسفة الذين احترقهم وبجلهم على أنهم « مقربون الى السماء »
ارتقى بهم الى مناصب الحكم في الولايات ، ورخص لهم في حضور أخص
مجالسه السرية ، وقد أئتمه هؤلاء بأن المسيحيين مدينون بانتصاراتهم
الى نظامهم الدقيق ، وأن ضعف المشركين ناتج عن افتقارهم الى وحدة
رجال الدين واحكام الرياسة والتدرج بينهم . ومن ثم أدخل أسلوب من
الحكم ، من الواضح أنه اقتبس من شريعة الكنيسة . ويأمر من مكسيمين
ثم اصلاح المعابد وتجديلها في كل المدن الكبيرة في أنحاء الامبراطورية .
وأخضع الكهنة القاثيون على خدمة مختلف الآلهة لسلطان هير اعظم ،
قدر عليه أن يناهض الأسقف وأن يرمي مصلحة الوثنية . واعترف
الاحبار بدورهم بالاختصاص الأعلى لطائفة الولايات او كبار
الكهنة فيها ، أولئك الذين كانوا بمثابة وكلاء مباشرين للامبراطور
نفسه . وكان الرداء الأبيض شعار مرتبتهم العالية ، واختير هؤلاء
الاحبار الجدد من أشرف الأسر وأغناها ، ووصلت بتأثير الحكام وتأثير
هذا النظام الكهنوتي — وصلت الى الامبراطور رسائل كثيرة تهم عن
الطاعة ، وبخاصة من مدن نيكوميديا وانطكية وصور ، تجلت فيها —
في مكر ودهاء — مقاصد البلاط المعروفة ، على أنها نابعة من الشعور
العام للشعب ، والتمست من الامبراطور أن يلجا الى قوانين العدالة ،

خبراً من أن يرجع الى ما يمليه عليه رفقته ورافته ، وعبرت عن كراهيتهم للمسيحية ، وتوسلت في خشوع الى أنه يجدر ، على الأقل ، ابعاد هذه الفئة الضالة الموحدة من المسيحيين الى خارج بلادهم (بلاد اصحاب الرسائل) . وما يزال جواب مكسيمين عن ملتقى اهالى صور موجوداً . فهو يعتدج غيرتهم واخلاصهم لبلادتهم في عبارات تنم عن أعظم الرضا والارتياح ، ويسهب في وصف عناد المسيحيين في الصادهم . ويمبادرته الى الموافقة على نفيهم ، أى المسيحيين ، ويعلن أنه اعتبر نفسه كأنها ياتمر هو بأبرهم (مواطنى صور) أكثر من أن يصدر هو أبداً ملزماً . وخول الكهنة والحكام حق تنفيذ مراسيمه التي كانت محفورة على ألواح من النحاس . وعلى الرغم من توصيتهم بتجنب سفك الدماء ، فقد أنزلوا اقصى العقوبات وأبغضها بالمسيحيين المتبردين .

وحق للمسيحيين في آسيا أن يتوجسوا كل الغيفة من قسوة ملك عنيد متعصب دبر أعمال العنف بمثل هذه السياسة المتصودة . ولكن لم تمض شهور قليلة حتى أرغم مكسيمين على وقف تنفيذ خطته بفضل المراسيم التي أصدرها امبراطور الغرب ، وشغلت كل تفكيره تلك الحرب الأهلية التي تهور في سنها ضد لوسينيوس ، وخلعت هزيمة مكسيمين وموته الكنيسة من آخر أعدائها واشدهم غرابة وعنادة .

ولقد تمعدت في هذه النظرة العامة للاضطهاد الذى رخصت فيه لأول مرة مراسيم دقلديانوس ، أن أمسك عن وصف المعاناة التي كابدها كل من الشهداء المسيحيين ومبته كل منهم ، وكان من الميسور أن تجمع سلسلة من الصور المرعبة الكريهة ، من تاريخ يوسوبوس ومن خطابات لكتانتنيوس المؤثرة ومن أقدم المؤلفات ، وان ثلأ منها صفحات كثيرة بذكر الخوازيق والسياسات والأصناد ، والحديد المحمى ، وغير ذلك من مختلف ألوان العذاب التي يمكن أن تصلى بها النار والحديد والوحوش الكاسرة والجلادون الذين هم اشد وحشية ، تصلى بها جسم الانسان . فان هذه المناظر الكثيرة المحزنة قد تهيجها أو تبهتها حية مبهوعة من الرؤى والمعجزات التي تضى عليها أن تؤجل مسوت أولئك القديسين المخلصين الذين عاشوا الألام من أجل اسم المسيح أو تسجل انتصارهم أو تكتشف رفاتهم . ولكنى لا أستطيع أن أحدد ماذا ينبغي أن أنقل الا اذا اقتنعت بما يجدر بى أن أصدق . ان يوسيبوس نفسه ، وهو أكثر مؤرخى الكنيسة وقاراً وجدية ، ليعترف بأنه روى كل ما قد يؤدى الى مجد الديانة المسيحية ، واغفل كل ما يمكن

ان يشينها . وان مثل هذا الاعتراف ليثير الشك في ان الكاتب الذي خرق خرقا صريحا واحدا من قوانين التاريخ الأساسية ، لم يقم وزنا كبيرا للملاحظات الكاتب الآخر ، وان الشك ليكتسب قوة من شخصية يوسيبوس التي كانت اقل اصطفاغا بالسذاجة وسرعة التصديق ، واكثر تمرسا بانائين البلاط ، من شخصية أى واحد من معاصريه تقريبا . والمفروض في بعض حالات معينة ، حين كانت بعض بواعث شخصية نابعة من المصلحة أو الحنق تثير حفيظة الحكام ، أو كانت غير الشهادة تفريهم بنسيان قواعد الحرص وربما قواعد الاحتشام فيخربون المذابح ، أو يصبون اللعنات على الأباطرة ، أو يضربون القضاة وهم جالسون في منصة القضاء — نقول ان المفروض في مثل هذه الأحوال أن يستنفذ مع هؤلاء الضحايا الفيورين ، كل ما يمكن ان يتقدمه القسوة أو يصمد أمامه الجلد . ومهما يكن من أمر ، فقد ذكرت ، في غير حذر ، حالفان توحيان بأن المعاملة العامة ، التي لقيها المسيحيون الذين كان رجال العدالة قد قبضوا عليهم — كانت اقل ضراوة أو أكثر احتمالا مما يتصور ، عادة ، أن تكون عليه هذه المعاملة .

١ — كان يسمح للمؤمنين الذين حكم عليهم بالعمل في المناجم — نتيجة لانسائية حراسهم أو أهبالهم — ببناء كنائس صغيرة ، وبحرية ممارسة ديناتهم في هذه الأماكن المقفرة .

٢ — كان الأساقفة ملزمين بكبح جماح الغيرة المتبجحة والتنديد بها ، غير أولئك المسيحيين الذين سلموا انفسهم طائعين مختارين ، الى الحكام . وكان بعض هؤلاء قد أرهقهم الفقر والديون ، وسعوا سعيا أعمى الى انتهاء وجود تميم بيتة مجيدة مشرفة . كما خدع آخرون بالأمل في أن فترة قصيرة يقضونها في السجن قد تكفر من كل خطايا الحياة . وهناك فريق ثالث كان يمتثل في نفسه بأمر اقل شرفا ، وهو الحصول على معاش أكبر أو ربح وغير من الصدقات التي كان المؤمنون المحسنون يدفعونها للمسجونين . وبعد انتصار الكنيسة على كل أعدائها ، أدت بالمسجونين مصلحتهم وغرورهم على قدر سواء ، الى المبالغة في تقدير ما يستحقون من مجد وشرف ، جزاء وفاء لما عانى كل منهم من آلام . وهنا لابد من القول بأن تعاقب الأرباب أو تباعد المكان قد أنسحا المجال لانتشار الروايات والخيالات والاهام ، وبأن الأمثلة الكثيرة المزعومة لشهداء مقدسين ، شفيت على الفور جراحهم ، أو جددت قوتهم أو أعيدت اليهم أوصالهم المفقودة

— مثل هذه المزاعم كانت ملائمة كافية لازالة أية عقبة واخراس ايسة معارضة . ولما أدى اثر هذه الأساطير سرفا وبتطرفا الى مجد الكنيسة فقد هلل لها الجمهور الساذج السريع التصديق ، وساندها قوة رجال الدين ، كما أقرتها الشواهد المربية في تاريخ الكنيسة .

وانه لن السهولة بمكان كبير أن يطلق الخطيب الداهية لقلبه العنان للمبالغة أو التخفيف من الأوصاف الغامضة للمنفى والسجن ، والألم والتعذيب ، الى حد يجعلنا بالضرورة الى تقصى حقيقة أكثر جلاء وأشد تثبيتا عن عدد من اعدوا نتيجة لقوانين دقلديانوس وشركائه وخلفائه . أن الروايات الحديثة تسجل الحشود والمدن التي اجتاحتها سورة الاضطهاد دون تمييز . أما الكتاب القدامى فيكتفون بوابل من السباب واللعنات الفاجرة المبهجة ، دون أن يفضلوا بالتحقق من الرقم الدقيق لأولئك الذين قضي لهم أن يؤكدوا بدسائهم ايمانهم بالانجيل . ويمكن أن نستخلص من تاريخ يوسيبوس ، على أية حال ، أن حكم الاعدام صدر على تسعة أساقفة ، كما يؤكد لنا تعداد الخاس لشهداء فلسطين أن عدد المسيحيين الذين فازوا بهذا اللقب الكريم لم يتجاوز اثنين وتسعين (١) . ولما كنا على علم تام بمقدار الفيرة والشجاعة الدينية اللتين سادتا ذلك العصر ، فليس في مقدورنا أن نستخلص أية نتائج مفيدة من أولى هاتين الحقيقتين ، أما الثانية فقد تصلح لتبرير نتيجة هامة محتملة جدا . فان فلسطين — وفقا لتوزيع الولايات الرومانية ، تعتبر القسم السادس عشر من الامبراطورية الشرقية ، ولما كان هناك بعض الحكماء الذين تنزهوا نتيجة لشعور

(١) ويختم روايته بأن يؤكد لنا بأن هذا هو عدد من استشهدوا في فلسطين طوال فترة الاضطهاد . وقد يبدو أن الفصل التاسع من كتابه الثامن للمتلقي بولاية طيبة في مصر ، يتعارض مع تقديرنا المعتدل ، ولكنه يؤدي بنا الى الاصحاب بدعاء المؤرخ في علاج الموضوع ، فقد اختار أبعد الأركان وأكثرها انمزالا في الامبراطورية الرومانية مسرحا لأبشع أعمال العنف والقسوة ، وقال ان ما بين عشرة ومائة شخص كثيرا ما استشهدوا كل يوم في طيبة . ولكنه لما انتقل الى الكلام عن رحلته في مصر أصبحت لهجته ، دون أن يحس ، أكثر حرصا واعتدالا . وبدلا من الاتيان برقم كبير ، ولكنه محدد ، نراهم يتحدث عن كثير من المسيحيين ، وينتقل في دهاء بالغ — لفظتين مهمتين ، يبدو أنهما تشيران اما الى ما رأى أو الى ما سمع . واما الى توقع العقوبة أو الى تنفيذها . فلما تهافت له هذه المروغة الآمنة تقدم بهذه القسمة المبهمة الى القراء والمترجمين ، وهو يدرك بحق أن ورعهم سيحملهم على ايثار المعنى الأوفق لهم . وربما اتسمت بالخبط اشارة تيودوروس ميتوشيتا Theodorus Metochita الى أن كل الواقفين على أحوال المصريين — مثل يوسيبوس Eusebius — سروا بالاسلوب الغامض المعقد .

حقيقى او مصطنع من الرفق والرحمة — عن تلطيف ايديهم بدماء المؤمنين،
فانه من العقول أن يذهب بنا الاعتقاد الى أن البلد الذى شهد مولد
المسيحية أنجب على الأقل جزءا من ستة عشر جزءا من الشهداء الذين
لقوا حتفهم فى نطاق اختصاص جالوريوس ومكسيمين . وعلى هذا
يكون مجموع الشهداء عامة نحو ألف وخمسمائة ، وهو عدد اذا قسم
بالنسأوى على أعوام الاضطهاد العشرة ، لكان نصيب العام الواحد
مائة وخمسين شهيدا . فاذا خصصنا نفس النسبة لولايات ايطاليا
وافريقية ، وربما اسبانيا كذلك ، حيث أوقفت أو ألغيت قوانين
العقوبات الصارمة بعد سنتين أو ثلاث ، لهبط عدد المسيحيين الذين
وقعت عليهم عقوبة الاعدام بمقتضى حكم قضائى فى الإمبراطورية
الرومانية الى أقل من ألفى شخص . ولما كان من غير المشكوك فيه قط
أن المسيحيين كانوا أكثر عددا ، وأن أعداءهم كانوا أشد غيظا فى عهد
دقلديانوس عنهم فى أى اضطهاد سابق ، فقد يهيننا هذا الحساب
المعتدل الى تقدير عدد القديسين والشهداء الأولين الذين ضحوا
بارواحهم من أجل غرض هلم سلم هو نشر المسيحية فى العالم .

ونختم هذا الفصل بحقيقة ملجعة تفرض نفسها على الذهن
كرها ، تلك هى أنه ، حتى مع التسليم دون تردد أو بحث بكل ما سجله
التاريخ أو زيفه النسك والتعب فى موضوع الاستشهاد ، فإن
المسيحيين ، فى خصوماتهم الداخلية ، أصلوا بعضهم بعضا من ألوان
العنف والقسوة ، ما هو أفظع مما عانوا من غيرة الكفار والزنادقة .
فى عصور الجهل التى أعقبت سقوط الإمبراطورية فى الغرب ، بسط
أساقفة العاصمة الإمبراطورية سلطاتهم على الدلمانيين والكهنوتيين
فى الكنيسة اللاتينية . وانتهى الأمر بأن شنت جماعة من المتعصبين
الجسورين الذين انتحلوا من القرن الثانى عشر الى القرن السادس
عشر الشخصية المحبوبة ، شخصية المصلحين — شنوا هجومهم على
مسرحة الخرافة الذى كان أولئك الأساقفة قد أقاموه ، والذى كان من
الجاز أن يتحدى الى أمد طويل جهود العقل المتواضعة . ودافست
كنيسة روما بعنف عن الإمبراطورية التى كانت قد كسبتها بالفتن
والخداع . وسرعان ما وصم الحرمان من حماية القانون والحروب
والمذابح ، ونظام الوظائف الدينية ، نظاما يدعو الى السلام والهدوء
فلطخته ، ولما كان المصلحون مدفوعين بحب الحرية الدينية والحرية
الدينية معا ، فقد ربط الأمراء الكاثوليك مصلحتهم بمصلحة رجال
الدين ، وفرضوا بالنار والسيوف أركان الأحكام الروحية ، ويقال
أن مائة ألف من رعيا شارل الخامس فى الأراضى المنخفضة

(هولنده) وحدها لقوا حتفهم على يد الجلاد ، وأكد هذا الرقم الغريب جروشيوس (Grotius ١٥٨٢ - ١٦٤٥ من رجال السياسة والقضاء في هولنده) . - وهو رجل عبقرى عالم احتفظ باعتداله وسط سورة الغضب بين الفريق المتنازعة ، وألف حوليات عصره وبلده ، في وقت يسر فيه اختراع الطباعة وسئل الاعلام ، وزاد من خطر الكشف عن الحقائق ، فإذا كان علينا أن نؤمن بمصدق جروشيوس ، لوجب القول بأن عدد البروتستانت الذين أعدموا في ولاية واحدة في ظل حكم واحد يجاوز كثيرا عدد الشهداء الاولين على مدى ثلاثة قرون وفي نطاق الامبراطورية الرومانية بأسرها . ولكن اذا توقفت استحالة الواقعة ذاتها على قيمة الدليل ، واذا ثبتت على جروشيوس المبالغة في جدارة السابقين والامهم ، كان طبيعيا ان نتساءل : أية ثقة يمكن ان توضع في الآثار المريبة المعيبة التي خلفتها السذاجة القديمة ، وأية درجة من التصديق يجب أن نوليها سقفا مهذبا وخطيبا مؤثرا عاطفيا ، نعم تحت حباية دقلديانوس ، بالحق المطلق في تدوين الاضطهادات التي عاناها المسيحيون على يد المنافسين المشهورين أو الأسلاف المحتقرين لملكهم الرحيم .

الانجاء نحو الشرق

الفصل السابع عشر

(٢٢٤ - ٢٣٤ م)

روما الجديدة : تأسيس القسطنطينية وتدشينها

تقسيمات المقاصب في النظام الجديد للحكومة . بداية الدولة البوليسية

كان لوسينيوس المنكود الحظ آخر منافس تصدى لعظمة قسطنطين ، وآخر أسير توج انتصاراته . وورث الفاتح أسرته بعد حكم أقسم بالهدوء والازدهار ، تركة الامبراطورية الرومانية : عاصمة جديدة ، وسياسة جديدة ، وديانة جديدة ، ورحبت الأجيال المتعاقبة بالابتكارات التي ابتدعها وقدسستها . وان عهد قسطنطين الأكبر وأبنائه ليزخر بالأحداث الهلابة ولكنها ترهق المؤرخ بكثرة عددها وتنوعها ، ما لم يفصل الأحداث التي لا يربط بينها الا الترتيب الزمني ، بعضها عن بعض . فيصف النظم السياسية التي أمدت الامبراطورية بالقوة والاستقرار ، قبل ان يعرض لذكر الحروب والثورات التي عجلت باضمحلالها ، ويختار ذلك التقسيم الذي لم يكن يعرفه الأقدمون بين الشؤون المدنية والشؤون الدينية ، للتهذيب والثقيف ثم للفضيحة بها .

وبعد هزيمة ليسينيوس واعتزاله ، خف منافسه الظاهر ليضع أساس مدينة قيض لها في مستقبل الأيام أن تحكم بوصفها « سيدة الشرق » وإن تبقى بعد امبراطورية قسطنطين ودينته . وزاد اقتداء خلفاء دقلديقيوس به ويسجلها طوال أربعين عاما من قيمة دوافع الزهو أو السياسة ، التي حدثت به في البداية الى الانسحاب من المقر القديم للحكومة . واختلطت روما ، بطريقة غير ملحوظة ، بالممالك التابعة التي اعترفت يوما بسيادتها . وغدت بلد القياصرة ينظر اليها بعين

ملؤها الاستهتار والفتور ، عين أمير عسكري ولد في جوار الدانوب ، وتعلم في بلاط آسيا وجيوتسها ، وخطبت عليه غرق يريطانيا حلة الامبراطورية . وامتلأ الايطاليون الذين رحبوا بقسطنطين بوصفه مخلصهم ومنقذهم - امتثلوا في خشوع للمراسيم التي تفضل أحيانا بتوجيهها الى السناتو والشعب في روما ، ولكنهم قلما حظوا بشرت حضور مليكهم الجديد . ودأب قسطنطين طوال زهرة العمر ، وتبعها لمختلف دواعي الحرب والسلم ، على التحرك في عظمة مثندة ويقظة جادة على حدود مملكته الشاسعة ، وكان دوما على أهبة الاستعداد لملاقاة أى عدو خارجي أو داخلي ، ولكنه لما يبلغ مع الأيام ذروة الازدهار ، وتقدمت به السفن على طريق الفناء ، بدأ يتخبر مشروعا تستقر به قوة العرش وجلاله في مكان أشد ثباتا . وفي اختياره للموقع الملائم ، أثر قسطنطين تخوم اوربا وآسيا ليضرب بيد من حديد على ايدى المتبريرين الذي كانوا يقطنون بين الدانوب والتانيس Tanais ، وليرقب بعين ساهرة سلوك ملك الفرس الذي احتل ساخسطا نير بماهدة بخزية ، ويهدى من هذه الاعتبارات خبير دقلديانوس من قبل مقر اقامته في نيكوميديا وزينه ، ولكن حامى الكنيسة كان يكره بشق ذكرى دقلديانوس ، وكان قسطنطين واقعا تحت تأثير الطمع في تأسيس مدينة تخلد مجد اسمه . ونهايات له الفرصة ، في عمليات الحرب الأخيرة ضد ليسينيوس ، أن يندقق النظر ، بوصفه جنديا ورجل دولة ، في موقع بيزنطة المنقطع النظير . وأن يرى كيف تحرسها الطبيعة حراسة قوية ضد أى عدوان ، على حين يسهل الوصول اليها من كل جانب للأغراض التجارية ، وقبل عصر قسطنطين بعدة أجيال ، وصف مؤرخ من أقوى المؤرخين القدماء بمصيرة مزايا موقع استطاعت منه مستعمرة يونانية هزيلة أن تسيطر على البحر ، وأن تفوز بأعجاد جمهورية مزدهرة مستقلة .

وإذا استعرضنا بيزنطة في المدى الذي بلغته تحت الاسم العظيم « القسطنطينية » لأمكن أن نمثل المدينة الامبراطورية على شكل مثلث غير متساوى الاضلاع ، يلتقى طرفه المنفرج الذي يمتد شرقا الى شواطئ آسيا ، بأماج بسفور تراقيا ويصدها . وتحد الميناء الجزء الشمالي من المدينة ، أما الجنوبي فتحفه مياه بحر مرمره . أما قاعدة المثلث فانها تواجه الغرب ، وعندها تنتهى قارة اوربا ، ولكن لا يمكن استيعاب الشكل الباهر للأرض والماء اللذين يحيط الواحد منهما بالآخر ويجاوره ، والتقسيم المدهش بينهما ، استيعابا واضحا كسافيا ، الا بمزيد من الشرح والتفسير .

واطلق على المجرى المتعرج الذى تجرى فيه مياه البحر الأسود جريانا سريعا لا ينقطع الى البحر الأبيض المتوسط اسم البسفور ، وهو اسم لا يقل شهرة في التاريخ القديم عنه في القصص الخرافية العتيق ، وهناك مجموعة من المعابد ومذابح النذور المبعثرة في غير نظام على ضفافه الشديدة الانحدار المغطاة بالأشجار ، تشهد على عدم براعة الملاحين اليونان ورعبهم وتعبدهم ، حين كانوا يرتادون مضاطر البحر الأسود الماحل ، على غرار ما فعله ملاحو الأساطير اليونانية القديمة « Argonauts » . واحتفظت التقاليد القديمة على هذه الشواطئ بذكرى قصر فينيوس Phineus الذى سكنته وأزعجته الحيوانات الغريبة التى كان لكل منها جسم طائر ورأس امرأة ، وذكرى حكم الغاب ، أى حكم أميكرس (Amycus) فى الأساطير اليونانية أحد ملوك بيثينيا وكان جبارا متوحشا يلزم كل من يحل في بلده بملأكمته (الذى تحدى ابن ليدا Leda ليلاكه بالقنازات . وتنهى مضايق البسفور بالصخور الزرقاء التى طفت يوما - وفقا لوصف الشعراء - على سطح الماء ، وخصصها الآلهة لحماية مدخل البحر الأسود من عين الفضول الدنس . ويبتد طول البسفور المتعرج من الصخور الزرقاء الى طرف بيزنطة ويمتد نحو ستة عشر ميلا . أما أقصى عرضة العادى فيبلغ نحو ميل ونصف الميل . هذا والقلاع الجديدة فى أوربا وآسيا مقامة فى كلتا القارتين على أنقاض معبدتين مشهورين : معبد سيرابيس Serapis ومعبد جوبيتر أوريوس ، وتشرف القلاع القديمة التى بناها أباطرة اليونان ، على أضيق جزء فى المجرى ، فى مكان تبعد فيه الضفتان المتقابلتان كل منهما عن الأخرى نحو خمسمائة خطوة . وقد جدد محمد الثانى بناء هذه القلاع وقواها ، عندما فكر فى حصار القسطنطينية ، ولكن الفاتح التركى كان على الأرجح يجهل أنه قبل عصره بنحو ألفى سنة اختار دارا نفس المكان ليربط بين القارتين بجسر من القوارب . ويمكن أن نرى على مسافة قصيرة من القسلاع القديمة ، بلدة أشقودرة الصغيرة التى تكاد تعتبر الضاحية الآسيوية للقسطنطينية ، ويمر البسفور بين بيزنطة وخلقيدونية ، حين تبدأ مياهه فى الانسياب الى بحر مرمرة ، وقد بنى الإغريق هذه المدينة الأخيرة قبل الأولى ببضع سنين ، وهناك تعبير جرى مجرى المثل ، تصويرا للسخرية من الغباء الذى وسم به مؤسسو خلقيدونية ، الذين غفلوا عن المزايا الرائعة للساحل المقابل .

وفى وقت مسحيق جدا اكتسبت ميناء القسطنطينية التى يمكن اعتبارها ذراعا للبسفور ، اسم القرن الذهبى . فان الانحناء الذى

ترسمه ، يمكن مقارنته بقرن غزال ، أو كما يبدو مع احتشام أكبر ، قرن ثور . ويعبر لفظ « ذهبى » عن الثروة التى تتدفق مع كل هبة ربيع من أقصى الأرض الى نجر القسطنطينية الآمن الواسع . ويمد نهر ليسوس — الذى تكون من التقاء مجريين صغيرين — يمد الميناء بمعين لا ينضب من الماء العذب الذى يفيد في تنظيف القاع وفي جذب أسراب السمك الموسمية لتلتهم لها ملجأ في هذا التجويف المناسب . ولما كانت تقلبات المد والجزر يندر أن يكون لها أثر في هذه البحار ، فإن العمق الثابت للمياه في الميناء يسهل عملية تفرغ البضائع على الأرصفة مباشرة دون استخدام القوارب . وقد لوحظ في أماكن كثيرة أن السفن الكبيرة تلقى مراسيها ويظهر مقدمها أمام المنازل ، على حين يطفو مؤخرها في الماء . ويبلغ طول لسان البسفور من مصب نهر ليسوس الى الميناء أكثر من سبعة أميال ، ويبلغ عرض المدخل نحو خمسمائة ياردة . ويمكن عند الاقتضاء وضع سلسلة متينة تحمي النهر والمدينة من هجوم أى أسطول معاد .

وتحيط ببحر مرمره شواطئ أوروبا وآسيا ، على الجانبين ، بين البسفور والدرنديل ، وكان هذا البحر معروفا قديما باسم بروبونتيس Propontis . وتبلغ المسافة من مخرج البسفور الى مدخل الدردنيل نحو مائة وعشرين ميلا . وإن الذين يبحرون في اتجاه الغرب وسط بحر مرمره ، سيلمحون على الفور أراضي تراقيا وبيثينيا ، ولن تغيب عن أبصارهم قمة جبل أولمبوس الشاهقة ، المكسوة بالجليد الدائم ، ويخلفون الى اليسار خليجا عميقا كانت تقع في قاعه نيقوميديا مقر الإمبراطور دقلديانوس ، ويمرون بالجزيرتين الصغيرتين سيزيكس Cyzicus وبروكنيسوس Proconnesus قبل أن يلتقوا مراسيهم عند جاليبولي ، حيث يتقلص البحر الذى يفصل بين آسيا وأوروبا الى قناة ضيقة . ويقدر الجغرافيون الذين مسحوا شكل الدردنيل واتساعه بأقصى دقة ومهارة ، يقفرون المجرى المتعرج لهذه المضائق المشهورة بنحو ستين ميلا ، والاتساع العادى بنحو ثلاثة أميال . ولكن يوجد أضيق جزء في المجرى الى الشمال من القلاع التركية القديمة بين مدينتي سستوس وأيندوس . وهذا هو المكان الذى خاطر فيه لياندر المخامر بعبور الفيضان ليحظى بسيدته ، وهنا أيضا حيث لا تتجاوز المسافة بين الشاطئين المتقابلين خمسمائة خطوة ، وضع أجزرسيس جسرا متينا من القوارب لينقل الى أوروبا مائة وسبعين من الآلاف المؤلفة من المتبررين . وإن بحرا تقلص الى هذه الحدود الضيقة ليدو غير جدير بالذمت الغريب بأنه « مريض » الذى كثيرا ما أسبغه هوميروس

وأورفيوس على الدردنيل ، ولكن أفكارنا عن العظمة نسبية ، فان أى
سائح ، وبخاصة اذا كان شاعرا ، ركب الدردنيل ، وتتبع تعاليج
مجرأه ودقق النظر فى مناظره الريفية التى تمتد على مدى البصر لابد
أن ينمى البحر دون أن يحس ، ويسبغ على هذه المضائق الشهيرة كل
صفات نهر عظيم سريع الجريان وسط بلد محصور مغطى بالغابات ،
حتى يصل آخر الأمر الى مصب واسع يتدفق الى بحر ايجيه أو بجر
الأرخبيل . واشرفت طروادة القديمة الواقعة على ربوة عند سفح جبل
ايدا Ida — اشرفت على مصب الدردنيل الذى قلما تلقى أية زيادة
فى مائه من فيض النهرين الخالدين سيمواس Simois وسكامندر
Scamander . وامتد المعسكر الاغريقى نحو اثنى عشر ميلا على
الشاطئ بين اكنتين هما سيجيان وروثان . وكان أشجع الرؤساء
الذين حاربوا تحت راية أجا ممنون يحمون أجنحة الجيش ، وكان
أثيلس وجنوده الأتداء المخلصون يحتلون إحدى هاتين الأكبتين ،
على حين نصب أجاكس الجرىء غير الهيب الخيلام على الأكمة الأخرى .
وبعد أن زقع أجاكس غريسة لغروده اليانس ولبحود الاغريق ، أقيم
له ضريح فى البقعة التى كان يحى منها الاسطول ضد عدوان جوف
Jove وهكتور Hector وظد ذكراء أهالى المدينة الناشئة روثيوم .
وقبل أن يقطع قسطنطين برأى فى اتخاذ مقر الحكم فى موقع بيزنطة ،
درس مشروع أقامته فى هذه البقعة المشهورة التى اشتق الرومان منها
نشأتهم الخرافية . واختير للعاصمة الجديدة أول الأمر ذلك السهل
الفسيح الممتد تحت مدينة طروادة القديمة أمام جبل روثيان . ورغم أن
هذا المشروع تم بسرعة ، فانه ما تزال هناك بقايا أسوار وأبراج لم يكمل
بناؤها تسترعى انتباه من يبحرون عبر مضائق الدردنيل .

وخلق بنا الآن أن تلقى نظرة على موقع القسطنطينية الممتاز
الذى أبدعته يد الطبيعة ليكون مركزا وعاصمة لمملكة عظيمة . أن
العاصمة الامبراطورية الواقعة على خط عرض ٤٣ ، تسيطر على
تلالها السبعة على شاطئ أوربا وآسيا المتقابلين ، وهى تتمتع بمناخ
صالح معتدل ، وتربة خصبة ، وميناء منيعة واسعة . وكان المدخل
الى القارة قصير المدى والدفاع ميسورا . ويعتبر البسفور والدردنيل
بوابتين للقسطنطينية ويستطيع أى أمير يسيطر عليهما أن يغلقهما فى
وجه أى اسطول معاد ، ويفتحهما فى وجه السفن التجارية . وقد
ينسب — الى حد ما — الاحتفاظ بالولايات الشرقية الى سياسة
قسطنطين حيث أن قبائل المتبربرين فى البحر الأسود التى كانت تشن
غاراتها على البحر المتوسط فيما مضى تقاعست بسرعة عن أعمال

ترسمه ، يمكن مقارنته بقرن غزال ، أو كما يبدو مع احتشام أكبر ، قرن ثور . ويعبر لفظ « ذهبى » عن الثروة التى تتدفق مع كل هبة ربيع من أقصى الأرض الى ثغر القسطنطينية الأمن الواسع . ويمد نهر ليسوس — الذى تكون من التقاء مجريين صغيرين — يمد الميناء بمين لا ينضب من الماء العذب الذى يفيد فى تنظيف القاع وفى جذب أسراب السمك الموسمية لتلتبس لها ملجأ فى هذا التجويف المناسب ، ولما كانت تقلبات المد والجزر يندر أن يكون لها أثر فى هذه البحار ، فإن العمق الثابت للمياه فى الميناء يسهل عملية تفريغ البضائع على الأرصفة مباشرة دون استخدام القوارب . وقد لوحظ فى أماكن كثيرة أن السفن الكبيرة تلقى مراسيها ويظهر مقدمها أمام المنازل ، على حين يطنو مؤخرها فى الماء . ويبلغ طول لسان البسفور من مصب نهر ليسوس الى الميناء أكثر من سبعة أميال ، ويبلغ عرض المدخل نحو خمسمائة ياردة . ويمكن عند الاقتضاء وضع سلسلة متينة تحمى الثغر والمدينة من هجوم أى أسطول معاد .

وتحيط ببحر مرمره شواطئه أوربا وآسيا ، على الجانبين ، بين البسفور والدردينيل ، وكان هذا البحر معروفا قديما باسم بروبونتيس Propontis . وتبلغ المسافة من مخرج البسفور الى مدخل الدردنيل نحو مائة وعشرين ميلا . وأن الذين يبحرون فى اتجاه الغرب وسط بحر مرمره ، سيلحون على الفور أراضي تراقيا وبيثينيا ، ولن تغيب عن أبصارهم قمة جبل أولمبس الشاهقة ، المكسوة بالجليد الدائم ، ويخلفون الى اليسار خليجا عميقا كانت تقع فى قاعه نيقوميديا مقر الامبراطور دقلديانوس ، ويهرون بالجزيرتين الصغيرتين سيزيكس Cyzicus وبروكنيسوس Proconnesus قبل أن يلقوا مراسيمهم عند جاليبولي ، حيث يقتلص البحر الذى يفصل بين آسيا وأوربا الى قنال صغير . ويقدر الجغرافيون الذين مسحوا شكل الدردنيل واتساعه بأقصى دقة ومهارة ، يقدرون المجرى المتعرج لهذه المضائق المشهورة بنحو ستين ميلا ، والاتساع المادى بنحو ثلاثة أميال . ولكن يوجد أضيق جزء فى المجرى الى الشمال من القلاع التركية القديمة بين مدينتى مستوقس وأيندوس . وهذا هو المكان الذى خاطر فيه لياندر المفامر بعبور الفيضان ليحظى بسيدته ، وهنا أيضا حيث لا تتجاوز المسافة بين الشاطئين المتقابلين خمسمائة خطوة ، وضع اجزرسيس جسرا متينا من القوارب لينقل الى أوربا مائة وسبعين من الآلاف المؤلفة من المتبررين . وأن بحرا تقتلص الى هذه الحدود الضيقة ليبدو غير جدير بالاعتناء الغريب بأنه « عريض » الذى كثيرا ما أسبغه هوميروس

وأورغيوس على الدردنيل ، ولكن افكارنا عن العظمة نسبية ، فان أى سائح ، وبخاصة اذا كان شاعرا ، ركب الدردنيل ، وتتبع تعاريج مجراه ودقق النظر فى مناظره الريفية التى تمتد على مدى البصر لابد أن ينسى البحر دون أن يحس ، ويسبح على هذه المضائق الشهيرة كل صفات نهر عظيم سريع الجريان وسط بلد محصور مغطى بالغابات ، حتى يصل آخر الأمر الى مصب واسع يتدفق الى بحر ايجة او بجر الأرخييل . واشرفت طروادة القديمة الواقعة على ربوة عند سفح جبل ايدا Ida - اشرفت على مصب الدردنيل الذى قلما تلقى اية زيادة فى مائه من فيض النهرين الخللدين سيمواس Simois وسكامندر Scamander . واعتد المعسكر الاغريقى نحو اثنى عشر ميلا على الشاطئ بين اكميتين هما سيجيان وروثان . وكان أشجع الرؤساء الذين حاربوا تحت راية أجا ممنون يحمون أجنحة الجيش ، وكان أثيلس وجنوده الأصدقاء المخلصون يحتلون إحدى هاتين الأكميتين ، على حين نصب أجاكس الجرىء غير الهيب الخيل على الأكمة الأخرى . وبعد أن وقع أجاكس فريسة لغروره اليائس ولجحود الاغريق ، أقيم له ضريح فى البقعة التى كان يحمى منها الأسطول ضد عدوان جوف Jove وهكتور Hector وخلد ذكراه أهالى المدينة الناشئة روتيوم . وقبل أن يقطع قسطنطين براى فى اتخاذ مقر الحكم فى موقع بيزنطة ، درس مشروع اقامته فى هذه البقعة المشهورة التى اشتق الرومان منها نشأتهم الخرافية . واختير للعاصمة الجديدة أول الأمر تلك السهل الفسيح المقد تحت مدينة طروادة القديمة أمام جبل روتيان : ورغم أن هذا المشروع تم بسرعة ، فإنه ما تزال هناك بقايا أسوار وأبراج لم يكمل بناؤها تسترعى انتباه من يبحرون عبر مضائق الدردنيل .

وخلقي بنا الآن أن تلقى نظرة على موقع القسطنطينية الممتاز الذى أبدعته يد الطبيعة ليكون مركزا وعاصمة لمملكة عظيمة . ان العاصمة الامبراطورية الواقعة على خط عرض ٤٣ ، تسيطر على تلالها السبعة على شاطئ أوروبا وآسيا المتقابلين ، وهى تتمتع بمناخ صحى معتدل ، وتربة خصبة ، وميناء منيع واسع . وكان المدخل الى القارة قصير المدى والدفاع ميسورا . ويعتبر البسفور والدردنيل بوابتين للقسطنطينية ويستطيع أى امير يسيطر عليهما ان يغلظهما فى وجه أى أسطول معاد ، ويفتحهما فى وجه السفن التجارية . وقد ينسب - الى حد ما - الاحتفاظ بالولايات الشرقية الى سياسة قسطنطين حيث ان قبائل المتبربرين فى البحر الاسود التى كانت تشن غاراتها على البحر المتوسط فيما مضى تقاعست بسرعة عن أعمال

انقرصنة ، ويشت من اقتحام هذا الحاجز المنيع ، وحتى في حالة اغلاق بوابتى البسفور والدرخيل ، كانت العاصمة تفعم في المساحة المسيجة بينهما ، بانتاج كل ما يسد حاجة السكان الكثير عددهم أو يوفر لهم حياة الترف والبذخ . وما تزال شواطئ تراقيا وبيثينيا اللتين ترزحان تحت النير التركي ، تزخران بالكروم والبساتين والمحاصيل الوفيرة ، واشتهر بحر مرمره في كل العصور بهذا المعين الذى لا ينضب من السمك الذى يؤخذ في المواسم المعينة دون براعة أو جهد غالبا ، ولكن اذا فتحت المضائق أمام التجارة ، تدفقت الثروات الطبيعية والمصنوعات من الشمال ومن الجنوب على التوالي ، عبر البحر الأسود والبحر المتوسط ، فقد دفعت مختلف الرياح كل المواد الخام التى جمعت من غابات المانيا وسكيزيا ، من أقصى منابع نهري تانيس والدنيير ، وكل ما أبدعته أوربا وآسيا من مصنوعات ، وغلال مصر ، وبتواهر الهند النائية وتوابلها — دفعت الرياح كل أولئك الى شفر القسطنطينية الذى ظل على مدى أجيال طويلة يجتذب تجارة العالم القديم .

تأسيس القسطنطينية

واجتمع في بقعة واحدة بمعينها من الجبال والامان والثراء ما كان كافيا ليبرر اختيار قسطنطين لها . ولكن ثمة مزيج وقور من المعجزة والخرافة ، كان يعكس ، في كل عصر ، قدرا من العظمة اللائقة على منشأ المدن الكبرى ، ومن هنا أراد الامبراطور أن ينسب قراره الى امر محقق أزلى من الحكمة الالهية ، أكثر من نسبه الى رأى غير أكيد تنليه سياسة الانسان . وعنى في أحد قوانينه بأن يحيط الأجيال القادمة علما ، بأنه امتثالا لأوامر الله ، وضع الأساس الخالد لمدينة القسطنطينية . وعلى الرغم من أنه لم يتفضل بمرور لنا كيف هبط عليه وحى السماء ، فإن عبقرية الكتاب اللاحقين الذين جاءوا بعده ، عرضت بسخاء عن صيته المتواضع ، حين وصفوا الشبح الذى تراءى ليلا لفيال قسطنطين ، وهو قائم في رهاب بيزنطة ، فقالوا ان ربة المدينة وحارستها — وهى سيدة وقور بلغت من الكبر عتيا وافسحتها العلل والعاهات — تحولت فجأة الى شابة في نضارة الأزهار بدت في ابهى رينة حين البسها الامبراطور بيديه شعارات العظمة الامبراطورية . واتفق الملك من نومه ، وفسر الفأل السعيد ، وامتثل لارادة السماء دون تردد . وجرت عادة الرومان على الاحتفال بيوم مولد مدينة من

المدن أو مستعمرة من المستعمرات في اسراف بالغ سنته الخرافات
السخية (وفقا لعقيدتهم الوثنية) . وربما جاز لقسطنطين أن يلغى
شيئا من هذه الطقوس والشعائر التي نمت بشكل صارخ عن اصلها
الوثني ، ولكنه كان حريصا رغم ذلك على أن يترك أثرا عميقا من الأمل
والاجلال في نفوس المقترجين . وتصدر الامبراطور نفسه الموكب
سيراً على الأقدام وفي يده حرية ، ودل على الخط الذي تتبعه هو
ومن معه ليكون حدا للعاصمة المقدرة ، حتى مرت معاونه الدهشة
من أن محيط المدينة يزداد اتساعا ، وتجاوزوا على القول بأنه تجاوز
المساحة المعقولة لمدينة عظيمة ، فأجاب قسطنطين : « ساواصل
السير حتى يرى الدليل الخفى الذى يسير أمامي أنه من المناسب أن
اتوقف » . ولسوف نقنع - دون الاجترار على التحري عن طبيعة
هذا المرشد الخارق للطبيعة وعن بواعثه - بمهمتنا التي هي أكثر
تواضعا ، الا وهي وصف امتداد القسطنطينية وحدودها .

وفي الوضع الراهن للمدينة ، يقوم قصر السلطان على المرتفع
الشرقي ، وهو أول التلال للمسيحية ، على مساحة تبلغ نحو مائة
 وخمسين فدانا انجليزيا (ايكر) . ان موطن الاستبداد والانثوية
التركية هو الآن قائم على انقاض جمهورية اغريقية . والمظنون أن
البيزنطيين اغرامهم الموقع الملائم للميناء ، مهدوا مسالكهم على هذا
الجانب الى ما وراء الحدود الجديدة للسراي ، وامتدت أسوار
قسطنطين من الميناء الى بحر مرمرة عبر الجزء الذى زيد على مساحة
المثلث ، على مسافة نحو ١٢٠٠ قدم من التحصينات القديمة . وادخلوا
في نطاق مدينة بيزنطة خمسة من التلال السبعة التي يبدو للمقرب من
القسطنطينية أنها ترتفع بعضها فوق بعض في ترتيب جبيل . وبعد
قرن من ولادة مؤسس المدينة (قسطنطين) امتدت المباني الجديدة فوق
الميناء من جهة وعلى طول شاطئ بحر مرمرة من الجهة الأخرى ،
وبذلك غطت الحافة الضيقة والقيمة العريضة للتلال السابعة . واقتضت
الحاجة حماية هذه الضواحي من غارات المتبريرين التي لا تنقطع ،
وأن يعنى تيودوسيوس الأصغر نفسه بلحظة عاصمته بسياج متين
دائم من الأسوار ، وبلغ أقصى طول للقسطنطينية ، من المرتفع الشرقي
الى القرن الذهبي نحو ثلاثة أميال رومانية ومحيطها من عشرة الى أحد
عشر ميلا ، أما المسطح فيقدر بنحو ألفى فدان انجليزى . وليس من
الميسور تبرير المبالغة العقيمة الساذجة للسياج الحديثين الذين مدوا
في بعض الأحيان حدود القسطنطينية الى ما وراء القرى المجاورة على
الشاطئ الأوربي بل على الشاطئ الآسيوى كذلك . وقد تستحق

صاحبا بيرا وغلطه — رغم وقوعها وراء الميناء أن تعتبر جزءا من المدينة ، ويجوز أن تؤكد هذه الاضافة صحة ما ذهب اليه مؤرخ بيزنطى من أن محيط مدينته يبلغ ستة عشر ميلا يونانيا (نحو ١٤ ميلا رومانيا) . وقد يبدو هذا الرحاب جديرا بالمقر الإمبراطوري . وبمع ذلك فإنه يجدر بالقسطنطينية أن تسلم القيادة (من حيث الاتساع) الى بابل ، وطيبة ، وروما القديمة ، ولندن ، يل والى باريس .

واستطاع سيد عالم الرومان الذى تطلع الى اقامة اثر خالد يشهد بأجاد عصره ، استطاع أن يجند لتنفيذ مشروعه العظيم ، كل ما بقى من ثروة ملايين المطيعين من رعاياه وجهدهم ، وعبقريتهم . ويمكن أن نقدر سخاء الإمبراطور فى الانفاق على تأسيس القسطنطينية اذا علمنا أنه أنفق مبلغ مليونين وخمسمائة ألف جنيه لبناء الأسوار والأروقة وقناطر المياه . وجادت الغابات التى ظلت شواطئ البحر الأسود والمحاجر المشهورة بالرخام الأبيض فى جزيرة بروكنيسس Proconnesus بمعين لا ينضب من المواد الجيدة للنقل بطريق البحر لمساعدة تصديره هينة يسيرة الى ميناء بيزنطة . وجد جمع غفير من العمال والصناع المهرة فى انجاز العمل ، ولكن قسطنطين القلق الذى نفذ جيبه سرعان ما تبين أن مهارة مهندسية ووفرة عددهم ، ازاء انحطاط الفنون ، لن تيسبب تطمع عظمة تصميماته ، ولذلك صدرت التعليمات الى الحكام فى اقصى الولايات ، لانشاء المدارس وتعيين الاساتذة واغراء العدد الكافى من الشبان النابغين الذين تلقوا تعليمهم بتجرا ، بالأمل فى نيل الجوائز والامتيازات — اغرائهم بدراسة فن العمارة ، واقامت مباني المدينة الجديدة بجهود أولئك الصناع الذين أمكن توفيرهم فى عهد قسطنطين ، ولكن الزخارف التى ازدانت بها كانت من ابداع أشهر الاساتذة فى عهد بركليز والاسكندر ، والحق أن احياء عبقرية فيدياس Phidias وليبسيوس Lysippus جلزت قدرة الجاهل الرومانى . ولكن النتاج الخالد الذى ورثوه للأجيال من بعدهم تمرض ، دون أن يجد من يحبه ، لغرور حاكم مبتدع عميف به — فقد جردت بناء على أوامره ، مدن اليونان وآسيا من اثنى نفائسها . ذلك أن الانصباب التذكارية للحروب المشهورة ، والمعبودات الجنية ، واروع تماثيل الآلهة والأبطال والحكماء والشعراء ، فى العصور القديمة ، — كل هذه أسهمت فى النصر المؤزر الذى أحرزته القسطنطينية . وهيات فرصة لسورخ سدرينوس Cedrinus ليتحمس الى حد القول بأنه لم ينقص هذه الأشياء إلا أرواح عظماء الرجال الذين قدر لهذه الآثار البديعة أن تمثلهم ، ولكننا يجب ألا نفتش عن روح هوميروس وروح ديمستين فى

مدينة قسطنطين ، ولا في عصر اضمحلال الإمبراطورية ، حيث أرقق
البقل البشرى بالإسترقاق الدينى والجنى .

ونصب الفاتح خيمته في أثناء حصار بيزنطة ، ، فوق التل الثانى على
شرف من الأرض يسيطر على المكان كله . وتخليدا لذكرى هذا الموقع
الممتاز ، اختاره ليكون الساحة الرئيسيه Forum التى يبدو أنها كانت
على شكل دائرى ، أو على الأرجح بيضوى . وكسوت المدخلان
المتقابلان أقواس النصر . وامتلات الأروقة المحيطة بها من كل جانب
بالتماثيل ، وأقيم وسط الساحة عمود ، توصف قطعة مشوهة منه الآن
باسم « التمثال المحروق » أقيم على قاعدة من الرخام الأبيض على
ارتفاع عشرين قدما ، وكان مكونا من عشر قطع من حجر طول
كل منها نحو عشرة أقدام ومحيطها نحو ثلاثة وثلاثين قدما . ووضع
على قمة العمود ، على ارتفاع مائة وعشرين قدما من الأرض ،
تمثال أبولو الضخم وكان مصنوعا من البرونز ، وربما نقلوه من أثينا
أو من إحدى المدن في غريجيا ، والمظنون أنه من صنع فيدياس . ومثل
الغنان اله النهار - أو كما نسر فيها بعد على أنه الإمبراطور قسطنطين
نفسه - بالصولجان في يمينه ، والكرة الأرضية في يسراه ، وتاج
من الأشعة يتألق فوق رأسه . أما السيرك ، أو ميدان السباق ، فكان
بناء ضخما يبلغ طوله نحو اربعمائة خطوة وعرضه نحو مائة خطوة .
وكانت المسافة فيه بين الحدين مليئة بالتماثيل والمسلات . وما تزال
ترى حتى اليوم قطعة غريدة من الآثار ، تلك هى أجسام حيت ثلاث
ملتفة حول عمود نحاسى . وكانت رموسها الثلاثة تشكل حاملا ذهبيا
ذا ثلاثة قوائم ، احتفظ به الاغريق المنتصرون وقُدسوه فى معبد دافى
بعد هزيمة اجزرسيس ، ولكم شوهدت أيدي الفاتحين الأتراك الخشنة
جمال ميدان السباق ، ولكنهم يسمونه حتى الآن « الميدان » ويستخدمنه
لتدريب الخيل . ومن مكان العرش حيث كان الإمبراطور يجلس
لمشاهدة ألعاب السيرك ، هبط سلم متعرج يؤدى الى القصر ، وهو
بناء فخيم ، لا يكاد يدانيه قصر الإمبراطور فى روما نفسها ، ويشغل مع
الأنفية والحدائق والأروقة الملحقة به رقعة كبيرة من الأرض على
ضفاف بحر مرمره ، بين حلبة السباق وكثيسة آيا صوفيا . وإن ننس
لا ننس الجمالآت التى ظلت تحمل اسم زيوكسيس Zeuxippus
بعد أن جعلتها أروحية قسطنطين وسخاؤه بالأعمدة السامقة ،
وبمختلف أنواع الرخام وبأكثر من بستين تمثالا من البرونز . وللسوف
نحيد عن منهج التاريخ إذا حاولنا أن نفصل القول فى وصف الأبنية
أو الأحياء المختلفة فى هذه المدينة ، ومن ثم نجترى بالاشارة الى أن

القسطنطينية ضمت بين جدرانها كل ما يمكن أن يعلى من مكانة العاصمة ويزيد في عظمتها ، أو يحقق لسكانها الكثيرين نفعاً أو يوفر لهم أسباب المتعة والسرور . وبعد قرن من تأسيسها ظهر في وصفها بصفة خاصة كتاب ذكر أنه كان فيها كاييتول أو مدرسة وسيرك ، ومسرحان . وثمانية حمامات عامة ، ومائة وثلاثة وخمسون خزانة للمياه ، وثمانون رواقاً ، وخمسة مخازن للذخائر ، وثمانية خزانات للمياه ، وأربع قاعات مسيحية لاجتماعات السناتو ، أو محاكم القضاة ، وأربع عشرة كنيسة ، وأربعة عشر قصراً ، وأربعة آلاف وثلاثمائة وثمانية وثمانون بيتاً ، تستحق أن تفرد بمساحتها وجمالها عن مجموعة مساكن العامة .

وكانت المسألة الثانية بل أم المسائل التي تشغل بال الإمبراطور في مدينته الحبيبة الأثيرة لديه ، هي اكتظاظها بالسكان . ففي العصور المظلمة التي أعقبت نقل الإمبراطورية شرقاً غرقوا الأغريق وسذاجة اللاتين النتائج البعيدة والمباشرة لهذا الحادث المشهود الخالد تشويهاً غريباً ، فذكروا وصنفوا أن كل الأسرات النبيلة في روما ، والسناتو ، وكبار رجال الجيش ، مع أتباعهم الذين لا يحصى عددهم ، قد لحقوا بالإمبراطورهم إلى شواطئ بحر مرمرية ، وترك جنس زائف من الغرباء والعامة لينفرد بوحشة العاصمة القديمة التي هجرها أصحابها ، وأن أرض إيطاليا التي تحولت منذ أمد بعيد إلى جنات عالية ، أقفرت من أهلها وزرعها . ولسوف نعهد في هذا الكتاب إلى رد هذه المبالغات إلى قيمتها الحقيقية ، على أنه لما كان من المتعذر أن ينسب نمو القسطنطينية إلى التزايد العادي في السكان أو في الصناعة ، فإنه لابد في هذه الحالة من التسليم بأن هذه المدينة التي أقيمت ، إنما قامت على حساب المدن القديمة في الإمبراطورية . ومن المحتل أن قسطنطين قد دعا كثيراً من أعضاء السناتو والموسرين من روما والولايات الشرقية إلى الإقامة في البقعة الطيبة التي اختارها لتكون مقراً له . وقلما يمكن التفريق بين دعوة الحاكم وبين أوامره ، ومن ثم قول على الفور كرم الإمبراطور بالطاعة المقرونة بالابتهاج . وأنهم هم على خالصاته المقربين بالقصور التي كان قد شيدها في مختلف أحياء المدينة . وخصص لهم الأراضي وأجرى عليهم الرواتب التي تحفظ لهم مكنتهم ، وتنازل عن أملاكه في بنطس وآسيا ، ليقطعهم ضياعاً وراثية بشرط سهل للملكية ، وهو الإقامة في العاصمة . ولكن هذه المفريات والالتزامات قد تجاوزت الحد المعقول ، وقد المغيت شيئاً فشيئاً ، وحيثما يكن مقر الحكومة ، ينفق الأمير نفسه ، ووزرائه ، وقضاة وموظفو قصره جزءاً كبيراً من الدخل

العام ، وتجذب أقوى بؤامث المصلحة والواجب ، واللهم والفضول ،
أنظار أغنى سكان الولايات . وهناك — الى جانب هؤلاء وهؤلاء ،
طبقة ثالثة هي أكثر عددا ، تتكون بطريقة غير محسوسة ، قوامها
الخدم والصناع والتجار الذين يكسبون عيشهم بعرق جبينهم ، عن
طريق احتياجات الطبقات العالية أو ترفها . ومن هنا نجد القسطنطينية
استطاعت في أقل من قرن من الزمان ، أن تنافس روما في التفوق في
الثراء وعدد السكان . واكتظت بالمباني الجديدة المتلاصقة دون رعاية
للصحة أو لوسائل الراحة ، مما لم يسمح الا بالقليل من الشوارع
الضيقة لممر الأتواج المتلاحقة من الناس والدواب والعربات . ولم
تكن المساحة المحددة من الأرض كافية لاستيعاب الشعب المتزايد ،
بل ان الأبنية الإضافية التي امتدت على الجانبين الى البحر كان يمكن
وجدها أن تشكل مدينة كبيرة قائمة بذاتها .

ان توزيع الخمر والزيت والخلال أو الخبز ، والفقود أو المون ،
توزيعا مستترا منتظبا ، كاد أن يخلص المواطنين المعوزين في روما من
عبء الحاجة الى الكدح ، وظل مؤسس القسطنطينية يحاكي بذخ
القيصرية الى حد ما ، ولكن كرمه مهما حظى بالمديح والاطراء من شعبه ،
جلب عليه لوم الأجيال التي جاءت بعده . فان أمة من المشرعين
والغزاة قد تؤكد دعواها في الحصول على محصولات أفريقية التي
اشتروها بالدماء . وكان أوفسطس يقول في دهاء ان الرومان ، وهم
يتمرغون في الرخاء والوفرة ، يجدر بهم أن يتخلوا عن ذكرى الحرية .
ولكن تبهير قسطنطين لم يكن ليفتقر لأية اعتبارات من المصلحة العامة
أو الخاصة ، فان جزية الخلال التي غرضت على مصر من أجل عاصمته
الجديدة استنفدت في اطعام أناس كسالى مفلسين على حساب المزارعين
في ولاية جادة عاملة . ولهذا الإمبراطور ، الى جانب ذلك ، تنظيمات
أقل عرضة للوم ، ولكنها كذلك أقل جدارة بالاهتمام . وقسم
القسطنطينية الى أربعة عشر قسما أو حيا ، وكرم المجلس العام بأن
أطلق عليه اسم السناتو ، وأضفى على المواطنين امتيازات ايطاليا ،
وأسبغ على المدينة الناشئة لقب « مستعمرة » ، أولى بنات روما
القديمة وأكثرهن حظوة . وظلت الأم الوقور تحتفظ بالتفوق المشروع
المعترف به ، اللائق بما حملت فوق ظهرها من السنين ، وبمكانتها
وبذكرى عظمتها السابقة .

تدشين القسطنطينية

وكان قسطنطين يستحث انجاز العمل بصبر نافذ وكأنه عاشق ولهان ، فاقبعت الأسوار والأروقة والأبنية الرئيسية في بضع سنين ثلاث ، وفي رواية أخرى في بضعة شهور ثلاث ، ولكن هذا النشاط الخارق لا يد أن يستثير أقل قدر من الإعجاب ، لأن كثيرا من المباني تم بطريقة معيبة متعجلة ، الى درجة أن خلف قسطنطين وجد صعوبة في حمايتها من التصدع المحقق بها . ولكن بينما كانت تظهر حيوية الشباب ونضارته ، كان المؤسس يستعد للاحتفال بتدشين مدينته . ومن السهولة بكان أن تتخيل الألعاب والمنح والهبات التي توجت ابهة هذا الاحتفال المشهود ، ولكن ثمة ناحية ذات طبيعة أكثر تفردا وخلودا ، لا ينبغي إغفالها قط ، تلك أنه كلما حان موعد الاحتفال بذكرى مولد المدينة ، أقيم على عربة من عربات النصر تمثال قسطنطين الذي صنع بأمر منه ، من الخشب الموه بالذهب ، حاملا بيده اليمنى رمزا لمعبرية المكان ، وهو كعب الحراسي جليلين شموغا بيضاء مرتدين اثمن الثياب ، الموكب المهييب وهو يصير عبر حلبة السباق ، حتى اذا صار في مواجهة العرش الذي يجلس عليه الإمبراطور الحاكم ، نهض هذا من مقعده ، ومجد في أجلال وامتنان ذكرى سلطته . ونقش في يوم الاحتفال بالتدشين على عمود من الرخام مرسوم إمبراطوري يخلع اسم « روما الثانية أو الجديدة » على مدينة القسطنطينية ، ولكن اسم القسطنطينية نأق هذه التسمية الكريمة . وما يزال ، يعد ثورة أربعة عشر قرنا ، يخلد شهرة منشئها .

٢١٦

نظام الحكومة الجديد

وطبيعى أن يرتبط تأسيس عاصمة جديدة بإنشاء نظام جديد في الإدارة المدنية والعسكرية . إن النظرة الفاضلة الى النظام السياسي المعقد الذى أدخله قنطديانوس وهذبه قسطنطين ، وأكمله خلفاؤه المباثرون ، مثل هذه النظرة لن يتسلى فيها الخيال بالوقوع على صورة فريدة لامبراطورية عظيمة فحسب ، ولكنها الى جانب هذا تتجه الى توضيح الأسباب الخفية والداخلية لأضحلالها السريع . وكثيرا ما يقودنا تتبع أى نظام مشهور الى أقدم عصور التاريخ الرومانى وأحدثها . ولكن النطاق المعقول لهذا البحث ينحصر فى مدى نحو مائة وثلاثين عاما ، ابتداء من حكم قسطنطين الى نشر قوانين تيودوسيوس ،

وهي التي نستقى منها ، كما نستقى من « سجلات الشرق والغرب »
(نوتيشيا Notitia) أغزر المعلومات وأصدقها عن حالة الامبراطورية
وستعوق مثل هذه الأشياء مجرى الكلام لبعض الوقت ، ولكن لن يعيب
علينا هذا الانقطاع الا القراء الذين لا يصنعون أهمية القوانين
والسلوك ، على حين يتلهف فضولهم على دسائس البلاط العابرة أو
احتدام معركة عارضة .

واعتر الرومان اعتزازا كريما بالسلطة الفعلية ، وتركوا لغرور
الشرق مجال التباهي والظهور بمظهر العظمة ، ولكنهم لما فقدوا حتى
مجرد صور الفضائل التي نبعث من حريتهم القديمة ، تلوثت بطريقة غير
ملوحظة ، بساطة سلوكهم بالأبهة المصطنعة في بسلام آسيا . فان
امتيازات الكفاية الشخصية والتأثير الشخصي ، تلك التي تبرز في أية
جمهورية ، على حين انها قد تكون ضعيفة غامضة في أية ملكية ، قضى
عليها ، استبداد الأباطرة الذين استبدلوا بها اذلالا عاتيا لكل ذى مكانة
أو منصب ، من العبيد الذين أضفيت عليهم الألقاب . ووضعوا على
عتبات العرش ، الى أحقر أنوات السلطة المطلقة . واهتم هذا الحشد
الكبير من سفلة الأتباع بتدعيم الحكومة الفعلية القائمة خشية نشوب
ثورة تطوح بأملهم ، وتحول بينهم وبين ما يرقبون من جزاء لقاء
خدماتهم . ففي مثل هذه الحكومة الالهية (وهكذا كانوا يسمونها)
تحددت كل مرتبة بأكثر قدر من التأنق والدقة ، وأبرزت عظمتها باختلاف
المراسم الثقافية المهيبة ، التي كان التمسك بها عملية شاقة ، والتي كان
اهمالها تدنيسا وانتهاكا . وانحطت نقارة اللغة اللاتينية لانهم امتسوا ،
في غمرة الزهو والملق ، غيضا من حثالة الألفاظ التي كان يتعذر على
شيشرون فهمها ، والتي كان لابد أن يأبأها أوغسطس في احتقار .
وكان الملك نفسه يخاطب اصحاب الوظائف الرئيسية في الامبراطورية
بالألقاب الخداعة الخلافة كان يقول للواحد منهم : يا صاحب الاخلاص ،
يا صاحب الهيبة ، يا صاحب السعادة ، يا صاحب العسر ، يا صاحب
الأهمية العالية العجيبة ، يا صاحب العظمة السنية الوقورة . وزوقت
تزويجا عجيبا براءات وظيفتهم بشعارات منتقاة أحسن انتقاء لتوضيح
طبيعتها ورفعة شأنها ، ومن هذه الشعارات صورة الامبراطور الحاكم ،
وعربة نصر ، وسجل الأوامر موضوعا على منضدة مغطاة بمفرش ثمين
تخفق حوله أربع شمعات مضاءة ، والصور الرمزية للولايات التي
حكوها ، أو أسماء واعلام الفرق التي تولوا قيادتها . وكانت بعض
هذه الشعارات الرسمية تعرض فعلا في قاعات استقبالهم ، وبعضها
يتقدم مسيرتهم المحوطة بالأبهة والجلال انى ظهروا في احتفال أو مكان

عام . وصفوة القول انهم جمعوا في سلوكهم وفي ارديتهم في ارسيتهم وحليهم وفي ركلهم كل ما يوحى بالاجلال والاكبار لمثل صاحب الجلالة وهكذا كان الجائر ان يخطيء مراقب حكيم ، نظام الحكومة الرومانية فيحسبه مسرحا فحما يعج بمثلين من مختلف الشخصيات والدرجات ، يرددون الفاظ نموذجهم الاصلى (اى الامبراطور) ، ويحاكون شهوراته ونزواته .

وكان الموظفون الذين تؤهلهم وظائفهم ليكونوا في عداد الهيئة العامة الحاكمة في الامبراطورية يندرجون تحت ثلاث فئات متميزة : الاولى البارزون Illustrious والثانية المجلدون Respectable والثالثة الموقرون Honorable . وفي عهد البساطة الرومانية كان هذا اللفظ الأخير بمثابة تعبير غامض عن الرعاية أو التكريم ، حتى أصبح آخر الامر لقباً معيناً مخصصاً لاجزاء السنتو ، ثم بعد ذلك لمن اختير من هذا المجلس الموقر لحكومة الاقليم . أما أولئك الذين كانوا يزعمون لأنفسهم - بحكم مراتبهم ووظائفهم - امتيازاً يسمو بهم على سائر هيئة السنتو ، فقد أطلق عليهم تسامحاً فيما بعد ذلك بوقت طويل لقب « المجلدون » أما لقب « البارزون » فقد احتفظ به دائماً للشخصيات الرفيعة الشأن الذين كانوا موضع احترام الطائفتين الثانية والثالثة وطاعتها . وكان يطلق فقط على (١) القناصل والنبلاء (البطارقة) . (ب) رؤساء الحرس البريتورى والوالى فى كل من روما والقسطنطينية . (ج) والقائد العام لكل من الفرسان والمشاة . (د) نظار القصر السبعة الذين مارسوا مهامهم المقدسة الى جوار شخص الامبراطور . ولم يكن لأسبقية التمييز أى اعتبار طالما تماثلت الوظائف . وعهد الاباطرة الذين ارادوا الاكثار من خلصائهم المقربين ، الى منح البراءات الشرفية كوسيلة لارضاء غرور رجال البلاط القلقين ، ولو لم يحققوا اطماعهم .

القناصل والبطارقة (النبلاء)

كان القناصل الرومان ، وهم الحكام الأول في دولة حرة ، يستمدون حقهم في السلطة من اختيار الشعب لهم . وظل القناصل ينتخبون بالاقتراع العام الحقيقى أو الشكلى فى السنتو ، طالما تفضل الاباطرة باخفاء الاستبعاد الذى فرضوه من وراء قناع . ولقد ألغيت منذ عهد دقلديانوس تلك الملاحح الباهتة للحرية . وتظاهر المرشحون الناجحون الذين كانوا يغوزون بشرف الوظائف القنصلية عاماً بعد عام ، بأنهم

يرثون لهاوى الاذلال التى تردى فيها اسلافهم . فقد بلغ المهوان بأسرتى
سكيبو وكاتو أنهم يلتبسون اصوات العملة ، ويعانون من طريقة
الانتخابات الشعبية المملة الباهظة التكاليف ، ويعرضون كراتهم للخزى
والعار اذا حبس الشعب أصواته عنهم ، على حين استبقاهم حظهم
الأسعد لعهد وحكومة كانت فيهما حكمة الامبراطور السعوف الرحيم
المعصوم من الخطأ هى التى تحدد مكافأة الميزات والفضائل . وقد أعلن
الامبراطور صراحة فى الرسائل التى وجهها الى القنصلين المنتخبين ،
أنهما من صنع سلطانه ويده هو وحده . وصنعت لوحات مذهبة من
العاج نقش عليها اسمها وصورتاها ، ووزعت على الإمبراطورية
هدية الى الولايات والمدن والحكام والسناو والشعب . وجرى الاحتفال
المهيّب بتخصيبيهما فى القصر الامبراطورى . وحرمت روما لمدة
مائة وعشرين عاما من حكامها القدامى . وفى صباح اليوم الأول من
يناير كان القناصل يتسلمون شعارات مناصبهم . وكان لباسهم عبارة
عن رداء أرجوانى موشى بالحرير والذهب ، محلى أحيانا ببعض
الجواهر الثمينة . وكان يسير فى ركابهم فى هذه المناسبة المهية كبار
موظفى الدولة ورجال الجيش فى زى أعضاء السناو ويتقدمهم ضباط
يحملون شمعارات هى عبارة عن قضبان محزومة على بلطة ،
وكانت هذه يوما مخيفة مروعة . وكان الموكب يسير من القصر الى
الساحة أو الميدان الرئيسى فى المدينة حيث يصعد القنصل الى مقره
ويجلس فى مقعده الفاخر المثلث القوائم المصنوع على الطراز القديم ،
ومن ثم يمارس على الفور عملا من اختصاصاته ، وهو أن يعتق عبدا
كان يمثل إمامه لهذا الغرض ، وهذا لون من الطقوس قصد به تمثيل
عمل بروتس الأكبر المشهود منثىء الحرية ، ومنثىء وظيفة القنصل ،
حين أدخل فى عداد مواطنيه فنكس الأمين Vindex الذى كشف مؤامرة
أسرة تاركوين . واستمرت الاحتفالات العامة لمدة أيام فى جميع المدن
الرئيسية : بحكم العرف والعادة فى روما ، والتقليد والمحاكاة فى
التسطنطينية ، وحبا فى المرات والبهجة ونظرا لوفرة الفنى والثراء فى
قرطاجة وأنطاكية والإسكندرية . وبلغت تكاليف ألعاب المسرح والسيرك
والمدرج فى عاصمتى الإمبراطورية أربعة آلاف رطل من الذهب ، أى
نحو مائة وستين ألف جنيه استرلينى ، ماذا تجاوزت هذه النفقات
الباهظة قدرة الحكام أو حدود مشيئتهم دفع البلوغ من الخزائنة
الإمبراطورية . وإذا فرغ القناصل من هذه الواجبات التقليدية المعتادة
أضحوا أحرارا فى الركون الى ظل حياة خاصة لينعموا طوال بقية العام
بأن يسرحوا الطرف فيها يحف بهم من عظمة وجلال ، دون أن يعكسر
عليهم أحد صفوفهم ، فلم يعودوا يرأسون المجالس الوطنية أو يقررون

الحرب والسلم ، ولم يكن لمواهبهم وقدراتهم كبير قيمة (الا اذا شغلوا وظائف أكثر فعالية) ، ولم يكن لأسمائهم من فائدة الا في تحديد الموعد القانونى للسنة التى كانوا قد ملأوا فيها الكرسي الذى كان يشغله ماريوس وشيرون . على أنه ظل من الأمور المحسوسة المعترف بها فى أواخر عهد الاستعباد الرومانى أن هذا اللقب الأجوف قد يقارن بالاستحواذ على السلطة الفعلية ، بل قد يفضل عليه . فقد ظل لقب القنصل محط الأنظار وهدف الأطماع وأوفى جزاء للسيرة الحسنة والاخلاص ، بل ان الأباطرة انفسهم — أولئك الذين احتقروا الظلال الباهتة للجمهورية — كانوا يدركون كل الإدراك أنهم انما يحظون بمزيد من الجلال والعظمة حين يفوزون كل عام بامجاد منصب القنصل .

ولا يمكن أن يوجد فى أى عصر أو بلد تفريق أدق وأكثر زهوا بين النبلاء والشعب ، من هذا التفريق الذى كان قائما بين النبلاء والعامية فى أول عصور الجمهورية الرومانية ، حيث كانت الثروة والأمجاد ووظائف الدولة والطقوس الدينية تكاد تكون مقصورة حصرا تاما على الأولين الذين احتفلوا بنقلوة سمائم بأشد الحقد المسىء ، وبذلك ابتغوا اتباعهم فى حالة من الاسترقاق الخداع . ولكن التريونات قضوا بجهودهم المتواصلة ، وبعد صراع ملوول ، على هذه الفوارق التى لا تتناسب مع روح شعب حر . فتجمع أفراد العامة (البلييان) الذين أوتوا أكبر قدر من النشاط والتوميق والثروات ، وتطلعوا الى الأمجاد وكانوا جديرين بالنصر وعقدوا الزيجات ، وبعد بضعة أجيال حاكوا النبلاء فى خيلائهم وفخارهم — أما أسرات النبلاء ، من جهة أخرى تلك التى لم يحص عددها حتى نهاية عصر الجمهورية والتى أخفقت فى المجال المادى للحياة الطبيعية ، أو أبيدت فى الحروب الخارجية والداخلية الكثيرة ، أو بسبب افتقارها الى الموهبة والحظ ، فانها امتزجت ، دون أن تشعر بجمهرة الشعب ، وبقي منها عدد قليل جدا يمكن أن يرجع بعرقه النقى الأصل الى نشأة مدينة روما أو حتى الى نشأة الجمهورية ، حين خلق قيصر وأوغسطس وكلوديوس وسبازيان من هيئة السفاتو عددا كائيا من أسرات بطارقة جديدة ، يحدوهم الأمل فى تثبيت نظام ظلوا يعتبرونه شرفا مقدسا ، ولكن سرعان ما اكتسح بطش الطغاة ، والثورات الكثيرة ، وتبدل السلوك واختلاط الأمم — اكتسح هذه الأسرات المصنوعة (التى كان البيت الحاكم فى عدادها دائما) . ولم يبق من ذلك عند اعتلاء قسطنطين العرش ، سوى تقليد غامض مشوه يقول بأن النبلاء هم أوائل الرومان . وكل من الجائر ألا يلتئم مع شخصية قسطنطين وسياسته ، تكوين هيئة من

النبلاء يكون لها من تأثيرها ونفوذها ما يقيد سلطة الملك ويعززها في نفس الوقت ، ولكن لو أنه تبين جدياً مثل هذه الخطة ، لما كان في مكتبته ، بجرة قلم أو بأمر عال حاسم ، أن يقر نظاماً لا بد لترسيخه من عامل الزمن وتهيئة الأفكار . والواقع أنه أحياناً لقب « البطارقة » (أى النبلاء) ولكنه أحياء بوصفه امتيازاً شخصياً لا لقباً وراثياً ، ولم يسبقهم في علو المنزلة إلا القناصل الذين اقترنت مقامهم السنوية بهذا التفوق العابر ، ولكن البطارقة فيها عدا ذلك سموا فوق جميع كبار الموظفين في الدولة ، ولم يكن بينهم وبين شخص الأمير حجاب قط . وكانوا يمنحون هذه المنزلة الرفيعة لدى الحياة . ولما كانوا عادة من المقربين ، ومن الوزراء الذين بلغوا أرذل العمر في البلاط الإمبراطوري ، فقد فسد الاشتقاق أو الأصل الحقيقي للكلمة بفعل الجهل والرياء ، وحظى بطارقة القسطنطينية بالأجلال والاحترام على أنهم « الآباء » المختارون للإمبراطور وللدولة .

١ -

رؤساء الحرس • البروقتل • الحكام

كانت حظوظ رؤساء الحرس Prefect تختلف اختلافاً جوهرياً من حظوظ القناصل والبطارقة . فقد رأى البطارقة عظمتهم القديمة تذوب في لقب عقيم ، أما القناصل الذين صعدوا شيئاً فشيئاً من أدنى درجات السلم ، فقد عهد اليهم بالإدارة الفنية والعسكرية في العالم الروماني ، فمِنذ عهد سيفيروس إلى عهد قنطديانوس ، وضع الحرس والقصر ، والقوانين والأموال ، والجيش والولايات تحت إشرافهم ورعايتهم ، فأمسكوا بيد خاتم الإمبراطورية وباليدي الأخرى علمها ، شأنهم في ذلك شأن وزراء الشرق . وكانت مَسْرِق الحرس البريتوري تميز طمع رؤسائهم ، الذي كان تارة مخيفاً وتارة مميّناً ، بالنسبة للسادة الذين هم في خدمتهم . ولكن لما أضعف قنطديانوس شوكة هذه الفرق المتفطرة . وقضى عليها قسطنطين قضاء مبرماً ، انحط من بقي من قوادهم ، دون صعوبة ، إلى مرتبة الحكام المدنيين النافعين المطيعين . ولما لم يعودوا مسؤولين عن سلامة شخص الإمبراطور ، تخلّوا من الولاية أو السلطة التي كانوا قد ادعوها ومارسوها ، حتى ذلك الوقت ، على كل إدارات القصر وأقسامه . وحرّمهم قسطنطين من القيادة العسكرية حالما انقطعوا عن قيادة زهرة القوات الرومانية إلى الميدان بناء على أوامره الخاصة ، وفي نهاية الأمر حول قواد الحرس ، نتيجة ثورة فريدة في بابها إلى حكام مدنيين في الولايات .

وطبقا لخطة الحكم التى وضعها دقلديانوس ، كان لكل واحد من الأمراء الأربعة رئيس لحرسه البريتورى . ولما اتحدت الملكية مرة أخرى فى شخص قسطنطين ، ظل متمسكا بعدد رؤساء الحرس الأربعة ووكل الى كل منهم أمر الولايات التى كانوا يعملون فيها . (ا) رئيس الشرق ، وامتد اختصاصه على ثلاثة اجزاء المعمورة التى كانت خاضعة للرومان من شلالات النيل الى ضفاف فاسيس . ومن جبال تراقيا الى حدود فارس . (ب) وأقرت الولايات الهامة : بانونيا ، وداشيا ومقدونيا واليونان يوما بسلطان رئيس الحرس فى الليريكوم . (ج) ولم يقتصر سلطان رئيس الحرس فى ايطاليا على حدود البلد الذى اشتق منه لقبه ، بل امتد الى راشيا حتى ضفاف الدانوب وعلى الجزر التابعة فى البحر المتوسط ، وذلك الجزء من امبريقية الواقع بين مشارف برقة وحدود تنجيتانيا Tingitania . (د) أما رئيس حرس الغلال ، فقد ضم تحت هذا الاسم الجامع الولايات المجاورة ، بريطانيا واسباتيا ، ودان لسلطانه الجزء الممتد من سور انطونينوس (فى اسكتلنده) الى سفح جبال اطلس .

ولما ابعد القواد البريتوريون عن القيادة العسكرية بأسرها ، كانت المهام التى قدر لهم ان يتولوها فى الأمم الخاضعة تتلاءم مع مطالبهم اقدر الموظفين ومواهبهم . فقد عهد الى حكمتهم بمهتين ساميتين القضاء والمال ، وهما الموضوعان اللذان يستنفدان ، وقت السلم ، جهود الملك والشعب . وفى الاولى ، اى القضاء يحمون المواطنين الذين يخضعون للقانون ، وفى الثانية يجمعون من أموالهم القدر اللازم لمساهمتهم فى نفقات الدولة . وكان هؤلاء الرؤساء البريتوريون بفضل سلطانتهم يوفرون العملة والطرق والبريد ومخازن الغلال والصناعات وغير ذلك مما يحقق الرخاء العام . وخول لهم بوصفهم ممثلين للجلالة الامبراطورية ان يفسروا وينفذوا ، وفى بعض الاحيان يعدلوا ، المراسيم العامة ، بما يصدر من بلاغات او اعلانات وفق مقتضيات الظروف . كما اصرغوا على سلوك حكام الولايات معزلوا منهم المهملين وعاقبوا المذنبين ، وكان يستأنف امام محكمة الرئيس البريتورى كل قضية ذات اهمية ، مدنية كانت او جنائية من اختصاص الهيئات الداخلة فى دائرة ولاسه الشرعية . وكان حكمه نهائيا حاسما ، بل ان الاباطرة انفسهم ابوا ان يقبلوا أية شكوى ضد حكم او نزاهة هؤلاء القضاة الذين كرموهم بمثل هذه الثقة غير المحدودة . وكانت مخصصاته متناسبة مع مكانته ، اما اذا تولاه الجشع ، فما أكثر ما استمتع بالفرص لابتزاز حصيله طيبة من الرسوم والهدايا والمبالغ الاضافية ! ، وعلى الرغم من

أن الأباطرة لم يعودوا يخشون طمع هؤلاء الرؤساء البريتوريين ، فانهم حرصوا على ايجاد شيء من التوازن لمواجهة قوة هذا المنصب العظيم ، عن طريق عدم التثبيت من مدة شغله وقصر هذه المدة .

واستثنيت روما والقسطنطينية وحدهما لخطورة أهميتهما ومكانتهما من ولاية الرؤساء البريتوريين . لقد هيا اتساع مدينة روما ، وتجربة التمويق والاهمال المقيم للقوانين ، هيات الفرصة امام سياسة أوغسطس ليجد تبريرا مموها لتعيين حاكم جديد يمكنه وحده أن يكبح جماح جمهور قليل مشاغب بيد من حديد . فعين فالوريوس مسسالا Messala أول رئيس بريتورى لروما لعل حسن سمعته يمكنه من اتخاذ هذا الاجراء المثير للبغضاء . ولكن المواطن المهنذب اعتزل منصبه ، ولما يمض عليه فيه سوى أيام قلائل ، معلنا ، بروح جدية بصدق بروتس ، أنه وجد نفسه عاجزا عن ممارسة سلطة لا تلتئم مع الحرية العامة . ولما بات معنى الحرية أقل روعة ، انضحت مزايا النظام بشكل أكثر جلاء وسمح للرئيس البريتورى ، الذى بدا أنه خصص ليكون أداة ارهاب للعبيد والمتشردين — سمح له أن ييسط ولايته فى الأمور المدنية والجنائية على اسرات الفرسان والنبلاء فى روما . ولم يكد البريتوريون الذين يعينون سنويا لمنصب القضاء والانصاف يستطيعون ان ينازعوا على ملكية الساحة ومركز القضاء Forum قاضيا دائم اليقظة حظى عادة بثقة الأمير . ومن ثم هجرت محاكمهم ، وهبط بالتدريج عددهم الذى تراوح يوما بين اثنى عشر وثمانية ، الى اثنين أو ثلاثة ، وانحصرت وظائفهم الهامة فى التزام بافظ الفئقات ، هو عرض الألعاب لفسلية الشعب . وبعد ان تحولت وظيفة القناصل الرومان الى مجرد تمثيلية من التقاليد الماضية قلما تعرض فى العاصمة ، احتل الرؤساء البريتوريون اماكنهم الشاغرة فى السنااتو ، وسرعان ما اعترف لهم بانهم الرؤساء الطبيعيون فى هذا المجلس الموقر . وتلقوا طلبات الاستئناف من مسافة مائة ميل . واصبح من مبادئ الفقه المسلم بها أن كل السلطة البلدية تنبع منهم وحدهم . وكان يعاون محافظ روما فى مهمته الشاقة خمسة عشر موظفا ، كان بعضهم نظراء له من قبل ، بل منهم من كانوا رؤساءه . وكانت كل الادارات الرئيسية تتناسب مع مقتضيات الاشراف على المرافق المتعددة مثل مكافحة الحرائق والسرقات والحوادث الليلية وحجز المخصصات العامة من القلال وتوزيعها ، وتمهد الميناء وخزانات المياه ، والمجارى العامة ، ومراقبة الملاحة فى النهر ، وتطهير قاع النهر ، والتفتيش على الأسواق والمسارح ، والاستئصال العصابة

والخاصة . والواقع أن يقطنهم كانت تنتظم الاهداف الثلاثة لاية شرطة نظامية : الأمن ، الرخاء ، والنظافة . ثم بعد ذلك المحافظة على ابهة العاصمة وزينتها ككليل على سهر الحكومة وعنايتها . وقد عين مفتش خاص للتمثيل ، وكافى به حارس على عالم الجماد ، أو هؤلاء الموتى الذين لا يكاد يقل عددهم عن السكان الأحياء في روما ، كما قال أحد الكتاب مبالغا في تقدير عددها . وبعد ثلاثين عاما من تأسيس القسطنطينية عين للمدينة الناشئة محافظ شبيه بهذا الذي كان في روما ، لنفس الأغراض ويمثل هذه الصلاحيات ، وسوى في المرتبة بين المحافظ (رئيس البلدية) وبين الرؤساء البريتوريين .

وشكل الذين يتميزون في سلم الوظائف الامبراطورية بلقب « المجلين » ، طبقة وسطا بين الولاة « البارزين » وحكام الولايات « الموقرين » . وكان للبروقنصل في آسيا وآخيا (ولاية اغريقية) واغريقية مركز ممتاز في هذه الطبقة ، وهو مركز منح بفضل ذكرى مكانتهم السابقة ، وكان استئناف احكامهم الى محاكم الولاة البريتوريين هو الرمز الوحيد لتبعيتهم أو عدم استقلالهم . وانقسمت الحكومة المدنية في الامبراطورية الى ثلاث عشرة وحدة ادارية كبيرة كانت كل منها تعادل في الحقيقة مساحة مملكة قوية ، وكانت أولى هذه الوحدات من اختصاص حاكم (كونت Count) الشرق . ويمكن أن نكون فكرة عن خطورة شأن مهامه وتنوعها اذا لاحظنا أن ستمائة من العاملين الذين يمكن أن نسميهم اليوم سكرتارية أو كتبة أو حجابا أو حملة الرسائل ، كانوا يعملون في مكتبه . ولم يعد منصب « السوالى الامبراطورى » على مصر يشغل باى فارس رومانى ، ولكن احتفظ بالاسم فقط ، أما السلطات غير المدنية التى كانت يوما ما ، والتى جعل منها مركز مصر وطلباع اهلها ضرورة حتمية ، فقد ظلت في يد المحافظ . أما الوحدات الاحدى عشرة الباقية : آسيانا ، وبونتيكا وتراقيا ، ثم مقدونيا وداشيسيا وبانونيا ، أو الليريكوم الغربية ، ثم ايطاليا واغريقية ، ثم الغال واسبانيا وبريطانيا - فكان فى كل منها نائب للسوالى ، وقد يكفى الاسم لتوضيح طبيعة الوظيفة وتبعيتها أو ارتباطها بغيرها . ويمكن القول بأن نواب قواد الجيش الرومانية ، والكونتسات Counts والأنواق العسكريين الذين سيرد ذكرهم فيما بعد — كانوا كذلك يتمتعون بمكانة ولقب « المجلين » .

ولما طغت روح الحقد والتباهى على مجالس الاباطرة ، ثابروا في شغف زائد على توزيع السلطة ومضاعفة عدد ألقابها ، ومزقت شر

موزق ، بطريقة غير محسوسة ، تلك الأقطار الكبيرة التي كان الفاتحون الرومان قد وحدوها في ظل شكل بسيط واحد من أشكال الحكم ، حتى انقسمت الامبراطورية آخر الأمر الى مائة وست عشرة ولاية ، غامت كل منها بععب جهاز ادارى باعظ النفقة بهي المنظر ، تختلف القلب من يتولون الحكم فيها : ثمنى ثلاث منها كان لقبه « البروقنصل » . وفي سبع وثلاثين كان « القنصل » . وفي خميس كان يدعى « كركتور Corrector » (وهو طراز من الموظفين كان يتولى الحكم في المدن الحرة نشأ لأول مرة في عهد اوغسطس) . وفي احدى وسبعين ولاية كان يدعى « الرئيس » وهكذا تعددت تسميات هؤلاء الحكام ، وتدرجت مراتبهم بعضها فوق بعض ، كما اختلفت شعارات هذه المراتب بشكل غريب ، ولم تكن حظوظهم على قدر سواء ، في الارتياح الى هذه المراكز أو الانتفاع بها ، بل تارجح هذا وذلك صعودا وهبوطا تبعا للظروف الطارئة ، ولكنهم كانوا جميعا (باستثناء البروقنصل) يندرجون تحت طبقة « الموقرين » ، وعهد اليهم جميعا — في حالة رضا الامير وتحت سلطة الولاة أو نوابهم (أو بتفويض منهم) — بشئون القضاء والمال ، كل في نطاق اختصاصه . وان المجلدات الضخمة للتشريعات والفتاوى لتزود الباحث المدقق بمادة غزيرة عن نظام الحكم في الولايات ذلك النظام الذي تناولته بالتهنيز والتفنيح على مدى ستة قرون ايدى رجال السياسة والقانون من الرومان . وقد يكتفى المؤرخ بنصين فريدين ناعمين قصد بهما الحد من سوء استغلال السلطة :

١ — تسلمح حكام الولايات يسيف العدالة من اجل المحافظة على الأمن والنظام ، وانزلوا العقوبات البدنية ، وحكموا بالاعدام في الجرائم الكبرى ، لكن لم يكن من حقهم ان يسمحوا للمحكوم عليه باختيار الطريقة التي ينفذ بها الحكم أو بصحور الحكم بالنفى مهما كان الحكم خفيفا أو مشريا . فقد احتفظ بهذه الامتيازات للوالى الذى كان له وحده ان يفرض غرامة ثقيلة قدرها خمسون جنيا ذميا ، أما نائبه فقد انحصر في فرض غرامة يسيرة لا تعدو بضع اوقيات من الذهب . وكان هذا التفريق — الذى يبدو أنه يخول القدر الأكبر من السلطة ، على حين ينكر القدر الأيسر منها — مبنيا على أساس معقول ، ذلك ان هذا القدر الأيسر على التحقيق ، أكثر عرضة لسوء الاستغلال ، فكثيرا ما سولت الأهواء لحاكم الولاية ارتكاب المظالم التي تصيب الرعايا في حريتهم وفي أرزاقهم ، على حين بداخله الرعب ، بدافع الروية أو الانسانية ، من احتمال وزر الدم البريء . كذلك يمكن اعتبار النفى ،

أو الغرامات الكبيرة أو المينة السهلة ، تتصل أكثر ما تتصل ، بصفة خاصة بالأغنياء والنبلاء ، وبهذه الطريقة أو بحكم هذا النص ، ينقذ من الاضطهاد الخفى لحاكم الولاية أولئك الأشخاص الذين هم أكثر عرضة لجشعه أو سخطه ، وينتقل التصرف في شأنهم الى محكمة أكثر مهابة وتجردا هي محكمة الوالى البريتورى .

٢ - وكانوا يخشون ، وحق لهم ان يخشوا ، ان تتحرف بالقاضى عن جادة النزاهة مصلحته أو ميوله ، ولهذا صدرت التعليمات المشددة ، باستبعاد أى موظف من حكومة الولايات التى ولد فيها ، دون اجازة خاصة من الامبراطور ، كما حرم على الحاكم وابنه الزواج من مواطنة أو مقيمة فى الولاية ، أو شراء العبيد أو الاراضى والبيوت فى نطاسق ولايته .

ورغم هذه الاحتياطات الشديدة ، ظل مسطنطين بعد حكم دام خمسا وعشرين سنة ، ينمى على الرشوة والجور فى القضاء ، ويعبر من استيائه الشديد من ان نظر القاضى للدموى وسرعة تصرفه فيها أو تأجيله لها ، ثم حكمه النهائى - كل أولئك كان يباع ، أما بطريق مباشر أو عن طريق موظفى محكمته . وان تكرار القوانين غير الرادعة والتهديدات غير المؤثرة لينهض دليلا على المضى فى مثل هذه الجرائم دون حساب أو عقاب .

وكان كل الحكام المدنيين من رجال القانون ، لقد فتحت معاهد جستنيان أبوابها لشباب ممتلكاته الذين وهبوا انفسهم لدراسة اللغة الرومانى ، ويتطلف الملك ، حزنا لهمة الشباب ، فيؤكد لهم أنه سيجزيهم احسن الجزاء لقاء مهارتهم وكفايتهم نصيبا وامرا فى حكومة الجمهورية . وكانت اصول هذا العلم المريح تدريس فى كل المدن الكبيرة فى الشرق والغرب ، ولكن أشهر مدرسة له كانت فى بيروت على الشاطىء الفينيقى ، وقد ازدهرت لأكثر من ثلاثة قرون ، منذ عهد الاسكندر سيفيروس ، الذى أسس معهدا ربما كان نافعا لبنى وطنه ، وكان الطلبة بعد دراسة منتظمة مدتها خمس سنوات فيه ، يضربون فى الولايات سعيا وراء الثروة والأمجاد ، وما كان ليموزهم المعين الذى لا ينضب من العمل فى امبراطورية مترامية الاطراف افسدها تسدد القوانين ، وكثرة الأمانين والردائل . وكانت محكمة الوالى البريتورى فى الشرق كالفية وحدها لايجاد عمل لمائة وخمسين محابيا ، تفرد أربعة وستون منهم بمزايا خاصة ، واختير من بينهم اثنان آخران بمرتب قدره

ستون جنيها ذهباً للدفاع في قضايا الخزانة . وجرى أول اختبار لخواصهم القضائية بتعيينهم ليعملوا بوصفهم معاونين للحكام ، ومن هنا كانوا يرقون الى منصة الرياسة في المحاكم التي كانوا يترافعون امامها . وتولوا مناصب الحكم في الولايات ، ثم صعدوا بفضل جدارتهم أو شهرتهم أو حظوتهم ، خطوة خطوة ، الى أعلى مناصب الدولة ، وعدوا من « البارزين » واعتبر هؤلاء الرجال سمة الادراك أو العقل أداة المقارنة في ساحة القضاء ، وفسروا القوانين وفق مصالحهم الشخصية ، وربما لازمت العادات الوبيلة خلقهم في مجال ادارة شئون الدولة . والحق ان المحامين القدامى والمحدثين — الذين شغلوا اهم المراكز بنزاهة خالصة وحكمة بالغة — قد رغبوا من شأن المهنة الحرة ، ولكن التدرج العادي للمحامين ، في عهد اضمحلال الفقه الروماني اقترن بأبلغ الضرر والعار . فقد وقعت المهنة الشريفة التي ظلت ميراثاً مقدساً للنبلاء — وقعت بين أيدي المعتدين والعلامة الذين اتخذوا منها ، خبثاً لا يبرأ ، تجارة نقيئة سيئة . وطرق بعضهم ابواب الأسرار لاثارة المنازعات وتشجيع التقاضي وجر المغائم لأنفسهم ولاخوانهم . وقبض بعضهم في أملاكهم ، وانتحلوا وقار أساتذة القانون ، وزودوا عملاءهم الأغنياء بأحذق الحيل لتشويه أوضح الحقائق ، وبالحجج لتزييف أشد المزاعم بطلاناً . وتألفت الطبقة الجليظة المشهورة من المحامين الذين ضجت الساحة بفصاحتهم التي تتسم باللفو والثثرة والمبالغة . ولم يقيموا وزناً للشهرة أو العدالة ، ووصفوا ، في أغلب الأحوال ، بأنهم أذلاء جهلة جشعون ، نادوا عملاءهم في تيه من التفننات والإبطاء وخيبة الأمل ، حتى اذا كاد ينفد صبرهم وأموالهم ، في سلسلة مبهلة من السنين ، كان مآلهم الطرد ورفض الدعوى .

وزراء القصر السبعة

والى جانب الحكام والقواد الذين مارسوا سلطاتهم المخولة اليهم في الولايات والجيوش ، بعيديدا عن البلاط الإمبراطوري ، منح الإمبراطورية مرتبة « البارزين » *Illustrious* لسبعة من أقرب موظفيه الذين وكل اليهم لأمانتهم وإخلاصهم أمر سلامته وتقديم المشورة اليه وإدارة أماله .

١ — تولى خمي عزيز أثير شئون الجناح الخاص في القصر ، وكان يسمى بلغة ذاك العصر *Praepositus* أى حاجب المخدع المقدس

(الأمين الخالص) . وكانت مهمته أن يلازم الإمبراطور في ساعات عمله أو لهوه ، ويؤدي لشخص الإمبراطور كل الخدمات الحسيرة التي لا تستمد بهاءها إلا من الملكية . وكان الحجاب العظيم (وقد تسميه كذلك) ، مع الأمير الجدير بالملك ، خادما نامعا ذليلا ، ولكنه خادما داهية ، يتحين كل مناسبة لما وضع فيه من ثقة عالية ليجد له إلى العقلية الضعيفة منفذا قل أن تجده الحكمة الجافة أو الفضيلة الصارمة . ورفع أحفاد تيودوسيوس المنطون — وكانوا محتجين عن أنظار رعاياهم محققرين في أعين أعدائهم — رفعوا حجاب مخادعهم فوق هلمات سائر الحجاب في القصر ، بل الأدهى من ذلك أن نائبه الذي لم يجد أن يكون على رأس موكب العبيد الواقفين رهن الإشارة ، كان يسبق في مرتبته مرتبة البروقنصل « الميجل » في اليونان أو في آسيا — وكان ثمة اثنان من الملاحظين يحملان لقب « كونت » يشرفان على مناط الأبهة والمظمة والترف في القصر ، فتولى أحدهما أمر خزان الملابس الملكية ، وعهد إلى الثاني بشئون المائدة الإمبراطورية ، وكانا يانمران في هذه المهمة الخطيرة بأمر حاجب المخدع وينفذان تعليماته .

٢ — وعهد بالإدارة الرئيسية للشئون العامة إلى رئيس الديوان وكان الحاكم الأعلى في القصر ، يتنقد النظام ويراقب الفرق المدنية والعسكرية ، ويتلقى الاستئنافات من مختلف أنحاء الإمبراطورية في قضايا هذا الجيش المعمر من الأفراد أصحاب الامتيازات ، الذين كسبوا لأنفسهم ولأسراتهم ، بوصفهم خدما في البلاط ، حسق مدم الانصياع إلى سلطان القضاة الماديين . وكانت المكاتب الأربعة أو بالأحرى مكاتب وزير الدولة هذا ، تتولى أمر المراسلات بين الأمير ورعاياه . وكان المكتب الأول يختص بالذكرات والتقارير الرسمية . والثاني بالرسائل ، والثالث بالمعروضات والتمنسات ، والرابع بالوثائق والأوامر من شتى الأنواع . وكان يدير كلا من هذه المكاتب رئيس أدنى مرتبة من فئة « الميجلين » . وكان يقوم على هذه العملية كلها مائة وثمانية وأربعون سكرتيرا أو كتابا معظمهم من رجال القانون ، نخلوا لكثرة ما يصادفهم في عملهم من الحاجة إلى تلخيص التقارير وإلى المراجع . وثمة تنازل ربما اعتبر غير جدير بالجلالة الرومانية في المعصور الأولى ، ذلك هو تعيين سكرتير خاص للغة اليونانية . وعن مترجمون لاستقبال سفراء المتبربرين ، ولكن إدارة الشئون الخارجية ، التي تشكل جانبا جوهريا في السياسة الحديثة ، قل أن جذبت انتباه رئيس الديوان ، فقد كان كل تفكيره منصرفا إلى توجيه

البريد وإدارة الترسيلات في الإمبراطورية التي كانت تضم أربعاً وثلاثين مدينة ، منها خمس عشرة في الشرق وتسع عشرة في الغرب ، وبها جميعاً حشود من العمال تشتغل بصنع أسلحة الدفاع ، وأدوات الهجوم من مختلف الأنواع والآلات الحربية التي كانت تودع الترسيلات ، وتنقل عند اللزوم إلى الميادين لتستخدمها الفرق .

٣ - وحدث في مدى تسعة قرون ، تطور غريب في وظيفة « الكوستر Quæstor » أي الصراف أو الموظف المالي . ففي المهود الأولى في روما كان الشعب يختار كل عام موظفين صغيرين لمعاونة الفصل في المهمة البقيضة ، مهمة إدارة الأموال العامة . وعين لهذا الغرض كذلك معاون لكل بروقنصل أو رئيس تولى القيادة العسكرية أو الإدارة الفنية في الولاية ، وتضاعف عدد هذين الموظفين المحليين تدريجاً ، نتيجة التوسع في الفتوح ، إلى أربعة ، ثم ثمانية ، ثم عشرين وربما إلى أربعين ، في فترة وجيزة . ويطلع أشرف المواطنين إلى وظيفة تهيئ لهم مقعداً في السناتو ، وتطلقوا من ورائها بالأمل الصادق في الفوز بأجناد الدولة . وفي الوقت الذي تظاهر فيه أوغسطس بصون حرية الانتخاب تراءى يقبل عن طيب خاطر الامتياز الذي اختصه به ، ألا وهو أن يوصى في كل عام ، أو على الأرجح أن يعين عدداً محدداً من المرشحين ، وكان من عادته أن يتخير أحد أولئك الشبان المتنازعين ليقرأ خطبه أو رسائله في اجتماعات السناتو ، وهذا خلفاء أغسطس حذوه في ذلك ، وتحولت المهمة الطارئة الموقوتة إلى وظيفة دائمة ، وأطلق على شافلها لقب « كوستر » وهذا هو « الكوستر » الوحيد ذو الخطوة الذي اتخذ شخصية جديدة أكثر لمعاناً ، وبقي بعد إلغاء وظائف زملائه القدامى المعتمدين . ولما كانت الخطب التي يكتبها « الكوستر » باسم الإمبراطور قد اكتسبت قوة المراسم النافذة واكتسبت آخر الأمر صيغتها ، فقد اعتبر هذا الموظف مثل السلطة التشريعية ، ومهبط الوحي في المجلس والمصدر الأعلى للتشريع المدني . وكان يدمى أحياناً إلى حضور جلسات القضاء الأعلى في المجمع الإمبراطوري بين الرؤساء البريتوريين ورئيس الديوان ، ويطلب إليه أن يقطع بالرأي فيما يستشكل على منظار القضاة . ولما لم يكن مرقعاً بأية مهام ثاقوية ، فقد شغل فراغه واستخدم مواهبه في ابتداع ذلك الأسلوب الرقيق المنق من الفصاحة التي حفظت للقوانين الرومانية جلالها وروعها ، رغم فساد الذوق واللغة . ويمكن من بعض الوجوه أن نقرن وظيفة « الكوستر » الإمبراطوري بوظيفة حامل

الأختام الحقيقية ، ولكن الخاتم الكبير الذى يدعو ان المتبريرين الاميين قد ابتدعوه ، لم يستخدم قط ليشهد على صحة الأوامر العامة للأباطرة .

٤ - وثمة لقب غريب هو كونت « رئيس العطايا المقدسة » اى ناظر المالية ، وربما صيغ هذا اللقب على اساس أن اى مبلغ يدفع انما هو غيضى اختيارى من كرم الملك . وانه لما يتجاوز قدرة اقوى خيال ، ادراك التفاصيل الدقيقة للنفقات السنوية واليومية للإدارة المدنية والعسكرية فى كل جزء من أجزاء امبراطورية مترامية الأطراف . واستخدم لهذا الغرض يضع مئات من الموظفين وزموا على احد عشر مكتبا مختلفا تهدف فى دهاء الى مراجعة منزل كل منها والرقابة عليه - وكان عدد هؤلاء الموظفين يميل بالطبيعة الى التزايد . وساد التفكير أكثر من مرة فى أن يعاد الى بلادهم هؤلاء الأفراد الزائدون عن الحاجة والذين لا يزجى منهم نفع ، والذين هجروا اعمالهم الشريفة وهرعوا فى لهف شديد الى الوظائف المالية المربحة . وكان فى الولايات تسعة وعشرون من موظفى الخزانة يتبعون ناظر المالية ، حظى منهم ثمانية عشر بلقب « كونت Count » . وكان سلطان ناظر المالية يمتد على المناجم التى تستخرج منها المعادن النفيسة ، وعلى دور السك التى تحول فيها هذه المعادن الى عملة ، وعلى الخزائن العامة فى اهم المدن ، حيث تودع الاموال لخدمة الدولة . وتولى هذا الناظر كذلك تنظيم التجارة الخارجية للامبراطورية ، كما ادار مصانع الكتان والصوف ، حيث كانت تجري عمليات الغزل والنسيج والصباغة ، ويقوم عليها نسوة رقيقات الحال لاستعمال اللص والجيش - وكان فى الغرب الذى هو أحدث عهدا بالفنون ، ست وعشرون من هذه المنشآت ، وعدد أكبر منه فى الولايات النشطة فى الشرق .

٥ - وإلى جانب الدخل العام الذى يمكن لأى حاكم مطلق ان يجمعه أو ينفقه كيفما يظن له ، اقتضى الأباطرة ، وكانهم مواطنون أثرياء ، ممتلكات واسعة ، كان يديرها « الكونت » أو ناظر الضياع الخاصة « وربما كان بعضها جالسا بالملوك والجمهوريات التسديدية ، وربما نتجت بعض الاضائلت من طريق الاسرات التى تعاقبت على العرش ، ولكن الجزء الأكبر من هذه الممتلكات الامبراطورية جاء من مصدر دنى ، الا وهو المصادرة والغرامات ، وكانت الضياع الامبراطورية متناثرة فى طول الولايات وعرضها ، من موريتانيا الى بريطانيا ، ولكن التربة الغنية الخصبة فى كبادوكيا أغرت الامبراطور

باعتناء اجل ممتلكاته فيها . واقتنص قسطنطين وخلفاؤه الفرصة لتبرير الجشع بالغيرة الدينية ، فمضوا على معبد كوماتا الغنى ، حيث كان الكامن الأعلى لآلهة الحزب أشبه شيء بملك مطلق السلطان ، واستغلوا لمنفعتهم الخاصة الأراضي المقدسة التي كان يعيش عليها ستة آلاف من رعايا أو عبيد هذه الأراضي أو كهنتها . ولكن لم تكن لهؤلاء السكان قيمة إلى جانب سلالة الخيل الأصيلة التي نشأت في هذه الرقعة الممتدة من سفح جبل أرجوس Argæus إلى ضفاف نهر ساروس ، وهي سلالة تتميز بعظمة شكلها وسرعتها التي لا تبارى عن سائر السلالات المعروفة في العالم القديم . ونصت القوانين على حماية هذه الخيول التي خصصت لخدمة القصر والألعاب الإمبراطورية ، من أن يمتنعها أو يدنسها سيد فظ شرس . وبلغت أهمية كبادوكيا إلى حد تعيين موظف (كونت) خاص للإشراف عليها ، أما سائر أجزاء الإمبراطورية فقد عين لها موظفون أقل مرتبة . أما نواب ناظر المالية ونظر الضياع الخاصة على حد سواء ، فقد ظلوا يمارسون مهامهم المستقلة وشجعوا على الحد من سلطان حكام الولايات .

٦٠٧ — ووضعت الفرق المختارة من الخيالة والمشاة الذين يحرصون شخص الإمبراطور تحت الاشراف المباشر للموظفين الاثنين المكلفين بالشئون الخاصة (المفزية) . وكانت هذه الفرق تتألف من ثلاثة آلاف وخمسمائة فرد تنقسم إلى سبع فرق في كل منها خمسمائة وعهد بهذه الخدمة النبيلة في الشرق إلى الأرمن وحدهم تقريبا . وكلما ظهروا في الاعتقالات العامة في ابهاء القصر وأروقته ، تجلت فيهم ، بقمائمهم المالية وأسلحتهم الفخمة المصنوعة من الفضة والذهب ست تجلت فيهم العظمة الحربية الثلاثة بجلال الإمبراطورية الرومانية . واختيرت من بين الفرق السبع جيامتان من الفرسان والخيالة ، من البريتوريين الذين كان مركزهم المبتاز معقد الرجاء ومناط الجراء لأعظم الجنود بخدابة واستحقاقا . وقد تولوا الحراسة في الأجنحة الداخلية ، وأرسلوا إلى الولايات لتنفيذ أوامر سيدهم بمنتهى السرعة والقوة ، وكان موظفو الشئون الخاصة (الكونت) يرقون إلى مناصب الرؤساء البريتوريين ، وتناقت نفوسهم إلى الخروج من خدمة القصر إلى قيادة الجيوش ، شأنهم في ذلك شأن هؤلاء الرؤساء البريتوريين .

بدء الدولة البوليسية

يسر انشاء الطرق وتنظيم البريد نسجل الاتصال الدائم بين البلاط والولايات ولكن هذه الانشاءات النافعة اقترنت فجأة بسوء استغلال وبيد لا يطاق . فقد استخدم مائتان او ثلاثمائة من العمال او الرسل ، تحت امرة رئيس الديوان : لاعلان اسماء القناصل السنويين ، ومراسيم الأباطرة او انتصاراتهم . وترخص هؤلاء ، دون ان يشفروا ، في الإبلاغ عما امكنهم ان يلحظوا على سلوك الحكام او المواطنين العاديين ، وسرعان ما نظر اليهم على أنهم عيون الملك وسوط الشعب . وفي ظل النفوذ الشديد للحكم الضعيف بلغ عددهم رقبا لا يصدق ، اى نحو عشرة آلاف ، وضربوا بالانذارات الخفيفة التى كثيرا ما وردت فى القوانين عرض الحائط ومارسوا فى الاتجار المريح بالوظائف ظلما مقرونا بالجنش والوقاحة . ومن طريق المجاملة والعطف والمكافآت تشجع هؤلاء الجواسيس الرسبيون الذين يتصلون بالقمصر بانتظام ، على ان يرقبوا فى لهفة ، تطور اى عمل من اعمال الخيانة ابتداء من اتفه اعراض السخط الدفين الى التدابير الفعلية لفورة علنية . واستتر انتهاكهم الدنىء الاجرامى لحرمة الحق والعدل وراء قناع مقدس من الفيرة والحماس ، ومن الجائز أن يسددوا . وهم آمنون مطمئنون ، مساهمهم المسمومة الى مدور المذنبين والأبرياء على حد سواء ، من اثاروا استيائهم او اهاوا شراء صمتهم . وكان المواطن المخلص فى سوريا ، وربما فى بريطانيا ، معرضا لخطر سوته ، او على الاقل للتهديد بسوته ، مكلا فى الاصفاد الى المحسكة فى ميلان او فى القسطنطينية ، ليدافع عن حياته او عن أمواله ضد الاتهام الخبيث الذى ألصقه به هؤلاء المخبرون المحظوظون . وسارت الادارة العادية على هذا الاسلوب الذى لا نسيغه الضرورة التصوى وحدها ، وكانت وسائل التعذيب تعوض عن كنفلية الأدلة .

وكان الفقه الرومانى يسلم أكثر من أن يوافق على هذا الاختبار الخداع الخطير فى القضية الجنائية ، كما كانوا يؤكثون تسميتها . وكانوا يمارسون هذه الطريقة الدموية فى الاختبار مع سفلة القوم الذين لم تكن لآلامهم لدى رجال الدولة المتفطرسين اية قيمة فى ميزان العدالة او الإنسانية ، ولكنهم لم يقدموا قط على اتهام شخص المواطن المقدس الا اذا قام اتصع الدليل على جريمته . وتروى حوليات الطغيان من عهد تيبيريوس الى عهد دوميتيان ، عرضا ، اعدام كثير من الضحايا البريئة . ولكن طالما أمكن الإبقاء على أقل بصيص من ذكرى الحرية

الوطنية والشرف الوطنى ، برثت اللحظات الأخيرة فى حياة أى رومانى من خطر التعذيب المقيت (١) . على أن سلوك حكام الولايات لم يكن مقيدا بمألوف عادات المدينة أو مبادئ المدنيين الصارمة ، فقد ألغوا التعذيب سافدا ، لا بين العبيد فى ممالك الشرق الاستيذاية وحدها ، بل كذلك بين المقتونين الذى خضعوا لملك مقيد ، وبين أهل رودس الذين ازدهرت أحوالهم فى ظل حرية التجارة ، بل بين الاغريق الحكماء الذين اكدوا وقدسوا كرامة الانسان . وشجع اذعان أهل الولايات حكامهم على أن يكتسبوا ، بل قل أن يفتصبوا ، لانفسهم سلطة التعذيب بالخازوق لينتزعوا من المشردين أو العالة المذنبين اعترافهم بما اقترفوا من جرائم ، حتى انتهى الأمر بهؤلاء الحكام الى حد أنهم ، دون أن يشعروا ، اخطأوا الفوارق بين الراتب واغسلوا امتيازات المواطنين الرومان . ولكن الرغبا دفعتهم مخاوفهم الى التمس الاعفاء من التعذيب كما أن الملك ألزمته مصلحته بمنح اعفاء خاص منه فى كثير من الحالات . وفى هذا ترخيص ضمنى بل اقرار بالاجوء الى التعذيب بصفة عامة . ومنعوه عن الأفراد من مرتبة « البارزين » ومرتبة « المبجلين » وعن الأساقفة ومشايخ الكنيسة وأساقفة الفنون الحرة والجنود واسرائهم وموظفى البلديات وذريتهم حتى الجبل الثالث ، والأطفال الذين لم يبلغوا سن الرشد . ولكن أدخل فى التشريع الجديد فى الإمبراطورية مبدأ هو أشبه شئ بسيف مصلت على الرقاب ، ذلك أنه فى حالة الخيانة ، وهى تشمل كل جريمة يستطيع حق المحامين أن يستنبطها من المقاصد العدائية ضد الأمير أو ضد الدولة ، تمطلت أو بطلت كل الامتيازات ، وهبطت كل الحالات الى هذا المستوى البميض ، مستوى الخيانة . ولما كانت سلامة الإمبراطور تفوق صراحة أى اعتبار للعدالة أو للانسانية فقد تعرضت حرمة الشيوخوخة أو نضارة الشباب على حد سواء ، لأشد ألوان التعذيب ، وأصبح الرعب من تبليغ خبيث بأن واحدا من المواطنين الرومان الأصليين كان شريكا ، ربما فى جريمة وهمية ، بل مجرد شاهد عليها ، أصبح هذا الرعب سيفا مصلتا على رقاب الجميع .

ان شمبا انتلخت أوداجه تيهها وعجبا ، او تبرم ضجرا وسفطا ، قل أن يكون أهلا لتقدير موقفه تقديرا صادقا . وهكذا كان رعسايا

(١) فى مؤامرة ييزو ضد نيرون ، كانت ابيكارس Epicharis (المرأة التحررة) هى الشخص الوحيد الذى عتب . أما الباقيون فقد اعلوا من التعذيب . وقد يكون من نافلة القول أن نضيف مثلا اضعف من هذا لأنه من الصعب أن نجد مثلا أقوى « حوليات تاسيتس ٥٧/١٥ »

قسطنطين عاجزين عن التنبه الى انحطاط مستوى العبقريّة ومضائل
الرجولة ، الأمر الذي هبط بهم الى ما دون مكالة أسلافهم . ولكنهم
استطاعوا أن يحسموا بوطاة الطغيان وتراخي القوانين ومداخلة
الضرائب وأن يزثوا لهذه كلها . وقد يلحظ المؤرخ التزيه الذي يسلم
بعدالة شكواهم بعض ظروف موالية تميل الى التخفيف من شقوتهم .
مقد ظل في الامكان بعد صد أو وقف غارات المتبريرين التي كانت تهدد
حدود الامبراطورية ، والتي سرعان ما قوضت مملكة الرومان . وهذب
سكان قسم كبير من الكرة الأرضية فنون البذخ والأدب ونعموا بملاذ
المجتمع البهيجه . وساعدت أشكال الادارة المدنية وبهاؤها ونفقاتها
على الحد من الاباحية الشاذة في الجنود ، وعلى الرغم من أن القوة
انتهكت حرمة القوانين ، أو أنها قد انحرقت بها الحثق والدهاء ، فإن
المبادئ القويمة في التشريع الروماني ، ألفت على اثاره من النظام
والانصاف لم تكن معروفة لدى الحكومات الاستبدادية في الشرق ،
وربما وجدت حقوق الانسان لها في الدين والفلسفة سبيلا آما .
أما اسم الحرية الذي لم يعد يزج خلفاء أوغسطس ، فربما أنفرضهم
أحيانا بأنهم لم يحكموا أمة من العبيد أو من المتبريرين .

الفصل الثامن عشر

(٣٢٤ - ٣٣٧ م)

شخصية قسطنطين ، أسرته ، وفاته .

نهوض دولة فارس في عهد شاپور الثاني

جذبت شخصية الأمير الذي نقل مقر الحكم في الإمبراطورية وأدخل مثل هذه التغييرات الهامة على الدستور المجدني والديني في بلده ، جذبت الظاهر الجنس البشري ، كما انجذبت الآراء فيها ، إما غير المسيحيين المشركين الممارسين لفضل منقذ الكنيسة ، فقد اصبحت عليه كل صناعات البطال بلو القديس ، على حين أن سحق الفريق المخطوب على أيديهم قسطنطين بأبغض أولئك الطفلة الذين دنسوا بهساتهم وضعفهم الحلة الإمبراطورية . وانتقلت هذه المشاعر الى الأجيال المتعاقبة بدرجات متفاوتة ، وما تزال شخصية قسطنطين تعتبر في عصرنا الحاضر موضع قبح أو مدح . وأنا لنأمل ، بالزج البزبه بين المثالب التي اعترف بها أشد المعجبين ، والمزايا التي سلم بها البد الأعداء ، أن نرسم صورة صادقة لهذا الرجل الخارق ، صورة يجدر بالتاريخ الحقيقي الصريح أن يقررها دون خجل أو حياء . ولكن ربما انضح على الفور أن المحاولة المعقبة لمزج هذه الألوان المتناقضة وللمواءمة بين هذه الصنعت المتناقضة لابد أن تخرج بصورة مآرد جبار ، أكثر من أن تنتج صورة إنسان ، الا اذا نظرنا إليها في أضواءها الصحيحة الواضحة مع الفصل الدقيق بين مختلفه لغزات حكم قسطنطين .

لقد حبت الطبيعة شخص قسطنطين وذهنه الثمن ما لديها ، فكان غارغ الطول نهيب الطلعة ، محمود السيرة ، وتجلت قوته ونشاطه في كل ما ينارسه الرجال ، واحتفظ منذ نعومة أظفاره حتى أخريات أيامه

بقوة البنية ، بفضل ما التزم من العفة وضبط النفس . وكان يأنس للعلاقات الاجتماعية برفع الكلفة في الحديث والمناقشة . ورغم أنه ربما أطلق لنفسه العنان أحيانا في التهكم والمزاح ، في تحفظ أقل مما تقتضيه هيبه مركزه ، فإن بشاشته وسماحته أسرتا قلوب كل من اتصلوا به . وقد يشك في صدق مودته ، ولكنه أظهر في بعض المناسبات أنه غير عاجز عن الحفاظ على ود خالص مقيم . ولم يكن نقص تعاطيه ليحول دون تقديره الصادق لقيمة الدرس والتحصيل ، وحظيت الفنون والعلوم ببعض التشجيع بفضل رعايته الكريمة لها . وكان ينصرف إلى العمل في عزيمة لا تفتروهم لا تعرف الكلل . وكاد أن يستغل كل قوى ذهنه الجبار في القراءة أو الكتابة أو أعمال الفكر ، وفي استقبال السفراء والنظر في شكاوى رعاياه . واضطر حتى أولئك الذين عابوا عليه بعد تصرفاته عن اللياقة إلى الاعتراف بأنه أوتى شهامة نفذ بها إلى أشق المشروعات ، وتميز بالجلد على تنفيذها ، دون أن يعوقه عنها نقص التفكير أو صيحات الجماهير . وكان في ميدان القتال ينفخ من روحه الوثابة في الجنود الذين كان يقودهم في عزمة القائد المكتمل النسو والمواهب ، ومن ثم يمكن أن ينسب إلى قدراته ، أكثر من أن ينسب إلى حظه ، تلك الانتصارات الرائعة التي أحرزها ضد أعداء الدولة في الخارج والداخل . لقد تمسق المجد جزاء وفاء لأعماله ، أن لم يكن دائما عليها ، ويمكن أن نجد للطبوح غير المحدود الذي يبدو أنه ملك عليه حواسه منذ اللحظة التي قبل فيها التاج في يورك — نجد له تبريرا في الأخطار المحدقة بمركزه ، وفي شخصيات أعدائه ، وفي إدراكه لجدارته الفائقة ، وفي تطلعه إلى أن نجاحه سوف يمكته من استعادة السلام والنظام في امبراطورية حائرة . وقد استغل في حروبه الداخلية ضد مكسنطيوس وليسينيوس ، ميول الشعب الذي قارن بين الرذائل المتأصلة في هذين الطاغيتين ، وبين روح الحكمة والعدالة التي يبدو أنها شاعت في الطبيعة العامة لإدارة قسطنطين .

ولو أن قسطنطين هبط على ضفاف النهر أو حتى في سهول أدرنة ، لكانت تلك هي نفس الشخصية التي كان قد نقلها إلى ذراعيه ، مع استثناءات يسيرة . ولكن خاتمة عهده (وفقا لحكم معتدل ، بل في الواقع رفيق ، لكاتب عاش في نفس العصر) هبطت به دون المرتبة التي كان قد حظى بها بين أنبه الأمراء الرومان ذكرا . وقد تقع العين في عهد أوغسطس على طاغية تحول على درجات تكاد تكون غير ملحوظة ، حتى صار إيا بلده وللجنس البشري أجمع ، على حين تبصر في عصر قسطنطين بطلا طالما أوحى إلى رعاياه بالحب وأدخل على

قلوب أعدائه الرعب ، ينحدر الى ملك غاشم متحل ، أفسده حظه أو رغبته الفتوحات فوق مقتضيات النفاق والرياء . وكان السلام الشامل الذى ساد السنوات الأربع والعشرين الأخيرة من حكمه ، فترة بهاء ظاهرى ، أكثر منه رخاء حقيقياً ، وصبت شيخوخة تسطنطين بالمساوىء العكسية ، ولكنها المساوىء التى تلثم مع السلب والنهب والتبذير ، واستنفدت الأموال المكسبة فى قصرى مكسنتيوس وليسينيوس فى اسراند بالغ ، فقد استلزمت الابتكارات التى أدخلها الفاتح مزيداً من النفقات وتطلبت تكاليف مبانىيه وحاشيته واحتفالاته مدداً عاجلاً وغيراً ، ومن ثم لم يكن سبيل اللجوء بمقتضيات أبهة الملك غير أرهاق الشعب واستنزاف دمه . واغتصب أحيائه القاهنون الذين أثروا بمسا أغدق عليهم من أموال بلا حساب — اغتصبوا لأنفسهم ، دون حساب أو رقيب حق السلب والنهب والافساد . وساد احساس خفى ولكنه شامل ، ببذيب التحلل فى مختلف جوانب الإدارة العامة . وخسر الامبراطور نفسه على مر الأيام تقدير رعاياه ، ولو أنه ظل محتفظاً بامتثالهم له . ولم يفلح الزى والسلوك اللذان اختار أن يتظاهر بهما فى أخريات أيامه ، الا فى الحط من قدره فى أعين الناس جميعاً ، واتسمت الأبهة الاسيوية التى اقتبسها غرور ثقلديانوس ، اتسمت فى شخص تسطنطين بروح من الطراوة والتخفك ، فقد صور بشعر مستعار متعدد الألوان جهد مهرة فنانى العصر فى تصفيفه ، وتاج من طراز جديد أكثر نفقة ، ومجموعة كبيرة من الجواهر والأللى والأطواق والأساور ورداء مزركش فضفاض من الحرير موشى بأزهار من الذهب فى أعجب شكل . وانا — أمام هذا الزى الذى قل أن يسيغه شباب الأجايا لوس أو طيشه — لنحار فى اكتشاف حكمة الملك العجوز وبساطة الرومانى المحنك . وعجزت العقلية التى استنابت للرخاء والرفق عن أن ترقى الى مستوى الشهامة التى تحتقر معها الشبهات وتجرو على الصنم . وربما بررت موت مكسنتيوس وليسينيوس قواعد السياسة كما قلن فى مدارس البلاغة ، ولكن رواية نزيهة عن أعدائهما ، وعلى الأصح ذبحهما ، الذى لطم شيخوخة تسطنطين ، لابد أن توحى الى أصدق تفكيرنا وأخلصه ، برأى فى الأمير الذى استطاع طوعاً ، لا كرها ، أن يضخى بقوانين العدالة ومشاعر الطبيعة ، فى سبيل أهوائه أو فى سبيل مصلحته .

أسرة قسطنطين

يبدو أن التوثيق الذي لم يفتأ يلزم راية قسطنطين ، قد وفر له الآمال والراحة والدعة في حياته المنزلية . لقد ينس أسلافه الذين نصبوا بأزهي عهد الحكم وأطولها — مثل أوغسطس وتراجان وديكليتوس — لنقول ينسوا من انجلب الاعقاب . ولم تنح الثورات الكثيرة لاية أسرة امبراطورية وقتا كافيا للنمو والتكاثر في ظل التاج ، الا أن ملكية أسرة الفلافيين التي كان قد رفع من شأنها في البداية كلوديوس القوطي انحدرت عبر عدة اجيال . وقد استمد قسطنطين نفسه من والده الملك تلك الامجاد الوراثية التي نقلها الى اولاده . وتزوج الإمبراطور مرتين . وتركت له الاولى منرفينا *Minervina* التي تعلق بها أيام شبابه في علاقة مشروعة . ولكلها غامضة — تركت له ولدا واحدا سمى كرسبس *Crispus* رانجب من الثانية فاوستا *Fausta* ابنة مكسيميان ثلاث بنات وثلاثة بنين بالاسماء المتشابهة : قسطنطين ، قسطنطيوس ، قفسنتز . وانفسح المجال امام اخوة قسطنطين الأكبر — بوليوس قسطنطيوس ، دلمانيوس ، هانيبالتيوس — ليتبعوا بإشراف مكانة وأوفر حظ يتلقان مع مركزهم الخاص . وقضى أصغر الثلاثة نحبهم دون أن يخلف اسما أو يترك عقبا . وتزوج أخواه الأكبران من ابنتين لشيخين موسرين من شيوخ السناتو ، وأنجبا فرعين جديدين للدولة الامبراطورية . وأصبح جالوس وجوليان فيما بعد المع أبناء يوليوس قسطنطيوس « النبيل » . أما ابنا دلماشيوس اللذان منحا لقب « الرقيب » العقيم فقد سميا دلماشيوس وهانيبالتيوس . وتزوجت كريمتا قسطنطين الأكبر : اناسطاسيا وأوتروپيا ، من عضوين في السناتو ، من أصل نبيل ، في مرتبة القنصل هما ابنتاوس *Optatus* ونيبوتيانوس *Neptianus* . أما الأخت الثلاثة كنستانتيا فقد تفردت بها حظيت به من قبل من عظمة وتعلسة ، وظلت معروفة بأنها أرملة ليسينيوس الذي اندحر ، وبفضل توسلاتها احتفظ صبي برىء ، هو ثمرة زواجها ، لبعض الوقت ، بحيلته ، ويلقب « قيصر » ، وبأمل مزعزع في العرش ، والى جانب نساء بيت فلافيوس وحلائه ، كان هناك عشرة أو اثنا عشر من الذكور ممن يمكن أن يطلق عليهم بلغة البلاط الحديث أمراء يجرى في عروقهم الدم الملكي ، يبدو أنه كان مقدرًا لهم ، بحكم مولدهم ، أن يرثوا عرش قسطنطين أو يدعموه . ولكن الأسرة الكبيرة المتكاثرة انحصرت ، في مدى ثلاثين عاما ، في شخصي قسطنطين وجوليان ، وهما الوحيدان اللذان عاشا بعدد . أساة من الجرائم والنكبات ، على غرار ما روي شعراء المآسي في

تصاندهم المقدسة عن بلويس Pelops وكنبوس Cadmus (في
الأساطير اليونانية) .

وصور المؤرخون المتجردون كرسبوس أكبر أبناء قسطنطين
وورث الإمبراطورية المحتل على أنه شلب محبوب مثقف ، وعهد
بتهذيبه - أو على الأقل يأمر دراسته ، إلى مكتاتقيوس أنصبح
المسيحيين ، وهو معلم خير أهل التربية ذوق تلميذه اللامع واستشارة
فضائله . وحين بلغ كرسبوس سن السابعة عشرة ظلع عليه لقب
« قبصر » وعهد إليه بإدارة ولايات الغال ، حيث هيأت له غارات
الألمان عليها فرصة بكرة لإبراز بسلاته الحربية . وفي الحرب الأهلية
التي سرعان ما نشبت بعد ذلك ، اقتسم الولد والسلطانها . وقد
مجد هذا التاريخ شجاعة هذا الأخير وحسن تصرفه في اقتحام مضائق
الدردنيل التي كان يدافع عنها دفاعا مستميتا استطول ليسيونيوس
المتفوق . وساعد هذا الانتصار البحري على تقرير مصير الحرب ،
واقترن اسم قسطنطين باسم كرسبوس في هتافات رعاياهما الشرقيين
الذين ابتهجوا وهللا معلنين أن العالم قد أخضعه وخكمه إمبراطور
اجتمعت له كل الفضائل والشمائل كما وهب ابنا لامعا أميرا اختصته
السما بحبها ، وصورة حية زاعية لصفات الكمال في والده . وبسط
العطف الشامل الذي قلما اقترن بالشيخوخة ، جناحيه حول شباب
كرسبوس ، في حالة مشرفة ، واستحق الشلب تقدير الحاشية
والجيش والشعب ، وتلقوا به جميعا . ولقد يعترف الرعايا ، كثرهين ،
بما يخبرون في شخص الملك المتربع على العرش من صفات الفضيلة
وكثيرا ما ينكرونها في همهمات متحيزة ساخطة ، على حين تفسرج
أساريهم اذ يلحظون المزايا المفتحة في شخص خلفه ، ويتعلقون
بأهداف الأمل غير المحدود في نهضة خاصة وعامة ، يتعنون بها على
عهده .

وسرعان ما أثارت هذه الشعبية المحلوة بالخطر انتباه قسطنطين
الذي ضاق ذمرا بوصفه ابنا وملكا معا ، بظهوره لد له ، وبدلا من محاولة
الحفاظ على ولاء ابنه له ، بإيلائه ثقة الكريمة والامتراف بفضله ، وطد
العزم على الحيلولة دون ما يتوحيش من أذى بسبب أطعامه الساخطة .
وما أسرع ما وجد كرسبوس ما يبرز شكواه ، من أنه في الوقت الذي
رأى فيه أخاه الصبي الصغير قد ظلع عليه لقب « قبصر » وعهد إليه
بمهام الحكم في هذه البرقعة المبتلزة : ولايات الغال ، رأى نفسه وهو
الأمير الفاضح الذي أدى مؤخرا مثل هذه الخدشات الفريدة بدلا من

رفعه الى المرتبة الاسمى ، مرتبة « أوغسطس » - رأى نفسه وقد ضيق عليه الخناق وأنه سجين فى بلاط أبيه ، معرضا بلا قوة ولا قدرة على الدفاع ، لما قد يكيد له خبث أمدائه . وما كان الشاب الذى يجرى فى عروقه الدم الملكى ، قادرا دائما فى هذه الظروف الاليمة ، على ضبط نفسه أو كظم غيظه . ولابد كذلك أن تكون على يقين من أنه كان محوطا بزهره من الاتباع المتهورين أو المخاطلين ، الذين آمنوا فى الداب على افكاه نار الحقد المسافر فى نفسه ، أن لم يكونوا قد دسوا عليه للفخر به . وأصدر قسطنطين ، حوالى هذا الوقت ، مرسوما المصح فيه علنا ، عن شكوكه السابقة أو المصطنعة ، فى مؤامرة تدبر ضد شخصه وضد حكومته ، ويهيب ، مع الوعد والافراء دون استثناء ، من حكامه أو وزرائه أو اصقائه أو اقرب المقربين ، بالأمجاد والمكافآت ، باى فرد يستطيع أن يدلى بمعلومات ، أن يبلغ ، بنفسه بالفظ الأيمان أنه سوف يصفى الى هذه الاتهامات بشخصه ، وأنه سيثار لهذه الاساءات بنفسه ، ويختتم نداه بدعاء يكشف عن توقعه خطرا ، يقول فيه ان « الكائن الأعلى » ما يزال يبسط رعايته وحمايته على الامبراطور والامبراطورية .

وكان الوثابة الذين استجابوا لهذه الدعوة الكريمة ، متهرسين فى امانين البلاء واحابيله الى درجة تفريهم بايقاع انصار كرسبوس ، فى الشرك على أنهم مذنبون ، وما كان لهم الا أن يسلموا بصدق الامبراطور الذى توعد بأشد الانتقام والمعقوبة . ومهما يكن من أمر فقد اقتضت سياسة قسطنطين أن يبقى على مظاهر الاهتمام والفتة بانه الذى بدأ ينظر اليه على أنه الد عدو ليس من الميسور مهادنته . وسكت المذليات تحبل الوعود المألوفة بدوام الحكم المريب للقيصر الصغير . ولما كان الشعب الذى لم يظهر على أسرار القصر ، لا يزال يحب فى القيصر الصغير شمائله ، ويجل مكلنته ، فان الشاعر الذى يتوسل لإعادته من منفاه يلجأ الى نظم قصيدة يجد فيها ، بنفس القدر من الاخلاص ، جلال الوالد والولد ، وكان قد حل آنذاك موعد الاحتفال العظيم بذكرى النعام المشرين من حكم قسطنطين ، ومن أجل هذا نقل الامبراطور بلاطه من فيكوميديا الى روما حيث أعدت أروع الترتيبات لاستقباله . وتسابقت الميرون والألسنة الى التظاهر بالتعبير عن مشاعر السعادة الغامرة . واختفت ، لبرهة وجيزة تحت أستار المراسم والرياء ، أبشع خطط الانتقام والاغتيال . وقبض فى غمرة الاحتفال ، على كرسبوس المنكود ، بأمر من الامبراطور الذى تخطى من حنان الأب دون أن يتخطى بعدالة القاضى . وكانت المحاكمة قصيرة سريعة ، ولما رثى

أنه من الأليق اخفاء مصير الأمير الشاب عن أعين الشعب الروماني ،
غدد أرسل تحت حراسة قوية إلى بولا في أستريا ، حيث أعدم فور
وصوله بيد الجلاد أو بطريقة أخف . أي بالسسم . ولقى الشاب الكريم
الخلق القيصر ليسينيوس نفس المصير الذي لقيه كرسبوس ، ولم
يتدخل الحقد الطاغى الذي ران على قلب قسطنطين أمام دموع اخته
العزيزة أو توسلاتها للبقاء على حياة ابن لم يكن له من جريرة إلا
مرتبه (قيصر) والتي لم يقدر لها البقاء طويلا بعد مقدمه . وأسندت
أستار الخوضي والخفاء على قصة هذين الأميرين التعميسين وطبيخمة
جريمتها والأدلة عليها ، وطرق محاكمتها ، وظروف موتها . ويلتزم
الأسقف نصير البلاط الذي خلد في مؤلف تقيس مزايا بطله وورعه -
يلتزم الصمت البليغ الذي خيم على هذه الأحداث المحنة . ان مثل
هذا الازدراء الصلف برأى الجنس البشرى ، بينما يدمغ ذكرى
قسطنطين بوصمة لا تحبى ، لابد أن يذكرنا بنهج مختلف سلكه واحد
من أعظم الملوك في العصر الحاضر (عصر المؤلف - أي القرن الثامن
عشر) ذلك هو القيصر بطرس ، الذي ترك ، وهو في ذروة السلطة
المطلقة ، لروسيا ولأوروبا وللأجيال القادمة أمر الحكم على الأسباب
التي اضطرتة إلى إصدار حكم الإعدام على ابن أئيم ، أو على الأئمن
ابن منحل .

وكانت براءة كرسبوس أمرا يسلم به القاصي والداني إلى درجة
ان اليونان الحديثين الذين يقسمون ذكرى مؤسسهم ، انزلوا إلى
حد التهوين من أمر الجريمة التي نهت عن تبريرها أبسط المشاعر
العادية في الطبيعة الإنسانية ، إلا وهي جريمة قتل الوالد لابنسه .
ويزعمون أنه حالما اكتشف الوالد المنكوب بطلان الاتهام السذي ضل
سذاجته على هذا الشكل الرهيب نشر على العالم ندبه وتائب ضميره ،
وأنه لبس الحداد لمدة أربعين يوما ، انقطع فيها عن الحمام وعن سائر
ملاذ الحياة العادية . وأنه أراد ان يشهد الأجيال المقبلة على ذلك ،
فأقام لكرسبوس تمثالا من الذهب نقش عليه العبارة التذكارية : « إلى
ولدى الذى أعدته بغير حق » . وكان يجدر أن تميز هذه القصة
الأخلاقية الشائقة مراجع أقل شذوذا ، فإذا رجعنا إلى مؤرخين أقدم
عهد وأصدق حجة ، لاكتوا لنا أن ندم قسطنطين تجلّى فقط في أعمال
الدم والانتقام ، وأنه كفر عن قتل الابن البريء بإعدام زوجة ربما كانت
مذنبة ، فهم ينسبون النكبات التي حلت بكرسبوس إلى الاعيب زوجة
أبيه فلوستا التي أعاد بغضها المرير أو حبها اليائس في قصر قسطنطين ،
تمثيل المأساة القديمة ، مأساة عبوليتوس : Hippolytus ونيدرا Phaedra

(أحدى ناسي سبكا) ، واتهمت ابنة يكسيهان — فاوستا — شأنها في ذلك شأن ابنة ميتوس — ربيها (ابن زوجها) كرسبوس ، بأنه هم بها ، ومن ثم سهل على الإمبراطور الخائق أن يصدر حكم الموت على الأمير الصغير الذي اعتبرته بحق أقوى المزاكين لبنيها . ولكن هيلينا ، أم قسطنطين الطاعنة في السن حزنّت وثارت لحفيدها كرسبوس الذي لقى حتفه قبل الأوان ، فلم يمض طويل وقت ، حتى زعم أنه اكتشف ، أن حقا وإن باطلا ، أن هناك علاقة آثمة بين فاوستا وبين أحد العبيد في الأسطبلات الإمبراطورية . وصدر الحكم ونفذت العقوبة فور توجيه الاتهام ، وماتت الزانية خنقا بفعل البخار في حمام زبدت فيه الحرارة ، لهذا الغرض ، إلى درجة غير عادية . وقد يظن البعض أن ذكرى عشرين عاما من زواج سعيد ، وإن شرف ما أنجبها من ذرية انحصرت فيها وراثته العرش ، ربما خففا من قساوة قلب قسطنطين ، وانغماء بالسماح لزوجته مهملًا بدت آثمة بالتكثير عن ذنبها في سجن موحش . وأنه لمن نافلة القول أن نندبر الأليق وغير الأليق ، إلا إذا تأكدنا من حقيقة هذا الحادث الغريب الذي اكتشفته بعض ظروف الارتياح والتشويش . أن أولئك الذين هاجموا شخصية قسطنطين ، وأولئك الذين دافعوا عنها على حد سواء ، أغفلوا قلعمتين مشهورتين في خطبتين القينا في عهد خلفه ، تشيد أولاهما بفضل الإمبراطورة فاوستا وجمالها وحظها ، بوصفها ابنة وزوجة وأختا وأما لكثير من الأمراء ، وتؤكد الثانية بتجسرة صريحة أن أم قسطنطين الأصغر (فاوستا) الذي نبح بعد ثلاث سنوات من وفاة والده ، عاشت لتذرف الدبح سخينا وتندب حظ ابنها . ورغم البراهين القاطعة التي أتت بها عدة كتاب من الوثنيين والمسيحيين على السواء ، يظل هناك ما يحذل على الاعتقاد أو على الأكل على الشك ، في أن فاوستا قد أفلقت من قسوة زوجها الخائفة المرتابة . وقد يكفى على أية حال ، موت ابن وابن أخ ، وأعدام عدد كبير من أصدقائهما المحترمين ، وربما الأبرياء ، ضمن جمعهم نفس المصير — بكفى لتبرير سحق الشعب الروماني ، وتفسير آيات الهباء الواردة على بوابة القصر تقارن بين مهدى قسطنطين ونيرون ، وهما عهدان تميزا بالهباء والعنفة كما تلمظا بالجماء .

وبدا ، بعد وفاة كرسبوس ، أن وراثته عرش الإمبراطورية قد انحصرت في أبناء فاوستا الثلاثة الذين أوردنا أسماءهم من قبل وهم : قسطنطين ، قسطنطيوس ، قنستنس ، وقد خلع عليهم على التتابع لقب « قيصر » في السنة العاشرة ، والسنة العشرين ، والسنة الثلاثين

مَنْ حَكَمَ أَنِيهِمْ ، وَرَفَعَ ابْنَ هَذَا التَّخَرُّفِ كَانَ مِنْ شَتَاةٍ مُضَاعَفَةٍ مُسَاعَدَةٍ
 أَوْ حَكَمَ الْمُسْتَقْبَلِ فِي الْعَالَمِ الرُّومَانِي ، قَرِيبًا كَانَ لَهُ مَا يَبْرُزُ فِي تَطَاقُ
 الْآبِ بِأَبْنَائِهِ وَتَحْيِيزِهِ لَهُمْ ، وَلَكِنْ لَيْسَ مِنَ السَّهْلِ أَنْ تُثَبِّتَ الْيَامِثَ الَّذِي
 حُدَا بِقُسْطَنْطِينِ -الذي تعريض سلامة أسرته وشعبه للخطر ، حين رُفِعَ
 مَرْتَبَةً ابْنُ أَخِيهِ دِمِثْرِيوسَ وَهَنْثِيَالْيَانْتُوسَ حَتَّى ضَرُورَةُ تَلَجُّتْهُ إِلَى
 ذَلِكَ . فَرَفَعَ الْأَوَّلَ إِلَى مَرْتَبَةِ « الْقَيْصَر » -مُسَاوَاةً لَهُ بِأَبْنَاءِ عِيسَى .
 وَابْتَدَعَ مَجَالِمَةً لِلثَّلَاثِ ، لَفْظًا جَدِيدًا غَرِيبًا هُوَ « مَاصِحِبُ الْمَجْدِ الْإِثْمِيلِ »
 Nobilissimus وهو لَقَبٌ يَنْبِذُ حَامِلَهُ بِرَدَاءِ أَرْجَوَانِي مُوشِيً بِالذَّهَبِ .
 كَمَا تَفَرَّدَ هَانْيِيَالْيَانْتُوسُ ، مِنْ بَيْنِ الْخُدَدِ الْكَبِيرِ مِنَ الْأَمْرَاءِ الرُّومَنَ عَلَى
 بِرِ الْعَصُورِ ، بِلَقَبِ « مَلِكٍ » وَهُوَ لَقَبٌ رُبَّمَا كَانَ يَبْغِضُهُ رَعَايَا تِيَرِيُوسَ
 بِوَصْفِهِ سِيَةً دَنَسَةً مَقْدَعَةً لَطَافِيَةً غَرِيبَةً الْأَطْوَارِ . وَاسْتَعْمَلَ هَذَا
 اللَّقَبَ ، حَتَّى كَمَا يَبْدُو فِي عَصْرِ قُسْطَنْطِينِ - حَقِيقَةً غَرِيبَةً نَابِيَةً ،
 يَكَادُ لَا يَكُنْ تَقْبَلُهَا عَلَى أَسَاسِ الْمُضَرِّينَ الْمُشْتَرِكِينَ وَهِيَ الْمِيدَالِيَاتُ
 الْأَمْبَرَاطُورِيَّةُ ، وَالْكَتَابُ الْمُعَاَصِرُونَ .

وَكَانَتْ الْأَمْبَرَاطُورِيَّةُ بِأَسْرَافِهَا تَهْدِي أَقْسَدَ الْأَهْتِمَامِ وَالْعَنَافِيَّةَ بِتَعْلِيمِ
 هَؤُلَاءِ الشَّبَابِ الْخَمْسَةِ الْمُسْلِمِ بَانِهِمْ خُلَفَاءَ قُسْطَنْطِينِ ، فَأَعَدَّتْهُمْ الرِّيَاضَةَ
 الْبَدْنِيَّةَ لِأَخْتِمَالِ مُشَاقَّ الْحَرْبِ وَمَهَلَمِ الْحَيَاةِ الْجَادَةِ الْفَشِيطَةِ ، وَيَقُولُ
 الَّذِينَ أَشَارُوا عَرَضًا إِلَى تَرْبِيَةِ قُسْطَنْطِينُوسَ وَمَوَاهِبِهِ ، أَنَّهُ بَرَزَ وَتَفَوَّقَ
 فِي مَنَونِ الْفُزِّ وَالْعَدُوِّ ، وَأَنَّهُ كَانَ قَوَاسِمًا بِأَزْمًا ، وَفَارِسًا مَاهِرًا ، وَأَنَّهُ
 كَانَ يَحْتَقِ اسْتِعْمَالَ مُخْتَلَفِ الْأَسْلِحَةِ الَّتِي يَسْتَخْدِمُهَا الْخِيَالَةُ وَالْمَشَاةُ
 عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ . وَبِذَلِكَ الْجُهُودِ الْمُتَوَاصِلَةِ لَتَنْشِئَةَ سَائِرِ أَبْنَاءِ قُسْطَنْطِينِ
 وَأَبْنَاءِ أَخُوتهِ وَتَثْقِيفِ عَقُولِهِمْ ، وَلَكِنَّمَا لَمْ تَكُنْ بِنَفْسِ الْقَرَمَنِ النَّجَاحِ .
 وَأَجْزَلَ الْأَمْبَرَاطُورِ الْعَمَاءِ لِأَشْهُرِ الْأَسَاقِذَةِ الَّذِينَ دَعَاوُا لِتَثْقِينِهِمُ الْعَقِيدَةَ
 الْمَسِيحِيَّةَ ، وَالْفَلَسَفَةَ الْيُونَانِيَّةَ ، وَالْفَنَنَةَ الرُّومَانِيَّةَ ، وَاحْتَفَظَ
 هُوَ لِنَفْسِهِ بِالْمَهْمَةِ الْخَطِيرَةِ الشَّانِ ، إِلَّا وَهُوَ تَعْلِيمُ الشَّبَابِ الْمَلِكِيِّينَ
 فَنَوْنَ الْحُكْمِ وَدِرَاسَةَ الْإِنْسَانِ ، وَلَكِنْ عِبَرِيَّةُ قُسْطَنْطِينِ نَفْسُهُ كَانَتْ
 ثَمَرَةً الْمَحْنِ وَالْخَبْرَةِ . فَقَدْ تَعَلَّمَ فِي مَعَامِلَاتِهِ الْحَرَّةِ فِي حَيَاتِهِ الْخَاصَّةِ ،
 وَبِوَسْطِ الْأَخْطَارِ فِي بِلَاطِ جَالَرِيُوسَ ، أَنَّهُ يَضْبِطُ عَوَاطِفَهُ ، وَأَنَّهُ يُوَاجِهُ
 عَوَاطِفَ نَظَرَاتِهِ ، وَأَنَّهُ يَعْطِدُ فِي سَلَامَتِهِ الرَّاهِنَةِ وَعَظَمَتِهِ الْمُسْتَقْبَلَةِ ،
 عَلَى سُلُوكِهِ الشَّخْصِيِّ الْمَقْرُونِ بِالْفُطْنَةِ وَالْحَزْمِ . وَلَكِنْ كَانَ مِنْ سَسُوءِ
 حِظِّ خُلَفَائِهِ أَنَّهُمْ وَلِدُوا وَتَرَبَّوْا فِي كَنَفِ الْحَلَةِ الْأَمْبَرَاطُورِيَّةِ . فَكَانُوا
 دَوْمًا مُحَوَّطِينَ بِمَوَاكِبِ الْمُتَلَقِّينَ ، وَمِنْ ثَمَّ قَضَوْا شَبَابَهُمْ بِمِرْحَوْنٍ فِي
 حَبُوحَةِ التَّرَفِّ ، وَفِي تَجَرِبَةِ اعْتِلَاءِ الْعَرْشِ . وَمَا كَانَتْ لِمَذَاتِهِمُ السَّالِيَةِ
 أَنْتَسِمَحَ لَهُمْ بِالْفُزُولِ مِنْ عِلْيَاتِهِمُ الَّتِي تَظْهَرُ فِيهَا مُخْتَلَفُ أَنْمَاطِ الطَّبِيعَةِ

البشرية بمظهر واحد من النعومة والرفقة . وإياح لهم تساهل قسطنطين ، في سنهم المبكرة ، أن يشاركوا في إدارة الإمبراطورية ، فدرسوا فن الحكم على خصال الشعب الذي وضعت مقدراته بين أيديهم . محكم قسطنطين الصغير بلاد الغال ، أما أخوه قسطنطيوس فقد استبدل بهذه الرفعة التي كانت وقفا على أبيه فيما مضى ، بلاد الشرق التي هي أكثر ثروة ، وأقل عناء من الناحية العسكرية . وتلفت إيطاليا والليبريكوم الغربية وأفريقية بمظاهر الأجلال والأكبار قسطنز — الابن الثالث — بوصفه ممثل قسطنطين الأكبر ، وعين دماشسيوس على الجبهة القوطية ، وضم إليها حكم تراقيا ومقدونيا واليونان . واختيرت مدينة قيصرية لتكون مقرا لهانياليانوس ، الذي شملت مملكته الجديدة ولايات بنطس وكبادوكيا وأرمينيا الصغرى . وأنشئ لكل من هؤلاء الأمراء جهاز مناسب ، حيث خصص لكل منهم عدد كاف من الحرس ، ومن فرق الجيش ، ومن معاونين ، مما يتناسب مع وضع كل منهم ، ومع مقتضيات الدفاع . وكان الموظفون والقواد الذين وضعهم قسطنطين حولهم ، من الطراز الذي يطمئن الإمبراطور إلى أنهم سيساعدون ، بل حتى يراقبون ، هؤلاء الملوك اليافعين في ممارستهم لما خول لهم من سلطات . وكلما تقدمت بهم السنون ، وعزمتهم التجريبية ، عظم سلطانهم وقويت شوكتهم ، ولكن الإمبراطور كسان يحتفظ دائما بلقب « أوغسطس » ، وبينما كان يقدم « القيصرية » للجيوش والولايات ، احتفظ لقبه الأعلى بنفس القدر من الامتثال والطاعة في كل ركن من أركان الإمبراطورية ، وطوال السنوات الأربع عشرة الأخيرة من حكم قسطنطين ، لم يكدر مسلو الهدوء ترمد جمال حقير في جزيرة قبرص ، أو الدور الخطير الذي اقتضت سياسة قسطنطين أن يقوم به في حروبه مع القوط والسارماتيين .

استمرت الحرب سجالا ، دون نتيجة حاسمة ، بين السارماتيين والقوط وبين قسطنطين ، طوال أعوامه الأخيرة .

وفاة قسطنطين

أكد قسطنطين عظمة الإمبراطورية الرومانية بتحطيم كبرياء القوط،
وإقبال قروض الولاء التي قدمت لها خاتمة ضارعة ، ورفع سفراء
أثيوبيا ومارس وبلاد الهند النائية إليه تهانيهم بحالة السلام والرخاء
التي تسود مملكته . وإذا حسب أن من علامات توفيقه وضربات حظ
السعيد موت ابنه الأكبر وابن أخيه بل وربما زوجته كذلك ، فإنه نعم
حتى العام الثلاثين من حكمه بفيض غامر لم يقطع من السعادة والغبطة
في حياته الخاصة والعامة ، وهي فترة لم يتيسر قط لأحد من أسلافه ،
منذ عهد أوغسطس ، أن يشهدها . وعاش قسطنطين عشرة أشهر بعد
الاحتفال المهيّب بهذه المناسبة ، ثم قضى نفيه بعد مرض قصير ، وهو
في سن النضوج والكمال ، في الرابعة والستين من عمره ، بعد حياة
حافلة مشهودة - قضى نفيه في قصر أثيريون Achyron في ضواحي
نيقوميديا ، الذي آوى إليه القمارا لطيب الهواء على أمل استرداد
قواه المنهكة باستخدام الحمام الساخن . وجاوز الاسراف في مظاهر
الأنس والعز ، أو على الأقل الحداد ، كل ما عرف من قبل في مثل
هذه المناسبات . ورغم الحاج السنانو وشعب روما القديمة ، نقل
جثمان الإمبراطور الراحل ، بناء على توصيته الأخيرة ، إلى المدينة
التي كان مقدرا لها أن تحتفظ باسم مؤسسها وبذكرها . ووضع جثمان
قسطنطين مكللا بشعارات العظمة النائية وبالحنطة الأرجوانية وبالنواج
على سرير من الذهب في أحد أجنحة القصر ، كان قد أثث وأضيء
لهذا الغرض أفخم تآثيل واضاءة ، وكان التمسك ببراسم البلاط غاية
في الدقة ، ففي الساعات المحددة في كل يوم كان كبار موظفي الدولة
والجيش والحاشية يقتربون من شخص مليكهم في انحناءات كبيرة ومظهر
وقور ، ويقدمون له الولاء والاحترام في جد وريانة ، كما لو كان بعد
على قيد الحياة . وتكررت هذه الصورة المسرحية لبعض الوقت لدوافع
سياسية ، ولم يغفل الملق هذه الفرصة للإشارة إلى أن قسطنطين
وحده ، باذن من السماء ، قد بقي يحكم بعد وفاته .

ولكن هذا الحكم لم يكن ليميش إلا في أبهة زائلة جوفاء . وسرعان
ما تبين أن رعايا الملك المستبد المطلق قل أن يمتثلوا لأوامره أو يلتزموا
بمأمراته طالما أنهم لم يعودوا يطمعون في عطفه أو يرهبون سخطه . بل
أن نفس النظائر والقواد الذين انحنوا لجلالا ورهبة أمم جثمان مليكهم
الراحل ، انشغلوا في مداوات سرية لاقتضاء ولدى أخيه دالماتشوس
وهانيباليانوس ، وحرمانهما من النصيب الذي خصصه لهما في حكم

الامبراطورية . ان معلوماتنا عن حاشية قسطنطين ناقصة الى حد أننا لا نستطيع ان تكون فكرة صحيحة عن حقيقة البواعث التي كانت توجه زعماء المؤامرة ، الا اذا ذهب بنا الظن الى أنهم كانوا مسوقين بدافع من روح الحقد والانتقام من أحد الرؤساء ، وهو يدعى أبلافيوس Ablavius ، وكان واحدا من المقربين المغرورين ، كان يحرك القناصل حسب أهوائه ، ويسئ استغلال ثقة الامبراطور الراحل فيه . وكانت الحجج التي تذرعوها بها ضمانا لرضا الشعب والجيش وموافقتها ، مصوغة في أجلى بيان : فالتزموا جانب اللياقة والحق ، في الإشارة الى ان أبناء قسطنطين أعلى مكانة وأولى بالحكم ، والى الخطر من تعدد الملوك ، والى النكبات التي تهدد الدولة من جراء التنافر بين عدة أمراء متنافسين لا تؤلف بين قلوبهم وشائج الأخوة . وحيكمت المؤامرة في جو من الحساسية والسرية . حتى امكن التوصل الى اعلان جماعى مدو من فرق الجيش بانها لن ترتضى عن أبناء الامبراطور الماسوف عليه بديلا لحكم الامبراطورية الرومانية . ومن المسلم به ان دالماسيوس الصغير الذى جمعت بينه وبين أبناء عمومته روابط الصداقة والمصلحة ، ورث نصيبا كبيرا من مواهب قسطنطين الأكبر ، ولكن يبدو انه في هذه الأونة لم يتخذ أية اجراءات ليثبت بقوة السلاح حقه وحق أخيه الذى يجرى في عروقه الدم الملكى ، وهو حق جادت لهما به مكارم معهما . وقد أذهلتها وأحذقت بهما سورة غضب الشعب وهياج ، حتى بدا انهما بلقا ، عاجزين عن الهرب أو المقاومة ، في يد أعدائهما اللداء . وبقي مصيرهما معلقا حتى وصل قسطنطينوس ثانى أبناء قسطنطين ، وربما كان أحبهم الى النفوس .

وكان الامبراطور الراحل وهو يحتضر ، قد أهاب بتقوى قسطنطينوس ان تولى جنازته كل الاهتمام والعناية ، واستطاع هذا الأمير ، بفضل قربه من القسطنطينية — حيث كانت أمانيته في الشرق — استطاع ، في غير ما سمعية ، ان يحد من نشاط 'نمويه اللذين كانا يقطنان في مقر حكومتيهما البميدتين : في ايطاليا والغال ، فما ان وضع يده على القصر في القسطنطينية حتى كان همه الأول ان يقضى على مخلصي ذمى قرياه ، فاقسم يمينا مغلظة بضمان سلامتهم . وصرف همه بعد ذلك في العثور على ادعاء كاذب يتحلل به من الالتزام الذى تسرع في التقيد به . ووضعت أماتين التدليس والتزوير في خدعة تدابير القسوة والعنف . وخرجت شخصية من أكثر الشخصيات قداسة بتزييف جلى صريح . فقد تلقى قسطنطينوس من أسقف نيقوميديا طومارا (رقعة مكتوبة) يخفى شمع الموت بين سطوره ، مع التوكيد بأنه وثيقة أصيلة من أبيه

الامبراطور يبدى فيها شكوكه في ان اخوته قد دسوا له السم ، ويحض ابنائه على التآمر له ، وان يكتفوا سلامتهم هم أنفسهم بتوقيع العقوبة على المذنبين . ومهما يكن من أمر الأسباب التي سالتها هؤلاء الأمراء المنكودون للدفاع عن حياتهم وشرعهم أمام هذا الاتهام الذي لا يمكن تصديقه ، فقد أخرجتهم الصيحات الغاضبة التي تعالت بين الجنود الذين كشفوا على الفور عن عدائهم لهم ، وأعلنوا أنفسهم قضاة وجلادين ، في وقت معا . وكم من مرة انتهكت حرمة الاجراءات القانونية روعا وشكلا ، في المذبحة التي اختلط فيها العاهل بالنابل ، التي جرفت في تيارها عى قسطنطينوس ، وسبعة من أبناء عمومته ، كان أبرزهم دماشيس وهانياليانوس ، والنبييل أوبقاتوس Optatus زوج إحدى أخوات الامبراطور الراحل ، وأيلافيوس الذي ملأت قوته وشروته قلبه ببعض الأمل في الاستيلاء على العرش ، وإذا كانت ثمة حاجة الى المبالغة في بشامة هذا المنظر الدبوى لأضفنا أن قسطنطينوس نفسه كان قد تزوج من ابنة عمه يوليوس ، وأنه كان قد زوج اخته من ابن عمه هانياليانوس . ان هذه الأحلاف أو المصاهرات التي كونتها سياسة قسطنطين بين مختلف فروع البيت الامبراطوري ، نون اعتبار للأحقاد العامة — هذه الأحلاف لم تطلع الا في أقناع الجنس البشرى بأن هؤلاء الأمراء قد تبدل شعورهم باعزاز العلاقات الزوجية ، قسر ما تجبده احساسهم بروابط الدم ، وتمست قلوبهم أمام توسلات الشباب المؤثرة وبرامته . ولم ينج من يد القتلة ، من بين هذه الأسرة الكبيرة العدد الا جالوس وجوليان ، أصغر أبناء يوليوس قسطنطينوس ، حين ارتوى تعطشهم الى الدماء ، وخفف هذا من غلوائهم بعض الشيء . وأحس الامبراطور قسطنطينوس ، الذي كان في غيبة أخويه ، أكثرهم مرضية للوزر واللوم ، أحس في بعض مناسبات تالية ، بوخز يسير عابر من تائب الضير لأعمال القسوة التي أكرهته عليها ، نصائح موظفيه المخاطلين وعنف جنوده الطاغى الذي تمذرت مقاومته ، وهو بعد شاب غرير لم تحنكه التجارب .

وأعقب مذبحة أسرة غلافيس تقسيم جديد للولايات ، تم التصديق عليه في لقاء خاص بين الاخوة الثلاثة . فكان من نصيب قسطنطين — وهو أكبر القياصرة الثلاثة سنا — العاصمة الجديدة التي تحمل اسمه واسم أبيه ، مع شيء من تمييزه في المرتبة عن أخويه . أما تراقيا وبلاد الشرق فكانت من نصيب قسطنطينوس ، على حين اعترف بثالثهم قنستنز ملكا شرعيا على ايطاليا وأفريقية والليريكوم الغربية . وسلمت هرق الجيش بحقهم الوراثي ، وتنازل ثلاثتهم فقبلوا من السفناتو

الروماني ، بعد شيء من التراخي ، لقب « أوغسطس » . وعندما تسلم هؤلاء الامراء زمام الحكم لأول مرة ، كان أولهم في الحادية والعشرين من عمره ، والثاني في العشرين ، والثالث في السابعة عشرة فقط .

نهوض فارس تحت حكم شابور الثاني

على حين انضوت الأمم الحربية في أوربا تحت لواء أخويه ، ترك قسطنطينوس وحده ، بوصفه قائدا للفرق المختلة الآسيوية ، لينوء بععب الحرب الفارسية . وجدير بالذكر أنه عند موت قسطنطين اعلى عرش الشرق شابور بن هرمز جد نارسيس الذي اعترف في خشوع بسلطان الرومان اثر انتصار جالوريوس . وكان شابور لا يزال في حضارة الشباب رغم أنه كان في السنة الثلاثين من حكمه ، فقد سبق تاريخ ارتقائه العرش تاريخ مولده ، بناء على ما قضى به قدر غريب . فقد بقيت زوج هرمز حايلا عند وفاة زوجها . ولكن عدم التثبت من جنس الجنين وهو في أحشاء أمه ، بل من واقعة الحمل في جبلتها ، أثار اطباع امراء آل ساسان . ثم تبذدت آخر الأمر المخاوف من نشوب حرب اهلية حين تأكد للمجوس عن يقين بأن أرملة هرمز حامل ، وأنها ستضع في سلام واطمئنان مولودا ذكرا . وامثالاً لصوت الخرافة ، اعد الفرس دون ابطاء ترتيبات الاحتفال بتتويجه . ورقدت الملكة تحفا العظمة والجلالة على سرير ملكي عرض في وسط القصر ، ووضع التاج في البقعة التي ظن أنها تخفى فيها الوريث القادم لعرش اجزسييس . وانبطح الولاة والحكام امامها يجدون عظمة مليكهم الخفي الذي لا يتأثر ولا يمي . واذا كان لنا ان نصدق هذه القصة العجيبة التي يبدو ، على أية حال ، أنه قد أسافتها عقول الشعب وطول مدة حكمه غير العادية ، فلنا لا بد ان نعجب ، لا بحظ شابور نحسب ، بل وبعبقريته أيضا . وفي أحضان التربية الناعمة تحت وصاية الحريم الفارسي اكتشف الأمير الملكي أهمية استخدام قوة عقله وجسمه . واستحق بمواهبه الشخصية عرشا اجلس عليه ، ولما يع بعد واجبات السلطة المطلقة ومغرياتها . وتعرض في حدائة سنة لفكبات الانقسامات الداخلية التي لا يمكن تجنبها ، كما باغت عاصمته ملك يمني أو عربي يدعى Thair وأعمل فيها السلب والنهب . وامتهنت كرامة الأسرة المالكة بأسر الأميرة أخت الملك الراحل ، فلما بلغ شابور أشده ، وقع « تير » الجسور وأمه وبلده غريسة لأول ضربة من يد المحارب الصغير

الذي استغل ظفـره في مزيج حكيم من الشدة واللين ، الى حد أنه استخلص من مخاوف العرب واعترافهم بحسن صنيعه لقب *Dhoulacnaf* « حامى الأمة » (ذو الأكناف) .

في سنة ٣٤٠ هزم قسطنطين الثاني في معركة أكويـليا على يد قسطنـتـنـز الذي أصبح حاكما على الغرب . واضطر قسطنطينوس حاكم الشرق الى مواجهة هجمات الفرس بقيادة شاپور الثاني وكان غزو الفرس لآرمينيا تهديدا لنمو المسيحية في الشرق ، وانقلب النصر في سنجار سنة ٣٤٨ الى هزيمة ساحقة نتيجة الإهمال والغفلة . وقاومت نصريين الحصار ثلاث مرات ، وتم الصلح في سنة ٣٥٠ . وفي نفس العام تمكن ماجنتيوس من إزاحة قسطنـتـنـز عن العرش ، على حين لبس فـتـرانـيـو *Vetranio* الحلة الإمبراطورية من قبل قسطنطينوس . وأخيرا تغلب قسطنطينوس على ماجنتيوس في مورسا في وادي نهر الساف في سنة ٣٥١ . وانتهى الأمر في سنة ٣٥٣ بتولى قسطنطينوس حكم إمبراطورية موحدة غير مجزأة .

الفصل التاسع عشر (٣٥٥ - ٣٥٩ م)

عهد جوليان .. الادارة المدنية في الغال

حبه لمدينة باريس

اتحدت ولايات الامبراطورية الجزاة ثانية بفضل انتصار قسطنطينوس ، ولكن هذا الامير الضعيف كان خلوا من المزايا الشخصية سواء في زمن السلم او زمن الحرب ، ولما كان يخشى قواده ، ولا يثق في معاونيه من الموظفين والنظار ، فان الانتصار العسكري لم يجد الا في تدعيم سلطان الخصيان في العالم الروماني . لقد دخلت هذه الكائنات التمسمة ، التي هي من صنع الاحتاد والاستبداد في الشرق ، الى اليونان وروما نتيجة لسريان عدوى البذخ الآسيوي اليهما . وكان تقدمهم سريعا ، فان هؤلاء الخصيان الذين كان ينظر اليهم في عهد أوغسطس ، بين المقت والزراية بوصفهم حاشية مروعة للملكة مصر ، اجيز لهم الدخول شيئا فشيئا الى أسرات فضليات السيدات وشيوخ السناتو ، وبيوت الأباطرة انفسهم . وقد كبحت جماحهم القسوانين الصارمة على عهد دوميتيان ونرفا ، ثم لقوا شيئا من التذليل والملاطفة على يد قلدنيانوس وزهوه وكبريائه . ثم هبط بهم حرص قسطنطين الى وضع ذليل ، واخيرا تكاثر عندهم في قصور ابنائه المنحليين ، وظفروا ، بطريقة غير محسوسة ، بالوقوف على خفايا مجالس قسطنطينوس السرية حتى انتهى بهم الأمر الى توجيهها . ويبدو أن نفور الناس من هذا النوع غير مكتمل الرجولة واحتقارهم له ، قد حط من اخلاق افراده ، وياتوا على الأغلب عاجزين ، كما هو مغروض فيهم ، عن الاحساس بأية عواطف كريمة ، او الاتيان بأي عمل لائق . ولكن الخصيان برعوا في افنان الملق والدسائس ، وسيطروا على عقل قسطنطينوس ، نتيجة مخلوفه تارة ، وغروره تارة أخرى . ونراه حين

وقع بصره في المرأة الخداعة على المظهر الجليل ، ألا وهو مظهر الرخاء العام ، نراه أجاز لهم ، في استهانة واستخفاف أن يقطعوا الطريق على شكاوى الولايات المنكوبة ، وأن يجمعوا ثروات ضخمة عن طريق الاتجار في العدالة والوظائف ، وأن يمتنعوا كرامة أفاضل القوم ، بترقية أولئك الذين يشتركون على أيديهم مقاعد السلطة والقدرة على العسف والجور ، كما أرخى لهم الحبل فصبوا لعنتهم على هذا النفر القليل من ذوى النفوس الأبية المستقلة الذين رفضوا في كبرياء وشمم أن يحتنوا في ظل العبيد . وكان الملع هؤلاء العبيد وأبرزهم حاجب القصر يوسوبوس الذي سيطر بنفوذ المطلق على الإمبراطور والقصر ، حتى قال مؤرخ نزيه متهمًا : « أن قسطنطيوس كان له بعض الخطوة لدى تابعه العزيز المتعطرس » . ونتيجة لآرائه الماكرة الخبيثة ، حمل الإمبراطور على توثيق الحكم بالاعدام على جالوس المنكود ، وأن يضيف بذلك جريمة جديدة إلى ذلك الثبوت الطويل من الاعدام غير الطبيعي الذي لوث شرف بيت قسطنطين .

وعندما انتقد جالوس وجولييان ، أبنا عبومة قسطنطين من بطلى الجنود ، كان عمر الأول اثنتي عشرة سنة ، والثاني ست سنوات ، وكان المظنون أن أكبرهما ضعيف البنية معتل الصحة ، فقد ظفروا دون صعوبة تذكر ، بالابتناء على حياته المزعجة المفتقرة إلى الرعاية ، من قسطنطيوس الذي تصنع الشفقة والرحمة ، والذي كان يرى أن اعدام هذين اليتيمين البائسين قد يعبد الجسد البشري بأسره عملاً من أشد أعمال القسوة المتعمدة ، وخصصت عدة مدن في أيونيا وببثينيا لإبعادها وتعليبها ، ولكن ما أن كبرا أو تقدمت بهما السنون حتى ثارت حفيظة الإمبراطور ، ورأى أنه من الأصح والأحكم أن يودع الشابين التميميين قلعة ماسلوم Macellum المنبئة قرب قيصرية . وكانت المعاملة التي لقيها طوال ست سنوات في السجن ، شيئاً مما يتوقعان من وصي حريص ، وشيئاً مما يتوجسان من طاغية مرتاب ، وكان سجنهما عبارة عن قصر قديم كان مقر ملوك كابادوكيا ، ذا موقع جميل وبناء مضخم ومساحة واسعة . وهناك تابعا دراستهما ، ومارسا رياضتهما تحت إشراف أمهر المعلمين . وكان العدد الكبير من الخدم والأتباع الذين عينوا لخدمتهما ، أو قل لحراستهما والرقابة عليهما ، وهما أبنا عبومة قسطنطين ، يتناسب مع كرم محتدهما . ولكن ما كان لهما أن يخفيا عن نفسيهما ، أنها حرمان من الثروة والحرية والطمانينة ، وأنها حرمان من الاجتماع بمن يمكن أن يكونوا موضع ثقتها أو تقديرهما ، وقضى عليهما بأن يمضيا ساعاتهما الجزيئة برفقة عبيد أخلصوا لأوامر طاغية

امعن في ايذائهما الى حد لم يعد معه ثمة أمل في المسألة . ومهما يكن من شيء فقد اضطر الامبراطور ، بضغط من ضرورات الحكم ، او قل بتأثير الخصيان ، الى منح جالوس — وكان في الخامس والعشرين من عمره — لقب « قيصر » ، والى أن يعزز هذه العلاقة السياسية بزواجه من الاميرة قسطنطينا . وبعد لقاء رسمي تبادل فيه الاميران العهد والميثاق على الا يلحق احدهما بالآخر أي أذى ، عاد كل منهما دون ابطاء الى مقره . فتابع قسطنطيوس سيره الى الغرب ، واتخذ جالوس مقرا له في انطاكية ، ومنها — بمقتضى السلطة المخولة له ، تولى حكم الأقسام الخمسة الكبيرة التي تتكون منها الدولة الشرقية . وفي هذا التحول السعيد ، لم يتخل القيصر الجديد عن التفكير في أخيه جوليان ، الذي حظى بامجاد مرتبته ، كما حظى بمظاهر الحرية ، وظفر باسترداد ميراثه الكبير .

وانتبت جالوس انه غير صالح للحكم ، فقتل . اما جوليان الذي لم يتجه اليه التفكير أصلا ليكون امبراطورا ، فقد حطته التجارب وازدادت قوته يوما بعد يوم ، واعلن « قيصر » في سنة ٣٥٥ ، وتولى الدفاع عن الغال ضد هجمات الالمان والفرنجة ، في الوقت الذي كان فيه قسطنطيوس مشغولا في جبهة الدانوب ، وانصرف في الحال الى بناء مدن الغال من جديد واستعادة الحياة فيها ، (وهذا عمل أكثر انشغالا مع طباعه الانسانية والفلسفية) .

ادارة جوليان المدنية في الغال

كان الاهتمام بتوفير السلام والسعادة لرعاياه هو القاعدة الذهبية التي وجهت ادارة جوليان . وكان يخصص اوقات الفراغ في ربوعه الشتوية لأعمال الادارة المدنية ، فتظاهر بأنه يجد لذة في شخصية الحاكم والقاضي أكثر مما يجد في شخصية القائد . واحال قبل ان يذهب الى القتال على حكام الولايات معظم القضايا العامة والخاصة التي كانت قد رفعت الى محكمته ، حتى اذا عاد راجع كل اجراءاتهم اليها لمراجعة دقيقة ، وخفف من صرامة القوانين ، وأصدر حكما ثانيا على القضاة انفسهم . لقد تسامى جوليان فوق أقصى تجربة لأظهر العقول ، وتلك غير متطرقة متهورة على العدالة . ومن ثم خفف ، في هدوء ووقار ،

من حدة المدعى الذى كان يقاضى رئيس ولاية ناريون ، بتهمة ابتزاز الأموال : قال تليفيديوس العنيف متعجبا : « اذا كان الانتكار يكفى للتبرئة ، فهذا الذى سيكون مذنباً ؟ » فأجاب جوليان : « اذا كان مجرد تأكيد التهمة كافيا للدانة فهذا الذى سيكون بريئاً ؟ » . وكانت مصلحة الملك فى زمن السلم والحرب هى بعينها مصلحة شعبه عامة . ولكن ربما كان من الجائز ان يشهر قسطنطيوس بأبلغ الأذى اذا كانت فضائل جوليان قد حرمت من أى قدر من الحرية التى كان ينزعها من أى بلد مرهق منهوك . وربما عبد الأمير الذى زود بكل شعاعات الملكية الى تقويم السفاهة الجشعة فى عماله الذين هم أقل منه برتبة ، وفضح أساليبهم الفاسدة ، وادخل نظام موحد أكثر يسرا لجباية الأموال . ولكن ادارة الأموال كانت موكولة بطريقة أدمى للطمانينة الى فلورنثيوس ، والوالى البريتورى على بلاد الفل ، وكان طاغية مخفئا لا يستشعر الرحمة ولا يحس بفنائيب الضمير ، وكان الناظر المتفطرس يشكو المعارضة الهادئة المهذبة ، على حين ان جوليان نفسه كان على الأرجح يميل الى لومه على سوء تصرفه . وكان القيصر قد رفض فى وقت وازدراء قرارا قدمه اليه الوالى لتوقيعه ، برفض ضريبة استثنائية أو إضافة جديدة ، وأغضبت تلك الصورة الصادقة ليؤس الشعب ، والناس اضطروا القيصر الى أن يبرر بها أسباب رفضه توقيع القرار ، أغضبت حاشية قسطنطين . وقد نجد لذة فى قراءة مشاعر جوليان التى عبر عنها فى حرارة وحرية فى رسالة بعث بها الى أحد أصدقائه المقربين ، فهو يقول فيها ، بمعد أن أوضح تصرفه : « وهل كان يجوز لتلميذ أفلاطون وأرسطو أن يفعل غير هذا ؟ وهل كان يمكن أن أتخلى عن هؤلاء الرعايا التمساء الذين وليت أمرهم ؟ ألم ادع لحبايتهم من هذا الايذاء المتكرر الذى يلاحقهم به هؤلاء اللصوص جاهدو الاحساس ؟ ان القريبين الذى يتخلى عن واجبه يعاقب بالموت ، ويدفن دون احتفال او مراسم نياية صورة من صور العدالة استسيغ النطق بالحكم عليه ، اذا أهملت أنا نفسى ساعة الخطر واجبا أكثر قداسة ؟ لقد وضعنى الله فى هذا المكان السامى ، ترعائى وتحرسنى عنايته . واذا قدر على أن أعائى وأقاسى ، فلسوف استمد الراحة والعزاء من شهادة ضمير نقى مستقيم ، كم توفيت لو كان لدى مستشار من طراز سللوست Sallust ؟ واذا رأوا من الخير ان يرسلوا الى خلفا ، فلسوف أتقبل هذا راضيا . وانى لأوتر ان أنتهز الفرصة القصيرة لفعل الخير ، على أن أنعم طويلا ودائما بارتكاب الرذيلة والسوء دون حساب أو عقاب » . والحق أن المركز المزعزع التابع الذى وضع فيه جوليان أظهر مناقبه وأخفى نقائصه . ان البطل

الصفير الذى دعم مرش قسطنطينوس فى الغال لم يمكن من اصلاح مساوىء الحكومة ، ولكنه أوتى من الجراءة والشجاعة ما تمكن معه من تخفيف ضائقة الشعب ، أو الاشفاق عليه . وما لم يؤت القدرة على احياء الروح الحربية فى الرومان ، أو على بعث فنون الصناعة والعمل ، وأساليب التهذيب والثقافة بين اعدائهم المهجيين ، ما كان فى مكنه أن يعلل نفسه بأى أمل معقول فى تحقيق الهدوء العام ، لا بمسألة ألمانيا ولا بغزوها . على أن انتصارات جوليان أوقفت لفترة قصيرة غارات المتبربرين ، وأجلت سقوط الامبراطورية الغربية .

جوليان ومدينة باريس

أعاد جوليان ، بتأثيره الناجع ، مدن الغال الى سابق عهدها ، بعد أن ظلت ربحا طويلا من الزمن مريضة لمساوىء الاضطرابات الاهلية ، وحروب المتبربرين ، والطغيان الداخلى ، وانتعشت روح الاقبال على العمل أملا فى المتعة والتنعم ، وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة ثانية تحت حباية القوانين . وزخرت الهيئات المدنية مرة أخرى بالأعضاء النافعين الموقرين . ولم يعد الشباب يخشى الزواج ، كما لم يعد المتزوجون يخافون العيلة وكثرة الاولاد . واثبتت الأعياد الفسامة والخاصة بمثل بهائها الممهود ، وتجلى الرخاء الوطنى ورغد العيش فى كثرة الاتصالات الآمنة بين الولايات . ولابد أن قلبا مثل قلب جوليان قد أحس بالسعادة التى غمرت الجميع ، والتى كان هو مبدعها ومنشئها . الا أنه كان ينظر بارتياح وغبطة بنوع خاص الى مدينة باريس مقره المستوى ، وموضع حبه وتعلقه بصفة خاصة . وكانت هذه العاصمة الفخمة مقصورة أول الأمر على تلك الجزيرة الصغيرة فى وسط نهر السين ، ولكنها أصبحت الآن تشغل مساحة شاسعة على جانبي النهر الذى استمد منه سكانها زادا عظيما من الماء النقى الصفى . وكانت مياه النهر تلاطم قاعدة الأسوار ، وكان الوصول الى المدينة يتم عن طريق جسرين خشبيين . وكانت الغابات تغطى الجانب الشمالى من السين . أما فى الجنوب فإن الأرض ، التى تحبل الآن أسم « الجامعة » ، امتلأت بالدور والمنازل ، بطريقة غير ملحوظة ، كما ازدانت بقصر وملعب مدرج ، وحمامات ، وقناطر تحبل المياه ، وساحة اله الحرب مارس لتدريب الجند الرومان . ولطفت قرب المحيط من تطرفت المناخ . وزرعت الكروم وأشجار التين ، مع بعض التحوطات التى املتها التجربة . ولكن السين ، فى أعوام مشهودة كان يتجمد

في الشئاء الى درجة كبيرة ، حتى جاز لأحد الآسيويين أن يقارن كتل
الجليد السابحة فوق المجرى بكتل الرخام الأبيض التي كانت تقطع من
محاجر فريجيا (في آسيا الصغرى) . وقد أعاد الفجور والفساد في
انطاكية ، الى ذهن جوليان ذكرى الخلق الصالح السيط في لوتيشيا
الأثيرة لديه (Lutetia ، باريس الحالية) حيث كانت تمتع المسرح
غير معرومة أو محتقرة فقبل في غيظ وحنق ، بين السوريين المترفين
وبين البساطة المقترنة بالأمانة والبسالة في أهل الغال ، وأغلب الظن
أنه غفر للكلمتين الوصمة الوحيدة في خلقهم ، ألا وهي الإفراط والبعد
عن الاعتدال . ولو أن جوليان عاد اليوم لزيارة عاصمة فرنسا لاستطاع
التحدث الى رجال من العلماء والعابرة قادرين على استيعاب ما يقوله
ربيب الفلسفة اليونانية ، وربما غفر الهفوات المنسمة بالبهجة والظرف ،
في أمة لم يوهن الانقباس في الترف من روحها العسكرية ، ولكان لزاما
عليه أن يمدح سمو الفن الرفيع الذي يلفح مجرى الحياة الاجتماعية
ويهبه ، ويضفي عليه بهاء وجبالا .

الاعتراف بالمسيحية وبراءة الهرطقة

انفصل العشرون

(٢٠٦ - ٢٢٧ م)

تحول قسطنطين الى المسيحية

مرسوم التسامح الذي أصدره رؤياه وتعمده . اقرار المسيحية
بمقتضى القانون التفريق بين السلطتين الروحية والزمنية

يعتبر الإقرار العلم للمسيحية ، ثورة من أخطر الثورات الداخلية التي تثير أشد الفضول حيوية وتلقن أقيم الدروس . وان انتصارات قسطنطين أو سياسته الداخلية لم تعودا تؤثران في حالة أوروبا ، ولكن ما يزال جزء كبير من الكرة الأرضية محتفظا بالأثر العميق الذي أحدثته تحول ذلك العاهل الكبير الى المسيحية ، وما تزال أفكار الجيل الحاضر وعواطفه ومصالحه ترتبط ارتباطا لا تنقسم مرآه بالنظم الكنسية على عهده .

وقد تنشأ عند التعرض لبحث موضوع يعالج في نزاهة وتجرد ، ولكن لا يمكن تناوله بغير أكراس - قد تنشأ على الفور صعوبة ذات طبيعة غير متوقعة ، تلك هي التاريخ الحقيقي لتحول قسطنطين ، ويبدو الخطيب المفوه لكتانتوريوس وسط حاشيته متعجلا في أن يعلن للاملا القدوة الحسنة للملك الغال الذي اعترف منذ اللحظة الأولى من حكمه بالاله الواحد الحق وعبد . أما العلامة يوسوبوس فانه نسب ايمان قسطنطين الى الاشارة الخارقة التي ظهرت في السماء بينما كان قسطنطين يفكر في الحملة الإيطالية ويمد لها العدة . ولكن المؤرخ زوسيموس Zosimus يؤكد في خبث أن الامبراطور كان قد غمس يديه في دم أكبر ابنائه قبل أن يعلن نبذه لمعبودات روما وآلهة أجداده . والحق أن حيرة هؤلاء الثقاة المتناقضين نشأت من سسلك قسطنطين نفسه . وتمشيا مع دقة التعبير الكنسي ، فإن أول الأباطرة « المسيحيين » لم يكن يستحق هذا اللقب الا حين كان يلفظ أنفاسه الأخيرة ، حيث أنه في مرضه الأخير تلقى مبادئ التعاليم المسيحية

فوضع الأسقف يديه على رأسه ليباركه ، ثم دخل ، بعد إجراء الطقوس الأولية للتعميد ، في عداد المؤمنين . ويجدر أن يؤخذ بتصير قسطنطين بمعنى أكثر غموضاً وتقييداً . ولابد من التزام منتهى الدقة في تعقب التدرج البطيء ، بل غير المحسوس في الغالب ، الذي انتهى بإعلان هذا الماهل نفسه حامياً للكنيسة ، وفي آخر الأمر مهتدياً إليها . لقد كان من الأعياء الشاقة عليه أن يحو ما تلقن من عادات وآراء ، وأن يعترف بالقوة الإلهية للمسيح ، وأن يدرك أن صدق الوحي الذي نزل على المسيح لا يلتزم مع عبادة الآلهة ، ولقد علمته التاملات المضمنة التي يحتفل أنها شغلت ذهنه ، أن يسير بخطى وثيدة حذرة في تغيير الديانة الوطنية ، وهو تغيير له خطره واهيئته ، ثم اكتشف — دون أن يشعر — آراءه الجديدة بالقدس الذي استطاع به أن يطبقها تطبيقاً ماثولياً عمالاً . ولقد تدفق طوال سنى حكمه ، تيار المسيحية في حركة هائلة ، ولو أنها في نفس الوقت سريعة الخطى . ولكن الظروف الطارئة آنذاك ، وحذر الحاكم ، أن لم تكن نزواته — فوق تارة ، واتحرف تارة أخرى ، بالاتجاه العام لهذه الحركة ، وأبيع لنظائره ومهاوئيه أن يصوغوا نوايا سيدهم في العبارات التي تلتزم أحسن ما تلتزم مع مبادئ كل منهم . ووازن هو في دهاء بين آمال رعاياه وبين مخطوئهم ، بأن أصدر في العام نفسه مرسومين ينص في الأول على الاهتمام الشديد بيوم « الأحد » ، على حين يحض الرسوم الثاني على استئسرة الميراثين والدجالين . وبينما كان هذا الانقلاب الخطير يتأرجح في يد القدر ، كان المسيحيون والوثنيون يرقبون سلوك مليكهم بنفس القدر من القلق ، ولو اختلفت مشاعر كل فريق عن مشاعر الفريق الثاني . فاندفع المسيحيون بياعث الفيرة والغرور معا ببالغون في أية بادرة من علان عطفه أو شواهد ايمانه . أما الوثنيون فقد حاولوا أن يخفوا عن العالم وعن أنفسهم أن الامبراطور لم يصبح بعد في عداد أتباع آلهة روما ، إلى أن تحول مجرد تخوفهم إلى ياس واستياء . وتنازعت نفس المشاعر والأهواء قلوب الكتلب المتحيذين في تلك الأيام : فتراهم يريدون الاعتراف العلنى بالمسيحية بأزهى النترات في حكم قسطنطين أو بابغضها .

ومهما بدا في أحاديث قسطنطين أو تصرماته من مظاهر التقوى المسيحية ، فإنه ثابت ، حتى قارب الأربعين من العمر ، على ممارسة الدبابة القائمة . وأن نفس السلوك الذي كان من الجائز أرجاعه إلى ذمته وهو في نيوميديا ، يمكن نسبته فقط إلى ميل ملك الغلال أو إلى بابه . وبفضل سخائه جددت وزينت معابد الآلهة ، ونقشت على

الميدانيات التي صدرت عن دار السك الامبراطورية صور جوييتير وابولو ومارس وهركيوليز ، وزاد ورعه البتوى من مكتبة مجمع اوليس ، الذي رجع ، في مهابة ووقار ، والده قسطنطيوس الى مصاف الالهة . ولكن تعبد قسطنطين كان يتجه بصفة خاصة الى عبقرية الشمس ، اى ابولو في الاساطير اليونانية والرومانية ، وكان يسعده ويسره ان يمثلوه برموز اله النور والشمس . فلان نساهم هذا المعبود الذى لا تخطىء ، ويريق عينيه واكليل الغار الذى يتوجه ، وجهاله الخالد ومنجزاته اللطيفة — كل هذه الصفات هيائه ليكون حامى البطل الصغير . وقد زحرت مذابح ابولو بما قدم قسطنطين من قربان ونذور ، وادخل في روع الجمهور الساذج ان يؤمن بان الامبراطور قد اجيز له ان يبصر بعينيه الفانيتين العظيمة المرئية البارزة في معبودهم الحلى ، وانه قد سعد ، في يقظته او في رؤياه ، بفأل حسن ، يبشر بعهد طويل يكلله النصر والظفر . واشتهر اله « الشمس » في كل مكان بانه المرشد والحامى الذى لا يقهر للامبراطور قسطنطين . وربما توقع الوثنيون بحق ، ان الاله الذى اُمى اليه لابد ان يتوعد بالانتقام الشديد من زيف تابعه الجاحد .

وطالما مارس قسطنطين سيادة محدودة في ولايات الغال ، كان يحضى رعاياه المسيحيين سلطان ، وربما قوانين امير اقتضت حكمته ان يترك للالهة امر تثبيت مكانتهم وشرعهم . واذا جاز لنا ان نصدق تأكيدات قسطنطين نفسه ، فانه كان يرقب في استياء وسخط آمال القساوة الفاشية التي اقترفت ايدى الجنود الرومان مع المواطنين الذين لم يكن لهم من ذنب الا عقيدتهم (١) . لقد لمس في الشرق وفي الغرب الانار المتباينة للعنف وللتسامح . ولما بات العنف ابغض واكثد مقتا لانه يمثل في شخصية عدوه العنيد جاليريوس ، فقد أثر التسامح اقتداء بوالده المتوفى واتباعا لمشورته . فاعوقف ابن قسطنطيوس على الفور قوانين الاضطهاد او الفها ، ومنح حرية ممارسة الشعائر الدينية لكل الذين اعلنوا فعلا من اعتنائهم المسيحية . وسرعان ما تشجعوا على الاعتراف على عطف وعدالة الماهل الذى لكن لاسم المسيح ، ولاله المسيحيين اجلالا خفيا خالصا .

(١) ولكن من الميسور ايضا ان المترجم اليونانى قد حسن الامل اللاتينى ، وربما تذكر الامبراطور الشيخ لسطهاد مقلديانوس ، فاحسن ينفقت وازدراء اكثر مما احسن به بالفعل في ايام صباه ووثنيته .

مرسوم التسامح

بعد نحو خمسة أشهر من فتح إيطاليا أعلن الإمبراطور إعلاناً صادقا أصيلا عن عواطفه في « مرسوم ميلان » المشهور . الذي أعاد السلام والهدوء إلى الكنيسة الكاثوليكية . وفي لقاء شخصي بين أميري الغرب ، حصل قسطنطين ، بفضل تفوقه في الذكاء والقسوة ، على موافقة غورية من زميله ليسينيوس ، وقضى اتفاقهما واشتراكهما في التوقيع وسلطانهما على غضب مكسيمين ، وبعد وفاة طافية الشرق ، استقبل مرسوم ميلان على أنه قانون عام أساسي من قوانين العالم الروماني .

واقتضت حكمة الإمبراطورين رد كل الحقوق الدينية إلى المسيحيين

الذين كانوا قد حرموا منها ظلما وعدوانا . ونص على أن تعاد إلى الكنيسة كل أماكن العبادة والأراضي العامة المصادرة دون نقاش أو إبطاء أو نفقة . واقترن هذا الإنذار الصارم بوعد كريم يقضى بأن يدفع للبشترين الذين كانوا قد دفعوا ثمنا مناسبا كافيا ، تعويض من الخزانة الإمبراطورية . وصيغت هذه القواعد الناجعة التي تصون مستقبل الهدوء بين المؤمنين في إطار مبادئ التسامح ، مع التوسع والمساواة فيه . ولابد أن الطائفة الجديدة قد نسرت هذه المساواة بأنها امتياز نافع مشرف . ويملن الإمبراطوران إلى العالم أنها منح المسيحيين الآخرين وغيرهم سلطة حرة مطلقة في اعتناق أية عقيدة يرى الفرد من الأوفى له أن يؤثرها ، أو أنه وهبها عقله ونفسه ، أو أنها أصلح ما يمكنه أن يمارس . وحرصا على توضيح كل لفظ مبهم ، واستبعاد أي استثناء ، وعلى مطالبة حكام الولايات بالالتزام الدقيق بالمعنى الحقيقي البسيط لمرسوم شرع لإقرار دعوى الحرية الدينية وتأمينها بلا حدود . وتفضلا بتحديد سببين هامين اقنعاهما بإباحة هذا التسامح العام : نناهل : أولهما المقاصد الإنسانية التي تستهدف أمن شعبيها وسعادته ، والثاني أملها الموسوم بالتقى والورع في أنها بهذا العمل قد يهدان اله السماء ويرضيانه . ويعترفان شاكرين بالشواهد المديدة الفريدة للعطف الإلهي . ويقتن بأن العناية الإلهية ذاتها سوف تظل تصون رخاء الأمير ورخاء شعبه . ويمكن أن يستخلص من هذه "تعبيرات الغامضة غير المحددة المتسمة بالتقوى والورع ثلاثة افتراضات ذات طبيعة مختلفة ، ولكنها ليست متناقضة . فربما تارجع عقل قسطنطين بين الديانتين الوثنية والمسيحية ، أو ربما اعترف ، تمشيا مع الآراء القضاة للطبيعة في مذهب الشرك ، بأن (اله

المسيحيين وأخذ من بين الأرباب الكثيرين الذين يشككون حنكومة السماء . أو ربما اعتنق الفكرة الفلسفية السارة ، التي تقول بأنه رغم تعدد الآسماء والشعائر والآراء ، فإن كل شيع الجنس البشرى وأمه ملتقون في عبادة الأب المشترك للكون وخالقه .

وكثيرا ما تتأثر آراء الأمراء بقطراتهم إلى المنافع الدنيوية أكثر من تأثرها بامتيازات من الحقيقة المجردة النظرية . وقد يكون من الطبيعي أرجاع عطف قسطنطين المتزايد المتحيز إلى تقديره لأخلاق المسيحيين وإلى اقتناعه بأن انتشار الانجيل يستتبع بالضرورة التمسك بالفضائل الخاصة والعامة . ومهما يكن من موقف أى حاكم مطلق في تصرفاته الخاصة ، ونهما يكن من أمر انغماسه في أموره أو افساح المجال لمواطنه ، فإن من مصلحته ، دون ريب ، أن يحترم رعاياه الالتزامات الطبيعية والمخفية في المجتمع . ولكن أثر أعمال أحكم القوانين ناقص معيب مزعزع ، لأنها ، أى القوانين ، قل أن توحى بالفضيلة ، ولا تستطيع يوما أن تحد من الرذيلة . وليس لها من القوة الكافية ما يردع عن ارتكاب كل ما تعاقب عليه ، كما أنها لا تستطيع في كل الأحوال أن تعاقب كل ما تعمره . وقد أهاب المشرعون القدامى بقوى التعليم والرأى لمعاونتهم . ولكن كل مجدا كان له يوما أثره في المحافظة على نضارة ونقاوة روما واسبرطة ، انطفاة جفوته منذ زمن طويل في كنف امبراطورية استبدادية متداعية . وظل للفلسفة سلطانها الرقيق على العقل الانساني ، ولكن قضية الفضيلة لم يكن لها من خزانة الوثنية الا سند هزيل واه . وربما حق للحاكم الفطن ، في هذه الظروف المثبطة ، أن يغتبط ويبتهج اذ يرقب تقدم ديانة نشرت بين الناس أسلوبا نقيما خيرا عاما من الأخلاق ، أسلوبا صالحا لكل واجب وكل ظرف من واجبات الحياة وظروفها ، أسلوبا تواضعا به على أنه يمثل ارادة « الاله الاعظم » ومنطقه ، وفرضوه بضمان الثواب أو العقاب الأبدية . ولم تستطع تجربة التاريخ اليوناني والروماني أن تبين للعالم كيف يمكن اصلاح الخلق الوطني أو تهذيبه بتعاليم الوحي الالهى ، وربما أصفى قسطنطين ، في شيء من الفقة ، إلى توكيدات لكتاتقيوس المتبلقة ، ولكنها المعقولة حقا ، فإن هذا المدافع الموهو الفصيح ، فيما يبدو ، توقع ، أو على الأرجح جري على أن يعد ، بأن اقرار المسيحية سوف يجدد براءة العصور البدائية وهنايتها ، وأن عبادة الاله الحق سوف تخد الحروب والفن بين من يعتبرون أنفسهم على قدر سواء أبناء أب واحد مشترك بينهم ، وأن أية رغبة جامحة وأية عاطفة انانية نائرة سوف تحد منها وتخفف من غلوها المعرفة بالانجيل ، وأن

الحكام سوف يغمدون سيف العدالة وسط شعب تحركه كله مشاعر الصق والتقوى والانصاف والاعتدال والانسجام والمحبة الشاملة .

ولابد أن الطاعة السلبية العمياء التى تخضع لغير السلطة ، بل حتى للمظلم والجور ، قد بدت لعينى الحاكم المستبد المطلق أبرز الفضائل الانجيلية وأنعمها . ان المسيحيين الأولين لم يستمدوا نظم الحكومة المدنية من رضا الشعب وموافقته ، بل استمدوها من قوانين السماء . وعلى الرغم من أن الامبراطور الحاكم كان قد اغتصب التاج عن طريق الخيانة والقتل ، فإنه انتحل على الفور الشخصية القدسية ، أى شخصية نائب الله فى الأرض . وكان أمام الله وحده محاسباً على سوء استغلال سلطته ، وكان رعاياه مرتبطين ارتباطاً لا تنفصم مراه ، بعهد الاخلاص لطاغية انتهك حرمة كل قوانين الطبيعة والمجتمع . وخرج المسيحيون المتواضعون الى الدنيا وكانهم حاملين بين ذئاب ، ولما كان من غير الجائز لهم أن يستخدموا القوة حتى فى سبيل الدفاع عن عقيدتهم ، فإنه يظل من اكبر الوزر أن تغريهم الامتيازات العقابية أو المتاع الدنيء فى الحياة العابرة ، بسفك دماء أقرانهم . وإيماناً منهم بنظرية أحد الحواريين الذى بشر فى عهد نيرون بواجب الامثال غير المشروط ، ظلت ضباط المسيحيين فى القرون الثلاثة الأولى فتية من اوزار المؤامرات السرية أو التمرد العلنى . وفى الوقت الذى عانوا فيه من بطش الاضطهاد ، لم يستفزهم شيء قط الى امتشاق الحسام فى وجه حاكمهم الطاغية ، ولم ينفروا ساخطين قط الى أى ركن قصى بمنزل فى الكرة الأرضية . ان البروتستانت فى فرنسا وانجلترا والمانيا ، أولئك الذين اكدوا فى جراءة وبسالة حريتهم المدنية والدينية ، قد أساء اليهم بالمقارنة المثيرة الحاقدة بين سلوك المسيحيين الأولين وسلوك المسيحيين دفاء الإصلاح الدينى . وربما كان جديراً بنا عوضاً عن اللوم والقناب ، أن نمتدح ذلك المعنى السامى وتلك الروح العالية فى أسلافنا البروتستانت دعاة الإصلاح ، الذين ائتمنوا بأن الدين لا يمكن أن يلغى الحقوق الأساسية التى أقرتها الطبيعة البشرية . وربما جاز أن ننسب صبر الكنيسة الأولى الى ضعفها وإلى روح الفضيلة فيها على حسد سواء . فإن طائفة من العامة غير المحاربين ، بل قيادة ، وبلا سلاح وبلا تحصينات ، كان لزاماً أن تواجه دماراً محققاً محترماً ، اذا هى اندفعت فى مقاومة يائسة عقيدة لسيد الجيوش الرومانية . ولكن المسيحيين ، حين اثاروا غضب حقليدانيوس أو التمسوا عطف قسطنطين ، استغلوا ان يزعموا فى صدق وثقة ، أنهم التزموا مبدأ الطاعة السلبية ، وان سلوكهم فى مدى ثلاثة قرون كان دائماً منسجماً

مع مبلدئهم . وربما أضافوا الى هذا أن عرش الإباطرة يمكن أن يرتكر على أساس متين ثابت اذا تعلم كل رعاياهم الذين يعتقدون المسيحية ، أن يحتلوا ويمتثلوا .

ان الأمراء والطفاة ليعتبرون ، وفقا للنظام العلم « العناية الالهية » بمثابة وزراء للسماء ، عينوا ليحكموا وينزلوا القصاص بامم الارض . ولكن التاريخ المقدس يزودنا بأمثلة رائعة لتدخل الله بطريق اقرب لان يكون مباشرا في حكومة شعبه المختار ، فقد أودع الصولجان والسيف بين يدي موسى ويشوع ، وجدعون وداود — من المكابيين Maccabees وكانت فضائل هؤلاء الأبطال حافزا للمعطف الالهى أو نتيجة له ، وقدر لنجاحهم في الحرب أن يحقق خلاص الكنيسة أو انتصارها . واذا كان قضاة اسرائيل حكاما طارئين مؤقتين ، فان ملوك يهوذا اقتبسوا من المسحة الملكية لسلطتهم العظيم حقا وراثيا لا يمس ، ولا يمكن أن تقدمهم اياه ردائلهم ، أو تبطله نزوات رعاياهم . وربما اختارت ، « العناية الالهية » نفسها ، التى لم تعد تصرا على الشعب اليهودى — اختارت قسطنطين واسرته ليكونوا حماة الصالح المسيحي . وراح لكتانتيوس الناسك المتعبد يعلن في نبرات رسولية ، المجد الذى سوف يتألق في سماء حكمه المديد الذى سيعم العالم . وكسان جاليريوس ومكسيمين ومكسنتيوس وليسينيوس منافسين شاركوا « حبيب السماء » ولايات الامبراطورية . وسرعان ما أرضت مأساة موت كل من جاليريوس ومكسيمين سخط المسيحيين ، وحقت تمنياتهم الدبوية . وازاح تغلب قسطنطين على مكسنتيوس وليسينيوس ، عن طريقة مزاحمين عنيدين ظلا يعارضان انتصار « داود الثانى » . وربما ادعت قضيته ، فيما يبدو ، أن العناية الالهية قد تدخلت فيها وبلازكتها بصفة خاصة . لقد لوثت شخصية الطاغية الرومانى الحظ الامبراطورية والطبيعة البشرية . وربما تمتع المسيحيون بمطفه المتقلب ، ولكنهم كانوا رغم ذلك معرضين ، مع سائر رعاياه ، لأثار نزوته وقسوته الفاشية . وسرعان ما فضح سلوك ليسينيوس أنه كان قد وافق ، وهو كاره على القواعد الحكيمة الانسانية التى تضمنها مرسوم ميلان : فقد حرم فى ممتلكاته اجتماعات المجالس الكنسية فى الولايات ، وعزل موظفيه المسيحيين بشكل مؤقت ، واذا كان قد تفادى وزر — أو قل خطر الاضطهاد العام ، فان مظالمه ستظل أبشع وأشنع بانتهاكه التزاما رسميا وافق عليه طواعية واختيارا . وبينما كان الشرق — على حد التعبير الصامى الذى ذكره يوسوبوس — يتعثر فى دياجير ظلام خبيث ، بعثت اشعة الأتوار السماوية الدفء فى ولايات الغرب

وأضاعت جوانبها .. وقد اعتبر ورع قسطنطين ذليلا كاملا على عدالة
اسلحته ، وأكد استقلاله للنصر رأى المسيحيين في أن بطسليم كان
يتصرف بالهام وتوجيه من « رب الحشود » ، لقد انبثق عن غزو
إيطاليا مرسوم عام للتسامح ، وما أن تفرد قسطنطين ، بعد هزيمة
ليسينيوس ، بالسلطان في دنيا الرومان ، حتى بعث بكتب دورية الى
كل الأتاليين يحض فيها جميع رعاياه على أن يقتدوا ، دون إبطاء
بملكهم ، وأن يؤمنوا بالحقيقة الإلهية ويدخلوا في المسيحية .

وولد الاعتقاد الراسخ بأن اعتلاء قسطنطين العرش مرتبط ارتباطا
وثيقا بالتدبيرات الإلهية — ولد في عقول المسيحيين رأيين ساعدا
بوسائل مختلفة على تحقيق النبوءة . فاستنفذ ولاؤهم الجساد الحار
كل جهد أنساني في سبيل نصرته ، وتوقعوا عن يقين أن الله سوف يؤيد
جهودهم بعمون خارق من عنده . أما أعداء قسطنطين فقد عزوا هذا
التحالف الذي عقده بطريقة غير ملحوظة مع الكنيسة الكاثوليكية ،
والذي ساعد على تحقيق أطماعه ، الى دوافع غير نزيهة تتفق مع
مصلحته هو ، وفي أوائل القرن الرابع كانت نسبة عدد المسيحيين الى
مجموع سكان الامبراطورية لا تزال ضئيلة ، ولكن ربما ساعدت روح
الطائفة الدينية ووجدتها — وسط شعب منحل نظر الى تغيير حكمه
بلا مبالاة كما يفعل العبيد — نقول ربما ساعدت هذه الروح القائد
المحارب الذي وضعت الطائفة ، يوحى من ضمائرهما ، حياتها وأموالها
في خدمته . وكانت لقسطنطين في أبيه أسوة حسنة ، حيث تعلم منه أن
يقدر شمائل المسيحيين ويكافئهم عليها . وتهايت له لموق ذلك ميسره
تقوية حكومته باختيار نظار او قادة يمكن أن يثق في اخلاصهم ثمة
حقا لا حدود لها . وكان لزاما ، بفضل نفوذ هؤلاء الرجال أن يتضاعف
عدد المهتدين الى العقيدة الجديدة في البلاط والجيش ، وكان المتبررون
الألمان الذين ملأوا مختلف مراتب الجيش ، يتميزون بقدر من السفلة
والخفة تقبلوا معه ديانة قائدهم دون مقاومة ، ويمكن القول في انصاف
أن عددا كبيرا من الجنود ، عندما عبروا جبال الألب ، قد وضعوا
اسلحتهم في خدمة المسيح وخدمة قسطنطين . وخلفت طبائع البشر
وبواعث الدين ، يوما بعد يوم من أهوال الحرب وسفك الدماء ، الذي
سادت بين المسيحيين زمنا طويلا . وفي المجالس التي انعقدت تحت
حماية قسطنطين استخدم الأساقفة في الوقت المناسب سبلانهم لاقرار
اليمن العسكرية ، وانزال عقوبة الحرمان من رحمة الكنيسة بأولئك
الجنود الذين القوا سلاحهم حين ساد الهدوء الكنيسة . وفي الوقت
الذي زاد فيه قسطنطين ، في نسطاق ملكه ، من عدد أتباعه

ومن غيرتهم وحماسهم ، كان يستطيع أن يعتمد على تأييد حزب قوى في الولايات التي ظلت بعد تحت حكم منافسيه ، أو تلك التي اغتصبوها ، وسرى شعور خنى بالقبض والنفور بين رعايا مكسنتيوس وليسينيوس المسيحيين . ولم يجتد الغيظ الذي لم يحاول الأخير أن يخفيه ، إلا في زيادة انحيازهم الى جانب غريمه . واستطاع الاساقفة ، بفضل المراسلات المنتظمة التي ربطت بين بعضهم بعضا في أقصى الولايات ، أن ينقلوا ، في حرية تامة ، رغبتهم وخططهم ، وأن يوصلوا — دون ما خطر — أية انباء مفيدة أو أية تبرعات ورعة ، يمكن أن تدعم مركز قسطنطين الذي أعلن جهارا أنه قد امتشق الصلح من أجل خلاص الكنيسة .

الرؤيا قسطنطين

زاد الحماس الذي غير الجنود — وربما غير الامبراطور كذلك — من حدة سيوفهم وقوة سلاحهم ، كما أثلج صدورهم وأرضى ضمائرهم . فتقدموا الى المعركة ، وهم على يقين تام من أن الله الذي شق من قبل للاسرائيليين طريقا عبر مياه الأردن ، وحطم اسوار اريحا أمام صوت ابواق يشوع — لابد أن يكشف للميان عن مظهره وقوته في انتصار قسطنطين . ان شواهد تاريخ الكنيسة مستعدة للتأكيد بأن تبنيتهم بررتها المعجزة البارزة التي ينسب اليها الجميع تقريبا تحول أول امبراطور الى المسيحية . وان السبب الحقيقي أو الخيالي لئلا هذا الحدث الجليل الخطر ، ليستحق ويتطلب اهتمام الأجيال القادمة . وسأحاول أن أكون تقييما صادقا لرؤيا قسطنطين المشهورة بدراسة متميزة للرأية وللحلم وللعلامة السماوية ، من طريق الفصل بين الجوانب التاريخية والطبيعية والخرافة أو المعجزة في هذه القصة الغريبة ، التي مزجت في دهاء في كتلة ضخمة هشة ، رغبة في صياغة حجة خداعة حسنة المظهر .

١ — أصبحت آلة من آلات التعذيب الذي كان ينزل بالمعبد والغرباء وحدهم ، موضع الهلع والفرع في نظر المواطن الروماني . وارتبطت فكرة الذنب والالام والفضيحة ، ارتباطا وثيقا بفكرة

الصليب (١) . وسرعان ما التفت روح التقوى في قسطنطين — أكثر من الروح الانسانية فيه — ألغت في نطاق ملكه تلك العقوبة التي تفضل السيد « المسيح المخلص » فعانها ، ولكن الامبراطور كان قد تعلم ان يحتقر الاهواء التي تلقاها في فترة تنشئته وتربيته وكذا أهواء شعبه ، قبل ان يتمكن من أن يقيم وسط مدينة روما تمثالا له وهو يحمل الصليب في يده اليمنى ، مع نقوش ترجع الفضل في انتصاره في ساحة الوغى ، وتخليص روما ، الى هذه العلامة المباركة (الصليب) ، الرمز الصادق للقوة والشجاعة . وأضفى نفس الرمز على اسلحة جنود قسطنطين قدسية وطهرا ، فقاتل على خوذاتهم ، ونقش على دروعهم ، ونسج على راياتهم ، وتميزت الشعارات المقدسة التي ازدان بها الامبراطور نفسه بانها صنعت من مادة أغلى قيمة ، ويقدر أكبر من الدقة والافتان . ولكن الراية الرئيسية التي أشارت الى فوز الصليب كانت تسمى لاباروم Labarum ، وهو لفظ غامض ، ولكنه مشهور ، اشتق عبثا من كل لغات العالم تقريبا ، ووصفت هذه الراية بانها عبارة عن عمود خشبي له رأس حديدي منجذب يتقاطع معه قضيب مستعرض ، تتدلى منه الراية المصنوعة من الحرير ، وقد نسجت عليها صور الماهل الحاكم وابنائهم ، وارتكز على رأس العمود تاج من الذهب ، بداخله الطغراء الفاخرة التي تمثل كذلك شكل الصليب والحروف الأولى من اسم السيد المسيح . وعهد بحراسة هذه الراية « لاباروم » الى خمسين حارسا مشهودا لهم بالبسالة وصدق الايمان ، وتميز مركزهم بما أضفى عليهم من أمجاد ، وما منحوا من رواتب عالية . وسرعان ما وقعت أحداث سعيدة أدت الى الرأي القائل بان نيال العدو لن تنفذ الى حراس الراية « لاباروم » وانهم في مأمن من الخطر طالما كانوا حائمين عليها . وأحسن ليسينيوس ، في الحرب الأهلية الثانية بقوة هذه الراية المقدسة وتوجس منها خيفة ، تلك الراية التي أثار منظرها ، وسمل احتدام المعركة ، في جنود قسطنطين حماسا لا يقهر ، ونشر الرعب والفزع في صفوف أعدائهم . ورنح الأباطرة المسيحيون الذين حذوا حذو قسطنطين ، راية الصليب في كل حملاتهم الحربية . ولما انقطع خلفاء ثيودوسيوس المنحلون عن الظهور على رأس جيوشهم ، أودعت

(١) أصاب الكتاب المسيحيون : جوستين ، ميثوسيوس ، المليكس ، ثوتوايان . حيروم ، مكسيموس ثوريين ، قدرا معقولا من النجاح في استقصاء شكل الصليب أو شبيهه له في الطبيعة أو الفن : في تقاطع الزوال مع خط الاستواء ، في وجه الانسان . ومما أثر يخلق . ورجل يسبح ، وفي الصارية ، وفي الفناء . في المحراث وفي العلم . . . وغيرها .

رأية « لابروم » مصر القسطنطينية على أنها اثر وقور رفيع الشأن ، ولكنه عقيم غير مجد . ولا تزال أمجاد هذه الرأية باقية على رصائع (ميداليات) أسرة غلافيوس . ونتيجة لنسكهم الشكور وضعوا طغراء المسيح وسط شعارات روما ، واستخدمت في الانصباب التذكارية الدينية والحربية على السواء تلك العبارات المهيبة : « سلامة الجمهورية » ، « مجد الجيش » ، « سعادة الشعب » ، ولا تزال توجد زصيمة (ميدالية) قسطنتيوس ، وعليها رأية « لابروم » مقرونة بالمعبرة التذكارية « بفضل هذه الرأية سوف تنقصر » .

٢ - درج المسيحيون الأولون على أن يحصنوا عقولهم واجسامهم في كل اوقات الخطر والضيق بعلامة الصليب ، التي استخدموها في كل شعائهم الكنسية ، وفي كل وقائع الحياة اليومية ، على انها عاصم محقق من كل شر روحي أو دنيوي . وربما كان لسلطان الكنيسة وحده من الاهمية والاعتبار ما يبرر اخلاص قسطنطين الذي اعترف في خطي وثيدة حذرة بصدق المسيحية واتخذ رمزها شعارا له . ولكن شهادة كاتب معاصر كان يدافع عن قضية الدين في رسالة رسمية ، تضى على ورع الامبراطور طابعا اشد رهبة واكثر وقارا . فهو يؤكد ، بأكثر قدر من الثقة واليقين ، ان قسطنطين ، في الليلة السابقة على آخر معركة مع مكسنيتوس ، تلقى في المنام تنبيها بحفر علامة الله السماوية اى طغراء اسم المسيح المقدسة على دروع جنوده ، كما انه قام بتنفيذ اوامر السماء ، وفاز بالنصر الحاسم عند جسر ميلفيا Milvia جزاء وفاتها على بسالته وامثاله . وربما حدث بعض الاعتبارات بالمقل المتشكك الى الارتياح في حكم أو صدق رب البلاغة الذي سخر قلمه ، بدافع الفيرة أو بدافع المصلحة ، لخدمة الطائفة الغالبة ، فقد نشر ، على ما يبدو ، وفيات الظالمين في نيقوميديا ، بعد نحو ثلاث سنوات من انتصار الرومان . ولكن مسافة الالف من الأيال ، وفترة الالف من الأيام لابد تفسحان مجالا واسعا لادعاءات الخطباء المؤثرين ، ولسرعة تصديق الطائفة ، وللاستحسان الضمني الصامت من جانب الامبراطور الذي ربما اصغى في ارتياح الى هذه القصة الخارقة التي رفعت ذكره وانجحت مساعيه . واورد نفس المؤلف ، مجاملة لليسينيوس ، رؤيا في صيغة دعاء نقله أحد الملائكة وردده كل جيشه قبل أن يلتحم مع جنود الطاغية مكسيمين . ان كثرة تكرار المعجزات تستفز العقل البشري ، حين لا تستطيع أن تخضعه . ولكننا اذا أنعمنا النظر في رؤيا قسطنطين ، على حدة ، فقد يكون من الطبيعي أن تفسرها سياسة الامبراطور أو حماسه . ففي سنة قصيرة من نوم متقطع ، هجم فيها قلقه من

اقتراب اليوم الذي لابد ان يتحدد فيه محير الامبراطورية ، مرصت صورة المسيح والرمز المعروف المشهور لديانته نفسيهما على الخيال الميقظ لأمير مجد اسم اله المسيحيين ، وربما التمس منه العون والقوة سرا . فان أى رجل دولة أو سيانى أريب مستعد إلى اللجوء إلى مناورة أو خدعة جريئة من أمثال تلك الاحتمالات المروعة التى عمد إليها فيليب وسرتوريوس Sertorius (فى القرن الأول قبل الميلاد) بنفس القدر من الدهاء ، فانت بنفس النتيجة . لقد آمنت كل الأمم القديمة عامة بمنشأ الأحلام الخارق للطبيعة ، وأصبح جزء كبير من جنود الخال مستعدا بالفعل لوضع ثقته فى تلك العلامة الناجعة ، علامة السدين المسيحى . وقد تكذيب الواقعة وحدها رؤيا قسطنطين الخفية أو تحذرها ، وربما رأى البطل الصنيد الذى كان قد عبر الالب والأبنين ، فى يأس فائر ، نتائج الانتحار تحت أسوار روما . واعترف السناتو والشعب الذين هلكوا لخلاصهم من طاغية بغيض بان انتصار قسطنطين جاوز قدرة البشر ، دون أن يجسروا على التلميح إلى أن هذا كان من صنع الآلهة . وان قوس النصر الذى أقيم بعد هذا الحادث بسنوات ثلاث ، ليعلن فى عبارة مبهمه ، أنه انتد دولة الرومان وثأر لها ، بفضل عظمة عقله ، وبفضل الفطرة أو البواعث الالهية . ويذهب الخطيب الوثنى الذى انتهر مرصة مبكرة قبل ذلك ليشيد بمناقب الامبراطور الفاتح ، يذهب إلى الظن بأنه هو وحده ، أى الامبراطور ، ساعد بعلاقة وثيقة خفية مع « الكائن الأعظم » الذى هوض أمر العناية بال مخلوقات الفانية إلى الآلهة الذين هم أدنى منه مرتبة . ومن ثم يحدد هذا الخطيب سببا مقبولا شكلا يعمل به : لماذا لا يجدر برعايا قسطنطين أن يقدموا على اعتناق ديانة مليكهم الجديد .

٣ - ومن المحتمل أن ينتهى الفيلسوف الذى يتفحص فى ارتياب هادى ، الأحكام والنذر والبشائر والمعجزات والكرامات ، فى تاريخ الرجس ، بل حتى فى تاريخ الكنيسة - ينتهى إلى أنه اذا خدع النصب والاحتيال أحيانا أبصار الناظرين ، حكم امتن القصص الخيالى عقول القراء !! فان أى حادث أو مظهر طارئ يبدو انحرافه عن المجرى العادى للطبيعة ، قد نسب فى اندفاع وطيش إلى التدخل المباشر للآلهة . وأضفى خيال الجمهور المذهول شكلا ولونا ولغة وحركة على النيارك الخاطفة غير المألوفة . أن نازاريوس ويوسوبوس هما أشهر خطيبين ، جهدا فى مديح بليغ منق ، فى أن يشيدا بمجد قسطنطين . فان نازاريوس يصف بعد تسع سنين من انتصار الرومان ، جيشا من « ملوك الهين يبدو أنهم هبطوا من السماء ، ويشير إلى جمالهم

وروحهم ، وأشكالهم الضخمة ، وفيض النور الذي شاع من أسلحتهم السماوية ، وجلدهم على تعريض أنفسهم لأبصار أهل الأرض وأسماعهم ، وتصريحهم بأنهم أرسلوا وأنهم طاروا لنجدة قسطنطين العظيم . ويهيب الخطيب الوثني يأمة الغال بأسرها ، التي كان يخطب في حضرتها أن تصدق هذه الكرامة ، يحدوه الأمل ، فيما يبدو ، في أن تحظى الآن الرؤى السابقة بشيء من التصديق والاهتمام من هذا الحادث الجديد العام . أما خرافة يوسوبوس المسيحية ، والتي ربما نُبعت على مدى ستة وعشرين عاما ، من نفس الحلم الأصلي ، فقد صيغت في شكل أصح وأرشق ، فقد ذكر أن قسطنطين في إحدى مسيراته رأى رأى العين النصب التذكاري المضي للصليب موضوعا فوق شمس الظهيرة . وقد نقشت عليه هذه العبارة : « بهذا فلتغلب » . وادهش هذا الشيء المذهل في السماء كل الجيش بأسره قدر ما أدهش الإمبراطور نفسه . الذي لم يكن قد استقر رايه بعد على اختيار دين . ولكن رؤيا الليلة التالية حولت ذهنه الى ايمان . فقد ظهر المسيح لنظريه ومعه علامة الصليب السماوية نفسها . وأمر قسطنطين أن يصنع راية شبيهة بهذه العلامة ، وأن يسير ، موقنا بالنصر ، الى ملاقاته نكسنتيوس وسائر أعدائه — ويبدو أن أسقف فيضرية العلامة رأى أن الكشف عن هذه القصة الخارقة آنذاك (في وقت متأخر) سوف يثير الدهشة والريبة في نفوس أشد قرائه تقى وورما . ولكن ، بدلا من تحديد الظروف الدقيقة للزمان والمكان ، التي تنبأ دائما في اظهار ملايح الكذب أو جلاء وجه الحق ، وبدلا من أن يجمع ويسجل أدلة كثير من شهود العيان الأحياء الذين لا بد أنهم رأوا رأى العين هذه المعجزة الفذة ، يكتفى يوسوبوس بدليل غشاية الغرابة ، يزعمه من عنديحه ، فهو يدعى أن الإمبراطور الراحل قسطنطين ، بعد عدة أعوام من هذه الواقعة انطلق معه في الحديث ، مروى له قصة هذا الحدث الفريد في حياته ، وأكد صحته بأغلب الأيمان . وأثبت على الخبر العلامة غطنته وعرفاته للجبل أن يشك في صدق سيده الظافر ، ولكنه يشير في صراحة ووضوح ، الى أنه لزاما عليه أن يرفض التسليم بحقيقة من مثل هذا النوع اذا جاءت من مصدر غير وثيق ، ولكن بواعث التصديق لم تعبر بعد أن دالت دولة أسرة فلافيوس ، أما العلامة السماوية التي ربما سخر منها الزنادقة فيما بعد ، فقد أغفلها المسيحيون في العصر الذي تلا حصول قسطنطين بمباهرة . ولكن الكنيسة الكاثوليكية في الشرق والغرب معا ، تبنت علامة تلتئم ، أو يبدو أنها تلتئم مع عبادة الصليب التي يمارسها الناس .

واحتلت رؤيا قسطنطين مكانا مرموقا في أساطير الخرافة ، حتى
تجلست روح النقد الجريئة الحكيمة على أن تغض من قدر الامبراطور
المسيحي الأول وتناقش صدق روايته .

تعميد قسطنطين

يميل قراء العصر الحاضر من البروتستانت والفلاسفة الى الاعتقاد
بأن قسطنطين ، في روايته عن تحوله الى المسيحية ، أقر بهتانا صارخا
ببين ضومس رهيبة متعبدة . وقد لا يترددون في القول بأنه في اختيار
الدين كان مسوقا بوازع من مصلحته ، وأنه (على حد تعبير شاعر
بلحد) قد استخدم مذابح الكنيسة بمثابة سلم مناسب يرقى به الى
عرش الامبراطورية . ومهما يكن من امر ، فان معرفتنا بالطبيعة البشرية
وقسطنطين وبالمسيحيين لا تسيع الجزم بمثل هذه النتيجة القاسية
المطلقة . فالمحوظ في عصر تسوده الحمية الدنيوية ، ان أكثر الناس
دهاء يستشعرون شيئا من الحاس الذي يبتونه في الناس ، على حين
يتخذ أكثر القديسين استقامة لأنفسهم تلك الميزة الخطيرة ، ميزة الدفاع
من قضية الحق بأسلحة الغش الباطل . وجدير بالذكر ان المصلحة
الشخصية كثيرا ما تكون مقياس ايماننا ومقياس عملنا وتصرفنا ، على
حد سواء . وعلى هذا من الجائز ان نفس بواعث المنفعة الدنيوية التي
وجهت سلوك قسطنطين واعماله العامة ، جنحت به ، دون ان يحس ،
الى اعتناق ديانة تلتئم مثل هذا الائتام مع شهرته ومصيره وحظه . وقد
أرضى غروره التوكيد المقرون بالملق بأن السباء قد اختارته ليحكم
الأرض . وكان في نجاحه ما يبرر حقه المقدس في العرش . وكان هذا
الحق مرتكزا على صدق الوحي المسيحي . وقد يثير المذبح الذي يكال
بغير حق في بعض الأحيان ، فضيلة أصيلة حققة ، فاذا كان ورع
قسطنطين في البداية مجرد تمويه ظاهري ، فان هذا الورع الموه ربما
تحول يوما بعد يوم ، تحت تأثير الاطراء والتمود والاقتداء ، الى ايمان
جدي واخلاص حار . واجيز لأسكنة الطائفة الجيدة ومعلميها الذين
لم تكن آداب سلوكهم ولا ملابسهم تؤهلهم للارتفاع الى مقام الحاشية ،
ان يجلسوا الى المائدة الامبراطورية ، وتسلط أحدهم ، وهو مصري
أو أسباني ، على عقل الامبراطور بشكل اعتبره الوثنيون ضربا من
السحر ، وأصبح لكتانتيوس الذي دبح تعاليم الانجيل ببلاغة شيسرون ،
ويوسوبوس الذي سخر علم اليونان وفلسفتهم لخدمة الدين ، صديقين
اليفين لملكهما ، وارتفعت الكلفة بينه وبينهما . واستطاع هذان العالمان ،

على ما بينهما من تفاوت ، أن يتحمينا في جلد وصبر ، اللحظات الهائلة
المواتية للاقتناع والاعراء ، ليدليا في حلق وبراءة يكثر الحجج تناسبا
مع خلق الامبراطور وادراكه . ومهما يكن من أمر المزايا التي يمكن
الظفر بها من الفوز بمهتد امبراطوري ، فإنه لم يكن يتميز عن الآلاف
المؤلفة من رعاياه الذين اعتنقوا العقيدة المسيحية الا بالحلة الامبراطورية
اكثر منه بالتفوق في مجال الحكمة والفضيلة . وقد لا يكون من غدير
المعقول أن يستسلم عقل جندي غير متعلم لقيمة الدليل الذي أقتنع
أو أخضع ، في عصر أكثر استنارة ، منطق أو عقل جروشيسوس أو
بسكال أو لوك . وفي زحمة المهام المتلاحقة لمنصبه الخطير ، قضى هذا
الجندي ، أو تظاهر بأنه يقضى ، ساعات الليل في دراسة واعية للكتاب
المقدس ، وفي اعداد الأحاديث اللاهوتية التي كان يدلي بها بعد ذلك
الى جمهور المستمعين المادحين المصفقين . ويطنب الواقع المسكى في
حديث طويل له ما يزال باقيا حتى الآن ، في ذكر مختلف البراهين الدينية ،
ولكنه يضرب في ارتياح خاض ، على نغم اشعار العرافة سيبييل
(Sibyl) وعلى نشيد الرعاة الرابع من أناشيد فرجيل ، فإن شاعر
مانتوا هذا (Mantua مدينة في شمال إيطاليا مسقط رأس فرجيل) —
قبل ميلاد المسيح بأربعين عاما — شاد ، وكأنه استلهم أفكار اشعيا
السماوية (أحد أنبياء بني اسرائيل في القرن الثامن قبل الميلاد) في
نخامة لغة الشرق واستعاراتها — شاد بعودة الصنراء ، وموت
الثعبان ، واقتراب مولد طفل الهى من نسل جوبيتر العظيم يكفر من
آثام البشر ، ويحكم الكون الهادئ بفضائل أبيه ، كما شاد بفنشاء جنس
سباوى ، وظهور أمة بدائية تنتشر في كل بقاع العالم ، وأخيرا باستعادة
براة العصر الذهبي وهناعته يوما بعد يوم ، ومن الجائز أن الشاعر لم
يدرك المعنى والمضمون الخفيين لهذه التنبؤات السامية ، التي انصرفت ،
بغير حق الى طفل من أبناء القنصل أو أحد الحكام الثلاثة (يشير الى
قسطنطين) ولكن اذا كان تفسير أكثر روعة وتوحيها للنشيد الرابع ،
قد ساعد على تحول قسطنطين الى المسيحية ، لاستحق فرجيل أن
يوضع في مصاف أعظم الذممة الى الانجيل نجاها وتوحيها .

واخفيت الأسرار الرهيبة للديانة والعبادة المسيحية عن عيون
الغريب ، بل حتى عن طالبى المعمودية في تكتم أفلح في إثارة دهشتهم
ومضولهم . ولكن القواعد الصارمة للنظام الذى اقتضت فطنة الأساقفة
وضعه ، تراخت مع نفس القدر من الفطنة من أجل الامبراطور المهتدى ،
الذى كان من الأهمية بمكان اغراؤه بكل ملاطفة وديعة للدخول في

حظيرة الكنيسة . وأصبح قسطنطين على الأقل بمقتضى فتوى مسينية صامتة : أن يتمتع بمعظم امتيازات الرجل المسيحي قبل أن يتقيد بشيء من التزاماته . وبدلاً من مغادرة الجحيم إذا ارتفع صوت الشياطين إذا ما بانصراف الجيهنوز النفس ، صلى هو مع المؤمنين ، وجادل الأساقفة ، ووعظ في أشد موضوعات اللاهوت تعقيداً وثقة ، واحتفل بالشعائر المقدسة في ليلة عيد الفصح ، ولم يعلن أنه مجرد « متناول » أو مشارك ، بل أعلن نفسه — إلى حد ما — كاهناً أو قسيساً ضليعاً في الأسرار المسيحية . وربما اقتضى غرور قسطنطين بعض التمييز الخارق ، وقد استحققت خدماته هذا التمييز ، وكان من الجائز أن تعصف الصرامة — إذا عومل بها في غير أوانها — بفمار تحوله التي لم تنضج بعد . وإذا أحكم إغلاق أبواب الكنيسة في وجه أمير هجر مذابح الآلهة ، لبسات سيد الإمبراطورية عاطلاً عن أى لون من ألوان العبادة الدينية : وفي آخر زيارة له لمدينة روما ، أنكر الإمبراطور عقيدة آبائه وأجداده وامتنعها ، حين رفض أن يتصدر موكب الفرسان العسكري ، وأن يقدم الفذور العمة للاله جوبيتر في الكابيتولين . وقبل تعيد قسطنطين ووفاته بنعدة أعوام ، أعلن على الملأ أن شخصه أو رسمه لن تقع عليه العين بعد الآن داخل أى معبد وثني ، وفي نفس الوقت وزع على الولايات مجموعة من الميداليات والصور التي تمثل الإمبراطور في وضع متعبد مسيحي يتذلل ويبتهل .

وإنه ليصعب تفسير أو تبرير كبرياء قسطنطين الذي أبى أن ينعم ببركة المعبودية . ولكن يمكن تبرير الإبطاء في تعميده ، بقواعد الكنيسة القديمة وطقوسها . وكان الأسقف ، مع معاونيه من الأكليروس ، يقوم بنفسه بإجراءات التعميد في أوقات منتظمة في الكنيسة الكاتدرائية في الأسقفية ، في الخميسين يوماً التي تقع بين الاحتفالات المهيبة بعيد الفصح وعيد العنصرة . وكانت هذه الفترة المقدسة تفسح المجال لضم كثير من الأطفال والبالغين إلى أحضان الكنيسة ، وكثيراً ما اقتضى حزم الأباء تأجيل تعميدهم إلى أن يستطيعوا فهم الالتزامات التي تقيدوا بها ، كما غرض تشدد الأساقفة على المتحولين الجدد قضاء فترة اختبار وتجربة تمتد إلى عامين أو ثلاثة أما طالبو الدخول في النصرانية أنفسهم ، فقلما كانوا غيورين على اتخاذ شخصية المسيحي الكامل المثبت ، وذلك نتيجة بواعث مختلفة دنيوية وروحية ، وكان المفروض أن يتضمن التعميد قضاء تاماً مطلقاً على الذنوب ، وعودة النفس في الحال إلى نقاوتها الأصلية الأولى ، وجدارتها بالوعد بالخلاص الأبدى . ورأى عدد كبير من بين المهتدين إلى المسيحية أنه ليس من الحكمة

التعجيل بشعيرة نافعة. لا يمكن تكرارها ، وأن يهملوا ميزة لا قيمة لها ، ولا يمكن استرجاعها . فانهم يتأجل تعميدهم يستطيعون ، في حرية ويسر ، أن يشبعوا شهواتهم وينغمسوا في متاع الدنيا . على حين يحتفظون في أيديهم بوسيلة الغفران الميسور (١) . وكان أثر نظرية الانجيل السامية على قلب قسطنطين أضعفت منه على إراكه وفهمه . كذلك جريا وراء مطعمه الكبير سبيل السياسة والحرب المتتوية المظلمة الملتصقة بالدم ، وأسلم نفسه ، بعد النصر ، إلى المغالاة في استغلال حظه استغلالا سيئا في سرق بالغ . وعموما عن تؤكد نفوذه الحق على بطولة تراجان والأتولونيين المتوجهة المتصبة وعلقتهم الوثنية الدنسة ، فقد قسطنطين عتقا تقدمت سنة تلك الشهرة التي كان قد ظهر بها أيام شبابه . وكلما تقدمت به الأيام في الوقت على جواهر الحقيقة ، هبط بنفس القدس تغلقه بأهداب التقية . وتلطخت نفس النسلة من حكمه التي دعا فيها إلى عقد مجلس نيقية ، بإعدام أكبر أبنائه ، أو قل ذبحه . وهذا التاريخ وحده كاف لدحض مزاعم زوسيموس الجاهلة الخبيثة ، الذي يؤكد ، أنه يعد موت كرسبوس ، هظن أبوه من آباء الكنيسة المسيحية ، لقاء ما أحس من وخز الضمير ، بالغفران الذي كان قد التمسه عبثا من الأبرار الوثنيين . وعند وفاة كرسبوس لم يعد الإمبراطور يستطيع التردد في اختيار ديانة ، ولم يعد يجهل أن لدى الكنيسة علاجا أكيدا ، ولو أنه ارتأى أن يؤجل استخدامه حتى يحول دنو أجله دون الإغزاء بالانتكاس ودون خطره . وتأثر الأساقفة الذين دعاهم في مرضه الأخير إلى قصر نيوميديا بالحبية التي طلب وتناول بها أسرار التعميد ، وبتصرّحه المهيب بأنه سيقضى البقية الباقية من عمره في حياة جدية بتقليد المسيح ، وبرفضه المقرون بالتواضع أن يلبس الحلة الإمبراطورية ، بعد أن كان قد تدشّر في رداء المبتهلين (في المسيحية) وشجعت شهرة قسطنطين والاقتداء به ، فيها يبدو ، على

(١) لم يستطع آباء الكنيسة الذين يميّزون على هذا الإطباء الاثنا عشر أن ينكروا المفهوم الأكيد الناجع للتعبد على فراش الموت . ولم . تصغر . بلافة كريسستوم (يوحنا الذهبى) Chrysostom المأذنة إلا من ثلاث حجج فقط حسب هؤلاء المسيحيين الحكماء : ١ - أنه ينبغي أن نصب الفضيلة نفسها ، لا من أجل ما يعود علينا من نفع فقط . ب - أنه من المحتمل أن نفاجا بالموت دون أن يكون هناك مجال للتعبد . ج - وأنه رغم أننا سوف نتخذ مكاننا في السماء ، فأننا سنفارق فيها مثل الدجوج الصغيرة فحسب بالمقارنة إلى شمعوس البررة الصالحين . الذين قضوا أجلهم المضروب مقرونا بالعمل والتوفيق والمجد . واعتقد أن تأجيل التعبد ، مهما أسفر عن نتائج وخيمة إلى أبعد حد ، لم يعاقب عليه أى مجلس عام أو أى من مجالس الولايات ، أو أى قانون عام أو إعلان من الكنيسة . وما أنصر ما ثارت غيرة الأساقفة في مناسبات آتية من هذه بكثير !

تأجيل التعميد ، فتشجع الطفافة الذين جاعوا بعده على الاعتقاد بأن الدماء البريئة التي يسفكونها أثناء حكمهم الطويل سوف تغسلها على الفور مياه التعميد وما يصبح من تجديد القلب ، ومن ثم حطم سوء استفلال الدين أسس الفضائل الأخلاقية تحطيا خطيرا .

أقرار المسيحية بمقتضى القانون

مجد هرمان الكنيسة وامتنانها فضائل نصيرها الكريم واغضى عن سقطاته ، وهو الذى رفع المسيحية على عرش العالم الرومانى . وقبلها ذكر اليونانيون الذين يحتفلون بعيد القديس الامبراطورى ، اسم قسطنطين ، دون أن يضيفوا اليه لقب « المساوى للرسول » . ويجب ارجاع مثل هذه المقارنة ، ولو أنها تشير الى خلق هؤلاء المبشرين الالهيين ، الى الاسراف فى الملق الذى يتسم بالاحاد والكفر . ولكن اذا كانت المقارنة مقتصرة على مدى انتصارات قسطنطين الدينية وعددها ، فربما تعادل نجاح قسطنطين مع نجاح الرسل انفسهم ، فسقد ازال بتوانين التسامح تلك العقبات الدنيوية التى عرقت حتى ذلك الحين تقدم المسيحية . وظفر دعايتها الجادون الكثيرون بترخيص مبالغ وشجيع كريم على التبشير بحقائق الوحي الناجمة بكل حجة تنفذ الى عقول البشر ، وتهز جانب التقوى والايمان فيهم . ولم يدم التوازن الدقيق بين الديانتين الا قليلا . فسرعان ما اكتشفت عين الطبع والشره الفاحشه النافذة ان الاعتراف بالمسيحية وبما أسهم فى تحقيق المصالحة فى هذه الحياة الدنيا وفى الحياة الآخرة على حد سواء . فان الأمل فى الثروات والأبجاد ، والنموذج الذى يروونه فى شخص الامبراطور ، وانسانيته وتحذيراته ، وإبتساماته التى لا تقاوم ، أشاعت الاقتناع بين الحشود السهلة الانقياد الخائفة التى تملأ عادة أبهاء القصر . اما المدن التى كان لها نصيب السبق فى اظهار غيرتها بتدمير معابدها ملوادية واختيارا ، فقد اختصت ببعض المزايا البلدية ، وكوفئت بالمعالي المألوفة ، كما كرمت عاصمة الشرق الجديدة ببيزة مريدة ، تلك هى ان القسطنطينية لم تدنس قط بعبادة الأوثان . ولما كانت غريزة المحاكاة تسير على عقول الطبقات الدنيا من المجتمع ، فان الجواهر التابعة المعتمدة على غيرها سرعان ما تحذو حذو من يتميزون بكرم المولد أو بالقوة والسلالة او بالثراء . وقد أشتري « خلاص » عامة الشعب بمعدل ميسور ، اذا كان صحيحا ما قيل من ان نحو اثني عشر ألف رجل قد عمدوا (بضسم العين وتشديد الميم مع كسرهما) فى روما فى سنة واحدة ، فضلا عن عدد يتناسب معهم من النساء

والأطفال ، وإن الامبراطور وعد كل متحول الى المسيحية برداء أبيض وعشرين قطعة ذهبية . ولم ينحصر أثر قسطنطين القوي في المناطق الضيق لحياته أو ممتلكاته . فان التربية التي وفرها لابنائه وابناء اخوته قد زودت الامبراطور بطراز من الأمراء السذج كان ايمانهم ما زال أكثر حيوية وانخلاصا لانهم لفتوا في صباهم المبكر روح المسيحية أو على الأقل نظيرتها . ونشرت الحروب والتجارة والمعرفة بالانجيل الى ما وراء حدود الولايات الرومانية ، وسرعان ما تعلم المتبربرون ، الذين كانوا قد احتقروا من قبل فئة ذليلة مشردة (المسيحيين) - أن ينظروا بعين التقدير والاجلال الى ديانة اعتقها مؤخرًا أعظم ملك ، وأعظم أمة حضارة في الكرة الأرضية . ويجل القوط والالمان الذين انضموا تحت لواء روما - بجلا الصليب الذي تألق فسوق رموس الجنود ، وفي نفس الوقت تلقى مواطنوهم المتوحشون دروس الايمان والانسانية . وعبد ملوك ايبيريا وأزجينا اله حاميهم (الامبراطور) وسرعان ما كون رعياهم - الذين تمسكوا بالمسيحية ، بدرجات متفاوتة - علاقة مقدسة دائمة مع اخوتهم الرومان . واتهم مسيحيو مارس ، وقت الحرب ، بابتزازهم دينهم على بلدهم ، ولكن تدخل قسطنطين كان يحد من روح الاضطهاد عند المجوس طالما استتب السلام بين الامبراطوريتين . وأضاء نور الانجيل ساحل الهند ، وقاومت مستعمرات اليهود الذين كانوا قد توغلوا الى قلب بلاد العرب واثيوبيا ، قاومت تقدم المسيحية . ولكن سر مهمة المبشرين الى حد ما سابق معرفتهم بالوحي المنزل على موسى . وما تزال اثيوبيا تمجد ذكرى فرومونتوس Frumentius الذي نذر حياته للتبشير بالمسيحية وتنصير هذه الأقاليم النائية المنعزلة . وفي عهد ابنه قسطنتيوس ، منح تيوفيلوس Theophilus - وكان من أصل هندي - لقب السفير والأسقف معا . فأبحر عبر البحر الأحمر ، ومعه مائتا جواد من أكرم جباد كابادوكيا ، هدية من الامبراطور الى أمير سبأ (أو حير) . وحمل تيوفيلوس هدايا أخرى كثيرة ، نافعة أو غريبة ، مما قد يثير إعجاب المتبربرين ، ويوطد أواصر الصداقة معهم . وقضى عدة سنوات في زيارة لهذه المنطقة الحارة حيث تعد الكنائس هناك ، وقد حاله التوفيق في هذه الرحلة .

وتجلت قوة الأباطرة الرومان التي لا يمكن دفعها في التغيير الهام الخطير الذي حدث في الديانة الوطنية ، وأخرست فرق الجيش بما نشرت من ألوان الارهاب تلك الصيحات الخافتة التي لا سند لها ، والتي انبعثت من بين الوثنيين . وكان هناك ما يحل على توقع امتثال رجال الدين المسيحي والشعب ، امتثالا مقرونا بالابتهاج ، صادرا من

اعباق نفوسهم نابعا من امتنانهم وعرفاتهم . ونص في الدستور الروماني منذ ذلك التاريخ على مبدأ أساسي . هو أن كل المواطنين الرومان على اختلاف مراتبهم يخضعون للقوانين ، وأن رعاية الدين حق لكل حاكم مدني ، وواجب عليه ، سواء بسواء . ولم يستطع قسطنطين وخطاؤه أن يقتنعوا أنفسهم بسهولة أنهم فقدوا بتحولهم أي لون من الامتيازات أو الحقوق الامبراطورية ، أو أنهم عاجزون عن سن القوانين للديانة التي بسطوا عليها جهلهم واعتقوها . فظل الاباطرة يمارسون ولايتهم العليا علي النظام الكنسي ، وفي الكتاب السادس عشر من مجموعة قوانين ثيودوسيوس ، وتحت عنايات كثيرة تمثل السلطة التي فرضها الاباطرة لانفسهم في حكم الكنيسة الكاثوليكية .

التمييز بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية

ولكن الاقرار القانوني للديانة المسيحية اوجد تمييزا بين السلطتين الروحية والزمنية وثبت اصوله ، وهو امر لم يسبق قط لمرسه على اليونان وروما اللتين تاصلت فيهما روح الحرية ، فان وظيفة الحبر الأعظم التي كان يشغلها دائما منذ عهد نوما Numa الى عهد أوغسطس اعضاء السناتو البارزون ، اسندت آخر الامر الى السدة الامبراطورية . وطالما كان حاكم الدولة الاول مسوقا بوازع من الخرافة (العتيقة) او السياسة ، فانه أدى بيديه المهام الكهنوتية ، ولم يكن ثمة في روما او في الولايات نظام كهنوتي ادعى لنفسه شخصية اكثر قداسة من الناس ، أو اتصالا اعظم وثقا بالآلهة . ولكن في الكنيسة المسيحية حيث عهد بخدمة المذبح الى طائفة دائمة متدرجة من القساوسة ، فان الملك أو الحاكم الذي تقل مرتبته شرما عن أحقر شماس ، كان يجلس تحت قضبان المحراب ، مختلطا بجمهور المؤمنين ، وقد يؤدون التحية للامبراطور بوصفه ابا لشعبه . ولكنه كان يدين بواجب البتوة والاحلال لأباء الكنيسة ، وسرعان ما تطلب فرور الأساقفة لانفسهم واجبات التبجيل التي كان يؤديها قسطنطين للتديسين والمعلمين . ومن ثم دب صراع خفي بين الاختصاصات المدنية والكنسية ، نشأ عنه ارتباك مدير الأمور في الحكومة الرومانية . وذعر امبراطور ورع ايما ذعر لما ينطوي عليه لمس تلوث العهد بيد دنسة ، من وزر وخطر . والحق أن تقسيم الناس الى روحانيين وعلمانيين كان امرا معروفا لدى كثير من الأمم القديمة ، واستمد الكهنة في الهند وفارس وآشور واسرائيل والحبشة ومصر والغال سلطتهم الدنيوية وممتلكاتهم التي اقتنوها من اصل

سماوي . وكانت هذه النظم الوقورية قد كملت نفسها في أخلاق وحكومة البلد الذي عاش فيه كل منها . ولكن مغارضة البسطة المدنية أو احتقارها أهل في تدعيم نظم الكنيسة الأولى . واضطر المسيحيون إلى اختيار حكاهم ، وتحديد دخل معين وتوزيعه ، وتنظيم السياسة الداخلية لجماعتهم من طريق مجموعة من القوانين اقترتها موافقة الشعب عليها ، كما دعمتها تجربة دامت ثلاثة قرون . فلما اعتنق قسطنطين المسيحية ، عقد فيما يبدو ، مع هذا المجتمع المتميز المستقل تحالفا دائما ، ولم يؤخذ الامتيازات التي منحها الامبراطور أو ثبتها ، على أنها مظاهر عطف مزعزع من قبل العامة ، بل على أنها حقوق أساسية للنظام الكنسي .

وكان ألف وثمانمائة أسقف يديرون الكنيسة الكاثوليكية ، بما لهم من ولاية روحية وقانونية . منهم ألف في الولايات اليونانية ، وثمانمائة في الولايات اللاتينية في الامبراطورية . وتفاوتت سعة كل أسقفية وحدودها ، أو تقررت مرضا ، تبعا لغيرة الرساليات الأولى ودرجة نجاحها ، وتبعا لرغبات الشعب ، وتبعا لمدى انتشار الانجيل . وأقيمت الكنائس الأسقفية متقاربة على ضفاف النيل ، وساحل البحر في أفريقية ، وفي مناطق آسيا الخاضعة للبروقنصل الروماني ، وفي الولايات الجنوبية من ايطاليا . وسيطر الاساقفة في الغال واسبانيا وراقيا وبلاد بنطس على رقعة كبيرة ، وفوضوا وكلاءهم الريفيين في القيام بصغرى مهام راعي الكنيسة . وقد تستوعب الأسقفية المسيحية ولاية بأسرها ، وقد تهبط إلى نطاق قرية ، ولكن شخصية الأسقف في كل الأحوال كانت متكافئة لا تتغير . فقد استبحوا جميعا نفس السلطات والامتيازات من الرسل ومن الشعب ومن القوانين . وفي الوقت الذي اقتضت فيه سياسة قسطنطين فصل الوظائف المدنية والعسكرية ، قام في الكنيسة والدولة نظام جديد ثابت لموظفين كنسيين كانوا دوما موضع احترام ، وكانوا أحيانا مصدر خطر . ويمكن ادراج الاستعراض الهام لأوضاعهم وصفاتهم تحت الأقسام الآتية : ١ - الانتخاب الشعبي ، ٢ - رسالة رجال الدين ، ٣ - الممتلكات ، ٤ - الاختصاص المدني ، ٥ - الجزاءات الروحية ، ٦ - ممارسة الوعظ العام ، ٧ - امتياز المجالس التشريعية .

١ - قادت جرية الانتخاب بعد إقرار المسيحية من الوجهة القانونية بوقت طويل ، وتمتع الرعايا الرومان في الكنيسة بالميزاة التي منحوها في الجمهورية ، إلا وهي اختيار الحكام الذين ألزم الإنس

بطاعتهم ، وما أن أطبق أى أسقف عينيه وقضى نحيبه حتى أصدر المطران أمره الى أحد الوكلاء أو معاونين يشغل المكان الشاغر ، والاعداد للانتخابات المقبلة في وقت معين . ومنح حق التصويت لرجال الدين من الدرجات الدنيا . وهم أقدر على الحكم على جدارة المرشحين ، ولشيوخ السناتور واثراف المدينة ، ولكل من اشتهروا بمكانتهم أو ثروتهم ، واخيرا لجمهور الشعب الذين تدفقوا في الموعد المضروب أفواجا من اقصى اركان الإبرشية ، فأخرسوا أحيانا بصيحاتهم الصاخبة صوت العقل وقواعد النظام . وربما استقرت هذه الصيحات عرضا على شخص أجدر المتنافسين من شيخ معمر أو ناسك مقدس ، أو رجل علماني اشتهر بغيرته وتقواه . ولكن السعى الى الفوز بالكرسی الأسقفى ، وخاصة في المدن الكبيرة والغنية في الإمبراطورية ، كان سميا وراء المكائنة الدنيوية أكثر منه التماسا للمنزلة الروحية . ولكن الآراء المخترقة ، وعواطف الأمانة الثائرة وأمانين الغدر والنفاق ، والفساد الخفى ، وأعمال العنف السافرة ، بل الدنيوية ، تلك التي أهدرت حرية الانتخاب في جمهوريات اليونان وروما قديما ، كثيرا ما أثرت في اختيار خلفاء الرسل والحواريين . وبينما فاضر أحد المرشحين بأجداد أسرته ، بهر الآخر أبصار ناخبيه بأطاييب مائدته العابرة ، وعرض ثالث ، وهو أكبر منافسيه وزرا ، أن يقتسم أسلاب الكنيسة مع المواطنين معه في أمانيه الدنسة . وحولت القوانين المدنية والكنسية معا أن تستبعد جمهور الشعب من هذه العملية الخطيرة الهامة . وحدت قواعد النظام القديم ، والمركز . . وغيرها - حدث من نزوات الناخبين التي لا تميز الخبيث من الطيب . واستخدم أساقفة الولايات الذين تجمعوا في كنيسة الأسقفية الشاغرة لمباركة اختيار الشعب - استخدموا نفوذهم للتطليق من أهواء الناخبين ، وتصحيح أخطائهم . وكان الأساقفة يستطيعون الامتناع عن رسامة أى مرشح غير جدير بالمنصب ، وارتفعت الأحزاب المتصارعة الغاضبة وساطتهم النزيهة أحيانا . وخلق استسلام الكليروس والشعب أو مقاومتهم ، في هذه المناسبة أو تلك ، سوابق متباينة ، تحولت بطريقة غير ملحوظة الى قوانين ايجابية نافذة ، والى أعراف وتقالييد في مختلف الولايات . ولكن كان من المسلم به في كل مكان ، كتقاعدة أساسية في السياسة الدينية ، أنه لا يجوز فرض أى أسقف على كنيسة تنهج الطريق القويم دون موافقة أعضائها . وربما أبدى الأباطرة بوصفهم حراسا على السلام العام ، وبوصفهم المواطنين الأوائل في روما وفي القسطنطينية ، رغبتهم بطريقة فعالة في اختيار رئيس الأساقفة ، ولكن هؤلاء الملوك

المستبددين احتراموا حرية الانتخابات الكنيسة . وبينما وزعوا أو استردوا
أيجاد الدولة والجيش ، نراهم أباحوا لآلاف وثمانمئة حاكم دائم
(أسقف) أن يتولوا مناصبهم الهامة عن طريق الاقتراع الشعبى الحر .
وكان مما ينفق مع قواعد العدالة ألا يتخطى أى من هؤلاء الحكام
(الأساقفة) عن منصبه الرفيع الذى لا يمكن عزله منه . وحاولت
حكمة المجالس دون أن تصيب نجاحا كبيرا ، أن تفرض إقامة الأساقفة
وأن تمنع نقلهم . وكان النظام فى الغرب فى الواقع أقل تراخيا منه فى
الشرق ، ولكن نفس الأهواء التى جعلت من هذه القواعد أو التعليمات
ضرورة حتمية ، أفقدتها فعاليتها . أن المثالب والسباب التى كالبها
الأخبار الفاضبون بعضهم لبعض فى حدة وعنف ، أنها تكشف عن
وزرهم المشترك وعن نزقهم المتبادل .

٢ - اختص الأساقفة وحدهم بهوابة التناسل الروحي ، وربما
عوضت هذه الميزة اللذة الى حد ما - عن العزوبة الالهية التى فرضت
عليهم بوصفها مفضلة وواجبا ، والتزاما ايجابيا آخر الأمر . ان الديانات
القديمة التى أنشأت نطاقا كهنوتيا منفصلا ، خصصت مشيرة مقدسة :
قبيلة أو أسرة ، تتولى الخدمة الدائمة للآلهة . وقد أقيمت هذه النظم
للملك أكثر منها للغزو ، وتمتع أبناء الكهنة بالطبائفة المزهوة الخاملة
بميراثهم المقدس ، وخففت من روح الحراسة الملتزمة هموم الحياة
المنزلية وملذاتها وعلاقات الحب والاعزاز فيها . أما المحراب المسيحى
فكان ملتوحا أمام كل طارق طامع بملطف على ما يقترن بالمحراب من وعود
سماوية أو متاع دنيوى . ان وظيفة القسيس ، مثل الجندى والحاكم ،
كان يقوم عليها فى جد وحساس أولئك الرجال الذين هياتهم طباعهم
وقدراتهم لتأدية المهام الكنيسة ، أو الذين اختارهم الأسقف البصير
على أنهم خير أهل لرفع شأن الكنيسة وتأمين مصلحتها . وكان
الأساقفة (حتى حدث فطنة القانون من سوء الاستغلال) يكبحون
جهاح الأبقين النافرين ويفرجون ضيق المكروبين ، وكانت بركة أيديهم
تفيض دائما ببعض من أعظم مزايا المجتمع المدنى ، وأعفى رجال الديانة
الكاثوليكية جسيما ، وربما كانوا أكثر عددا من الفرق العسكرية ، أعفوا
بأمر الإمبراطرة ، من كل الخدمات الخاصة أو العامة ، ومن كل الأعمال
البلدية ، ومن كل الضرائب والتبرعات الشخصية ، تلك التى كانت
عبئا ثقيلا لا يحتفل على سائر مواطنيهم ، واعتبر قيامهم بمهمتهم المقدسة
وفاء كاملا بالتزاماتهم نحو الدولة . وطلب كل أسقف بحقه المطلق الذى
لا يمس فى امتثال الكاهن الذى رسمه امتثالا دائما له ، وشكل رجال
الاكليروس فى كل كنيسة أسقفية مع الأبرشيات التابعة لها مجتمعا

منتظما ثابتا . واحتفظت كاتدرائيتا القسطنطينية (١) . وقرطاجة ببيزة خاصة هى تعيين خمسمائة موظف كنسى . وتضاعفت مراتبهم وأعدادهم بطريقة غير ملحوظة نتيجة الخرافة التى سادت فى ذلك الزمان ، والتى أقحمت على الكنيسة احتفالات المعبد اليهودى أو الوثنى الفخمة . وأسهم ركب طويل من القسس والشمامسة ووكلائهم ، والسخنة وحملة المباخر والقراء والمنشدين والبوابين - أسهموا جميعا ، كل بدرجته فى إبهة العبادة الدينية وانسجامها ، وامتد لقب الكاهن وامتيازه الى كثير من الاخوة الأتقياء الذين دعموا عرش الكنيسة فى اخلاص وحاس ، فزار ستائة من المغامرين مرضى الاسكندرية ، وتولى الف ومائة ممن يحفرون القبور ، دفن الموتى فى القسطنطينية ، واسود وجه العالم المسيحى بأسراب الرهبان الذين انتشروا فيه واغدين من ضفاف النيل .

٣ - كفل مرسوم ميلان دخل الكنيسة كما كفل سلامتها . فسلم يسترد المسيحيون الاراضى والدور التى كانت قد انتزعتها منهم هوابين الاضطهاد على عهد نقلديانوس ، فحسب ، ولكنهم ظفروا كذلك بحق الملكية الكاملة لكل ما استحوذوا عليه حتى ذلك النعين ، نتيجة لسنن الحاكم او تفاضيه . وبمجرد أن أصبحت المسيحية ديننا بين الامبراطور والامبراطورية حق لرجال الدين الوطنيين ان يطالبوا بها يكفل لهم حياة لائقة محترمة . وكان من الجائز أن دفع ضريبة سنوية سوف يخلص الشعب من جزية اشد ظلما تفرضها العقيدة على معتنقيها . فلما رادت نفقات الكنيسة تبعا لازدهارها وانتماشها ، ظلت القرابين التى يقدمها المؤمنون تعبدا وطواعية ، تمين رجال الدين على مفاشهم ويزيد من ثرائهم . وبعد ثمانى سنين من مرسوم ميلان منح قسطنطين رعاياه ترخيصا هرا شاملا فى التوهمية بكل ثرواتهم للكنيسة الكاثوليكية المقدسة ، وربما كانت أيديهم فى حياتهم مغلولة بحكم الترف أو الجشع ولكنها فاضت فى سخاء وورع ساعة حضرهم الموت . وكان لأغنياء المسيحيين فى ملكهم أسوة حسنة مشجعة . وربما أصبح الملك المستبد المطلق الثرى الذى لم يرث الثراء ، متمدقا محسنا دون أن يكون له فضل فى ذلك . وما أيسر ما آمن قسطنطين بأنه قد يشتري رضماء السماء اذا عال الكسالى الخاملين على حساب العاملين الجادين ، فوزع

(١) ستون شيكا أو قسيسا ، مائة شماس ، أربعون شماسا ، تسعون وكيل شماس ، مائة وعشرة قراء ، خمسة وعشرون حشددا ، ومائة بواب ، والمجموع خمسمائة وخمسة وعشرون . وحدد الامبراطور هذا العدد المتواضع لتقريب كرسي الكنيسة التى تراكمت عليها الديون والربا ، نتيجة نفقات هذا العدد الضخم من التعيينات .

على القديسين أمثال الدولة . ولا ضير في أن يعهد الى الرسول الذي حمل الى افريقية رأس مكسنتيوس ، بحمل رسالة الى خاسيليان أسقف قرطاجة ، يبلغه فيها أنه ، اى الامبراطور ، أصدر تعليماته الى خزائن الولاية ليسلموه ما قيمته ثمانية عشر ألف جنيه استرليني ، وأن يمتثلوا لمطالبه فيما بعد ، لاعتانة كنائس افريقية ونونيفيا وموريتانيا . وتزايد سخاء قسطنطين بقدر ازدياد ايمانه وتفاقم رذائله . وفرض على كل مدينة أن تقدم كمية ثابتة من الغلال لتموين صندوق صدقات الكنيسة . وأصبح الرهبان والزاهبات اقرب المقرنين ثوى الخطوة ندى مليكهم . وتجلن في المعابد المسيحية في أنطاكية والاسكندرية وأورشليم مظاهر التقوى التى تتأخر بها أمير طمع في شيخوخته ، في أن يتساوى مع الأقدمين فى اعمالهم العظيمة الفائقة . وتجلت البساطة فى هذه الأبنية الدينية ، وكانت على شكل مستطيل ، ولو أنها اتخذت احيانا شكل القباب ، أو تفرعت على هيئة صليب . وكانت معظم الأخشاب من أرز لبنان ، وغطى السقف بمربعات ربما كانت من النحاس المذهب ، أما الجدران والأعمدة والأرضية فقد كسيت بالرخام الملون . وخصصت فى اسراف بالغ اثنين الحلى والزخارف من الذهب والفضة والحرير والجواهر لخدمة المذابح ، واحتفظ بأدوات هذه الأبهة الخداعة على أنها ملك ثابت دائم . وفى مدى قرنين من الزمان — من عهد قسطنطين الى عهد جستنيان — اثرت كنائس الامبراطورية البالغ عددها ألفا وثمانمائة ، بفضل الهدايا والهبات الكثيرة غيز القابلة للانتقال التى اغدقها عليها الأمير والشعب . وخصص للأساقفة دخل سنوى معقول قدره نحو ستمائة جنيه استرليني ، مما وضعهم فى منزلة وسط بين الثراء والفاقة ، ولكن ارتفع مستوى ثرائهم ، بشكل غير ملحوظ ، تبعاً لمكانة المدن التى يعملون فيها ودرجة غناها . وفى سجل للإيجارات (١) أصيل ولكنه ناقص ، حددت بعض الدور والحوانيت والحدائق والمزارع التى كانت تابعة لكنائس روما الثلاث — القديس بطرس والقديس بولس ، والقديس جون لاتيран — فى الولايات الثلاث : إيطاليا ، افريقية ، الشرق . فهى تدر — بالإضافة الى عائد محقق من الزيت والكتان والورق ، والعمود وغيرها ، بخلا سنويا صافيا قدره اثنتان وعشرون ألف قطعة من الذهب ، أو اثنا عشر ألف جنيه استرليني . ولم يعد الأساقفة فى عهد قسطنطين وجستنيان يتمتعون ، وربما لم

(١) قد يشبهه بحق فى أى سجل يصدر عن الفاتيكان . ولكن سجلات الإيجارات هذه تعمل طابع القدم والصدق . وأنه من الواضح على الأقل أنها اذا كانت زورت ، فإنها زورت فى الوقت الذى انصبت فيه مطامع البابوية على المزارع ، لا على المالك .

يعودوا جديرين بثقة اكليروسهم وشعبهم ، ثقة لا يتطرق اليها اى شك . وكانت الايرادات الكنسية فى كل اسقفية تقسم الى اربعة اقسام ، للأغراض التالية : قسم للأسقف نفسه ، قسم لرجال الدين الذين هم اقل منه مرتبة ، وآخر للفقراء ، وقسم للعبادة العامة ، وكم من مرة منح بشدة سوء استغلال هذه الامانة المقدسة . وكان ميراث الكنيسة لا يزال خاضعا لكل ما تفرضه الدولة عامة ، وربما التمس رجال الدين فى حروما بعض الامعاءات الجزئية وحصلوا عليها ولكن ابن قسطنطين بصدى بنجاح للمحاولة السابقة لاوانها التى بذلها مجمع ريمى (مدينة على الادرياتيک فى شمال شرقى ايطاليا) ، والتى كان يطمح من ورائها فى الحرية الشاملة فى التصرف .

{ — قبل رجال الدين اللاتين الذين أسسوا قضاءهم على انقراض القانون المدنى العام ، قبلوا فى تواضع ، بمثابة منحة من قسطنطين (١) ان يكونوا مستقلين باختصاصهم ، الذى كان ثمره الزمن والأحداث وثمره جهدهم الخاص ، ولكن كرم الاباطرة المسيحيين أغدق عليهم بالفعل بعض الامتيازات القانونية التى كفلت ورفعت من شأن شخصيتهم الكهنوتية (٢) .

(١) ظفر الاساقفة وحدهم ، فى ظل الحكومة الاستبدادية مميزة لا تقدر ، واكدوها ، تلك هى أنه لا يتولى محاكمتهم الا نظراؤهم فقط ، وأنه حتى فى حالة اتهامهم بالحدى الكبائر يتولى الحكم بادانتهم

(١) استنادا الى يوسويوس وسوزومين ، نستطيع ان نتأكد من ان قسطنطين وضع الاختصاص الاسقفى وثبته . ولكن جودفرى أبرز مع اعظم الارتياح مرسوما مختلفا مزورا ، لم يره ذكره بحق فى مجموعة قوانين تيودوسيوس . ومن الغريب ان يدعى مونتيكيو ، المحامى الفيلسوف صودر هذا المرسوم عن قسطنطين دون ان يساوره اى شك فيه .

(٢) احيط بموضوع الاختصاص الكنسى بسحب من النهى والتحيز والمصلحة . وقد وقع فى يدى كتابان من احسن الكتب ، اولهما « قواعد القانون الدينى » تأليف رئيس الدير الفيرى « Institutes of Canon Law » by The Abbé de Meury ، والثانى « التاريخ المدنى ل نابولى » تأليف جيسالون « The Civil History of Naples » by Giannone ، ويرجع اعتدالهما الى مركز كل منهما وطبعه . وكان فلورى من رجال الكنيسة المرميين ، وكان يحترم سلطة البرلانات . اما جيسالون فكان معاصيا ايطاليا يخشى سلطة الكنيسة . وارجو ان اشير هنا الى انه لما كانت القضايا التى اعالجها حسيلة كثير من الجمانى القوية المسورة ، فلمس امامى الا ان احيل القارىء الى هذين المؤلفين الحديثين اللذين عالجا الموضوع فى جلاء ووضوح ، او ان التوسع فى حله للملاحظات الى حد غير لائق

أو تبرئتهم مجلس (Synod) من أقرانهم فحسب . وإذا لم تستفز
مثل هذه المحكمة الكراهية الشخصية أو الشقاق الديني ، فربما كانت
موافقة بل متحيزة للنظام الكهنوتي . ولكن قسطنطين كان مقتنعا بأن
الاعفاء الخفى من العقوبة أقل وبالا من الفضيحة العلنية ، وقد تعلم
مجمع نيقيا أن يقتدى بإعلان العلم (قسطنطين) أنه إذا حاجأ أسقفا
متلبسا بجريمة الزنا فإنه لا بد أن يسدل عبايته الإمبراطورية على
الأسقف الأثم المذنب .

(ب) كان الاختصاص القضائي للأسقف امتيازاً وثيقاً في وقت بما
على طائفة الكهنة ، فقد رأى من الأليق سحب قضايها المدنية من
اختصاص القضاة الأهلين . ولم تتعرض مخالفاتهم البسيطة لعار
المحاكمة أو العقوبة العلنية . وكان الأساقفة يوقعون في قسوة معتدلة ،
العقوبة الخفيفة التي يحتلها الشباب الغض من الوالدين أو المعلمين .
ولكن إذا أدين القسيس في جريمة لا يكفى للتكفير عنها طرده من عمله
المشرف الذي در عليه خيراً ، جرد الحاكم الروماني عليه سيف العدالة
دون اعتبار لأية حصانات كنسية .

(ج) وأقر تحكيم الأساقفة بمقتضى قانون قاطع . وصدرت
التعليمات إلى القضاة بأن ينفذوا دون استئناف أو إبطاء الأوامر الأسقفية
التي كانت صلاحيتها أو قوتها تعتمد حتى هذا التاريخ على رضا
الطرفين . وربما أزال تحول الحكم أنفسهم وتحول الإمبراطورية
بأسرها إلى المسيحية ، مخاوف المسيحيين وشكوكهم يوماً بعد يوم .
ولكنهم ظلوا يلجأون إلى محكمة الأساقفة الذين اعتزوا بمواهبهم
ونزاهتهم . وطالب لأوستن الموقر Austin وهو ناعم البال ، الشكوى
من أن مهامه الروحية كان يعملها ويقطعها عليه دائماً عمل يثير الحقد
والبغضاء ، إلا وهو الفصل في المطالبة بالفضة والذهب أو الأرض
والماشية أو تملك هذه أو تلك .

(د) انتقل ما كان للمذابح القديمة من حق اللجوء إليها إلى المعابد
المسيحية ، وامتد بفضل ورع تيودوسيوس الأصغر إلى الأراضي
المقدسة المجاورة لها . ورخص للمتوسلين من الهلنيين أو حتى
المجرمين الأذلاء في التماس عدالة الإله وقساوسته ورحمتهم . وكما حال
تدخل الكنيسة الرقيق دون تعسف الاستبداد والمستبدين ، وأبقت
شفاعة الأسقف على حياة أبرز الرعايا وعلى ثرواتهم .

هـ - كان الأسقف رقيقا دائما على اخلاق شعبه . واسيع نظام العقوبات الدينية (التوبة ، الكفارة) على انه قانون كنسي ، حدد بدقة واجب الاعتراف الخاص او العلني ، كما حدد قواعد الادلة ودرجات الخطيئة ومقاييس العقوبة . وكان من المتعذر على الحبر المسيحي الذي يعاقب على خطايا الجمهور الخفية ، تنفيذ هذه الجزاءات الروحية اذا هو اقر رذائل الحاكم الفاضحة او جرائمه المخزية . ولكن كان يستحيل ان يسائل الحاكم عن سلوكه دون رقابة او اشراف على ادارة الحكومة المدنية . وعصيت بعض اعتبارات الدين او الولاء او الخوف اشخاص الإباطرة المقدسة من غير الاساقفة او سخطهم . ولكنهم كانوا يوبخون الطغاة الذين لم يحظوا بجلال الحلة الامبراطورية ويحرمونهم من الكنيسة ، فقد حرم القديس اثناسيوس يوما أحد وزراء مصر ، وبلغ هذا الحرمان الصارم بصورة رسمية الى كنائس كبادوكيا . وفي مصر تيودوسيوس الأصغر تولى سينسيوس المذهب الفصيح Synesius - وهو من نسل هركيوليز - الكرسي الاسقفى في بلساومايس Ptolemais (بالقرب من اطلال مدينة برقة القديمة) ، وقد عجز هذا الأسقف الفيلسوف مكثرة المنسب الذى شغلته كارها (١) ، بان ازاح طاغية ليبيا الجبار ، الرئيس اندرونيكوس Andronicus الذى اساء استغلال وظيفته عرضة للرشوة والفساد ، وابتدع الوانا جديدة من السلب والتمذيب ، وزاد اللين بلسة فاضاف تدنيس الاماكن المقدسة الى جريمة الظلم والجور ، وبعد محاولة عقيمة للاصلاح من شان الحاكم المتعجرف وتهذيبه في رفق ولين ، عمد سينسيوس الى انزال أقصى عقوبة في جملة العدالة الكنسية ، عقوبة تدنيس اندرونيكوس وشركاه واسراتهم بغضب الارض والسما . وهكذا حرم من شرف الاسم المسيحى او امتيازاته ، ومن الاسرار المقدسة ، والعشاء الربانى ، ومن الأمل فى الجنة - حرم من هذا كله أعتى المجرمين الذين هم اشد قسوة من فالاريوس او سفحريب ، واشد فتكا من الحرب او الوباء او اسراب الجراد . وحرش الأسقف رجال الدين والحكام والشعب ليظهروا المجتمع بأسره على أعداء المسيح ، ويقتصوهم عن دورهم وعن مواعدهم ، ويأبوا عليهم كل وثائق الحياة وشعائر الدفن المتواضعة . وتوجه كنيسة بلساومايس ، وهى المتواضعة

(١) كان سينسيوس قد اظهر من قبل عدم اهليته ، فقد أولم بالدراسات واللاهوتيات المحددة . ولم يقر على احتمال حياة العزوبة ، ولم يؤمن بالبعث . ولهم ان هذا الناسم بالفحص الخرافى ، الا اذا اتضح له ان يشتغل بالفلسفة . فى داره . وقال اذا السرا . فثاسى ملاقى حبر المذهب . هذه (سينسيوس) .

المعمورة ، هذا الاعلان الى كل الكنائس الشقيقة في العالم ، على أن يذبح الكفار الأرجاس الذين يرفضون هذه الأوامر بجريمة أندرونيكوس وأتباعه الملحدين وينالوا عقابهم . وكان في تطبيق هذا الأَرهاب الروحي على البلاط البيزنطي تدعيم للأرهاب نفسه . وتضرع الرئيس الذي يرتجف نزعاً الى رحمة الكنيسة ، وطابت نفس سليل هركيليز وقرت ميناه حين رفع من الأرض طاغية خر راکماً على قدميه . ومهدت مثل هذه المبادئ طرق النجاح للأخبار الرومان الذين داسوا بأقدامهم أعناق الملوك .

٦ - لقد خبرت كل حكومة شعبية نتائج الخطب البليغة المليئة بالحماس المفتعل ، حيث ينفذ ما يثيره من أحاسيس بسرعة الى الصدور، فيهبج أكثر الطبائع جموداً ، ويثير أعظم العقول رزاة وثباتاً ، ويتأثر كل مستمع بانفعالاته هو نفسه وبانفعالات جمهور المحيطين به . وكان انهيار الحرية المدنية قد أخرج السنة المهرجين السياسيين الشرعيين في أثينا والتربوونك في روما . ولم يكن القاء المواعظ التي تشكل - فيما يبدو - ركناً لها في العبادة المسيحية ، معروفاً في مجباتي الأقدمين ، ولم يكن صوت الخطابة الشعبية الخشن يترق أذان الملوك قط ، حتى جاء الوقت الذي امتلأت فيه منابر الإمبراطورية بالخطيباء الدينيين الذين تحلوا بمزايا لم تكن معروفة لدى أسلافهم الوثنيين . وتصدى لحجج التربيون وبلاغته بنفس أسلحته على الفور خصوم مهرة منابدون ، وربما استمدت قضية الحق والمنطق دعماً طلياناً من تصارع الأهواء المتنافرة ، وقام الأسقف . أو أي شيخ بارز وكل اليه في حذر مهمة الوعظ ، مألوف ، دون أن يخشى خطر المقاطعة أو الرد ، خطبة في الجموع الممتلئة الذين كانت الطقوس الدينية الرهيبة قد هيات عقولهم وأخضعتها . وبلغ من أمر التبعية الصارمة في الكنيسة الكاثوليكية ، أن الأصوات المنسجمة كانت تنبعث في وقت معاً من مائة منبر في إيطاليا ومصر ، إذا تولت ضبطها (١) يد عليا : يد مطران روما أو مطران الاسكندرية . وفكرة هذا النظام حسنة جيدة ، ولكن نتائجها لم تكن دوماً محمودة طيبة . فقد أوصى الوعاظ بممارسة الواجبات الاجتماعية . ولكنهم أطنبوا في تمجيد فضيلة الانصراف التام الى الرهبنة الالبيسة بالنسبة للفرد ، الحقيقة غير المجدية للانسانية جمعاء . وفضحت

(١) استخدمت الملكة اليزابيث نفس هذا التعبير ، واستخدمت نفس هذا الأسلوب إذا رغبت في الاستحواذ على عقول الشعب من أجل أي إجراء شاذ من إجراءات الحكومة . وكان خلفها يتوهم خيفة من هذه المومضات ، وكان أبته يهش بها أساساً عميقاً . « عندما تضج المناير وتقرع الطبول في الكنيسة » .

تحريضاتهم التي تتسم بطابع البر والخير ، رغبة خفية في أن يباح لرجال الدين أن يتولوا إدارة أموال المؤمنين لمصلحة الفقراء . ولوثت أسمى معاني الصفات والقوانين الالهية بمزيج عقيم من أخباث الميتافيزيقا ، والشعائر الصبغانية السخيفة والمعجزات الزائفة المصطنعة . واطنبت كل أولئك — في حماس بالغ — في ذكر الجزاء الذي يدخره الدين لمن يتصدى للمعارضين ، ويدين بالطاعة لسحنة الكنيسة . وإذا كدرت الهرطقة والمروق صفو الهدوء ، نق الخطيئة المقدسون ملبول الشقاق وربما أعلنوا العصيان . وحير الغموض أفهام مجامعهم ، والهب الفزع والسباب مشاعرهم ، فاندفعوا من المعابد المسيحية في أنطاكية والاسكندرية . وضربوا في الأرض ، موطنين النفس على ملاقاته المكاره أو على الاستشهاد . ان فساد الذوق واللغة ملحوظا بوضوح في خطابات الأساقفة اللاتين العنيفة ، ولكن خطاب جريجورى وكريستسثوم قسورنت بأروع أساليب أثينا ، أو على الأقل بأساليب البلاغة الآسيوية (١) .

٧ — كان ممثلو الدولة المسيحية يجتمعون بانتظام في الربيع والخريف من كل عام ، وقد اشاعت هذه الاجتماعات روح النظم والتشريع الكنسيين في ولايات العالم الروماني البالغ عددها مائة وعشرين ولاية . وخولت القوانين رئيس الأساقفة أو المطران سلطة استدعاء الأساقفة المعاونين في الولاية ومراجعة تصرفاتهم وتأيد حقوقهم وإعلان إخلاصهم ، الى جانب سلطته في محدد أهلية المرشحين الذين انتخبهم رجال الدين والشعب لملء الشواغر في المناسبات الأسقفية . وعقد أخبار روما والاسكندرية وانطاكية وقرطاجة ، ثم القسطنطينية فيما بعد ، الذين كان لهم اختلاس أوسع ، الاجتماعات الكبيرة التي كان يشهدها الأساقفة التابعون لهم . أما الدعوة الى عقد المجالس الضخمة أو غير العادية فكانت من حق الامبراطور وحده . فإذا اقتضت الظروف الطارئة في الكنيسة مثل هذا الاجراء الحاسم ، أصدر أمرا لا راد له بدعوة الأساقفة أو ممثلي الولايات ، مع الترخيص لهم باستعمال خيل البريد ، وصرف مبلغ كلف لتغطية نفقات رحلتهم . وفي فترة مبكرة حين كان قسطنطين حامى الكنيسة ، أكثر منه مهتديا الى المسيحية ، أحال منازعات الكنيسة الأرمينية الى مجلس آزل الذي كان يشهده أساقفة يورك وتريف وميلان وقرطاجة ورومهم استفساء واخوة ، ليناقشوا بلغتهم الوطنية ، المصلحة المشتركة الكنيسة

(١) يقر هؤلاء الخطباء المتراضون بأنهم طلاقا حرروا هذه المعجزات . فقد صبروا الى الأخذ بنصيب من فنون البلاغة .

اللاتينية أو الغربية . وبعد ذلك بإحدى عشرة سنة انعقد مجمع أكثر عدداً وشهرة في نيقيا بولاية بيشينيا ، ليخضعوا يحكمهم النهائي ذلك النزاع الحاد الذي نشأ في مصر حول موضوع التثليث . واستجلب ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً لدعوة مليكهم المتسامح . وقدر عدد رجال الكنيسة من كل مرتبة وشيعة وملة بنحو ألفين وثمانية وأربعين شخصاً ، وحضر اليونان بأشخاصهم ، أما اللاتين فغعد عسر عنهم مندوبو الحبر الروماني . . وكثيراً ما شرقت الدورة التي استمرت نحو شهرين بحضور الإمبراطور نفسه ، وكان يترك حراسه لدى الباب ، ويجلس على كرسي نصير (باذن من المجلس) وسط الأذان . وأنصت قسطنطين تون ملل ، وتحدث في تواضع ورقعة ، على حين أثر الإمبراطور على مجرى المناقشة ، نراه يعلن في ختبرع وخضوع أنه سادن ، وليس حكماً بين خلفاء الرسل الذين اتهموا في عيسى وآله في الأرض . ومثل هذا التبجيل العميق الذي يبديه حاكم مطلق نحو جماعة ضعيفة عزلاء من رعاياه لا يمكن أن يقارن إلا بالاحترام الذي كان يبديه نحو السناتو أولئك الأمراء الرومان الذين تبناوا سياسة أوغسطس . وربما من للفيلسوف الذي يرقب تغلب أحوال الإنسان على مدى تلك الضمين عاباً - أن يضمن الفكر في تانسيتس وهو في السناتو في روما ، وقسطنطين وهو في مجمع نيقية . لقد تحلل آباء الكابيتول وآباء الكنيسة ، بقدر سواء ، من مضائل المؤسسين الأولين . ولكن لما كان أثر الأساقفة أعمق جذورا في الرأي العام ، فقد احتفظوا بمكانتهم في زهو أكثر احتشاما ، وقاوموا أحيانا رغبات مليكهم بروح كلها رجولة . وبما تقدم الزمن والمعقدة ذكريات الضعف والهوى والجهل التي وصفت هذه المجالس الكنسية Synods ، وخضع العالم الكاثوليكي بالاجماع للأوامر « المعصومة » التي تصدر من المجالس العامة .

الفصل العاشر والعشرون

مذهب آريوس • مجمع نيقيا والطبقة الواحدة

الاباطرة والجدل حول مذهب آريوس • اخلاق الناسيوس ومغامراته
مجمع أول ، ومجمع ميلان • الطابع العام للطوائف المسيحية

واجه قسطنطين في مستهل هذه مشكلة الهرطقة المسيحية ، ففي
أفريقية بنا أليان دوناتوس Donatus ، وهو أسقف قرطاجة المنافس ،
انشطالا دام في تلك الولاية ثلاثمئة عام - وهو عمر المسيحية نفسها في
أفريقية . غير أن أكثر نزاعات ذلك العصر انتشارا وأعمقا جذورا هو
الذي يتعلق بالتثليث ، وهو مذهب يمكن تتبعه ، على أقل تقدير ، إلى نظرية
أفلاطون عن الكون . ففي القرن الأول بعد الميلاد انارت مسألة طبيعة
(« ابن الله ») الهرطقة الأبيونية (١) والهرطقة الفخوصية المعارضتين .
وفي نهاية القرن سحقت هاتان الهرطقتان على يدى الحوارى الرابع ،
وهو القديس يوحنا الذى فسر نظرية الكون الأفلاطونية تفسيراً مسيحياً ،
وأظهر أن يسوع المسيح هو الكيان الذى تجسد فيه « الكلمة » أو العقل
Logos الذى تحدث عنه أفلاطون ، والذى كان مع الله منذ البدء ،
وهذه العلاقة الأزلية بين « كلمة الله Logos » وبين « الآب » هى التى
اعترض عليها آريوس . ولقد أصبح مذهب آريوس ، الذى نام حتى عصر
ثيودوريك وكلويس مذهباً معارضاً كبيراً فى العالم المسيحى .

بما أعاد مرسوم التسامح الأمن والراحة للمسيحيين ثار الجدل
من جديد حول نظرية التثليث فى الوطن القديم للأفلاطونية ، إلا وهو
مدينة الامكنسرية التى ضجت بالصخب والبذخ ، وازدهرت بالعلم ،

(١) الأبيوليوطاة من غداى المسيحيين يتسكون بشرية موسى ويكردون مبيزة
مولد المسيح - (المترجم) .

وسرعان ما امتد لهيب النزاع الحيني من المدارس الى رجال الدين والشعب ، والى الولاية والشرق .^١ وأثيرت مسألة أبدية « اللوجوس » (الكلمة) ، وهي مسألة تدق عن الفهم ، في المؤتمرات الكنسية والمواظد التي تلقى على الشعب . وسرعان ما أصبحت الآراء المعارضة التي نادى بها أريوس آراء علفية بفضل حماسه وحماس خصومه . ولقد اعترف أشد خصومه عنكنا بطلم شيخ الكنيسة الرفيح المقام الذي لم تشب حياته شائبة والذي أعرض في انتخاب سابق ، بل وأعرض في جراءة ، عن حقه في كرسي الأسقفية ، ووقف منه مناقسه الاسكندر موقف قاضيه . ثم نهشت القضية الهامة لئامه ، وإذا كان قد بدا مترددا في أول الأمر فإنه نطق أخيرا بحكمه النهائي الذي يقضي بالايمان المطلق . أما شيخ الكنيسة أريوس الذي لم تهن عزيمته والذي صمم على مقاومة سلطة أسقفه الفاضل ، فقد حرم من عضوية الكنيسة . غير أن كبرياء أريوس لم تلتفت تأييدا واستحسانا من فئة كبيرة من الناس ، وكان من بين أنبائه المقرئين أسقفان من مصر ، وسبعة شيوخ ، من شيوخ الكنائس ، واثنان عشر شماسا وسبعمئة عذراء (وهو شيء لا يكاد يصدق) . ويبدو أن أغلبية كبيرة من أساقفة آسيا كانت تؤيد أو تعبد قضيته ، ومن وراء هؤلاء كان يقف يوسوبوس كبير قساوسة قيصرية وأعلم القساوسة المسيحيين ، ويوسوبوس كبير قساوسة نيقوميديا الذي اكتسب شهرة الرجل السياسي دون أن ينفذ شهرته كقديس . أما مجالس الكنيسة في فلسطين وبشينا ، فقد كانت معارضة لمجالس الكنيسة في مصر ، ولقد أثار هذا النزاع اللاهوتي اهتمام الأمير والشعب ، وأحيل الفصل فيه ، بعد ست سنوات الى السلطة العليا للمجلس العام في نيقيا .

وعندما تعرضت أسرار العقيدة المسيحية تعرضا خطيرا للنقاش العام ، استطاع الإدراك البشري أن يكون ثلاثة اتهامات واضحة ، ولو أنها غير كاملة ، فيها يختص بطبيعة الثالوث الالهي ، وقيل أن أيما من هذه الاتهامات لم يكن خلوا من الهرطقة والخطا ، بالمعنى الخالص المطلق .

١ - ويمقتضى الفرض الأول ، ومن ورائه أريوس وتلاميذه ، فإن اللوجوس (كلمة الله) كان خلقا مجتهدا على غيره ، خلقته إرادة الأب من العدم . وهذا الإلتهن ، الذي يصنع كل شيء (١) ، قد ولد قبل كل

(١) نعلمنا دخلت نظرية الخلق المطلق من اللعدم بين المسيحيين بصورة تدريجية . كانت ترتفع كرامة العامل بشكل طبيعي مع ارتباع قيمة العمل .

العوالم ، وإن أطول الأزمنة الفلكية لا تعدو أن تكون لحظة عابرة إذا قورنت بمدى وجوده . غير أن هذا الوجود لم يكن أزليا ، بل لقد كان هناك زمن سابق لخلق اللوجوس ، وهو خلق لا يمكن وصفه أو التعبير عنه ، ولقد نفخ الأب سبحانه في ابنه الوحيد من روحه ، وغمره في فيض من نور مجده وعظمته . ولقد رأى هذا الابن ، وهو صورة منظورة لكمال غير منظور ، على مسافة غير محدودة القياس تحت قدميه ، عروش المنع رؤساء الملائكة . غير أن الضوء الذي كان يشعه كان مذكوسا عليه ، وكان يحكم العالم خضوعا لأرادة أبيه ومليكه ، شأنه في ذلك شأن أبناء أباطرة الرومان الذين كانوا يمنحون لقب قيصر ولقب أوغسطس .

٢ - أما الفرض الثاني فإنه يقرر أن اللوجوس يمتلك كل الكمال الكامن الذي لا يمكن أن ينتقل إلى غيره ، والذي تنسبه الديانة والفلسفة إلى الله جل جلاله ، وأن الجوهر الإلهي يتألف من ثلاثة عقول أو ثلاث مواد مميزة ولا نهائية لها ، وهي كائنات تشترك في أنها متساوية وأبدية ، وأنه لن التناقض أن يقال أن أيا منها لم يكن له وجود ، أو أن وجودها سوف ينتهي يوما . ولقد حاول انصار هذا الفرض ، الذي يبدو أنه يشكل ثلاثة آلهة مستقلة ، أن يبقوا على وحدة « خالق الكل » الذي يبرز دوره الهام في شكل الدنيا ونظامها بقولهم أن هذه الآلهة الثلاثة متفقة اتفاقا دائما في عملها وفي التطابق الجوهرى لمشيئتها . وفي مقدورنا أن نلاحظ شيئا ضعيفا لوعد العمل هذه في مجتمعات الإنسان ، بل وفي مجتمعات الحيوان . فالأسباب التي تفسد ما بين الناس من اتساق إنما تنشأ مما تنسم به صفاتهم من نقص ومما بينها من اللامساواة . غير أن القدرة على كل شيء التي تسترشد بالحكمة اللانهائية والصلاح اللانهائي لا يمكن أن تعجز عن اختيار الوسائل لتحقيق الأهداف الواحدة .

٣ - أما الفرض الثالث فإنه يقرر وجود ثلاثة كائنات تملك بحكم الضرورة المستمدة من ذواتها كل الصفات الإلهية في أسنى درجاتها ، وهذه الكائنات الثلاثة أبدية في زمانها ، لا نهائية في مكانها ، وثيقة الوجود بعضها مع بعض ، وفي الكون كله . ومن ثم فهي تفرق نفسها إلى على الحقل الحائر باعتبارها كائنا وحيدا ، يستطيع في نطاق الخيال أن وفي نظام الطبيعة أن يتجلى في أشكال مختلفة ، ويمكن أن ينظر إليه من جوانب مختلفة . وبمقتضى هذا الفرض يسمو التثليث المادى الحقيقي ويصبح تثليثا من حيث الأسماء ومن حيث الصفات المجردة التي

لا تبقى الا في العقل الذي يفهمها . وهكذا لا يعود اللوجوس شخصا بل صفة . أما صفة « الابن » فلا تنطبق الا مجازا على العقل الأزلي الذي كان مع الله منذ البدء ، ذلك العقل الذي صنع كل شيء . ويغدو تجسيد اللوجوس مجرد وحى من الحكمة الالهية هبط على الانسان « يسوع » فعلا جوانب نفسه وهدى كل أعماله . وهكذا ترانا ندور في الدائرة اللاهوتية ، ويدعشنا ان المبابلي (١) The Sabellian . ينتهى حيث بدأ الابيونى من قبله ، وأن السر الغامض الذى يدق عن الفهم والذى يثير اعجابنا ، يستعصى على بحثنا .

مجمع نيقيا والطبيعة الواحدة

إذا سمح لأساقفة مجمع نيقيا أن يتبعوا فى غير تهيؤ ما تمليه عليهم ضمائرهم فما كان لأريوس وزملائه أن يعللوا انفسهم بأمال الحصول على أكثرية من الأصوات فى جانب فرض يتعارض تضارضا مباشرا مع الرايين اللذين يتمتعان بأكثر شعبية فى العالم الكاثوليكي . وسرعان ما أدرك هؤلاء خطورة موقفهم ، وأظهروا فى كثير من الحكمة تلك الفضائل المتواضعة ، التى قلما يمارسها ، بل وقلما يتمتعها الا الجانب الأصعب ، اذا ما احتدمت نزعت أهلية أو دينية . فأوصوا بممارسة ما تنص عليه المسيحية من محبة واعتدال ، وأكدوا ان الجدل القائم لا تفهم طبيعته ، ورفضوا الاعتراف باستعمال أية الفاظ أو تعريفات ليس لها وجود فى الكتاب المقدس ، وأبدوا استعدادهم فى كثير من السفاء لارضاء خصومهم دون أن ينكروا نزاهة مبادئهم الخاصة . غير أن الحزب المنتصر تلقى كل عروضهم ومقترحاتهم بشك ممزوج بروح التعالى ، وسمى سعيها حثيثا الى ايجاد نقط خلاف لا تقبل الاتفاق والتراكي ، بحيث يؤدى رفض فريق آريوس لها الى إيقاعهم فى اثم الهرطقة وما يترتب عليها ، فقرأ على الملأ خطاب من يوسوبوس النيقوميدى ، ثم مزق تمزيقا مشينا ، وفى هذا الخطاب اعترف رئيسهم هذا اعترافا صريحا بأن قبول فكرة الطبيعة الواحدة ، وهى فكرة مألوفة لدى الأفلاطونيين ، هو شيء يتنافى مع مبادئ نظامهم اللاهوتى . وتعلق الأساقفة فى لهفة بهذه الفرصة المواتية ، وهم المتحكمون فى قرارات المجلس ، وعلى حد التعبير القوي الذى قاله « امبروز » فقد

(١) نسبة الى Sabellius (القرن الثالث) الذى كان يعلم ان الاب والابن والروح القدس هم شخص واحد فى ثلاثة أقانيم .

استخدموا السيف الذى سلته الهرطقة نفسها من غمده لقطع راس الوحش الممقوت ، وأقر مجمع نيقيا مبدا أن الآب والابن من جوهر واحد أو من مادة واحدة **Consubstantialism** وافقت عليه منذ ذلك الوقت بالاجماع الكنائس اليونانية واللاتينية والكنائس الشرقية وكنائس البروتستانت ، كمادة أساسية فى الايمان المسيحى . وما كان لهذه العبارة (الجوهر الواحد) أن تلائم تلك الأكثرية التى أدخلتها فى العقيدة الصحيحة إذا لم تكن قد دمغت الهرطقة وجمعت كلمة الكاثوليك ، وكانت هذه الأكثرية تتألف من فريقين يتسمان بنزعة مضادة لأصايس أصحاب مذهب الآلهة الثلاثة **The Tritheists** ، وأصحاب مذهب الآله الواحد فى ثلاثة أقانيم وهم السابليون **Sabellians** . ولا بدا أن هذين المذهبين المتعارضين من شأنهما أن يقوضا أسس الديانة الطبيعية أو الموحى بها ، فقد اتفق أصحابهما على تخفيف صلابة مبادئهم ، وتجاهل النتائج التى قد يفرضها خصومهم ، وهى نتائج عادلة ولكنها تثير الحقد والغرفة . ودفعتهم مصلحة القضية المشتركة الى ضم صفوفهم وأخفاء ما بينهم من خلافات ، وخفف النصح بالتسامح من العداء القائمة بينهم ، وتوقفت نزعاتهم باستخدام التعبير الغامض - الطبيعية الواحدة **Homoeousion** الذى أصبح كل فريق حرا فى تفسيره وبقى إرادته الخاصة . أما المعنى الذى قصده السابليون ، وهو الذى أرغم مجلس انطاكية قبل ذلك بخمسين عاما على تحريم هذا اللفظ الشهير ، فقد حبيب فيه أولئك اللاهوتيين الذين كانوا يميلون ميلا سريا وأن يكن جزئيا الى الأخذ بمبدأ التثليث الأسمى . غير أن قديسى عصر أريوس الاكثروا انقادا بالجديد مثل أثناسيوس الجريء وجريجورى نازيانزى العالم وغيرهم من عمد الكنيسة الذين كانوا يؤيدون عقيدة « نيقيا » . فقد بدا أنهم يعتبرون كلمة « المادة » على أنها مرادف لكلمة « الطبيعة » ، وكان لديهم من الجراءة ما يدفعهم الى توضيح المعنى الذى يقصدونه بتأكيدهم أن ثلاثة رجال ينتمون الى جنس واحد مشترك هم فى واقع الأمر من مادة واحدة أو من طبيعة واحدة . وما يؤدى ، من ناحية ، الى اتساق هذا التساوى الخالص توحيدا لا يقبل الانفصال ويؤدى اليه ، ومن الناحية الأخرى ، سمو الآب الذى كان مسلما به ما دام متمشيا مع استقلال الابن . وفى داخل هذه الحدود فإن العقيدة الصحيحة المتأرجحة التى لا يكاد يغلطن إليها أحد استطاعت أن تتخذب فى أمان . وعلى جانبى هذا المجال الذى كان موضع نقديس من الجميع ، وبمناى عنه ، كمن الهرطقة من ناحية . وأشبه القديسين من ناحية أخرى للانقضاض على الضال العتس والتهامه . ولا كان مبلغ الكراهية اللاهوتية إنما يتوقف على روح

القتال لا على أهمية الخصومة، فان الهراطقة الذين انحط مركزهم عوملوا معاملة أشد وأقسى من معاملة أولئك الذين حطموا شخص الابن . ولقد استنفدت حياة أثناسيوس في مقاومة لا تلين ولا تهبط شئها على الجنون الضال الذي اتصف به اتباع آريوس ، ولكنه دافع أكثر من عشرين عاما عن مذهب «النسابلية» الذي نادى به «ماركلوس» الأنسيرى Marcellus of Ancyra . وعندما أرغم في نهاية الأمر على الانسحاب من عضوية الكنيسة ، ظل يذكر في ابتسام غامضة الأخطاء العريضة التي ارتكبها صديقه البهبل .

ولقد نقشت سلطة المجلس العام، الذي اضطر اتباع آريوس أنفسهم الى الخضوع اليه ، على ألوية الفريق الأورثوذكسى (صاحب العقيدة الصحيحة) تلك الحروف الغامضة لكلمة « الطبيعة الواحدة » التي أسهمت أساسا ، ورغم بعض الخلافات الغامضة ، في المحافظة على وحدة الايمان ، او على الأقل وحدة التعبير ، وفي دوام هذه الوحدة ومن ثم فان اتباع هذا الفريق الذي نادى بمذهب « الطبيعة الواحدة » أو « المادة الواحدة » ، والذي اكسبه نجاحه الحصول على اسم « الكاثوليك » ، أخذوا يفخرون ببساطة وثبات عقيدتهم ، ويسبون قلب خصومهم الذين كانوا يفتخرون الى أى مبدأ معين من مبادئ الايمان ، أما رؤساء آريوس ، فان اخلاصهم أو دهاءهم وخونهم من القوانين أو من الناس ، وتقديسهم للمسيح ، وكراهيتهم لأثناسيوس ، وجميع الأسباب الالهية والبشرية ، مما يؤثر في آراء أى حزب لاهوتى ويزعجها ، كل أولئك بعث في أبناء هذه الطائفة روح التناكر والتخلخل التي خلقت في مدى سنوات قلائل ثمانية عشر نموذجا دينيا ، وانتقلت للجرح الذي أصاب كرامة الكنيسة . وانك لترى الرجل المنحس « هيلارى » Hilary الذي دفعته الممن الخاصة التي أحاطت بمركزه الى التخفيف من أخطاء رجال الدين الشرقيين لا الى تضخيمها ، ترى هذا الرجل يعلن انه في المدى الفسيح للولايات المعشر الآسيوية التي نفي اليها لا تستطيع ان تجد الا قلة قليلة من كبار رجال الدين احتفظت بمعرفة الاله الصحيح . ولقد أدى الظلم الذي شعر به والفوضى التي شاهدها وكان فريسة لها ، الى تهدئة مشاعر الغضب التي احتدمت في نفسه ، في فترة وجيزة . وفي القطعة التالية التي سوف انقل منها سطورا قليلة ينحرف أسقف بواتييه دون حذر الى أسلوب فيلسوف مسيحي ، فيقول : « انه لمن المؤسف والخطير على السواء أن هناك من العقائد بين الناس بقدر ما يعتقدون من آراء ، ومن المذاهب بقدر ما لهم من اتجاهات وميول ، وأن هناك من نواحي الكفر بقدر ما ترتكب من

أخطاء ، وذلك لأننا نصنع العقائد على هوانا ونفسرها بالطريقة عينها . فالجامع المتعاقبة تنبذ مذهب الطبيعة الواحدة ، ثم تقلبها ثم تهون من شأنها . وقد أصبح التشابه الجزئى أو الكلى بين الآب والابن موضع جدل ونقاش فى هذه الأيام التعسة . وفى كل سنة ، بل وفى كل شهر ، نصنع عقائد جديدة لنفسر بها غوامض خفيفة . ونندم على ما فعلنا ، وندافع عن الناسمين . ثم نصب اللعنة على أولئك الذين دافعنا عنهم . وندين مذهب الآخرين ، ويمزق بعضنا بعضا . ومن ثم فقد كان كل منا سببا فى هلاك الآخرين » .

ولا ينتظر أحد منى ، بل وربما لا يطيق ، أن أضخم هذا البحث اللاهوتى الخارج عن الموضوع بتمحيص دقيق للعقائد الثمانى عشرة التى نبذ واضعوها فى أكثر الأحيان ذلك الاسم المكروه ، اسم أبهم أريوس ، وأنه ليلذ للدارس المجد أن يرسم شكلا لنبات غريب ويتتبع نموه ، غير أن التفاصيل المجيدة التى تتناول وجود أوراق دون أزهار ، وغصون دون ثمار ، من شأنها أن تؤدي إلى نفاد صبره ومضايقة حبه للاستطلاع . ومع ذلك فهناك مسألة انبثقت تدريجيا من الجدل الدائر حول مذهب أريوس ، ويجدر بنا ملاحظتها لأنها خلقت وميزت الطوائف الثلاث التى لم يوحد صفوفها إلا كراهيتها المشتركة لمذهب الطبيعة الواحدة الذى أقره مجمع نيقيا . ١ - ماذا ما سئلوا عما إذا كان الابن هو شبه الآب ، أجاب الهرطقة المتبسكون بمبادئ أريوس ، أو قل بمبادئ الفلسفة ، اجابة قاطعة بأن الأمر ليس كذلك ، لأن تلك المبادئ تقضى بوجود فرق لا نهائى بين الخالق وبين اسمى مخلوقاته . وقد أخذ بهذه النتيجة البيئة شخص اسمه ايتيوس Aetius أطلق عليه خصومه المتحمسون اسم « الملد » . وهذا الرجل دفعته روحه الغلقة المتطلعة الى مزاوله كل مهنة من مهن الحياة الانسانية تقريبا . فقد كان على التوالى رقيقا ، أو على الأقل فلحا ، ثم مصلحا جوالا للأوائى . ثم صائغا ، ثم «ابيا . ثم معلما ، ثم لاهوتيا ، وأخيرا أصبح رسولا لكنيسة جديدة لقيت رواجاً بفضل قدرات تلميذه يونوميوس Eunomius ولقد كان أريوس مسلحا بنصوص من الانجيل وبأقيسة منطقية مستمدة من منطق أرسطو . ومن ثم فإن هذا الرجل الماكر اكتسب شهرة المجادل الذى لا يقهر ، والذى لا يستطاع اسكاته أو اقناعه . ولقد مكنته هذه المواهب من كسب صداقة اساقفة مذهب أريوس . الى أن اضطروا الى نبذ ، بل ومجافاة ، حليف خلدبر اثر رآى الشعب ضد قضيتهم بدقة محابته . وأساء الى التقوى الى كان يتصف بها اتباعهم المخلصون أكبر الاخلاص لذهابهم . ٢ - أن

القدرة على كل شيء التى يتصف بها الخالق أوجت محل مقبول لمشكلة التشابه بين الآب والابن ، وفى مقدور الايمان أن يقبل ما لا يجزئ العقل على انكاره ، وهو أن الله العظيم يمكنه أن يقل صفات كماله اللانهاى الى من يشاء ويخلق مخلوقا لا يماثل احدا الا هو . وكان العبد القوي لأتباع آريوس ما هنالك من وزن وقدرات لزعمائهم الذين تولوا رعاية قضية يوسويوس وجلسوا على العرش الرئيسى فى الشرق . ولقد كرموا ، وربما فى شيء من التظاهر ، ذلك الضلال الذى اتصف به ايتيوس ، وقدروا أنهم يعتقدون ، اما دون تحفظ أو بناء على ما ورد فى الانجيل ، ان الابن يختلف عن كل المخلوقات الأخرى ، ولا يشبه أحد الا الآب . ولكنهم أنكروا أن الابن من مادة الآب نفسها أو من مادة شبيهة وفى بعض الأحيان كانوا يبررون فى جراءة هذا الخروج ، وفى أحيان أخرى كانوا يعترضون على استخدام كلمة « المادة » التى يبدو أنها تعطى فكرة مناسبة ، أو على الأقل فكرة مميزة ، عن طبيعة الاله الأعظم .

٣ - أما الطائفة التى كانت تقول بمذهب المادة الشبيهة فقد كانت أكثر الطوائف عدداً، على الأكل فى ولايات آسيا. وعندما اجتمع زعماء الطائفتين فى مجمع سلوقيا Seleucia ، تغلب رأى هذه الطائفة بأكثرية مائة أسقف وخمسة ضد ثلاثة وأربعين أسقفاً . أما الكلمة اليونانية التى وقع عليها الاختيار للتعبير عن هذا التشابه الغامض بين الآب والابن ، فإنها وثيقة الشبه بالكلمة التى كان يستخدمها أصحاب المذهب الصحيح (الأورثوذكس) الى درجة أن غير المالمين بالدين فى كل عصر كانوا يسفرون من الشهادات العنيفة التى احتدمت من جراء وجود اختلاف فى مقطع صوتى واحد بين كلمتي Homoiousians و Homoioussians وكثيراً ما يحدث أن الأصوات والحروف التى تشبه بعضها بعضاً أشد الشبه تمثل بمحض الصدفة أفكاراً أكثر ما يكون تعارضاً ، ومن ثم فإن هذه الملاحظة تصبح مضحكة فى حد ذاتها ، لو أنه كان ممكناً أن نثبت أى فرق حقيقى معقول بين مذهب أولئك الذين أطلق عليهم دون وجه حق اسم أشباه أتباع مذهب آريوس وبين مذهب الكاثوليك أنفسهم . أما أسقف بواتييه الذى كان يهدف فى كثير من الحكمة وهو فى منفاه فى ولاية « غريجيا » الى تحقيق ائتلاف بين الأحزاب ، فقد حاول أن يثبت أن التشابه بين الآب والابن Homoiousion ، يمكن أن يعنى أنهما من جوهر واحد اذا توخينا الاخلاص والتقوى فى التفسير . غير أنه يعترف بأن هذه الكلمة لها جانب غامض يثير الشبهة . ولما كان الغموض شيئاً يتناسب مع النزاعات اللاهوتية ، فإن أشباه أتباع آريوس الذين تقسموا نحو أبواب الكنيسة أخذوا يهاجمونها بأقصى ما يكون من الغضب .

الباطرة والجدل حول مذهب أريوس

كانت ولايات مصر واسيا التي احتضنت لغة اليونان وعاداتهم قد تناولت جرعات كبيرة من سموم الجدل الذي قام حول مذهب أريوس . وزودت الدراسة غير المألوفة لمذهب افلاطون بما فيها من ميل عقيم للنقاش وتوفر المصطلحات المرنة المطاطة ، كل أولئك زود الشعب ورجال الدين في الشرق بمعين لا ينضب من الالفاظ والتمييزات . وفي خضم نزاعاتهم الحادة ، نسوا في سهولة ذلك التشكك الذي تحبذه الفلسفة ، وذلك الخضوع الذي يحتمه الدين . أما أهل الغرب فقد كانوا أقل فضولا ، ولم تكن الأشياء غير المرئية لتثير عواطفهم بمثل تلك القوة ، كما أن عقولهم كانت أقل مرانا على عادات النقاش والجدل . وكانت الكنيسة الغالية The Gallican Church على قدر من نعيم الجهل ، الى حد أن هيلاري نفسه بعد أكثر من ثلاثين عاما من المجلس العام الأول ، كان لا يزال غريبا على عقيدة نيقيا . وكانت أشعة المعرفة بالأمور اللاهوتية قد نفذت الى اللاتين عن طريق الترجمة . وهو طريق غامض محفوف بالشك . فان لغتهم الوطنية الفقيرة الجادة لم تستطع دائما أن تسعفهم بمصطلحات مناسبة تقابل المصطلحات اليونانية ، والكلمات الفنية الواردة في الفلسفة الأفلاطونية ، وهي مصطلحات وكلمات كانت موضع تقديس من الانجيل أو من الكنيسة ، بحيث تمكنهم من التعبير عن أسرار الايمان المسيحي . ولا شك في أن العجز عن التعبير قد أدخل في علم اللاهوت اللاتيني سلسلة من الخطأ والالتباس غير أن سكان الولايات الغربية كانوا ، لحسن حظهم ، قد استقوا دينهم من مصدر صحيح ، ومن ثم حافظوا في ثبات على المذهب الذي تقبلوه في لين ويسر ، وعندما اقترب وباء مذهب اريوس من حدودهم كان لديهم في الوقت المناسب ما يقيهم من شره وهو ايمانهم بالطبيعة الواحدة تحت الرعاية الأبوية التي أظلم بها بابا روما . ولقد ظهرت احساسهم وخلقهم في المجمع الشهير الذي انعقد في ريميني Rimini ، وكان أكثر عددا من مجلس نيقيا لأنه كان مكونا من أكثر من أربعمائة أسقف ينتمون الى ايطاليا وأفريقيا واسبانيا والغال وبريطانيا والليريكوم Illyricum . وبدأ من المناقشات الأولى أن ثمانين أسقفا فقط كانوا يؤيدون فريق اريوس ، رغم أن « هؤلاء » تظاهروا بأنهم يلعنون اسم اريوس وذكراه . غير أن هذه القلة العددية عرضتها مزايا المهارة والتجربة والنظام ، وكان على رأس هذه الفئة القليلة أسقفان من الليريكوم هما فالنز Valens ولوراسكيوس Ursacius اللذان قضيا حياتهما في دسائس البلاط والمجالس ، وتقربا

تحت امره يوسوبوس في صراعات الشرق الدينية . ومن ثم فقد استطاعتنا
 بمحاجتهم وجلبهم أن يحررنا أساقفة اللاتين الأمناء البسطاء ، وتمكننا
 في نهاية الأمر من التموه عليهم وخداعهم . وقد شق على هؤلاء أن
 تنتزع من أيديهم مقاليد الايمان بالانصاح والخداع لا بالعنف السافر ،
 ولم يسمح لمجلس ريمى بأن ينفرد عقده حتى التزم الأعضاء دون تعقل
 أو روية بعقيدة متشككة أدخل فيها من التعبيرات التي تنم عن معنى
 الهرطقة ما يمس مذهب الطبيعة الواحدة . ولشد ما أدهش العالم في
 تلك المناسبة أن يجد نفسه وقد أصبح يدين بمذهب أريوس ، على حد
 تعبير جيروم . ولكن ما أن وصل أساقفة اللاتين الى استقفياتهم حتى
 اكتشفوا خطاهم وندموا على ضعفهم . وقوبل هذا التسليم الشائن المهين
 بالرفض المشوب بالازدراء والكراهية . أما مذهب الطبيعة الواحدة ،
 الذي اهتز ولكنه لم يفلج على أمره ، فقد غرس من جديد في كل كنائس
 الغرب بصورة أكثر صعوبة وقوة .

هكذا نشأت وتطورت تلك النزاعات اللاهوتية التي أزعجت سلام
 المسيحية في عهد قسطنطين وأينائه من بعده ، وهكذا كان شأن الثورات
 الطبيعة التي اعتورتها . ولما عمد هؤلاء الأمراء الى مد سلطانهم المطلق
 على الدين ، كما مدوه على حياة ومصائر رعاياهم ، فان ثقل تأييدهم
 كان في بعض الأحيان يرجح كفة الكنيسة ، وأصبح الملك الديوى هو
 الذي يقرر حقوق ملك السماء أو يغيرها أو يعدلها .

ولا شك في أن روح النياافر الخمسة التي سادت ولايات الشرق عاقت
 فوز قسطنطين ، غير أن الامبراطور ظل فترة من الزمن ينظر الى موضوع
 النزاع في قنور ودون اهتمام أو مبالاة . وبما أنه كان لا يزال يجهل
 الصعوبة القائمة في طريق تهدئة الخلافات ، فقد أرسل الى الطرفين
 المتنازعين : الاسكندر وأريوس ، رسالة تدعو الى الاعتدال (١) ، ويمكن
 أن يعتبر ما جاء بها صادرا من وحي جندي وسياسي فج غرير أكثر من أن
 يكون مستمدا من فن مستشاريه الدينيين ، وهو في هذه الرسالة يعزو
 أصل الخصومة كلها الى سؤال تافه غامض يتعلق بتقطة في القانون
 لا يستطيع فهمها ، سؤال سأل الأسقف في غياب وأجاب عنه القس في
 حمق . وهو يرثى فيها لحال الشعب المسيحي الذي يعبد الها واحدا

(١) أساءت مبادئ التسامح واللينبالة الدينية التي تضمنها هذه الرسالة الى
 يارونيموس وتلمونت Baronius ~ Tillemont اللذين يعتقدان أن الامبراطور كان لديه
 مستشار شرير . هو الشيطان يوسوبوس .

ويدين بدين واحد ويمارس عبادة واحدة ، ومع ذلك يسمح لفروق تافهة أن تؤدي به إلى الانقسام . وبعد ذلك يوصى رجال الدين في الاسكندرية بأن يحذروا حذو فلاسفة اليونان الذين كان في مقدورهم أن يقرعوا الحجة بالحجة دون أن يطير صوابهم أو يفقدوا أعصابهم ، وأن يؤكدوا حريتهم دون تحطيم صداقتهم . وربما كان من الممكن لمسلك قسطنطين الذي اتسم بالاحتشار واللامبالاة أن يكون له أعظم الفعالية في فض النزاع لو أن التيار الشعبي كان أقل اندفاعا وعنفًا ، أو لو أن قسطنطين نفسه استطاع في خضم التعصب والتحزب أن يحتفظ بهدوء عقله ورباطة جأش . غير أن وزراء من رجال الدين سرعان ما استطاعوا أن يشنوا الحاكم عن موقفه غير المتحيز وأن يوقظوا حماس المرتدين . ولقد أثارت الإهانات التي وجهت إلى تماثيله ، وأزعجه المدى الكبير الذي وصل إليه الشر المستطير فعلا وتخيلًا . ومنذ اللحظة التي جمع فيها ثلاثمائة أسقف داخل جدران قصر واحد قضى على كل أمل في السلام والتسامح . وكان حضور الملك لهذا الاجتماع ايذاً باهمية النقاش كما أن شدة اهتمامه زادت من كثرة الحجج . ولقد أبرز شخصيته بشجاعة ثابتة راسخة أشعلت حماس المتصارعين وزادتهم قوة . ورغم ما قوبلت به فصاحة قسطنطين وحكمته من استحسان وتأيد ، فإنه في موقفه هذا لم يعد أن يكون قائداً رومانيساً لا تزال عقيدته موضع شك ، ولا يزال ذهنه بعيداً عن الاستنارة بشيء من الدرس أو الإلهام ، تصدى تصدياً مستهترا ليناقش بالغة اليونانية مسألة ميتافيزيقية أو مبحثاً من مباحث الدين . وربما كانت مكانة صديقه الحميم أوزيس (Osius) - الذي يبدو أنه كان يرأس مجمع نيقيا - كفيلاً بأن تكسب الإمبراطور إلى جانب المذهب المسيحي . ثم أنه وقر في ذهنه في الوقت المناسب أن يوسوبوس (Eusebius) النيقوميدي نفسه ، الذي كان يحمي الآن الهرطقة ، كان منذ عهد قريب عوناً للطاغية ، الأمر الذي قد يثير سخطة على أعدائهم . ولقد أقر قسطنطين عقيدة نيقيا ، وأعلن في عزم وأصرار أن أولئك الذين يقاومون الحكم الإلهي الذي أصدره المجمع يجب أن يعدوا أنفسهم للنفى من البلاد فوراً . وكان من شأن إعلان هذا أنه قضى على ما كان هنالك من أصوات ضعيفة معارضة ، فانخفض عدد الأساقفة المعارضين على التو من سبعة عشر أسقفاً إلى اثنين ، وأرأس يوسوبوس أسقف قيصرية مكرهاً على تأييد مذهب الطبيعة الواحدة في عبارات ملتبسة . كما أن مسلك التردد الذي سلكه يوسوبوس النيقوميدي أم وترغب عليه إلا تأخير نفيه والحق العار به فترة ثلاثة شهور . أما أريوس الضليل فقد نفى في إحدى مقاطعات الليريكوم النائية كما ساء ودم شخصه وتلاميذه بحكم القانون بذلك الاسم الممقوت « البرفيريون »

Porphyrans ، (أتباع الأفلاطونية الجديدة) ، وكذلك أحرقت كتاباته وقررت عقوبة الخيانة العظمى على كل من توجد معه تلك الكتابات وهكذا سرت في الامبراطور روح الخصومة وصيغت مراسيمه بأسلوب ساخط ساخر قصد به أن يوغر صدور رعاياه بتلك الكراهية التي أضمرها لأعداء المسيح .

غير أنه يبدو أن الامبراطور كان في مسلكه هذا مدفوعا بنزعات الهوى بدلا من المبادئ ، ومن ثم فلم تكد تنقضي ثلاث سنوات على مجلس نيقيا حتى استتبع بوانس الرحمة بل والتسامح نحو الطائفة المضطهدة التي كانت أخته الحبيبة ترعاها وتحببها في غير علانية فاستدعى المنفيون من منقاهم ، واسترجع يوسوبوس نفوذه وتأثيره على عقل قسطنطين ، ثم أعيد إلى كرسى الأسقفية الذي كان قد عزل منه بصورة مهينة ثائرة . أما أريوس نفسه فقد عومل في البلاط الامبراطوري كله بالاحترام الذي يستحقه رجل يرى وقع تحت نير الظلم . ثم وافق مجلس أورشليم على مذهبه ، وبدا أن الامبراطور كان يتمجل رفع الظلم الذي أوقعه به ، فأصدر أمرا قاطعا بأن يسمح له بتناول الأسرار المقدسة في كاتدرائية القسطنطينية ، غير أن القضاء المحتوم وافى أريوس في نفس اليوم الذي خدد لرد اعتباره ، وكلمة ظروف غزبية مزعجة مات فيها هذا الرجل ، وربما أثارت تلك الظروف شكوكا وريباً في أن قديسي المذهب الصحيح لم يكتفوا بالصلاة لانقاذ الكنيسة من ألد أعدائها ، بل حققوا ذلك بوسائل أشد فعالية (١) . ولقد وجهت اتهامات كثيرة إلى الزعماء الثلاثة الكبار للكاثوليك ، اثناسيوس أسقف الاسكندرية ، ويوستانيوس أسقف انطاكية ، وبولس أسقف القسطنطينية ، فحكمت مجالس كثيرة عليهم بالعزل ، ثم صدر الأمر بنفيهم إلى ولايات نائية . وكان الذي أصدر الأمر هو امبراطور مسيحي ، وهو الذي تلقى في اللحظات الأخيرة من حياته ، شمامسة المعمودية على يد أسقف نيقوميديا التابع لمذهب أريوس . وليس في مقبورنا أن نخلى حكومة قسطنطين الدينية من أنها كانت ضعيفة طائشة غير أن ذلك الحاكم كان يصدق كل ما يقال له . ولم يكن بارعا في مناورات الصراع اللاهوتي ، ومن ثم

(١) نستمع القصة الأصلية من اثناسيوس الذي يتورع بعض الشيء عن الاساءة إلى ذكرى الليث . وقد يكون حبالا ، غير أن الاتصال الدائم بين الاسكندرية والقسطنطينية كان كفيلا بأن يجعل اختراع هذه القصة أمرا خطيرا . وأولئك الذين يؤكدون القصة الحرفية لوت أريوس (وهي أن أسماء انفجرت فجأة في ييب الخلاء) يجب أن يختاروا أمرا من اثنين - السمع أو المعجزة .

فقد خدعه الهراطقة بأقوالهم المتواضعة المنمقة ، ولم يستطع مطلقا أن يفهم أحاسيسهم فهما كاملا . ومع أنه كان يظل آريوس بصمايته ويضطهد اثناسيوس ، إلا أنه كان ولا يزال يعتبر مجلس نيقيا حصنا للنيانة المسيحية ومفخرة اخنص بها عهده .

ولابد أن أبناء قسطنطين كانوا قد قبلوا منذ طفولتهم بين صفوف من يؤهلون للتعميد ، غير أنهم حذوا حذو أبيهم في تأخير تعميدهم . وكانوا مثل أبيهم في الجراءة على اصدار حكمهم في اسرار وغوامض لم يدريوا على فهمها بصورة منتظمة ، واصبح مصير النزاع حول مذهب التثليث متوقفا الى حد كبير على مشاعر قسطنطينيوس Constantius الذي ورث ولايات الشرق وامتلك الامبراطورية كلها . أما الاسقف الآريوسي (التابع لمذهب آريوس) الذي كان قد أخفى وصية الامبراطور الراحل ليستغلها لمصلحته فقد احسن الافادة من الفرصة المواتية التي اتاحت له أن يحظى بالفة أمير كان ذرو الخلوة لديه والمقربون اليه يتغلبون دائما على مستشاريه الرسميين . ولقد نفث العبيد والخضعيان سموم الأفكار الروحانية في أرجاء القصر ، وانتقلت العدوى الخطيرة من الوصيفات الى الحراس ، ومن الامبراطورة الى زوجها الغر الغافل . وكان قسطنطين يصر دائما عن محاباته لحزب يوسوبوس ، ونجحت براعة زعماء هذا الحزب في تقوية هذه المحابة بصورة غير محسوسة ، كما أن فوزه على الطاغية ماجننتيوس Magmentius زاد من ميله ، كما زاد من قدرته ، على استخدام أساليب القوة لنصرة مذهب آريوس . وبينما كان الجيشان يتقاتلان في سهول مورسا Mursa ، ومصير المتنافسين معلقا على نتيجة الحرب كان ابن قسطنطين يقضى تلك اللحظات الحرجة في كنيسة للشهداء تحت أسوار المدينة . ولقد عمد نديمه الروحي ، فالنز Valens ، الاسقف التابع لمذهب آريوس ، الى استخدام احتباضات أشد ما يكون دهاء للحصول على أنباء مبكرة عن المعركة بحيث يكتسب لديه حظوة اذا انتصر أو ييسر له النجاة اذا خسر . ومن ثم فإنه استعان سرا بعدد من الرسل الذين تتوفر فيهم السرعة ، والثقة ، فكانوا يخبرونه بتقلبات سير المعركة . وبينما كان رجال البلاط يرتعدون حول سيدهم الذي تولاه الخوف والهلع ، اذا بالاسقف فالنز يؤكد له أن الجيوش

(١) لاحظ المؤرخ أن الحمد سبحانه على الاعمال الطيبة . لاس الله . هارن مؤلف الدكتور . جورتون ، Remarks on Ecclesiastical History المجلد الرابع . . مسلسل الانساب الذي ورد في كتاب ، Candide (الفصل ٤) الذي ينتهي بواحد من أول دقات المزمار . كولب .

الغالية قد انحصرت ، وأشار ، في شيء من حضور الذهن ، الى أن هذا الحدث الجيد قد كشفه له أحد الملائكة . فاستشعر الامبراطور عرفانا بالجميل ونسب فوزده هذا الى تأييد أسقف مورسا وما يتصف به من فضائل ، والى ايمانه الذي استجاب له السماء بصورة علنية ترقى الى درجة الاعجاز . أما أتباع أريوس الذين اعتبروا انتصار قسطنطين كأنه انتصار لهم ، فقد فضلوا مجده على مجده ابيه ، وسرعان ما قام كيرلس (١) أسقف أورشليم (بيت المقدس) بوصف صليب سماوى يحف به قوس قزح رائع ، وهو الصليب الذى كان قد ظهر فوق جبل الزيتون فى الساعة الثالثة من يوم عيد العنصرة Pentecost لتثبيت ايمان الحجاج وأهل المدينة المقدسة . وجاء فى هذا الوصف أن ذلك الشهاب السماوى قد ازداد حجبا بصورة تدريجية ، وأكد المؤرخ الأريوسى فى جراءة أن الصليب كان واضحا أما الجيشين المتقاتلين فى سهول بانونيا Pannonia وأن الطاغية ماجنتيوس الذى مثله المؤرخ عمدا بأحد عباد الأصنام قد لاذ بالفرار أمام صليب المسيحية الصحيحة الذى كان ظهوره بشيرا بالفوز والانتصار .

وما لا شك فيه أن الاحاسيس التى يشعر بها رجل سليم الحكم تناول دون تحيز تطورات النزاع الأملئ والكنسى ، دون أن يكون طرفا فيه ، لهى أحاسيس يعق لنا دائما أن ندخلها فى اعتبارنا . وانى لأسوق هنا قطعة قصيرة قد يكون كتبها اميانوس Ammianus ، الذى خدم فى جيوش قسطنطين ودرس أخلاقه ، وهى قطعة قد يكون لها من القيمة أكثر من صفحات مليئة بالطمعون اللاهوتية : يقول : ذلك المؤرخ المعتدل : «أن الديانة المسيحية فى حد ذاتها واضحة بسيطة ، غير أن قسطنطيوس جعلها مهوشة معقدة بسفخ خرافاته ، وبدلا من أن يستخدم ثقل سلطانه فى التوفيق بين الأحزاب ، فقد شجع ونشر الخلافات التى أثارها فضوله الأجوف والتى اذكت نارها الفزاعات والمهاترات الكلامية . فامتألت الطرق بجماعات من الأساقفة يهرعون من كل فج الى الاجتماعات التى يسبونها مجالس كنسية ، ويعملون جاهدين على اخضاع الطائفة كلها الى أرائهم

(١) يقول كيرلس فى صراحة أن الصليب فى عهد قسطنطين قد وجد مدفونا فى باطن الأرض ، ولكنه امتلى قبة السماء فى عهد قسطنطيوس . وهذا التناقض يوضح فى جلاء أنه كان يجهل كل شيء عن المعجزة الملهمة التى ينسب اليها تحول قسطنطين الى المسيحية . ويبدو هذا الجهل أكثر مدعاة الى العجب لأن أسقف قيصرية الذى جاء بعد يوسريوس مباشرة ، حنح كيرلس لقب أسقف أورشليم بعد فترة لا تزيد على اثني عشر عاما من وفاته .

الخاصة ، ومن ثم فقد كاد الخراب أن يحل بكنائسهم العامة نتيجة لتكرار رحلاتهم الطائشة » . وأن ما نعرفه معرفة وثيقة عن مجريات الأحداث الكنسية في عهد قسطنطينوس ، لهو خير تعليق على هذه القلعة ، وهذا الذى نعرفه يبرر المخاوف المعقولة التى كان يخشاها اثناسيوس من أن النشاط الدائب من ناحية رجال الدين الذين كلنوا يجوبون أرجاء الامبراطورية بحثا عن العقيدة الصحيحة سوف يثير احتقار العالم غير المؤمن ويصبح مدعاة لسخريته ، وما أن استراح الامبراطور من غلظائع الحرب الأهلية حتى كرس وقت فراغه الذى كان يقضيه فى أرل وميلان وسرميوم ، والقسطنطينية لمسررات الخصومة الدينية او متاعبها : ومن ثم فقد شهر سيف الحاكم ، أو قل سيف البلاغية لتنفيذ مبادئ رجال اللاهوت ، وبما أنه كان معارضا للعقيدة الصحيحة التى اقربها مجمع نيقيا ، فلا بد من الاعتراف بأن عجزه وجهله كانا مساويين لغروره وأدعائه . وكان عقله الضعيف المغرور واقعا تحت تأثير الخصميين والنساء والأساقفة ، وهؤلاء جميعا أوحوا اليه بكرامية طاغية لمذهب الطبيعة الواحدة ، غير أن ظلال اتيوس - Aetius - كان بزعم خصمه الرجل الهيباب ، وقد تضخم جرم هذا الملحد لأنه كان موضع محاباة مريبة من جانب الشقى المنكود جباللوس - Jallus ، بل أن مقتل وزراء الامبراطور الذين ذهبوا فى انطاكية إنما يعزى الى احياء ذلك السفسطائى الخطير . وكان تفكير قسطنطين من النوع الذى لا يلينه التعقل ولا يشبهه الايمان ، ومن ثم فقد كان يندفع اندفاعا أعمى الى هذا الجانب من الزاوية المظلمة الخاوية أو ذاك خوفا وفزعا من الجانب المتطرف الآخر ، وكان مرة يرضى عن أحاسيس أحزاب اريوس واشباهها ، ثم يدينها مرة أخرى ، وطورا ينفى زعماء تلك الأحزاب ، ثم يعثر عنهم ويستدعيهم ، وفى موسم العمل العام أو موسم الاحتفالات كان يقضى أياما بآدابها ، بل وليالى كاملة فى انتقاء الألفاظ ووزن المقاليم التى تتألف منها عقائده المتذبذبة . وكان موضوع تفكيره يلاحقه فى نومه ويشفق بآله ، وكانت الأحلام المفككة التى يحلم بها الامبراطور تعتبر كآنها رؤى سماوية . ولقد تقبل فى رخصا وسرور لقب أسقف الأساقفة ، خلعه عليه رجال الكنيسة الذين نسوا مصلحة الطبقة التى ينتمون اليها أرضاء لشهواتهم وأهوائهم . أما فكرة تحقيق وحدة مذهبية التى افهته الى عقد مجالس دينية كثيرة فى المال وإيداليا والليريكوم وآسبا ، فقد أخفقت المرة بعد الأخرى ، وكان السبب فى ذلك طليته وانقسام أتباع اريوس ومقاومة الكاثوليك ، ومن ثم فقد عقد المزم ، كمشاورة أخيرة حاسمة ، علم أصدر مراسيم امبراطورية بعقد مجلس عام . غير أن الزلزال المدمر الذى

أصاب نيقوميديا ، وصعوبة العثور على مكان ملائم ، وربما أضيفت إلى ذلك دوافع سياسية ، كل أولئك أحدث تغييرا في مرسوم دعوة المجلس إلى الانعقاد ، فصدر الأمر إلى أساقفة الشرق بالاجتماع في سلوقيسا في إيزوريا Isauria ، بينما عقد أساقفة الغرب اجتماعهم في ريميني على شاطئ البحر الأدرياتي ، وبدلا من إيفاد مندوبين أو ثلاثة من كل ولاية صدر الأمر بذهاب هيئة الأساقفة بأجمعها ، وبعد أن استنفد المجلس الشرقي أربعة أيام في مناقشة حامية غير مجدية انفرط عقده دون الوصول إلى أية نتيجة حاسمة ، أما المجلس الغربي فقد امتد انعقاده سبعة شهور ، وصدرت التعليمات إلى الوالي البريتوري طوروس Taurus بالألا يسمح للأساقفة بالانصراف حتى تتفق كلمتهم جميعا على رأي واحد ، وتأييدا لجهوده في هذه المهمة منح من السلطة ما مكنه من نفى خبسة عشر أسقفا كانوا أشد الأساقفة عنادا وجموحا ، ووعد بأن يرقى إلى منصب القنصلية إذا حقق تلك المهمة العسيرة ، وفي نهاية الأمر تضافرت توصلات الوالي وتهديداته ، وسلطة الحاكم ، وسفسة الأسقف فالنز وزميله أوراسكيوس ومحنة البرد والجوع ، والتفكير المحزن في نفى لا يتسرب إليه أمل ، كل أولئك أرغم أساقفة روميني على الانطاق والقبول ، وتوجه مندوبو الشرق والغرب إلى حضرة الإمبراطور في قصر القسطنطينية ، وهناك كان من دواعي سرور الإمبراطور ومتعته أنه فرض على العالم عقيدة التشابه بين الآب والابن دون إشارة إلى أنهما من مادة واحدة ، غير أن هذا الفوز الذي أحرزه مذهب آريوس كان قد سبقه إيماد رجال الدين المنتمين إلى المذهب الصحيح الأرثوذكسي الذي استحال على الإمبراطور إرهابهم أو إفسادهم ، وكان تعذيب اثناسيوس العظيم تجديبا ظالما عقيما ، وصمة عار لطخت عهد قسطنطين .

أخلاق اثناسيوس ومغامراته

قلما نتاح لنا الفرصة ، في الحياة العملية أو في حياة التأمل ، أن نلاحظ الأثر الذي تحدثه قوة عقل واحد ، أو العقبات التي يتغلب عليها هذا العقل ، إذا ما انصرف في عزم لا ينثنى ولا يلين إلى السمع وراء تحقيق هدف واحد . وإن اسم اثناسيوس الخالد لا يمكن أن ينفصل أبدا عن مذهب التثليث الكاثوليكي الذي كرس لادفاع عنه كل لحظة من حياته وكل قدرة عقلية في كيانه . وبما أنه تعلم وتربى في أسرة الاسكندر فقد عارض في عنف وقوة سير هرطقة آريوس في أوائل عهدها ، وكان يشغل وظيفة أمين سر المطران العجوز ، ويمارس أعباءها الهامة ، وكان

حزبه ، ان يظهر طابع الرونة والتسامح الذى يتصف به زعيم عاقل
 حصيف . ولم ينج انتخاب اثناسيوس من اللوم على انه كان انتخباً
 شابه التهور وعدم التزام القواعد ، غير أن مسلكه الرقيق المذهب اكسبه
 محبة الشعب ورجال الدين سواء بسواء ، وكان اهل الاسكندرية يتلفنون
 على امتشاق الحمام دفعا عن راعيهم فصيح اللسان كريم الخلق .
 وكان فى محنته يجد سندا ، او على الأقل عزاء ، فى ولاء رجال الدين
 التابعين لأسقفيته . ومن ثم فقد تمسك اساقفة مصر المائة فى حماس
 لا يفتر ولا يهتز بقضية اثناسيوس . وكثيرا ما كان يقوم بزيارة الاقاليم
 التابعة له فى حاشية متواضعة توحى بالأنفة والكياسة معا ، يجوب بها
 البلاد من مصب النيل الى حدود اثيوبيا ، ويتحدث فى الفة مع أدنى
 طبقات الشعب ، ويلقى السلام فى تواضع ودعة على نساك الصمراء
 وقديسيها ولم يتجل سمو عبقرية اثناسيوس فى الاجتماعات الكنسية
 فحسب ، ولا بين أترابه ممن يشبهونه علما وخلقا فحسب ، بل انه كان
 يبدى فى مجالس الأمراء حزما مقرونا باللين والاحترام . وفى مختلف
 تقلبات حظه ، يسرا أو عسرا ، لم يفقد لحظة واحدة ثقة اصدقائه او حسن
 تقدير أعدائه .

ولقد قاوم هذا الأسقف ايان شبابه الامبراطور العظيم قسطنطين
 الذى طالما عبر عن رغبته فى أن يعاد اريوس الى حظيرة الكاثوليكية ،
 واحترم الامبراطور هذا العزم الذى لا يلين من جانب اثناسيوس ، وربما
 تجاوز عنه ، أما أعضاء الفريق الذى كان يعتبر اثناسيوس الد أعدائه
 فقد اضطروا الى كتمان كراهيتهم وصمموا على اعداد هجوم غير
 مباشر . ومن ثم فقد روجوا حوله الاشاعات ونثروا الشكوك . ومسوره
 ماغية ظالما عاتيا متكبرا ، واتهموه فى جراته بأنه خرق الاتفاقي الذى
 عقده مجمع نيقيا مع المنشقين من أتباع ميلانيوس Milonius ، وكان
 اثناسيوس قد اعترض فى صراحة على ذلك الصلح الشاذن . واعتقد
 الامبراطور أن اثناسيوس قد أساء استغلال سلطته الكنسية والمدنية
 لكى يضلهد أبناء تلك الطوائف المكروهة ، وأنه قد حذر كاس القربان
 المقدس فى إحدى كنائسهم بمريوط ، وبذلك انتهك قدسية تلك الكنيسة .
 وأنه جلد أو سجن ستة من أساقفتهم ، وأنه قتل أو على الأقل شوه
 أسقفا سايما اسمه ارسينيوس Arsinus دون رحمة أو شفقة .
 وأحال قسطنطين هذه الاتهامات التى لطخت بألف اثناد روس وأثرت
 فى حياته الى أخيه دلتايوس الذى كان رقيقا يقيم فى انطاكية ، ثم انعقدت
 مجالس الكنائس فى قيصرية وصور ، وصدرت التعليمات الى اساقفة

الشرق بأن ينتظروا قضية اثناسيوس قبل تدشين كنيسة القيامة الجديدة في اورشليم . وكان الأسقف اثناسيوس يدرك أنه برىء ولكنه كان يحس أيضا أن روح الحق التي أملت الاتهام هي نفسها التي سوف توجه المحاكمة وتنطق بالحكم عليه . ومن ثم فقد أوجت حكمته أن ينيذ محكمة تتألف من خصومه وتجاهل أمر الحضور الذي أصدره اليه مجمع قيصرية . وبعد مماطلة مأكرة طويلة خضع للأوامر القاطعة التي أصدرها الامبراطور وهدد فيها بأن يعاقبه على عصيانه الاجرامى اذا رفض الحضور امام مجلس صور . وقبل أن يرسل اثناسيوس من الاسكندرية على رأس خمسين أسقفا مصريا ، كان قد توصل في حرص الى ضمان تحالف اتباع ميليتيوس ، وأخفى بين حاشيته الأسقف أرسينيوس ، ضحيته الموهومة وصديقه السرى . ولقد ادار يرسوبوس أسقف قيصرية مناقشات مجلس صور في كثير من الانفعال وقليل من الدهاء مما لم يكن متوقعا من علمه وخبرته . وكرر أعضاء حزبه اتهامات لاثناسيوس بالقتل والطغيان ، وشجعهم على الضجيج والصراخ ما كان يبدو على وجه اثناسيوس من علاثم الضبر . على حين أنه كان ينتظر اللحظة الحاسمة ليظهر أرسينيوس حيا لم يمسه سوء ، في وسط الاجتماع ، اما الاتهامات الأخرى فلم تكن في طبيعتها من النوع الذي يتبل مثل هذه الردود الواضحة المتتعة ، ومع ذلك فقد استطاع كبير الأساقفة أن يثبت أن القرية التي اتهم بأنه حطم فيها كأس القريان المقدس كانت خلوا من أية كنيسة أو مذبح أو أية كأس للقريان ، اما اتباع آريوس الذين كانوا غيما بينهم قد قرروا ادانة عدوهم وحددوا الحكم عليه ، فقد حاولوا رغم كل هذا اخفاء ظلمهم باصطفاع شكليات قانونية : فعين المجلس لجنة أسقفية مؤلفة من ستة مندوبين لجمع الأدلة من موطن الجريمة نفسه . وهذا الاجراء الذي عارضه ستة من الأساقفة المصريين معارضة قوية كان غائبة لمشاهد جديدة من العنف . الزور والبهتان .

وبعد عودة المندوبين من الاسكندرية أصدرت اغلبية المجلس حكما على أسقف مصر بالتجريد والنفي . ثم أرسل القرار الى الامبراطور والكنيسة الكاثوليكية بعد أن صيغ في لفة تتم عن القسوة والحق وروح الانتقام ، وفور ذلك عاود الأساقفة مظهر البعة والتقى الذي يتناسب مع حجم القدس الى ضريح السيد المسيح .

غير أن هذا الظلم الذي أوقعه القضاة الدينيون باثناسيوس لم يلق منه استكانة وخضوعا ، بل انه لم يبق في المدينة كلها انتظارا لمسيره .

أباء الكنيسة في مجمع نيقيا يرفبون في دهشة وإجلال ما كان يتحلى به
الشعاس الشاب من فضائل نامية . ويحدث أحيانا ، اذا ما لاح خطر
عام ، أن يتجاوز عن شرط السن أو سمو الرتبة ، ولهذا فانه لم تنصرم
فترة خمسة شهور على رجوع الشماس اثناسيوس من نيقيا حتى منح كرسى
كبير أساقفة مصر . وقد شغل ذلك المنصب الرفيع أكثر من ستة وأربعين
عاما ، وقضى فترة إدارته الطويلة هذه في صراع دائم ضد مذهب أريوس .
ولقد طرد اثناسيوس من هذا المنصب خمس مرات ، وقضى عشرين عاما
منفى أو هاريا لاجئا . ولقد شهدت كل ولاية تقريبا من ولايات الإمبراطورية
الرومانية ، واحدة بعد الأخرى ، بما كان يتحلى به من فضائل وبما كان
يعانيه من الآم في سبيل قضية « الطبيعة الواحدة » التي كان يعتبرها شغله
الشاغل ولذته الوحيدة ، ويرى فيها واجبا لا بد من أدائه ومجدا يتوج
به حياته . ووسط عواصف الاضطهاد التي تعرض لها أسقف الاسكندرية
كان دائما وصبرا على العمل والجهاد ، زاهدا في الشهرة ، مستهينا
بأمنه وسلامته ، ورغم أن تفكيره كان مشوبا بالتعصب إلا أنه أظهر سموا
في الأخلاق والقدرات كان كفيلا بأن يؤهله لحكم مملكة عظيمة ، أكثر
بكثير من أبناء قسطنطين ذوى الأخلاق المنحلة . وكان عليه أقل عبقا واتساعا
من علم يوسوبوس أسقف قيسرية . أما عصاحته الفجة فلا يمكن مقارنتها
بالخطابة المصقولة التي اشتهر بها جريجورى أسقف بازل Gregory
of Basil . ولكن كلما كان يطلب من أسقف مصر هذا أن يبرر آراءه
أو سلوكه ، فقد كان أسلوبه المرتجل ، سواء في الحديث أو في الكتابة ،
أسلوبا واضحا قويا مقنعا ، وكان في المدرسة الأرثوذكسية موضع إجلال
دائم كأستاذ اللاهوت المسيحي ، وكان المقول عنه أنه يتقن علمين دينيين
أقل تلاؤما مع الطابع الأسقفى - الفقه القانوني وعلم الغيب ، وثمة
تكهنات صادقة عن أحداث المستقبل ، كان ينسبها العقلاء غير المتحيزين
الى خبرة اثناسيوس وسلامة حكمه على الأمور ، على حين كان أصدقائه
ينسبون لها الى الإلهام السماوى ، ويعزوها أداؤها الى الدحس
الجهنمى .

ولما كان اثناسيوس منشغلا بصورة مستمرة بتحييزات وأهواء كل
طائفة من طوائف الناس ، من الراهب الى الإمبراطور ، فإن معرفته
الطبيعية البشرية كانت أول دراساته وأهمها . وكان في مقدوره أيضا أن
يدرك الى أى مدى يستطيع أن يصدر أمرا جريئا ، ومتى يتحتم عليه أن
يلجأ الى لباقة الإجماع ، وإلى أى حد يستطيع مجابهة القوة ، ومتى
ينبغي عليه أن ينسحب من الكفاح ، وبينما كان يواجه تحذيرات
الكنيسة وتهديداتها ضد الهرطقة والتمرد ، كان في مقدوره ، وهو وسبط

فقد عقد العزم على القيام بتجربة جريئة خطيرة لكي يرى ما اذا كان صوت الحق لا يستطيع طرق اذان العرش الامبراطوري . وقبل ان يصدر الحكم النهائي في صور اعتلى الاسقف الجسور ظهر سفينة كانت على أهبة الانبحار الى المدينة الامبراطورية . ولم يحاول اثناسيوس ان يلتبس مقابلة الامبراطور مقابلة رسمية خوفا من ان يقابل التماسه بالرفض او المزاوغة ، ولكنه أخفى نيا وصوله ، وراقب لحظة عودة الامبراطور من قرية مجاورة ، وتقدم في جرة نحو مليكه الغاضب حين كان يمر على ظهر جواد في الشارع الرئيسي لمدينة القسطنطينية . وقد اثار ظهوره المفاجيء هذا دهشة الامبراطور وسخطه ، وصدر الامر الى الحراس بابعاد ذلك الرجل اللجوج الملح في طلبه ، الا ان جلالة اراديا لمصادف الحاجة هذا تطلب على سخط الامبراطور واستيائه ، واخذ الامبراطور المشايخ الفطريس بشجاعة وفصاحة الاسقف الذي جاء يلتبس عدالته ويوقظ ضميره . واصغى قسطنطين الى شكوى اثناسيوس بانتباه مشبع بروح الانصاف بل وبروح الرحمة ، ثم استدعى أعضاء مجلس صور لكي يبرروا ما قاموا به من اجراءات . ولولا ان فريق يوسوبوس ضخم الذنوب الذي اقترفه الاسقف بتوجيه اتهام مكرر اليه بأنه ارتكب جرما لا يمكن العفو عنه - وهو أنه وضع خطة لاعتراض وتعريق اسطول القمح السكندري الذي يمد العاصمة الجديدة بالغذاء ، لولا انه فعل ذلك لانكشف خبئه وارتبكت خطئه الماكرة (١) . وقد اقتنع الامبراطور بأنه اذا أبعد عن الديار المصرية زعيمها الشعبي ضمن بذلك أمنها وسلمها ، ولكنه رفض أن يشغل كرسي الاسقفية برجل آخر ، وبعد تردد طويل اصدر اثناسيوس حكما يقسم بالفيرة ، وهو الابداد ، وابى له النفي المشين . ورحل اثناسيوس الى ولاية الغال حيث قضى ما يقرب من ثمانية وعشرين شهرا ضيفا كريما في ممية والى تريف Treves . ثم مات الامبراطور وتغيرت بذلك صورة الشؤون العامة ، وفي خضم التساهل الذي اقترن بهجاء العهد الجديد أعيد الاسقف الى بلاده بمرسوم كريم اصدره قسطنطين الأصغر الذي عبر عن شعوره ببراءة ضيقه المبجل وفضله .

(١) يسمون يونانيون Eunapius مثلا عجيبا يدل على قسوة قسطنطين وسرعة تصديقه لما يقال ، في مناسبة مماثلة . ذلك أن الفيلسوف السوري سوباتر Sopater كان يحظى بصداقة الامبراطور ، واثار بذلك سخط ايلافيوس ، والوالى البيروتى . وحدث أن اسطول القمح تأخر في طريقه لعدم هبوب الرياح الجنوبية ، فاستاء لذلك أهل القسطنطينية ، وأمر الامبراطور بقطع رأس سوباتر بتهمة انه قيد الرياح بقوة سحره . ويضيف سويدان Suidas أن قسطنطين أراد أن يثبت بهذا الحكم انه نذ خرافة الكفار نذبا عظيما . .

غير أن موت ذلك الأمير عرض أثناسيوس للاضطهاد مرة ثانية ، وسرعان ما أنجس قسطنطين ، جاكم الشرق ، الى حزب يوسويوس وتواطأ معه سرا . ثم اجتمع في أنطاكية تسعون أسقفا من ألباقية تلك الطائفة أو ذلك الحزب تحت ستار الإدعاء يتدشين الكاتدرائية . وهناك صاغوا عقيدة مبهمه تصطبغ صبغة خفيفة بلون مذهب اشباه الأريوسيين Semi-Arianism ، ووضعوا خمسا وعشرين قاعدة دينية ما تزال تسيير عليها عقيدة اليونان الأرثوذكس . وتقرر ، فى شيء من مظهر العدالة ، أن الأسقف الذى يصدر مجلس كنسى أمرا يفصله ، يجب ألا يباشر مهامه الأسقفية مرة ثانية الا اذا براه حكم صادر من مجلس كنسى آخر . وطبق القانون فى الحال على قضية أثناسيوس ، وحكم مجلس أنطاكية ، أو قل أكد الحكم بتجريدته من رتبة الدينية : ثم عين أسقفا غريبا اسمه جريجورى على كرسى الأسقفية ، وصدر الأمر الى فيلاجريوس وإلى مصر بأن يؤيد الأسقف الجديد بما للولاية من سلطات مدنية وعسكرية . وعندها شعر أثناسيوس بالظلم الذى حاق به من جراء مؤامرة الأساقفة الآسيويين ، رحل عن الاسكندرية وقضى ثلاث سنوات منفيا يعيش فى كنف أعقاب الفاتيكان المقدسة . وهناك ثابر على دراسة اللغة اللاتينية ، واستطاع بذلك أن يفاوض رجال الدين الغربيين ، كما تمكن بشئ من الاطراء والملق المهذب من أن يؤثر فى الحبر الأعظم المتشامخ « يوليوس » ويوجه تفكيره ، ثم استماله الى وضع ظلامته موضع اهتمام خاص من الكرسى البابوى وانتهى الأمر الى أن مجلسا يتألف من خمسين أسقفا من أسقفية ايطاليا أعلن على الملأ براءته بالاجماع . وبعد ثلاث سنوات استدعى الامبراطور قونستانز Constans الأسقف أثناسيوس للتوجه الى بلاط ميلان . ورغم انغماس الامبراطور فى ملذاته غير المشروعة فإنه كان لا يزال يجهر باحترامه للعقيدة الأرثوذكسية الصحيحة . واستخدم تأثير المال لتأييد قضية الحق والعدالة ، ونصح وزراء قونستانز مليكهم بأن يعقد جمعية كنسية تمثل الكنيسة الكاثوليكية . وبناء على ذلك تقابل أربعة وتسعون أسقفا من الغرب وستة وسبعون من الشرق فى مدينة سريكا (صوفيا) الواقعة على حدود الامبراطوريتين والداخلية فى أراضي الامبراطور حامى أثناسيوس . وسرعان ما انحطت مناقشاتهم الى مستوى المهادنات العدوانية ، هانسحب الآسيويون ، خوفا على سلامة اشخامهم ، الى مدينة فيليبى فى تراقيا ، وصبت الجامع الدينية المتنافسة غضبها الروحانى بعضها على البعض الآخر ، ورعى كل فريق منها الفريق الآخر ، بدافع من الورع والتقوى . بأنه عدو الرب الصحيح . ثم أعلنوا قراراتهم ،

بعد التصديق عليها ، كل مجمع في ولايته ، أما اثناسيوس الذي كان
يمتدح في الغرب في مصاف القديسين وكان موضع التبرير والاحترام ،
فقد أصبح موضع كراهية الشرق ، وشهر به كرجل مجرم وقد أظهر مجلس
سردىكا (صوفيا) أول أعراض التناحر والاتشاق بين الكنائس اليونانية
والكنائس اللاتينية التي كان عامل الانفصال بينها خلافا عرضيا من حيث
المذهب ، وفارقا دائيا من حيث اللغة .

وخلال فترة نفى اثناسيوس الثانية في الغرب كثيرا ما كان يسمع
له بالمثل أمام حضرة الامبراطور ، في كابوا ولويدى وميلان وغيرهما
ويبادوا واكوليا وتريف ، وجمت العبادة أن يحضر هذه المقابلات أسقف
البرشية كما أن رئيس الديوان كان يقف أمام سائر الغرفة المقدسة ،
ومن ثم كان في مقدور هذين الشاهدين الجليلين أن يشهدا باعتدال
اثناسيوس اعتدالا ثبت عليه ولم يجد عنه ؛ ومما لا شك فيه أن الحكمة
كانت تقتضى أن يتوخى اثناسيوس لهجة الاعتدال والإجلال التي تلائم
مركزه كأسقف وكواحد من الرعية . وفي هذه الاجتماعات التي كان
يعقدها جامل الغرب وكانت تصورها اللفة ، كان اثناسيوس يأسف لخطأ
قسطنطيوس ، ولكنه كان يهاجم في جرأة كل ما اقترفه خصيانه
واساقفته الأريوسيون ، ويرثى معنة الكنيسة الكاثوليكية والخطر
وعظمته . ولقد أعلن الامبراطور عزمه على استخدام جيش أوربا
المحدث بها ، ويحفظ قونستانز على أن يحدو حدو أبيه في حماسته
وإبوالها لنصرة القضية الأرثوذكسية الصحيحة ، وأرسل إلى أخيه
قسطنطيوس رسالة وجيزة حاسمة شكر له فيها أنه إذا لم يوافق على
إعادة اثناسيوس ، فإنه هو نفسه ستوف يحضر على رأس جيش واسيطول
ليجلس رئيس الأساقفة على كرسي الاسكندرية . وقد بادر قسطنطيوس
إلى قبول طلب أخيه ، وتفضل امبراطور الشرق بتحقيق المبلغ مع مجرد من
رعيته كان قد ألحق به الأذى ، وبذلك حال دون اشتعال حرب دينية
بين شقيتين ، كان نشوبها أمرا عظيما يجافي الطبيعة ، وأنهظر
اثناسيوس في عزة نفس كريمة حتى تسلم من الامبراطور ثلاث رسائل
متوالية تفيض بالقوى التأكيدات بأنه سوف يكون في حماه وموضع
رعايته وتقديره . ودعا الامبراطور في هذه الرسائل إلى الرجوع إلى
كرسي أسقفية ، وأضاف إلى تلك الدعوة احتياطا مذكرا بأنه كلف وزراءه
بضمان صدق نواياه . وقد دلل الامبراطور على حسن نواياه هذه
بصورة أكثر علنية بأن أصدر أوامره إلى مصر بأن تستدعي كل أنصار
اثناسيوس ، وتعيد لهم حقوقهم وامتيازاتهم ، وتعلن براعتهم ، وتحو
من السجلات العامة تلك الاجراءات غير المشروعة التي دونت فيها حين

كان حزب يوسوبوس هو سيد الموقف . بعد أن منح الأسقف اثناسيوس كل أنواع الترضية والضمان التي تتطلبها العدالة ، بل وتقتضيها الكياسة ، بدأ رحلاته البطيئة الى مصر مارا بتراقيا وآسيا وسوريا ، وقد تميزت رحلاته هذه بما أبداه أساقفة الشرق من خضوع مهين آثار احتقاره لهم دون أن يخدع بصيرته النافذة . وفي مدينة أنطاكية قابل الامبراطور قسطنطين ، وتقبل في حزم متواضع مجاملات مولاه واعتراضاته ، وتهرب من اقتراح الامبراطور الذي طلب فيه بأن يسمح لاتباع أريوس بكنيسة واحدة في الاسكندرية بأن طلب أن يسمح لاتباعه هو في مدائن الامبراطورية الأخرى بالمعاملة نفسها ، وهو مطلب بدا عادلا ومعتمدا من رئيس أساقفة مستقل الرأي لا يحايى ولا ينحاز . ودخل اثناسيوس عاصمته في موكب المنتصرين ، وسط مظاهر ترحيب أهل الاسكندرية الذين ازدادوا تعلقا به بعد غيبته واضطهاده ، ثم مارس سلطته بقوة وصلابة فازدادت رسوخا وثباتا ، وذاعت شهرته من اثيوبيا الى بريداني في طول العالم المسيحي وعرضه .

غير أن التابع الذي أجبر مليكه على المראה والتظاهر لا يمكن أن يتوقع منه تسامحا مخلصا دائما ، ومرعان ما حل المصير المحزن بالامبراطور قونستانتز ، محرم اثناسيوس بذلك من ظهور قوى كريم . ثم نشبت بين قاتل قونستانتز وبين شقيق الامبراطور الوحيد الذي بقي على قيد الحياة حرب أهلية كانت بلاء شغل الامبراطورية أكثر من ثلاث سنوات ، ولكنها اتاحت للكنيسة الكاثوليكية فترة راحة وأصبح الفريقان المتنازعان راغبين في كسب صداقة الأسقف اثناسيوس الذي يستطيع بقوة سلطانه الشخصي أن يقرر القرارات المثقلة التي تصدرها ولاية لها أهميتها ، واستقبل اثناسيوس سفراء الملأيسة الذي قتل قونستانتز ، واتهم من جراء ذلك فيما بعد بأنه كان على اتصال سرى به . غير أن الامبراطور قسطنطيوس أكد مرارا لأبيه الروحي اثناسيوس ، أجل الآباء وأقربهم الى قلبه ، بأنه رغم الاشاعات الخبيثة الحقودة التي كان يروجها أعداؤهما المشتركون ، فإنه قد ورث عن أخيه الراحل عواطفه نحو اثناسيوس كما ورث عرشه . وكان حريا بعرفان الجميل والعاطفة الانسانية أن يدفع أسقف مصر الى الرثاء للمصير المحزن الذي حل بالامبراطور قونستانتز قبل أوامه وأن يستقطع جرم قاتله ماجنتيوس Magnentius غير أنه كان يدرك في جلاله أن مخاوف قسطنطيوس هي ضمانه الوحيد ، ومن ثم فقد رأى أن يخفف من حرارة صلاته من أجل نجاح القضية العادلة . ولم تعد محاولة القضاء على اثناسيوس وقفا على فئة قليلة من الأساقفة الغاضبين المتعصبين

الذين يضررون له الحقد والكراهية، بل ان الملك قسطنطينوس نفسه اعترف
امرا طالما كبته وأخفاه وهو الانتقام لما لحق بشخصه من أذى . وفي
أول شتاء قضاه في مدينة آرل بعد انتصاره ، أخذ يستغل الوقت في
منامضة عدو يضر له في نفسه كراهية أشد وأقسى من تلك التي كان
يضرها لطاغية اقليم الغال الذي تهره .

مجالس آرل وميلان

لو ان الامبراطور كان قد أوحى له مزاجه وهواه ان يقرر قتل
أعظم مواطني الجمهورية مقاما وأنبيلهم خلقا ، لما تردد وزراؤه من انصار
العنف السافر أو الظلم المستقر في تنفيذ هذا القرار المتسم بالقسوة .
غير ان الصعوبة التي لقيها الامبراطور في اداة عقاب الأسقف المحبوب ،
بالاضافة الى ما توخاه من حرص وتأخير في هذا الشأن ، كل أولئك
أظهر للمالِم ان حقوق الكنيسة قد أحييت في الحكومة الرومانية شعورا
بالنظام والحرية . ولم يكن قد صدر صراحة ما يلغى الحكم الذي أصدره
مجمع صور وأيدته أغلبية كبيرة من الأساقفة الشرقيين ، وبما ان
أثناسيوس ، بمقتضى ذلك الحكم الصادر من اخوته الأساقفة ، كان قد
أنزل من مقامه الأسقفى ، فان أى إجراء تال لذلك الحكم كان يمكن
اعتباره إجراء شاذا ، بل واجراميا . غير ان نكرى التأييد القوي
الشمال الذي لقيه أسقف مصر من اتصاله بالكنيسة الغربية أجبرت
قسطنطينوس على ايقاف تنفيذ الحكم حتى يحصل على موافقة الأساقفة
اللاتين . وأنصرم عامان في مفاوضات كنسية ، ونوقشت القضية الهامة
القائمة بين الامبراطور وأحد افراد رعيته مناقشة جدية في مجمع آرل
أولا ، ثم في مجمع ميلان الكبير الذي انتظم ثلاثمائة من الأساقفة .
وتداعت نزاهة هؤلاء الأساقفة شيئا فشيئا أمام حجج انصار أريوس ،
ومهارة الخصيان ، ووسائل الاغراء والضغط التي مارسها الامبراطور
الذي روى ظما انتقامه على حساب كرامته ، والنصح عن أهوائه
الشخصية بالطريقة التي اتبعها في التأثير على أحاسيس رجال الدين .
ولجا كذلك ، وبصورة ناجحة ، الى أسلوب الانسداد ، وهو أشد أمراض
الحرية الدستورية فعالية ، فمرض الهدايا والمصانعات وصنوف التكريم
ثمنا للمحصل على أصوات الأساقفة (*) ، وصانف هذا المعرض قبولاً من

(*) ورد ذكر الهدايا والولائم وأساليب التكريم التي أغرت كثيرا من الأساقفة ، في
أقوال أولئك الأساقفة الذين أبى عليهم كبرياؤهم او نقاؤهم ان يقبلوها ، وكانت كلها
موضع سخطهم وازدراءهم . يقول هيلاري أسقف بواتييه : « اننا نقاتل قسطنطين عدو
المسيح ، الذي يداعب البيطون بدلا من ان يلهب الظهور بالمسيح » .

الأساقفة ، وصورت اداة اسقف الاسكندرية بطريقة مأكرة على انها الاجراء الوحيد الذى يمكنه ان يرد الى الكنيسة الكاثوليكية سلامها ووحدها . غير ان اثناسيوس لم يعظم الاصدقاء الذين كانوا على استعداد للموتوف الى جانبه والى جانب قضيتهم ، فثبتوا فى المناقشات العامة وفى احاديثهم الخاصة مع الامبراطور على الالتزام الأبدى بالدين والعدالة تحفزهم على ذلك روح الرجولة والشهامة التى قلل من خطورتها ما كانوا ينصفون به من طابع القدسية . واعلنوا انه لا الأمل فى حظوة الامبراطور ولا الخوف من غضبه يمكن ان يرغمهم على الاشتراك فى اداة أخ غائب برىء له احترامه . واكدوا على أساس ظاهر من الحق ان القرارات العقيمة غير المشروعة التى أصدرها مجلس صور قد أصبحت فى حكم المفاة ضمنا بفعل المراسيم الامبراطورية ، وبحكم اعادة كبير الأساقفة الى كرسي الاسكندرية بصورة مشرفة ، وبسكوت أكثر اعدائه صخباً او بانكارهم ائوالهم السابقة عنه . وقالوا ان أساقفة مصر جميعاً قد شهدوا ببراعته ، كما أقرتها مجالس روماً وسريكا (سوفيا) بمقتضى حكم الكنيسة اللاتينية غير المتحيزة . ثم أبدوا أسفهم لندبة موقف اثناسيوس الذى يطلب اليه الآن ان يدحض اشنع الاتهامات التى لا أساس لها بعد ان تمتع سنوات عدة بمركزه ويسمعه وبما كان يبدية مليكة من ثقة فيه . ولقد كانت لغتهم منمقة مهذبة ، ومسلكهم شريفاً ، غير ان الصراع كان طويلاً عنيداً ، وكان من شأنه ان تركزت أبصار الامبراطورية كلها على اسقف واحد . ومن ثم فان مختلف الأحزاب الكنسية كانت على استعداد للتضحية بالحق والعدالة فى سبيل هدف أكثر أهمية لهم . وهو الدفاع عن ذلك النصير الجريء لعقيدة نيقيا بالنسبة لبعض الأحزاب او التخلص منه بالنسبة للبعض الآخر . ولقد رأى أتباع آريوس انه من الحكمة ان يخفوا احساسهم وخطابهم الهشيب فى لغة ملتبسة ، غير ان أساقفة المذهب الصحيح الأرثوذكسى ، المزودين بحظوة الشعب وقرارات صادرة من مجلس عام . أصرروا فى كل مناسبة ، وخاصة فى ميلان ، على أن خصومهم يجب عليهم ان يظهروا انفسهم من شبهة الهرطقة قبل ان يجرؤوا على اتهام مسلك اثناسيوس العظيم .

غير ان حموت الحق (اذا كان الحق فى جانب اثناسيوس فعلاً) اسكنته اصوات صاخبة رفعتها أكثرية مغرضة او أكثرية باعت ضمائرهما . ولم تنفض مجالس اربيل وميلان حتى صدر حكم الكنيسة الغربية الكنيسة الشرقية على السواء بادانة اسقف الاسكندرية وعزله من منصبه . وللب الى الأساقفة الذين كلوا فى صفوف المعارضة ان يقرروا

الحكم ، وأن يتحدوا في مشاركة دينية مع زعماء الفريق المضاد الذين كانوا موضع شبهتهم . أما الأساقفة الذين لم يحضروا الاجتماع فقد حمل اليهم رسل الدولة اقرارات للتوقيع عليها بالموافقة ، أما الأساقفة الذين رفضوا التنازل عن آرائهم الخاصة والخضوع للقرارات الحكيمة الملزمة التي اعلنتها مجالس آرل وميلان ، فقد اصدر الامبراطور أمرا بنفيهم مباشرة ، متظاهراً في ذلك بأنه إنما ينفذ قرارات الكنيسة الكاثوليكية . وفحص بالنكر ، من بين أولئك الأساقفة الذين تزعموا الفريق الشريف التمسك بعقيدته ، والذين صدر الأمر بنفيهم ، ليبريوس أسقف روما ، أوزيوس أسقف قرطبة ، بولينوس أسقف تريف ، ديونيسيوس أسقف ميلان ، يوزيليوس أسقف فرسيفل ، . لوستيفر أسقف كاليستاري وهيلاري أسقف بواتييه . وكان الأسقف ليبريوس يتمتع بمكانة رفيعة . ويتحكم في عاصمة الامبراطورية ، كما أن الأسقف الميجل أوريوس كان يتصف بميزات شخصية وخبرة طويلة ، وأصبح موضع الاحترام والتبجيل بفضل ما كان له من حظوة لدى قسطنطين العظيم ، وبحكم كونه واضح عقيدة نيقيا وراعيها . كل تلك الصفات وضعت هذين الأسقفين على رأس الكنيسة اللاتينية ، ومن ثم فقد كان من المحتمل أن يسير جمهور الأساقفة وراءهما اذا استسلما أو اذا قاوما . غير أن المصاولات المتكررة التي بذلها الامبراطور لافراء أو ارباب أسقف روما وأسقف قرطبة ظلت عديمة الجدوى فترة من الوقت . فأعلن الأسقف الأسباني أنه على استعداد لتحمل الالام تحت حكم قسطنطيوس كما تحملها منذ ستين عاماً تحت حكم جده ماكسيميان . أما أسقف روما فقد أكد في حضرة مليكه براءة اثناسيوس وأصر على أنه من ناحية الشخصية حر فيما يرى ويعتقد . وعندما نفى الى مدينة برية Beraea في تراقيا ، أعاد الى الامبراطور مبلغا كبيرا من المال كان قد منحه اياه لتيسير دخله ، وطفن بلاط ميلان بملاحظة ابداءها قائلان ان الامبراطور وخصيانه قد يكونون في حاجة الى ذلك الذهب للانفاق على جنودهم واساقفتهم . غير أن مصرن الأسر والنفي التي قاساما ليبريوس وأوزيوس أرغمتها في نهاية الأمر على التخلي عن عزمها وتصميمها . فاشترى أسقف روما عريته بشئى صنوف الامتثال المشين ، ثم كفر عن ذنبه بعد ذلك بما يناسب الذنب من ندم وتوبة . أما أسقف قرطبة ، وهو الشيخ المتداعى ، فقد استخدم معه الامبراطور وسائل الاغراء والعنف حتى اكراهه على التوقيع بالموافقة ، وكان قد ومن الغظم منه وانتأب العجز قدراته ومواهبه تحت وطأة مائة من سنوات العمر . وكان هذا الفوز الدنيء الذي ناله أتباع أريوس حافزا لبعض أنساء

المذهب الصحيح على أن يعاملوا شخص هذا الرجل اليائس الهم ، أو قل ما كان له من ذكرى ، معاملة قاسية وحشية ، رغم أن المسيحية نفسها كانت مدينة لخدماته الجليلة السابقة أثقل الدين .

ولقد أضفى استسلام لييريوس وأوزيوس بريقا أكثر توهجا على صمود أولئك الأساقفة الذين ظلوا متمسكين في ولاء لا يلين ولا يتزعزع بقضية أثناسيوس وبالحقيقة الدينية . وكان الحقد الخبيث الذي ملا صدور أعدائهم قد أوحى اليهم أن يحرموهم من تبادل النصح والسلوى ، فباعدوا بين هؤلاء الأساقفة اللامعين بنفيهم إلى ولايات نائية ، وحرصوا على أن ينتقوا لهم أكثر بقاع الامبراطورية وحشة وأقلها ترحيبا بالوافدين (*) . غير أن الأساقفة سرعان ما وجدوا أن صحراوات ليبيا وأشد بقاع كابادوكيا وحشة كانت أكثر حذبا عليهم من المقام في تلك المدن التي يستطيع أن يشيع فيها أسقف من أتباع أريوس ، دون قيد أو حد ، ذلك الحقد المحموم الذي تنفثه الكراهية الدينية . وكان يشد من عزائمهم شعورهم بصواب مسلكهم وباستقلالهم في الرأي . وتأيدت زيارات أنصارهم ، وما كان يبعثه اليهم هؤلاء الأنصار من خطابات وصدقات سخية . وكذلك كانوا يستمدون الحزاء من تلك الراحة التي سرعان ما أحسوا بها عندما وضعت لهم الانقسامات الداخلية القائمة بين أمداء عقيدة نيقيا . ولقد كان الامبراطور قسطنطين حاد المزاج شديد التقلب ، وسرعان ما كان يستشيط غضبا إذا لمس اتفه انحراف عن مبدأ العقيدة المسيحية المرسوم في خياله ، وقد دفعه هذا الخلق إلى صب نقبته ، وبالحماس نفسه ، على القائلين بأن الآب والابن من مادة واحدة ، وعلى المؤيدين لفكرة أنهما من مادة مماثلة . وعلى أولئك الذين ينكرون التشابه بينهما . وكان يحدث أن يجتمع في منفى واحد ثلاثة أساقفة ، جردوا من رقبتهم وأبعدوا إلى المنفى لاعتناقهم هذه الآراء المتضادة ، فكان الواحد منهم ، حسبما تولى عليه طابعه وخلقه ، يرثى أو يتعسف به خصومه من حماس أعمى ، أو يندد بذلك الحماس الذي سبب لهم جميعا من الآلام إذ ذاك ما لا يمكن أن تعرضهم عنها أية سمادة مستقبلية .

(*) لقي قساوسة الغرب قباعا لم صحراوات بلاد العرب أو حلبة . والى البقاع الوحشة بجبال طوروس ، وإلى قفار القليم غريجيا التي كانت في ذلك الزمان « البراري » . (أنصار مونتالوس) . وعندما عهد أيتيوس Anitus الخارج على الدين مملكة طيبة أكثر مما ينبغي في مويسوميتيا في قيايقيا ، نصح أكاسيوس بتغيير مقامه إلى ثالادا . وهو القليم يقطنه المتوحشون والسوداء الأويثة والحروب .

وكان القصد من نفي الأساقفة أصحاب المذهب الصحيح والحق العار بهم أن يكون هذا كله خطوات تمهيدية للقضاء على أثناسيوس نفسه . وكانت قد انقضت ستة وعشرون شهرا جاهد فيها البلاط سراً وبأخبت أنواع الحيل لخلعه من الاسكندرية وحرمانه من المنحة التي كان ينفق منها يسقاء على الشعب . وعندما تخلت الكنيسة اللاتينية عن اسقف مصر ووافقت على ايتساده ، وأصبح من جراء ذلك محروما من أى سند أجنبي أرسل قسطنطين اثنين من أبناء أسرته بتكليف شديداً أن يعلنوا الأمر بنفيه ويقوموا بتنفيذه . ولما كان فريق الأساقفة كله قد أقر علانية مدالة الحكم على أثناسيوس فإن الدافع الوحيد الذى منع قسطنطيوس من اعطاء رساله تفويضا كتابيا بتنفيذ الحكم هو شكه فيما سوف يحدث وشعوره بالخطر الذى قد تتعرض له المدينة الثانية فى الامبراطورية وأكثر ولاياتها خصبا اذا ما أصر الشعب على الدفاع بقوة السلاح من براة أبيهم الرومى . وهذا المصير الزائد من جانب الامبراطور أتاح لأثناسيوس فرصة الادماء بأنه فى كثير من الاحترام يشك فى صحة هذا الأمر الصادر بنفيه والذى يتنافى مع عدالة مليكه الكريم ومع تصريحاته السابقة . أما السلطات المدنية فى مصر فقد وجدت نفسها عاجزة عن القيام بمهمة حث أو ارغام الاسقف على التخلي عن كرسى الاسقفية ، واضطرت الى عقد معاهدة مع زعماء شعب الاسكندرية اتفق فيها على ايقاف كل الاجراءات والأعمال العدوانية حتى تتأكد لهم مشيئة الامبراطور فى وضوح أكثر . وقد انخدع الكاثوليك بهذا الاعتدال الظاهرى وأحسنوا بأمان لم يكن الا امانا زائفا مميتا ، على حين كانت جيوش مصر العليا وليبيا قد صدرت اليها الأوامر سرا بالتقدم على عجل لمعاصرة أو قتل لمباغثة عاصمة درجت على التمرد والعصيان واشتملت بالحماس الدينى . وكان موقع الاسكندرية ، بين البحر وبحيرة مريوط ، مائلا سهل على الجيوش ان تقترب منها وتدخل قلب المدينة قبل أن تتخذ أية خطوات لخلق الأبواب أو احتلال مراكز الدفاع الهامة . وفى منتصف اليوم الثالث والعشرين بعد توقيع المعاهدة شن سيريانوس أمير مصر ، على رأس خمسة الاف من الجنود المسلحين المتأهبين للقتال ، هجوما فجائيا على كنيسة سانت ثيودور حيث كان الاسقف مع فريق من القساوسة والشعب يؤدون صلواتهم الليلية . وتداعت أبواب المعبد المقدس تحت وطأة الهجوم الذى اقترن بكل فظائع الشغب واراقة الدماء . وبقيت جثث القتلى وبقايا الأسلحة الحربية الى اليوم التالى سليلا قاطعا فى حوزة الكاثوليك ، ومن ثم فان مغامرة سيريانوس يمكن أن تعتبر غارة ناجحة أكثر منها غزوة كاملة . وقد

انتهكت حرمة الكنائس الأخرى في المدينة باعتداءات مماثلة ، وتعرضت مدينة الاسكندرية خلال أربعة شهور على الأقل الى اهانات جيش اياحي خليف يلقى تشجيعا من رجال الدين المنتمين الى حزب معاد ، وقتل في هذه الأحداث كثير من المؤمنين الذين يمكن أن يكونوا اهلا لاسم الشهداء على فرض أن موتهم لم يحدث نتيجة اثاره ولم ينتقم له ، وعومل الاساقفة والقساوسة بقسوة مهينة ، وجردت العذارى الاطهار من ملابسهن ، ثم ضربن بالمسياط واعتدى عليهن ، وكذلك نهب منازل المواطنين الاثرياء . وتحت ستار من الحماس الديني ، أشبع الجنون شهواتهم وأطماعهم وكراهيتهم الشخصية دون أن ينالوا عقابا ، بل قل أن فعالمهم هذه كانت موضع الاستحسان ، أما وثنيو الاسكندرية ، الذين كانوا أن ذاك يكونون فريقا كبيرا متذمرا ، فقد أمكن اغراؤهم في سهولة التخلي عن اسقف كانوا يخطونه ويقدرونه ، وكان أمل الحصول على بعض المزايا الخاصة ، والخوف من أن تنالهم العقوبات العامة المفروضة على الثوار ، من العوامل التي دفعتهم الى الوعد بتأييد خليفة اثناسيوس المنتظر المشهور ، جورج من أهل كبادوكيا .

وبعد أن رسم المختص بمعرفة مجلس ديني من اتباع اريوس ، اقامه على كرسي الاسقفية الوالى سيباستيان الذي كان قد عين اميرا على مصر لتنفيذ تلك الخطة الهامة ، وفي استحواذ هذا الطاغية لجورج على السلطة ، وفي استخدامه اياها ، لم يابه بقوانين الدين ومبادئ العدالة والانسانية ، فتكررت في أكثر من تسعين مدينة اسقفية من مدائن مصر نفس مناظر القضايع وأعمال العنف التي شهدتها العاصمة . ولقد شجع النجاح قسطنطينوس على تحبيذ مسلك وزرائه والموافقة عليه ففي رسالة علنية عاطفية بعث تهنئته على انقاذ الاسكندرية من طاغية شعبي كان يخدع ناخبه العميان بسحر فصاحته ، وأطلب في مدح ما يتحلى به الأب الاقدس والاسقف المنتخب جورج من فضائل وتقوى ، وأعرب عن امله ، بوصف كونه راعي المدينة وسيدها ، في أن يبرز شهرة الاسكندر نفسه ، وأعلن في حزم وجدية عن عزمه الاكيد على أن يتتبع بالسيف والذار اولئك المتمردين من انصار اثناسيوس الذي يعتبر قتلصه من العدالة اعترافا منه بذنبه ، وهربا من الموت المشين الذي كان يستحقه .

وفي الحق أن اثناسيوس نجا من اشد الاخطار احداقا به ، ولا شك في ان مغامراته تسترعى انتباهنا وتستحق اهتمامنا . ففي تلك الليلة المشهودة التي هاجمت فيها قوات سيرانثيوس كنيسة سانت ثيونس ،

كان رئيس الأساقفة جالسا على عرشه ينتظر مجيء الموت في وقار هادئ جرىء . وعندما قطعت صبيحات الغضب وصرخات الفرع حبل الصلاة العامة ، وارتفعت فرائض المصلين ، طلب منهم أن يعبروا عن ثباتهم الديني بانشاد أحد مزامير داود الذي يذكر فيه انتصار رب اسرائيل على طاغية مصر الضال المتشامخ . وأخيرا حطم العدو الأبواب وأطلق سيلاً من السهام على الناس ، واندفع الجنود بسيوفهم المسلحة نحو الهيكل المقدس ، وكانت المصابيح المقدسة المشتعلة حول المذبح تعكس بريق دروعهم الخفيف . وظل اثناسيوس يرفض لجاجة الرهبان والقساوسة المحيطين به الذين ألحوا عليه في ورج وتقوى أن يفادر المكان ، وأبى عليه نبلة أن يترك مكانه الأسقى حتي يخرج آخر فرد من المصلين . ثم وافته فرصة الظلام والجلية ومكنته من الانسحاب . ومع أن الجمهور المرتبك المضطرب كاد يدهمه ويغطي عليه ، ورغم أنه وقع على الأرض وفقد الحس والحركة ، إلا أنه استرد شجاعته التي لا تقهر وتصل من الجنود الذين كانوا يجدون في البحث عنه ، والذين كان اتباع آريوس قد أوحوا اليهم بأن راسي اثناسيوس سوف تكون أهب هدية الى الامبراطور ، ومنذ تلك اللحظة غاب أسقف مصر عن عيون أعدائه ، وظل أكثر من ست سنوات يحف به ظلام دامس لا تنفذ اليه الأبصار .

ولقد كان عدو اثناسيوس الحقود الذي لا يرحم يتمتع بسلطان ملا ربوع العالم الروماني كله ، وخاول الملك الحائق الغاضب في رسالة عاجلة ملحة يعث بها الى أمراء اثيوبيا المسيحيين ، أن يطردوا اثناسيوس من أكثر بقاع الأرض بعدا وعزلة ، واستخدم الأمراء والولاة والتقريبونات جيوشا بأكملها لطاردة الأسقف الهارب . ولقد أثارت المراسيم الامبراطورية يقظة السلطات المدنية والعسكرية ، كما خصصت مكافآت سخية وعد بها أي رجل يجيء بالأسقف حيا أو ميتا ، وأندركل من يجرؤ على حماية هذا العدو العام بأشد العقوبات . غير أن صغراوات طيبة كانت إذ ذاك موطننا لقوم من المتعصبين يغيثون على الفظرة ولكنهم يتصفقون بسهولة الانقياد ، وهؤلاء كانوا يفضلون أوامر الراهب اثناسيوس على قوانين مديكهم . واستقبل العديدون من اتباع أنظون وباخوم ذلك الأسقف الهارب كأبيهم الروحي وأعجبهم فيه تمسكه بأشد نظمهم ضرامة في صبر وتواضع ، وتلقفوا كل كلمة نطق بها كأنها حكمة ملهمة أصيلة تنسكب من فمه ، واقنعوا أنفسهم بأن صناعاتهم وصومتهم وسهزهم كانت كلها أقل شأنا من الحماس الذي تظهره والأخطار التي واجهوها في الدفاع عن الحق

والبراءة . وكانت الأديرة المصرية قائمة فى أماكن موحشة مقفرة ، على رؤوس الجبال أو فى جزد نهر النيل ، وكان البوق المقدس فى تابن Tabenne هو الاشارة المعروفة لجمع عدة آلاف من الرهبان الأقوياء نوى العزم ، الذين كان أكثرهم من فلاحى الريف الجاور . وعندما كانت الأماكن النائية التى يلجئون إليها تتعرض لغزو قوة عسكرية يستحيل مقاومتها ، كانوا يقسمون رقابهم فى سكون وصمت الى الجلال ، مظهرين بذلك طابعهم القومى وهو أن التعذيب لا يستطيع أن ينتزع من مصرى أى اعتراف بسر عقد العزم على عدم افشائه. ولقد كرسوا حياتهم فى غيرة وحماس لصلامة أسقف الاسكندرية الذى غاب عن الأنظار وسط جمهور منظم متحد ، وعندما كان يقترب الخطر ، كانت أيديهم الرحيمة تبادر الى إبعاده من مخبأ الى مخبأ حتى وصل الى الصحراوات النائية التى انتشر حولها من الخرافات المخيفة ما أدخل فى روع الناس أنها موطن للشياطين والوحوش الكاسرة . وظل اثناسيوس فى عزله هذه حتى انتهت حياة قسطنطيوس ، ولقد قضى أغلب هذه الفترة فى صحبة الرهبان الذين خدموه باخلاص كحرأس ورسل وأمناء سر . ولكنه كان تواقا الى توطيد صلة وثيقة بالفريق الكاثوليكي ، وقد أغراه هذا ، كلما كانت تخف حدة المطاردة ونشاطها ، على الخروج من الصحراء والذهاب الى الاسكندرية حيث كان يلجأ الى فطنة أصدقائه وأنصاره ويأتينهم على شخصه . وأن مغامراته المختلفة لتكون فى مجموعها موضوعا لقصة رومانسية شائقة ، فقد حدث له ذات مرة أن اختبأ فى خزان ماء جاف ، وما كاد يقادره حتى وشت به امرأة من العبيد ، وفى مرة أخرى اختبأ فى ماوى أكثر غرابية ، وكان ذلك الماوى منزل عذراء لم تتجاوز العشرين من عمرها ، وتشتهر فى المدينة كلها بجعلها الرائع الفتان . ولقد قصت هذه الفتاة قصتها بعد سنوات من حدوثها ، فقالت انها فوجئت عند منتصف الليل بظهور الأسقف فى رداء عادى فضفاض ، ثم تقدم نحوها فى خطوات سريعة ، متوسلا إليها أن تأويه تحت سقف دارها المضياف ، وقال لها انه جاء ينشد حمايتها بناء على رؤيا سماوية تجلت له وقبلت العذراء النقية أن تحافظ على الرهينة المقدسة التى عهد الى حكمتها وشجاعتها برعايتها وحمايتها . ولم تبيع بهذا السر لأحد ثم قادت اثناسيوس على الفور الى حرم مخدعها الأمين وتولت السهر على سلامته بحذب الصديق الوفى ومثابرة الخادم الأمين . وطالما كان الخطر قائما كانت تزوده بالكتب والمؤن ، وتفصل قديمه ، وتدبر رسائله ، وحرصت فى براعة ومهارة على أن تخفى عن عيون الشبهات تلك الصلة الأليفة المنعزلة القائمة

بين قديس تتطلب أخلاقه أظهر عفة واتقاها . وبين فتاة قد تثير مفاتها
 أخطر العواطف (*) . وخلال السنوات الست التي قضاها اثناسيوس في
 الاضطهاد والنفى ، لم ينقطع عن زيارته لرفيقته الحسناء المخلصة .
 وبينما على ما أعلنه رسميا من أنه شاهد اجتماعي ريمنى وسلوقيا ، لا بد
 لنا من أن نعتقد أنه كان موجودا بطريقة سرية في مكان انعقادهما وزمانه ،
 كما أن المزاي التي كان يحصل عليها من التفاوض الشخصي مع أصدقائه ،
 ومن مراقبة وتشجيع الانقسامات القائمة بين أعدائه ، كل أولئك كان يبرر
 في نظر رجل سياسي حصيف كذلك الأسقف مثل تلك المعارضة الجريئة
 الخطيرة ، هذا بالإضافة إلى أن الاسكندرية كانت تتصلب ملاحيا وتجاريا
 مع كل ميناء من موانئ البحر الأبيض . ولقد شن الأسقف الجريء من
 أعماق مخبئه المنيع حربا هجومية مستمرة ضد الإمبراطور حامي
 الأريوسيين . وكان يتحين الأوقات المناسبة فيكتب آراء يوجهها في
 مهارة ويطلبها الناس في شغف ، وأسهمت كتاباته هذه في توحيد
 الفريق الأرثوذكسي وتقويته . وكان في اعتذاراته العلنية التي يوجهها إلى
 الإمبراطور يصطنع بين الحين والحين مديحا لروح الاعتدال ، بينما
 كان في الوقت عينه يوجه إليه سرا عبارات القدح الريرة ويرمي بأنه
 حاكم خبيث ضعيف ، وبأنه جلد أسرته ، وطاغية الجمهورية وعدو
 الكنيسة المسيحية . أما الملك المنتصر ، الذي عاقب جالوس Gallus
 على تهوره ، وقمع ثورة سلفانوس ، وانتزع التاج من رأس فترانيو ،
 وقهر في ميدان القتال جحافل باجنثيوس ، هذا الملك بعينه تلقى من يد
 خفية ، هي يد الأسقف اثناسيوس ، جرحا بليفا لم يستطع البرء منه
 أو الانتقام له . وكان ابن تسطنطين هذا أول ملك مسيحي يحس بقوة
 تلك المبادئ التي استطاعت ، في سبيل القضية الدينية ، أن تقارم أشد
 واقسى أعمال السلطة المدنية .

الطابع العام للطوائف المسيحية

إن القصة البسيطة التي تقص أنباء تلك الانقسامات الداخلية التي
 أزعجت سلام الكنيسة والحقت الممار بانتصارها ، إنما تؤكد وجهة نظر
 مؤرخ وثقوى ، وتبرر شكوى أسقف مسيحي ميجل . فقد افتنع أميانوس

(*) تحدث بالانديوس . المؤلف الأميل لهذه الرواية ، مع تلك الفتاة بعد أن
 تقدم بها العمر . وكانت لا تزال تذكر في غبطة وسرور تلك العلاقة الصالحة الشريفة .
 وليس في مقدوري أن أجيز كياسة بارونيوس وفاليسيوس وتلمونث وغيرهم ممن لا يؤمنون
 بصحة هذه الرواية التي يرون أنها لا تتناسب مع جدية التاريخ الكنسي .

Ammianus ، نتيجة تجريته الخاصة ، بأن العداوة للقائبة بين المسيحيين كانت أشد من هياج الوحوش الكاسرة ضد الانسان . أما جريجورى نازيانز فانه يرثى فى أشد ما يكون من الحزن لما آلت اليه حل المملكة المسيحية ، ملكة الله ، التى مزقتها الخلافات وحولتها الى الى صورة للفوضى ، ولعاصفة تهب فى الظلام ، بل وجعلتها صورة من الجحيم نفسه . أما كتاب ذلك العصر الذين اتصفوا بالقسوة والتجيز ، فقد كان كل فريق منهم ينسب الفضائل كلها الى نفسه ، ويلقى الذنب كله على اكتاف خصومه ، ومن ثم فقد صوروا الوضع على انه معركة بين الملائكة من جانب والشياطين من الجانب الآخر . غير اننا اذا ترخيينا التفكير الهادئ السليم ، فلا بد لنا من أن نأبى مثل هذا التصوير الذى يمثل هريفا بأنه الرذيلة الكاملة الخالصة ، ويمثل الفريق الآخر بأنه القدسية البحتة التى لا تشوبها شائبة ، وأن ننسب الى كل من الطائفتين المتخاصمتين قسما متساويا ، أو على الأقل قسما غير متميز، من الخير والشر معا . هاتان الطائفتان هما اللتان اتخذت واجيدة منهما لنفسها اسم الأرثوذكس « أصحاب المذهب الصحيح » ، وأطلقت على الأخرى اسم الهرطقة . ولقد تعلمت الطائفتان ديانة واحدة ونشأنا فى مجتمع مدنى واحد ، وكانت آمالهما ومخاوفهما فى حاضر الزمان ، أو فى حياة مستقبلية ، متوازنة بنسبة واحدة . وقد يكون الخطأ فى هذا الجانب أو ذاك خطأ يريئنا ، والإيمان مخلصا صائبا ، أما التصرف فقد يكون فاسدا أو صالحا . وكانت عواطفهما تتدفق نحو أهداف متماثلة ، كما أن كلا منهما كانت تسعى استغلال حظوة تنالها لدى الإباط أو لدى الشعب . ولم تستطع الآراء الميثاقية التى كثر يمتنعها أنباع اثناسيوس وأنباع آريوس أن تؤثر فى طائفتهم الخلقى ، وكانوا جميعا وعلى السواء مدفوعين بروح عدم التسامح التى استخلصوها تعنتا من تفسيرهم للمبادئ البسيطة الواردة فى الإنجيل المقدس .

وثمة كاتب حديث، رأى فى ثقة صائبة أن يصف التاريخ الذى كتبه هو بصفتين كريمتين هما أنه تاريخ سيليوس وفلسفى ، هذا للكاتب يهتم الفيلسوف مونتسكيو Montesquieu بالحرص والتهيب لأنه لم يضم الى أسباب اضطلال الامبراطورية قانونا أصدره قسطنطين والنسب بمقتضاه الغاء تاما ممارسة العادة الوثنية ، وقرتب على ذلك أن أصبح جزء كبير من رعاياه مسروما من الكهنة والمعابد ومن أية ديانة علنية . ومن الواضح أن حماس هذا المؤرخ الفيلسوف لحقوق الانسان قد أغراه على قبول الأقوال البهيمية التى قالها بعض رجال الكنيسة ونسبوا فيها الى بطلمح المحبوب قسطنطين أنه شن حملة اضطهاد عامة ، معتبرين

ذلك ميزة فيه . ونحن لا نريد أن نؤكد هذا القانون المزعوم الذى ، لو أنه صدر فعلا ، لتألق واحتل مكان الصدارة بين القوانين الامبراطورية فلا تخطئه الأبصار . وبدلا من ذلك ففى مقدورنا دون خوف من الزلل أن نرجع الى الرسالة الأصلية التى وجهها قسطنطين الى أتباع الديانة القديمة فى وقت لم يعد يخفى فيه تحوله هو الى الديانة المسيحية الجديدة أو يخشى من كانوا ينافسونه على العرش . وهو فى هذه الرسالة يمثي رعايا الامبراطور ويحضهم بالقوى العبارات على احتذاء مثل ملكهم ، ولكنه يعلن أن أولئك الذين لا يزالون يرفضون فتح ابصارهم لأضواء السماء فى مقدورهم أن يتمتعوا بمعابدهم وبآلهتهم الموهومة . ومما ينقض القول بأن الاحتفالات الوثنية قد أوقفت أن الامبراطور نفسه كان من الحكمة بحيث يقرر أن مبدأ تسامحه واعتداله انما يقوم على أساس انه يأخذ فى اعتباره قوة العادة التى لا يمكن التغلب عليها ، وقوة التحيز وقوة الخرافات . ولم ينقض الامبراطور البارح قدسية وعده ، ولم يثر مضاريف الوثنيين ، ولكنه اتخذ خطوات ببطئ حريصة لتقويض صرح تعدد الآلهة الذى كان صرحا مزعزا متداعيا . أما القليل من أعمال العنف التى كان يلجأ إليها بين الحين والآخر ، فمع أن الباعث الخفى عليها كان حماسه المسيحى ، إلا أنه كان يصطنع لها أرق الألوان ، ويدعى أنه مدفوع فى ذلك بدافع العدالة والصلاح العام . وفى الوقت الذى كان قسطنطين يعمل فيه على تقويض أسس الديانة القديمة ، كان يتظاهر بأنه يهذب من مساوئها . ولقد سار على نهج أقل أجداده وأكثرهم حكمة فادان أساليب الكهانة السرية الخيالة ، وترعب أصحابها بأشيد العقوبات وأقسامها لأنها أساليب كانت تثير فى الساجدين على أحوالهم الخاصة أملا كاذبة ، وتغريهم فى بعض الأحيان على ارتكاب الجرائم والموبقات . ثم أخرسى أصوات الكهان وفرض عليهم صمتا مشينا واتهمهم علانية بالغش والزيف ، وكذلك الغي وجود الكهنة المخبئين الذين كانوا يقيمون فى وادى النيل وأجند على عاتقه القيام بأعمال رقيق روماني . فأجند أمره بهدم عبدة مجايد فينيقية كانت تمارس فيها كل ضروب الدجارة فى وضج النهار تكريما لربة المعشق والجميل ، فينوس . وفى الحق أن المدينة الامبراطورية القسطنطينية - قايما إلى جبر كبير على حساب المعابد الفخمة التى كانت قائمة فى بلاد اليونان وفى آسيا ، وزينت بما أخذ منها من أسلاب . . . وقد صودرت الممتلكات المقدسة ، ونقلت تماثيل الآلهة والأبطال يون احترام أو تجميل ، على مرأى من شعب كان لا يعتبرها موضع عبادة واجلال بل موضع طراقة واستطلاع ، وأعيد الذهب والفضة الى التداول ، واستقبل الحكام والامافقة والخصيان

هذه الفرصة السعيدة المواتية في ارضاء حماسهم وطمعهم واستيلائهم .
غير ان عمليات النهب هذه اقتصر على جزء صغير من العالم الرومانى
ودرجت الولايات زمنا طويلا منذ ذلك الوقت على تحل مثل هذا السلب
وتدنيس الأماكن المقدسة من جانب حكام الرومان وولايتهم الذين كانوا
بمعينين عن شبهة القيام بأى عمل لتقويض الديانة القديمة .

وجرى ابناء قسطنطين على منوال والدهم بمزيد من الحماس وفى
حرص أقل ، فازدادت (*) أعمال النهب والظلم دون أن يستشعر مرتكبوها
خجلا ولقى مسلك المسيحيين غير المشروع كل تقاض وتسامح بينما كان
كل شك فى مسلك الوثنيين يفسر ضد مصلحتهم ، وأصبح هدم المعابد
من الأحداث السعيدة التى يحتفل بها فى عهد كونسطنز وقسطنطيرس .
وقد صدر قانون باسم قسطنطيرس لم يجعل هناك حاجة لاصدار أى حظر
جديد فى المستقبل . يقول القانون :

« فلنكن مشيئتنا أن تغلق المعابد على الفور فى كل الأماكن وفى
جميع المدن ، وتوضع تحت حراسة مشددة ، حتى لا يستطيع أحد أن
يرتكب أية إساءة . ولنكن مشيئتنا أيضا أن يمتنع كل رعايانا عن تقديم
الذبائح ، وإذا اقترف أى انسان مثل هذا الذنب ضربنا رقبته بسيف
نقمنا ، وصودرت أملاكه بعد قتله لصالح المنفعة العامة . وإذا أهمل
حكام الولايات معاقبة المجرمين حل بهم القصاص نفسه » .

غير أن هناك من أقوى الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن هذا المرسوم
الرهيب كتب دون أن ينشر، أو نشر دون أن ينفذ . فالدليل الحقائق والأثار
الرخامية والنحاسية التى ما تزال قائمة انها تثبت أن الوثنيين ظلوا
يعارسون عباداتهم طوال عهد ابناء قسطنطين . وفى الشرق وفى الغرب
على السواء ، وفى المدن كما فى الريف ظل عدد كبير من المعابد موضع
الاحترام ، أو ترك كما هو على الأقل نون أن يمسسه سوء ، واستمرت
الجماهير المتمردة تمتنع بترف تقديم الذبائح ، وبالاحتفالات والمواكب
بإذن من الحكومة المدنية ، أو بالتقاضى من جانبها . وبعد انقضاء أربع
سنوات على هذا المرسوم القموى المزعوم قام قسطنطيرس بزيارة معابد

(*) يتحدث امبالوس عن أن بعض خصيان البلاط كانوا يذهبون ضمن المعابد ،
ويقول ليبانيوس أن الامبراطور كان يتخلص من المعبد كما لو كان كلبا أو حصانا أو
عبدا أو كائنا ذمى . غير أن الفيلسوف التقي يصرح على القول بأن هؤلاء الاخضاء
الأرجاس قلما كان النجاح والتوفيق نصيبهم .

روما ، وكان مسلكه الرقيق المهذب موضع اطراء وثناء في خطاب القساة
 وثنى ووصفه بأنه مثل جدير بأن يحتضيه الملوك من بعده . يقول سيمachus
 Symmachus : « لقد أقر ذلك الامبراطور بحق العذارى الحقيقات في
 البقاء مكرمات مصونات ، وأنعم على قبلاء روما بالقاب التكريم الكهنوتية ،
 ومنح المال المعتاد منحة للوفاء بنفقات الشعائر والذبائح العامة ، ورغم
 أنه قد اعتنق ديننا مختلفا ، إلا أنه لم يحاول أبدا أن يهرم الامبراطورية
 من العبادة القديمة المقدسة » . وظل السفائق يقدس ، بقرارات مهيبه
 ما كان الملوك البلاد من ذكرى « آلهة » بل ان قسطنطين نفسه أدرك
 اسمه بعد وفاته مع أولئك الآلهة الذين كان أثناء حياته يتبرأ منهم ويحقر
 من شأنهم . ولقد قبل سبعة من الأباطرة المسيحيين دون تردد لقب
 « الحبر الأعظم » وأعلامه وامتيازاته ، وهو لقب كان قد سنه الامبراطور
 « نوما » Numa . واتخذ لنفسه الامبراطور ارنستس ، وأصبح
 الأباطرة يمارسون سلطة مطلقة على الديانة التي تخلصوا عنها حقوق سلطتهم
 على الديانة التي اعتنقوها .

وأوقفت انقسامات المسيحية هلاك الوثنية (*) ودمارها ، وهون

(*) نظرا لاني استخدمت كلمتي « الوثنية » ، « الوثنيون » في كثير من المواضع ،
 فسوف أتبع الآن تطورات هاتين الكلمتين :

- ١ - كلمة Ilayn في اللهجة النورية المألوفة لدى الايطاليين ، تعني « نافورة » ، ويسمى
 الريفيون الذين يترددون على النافورة نفسها باسم Pagan Pagan .
- ٢ - وبانتشار استخدام كلمة Pagan (وثني) أصبحت هي وكلمة « ريفي »
 مترادفتين ، واكتسب القرويون البسطاء هذا الاسم الذي أصبح يعنى « فلاحين » في
 اللغات الأوربية الحديثة .
- ٣ - وبزيادة عدد رجال الحرب زيادة ملموسة ظهرت ضرورة استخدام كلمة تتصل بهذا
 الموضوع فدمغ كل الناس غير العاملين في خدمة الحاكم بصفة حقيرة هي صفة
 تعنيها كلمة Pagans .
- ٤ - كان المسيحيون جنود المسيح ، أما خصومهم الذين رفضوا تناول قربانه المقدس ،
 أو قسم التجديد بالمعمودية ، فإنهم يستحقون الاسم المجازي Pagan وقد أدخل
 هذا الاسم الذي يحمل معنى اللوم والتقريع منذ عهد فالنتينيان Valentinian
 (٣٦٥ بعد الميلاد) في القوانين الامبراطورية والكتابات اللاهوتية .
- ٥ - ثم ملأت المسيحية مدائن الامبراطورية ، وانكمشت الديانة القديمة إبان عهد
 برونثيوس في القرى المجهولة ، ورجعت كلمة Pagans (وثنيين) بمعناها
 الجديد الى أصلها البدائي .
- ٦ - ومعذ أن انتهت عبادة جوبيتر Jupiter وأسرته ، أصبح لقب « الوثنيون » يطلق
 تباعا على عبدة الأصنام والآلهة المتعددة في العالم القديم والعالم الجديد .
- ٧ - أطلق المسيحيون اللاتين هذه الكلمة ، دون اعتبار ، على أعدائهم المسلمين ، ودمغوا
 أتى للموحدين بالله بهذا التقريع الظالم الذي تحمله كلمة الوثنية .

الحكام والأساقفة من جريهم المقدسة ضد الكفسار لأن خطر الثورة الداخلية وما كان يقترب فيها كان خطرا مباشرا أكثر تهديدا وازعاجا لهم . ولقد كان من الممكن تبرير القضاء على العبادة الوثنية بمقتضى مبادئ التعصب القائمة ، غير أن الطوائف المتنازعة التى تبادلت السيطرة على البلاط الامبراطورى كانت تخطئ إبعاد أو اغصاب حزب قوى وإن كان حزبا متهاويا . وكانت الدوافع كلها تقف الى جانب المسيحية فى كفاحها ضد الوثنية - دوافع السلطة والمصلحة والتعقل ، ودوافع الاتجاهات الحديثة ، غير أن جيلين أو ثلاثة أجيال انقضت قبل أن تنتصر تلك الدوافع ويشعر بتأثيرها العالم أجمع . ولقد ظل أناس كثيرون يبجلون تلك الديانة التى استقرت تلك المدة الطويلة وإلى زمن متأخر فى الامبراطورية الرومانية ، رغم أنهم كانوا يتعلقون بالعرف القديم أكثر من تبليغهم بالتفكير النضر . وكانت امتيازات الدولة والجيش تمنح لكل رعايا قسطنطين وقد غلطىوس سواء بسواء ، كما أن قدرا كبيرا من العلم والثروة والبأس ظل يستخدم فى خدمة الوثنية . وكان شيوخ السناتو والفلاحون والشعراء والفلاسفة يستمدون خرافاتهم من مصادر مختلفة ، غير أنهم كانوا يلتقون جميعا فى معابد الآلهة مدفوعين بالولاء نفسه . وكان انتصارهم الممتزج بالازدراء والاحتقار مع أنهم طائفة مبعدة مضطهدة ، شيئا يثير حماسهم دون وعى منهم ، كما أن آمالهم قد انتعشت بفضل ثقتهم الأكيدة فى أن ولى عهد الامبراطورية وحاكمها المرتقب ، وهو بطل شاب شجاع انقذ بلاد الغال من أيدي البرابرة قد امتطى سرا دبانة أجداده .

انتهى الجزء الأول وبليه

الجزء الثانى

اقرأ في هذه السلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتداند رسل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ي ٠ رادونسكايا
نقطة مقابل نقطة	الدين مكسلى
الجغرافيا في مائة عام	ت ٠ و ٠ فريمان
الثقافة والمجتمع	رايموند وليامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر ج ٠ فوربس
الأرض الغامضة	ليسترديل راي
الرواية الانجليزية	والتر الن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس
آلهة مصر	فرائسوا دوماس
الانسان المصري على الشاشة	د ٠ قدرى حفى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	اولج فولكف
الهوية القومية في السينما العربية	هاشم النحاس
مجموعات النقود	ديفيد وليام ماكدرال
الموسيقى - تعبير لغوى - ومنطق	مزين الشوان
عصر الرواية - مقال في النوع الأدبي	د ٠ محسن جاسم الموسوي
ديلان توماس	اشراف س ٠ بى ٠ كوكس
الانسان ذلك الكائن الفريد	جون لويس
الرواية الحديثة	جول ويست
المسرح المصري المعاصر	د ٠ عبد المعطى شعراوى
على محمود طه	أنور المداوى
القوة النفسية للآهرام	يل شمول وأبنيت
فن الترجمة	د ٠ مصطفى خلوصى
تواستوى	الف ثى ماتلو
ستندال	فيكتور برومير

فيكتور هوجو	رسائل واحاديث من الملقى
فيرنز هيزنبرج	الجزء والكل محاورات في مضممار
سندى هوك	(الفيزياء الذرية)
ف . ح . انيسكوف	التراث القامض ماركس والماركسيون
هادى نعمان الهيتى	فن الادب الروائى عند تولستوى
هادى نعمية رحيم العزاوى	ادب الاطفال
د . فاضل احمد الطاشى	احمد حسن الزيات
جلال العشرى	اعلام العرب فى الكيمياء
هنرى باربوس	فكرة المسرح
السيد عليوة	النجيب
جاكوب برونوفسكى	صنع القرار السياسى
د . روجر ستروجان	التطور الحضارى للانسان
كاتى ثير	هل نستطيع تعليم الاخلاق للاطفال
ا . سينسر	تربية المواجن
د . ناعوم بيتروفيتش	الموتى وعالمهم فى مصر القديمة
جوزيف داهموس	التحلل والطب
د . لينوار تشامبرز رايت	سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى
د . جون شندلر	سياسة الولايات المتحدة الامريكية ازاء
بيير البير	مصر ١٩٠ - ١٩١٤
د . غريال وهبة	كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة
د . رمسيس عوض	الصحافة
د . محمد نعمان جلال	اثر الكوميديا الالهية لداقلى فى الفن
فرانكلين ل . باومر	التشكيلى
شمسوكت الربيعى	الادب الروسى قبل الثورة البلشفية
	وبعدها
	حركة عدم الانحياز فى عالم متغير
	الفكر الاوروبى الحديث (٤ ج)
	الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن
	العربى ١٨٨٥ - ١٩٨٥

رؤى روبرتسون .	الهيستوريين والايمنز
هاشم النحاس	نجيب محفوظ على الشاشة
دوركاس ماكلينتوك	صور افريقية
بيتر لورى	المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية
بوريس فيدروفيتش سيرجيف	وظائف الاعضاء من الالف الى الياء
ويليام بينز	الهندسة الوراثية
ديفيد الدوتون	تربية اسماك الزينة .
جمعها : جون و . بورر	الفلسفة وقضايا العصر (٢ ج)
وميلتون جولد پنجر	
ارنولد توينبي	الفكر التاريخي عند الاغريق
د . صالح رضا	قضايا وملاحق الفن التشكيلي
م . ه . كنج وآخرون	التفذية في البلدان النامية
جورج جاموف	بداية بلا نهاية
د . السيد طه ابو سديرة	الحرف والصناعات في مصر الاسلامية
	حوار حول النظامين الرئيسيين
جاليليو جاليليه	للكون
اريك موريس وآلان هو	الارهاب
سيريل الحريد	اختلافات
آرثر كيسستلر	القبيلة الثالثة عشرة
توماس ا . هاريس	التوافق النفسى
مجموعة من الباحثين	الدليل البيليوجرافى
روى ارمز	لغة الصورة
ناجى متشيو	الثورة الاصلاحية في اليابان
بول هاريسون	العالم الثالث غدا
ميخائيل البى ، جيمس لفلو	الاتقراض الكبير
فيكتور مورجان	تاريخ النقود
اعداد محمد كمال اسماعيل	التحليل والتوزيع الاوركسترالى
بيـرتون بورتر	الحياة الكريمة (٢ ج)

الفردوسى الطوسى	الشهامة (٢ ج)
محمد فؤاد كويريلى	قيام الدولة العثمانية
ادوارد ميرى	عن النقد السينمائى الأمريكى
اختيار / د. فيليب عطية	قرائيسم زرادشت
اعداد / موني پراخ وآخرون	السينما العربية
نادين جورديس وآخرون	دليل تنظيم المتاحف
آدامز فيليب	سقوط المطر وقصص اخرى
زيجمونت هينر	جماليات فن الاخراج
ستيفن اوزمنت	التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)
جوناثان ريلى سميت	الحملة الصليبية الاولى
ثونى بار	التمثيل للسينما والتليفزيون
بول كولنسر	العشائريون فى اوربا
موريس بير براير	صناع الخلود
الفريد ج. ٠ بتلر	الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ ج)
رودريجو فارتيجا	رحلات فارتيجا
فانس بكارد	الهم يصنعون البشر (٢ ج)
اختيار / د. رفيق الصديان	فى النقد السينمائى الفرنسى
بيتر نيكولز	السينما الخيالية
برتراند راسل	السلطة والفرد
بينسارد بودج	الأزهر فى الف عام
ريتشارد شاخ	رواد الفلسفة الحديثة
ناصر خسرو علوى	سفر نامه
نفتالى لويس	مصر الرومانية
جاك كرايس جونير	كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر
سيريت شيلر	الاتصال والهيمنة الثقافية
اختيار / صبرى الفضل	مختارات من الآداب الآسيوية
احمد محمد الشنوانى	كتب غيرت الفكر الانسانى (٥ ج)
اسحق عظيموف	الشموس المتفجرة
لوريتسو تود	مدخل الى علم اللغة

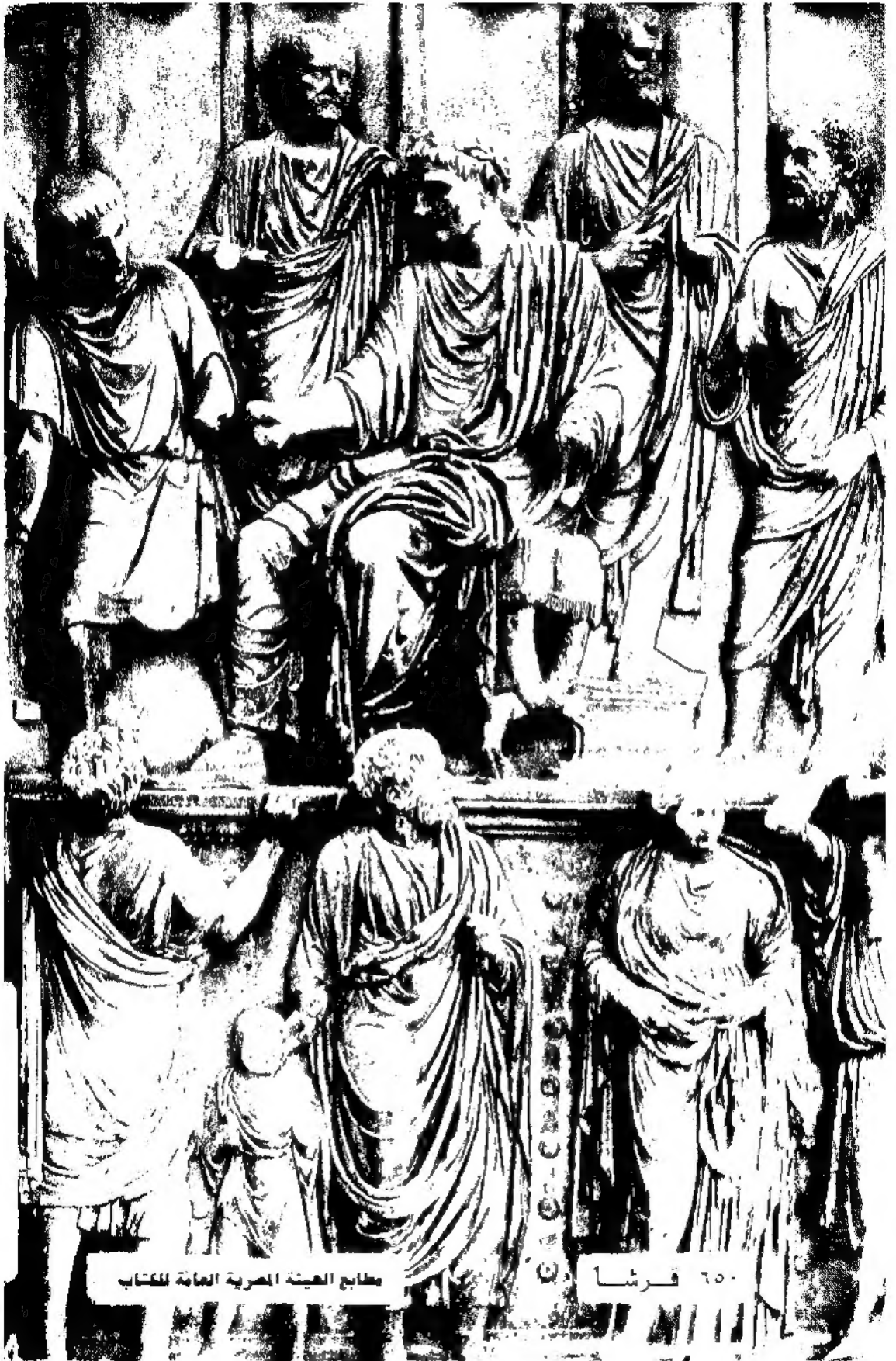
اعداد / سوريال عبد الملك	حديث النهر
د . ابرار كريم الله	من هم القتل
اعداد / جابر محمد الجزار	مستقرخت
ه . ج . و . ل . ز	معالم تاريخ الانسانية (٤ ج)
سستيفن رانسيمان	الحملات الصليبية
جوستاف جرونيساوم	حضارة الاسلام
ريتشارد بيرتون	رحلة بيرتون (٣ ج)
ادمز مئز	الطفيل (٢ ج)
ارنولد جزل	الحضارة الاسلامية
يادى اونيمود	افريقيا الطريق الآخر
فيليب عطية	السحر والعلم والدين
جلال عبد الفتاح	الكون ذلك المجهول
محمد زينهم	تكنولوجيا فن الزجاج
مارتن فان كريفك	حرب المستقبل
سوندارى	الفلسفة الجوهرية
فرانسيس ج . برجين	الاعلام التطبيقي
ج . كارفيل	تبسيط المفاهيم الهندسية
توماس ليبهارت	فن الماييم والبياتوميم
الفين توفلر	تحول السلطة (٢ ج)
ادوارد وبونو	التفكير المتجدد
كريستيان سالين	السيناريو في السينما الفرنسية
جوزيف . م . بوجز	فن الفرقة على الافلام
يسول وارد	خفايا نظام النجم الأمريكى
جورج سقايز	بين تولستوى ودستوفسكى (٢ ج)
ويليام ه . هاثيون	ما هي الجيولوجيا
جارى . ناش	الحممر والبيض والسمود
ستالين جين سولومون	انواع القيسلم الاميركى
عبد الرحمن الشيخ	رحلة الامير رودلف (٢ ج)
جوزيف نيسدهام	تاريخ العلم والحضارة في الصين

المراة الفرعوثية	كريستيان دديروش
نظرية التصوير	ليوناردو دافنشي
القريبة عن طريق الفن	ميريت ريد
معجم التكنولوجيا الحيوية	وليم بينز
البرمجة بلغة السي	روبرت لانسو
الكيمياء فى خدمة الانسان	رولاند جاكسون
مجممل تاريخ الادب المعاصر	ايفور ايفانس
نظرية الادب المعاصر	ديفيد بوشبندر
مشكلات القرن الحادى والعشرين	يوسف شرارة
كنوز الفراعنة	ت . ج . ه . جيميز
البرنامج النووى الاسرائيلى	د . ممدوح حامد عطية
بحثا عن عالم افضل	كارل بوبر
العلم واتفاق المستقبل	اسحق عظيموف
كوتنا المتعدد	ايفرى شاتزمان
الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا	نورمان كلارك

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٤٤٢٤/١٩٩٦

ISBN — 977 — 01 — 5058 — 4



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٦٥٠ قرشاً